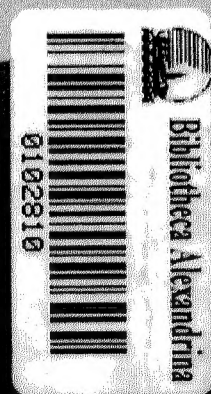


تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى

بقلم : ف. هايد
مراجعة وتقديم : عز الدين فوده



تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى

الجزء الأول

بقلم
د. هـ. هايد
W. HEYD

مراجعة وتقديم
د. عز الدين فوده
أستاذ كبرى المنظمات الدولية
بجامعة القاهرة

عربه عنه الترجمة الفرنسية
أحمد محمد رضا



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٥

تصميم الغلاف	الاخراج الفنى
سعد الدين الشريف	مراد نسيم

قَدِيم

للدكتور عز الدين فودة
أستاذ كرسى المنظمات الدولية بجامعة القاهرة

يحقّق ظهور هذا الكتاب ونشره فى اللغة العربية أمنية طالما ترددت فى خاطرى منذ سنوات الشباب ، حين بدأت فى جامعة القاهرة تدريس « النظم الدبلوماسية والقنصلية » كجزء متميز من أجزاء القانون الدولى العام ، وأفردت فى تدريس هذه النظم - جريا على ما يتطلبه الواجب ويقتضيه التأصيل فى البحث العلمى - فصولا فى الدبلوماسية الاسلامية ودبلوماسية البندقية ومطلع عصر النهضة الذى شاهد قيام العلاقات الدبلوماسية الدائمة والقنصليات المستقرة فى حوض البحر المتوسط وغرب أوروبا . فقد لفت نظرى وقتئذ الدكتور صلاح الدين المنجد أطل الله فى عمره الى مؤلف ف . هايد « تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى » . وباطلاعى على الكتاب شد انتباهى ما حفل به من وقائع وأحداث وتفاصيل تتبع تتبعا يقظا العلاقات الرسمية وغير الرسمية بين دول البحر المتوسط على شاطئيه الاسلامى والمسيحى ، فى الحقبة التاريخية التى تخللتها الحروب الصليبية فى الشرق الأدنى ، ما بين القرنين التاسع والرابع عشر الميلادى ، - وبالأهم ما تأسست عليه دراسة هذه العلاقات من بحوث معمقة وموثقة لكافة جوانبها الحضارية ، حتى شملت التاريخ والجغرافية والاقتصاد والتجارة والسياسة والثقافة والاجتماع . فحققت دراسة هذه البنية التحتية الشاملة تنظيرا غير مسبوق لمؤلف العلامة ف . هايد حول طبيعة هذه العلاقات بين الشرق الاسلامى وبين بلاد المسيحية فى أوروبا وآسيا الصغرى ، بالقدر الذى يعبر تعبيرا واضحا عن حقيقة التوازن الدولى القائم حينئذ بين دول البحر المتوسط ، وبما يشهد ، على خلاف ما اعتقده هنرى

بيرين - أن هذا البحر ظل دائما أبدا صلة ومعبرا بين الحضارتين ، بالرغم مما ألم به في فترات الحرب والحصار والمقاطعة والضعف والصراع .

ولعل أكثر ما أثار دهشتي وفضولي أني رأيت هذا الكتاب منقولاً في صفحات وصفحات بعدد من المؤلفات والرسائل العربية التي عزت الفضل لأصحابها دون هايد ، ففر عزمي على ضرورة ترجمة الكتاب ونشره باعتباره أثراً من آثار المعرفة والتحقيق المنهجي الحديث للتراث الثقافي ، بجانب قيمته التاريخية والحضارية ، اثباتاً لفضل العالم الباحث المتواضع الذي عكف سنين طويلة في خزائن المكتبة الملكية في شتوتجارت - حيث كان يعمل رئيساً لأمنائها - ينقب ويبحث ويدرس ويتعلم اللغات الحية والقديمة كالإغريقية واللاتينية والعربية والفارسية ، ويراسل غيره من العلماء والباحثين والكتاب ، وينشر أبحاثه في هذا الموضوع بمجلة « توبنجن » ، ثم يعيد تنقيحها وطبعها في طبعتين مزيديتين لهذا الكتاب باللغة الألمانية ، آخرها هي طبعة سنة ١٨٧٩ المنقولة إلى اللغة الفرنسية في طبعتين ، أولاهما سنة ١٨٨٥ ، وثانيتهما سنة ١٩٢٣ التي قام الأستاذ أحمد محمد رضا على نقلها بكل العناية والدقة والأمانة والوضوح إلى اللغة العربية ، كي يقدم لقراءها الصورة الصادقة للعمل الفريد الذي أقدم عليه المؤلف ، وادخر له كل وقته وجهده وحياته العلمية ، - إذ لم يؤثر عنه إلا هذا الكتاب وحده ، الذي كان خليقاً بأن يجعل من صاحبه متلاً يحتذى في صدق وأمانة الباحث العلمي الجاد ، حتى أورثه سمعة علمية ذاعت في الآفاق .

وقد سبق هايد إلى الكتابة في نفس الموضوع العلامة الفرنسي ج. ب. ديبينج Depping عضو الجمعية الملكية الفرنسية للدراسات القديمة في مؤلفه « تاريخ التجارة بين الشرق الأدنى وأوروبا » والمنشور بباريس سنة ١٨٣٠ ، - وهو مؤلف كما قال عنه هايد بحق في صدر مقدمته لكتابه « جدير بكل تقدير بالنسبة إلى عصر مؤلفه » . فهو لم يكن مثيلاً للمؤلف هايد في طابعه الموسوعي ، أو في خصائصه من حيث التنظيم والالام بجوانب الموضوع ، والعناية بالحواشي والاشارة إلى أوثق المصادر والمراجع الأصلية ، من خلال هذا

الحشد الزاخر من الوثائق والمحفوظات فى جنوة وبيزا وفلورنس وأمالفى ومرسيليا وبرشلونة والبندقية ، الى جانب قصص الرحالة وأصاب البريد العرب • والخرايط والمؤلفات الجغرافية والتاريخية ، والمراجع والكتب التجارية والإرشادية للملاحين والتجار ، حتى ليحسب المرء أن هايد قد جمع فأوفى ، ولكن فوق كل ذى علم عليم •

كان ف • هايد يسوق كل هذا الحشد الزاخر من الكتب والمراجع والوثائق بلغاتها المختلفة فى كتابه هذا ، لا باعتباره مؤرخا فحسب ، أو متقصيا لأخبار التجارة وصنوفها ودروب أصحابها دون غير ذلك ، وإنما كان عالما موسوعيا صاحب نظرة متفحصة أعمق وأدق ، ونزعة علمية نحو الشمول والاحاطة ، تقومان على بسط الحقائق وتحليل الوثائق ونقد الكتب والمراجع ، وإصدار الحكم على الأحداث التى غدت مادته العلمية ، حتى يستطيع أن يخلص الى بعض النتائج السياسية ، أو يترك الى القارىء ومن جاءوا من بعده من الباحثين والمؤلفين أن يجددوا السعى للوقوف على ما كان مقفلا فى خزائن الأسر فى أكناف العالم – واستخلاص المزيد من هذه النتائج •

وانه يمكن القول ان مؤلف ف • هايد الذى نحن فى صدد التقديم له ، وشرف التعريف به ، هو فى أضعف الفروض ليس مجرد كتاب فى تاريخ التجارة ، وإنما هو عمل موسوعى موثق ومفصل فى تاريخ الحضارة خلال حقبة من تاريخنا أصابها الغموض وأملت بها الشكوك أحيانا ، ونسجت حولها الافتراءات والأكاذيب أحيانا أخرى • بل ان أكثر ما يزيده هذا الكتاب أهمية ، ويعطيه قيمة أكبر ، هو نزاهة المؤلف وموضوعيته ، والتزامه ما أمكن الحياد المنزه عن التحيز والتملق وتزويق الباطل والبعد عن اخفاء الحقائق – الأمر الذى قد يعفيه من الوقوع فى بعض الأخطاء • فلا ننس أنه من كتاب العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ، حين لم تكن ثمة علاقات ثقافية وعلمية موصولة بين كتاب تلك الأمصار الأوروبية وبين كتاب أفذاذ أو أنداد لهم فى بلادنا العربية والإسلامية • فلا غرو ان يخلو لهم الجو فيما يكتبون أحيانا •

واذا كان لى أن أذكر للفضل أهله ، فلا أنس أننى حين فاتحت صديقى الراحل التساعر النابه صلاح عبد الصبور –

الرئيس الأسبق للهيئة العامة للكتاب - في ترجمة هذا الكتاب ، رأيت منه كل تشجيع وترحيب وإقدام على أن تتبنى الهيئة العامة للكتبات مهمة نشره ونقله الى اللغة العربية ، وأن يضطلع الأسناذ أحمد محمد وضيا بهذه الترجمة في أربعة أجزاء متوالية . وأنه اذا كانت الترجمة مهمة شاقة ، فهي أشق عنده المترجم الباحث المدقق ، بل كانت أشد مشقة في هذا الكتاب بمصطلحاته وحواشيه ووثائقه . ولكن المترجم - أطال الله في عمره - قد استطاع أن يكون عنده حسن الظن ، كما كان العهد به في كافة الأعمال الأدبية والعلمية العديدة التي قام على نقلها الى اللغة العربية ، والتي شاركته في مراجعة بعض منها على مدى عشرين سنة مضت ، حتى أنسبت الى صدق ترجمته ، واطمأنت نفسي الى حسن صياغته في اللغة العربية . والله ولي التوفيق ؟

القاهرة في أول يناير سنة ١٩٨٥ .

دكتور عز الدين فودة
استاذ كرسى المنظمات الدولية
بجامعة القاهرة
(كلية الاقتصاد والعلوم السياسية)

مقدمة المؤلف

منذ نشر كتاب « تاريخ التجارة بين الشرق الأدنى وأوروبا لديبينج Depping (باريس ١٨٣٠ ، جزءان) ، وهو مؤلف جدير بكل تقدير ، بالنسبة الى عصره ، فان هذا الموضوع لم يعالج معالجة خاصة . الا أنه ظهر منذ ذلك الحين مجموعة من الوثائق والمصادر التاريخية لم يكن ديبنج يعلم بوجودها ، وبخاصة في ايطاليا وفرنسا ، تشكل وفرة ثمينة من الوثائق تنتظر من يتقدم لحصادها : فلم التقاعس ؟ هل لابه من الانتظار حتى يتم نشر كل الوثائق المدفونة في خزائن دور المحفوظات ، وهو عمل ضخم يتطلب من العلماء سنين طويلة من الجهود الفردية والجماعية ؟ كلا ، بالتأكيد ، ان جيلنا المتحمس لكل ما يمس تاريخ الحضارة ، سوف يعترف بفضل الكاتب الذي يجرؤ على التقدم ، ويستخلص من مواد ترد من كل صوب وحذب دراسة شاملة للعلاقات المتمرة التي كانت قائمة في العصور الوسطى في مجال التجارة بين الشرق والغرب . والحروب الكبرى التي يطلق عليها بعامة اسم الحروب الصليبية . يتناولها قدر كبير من البحوث التي تزداد أهمية على الدوام ، فلم لا يكون للعلاقات السلمية التي نشأت في معمة الحروب . وشملت تبادل المنتجات بين العالمين ، واستمرت بعدها ، لم لا يكون لها من يتولى تحليلها ؟ واذا كان للدول الصليبية - تلك الأشباح التي لا قوام لها - مكان في التاريخ . فلم لا يكون للمستعمرات التي أقامتها في الشرق الأدنى كله أمم الغرب التجارية ، وازدهرت دهرًا طويلًا ، من يتولى تحليلها هي الأخرى ؟ كانت هذه المستعمرات التجارية منذ زمن بعيد موضوعا خاصا لأبحاثي ، وها قد انقضت عشرون سنة منذ أن نشرت في « مجلة توبنجن » La Revue de Tubingue الايطالية ، وهي أهم المستعمرات في هذا الخصوص . وأطلع

Tuebinger Zeitschrift fuer die gesammte Staatswissenschaft.
1858-1864.

بعض العلماء الايطاليين على هذه الدراسات . وحين سألتني السيد جوزيف مولر M. Joseph Mueller وكان وقتئذ أستاذا بجامعة بادوا ، ثم انتقل الى جامعة تورينو ، أن آذن له بترجمة هذه النشرات ، أذنت له بما طالب وأنا سعيه بذلك . وكان من المستحيل أن أجد انسانا أكثر منه اهتماما وتفهما كاملا لهذا النوع من الدراسات . وكانت هذه ، من ناحية أخرى فرصة لاضافة نتائج أبحاث جديدة الى الترجمة ، وتنقيح بعض الأجزاء الأخرى ، حتى صارت هي الأصل في الكتاب الذي صار عنوانه :

«Le colonie commerciali degli Italiani in Oriente nel medio evo, dissertazioni del prof. Gugl. Heyd, recata in italiano da prof. Guis Muller. Venezia e Torino, 1866-1868.

وبناء على التوصية الكريمة التي قدمها عضو مجلس الشيوخ ، السيد فيديلي لامبريتكو Fedele Lampertico (من فيسنس Vicence) ضم الكتاب الى المجموعة القيمة المعروفة باسم Nuova collezione di opere storiche التي نشرت بتوجيه المؤرخ الفينيسي رينالدو فولن Rinaldo Fulin ، وشغل منها المجلدين السادس والثالث عشر . ولم يكن هناك حتى ذاك الحين موجز تاريخي من هذا النوع باللغة الإيطالية ، ومن ثم حظي مؤلف الكتاب أجني فيما وراء الألب بهذا الترحيب الرائع . فقله نلت بسبب هذا النشر شرف القبول عضوا في جمعيتين علميتين: qn-a'lexe, ànéKig-sn.'rutl. lItiuosâj بجنوه، و la Deputazione veneta di storia partia « بفنيسيا تشكل مطبوعاتهم في الوقت الحاضر ، كما تبشر بأن تغدو مستقبلا ، كنوزا من المعلومات ذات قيمة عظيمة لتاريخ التجارة ووجدت في الجمعيتين أصدقاء ومعاونين من طبيعتهم مثلي الرجوع الى المصادر التاريخية الأصلية الحالية من أي تحريف ، والعمل بحماسة مدهشة على اثراء الوثائق المنشورة . فكان هذا من حسن طالعي ، ولكنه لم يكن كل شيء : فقد علمت بعد هنيهة ، وفي هذه الظروف ، أن كتابي وجد له قراء في الشرق الأدنى نفسه ، في اليونان والقسطنطينية . كما انتقل من اليونان الى جنوب روسيا ، حيث أوحى للسيد الأستاذ برون

M. Bruun من أوديسا بفكرة إجراء أبحاث جديدة عن
مستنعمرات بنطس (★)

وفى أعقاب هذا النجاح ، فكرت ان أعرض على هذا
فى ثوب جديد على العلماء الألمان . وقلبت هذا المشروع فى
قريحتى ، حتى قر عزمى على الخروج من الحدود التى
فرضتها فى البداية على نفسى ، بأن أكتب ، لا تاريخا
للمستنعمرات التجارية الإيطالية ، ولكن تاريخا للعلاقات
التجارية بين العالم الرومانى الجرمانى ، وبين الشرق الأدنى
فى العصور الوسطى . ومع ذلك بقى للايطاليين ثمة موضع
فى الصدارة ، ذلك لأنهم لعبوا فى كل زمان الدور الفائق فى
الشرق الأدنى ، وان ظهرت الى جانبهم أمة تجارية أخرى .
وكان من المسحيل أيضا تضيق النطاق المخصص لتاريخ
المستنعمرات ، اذ كان لها الفضل فى تغذية التجارة ورعايتها،
كما كان ازدهارها وافولها ، يتمشىان دوما مع ازدهار التجارة
وكسادها . وكان من الضرورى فوق ذلك دراسة طرق
المواصلات ، وتنظيم الملاحة ، وشبكة الطرق التجارية القارية ،
ونظم الجمارك والضرائب ، الخ . ولما كانت معلوماننا عن
السلع التجارية فى العصور الوسطى محدودة للغاية ، كان
من الضرورى أن أتوسع فى دراسة التوابل ، والعصور ، ومواد
الصباغة ، والأعشاب الطبية فى الشرق ، والكيفية التى كانت
تنتشر بها فى الغرب ، وكذا المواد الأولية التى كان الغرب
يستخلصها من الشرق ، والمنتجات الصناعية الشرقية باعتبارها
سلعا للتصدير ، مقتصرنا بطبيعة الحال على المواد الأكثر
انتشارا فى تجارة ذلك العصر .

وعلى ذلك فالعمل الذى أقدمه اليوم للنشر هو بنوع
ما الطبعة الثالثة للدراسات التى ظهرت فى « مجلة
توبنجن » . ولما كان من الضرورى أن أقوم بتنقيح الخطة
بأكملها ، وأجرى بها المزيد من الإضافات والتصحيحات،
لذلك لم يبق بالأجمال شئ من النص الأصيل . ومع ذلك
تم اختصار جزء واحد فقط ، فلم أضف شمال أفريقيا الى
دائرة دراستى ، اللهم الا فيما يختص بمرور منتجات

(★) البحر الاسود ، ويكتب أيضا بنطس ، كما يسميه بعض الجغريين
العرب بنطس ونيطس - انظر المسالك والممالك لابن خرداذبة (المراجع) .

الشرق ، بينما كنت في البداية قد خصصت ملحقا للجزء
الكائن بين طرابلس والمغرب .

ويجد القارئ ، إما في الملاحظات الأولية أو في
الحواشي بيانا عن المصادر التي رجعت إليها . وثمة صديق
قديم وكان دائما يشجعني في أعمالي ، هو السيد الأستاذ
ج. م. مونتاس G. M. Thomas من ميونخ . فقد زودني
بالعديد من الوثائق التي لم تنشر من قبل ، والمستخلصة
من دار الوثائق بالبنديقية .

ووضع السيد سيزار جواستي Cesare Guasti
مدير عام دار وثائق تسكانيا بفلورنسا ، تحت تصرفي مجلدا
لم ينشر بعد ، حافلا بالوثائق البيزية والفلورنسية .
ولم يتقطع صديقي زيميلاي في جمعية C. Desimoni ،
la Societ à ligure السيدان ديزيموني de Gênes
و ل. ت. بيلجرانو L. T. Belgrano عن أن يكشف لي عن
كنوز علمهما الواسع ، ومجموعتهما من الوثائق .
كما فاجأني السيد م. ج. بيرشييه M. G. Berchet مفاجأة
سارة حين أرسل لي ملفا بنقاير عظيمة الأهمية عن التجارة ،
حررها إيطاليون من البرتغال ، وكان في حوزته نسخ منها .
وكان للصلات التي بيني وبين الأستاذين برون Phil Bruun
من أوديسا ، وفلوكنجر Fr. Flueckinger من ستراسبورج
فائدة في عملي هذا ، فقد كانا لي بمثابة الحافز والمشجع .
والخيرا ، فقد تفضل السادة أمناء مكتبات برلين وميونخ
فوضوا تحت تصرفي كتباً نادرة : فإلى هؤلاء جميعا أقدم في
ختام كلمتي هذه أصدق آيات الشكر .

شتوتجارت ، نوفمبر ١٨٧٨

ف . هايد

الحقبة الأولى

البدايات منذ الفتوحات الكبرى
حتى الحروب الصليبية

● الفصل الأول :

عصر جوستينيان وخلفائه

جلب طوفان الشعوب المتبريرة التي اجتاحت الامبراطورية الرومانية في اواخر عصرها بذور حياة جديدة : وبسقوط روما بدأت هذه البذور تنمو في كل أنحاء أوروبا ، وأصبحت سلالات قوية فتية ، ولكنها شبه همجية ، أصبحت فجأة ذات أهمية كبيرة : ذلك لأنها اختلطت بشعوب كانت حتى ذلك الحين خاضعة لروما . وأسفر هذا الاختلاط عن قوميات جديدة ، أدى الى تحول عام في الدولة والمجتمع والأخلاق . ومع ذلك لم يؤثر هذا الانقلاب بدرجة واحدة في كل أحوال الشعوب . ففي مجال الحياة الاجتماعية التي هي موضوع دراستنا هذه ، لا نجد في مستهل العصور الوسطى أى حدث يدانى فى أهميته واقعة اكتشاف الطريق البحرى المؤدى الى الهند الشرقية ، واكتشاف أمريكا ، وهما حدثان تما فى بداية العصر الحديث ، وفتحا للتجارة فجأة سبلا جديدة كل الجدة . فالانتقال من العصور القديمة الى العصور الوسطى لم يتم فجأة على هذا النحو ، حيث بقيت الطرق والأماكن التجارية بصفة عامة على ما كانت عليه .

فمنذ أن أتاحت فتوحات الاسكندر الأكبر للشعوب الغربية المتحضرة أن تتصل بأعماق الشرق ، اتجهت جهود التجارة هذه الوجهة ، لأن الشرق كان مصدر انتاج السلع التي أصبحت ضرورية لسادة العالم الجشعين : كان هؤلاء يستوردون من الهند التوابل التي يضعها الاغريق والرومان فى مأكولاتهم لتحسين مذاقها ، والروائح التي يريقونها على أبدانهم ، وينثرونها فى مساكنهم ، والعاج الذى يصنعون منه أثاثهم الفاخر . وكانت الصين تنتج الحرير الذى كانت النسوة ، ومن بعدهن مع ازدياد الرفاهية - رجال العصر الامبراطورى ، يحبون أن يكتسبوا به . أما الجواهر ، فكانت جبال فارس والهند مصدر أحجارها الكريمة ، كما كان المحيط الهندى مصدرا للآلء وشيئا فشيئا اتسعت التجارة حتى كانت الامبراطورية الرومانية فى عصر « بلين » Pliny (بلينيوس) تدفع فى آسيا كل عام ثمنا للسلع التي تأخذها منها مائة مليون سسترس (١) sesterces

(١) عملة رومانية قديمة (المترجم) .

أى حوالى ٢٠ مليون فرنك - كانت الهند تحصل وحدها على نصفها (١) .

وفى العصور الوسطى كان الشرق الأدنى لم يزل المقصد الرئيسى للتاجر الغربى . أما السلع التى كانت تستورد فيما بعد من المستعمرات فى أمريكا ، مثل السكر والقطن ، فانها كانت تستورد وقتئذ من سوريا ، وآسيا الصغرى ، وقبرص ، كما تستورد العطور من الهند . وكانت التوابل ، وبالأخص الفلفل ، تعتبر من أهم السلع الغذائية فى ذلك العصر . ونحن اذا بحثنا عن مصدر الأقمشة الرفيعة أو الطنافس التى كانت فى العصور الوسطى تزين مساكن النبلاء ، والأثرياء من الطبقة البورجوازية ، فلا بد أن ننتهى دائما إلى الشرق ، فمنه تأتى بوجه عام المادة الأولية ، وفى الكثير من الأحيان النسيج والمطرزات ، وأنواع الأقمشة . واذا كانت التجارة تتبع دائما الاتجاه نفسه الذى كانت تتبعه فى العصور القديمة ، فقد بقيت أيضا الطرق التجارية الكبرى هى نفسها التى كانت موجودة فى العصور القديمة .

ولما كانت السفن التجارية لا تعرف طريق رأس الرجاء الصالح لاحتضار منتجات الشرق الأدنى ، فانها كانت تكتفى بعبور البحر المتوسط ، أو تمضى على أكثر تقدير فى المياه التى تتصل مباشرة بالبحر المتوسط ، حيث نجد يقينا على طول السواحل أسواقا معروفة منذ قديم الزمان ، كالاسكندرية ، وصور ، وبيروت ، وأنطاكية ، بيزنطة ، وطرابزون . وكان نشوء سوق جديدة حدثا نادرا غير عادى . وكانت البضائع تصل من قلب الشرق حتى ثغور البحر المتوسط ، أو بنطس فى الطرق المستخدمة منذ العصور القديمة ، البحر الأحمر أو الخليج الفارسى ، أما البضائع الواردة من وسط آسيا عن طريق البر فانها تسلك الطرق التى نجدتها مذكورة فى مؤلفات الجغرافيين الاغريق والرومان حسبما ورد فى أخبار التجار .

ولعل العنصر الوحيد الذى تغير فى هذه التجارة هو عنصر الوسيطاء ، حيث حل الايطاليون ، والبروفانسيون ، والقطالونيون محل الاغريق والرومان . ومع ذلك ينبغى ألا ننسى فى هذا الصدد أن الانتقال من العصر القديم إلى العصر الوسيط لم يتم دفعة واحدة . فالواقع أنه حين انقسمت الامبراطورية قسمين ورثت الامبراطورية البيزنطية بطبيعة الحال وبتأثير موقعها الجغرافى تجارة الشرق . ذلك أنها حين نجت من الغزوات ، أدت دور الوسيط فى العلاقات التجارية بين الشرق والغرب إلى اليوم الذى أصبحت فيه الطبقة البورجوازية بالمدن البحرية بإيطاليا وفرنسا وأسبانيا قوية بدرجة استطاعت معها أن تستغنى عن هذه الوساطة .

وفى وسعنا الآن أن نطرق صميم دراستنا ، وسوف تكون نقطة البداية فى هذه الدراسة ولاية الامبراطور جوستينيان Justinien (٥٢٧ - ٥٦٥ م) : والواقع أن لدينا عن هذا العصر وثائق كثيرة تكفى لوضع قائمة كاملة توضح موقف الشرق فى هذا العصر من الناحية التجارية . كان أقصى بلد يتبادل معه اغريق بيزنطة تجارة متصلة هو البلد نفسه الذى ينتج أثمن الحاصلات التى يشتد الطلب عليها . فمنذ عدة قرون كانت صناعة الحرير (التى نريد التحدث عنها) مزدهرة فى الصين ، غير أن سر هذه الصناعة كان مكتوما بحرص شديد ، حتى لم يستطع الأجانب بالمرّة أن يتعلموا أساليبها . وأخيرا حلت اللحظة التى استطاع فيها بلد آخر أن يستغل هذا الفرع الهام من الصناعة : فقد كان هذا الحظ السعيد من نصيب مملكة صغيرة فى وسط آسيا ، مملكة « خوتان » Khotan (بالصينية هو - تيان ، بمقاطعة سنكيانج) اثر زواج ملكها بأميرة صينية ؛ قيل انها خانت وطنها واستطاعت أن تفقد من رقابة رجال الجمارك . فحملت معها الى وطنها الجديد دود القز وبيضه وبذور التوت (١) .

وليس فى مقدورنا أن نؤكد أن نتاج الحرير قد زاد من حركته المتجهة من الشرق الى الغرب ، وأنه عبر حدود خوتان فى القرن السادس ، ولكن يمكن التسليم بأن الجزء الأكبر من المنسوجات الحريرية التى كان تجار الغرب يتلقونها فى ذاك الأوان كانت تصل اليهم من الصين . وكان الصينيون يصدرون منتجاتهم بأنفسهم ، الا أن سفنهم لم تكن وقتئذ تحمل هذه المنتجات الى أبعد من سيلان ، باستثناء حالات قليلة (٢) . ولم تكن تغطى حدود تركستان ، ومن هناك تتكفل شعوب أخرى بنقل هذه السلع الثمينة الى الغرب . الا أنه من الصعب التمييز بين هذه الشعوب : فكتاب العصر القديم ؛ ومن بعدهم كتاب العصر البيزنطى (٣) ، كانوا يطلقون اسم « سيرس » Sères على كل من

(١) Abel Rémusat, Histoire de Khoten p. 34 et s.,

53 et s. Hiouenstang, 111 mémoires sur les contrées occidentales, trad p. Stanislas Julien II p. 238 et s.

(٢) استعمرنا هذه المعلومة الخاصة بالعلاقات البحرية بين الصين وسيلان من Cosmas

Indicopheutes Montfaucon, collectio - nova patrum II, 337 :

وأيد هذه المعلومة أيضا الحاج الصينى فاهين (فاهيان) الذى كان يرتحل فى مستهل القرن الخامس ، بادئا من سيلان وعائدا الى وطنه ، وقام بهذه الرحلة البحرية على متن سفينتين تجاريتين كبيرتين ، وأوصلته احدهما الى جاوة ، والثانية الى الصين . انظر Foe - Koueki

ترجمة وشرح ايبيل ريموزان Abel Rémusat ، باريس ١٨٣٦ ، صفحة ٣٥٩ وما بعدها . انظر ايضا Richthofen ، الصين ١ ، ٥٢٠ .

Ritter, Erdk VIII, 692 et ss. et Richtofen, China 1, 474 : انظر (٣)

منتجى الحرير ومختلف الشعوب التى تتولى توزيعه . ونذكر من بين الأقوام التى كان تمارس تجارة الحرير بنوع خاص سكان الصغد فى سهوب بخارى ، الذين استهروا فى العصور القديمة كلها بمهاراتهم وقدرتهم فى مجال التجارة (١) . وكان الحرير يأتهم من الصين مع القوافل ، فينقلونها بالتالى ، الى أسواق شمال ايران و جنوب بحر قزوين .

حقا ، ان المصادر المختلفة لا تذكر ذلك صراحة : نيو فان البيزنطى Théopphan يذكر أن الأسواق والنغور التى يتردد عليها نجار الحراير (٢) وقد تغير أصحابها فى وقت قصير . فبعد أن كان يمتلكها القرس ، انتزعها منهم الهون « الأفتاليت » (اليو - تسي فى الصين) حتى احتلها منهم الترك . وفى رأى أن الأقوام التى ذكرت فى هذه الفترة تحت اسم « سيرس » هى التى كادت تقطن بلاد الصغد ، يؤكد ذلك بقية تاريخ تجارة الحرير . ولكن أين كانت ثغورهم ؟ لم تكن قطعاً عند مصاب نهر الاندوس ، ولو أن هذه المصاب كانت تتصل بالصين بطريق تجارى يمر بآسيا الوسطى ومعابر سلسلة جبال الهندكوش . وإذا كان القرس والهون الأفتاليت قد بسطوا سيطرتهم بالتناوب حقبة من الزمن على هذا الجزء من الهند (٣) ، فان سلطان الترك لم يمتد أبدا الى هذا الحد ، ينبغى إذن البحث عن بحر آخر . ويرى تيوفان أن ضياع هذه الأسواق من القرس كان نتيجة مباشرة لهزيمة ملكهم أبرويز Perozès أمام خان الأفتاليت سنة ٤٥٧ م (٤) ، وجرت المعركة الحاسمة بالقرب من الحدود التى تفصل فى الشمال إمبراطورية الساسانيين عن الأقاليم التى يحتلها الأفتاليت سادة سهول نهر أوجزوس (٥) ونهر ياجزارة ، بالقرب من مدينة جورجو الفارسية Gorgo (٦) التى أطلق عليها العرب فيما بعد اسم جرجان ، وتقع على الطرف الجنوبى

(١) Sxmatsien; trad. p. Brosset, dans le Nouveau journ. asiat II, 425.

Saint Martin Mém. sur l'Armenie II, 374.

Abel Rémusat Nouveau méi asiat I, 229.

Excerpta e Theopanis historia, ed. Bonn p. 848 et s.

(٢) نهر السند حالياً (المترجم) .

Cosmas 338 et s.

(٣) فى خصوص الهون أنظر :

Agathias, ed. Bonn, p. 266; Procop. de bello pers. 1,3,4; Theophan. (٤) I, 188-190.

(٥) الاسم القديم لنهر أمودار ياهو بالعربية جيحون - المراجع .

(٦) الاسم القديم لنهر سرداريا ، وبالعربية مبيحون - المراجع .

Excerpta ex Prisco, éd. Bonn, p. 221 : Procop I, c. أنظر أيضا

من بحر قزوين (١) . أليس من الأوفق اذن البحث على شاطئ بحر قزوين عن ثغور « السيرس » التي فقدتها الفرس بعد موقعةهم مع الهون ؟ ونذكر في هذه المناسبة انه كان يوجد في العصور القديمة طريق تسلكه عادة بضائع الشرق الأدنى من بلاد الأوجزوس الى بحر قزوين حيث تشحن في السفن ، وتعبّر البحر ، ثم تتقدم في نهر أراكس Araxe ، وتهبط نهر فاز Phase ، حتى تعبر أخيرا البحر الأسود (٢) .

وفي أعقاب الأحداث التي ذكرناها، أعيد استخدام هذا الطريق (أو لعله لم يبطل استخدامه بالمرّة ؟) ؛ غير أنه امتد من ذلك الحين صعودا في نهر اراكس حتى يصل الى آسيا الصغرى عن طريق نهر ارتاجزات . ثم إن طريق القوافل كان يتبع دائما الحد الشمالي لآيران . وسواء كان الحرير ينقل عن هذا الطريق أم عن ذلك ، فإن الفرس كانوا هم الذين يتلغونه دائما قبل غيرهم ، ويحرصون كل الحرص على ألا يصل الى الرومان الشرقيين بطريق آخر غير الذي يجتاز بلادهم ، وبأيد أخرى خلاف أيديهم(٣) . واتفقت بيزنطة مع فارس على تحديد بعض الأماكن التي يتعين فيها بيع البضائع الآتية من فارس الى البيزنطيين . كذلك كان من المستحيل التملص من الأمر الذي يقضى بأن يكون كل من هذه الأماكن مقرا لمكتب جمركي(٤) . وكانت أقصى نقطة في الشمال هي ارتاجزات التي ذكرناها آنفا (٥) ، ومن بعدها ، في وسط بلاد ما بين النهرين (أو أرض

(١) لا تخلط بينها وبين أورجند Ourgend عاصمة خوارزم التي سنتحدث عنها فيما بعد

Nivien de Saint - Martin Sur les Huns blanc ou Epthalites انظر
dans les Nouv. annal des voy. 1849. III p. 9 et s. not. Spiegel, Iran p. 123
125.

Plin, Hist nat. VI, 17. (٢)

Abel Rémusat, Remarques sur l'extension de l'empire chinois du (٣)
Côté de l'Occident, dans les Mém. de l'Acad. des Inscr. VIII (1927) p. 125.

(٤) مرسوم عام ٤١٠ في فواتين جستنيان .

Excerpta e Petri Patrici hist. éd Bonn. 13E.
Excerpta e Menandri hist éd Bonn p. 361 ; Zachariae, Eine Verordnung justinians ueber den Seidehandel, dans les Mém de l'Acad. de St. Petersb. Série VII, T. IX no. 6 (1865) p. 5.

(٥) يعرفنا بريكون (De bello pers. II, 25, 30) Précope بموضع آخر في المنطقة نفسها حيث كان يجري تبادل البضائع الهندية والفارسية : ذلك هو سهل دوبيوس Doubios في أرمينيا الفارسية على مسيرة ثمانية أيام من تيودوسيويوليس (أرضروم) . على أن مرسوم عام ٤١٠ يذكر مدينة ارتجرات على أنها المكان الوحيد للتجارة المتجهة الى القسم الشمالي من حدود الامبراطورية من ناحية الفرس : ويبدو مما سبق ذكره أن هذا المرسوم لم يعد ساري المفعول في عهد جستنيان : ولكن كون جستنيان قد اتبعه في قانونه يثبت أنه لم يزل ساري المفعول ، وتزول المشكلة اذا سلمنا بفكرة زكريا Zachariae المعقولة (في المرجع السابق ذكره ، ص ٥ وما بعدها) : فهو اذ يعتمد على موقع المكانين ، يرى أن أسواق سهل دوبيوس كانت هي وسوق ارتجرات سوقا واحدة .

الرافدين) تأتي نصيبين Nisibe (١) ، وأخيرا تأتي في الجنوب الرقة Rakka على الفرات (٢) . وقد رأينا قبلا كيف كان الحرير يصل الى أولى هذه المدن . وكانت مدينة نصيبين تتلقى الحرير من ناحية في قوافل تنطلق من بلاد الصغد وتجتاز فارس متجهة صوب الجنوب الغربي ؛ ومن ناحية أخرى كان قربها من نهر دجلة يجعلها على صلة بالخليج الفارسي . وجعل في ميسورها أن تزود بالحرير عن طريق البحر .

أما بخصوص الرقة فان موقعها على نهر الفرات يبعث على الاعتقاد بأن القسم الأكبر من الحرائر ، التي تصل أو حتى كلها ، كانت تجتاز الخليج الفارسي ، وتصعد نهر الفرات . ويذكرنا هذا بأن الحرير كان يحتمل أن يتبع طريقا آخر غير الذي ذكرناه ؛ فقد كان جزء منه يصدر من الصين الى سيلان عن طريق البحر ، ومن ثم ينقل الى سفن أخرى تبحر الى الخليج الفارسي محاذية الساحل الغربي للهند ، والساحل الجنوبي لكرمان Caramanie . ومن البديهي أنه حين كانت البضائع الصينية تتبع طريق البحر ، كان يمكن أن تفلت من أيدي الفرس لأنه كان في مقدورها أن تتجه بعد سيلان صوب جنوب جزيرة العرب ، وأثيوبيا (٣) .

وكان في احتكار تجارة الحرير خطر استطاع الأمباطور جستنيان أن يستغله . فالواقع أن ذلك الأمر كان بالنسبة الى البيزنطيين المضطرين الى الحصول على هذه المادة عبئا ثقيلا . اذ لم يكن في هذه التجارة وسطاء سوى الفرس ، ولم تكن ثمة أمة كاملة الفرس تكثر الحروب بينها وبينهم : ترى ألم يكن يهمهم أن يروا تجارهم يحملون الى أعدائهم المبالغ الضخمة المخصصة لشراء المنسوجات الحريرية ؟ وهل كان عليهم أن يقبلوا بهدوء انقطاع هذه التجارة بسبب حالة الحرب ؟ وعلاجا لهذه الأحوال السيئة حاول الامباطور جوستنيان في عام ٥٣٢ م أن يفتح طريقا لتجارة الحرير يمر بأثيوبيا : فقد رأى في الامكان أن يشتري الأثيوبيون الحرير من الهنود ، ثم يبعونه بدورهم الى البيزنطيين . غير أنه حين وصل وكلاؤه الى الموانئ التي رست عندها السفن الهندية (٤) وجدوا

(١) لا شك في أن نصيبين كانت ترسل بضائع الهند والصين الى أسواق باتنييه Bainé الواقعة شرقا في سهل سارودج Saroudj بين بير Bir (على الفرات) واورفا Orfa (أردسا قديما) . انظر الفقرة الغربية لأميين مارسيل Ammien Marcell (XIV,3) ومع ذلك فان رخاء باتنييه لم يدم زمنا طويلا ، فمذ القرن السادس ضعف شأنها حتى صارت ضيعة مجهولة Procop., De bello persico II, 12)

Oppidum commerciandi opimitate «gratissimum» Ann. Marcel XXIII, 3.(٢)

(٣) Cosmas المرجع المشار اليه آفا ص ٣٣٧ .

(٤) كانت هذه الثغور واقعة دون شك على مصب نهر الاندوس (السند) .

عندها الفرس مسيطرين على الأسواق لأنهم جيران وعملاء سابقون ، ومن ثم عادوا صفر اليديين ؛ وبقي الفرس دون نزاع ، وحتى يظهر أمر جديد ، محتكرين هذه التجارة (١) .

وكانت المنتجات التي تصدرها الهند الى غرب آسيا وأوروبا تمر كلها أيضا ، وعلى وجه التقريب بأيدي الفرس ، على الأقل حين كانت القوافل التي تنقلها تسلك الطريق الفويم الذي خطته الطبيعة عبر البنجاب ومعاير جبال الهندكوس . ومن الصعب اثبات وجود هذه التجارة عن طريق البر بين الهند وفارس في فترة الانتقال من العصور القديمة الى العصور الوسطى .

وثمة مسافر في مستهل القرن السابع ، وهو الحاج هيونتسانج Hiouentsang وجد في اقليم بمبان Bamian (الذي يسيطر على الممر الرئيسي في الطريق المؤدى من الهند الى بكتريان Bactriane) قوما يزاولون التجارة . وذكر بنوع خاص مدينتي كابيسا Kapisa (غير البعيدة عن كابول) واوتاكندا Outakanda (اوهند Ohind القريبة من بشاور) ، باعتبارهما سوقين ترد اليهما بكميات كبيرة أكثر البضائع ندرة وأهمية (٢) . ولكنه لسوء الحظ لا يذكر شيئا عن اتجاه الحركة التجارية هذه . ولم يكن هناك شك في أن بضائع الهند كانت تتجمع في تنقلها صوب الغرب في موضع ما عند مشارف آسيا الوسطى ، ثم تنتهي في اقليم بيزنطة عند ارتاجزات أو نصيبين (٣) .

غير أن القسم الأكبر من المنتجات التي كانت الهند تصدرها الى فارس كانت تنقل بحرا بمحاذاة السواحل ، فلا تنزل الى البر الا بعد أن تصل اما الى أقصى الخليج الفارسي أو الى أحد المرافئ على نهري دجلة والفرات ، حيث يكون المجرى السفلي لهما صالحا للملاحة .

وكان أول مرفأ لاعادة التصدير تقابله في هذه الرقعة السفن القادمة من الهند هو ابولوجوس Apologos الذي سمي فيما ابولاه Obollah ، والذي ورد ذكره قبلا في « رحلة البحر الأحمر » باعتباره أحد المواقع الرئيسية لرسو السفن المحملة ببضائع الشرق الأوسط ولم يفقد هذا الموقع شيئا من أهميته في عهد الساسانيين (٤) . فحين تتجاوز السفن هذا الميناء وتصعد نهر

(١) Procop, De bello persico I, 20.

(١)

Hiouentsang, Mém. I, 37, 40, 125.

(٢)

(٣) يتحدث Procop. (De bello pers. II 25) عن بضائع هندية تصل الى سوق

سهل دوبيوس ، أنظر بعاليه .

(٤) راجع : Geogr. groeci min., éd. Muller I, 285 et Reinaud, Mémoire sur le royaume de la mésène et de la Kharacène, dans les mém. de l'Acad., des insir., XXIV, II, pp. 189, 212, 213. Gildemeister, Script. arab., de reb. ind. loci., p. 37 et s.

دجلة ، لا تقطع مسافة طويلة حتى تصل الى حاضرة ملوك الفرس العظيمة «مدائن كسرى» (طيسفون عند الرومان) . فاذا صعدت السفن نهر الفرات تستطيع أن تتقدم حتى الحيرة Hira (بالقرب من مدينة مشهد على الحالية) دون أن تخرج من حدود الامبراطورية الساسانية .

لقد انقضى زمن طويل على العهد الذي كانت فيه سيادة الرومان السياسية والتجارية ملموسة حتى الفرات الأدنى وشواطئ الخليج الفارسي ؛ وكانت مملكة الحيرة الصغيرة المزدهرة في أيدي أمراء من العرب يعترفون بسلطان ملوك الفرس (من منتصف القرن الثالث حتى مستهل السابع) . وكانت سفن السند والهند (١) ، وكذلك سفن الصين ، تسير الى ديارهم التي يمكن اعتبارها الى حد ما ضمن مدن فارس . ومن هناك تتسلم القوافل حمولتها الثمينة وتسير بها في جميع الاتجاهات ، وبخاصة في عصر الأسواق الكبرى التي كانت تعقد في الحيرة مرة في كل عام (٢) .

حقيقة أنه من الصعب تحديد جنسية السفن التي كانت في القرن السادس تنقل حاصلات الهند الى بلاد ما بين النهرين . وقد أبدى اثنان من أكبر المستشرقين الفرنسيين ، رينو Reinaud ، وكاترمير Quatremère في هذا الخصوص رأيين مختلفين . فقد زعم الأول أن الفرس كانوا في عهد السيادة الساسانية يملكون أسطولا بحريا كبيرا ، في حين لم يكن الهنود يظهرون على شاطئ الخليج الفارسي الا ليمارسوا أعمال القرصنة (٣) . ومن ثم يتعين الإجابة على السؤال الذي طرحناه آنفا بأن القسم الأكبر من السفن كانت فارسية الجنسية . أما كاترمير (٤) فيؤكد أن الفرس لم يكونوا أبدا أمة بحرية . فاذا أخذنا برأيه هذا ، تعين التسليم بأن الهنود هم الذين كانوا يتولون بأنفسهم نقل حاصلات بلادهم الى فارس .

والراجح أن الحقيقة تقع بين هذين الرأيين . ونعتقد من جانبنا أن كلا الشعبين قام بنصيب فعال في هذه التجارة البحرية . ففيما يختص بالهنود ، نعلم أنه الى جانب قبائل القرصان المتوحشين الذين يمارسون كثيرا أعمال النهب والتخريب على الشاطئ الفارسي ، كان يوجد منذ زمن بعيد على الساحل

(١) تبعا لتقليد قديم ذكره المسعودي في « مروج الذهب » نشره وترجمه ب . باربييه

دومنيار ، وباقيه دوكتورتيه , Barbier de Meynard et Pavet de Cortelle, (I, p. 216, 219, (ed. Gathualdt, p. 80). Hamza Ispahanensis راجع حمزة اسبامانيسيس

Caussin de Perceval, Hist. des Arabes II, 616 et ss. (٢)

Reinaud, Relations des voyages faits par les Arabes et les Persans, I. (٣)

(٤) في دراسته للكتاب المذكور بماليه Journal des Savants 1846, Nov. p. 681 et s.

الغربي للهند ، وبخاصة في ملبار ، وشبه جزيرة جوجارات Goudjerate
شعب متمكن يعتمد في معيشتة على البحر ، ويمضى بحضا عن السلع في
بلاد نائية (١) .

فضلا عن ذلك أثبت بروكوبيوس Procope بصورة قاطعة ، وهو يروى
محاولة جوستينيان انتزاع احتكار تجارة الحرير من أيدي الفرس أن سفن الهند
هي بوجه عام التي كانت تجلب الى الفرس حرير الصين . وينبئنا أخيرا كوزماس
Cosmas أن جزيرة سيلان كانت ترسل في عصره سفنا الى فارس . غير أن
الفرس لم يكونوا من ناحية أخرى يجهلون فن الملاحة كما يزعم كاترمير . فقد كان
في كاليانا (كالياني) Kalliana (Kaljani) بالقرب من بمباي على ساحل
ملبار ، وفي جزيرة سيلان في القرن السادس ، مستعمرات مسيحية فارسية
الأصل ، قدم قساوستها من ذلك البلد ، وتجار خيول فارسية . ومبعوثون من
الملوك الساسانيين في زيارة لجزيرة سيلان .

غير أن هذه الحقائق لا تكفي بالتأكيد لاثبات وجود أسطول بحري فارسي .
ولكن من غير المحتمل أن يضطر كل هؤلاء المسافرين والمهاجرين الفرس أن
يركبوا سفنا أجنبية ليذهبوا الى الهند . يقول كوزماس ، وهذه حجة قاطعة ،
انه كان يصل الى سيلان عدد كبير من السفن القادمة من فارس . نخلص من ذلك
بالقول بأن الهنود كانوا يحملون الى فارس منتجات بلادهم على سفنهم الخاصة ،
وأن الفرس (وربما أيضا عرب الحيرة التابعين لهم ، كانوا يرسلون سفنا الى
الهند (٢) . وكانت نهاية هؤلاء بالتحديد هي سيلان التي كانت كل الأمم
البحرية في المحيط الهندي ترسل اليها أثمن سفنها لمبادلة بضائعها .

ووجد تجار الغرب هناك ، الى جانب منتجات البلد ، حرير الصين ؛
والقرنفل ، وخشب الصبر أو الصندل (وهو من حاصلات الهند الصينية)
التي تستورد كالحرير على سفن صينية (٣) تسير عند عودتها بمحاذاة ساحل

Hicquentsang, Mém. II, 121, 162, 165.

(١)

(٢) يدعم هذا الرأي ما رواه Theophylactus Simocatta ، اذ يقول ان يهودى
الفرس قد اكتسبوا في عهد الساسانيين ثروات كبيرة بارسالهم سفنا تجارية في بحر اديبيا
(ed. Bonn, p. 218) . أما الترجمة اللاتينية فانها تحرف المعنى في المؤلف الأصلي .

(٣) يوضح رشتهوفن Richt-hofen (China I, 520 et s.) ان الصينيين كانوا يمشون
بعيدا أحيانا ، وأقل بعدا أحيانا أخرى صوب الغرب ، ولكن حملاتهم بـسيلان ، تلك التي ترجع
الى عهد تسن ، ملوك الشرق (٣١٧ - ٤١٩) كانت قوية ونشطة ، ويبدو ذلك أيضا في
الحوليات الصينية . ومع ذلك يبدو من المشكوك فيه أن يكون الصينيون ، بعد أن بلغوا أقصى موقع
معتاد لرسو سفنهم ، قد مضوا قداما بسفنهم حتى مدينة الحيرة على نهر الفرات . وكان الذين
ذكروا هذه الواقعة يعيشون بعد هذه الآونة بعدة قرون . أما رشتهوفن فانه يؤيدها بسهولة .

ملبار ، ويمكنها أن تزود في طريقها بالفلفل ، أو تشحن عند مصب نهر السند (الاندوس) بمسك التبت وغيره (١) .

واذ كان الفرس يسيطرون على تجارة الهند ، فليس معنى ذلك أنه لم يكن لهم ثمة منافس : فقد كانت مملكة أثيوبيا المسيحية ترسل أيضا من ميناء أدوليس (عدولى) Adulis سفنا تقصد الهند لتبيع منتجات أفريقييا كالبخور ، والسنامكي ، والعاج المتوفر فيها ، وتأخذ منتجات هندية كأجر للعودة (٢) .

كان هذا اذن طريقا آخر مفتوحا للتجارة بين الغرب والشرق . وخلقت المصالح الدينية والسياسية المشتركة بين أثيوبيا وبيزنطة مجموعة من نقاط الاتصال . كما كانت المصالح المشتركة لازمة ضرورية لهذه المصالح . فقد سيطر الأثيوبيون في الجنوب على مخرج البحر الأحمر الذي تمتلك الإمبراطورية البيزنطية القسم الشمالى منه . بل كان الاغريق يفضلون أن يتسلموا بضائع الشرق الأوسط من أيدي أصدقائهم الأثيوبيين المسيحيين على أن يتسلموها من أيدي أعدائهم الفرس عبدة النار . لذلك كان عدد كبير من تجار الأقاليم البيزنطية يذهبون الى أثيوبيا ، اما عن طريق ايلة والعقبة والخليج الذى يحمل هذا الاسم واما عن طريق الاسكندرية طلبا لمنتجات أفريقييا ، والهند ، بل ان بعضهم كان يركب هناك سفنا أثيوبية تبخر بهم الى الهند (٣) .

وكان الأثيوبيون بطبيعة الحال يحصلون على ربح من بيعهم بضائع الهند للاغريق . ومن ثم كان اهتمامهم الكبير بالمحافظة على هذه التجارة الوسيطة . لذلك ففي اليوم الذى قتل فيه ملك اليمن اليهودى « ذو نواس » Dhau Nawas التجار الاغريق الذين كانوا يمرون ببلاده ذاهبين الى أثيوبيا ، استاء ملك أثيوبيا كل الاستياء من هذا الفعل ، وأعلن عليه الحرب (حوالى ٥٢٥ م) (٤) .

(١) توجد الأخبار المستعارة من كوزماس Cosmas الى هذا الحد فى الصفحات من ٣٣٧ الى ٣٣٩ ، و ١٧٨ . راجع جيرمان

(Die Kirche der Thomaschristen : German p. 134-139).

(٢) فى المرجع نفسه ص ١٣٩ ، ٣٣٩ . وفى : Palladius, De gentibus Indioe

et Bragmanibus, ed. Bissoeus, p. 59. يذكر امبروزيوس Ambrosius بنوع خاص موزيريس

(Mangalore) Muziris على ساحل ملبار ، باعتبارها غاية السفن التجارية الأثيوبية .

(٣) Cosmas, p. 139, 338; Joh. Malalas, ed. Bonn, p. 433.

(٤) (المرجع السابق)

Assemani, Bibliotheca orientalis, T. I, p. 359; John Malalas

Gratz, Geschichte der Juden, V, p. 449 et s. انظر :

بنكر جراتز أن يكون ملك أثيوبيا هو الذى قام بالهجوم ، ولكن مالالاس يسميه ملك أكسوم ، وكانت أكسوم قلب أثيوبيا .

وكان للاغريق من أباطرة بيزنطة ؟ مع ذلك وسائل أخرى لجلب بضائع الهند عن طريق البحر الأحمر ، خلاف السفن الأثيوبية . فقد كانوا يملكون في شمال هذا البحر نفرا محصنا يسمى كليسم Clisma (١) القلزم Kolzoum ، بالقرب من السويس الحالية) ؛ ولم تكن حركة التجارة في هذا الميناء قاصرة على استقبال السفن والتجار الأجانب القادمين من الهند . بل كان يخرج منها سفن ، كما كان الامبراطور اليوناني يعين بالميناء موظفا يسمى « لوجوثيت » Logothète . يسافر اليها مرة كل سنة ليحلب منها البضائع (٢) . ويؤكد الكاتب الذي أخذنا عنه هذه المعلومة أن القلزم كانت الميناء الوحيد الواقع في اقليم يوناني ، وترسو عنده السفن العائدة من الهند . غير أن أحد الحجاج المسيحيين في القرن السادس (٣) رأى في القلزم ، وكذا في أيلة على الخليج المسمى باسمها سفنا قادمة من الهند ، وبها منتجات هذا البلد . وكان من الروايات الثابتة الماثورة عن العرب في العهود السابقة على الاسلام أن أيلة كانت مدينة تجارية ، ومحطة جمارك ، ترسو عندها السفن القادمة من اليمن والهند والصين وغيرها من البلاد (٤) ؛ ومنها تنقل القوافل شحنات السفن الى فلسطين أو سوريا .

وكان لليونانيين بالقرب من جزيرة جوتاب Jotabe (تيران Tirân الحالية) محطة جمارك تتوقف عندها السفن المتجهة الى القلزم لتسدد الرسوم المفروضة على المنتجات الهندية (٥) . ومن القلزم تنقل البضائع الى البحر المتوسط على ظهور الجمال ، أو بطريق الماء ، لأن القناة المخفورة منذ أقدم العصور لربط البحر الأحمر بنهر النيل (٦) ، والتي تم حفرها في عهد البطالمة ، وترميمها

(١) يجب كتابة الاسم على هذا النحو Clisma y Clysma كما يكتب بوجه عام ،
انظر : Vivien de Saint - Martin, Le Nord de l'Arique, Paris, 1863 : p. 245.

(٢) انظر في :
Petrus Diaconus. De locis sanctis (dd. Tosti, Storia della badia di Monte Cassino, II) p. 135 et s.

بذمة ممينة عن كليسم في عهد السيادة البيزنطية .

(٣) Itinerarium Antonini Placentini, ed. Tobler, St. Gall, 1963 p. 42,
44, ou dans Tobler et Molinier, Itinera hierosolymitana, bellis sacris anteriora I, 113, 115, 378 et s.

Ritter, Erdk, XIV, p. 51 et ss. (٤)

(٥)
Theophanes, éd. Bonn I, 218 ; of Excepta e Malohi historia p. 232 et s. :
Procop. De bello pers I, 19; Id. Anecdota, éd. Isambert, p. 564; Ritter,
op. cit XIII, 221 XIV, 19.

Letronne Recherches sur le livre De mensura orbis terre par Dicuil, (٦)
Prolegomenes p. 9 et ss. ; Humboldt, Krit. Unters. über die hist. Entw.
der geogr. Kenntnisse von der neuen Welt, I, 416 et s.

فى عهد تراجان Trajan ، لم نزل قائمة (حتى بداية القرن السادس على الأقل) ؛ ثم امتلأت بعد ذلك بالرمال . غير أن العرب أعادوا اصلاحها ، وعملوا على صيانتها بعض الزمن .

وكان هناك أيضا ، خلاف القلزم وأيلة ميناء رأس بناس Bérénice (١) المشهور الذى ظل يعمل حتى القرن الرابع . فكانت بضائع الهند التى تفرغ فى هذا الميناء تتخذ طريق البر الى طيبة ، ومنها تنحدر على نهر النيل . وعلى ذلك كان البيزنطيون يتسلمون بطرق متنوعة منتجات شرق آسيا وجنوبها .

بقى لنا أن نشير الى طريق تجارى آخر ، ذلك الذى يبدأ من وسط آسيا ، ويمضى محاذيا الساحل الشمالى لبحر قزوين ، وينتهى اما الى بحر آزوف أو الى القرم ، فى المواقع التى شيد فيها اغريق بيزنطة مدينتى بسفور Bosporous وخرسون Cherson باعتبارهما مخفرين أماميين . وأنا لنتساءل عما اذا كان هذا الطريق صالحا للاستعمال فى عهد جوستينيان ؟ وكانت هاتان المدينتان تدينان برخائهما الاكيد - متلما كان الحال فى مدينتى نانا Tane وكافا Caffa الى تلك الظروف التى جعلت المنتجات الآسيوية الداخلية تنتهى عندهما قبل أن توزع على الغرب . ولكن لا أظن ذلك . أولا فيما يختص بالسفور (وهى اليوم كيرتش kertsch) ، تذكر لنا المصادر بأنها كانت على صلة بجيرانها « الهون » (٢) . ولكن الهون لم يكونوا فى هذه المنطقة يزاولون التجارة ببضائع الشرق الأوسط . فهم لم يستوردوا الى هذه السوق سوى جلود الشمال وقرائه (٣) . أما بخصوص خرسون ، فالأمر يختلف على ما يبدو . يقول جوردانيس Jordanès (٤) فى سياق حديثه عن هذه السوق ، من ان التجار الجشعين كانوا يجلبون اليها كنوز آسيا .

وكانت أهمية خرسون بنوع خاص هى أنها كانت تصدر الى الاغريق منتجات بلاد الشمال ، وتزود بربابة الشمال بالبضائع التى ترد على الأمبراطورية اليونانية . وكانت بضائع الشرق هى أكثر ما يطلبه البرابرة

(١) Epiphanius, Adv. hoereses, cap. 66, 1. (Opp. ed. Dindorf, III, 1

p. 17); Palladius Ep. Hist. Lausiaca dans la Bibl. vet. patr. graec. lat (éd Ducoeus, Par. 1624, II, p. 997); Acta, Arethoe dans Boissonade, Anecdota graeca, V, 45.

وفى ذكر لناس باعتبارها نفرا بحريا الى جانب ابلة (ايلات)

Johannes Malalas, éd Bonn, p. 432.

(٢) وكليس ، وجرتابى

(٣)

Jordanes Getic e. 5. (ed. Mommsen) Mon. Germ. Anfig. V. 1, p. 63.

Jordanes Getic.

(٤) المرجع السابق

ويقدررون قيمته . لذلك كان التجار الاغريق بكولشيد Colchide وآسيا الصغرى وبيزنطة يحملون بهمة الى هذه السوق التوابل وأقمشة الشرق الأدنى الرقيقة . وعن طريق أهالي خرسون بنوع خاص كان برابرة هذه المناطق الواقعة شمالي بنطس من القوط مثالا (وهم مواطنو جوردانييس) يشسترون هذه السلع الثمينة . ولا أظننى مخطئا فى تفسيرى هذا لحديث جوردانييس .

وفى رأى أنه ليس هناك ما ينبت أن بضائع الشرق الأدنى كانت تتبع طريقا يمر بجنوب روسيا الحالية . ومن المحتمل أنه بعد عصر جوستينيان ، حين توترت العلاقات السياسية بين بلاد الصغد وفارس ، اتخذ جزء من بضائع الشرق الأدنى مؤقنا هذا الطريق الى الامبراطورية اليونانية . وسوف تتاح لنا الفرصة للعودة الى هذه النقطة عندما نتتبع تاريخ تجارة الحرير .

ومن المعلوم أن جوستينيان قد عمل قبل كل شئ على تخليص الفارة من التسمية للفرس ، وعلى القضاء على احتكارهم أئمن سلعة ، الا وهى حرير الصين . واذ تبين أن الأثيوبيين ليسوا قادرين على تحقيق هذا الغرض ، بدت المشكلة غير قابلة للحل . ولحسن الحظ نجح الامبراطور فى الحصول على بيض دود القز . أتى له بها بعض الرهبان القائمين بالتبشير ، وكانوا قد توغلوا داخل البلاد المنتجة للحرير ، وعلى الأرجح فى « خوتان » (فى حوالى عام ٥٥٢) (١) .

وهكذا نشأت صناعة الحرير فى الامبراطورية اليونانية .

وفى عام ٥٦٨ استطاع خليفته جوستين الثانى أن يعرض هذه الصناعة بكامل طاقتها على سفير تركى كان حاضرا فى بلاطه (٢) . ومع ذلك انقضت عدة سنوات قبل أن يتيسر للصناعة الوطنية أن تنتج قدرا من الحرير الخام يكفى لسد المطالب كلها . وكان لزاما عليها ، لزمن طويل أن تستورد من الصين الجزء الأكبر من المادة الأولية ، وأحسن أصناف الحرير ، وأن تتحمل الشروط القاسية التى يفرضها الفرس ، الوسطاء الحثميون لهذه التجارة . وكانت السفارة التركية فى عام ٥٦٨ فرصة مواتية بنوع خاص للوصول عن طريق آخر الى الغاية المنشودة ، وإن ارتبطت هذه المسألة ارتباطا وثيقا بتغيرات طرأت على الحالة السياسية فى آسيا الوسطى ، يتعين التحدث عنها لفهم ما أعقب ذلك من أحداث .

Procop. De bello gothico IV, 17, Excerpta e Theophanis historia, éd. Bonn, p. 484.

يبدو من الوصف الذى قدمه ريشتهوفن (China I 450 et s.) أنه من الراجح أن سرندا

Serinda ' بروكوبوس ليست سوى خكتان Khtan

(٢) تيوفان Theophan ، المرجع السابق .

كان جوستينيان لم يزل متربعا على العرش في العصر الذي بلغت فيه قبيلة تركية أطلق عليها الصينيون اسم « طوكيو » Toukiou في وسط آسيا درجة كبيرة من القوة والسلطان . فمن ناحية بسطت هذه القبيلة سيادتها من سهوب بحيرة بلخاش Balkhach (حيث مقر خانها الأكبر (١)) في وسط آسيا) حتى الحدود الغربية والشمالية للصين ، وأمسّت تهددها تهديدا خطيرا ؛ ومن ناحية أخرى انتشرت القبيلة على طول نهر أوجزوس (جيحون) ، فأخضعت تركستان وتوخارستان Tokharestan وبخارى ، وكل البقاع التي تليها حتى بحر قزوين ، وقضت على امبراطورية الهون الافتالتيت (٢) . وفي الجنوب الشرقي وقفت سلسلة جبال الهندكوش أول عقبة في طريق تقدمها (٣) . وعلى ذلك كانت الامبراطورية التركية الجديدة بمثابة ركن غائر بين الصين وفارس ، حتى كان على البضائع المرسلة من الصين صوب الغرب أن تمر حتما عبر اقليمها ، لمدة طويلة من الزمان بنوع ما . ولدينا في هذا الخصوص معلومات تفصيلية دقيقة واردة في التقرير الذي قدمه بيكيو Peikiou حاكم الحدود الصينية عن حالة « الطرق التجارية بوسط آسيا في مستهل القرن السابع (٤) » .

وكانت هناك ثلاثة طرق تربطها بعضها ببعض ، طرق قرعية بحيث كان

(١) في الامكان أن نحدد على وجه التقريب موقع هذا المقر بدلالات ثلاث : أولا ، وصف طريق الشمال التجارى كما ورد في « أخبار بيكيو Relation de Peikiou (أنظر فيما بعد) ، ثم رواية زيماركوس بيزنطين Zemarchos Byzantin بشأن سفارته ، ونجدها في ، Exc. e Menandri hist p. 381 et ss. وأخيرا في « سيرة الحاج الصينى هيونتسانج بقلم هويل Hœili وينتسونج Yenthsong ، الناشر ستانيسلاس جوليان ص ٥٥ وما بعدها .

Exc. e Menandri hist p. 354; Theophan p. 485. Theophyl. Simoe, (٢) p. 283.

(٣) من امبراطورية طوكيو وامتدادها أنظر Supplément de la bibliothèque orientale صفحة ٤٠ وما بعدها ، كذلك .

— Klaproth, Tableaux historiques de l'Asie, p. 115 et ss;
— Stanish, Julien, Documents historiques sur les Toukiou, dans le Journ. asiat, Série VI, t. III.

ولم يتيسر معرفة مدى اتساع هذه الامبراطورية غربا وجنوبا الا منذ ظهور أخبار رحالة هيونتسانج : (Mém. I p. 16, 17 et s., 23; II p. 190-195, 478 et s. راجع سيرته بقلم هويل وينتسونج ص ٦١ .

Neumann, Asiatische Studien, I. p. 187 et ss; Ritter, Asien, V. (٤) p. 563 et s.

ولن نلتفت الى الطرق التجارية الثلاثة التي وصلها ، حسب مصادر أكثر قدما ، ابل ريموزات : Abel Rémusat, Remarques sur l'extension de l'empire chinois I. I. p. 121 et s.

من السهل المرور من طريق آخر . وتبدأ الطرق كلها من الحدود الصينية حتى تجتاز صحراء جوبي . وأول نقطة مسكونة يصل إليها طريق الشمال هي واحة « خاميل » أو « هامى » Hami Kkamil (وكانت تسمى فى ذاك الحين ايجو Igou (١) . ومن هناك يمتد الطريق الى الشمال ، ويقطع الجبال المجاورة لبحيرة برقول Barkoul (وكانت تسمى وقتئذ بولوى Pouloui (٢) ، ويجتاز نهر دزونجارى Dzoungari الحالى ، ويمس بنواحي بحيرة بلخاش ديار قبيلة « الاوجوريك - تاى لو » ouigourique des Thie-le (٣) ، ثم مقر الخان الأكبر لقبيلة طوكيو ، تم يمتد غربا فيصل الى مدينة تلاس Talas الواقعة على النهر الذى يحمل هذا الاسم ؛ وهو ممر مشهور فى العصر الوسيط كله ، حيث وجد هيونتسانج Hiouentsang حوالى عام ٦٣٥ تجارا من بلاد مختلفة مقيمين بها (٤) - وهذه حقيقة ثابتة ، ولو أنها لم تذكر فى التقرير . ويجتاز الطريق بعد ذلك نهرا يسير صوب الشمال ، لابد أنه نهر سرداريا Syrdaria (باجزارت Iaxarte) أو سيحون وبعد هذا لا يذكر التقرير سوى المواضع النهائية لبيزنطة ، وبحر « الغرب » . وهذا الأخير مصطلح له عند الصينيين عدة معان .

وفى حين يجتاز طريق الشمال أقل أقاليم الإمبراطورية التركية خصوبة، كان طريق الوسط يجتاز أكثر الأقاليم ثراء وخصبا ، فيمتد جنوبا بمحاذاة جبال سيان شان Thian-Chan ويمر بدورفان ، وكاراشان ، وكوتشن ، وهى مقاطعات وجد بها هيونتسانج أيضا حركة تجارية ومناجم غنية يجرى استغلالها (٥) ويجتاز خانق تريك Térek الجبل غربى الكاشغار Kaschgar ثم يتجه الى اقليمى فرغانة Feghâ وأوسروشنال Osrouchnal

Vivien de Saint-Martin, notes à Hiouentsang, Mémoires, II, 263; (١)
Ritter, Asien, I, p. 357.

Ritter, Asien, vol. I, p. 379. Stanisl. Julien dans le Journ. asiat, (٢)
Série IV, VIII p. 239.

يبدو لي من الجراء بعض الشيء أن نعتبر بحيرة بولوى Pouloui هى نفسها بحيرة لوب Lop. كما يدعى نيومان (المرجع السابق ص ١٩٣) ، ورينيهوفن (China I, 530)

(٣) ي خصوص مواطن هذه القبيلة أنظر : Ritter ، المرجع السابق، ص ٣٤٥ ، ٤٤١
وكلاندروث : Klaproth, Tabl. hist de l'Asie, p. 127.

Mem. I, p. 14. (٤)

Bretschneider (Notices of the medical geography p. 38. يثبت كل من :

Richthofen (China I, 542 et s.) و :

أن تلاس القديمة لا بد أن تكون موجودة إما فى موقع حصن أولى - آتا

الحال أو بجواره .

Mém. I, p. 2-4. Hist de la vie de Hiouentsang p. 47, t. s. (٥)

مارا بأسواق بلاد الصغد القديمة (سمرقند ، وبخارى) • ومن هناك ينحرف صوب الجنوب الغربى ، ويجتاز ميرف Merv حتى يصل الى امبراطورية الساسانيين (١) •

أما الطريق الثالث فإنه يجتاز القسم الجنوبى من الامبراطورية التركية • وكان على المسافر الذى يسلك هذا الطريق أن يقطع أولا مسافة طويلة عبر الصحراء جنوب غربى بحيرة لوب Lop حتى مملكتى خوتان ويرقند Yarkand اللتين كانتا فى ذلك العصر على درجة كبيرة من الحضارة وبعد أن يجتاز هاتين المملكتين ، يجتاز غالبا هضاب البامير Pamir المرتفعة ، وإقليمى باداقشان Badakschan وتوخارستان Tokharestan ويصل أخيرا الى الهند عبر ممر باميان Bamian ومدينة غزنة Gazna (بأفغانستان) (٢) •

وهكذا ، فهما كان الاتجاه المتخذ للوصول الى الغرب ، كان الحرير وسائر منتجات الصين وبلاد شرقى آسيا بعامه ، تمر عبر الامبراطورية التركية العظمى • ولسنا نعرف كيف كان الترك أنفسهم ، وهم شعب من الرعاة والمقاتلين الذين لم يزلوا من البدو المتنقلين ، يعملون عمل الوسطاء فى التجارة • غير أنه كان فى الاقليم الذى يحكمونه قبائل مستقرة ، تزاوالت التجارة هنا وهناك • وقد اجتاز هيونتسانج اقليما تطفنه احدى هذه القبائل ، فابتعد عن الطريق الأوسط بعد أن اجتاز فى شمالى مدينة أكسو Aksou الحالية جبل مز - تاج Muz-tag وسار بمحاذاة بحيرة اسيكول Issikoul ، متجها الى تلاس •

وكانت القبيلة والاقليم يعرفان باسم سولى Souli والمدينة الرئيسية سوشيه Souché (حاليا تكماك Tokmak) ، كما كان هناك تجار من مختلف الممالك ، وندف السكان يمارسون التجارة (٣) • وكان فى فرغانة أيضا أهال يمارسون التجارة ، الا أن سكان مدن الصغد كانوا قبل غيرهم يشتهرون بأنهم تجار أكفاء ، وصناع بارعون • وإذا كانت سمرقند تجمع فى سوقها

(١) فى خصوص هذا الطريق ، انظر أخبار رحلة هيونتسانج ، وآبل ريموزات : Nouv. mélang asiat., I, p. 200 et ss.

(٢) اتخذ هيونتسانج عند عودته الى الصين نفس الطريق • وينبع أخباره ، والاسنعة بالشرح الممتاز الذى قدمه فيفيان دو سان مارتان ، نجد كل محطات هذا الطريق الجنوبى على وجه التقريب • راجع : ريشهوفن ، المؤلف السابق ذكره •

(٣) هيونتسانج (Mém. I, p. 12 et s.)

— فسر ريشهوفن (China, I, 41 et ss) هذه الفقرة بأحسن مما فسرهما فيفيان دو سان مارتان الذى لم يتسن له — فى العصر الذى كتب فيه — أن يستخدم الأبحاث التى تجرى فى روسيا فى الوقت الحاضر •

كميات هائلة من أثمن بضائع البلاد الأجنبية ، فانها تدين بذلك بالأخص لذكاء سكانها ونشاطهم (١) .

وكانت القوافل النسي تحمل حرير الصين تتجه صوب بلاد الصغد بنوع خاص ، ومنها تنجى الى فارس . غير أنه منذ أن خضعت هذه البلاد للترك ، لم يعد المرور بهذا الطريق ميسورا كما كان من قبل . وكان الملوك الساسانيون يخافون على سلطانهم من جوار هذا الشعب الغازي : اذ كان في مقدور جيش تركي غازی أن يتوغل بسهولة في الاقليم الفارسي خلف القوافل الصغدية . وعلى ذلك حظر هؤلاء الملوك على رعاياهم أن يشتروا الحرير من أهل الصغد . وبناء على طلب هؤلاء الآخرين ، أوفد أحد نواب الملك التركي . (ويدعى تيثيولي Titheupoli عند الصينيين ، وديزابولوس Dizaboulos أو سيلزبولوس Silzaboulos عند اليونانيين (٢)) وكان حاكما للقسم الغربي من الامبراطورية التركية ، أوفد بعثة الى فارس لوضع حد لهذا التوقف في التجارة . ولم يأت هذا المسعى بنتيجة ، اذ لم يسمح ملك فارس بدخول أى حرير آت من الامبراطورية التركية .

وكان المبعوثون قد أتوا اليه معهم ببعض الحرير ، فدفع لهم ثمنه ، ولكنه أحرق الحرير أمام أنظارهم . وجاءت بعثة ثانية لقيت هي الأخرى استقبالا أسوأ - وعلى ذلك اضطر أهل الصغد الى البحث عن سوق أخرى لتصريف حريرهم . وأقنع زعيمهم مانياك Maniach خان الترك أن يوثق علاقات الصداقة بالبيزنطيين بقصد أن يبيع لهم الحرير مباشرة ، اذ كانت الأمة البيزنطية تستهلك الحرير أكثر من أية أمة أخرى . وسافرت البعثة الى بيزنطة عن طريق القوقاز ، وسافر معها مانياك نفسه ليفتح الطريق التجاري الجديد . وأحسن الامبراطور جوستين الثاني وفاة المبعوثين ، وبعث بدوره «الزيمار le Zimarque» ليؤكد صداقة الترك والبيزنطيين . حدث هذا في سنتي ٥٦٨ ، ٥٦٩ (٣) .

ومن المفيد معرفة الطريق الذي كان يسلكه تجار الحرير الصغديون في هذا الوقت لكي يسلموا بضائعهم للبيزنطيين مباشرة ، دون أن تطلأ اقدامهم الاقليم الفارسي . فقد كان الساحل الجنوبي الغربي لبحر قزوين خاضعا

(١) المرجع السابق صفحة ١٨ وما بعدها ، كذلك :

— Abel Rémusat, Nouv. méi I, p. 202, 228 et s.

— Géographie de Moïse de Charène dans Saint - Martin, Mém. sur l'Arménie, II, p. 375.

(٢) لا يجوز الخلط بينه وبين موشان Mouchan ، خان الترك الأكبر في هذا العصر .

Neumann, Die Völker des südlichen Russlands, p. 113.

راجع :

Excerpta ex Menander, p. 295 et ss.; 380-385; ex Theophan, (٣)

p. 484 et s.

لسلطان الفرس ، وكان على التجار من أهل الصغد دون شك أن يدوروا حول هذا البحر من ناحية الشمال ليصلوا الى الاقليم البيزنطى ، اما عند مخرج بحر أزوف ، واما على الساحل عند مشارف القوقاز . غير ان المصادر لم تذكر بالمرّة شيئا عن هذا الموضوع . وفى البداية نشطت العلاقات بين الجانبين : فقد سافر مبعوث تلو مبعوث من القسطنطينية الى الامبراطورية التركية ، وعاد كل منهم ومعه قوافل تركية كاملة ، بحيث ارتفع عدد الاتراك الذين استقروا فى القسطنطينية بحجة مزاوله التجارة الى بضع مئات فى زمن وجيز (١) . وكان العدد الأكبر من هؤلاء بطبيعة الحال من أهالى بلاد الصغد ، أى من الذين اعتبروا أتراكا ، الا أن علاقة المودة بين خان الترك وبين الامبراطور البيزنطى لم تستمر وقتا طويلا : فقد استقبل السفير فالتين الذى بعثه الامبراطور تيبيريوس عام ٥٧٩ باللوم والعتاب بسبب سياسة الخداع التى اتبعها البيزنطيون . وردا على طلباته الملحة للاستمرار فى روابط الصداقة ، قام الترك بمحاصرة مدينة البسفور (كيرتش) (٢) .

وفى النصف الأول من القرن السابع انهارت الامبراطورية التركية . وكان خانات الترك فى عهد قوتهم قد أغاروا مرارا على الصين ، ولكنهم صاروا بعد ذلك تابعين لها (٣) . وابتهجت القبائل التى تمارس التجارة فى اقليم نهري أوجزس وياجزارت لهذا التغيير : فقد أصبح فى مقدورها أن تصل اليها قادمة من الصين دون أن تصادف أية عوائق (٤) . ومن ذلك الحين أيضا ، لم يعد الساسانيون يخشون أى شيء من جانب الترك . ومن ثم كفوا عن الاعتراض على مرور القوافل عبر اقليمهم ، واستردت الحركة التجارية طريقها القديم . كذلك لم يستمتع البيزنطيون بخلاصهم من سيطرة الفرس الا سنوات قليلة . وهم وان لم يستفيدوا كثيرا من علاقاتهم المباشرة مع الترك ، لكنهم اكتسبوا مع ذلك معلومات صحيحة عن شعوب الشرق الأقصى ، وحضارتها ، وطبائعها ، وصناعاتها ، وتجاريتها . (٥)

Exc. ex Menandr p. 397 et ss.

(١)

Menandr, 1. C.

(٢)

Klaproth, Tabl. hist. p. 118-120; Richthofen, China I, 530.

(٣)

Abel Rémusat, Nouveaux mélanges asiat. I, p. 231.

(٤)

(٥) كان المؤرخ تيوفيلكتس سيموكاتا يملك كل ما يلزم لاعطاء معلومات تفصيلية دقيقة عن

حالة شرق آسيا وبخاصة عن انتاج الحرير فى هذه المناطق (éd. Bonn, p. 283, 286-288)

ولم تكن بلد التوجا Taugas التى وصفها سوى الصين ، ومدينة شبدان Chubdan (خمدان

Khumdan) الواقعة فى هذا البلد هى مدينة هسى - نجان - فهو الحالية Hei-ngan-fou.

وهى تشانج - نجان فى ذاك العصر : ولم بعد ثمة شك فى صحة هذا منذ أبحاث كلادوت

(Klaproth, Mémoires relatifs à l'Asie, III, p. 261-264).

(Cathay and The Way : Yule

(China I, 551 et s.) ورشستر (Thither T. I. p. XLIX - L111.)

الى الآن لم نعتبر الشعب الفارسي الا كوسيط بين آسيا وبيزنطة .
ولا بد ايضا من البحث عن كميات بضائع الشرق الأدنى التي يمكن استهلاكها
داخل فارس نفسها . فالواقع انه اذا كان الفرس يصرون على أن يمر حرير الصين
ببلادهم ، فذلك ليضمنوا لصناعتهم الوطنية ما تحتاج اليه من مواد أولية .
وينوه هيونتسانج الذي سار بمحاذاة حدود فارس الشرقية في مستهل القرن
السابع بمهارة صناع هذا البلد في نسج الأقمشة الحريرية والصوفية والسجاد .
كما نوه بتقدير الممالك المجاورة لمنتجاتهم (١) . وكان ينولى تدريب هؤلاء
الصناع عمال أجانب قادمون الى فارس طوعا أو كرها من البلاد الآسيوية الخاضعة
لبيزنطة .

واذ اتبع جوستينيان نظاما احتكاريا غير سليم، يضر بنساجي الحرير بمملكته
ضررا بليغا ، فقد هاجر عدد كبير منهم الى فارس (٢) واستقدم الملك شاهبور
الثاني بالقوة عددا اخر من هؤلاء النساجين مع الغنائم التي عاد بها من حملته
المظفرة في بلاد ما بين النهرين وسوريا . وبعد انقضاء بضعة أجيال ، لم يزل
هناك تقليد راسخ ينسب الى هذه المسنوطات البيزنطية الأصل صناعة الحرير
في توسنر 'lousner' وسوسة 'Sous' ومدن أخرى في فارس (٣) . وكان لابد من
توفير كميات كبيرة من الأقمشة الثمينة لاشباع بذخ البلاط الساساني . وحين
هزم جيش الروم البيزنطيين بقيادة الامبراطور هرقل الفرس في عام
٦٢٧ واستولى على قصر يزدجرد Oastagerd الملكي وجد به الكثير من الحرير الخام
وأكداسا من الثياب الحريرية الكاملة ، وسجاجيد مزركشة ، وأشياء أخرى
من هذا القبيل . ولنا أن نفترض أنها من منتجات الصناعة المحلية .

وكانت الغنيمة التي ظفر بها جيش الروم البيزنطي في تلك المناسبة
تتضمن أشياء أخرى تهمننا كثيرا ، منها كميات كبيرة من التوابل ، مصدرها
الهند بلا شك ، من فلفل ، وزنجبيل ، وصبر ، وخشب الصبار . وقد ألفت
هذه الأشياء كلها في النار ، مع غيرها من الأشياء ، إذ لم يكن في المستطاع

Mémoires II, 179. Vie de Hiouentsang p. 208.

(١)

Procop. Anec. p. 142.

(٢)

(٣) المسعودي « مروج الذهب » الجزء الثاني صفحة ١٨٥ وما يليها .

ياقوت : معجم فارس الجغرافي ، الناشر ياربييه دو مينار ، ص ٢١٧ وما بعدها

لم يكن للصين تأثير في هذا النطاق ، في حين كان لها تأثير في (ما وراء نهر اوكسيان)

Trans-oxiane. حيث ترجع صناعة الحرير في نيجارى الى ما قبل الفتح العربي لهذه البلاد .

بيد أنها لم تبلغ ذروة ازدهارها الا في عهد سيادة السامانيين (في حوالى عام ٩٠٠) .

Vambéry, Skizzen aux Mittelasien p. 182 et s. 208.

أنظر :

Geschichte Bochara's oder Transoxaniens I, 78.

وكذا :

حملها كلها (١) يضيف الى هذا أنه عندما استولى العرب على المدائن (طيشفون) عاصمة مملكة الفرس الساسانيين عام ٦٣٦ - ٧٣٦ وجدوا بها كميات كبيرة من المسك والعنبر وخشب الصندل ، وكمية من الكافور تكفي لشحن سفينة بأكملها : والمادة الأخيرة تنتج فقط من الجزر الواقعة فيما وراء الهند ، ولم يكن العرب قد رأوها من قبل فظنوا أنها ملح ، وخلطوها بخبزهم ليعطيها مزيدا من المذاق (٢) . كل هذا ينبت لنا أن ترف بلاط الساسانيين كان من الأسباب التي جذبت الى فارس حركة التجارة في الشرق الأدنى .

وبعد أن يحتجز الفرس مؤونتهم من البضائع المارة ببلادهم ، يبقى من هذه البضائع كميات هائلة بنقل مباشرة الى الامبراطورية البيزنطية . ولم يشأ بلاط القسطنطينية أن يكون متخلفا عن البلاط الساساني في روعته وترفه . فقد كان يلذ للأباطرة أن يحيطوا أشخاصهم في حفلاتهم الفاخرة بجمع من الحاشية الذين يرتدون أثوابا من الحرير والنسيج الأرجواني . وفي أعيادهم الرسمية كان المدعوون الى الولائم يجلسون في قاعات يشمع في جوها عير خشب الصبر ، ويتلقون هدايا من ثياب حريرية فاخرة (٣) . ولهذا الغرض وحده كان من الضروري توفير كميات كبيرة من التوابل والقمشة الشرقية الثمينة . غير أنه كان هناك سبب آخر يدعو البلاط الروماني لاستهلاك كميات كبيرة من منتجات الشرق، وهو سبب سياسي : فقد كان البلاط حريصا على أن يعرض على أنظار برابرة الشمال صلاته التجارية بالبلدين العجيين ، الهند والصين . وكلما ضعفت إمكانية الإيهام باستعراض مظاهر القوة والجبروت ، زادت الحاجة الى استخدام مثل هذه الوسائل لتأكيد تفوق الامبراطورية الرومانية .

ومهما كانت روابط الصداقة بين أمير بربري وبين بيزنطة ضعيفة فان هذه كانت تهدى اليه او الى مبعوثيه أقمشة حريرية وأحجارا كريمة، وفلفلًا، ومنتجات شرقية أخرى (٤) . كذلك كانت كميات كبيرة من الحرائر تذهب الى الغرب ، يهديها الامبراطور الى كنائس أو الى رؤساء الكنائس ليصنعوا منها ثيابا وحليا ، أو الى بعض الأمراء اعلاء لهيبه بلاطهم .

Theophan. I, 494; Cedrenus I, 732.

(١)

Ritter, Asien, VII, Sect 1, p. 173; Weil, Geschichte der Chalifen, ٢١, p. 75. Justi, article sur l'édition de Tabari par Zotenberg, dans l'Ausland, 1875 no. 16, p. 309.

Constantin Porphyrog. De cerimonüs Aulae Abvantinae. passim : (٣) Theophanes continuatus p. 457.

Excerpta ex Prisci historia, p. 171, 18E; ex menandr p. 203; (٤)

Theophanes, I, p. 429; Theophylact. Simoc. p. 294; Theophanes Continuatus, p. 343.

ولما كان أباطره بيزنطة يريدون أن يكون في حوزتهم دائما قدر كاف من الأقمشة لسد حاجاتهم ، ولينحوها هدايا فاخرة ، فانهم كانوا يبذلون كل جهدهم لتشجيع تجارة الشرق الأدنى . ولم تكن المصالح التجارية مهمة في المفاوضات التي تجرى مع أمراء فارس أو أثيوبيا ، بل كانت في الغالب هي الموضوع الرئيسي (١) ، غير أن الأباطرة كانوا يفعلون أكثر من ذلك ، كانوا يهتمون اهتماما مباشرا بالتجارة والصناعة . وكانت المبادلات التجارية بين رعاياهم وبين الفرس لا بد أن تتم ، طبقا للمراسيم في بعض المدن الواقعة على الحدود ، وفي هذه المدن مندوبون عن الأمباطور يطلق عليهم في عهد جوستينيان اسم *commercianae* وقبل هذا العهد اسم *comites commerciorum* ولم تكن وظائفهم قاصرة على واجبات محصلي الرسوم الجمركية ، ولكنهم كانوا أيضا بمثابة وكلاء في عمليات شراء الحرير الخام (٢) . وكانت مشترياتهم في أغلبها تخص دور الحرير بالقسطنطينية ، وتخضع لرقابة أمين خزانة الأمباطورية *comes largitionum* . ويتولى بعض العبيد الملحقين بخدمة البلاط تصنيع الحرير الخام ، فينسجونه ، ويصبغونه ، ويصنعون منه كل الأقمشة التي يحتاج إليها البلاط . وكان من المحظور على أى شخص خلاف هؤلاء العبيد أن يصنع أى نوع من الأقمشة الثمينة (٣) . وكانت هذه الورش في دور الحرير الأمباطورية تنافس الصناعة الخاصة منافسة شديدة ، ومع ذلك عاشت الصناعة الخاصة ، المحدودة في انتاجها ، والتي تجد مشقة في تصريف هذه المنتجات . ولم يكن موظفو الجمارك يسلمون البلاط كل ما يشترونه من حرير خام ، فقد كانوا ملزمين بأن يبيعوا جزءا منه بثمان التكلفة الى الأفراد الذين يتاجرون به أو يصنعونه . وكان هذا الاجراء يتيح في الغالب لتجار الحرير أو صناعه أن يشتروا الحرير بثمان أقل كثيرا من الثمن الذي يشترونه به عندما يتعاملون مع الفرس ، فمن شأن المنافسة أن ترفع الأسعار (٤) . ثم انه كان من أثر موقف الفرس العدائي ، وكثرة انقطاع العلاقات بسبب اندلاع الحروب أن بقي الحرير مادة مرتفعة الثمن .

كانت المراكز الرئيسية لصناعة الحرير في الدولة البيزنطية ، بخلاف دور الحرير في القسطنطينية ، موجودة في سوريا ، وبخاصة في صصور

Les Excerpta e Menandri hist.
p. 361; Theophanes I, 377.

(١) قارن ببعض الأمثلة المطاة قبلا :

Zachariae Eine Verardnung Justinians, 1. c. p. 8 et ss.

(٢)

(Pariset, Histoire de la soie, 1, 161 et s.)

(٣) يعرض باريزيه

مجموعة المراسيم الخاصة بقصورات الحرير

Zachariae, 1 c. p. 9 et ss.

(٤)

وبيريت Béryste (١) . وكانت سوريا من أكثر أقاليم الامبراطورية ازدهارا . ويقول بروكو بيوس(٢) في معرض حديثه عن أنطاكية عاصمة هذا البلد أنها أولى المدن الرومانية الشرقية بثرائها ، واتساعها ، وسكانها ، وجمالها ، وآثارها ، ويبدى انطونين مارتير S. Antonin Martyr دهشته من مظاهر البذخ السائدة في أنطاكية ، وكذا فخامة أباميا Apamée وبيريت وغزة(٣) . غير أن هذه الروعة ما لبثت أن خبت قليلا حين حدد الامبراطور جوستينيان ثمننا أعلى للأقمشة الحريرية . ومن ثم لم يستطع التجار والصناع أن يواصلوا نشاطهم ، وحل الخراب بالمصانع التي فرضت عليها رسوم باهظة ، وعانت من احتكار شاذ ، واضطر عدد كبير من العمال الى الهجرة(٤) . بيد أن هذه الحالة لم تكن سوى حالة عرضية . فبعد فترة وجيزة دخلت تربية دود القز في البلد ، ولم تعد الصناعة في حاجة الى شراء المادة الأولية من الخارج بأسعار مرتفعة ، وأصبحت قادرة على انتاج الحرير في البلد بنفقات قليلة ، ومن ثم ازدهرت .

وفي تصورنا أن الصناع السوريين لم يفتهم أن يملأوا البلد بمزارع أشجار التوت ، وكان ريشتر Richter محقا حين أرجع بداية زراعة هذه الأشجار في ضواحي بيروت الى القرن الأخير من عهد السيادة البيزنطية في سوريا(٥) .

ولم يكتف السوريون بصنع الحرير ، ولكنهم كانوا أيضا تجارا نشيطين يصدرون الى جهات نائية مع الحرير أنواعا أخرى من منتجات الشرق الأدنى(٦) . ويتحدث عنهم س. جيروم S. Jérôme قائلا انهم تجار جشعون ، يجوبون بقاع العالم كله ، ومعهم بضائعهم ، متحدين بالبؤس والموت ، وغارات البرابرة ، باحثين عن الثروة حتى في امبراطورية الغرب(٧) . وحين قويت سيادة الألمان على اقليم الامبراطورية ، زادت تجولات التجار

(١) Procop. Aneed, cop. 25 (éd. Dindorf, III, p. 140).

Antoninus Martyr trouve à Tyr, vers 570 «gynoecea publica et olosericum et diversa genera telarum». (De locis sanctis, éd. Tobler, cap. 2, p. 5. et Tabler et Molinier, Itinera hiero-solymitana, I, p. 92).

De bello persico II, 8. (٢)

Ed. Tobler et Molinier p. 92, 109, 118. (٣)

Procop. Aneed 1, c. p. 140-142. (٤)

Erdk XVII, 1, p. 496. (٥)

Procop. Aneed, p. 140. (٦)

Hieron Ep. ad Demetriadem, ed. Maurin, IV, 2, p. 788. Id., In Ezech. (٧)

27, 16 ib, 111 p. 885.

السوريين في البلاد الرومانية ، واستقر بها عدد كبير منهم . وهكذا نجد في عصر الميروفنجيين بعض السوريين ، وقد استقر بهم المقام ليس فقط في المدن التجارية جنوبى فرنسا ، مثل ناربون ، وبوردو ، ولكن أيضا في وسط فرنسا ، في أورليانز ، وتور ، حيث اختلطوا اختلاطا شديدا بباقي السكان حتى لم يعد في الامكان اعتبارهم من الأجانب ، ففي أورليانز كانوا يشتركون في الأعياد الدينية ، وفي باريس تربع واحد منهم السدة الأسقفية (١) . وفي عصر جريجوريوس أسقف تور ، لم يكن نبذ غزاة بالشئ النادر في بلاد الفرنجة ، بل أصبح يرد الى هذه البلاد أكياسا جلدية من فينيقيا (٢) . ولا شك ان التجار السوريين هم الذين كانوا يستوردون هذه الأشياء . وعندما ازداد الترف في بلاط الميروفنجيين ، واعتاد الرجال والنساء هناك أن يلبسوا ثيابا حريرية فاخرة (٣) ، واستقر في الكنائس عادة تغطية المذابح بالحرير ، ولف الآثار القيمة به ، واستخدامه في صنع ثياب القساوسة ، من كان اذن يستورد هذه الأقمشة الى فرنسا غير التجار السوريين ؟

كان اقليم سوريا ، حسب الظواهر كلها يفوق سائر الاقاليم بنشاطه الصناعى والتجارى . ومع ذلك كانت مصر سوقا واسعة لواردات الشرق ، وكان جزء من هذه الواردات يأخذ طريقه الى الغرب عبر البحر المتوسط . وكانت مصر نفسها تنتج عددا من السلع للتصدير . وفي عهد جريجوريوس أسقف تور ، كان البردى يصل بالتاكيد الى مرسيليا عن طريق البحر (٤) ، غير أنه لا يوجد ما يشير صراحة بأن الروم في مصر كانوا ينقلون بضائعهم بأنفسهم الى فرنسا أو إيطاليا ، أو أنهم أقاموا منشآت تجارية في ثغور هذين البلدين . ومن جهة أخرى ، ليس من الغريب الا نجد في مؤلفات جريجوريوس أسقف تور أو في الوثائق الرسمية في العصر الميروفنجى أسماء لتجار روم من القسطنطينية أو غيرها من الاقاليم الأوروبية التابعة للإمبراطورية

Acta concil. Narbon. a 589, can. 4 dans Monsi, Coll. conc. IX, (١)
1015; Grég. de Tours Hist. Franc. VII, 31, VIII, 1, X, 26.
Id De glor. mart cap. 95; Vita Columbani, dans Mabillon, Acta ss. ord. Bened. saec II, p. 19.

أنظر أيضا بونامي Bonamy عن فقرة خاصة بحريجوار دو تور
Grégoire de Tours, (Hist de l'Acad. des Inscr), XXI, Paris, p. 96 et ss.
Deguignes, Mém. sur l'état du commerce des Français dans le Levant
avant les croisades, (Mém de l'Acad. des Inscr). XXXVII, p. 472 et s.

Greg. de Tours, Hist Franc. VII, 29, De gloria confess. cap. 65; (٢)
De gloria martyr. cap. 112.

V. Audoeni Vita S. Eligii passim; Vita S. Clodoaldi, dans Mabillon, (٣)
Acta ss. ord. Bened. soec. I, p. 136.

Grég. de Tours, Hist. Franc. V, ٤. (٤)

الشرقية (١) ، ذلك رغم كثرة المبعوثين الموفدين بين بلاط انشرو والمملوك المروفنجيين .

نستطيع اذن على آية حال أن نؤكد بأن الروم الحقيقيين لم يكن لهم نصيب فعال فى العلاقات التجارية بين الشرق والغرب مثلما كان للسوريين ؟ واذا كانوا قد لعبوا دورا هاما فى هذا المجال ، فربما كان ذلك فى ايطاليا(٢) ، لأن هذا البلد لا يفصله عن أقاليم الامبراطورية الشرقية سوى البحر الأدرياتي ، وكان تابعا لهم بعض الشئ من الوجهة السياسية .

وفى أسبانيا حيث مارست الدولة البيزنطية سيادتها زمنا طويلا (حتى عام ٦٢٥) على السواحل الشرقية والجنوبية الشرقية ، يمكن أن نفترض أن الروم هم الذين حملوا اليها جزءا من منتجات الشرق التى كانت منتشرة فى تلك الاصقاع (٣) . والواقع يذكر « الشماس الانجيلي » بول مريدا Paul de Mérida أن التجار الروم القادمين من الشرق كانوا يصلون (على الراجح عن طريق نهر جواديانا) الى بلدته الواقعة بعيدا فى داخل البلاد (فى قشتالة الجديدة) حيث يهدون بضائعهم لأسقف المنطقة (٤) . وكانت قوانين القوط الغربيين (٥) تحتوى على تعليمات متعلقة بالتجار الذين يعبرون البحار transmarini negotiatores . ولا ريب أن هذه التسمية كانت نطلق أولا على تجار شمال أفريقيا . ومع ذلك يحتمل أنها تنصرف أيضا الى الروم ، حيث لا يمكن التثبت من مصدر تلك البضائع بطبيعتها(٦) .

وفى البلاد الجرمانية الأصلية ، أو الجرمانية الرومانية ، لم يبد على الأهالى استعداد كاف لمزاولة التجارة ، وبخاصة التجارة البحرية التى تتطلب مزيدا من الجهد والوقت والمال أكثر مما تتطلبه التجارة الداخلية . وكان للجرمان بنوع خاص عادات بدائية بسيطة ، ولم يكن بهم حاجة الى استيراد

(١) فى فقرة من مرارات مجمع ناربون Marbonne الدينى لعام ٥٨٩ (Mansi المرجع السابق ذكره) فى شأن الراحة الأسبوعية ذكر اليونانيون باعتبارهم يشكلون قسما من السكان ، متميزين عن القوط والرومان واليهود والسوريين . بقى أن نعرف ما اذا كان هؤلاء اليونانيون ينتمون الى طبقة التجار .

(٢) نحد مع ذلك هاهنا أيضا سوريين ، فى بعض الجهات ، يذكر بروكوبيوس فى (De bello goth. 1, 8) واحدا منهم ، يدعى انتيوخس Antiochus كان يقطن فى نابولي .

(٣) Romey, Hist. d'Espagne, II, 357.

(٤) Paul, disc. Emerit, De vita patr. Emerit dans Florez Espana sagr.

XIII, 348.

cmfh drétrmtf

Lex Visigoth. lib XI, tit. 3, 1, 2.

(٥)

Dahn, Ueber Handel und Handelsrecht der Westgothen. نظر بداية (٦)

التوابل والعمور والأقمشة الثمينة من الشرق . وكان كل ما يطمحون اليه هو حيازة الأرض ، فهذه الحيازة وحدها تكفل لهم نصيبا في أهم الحقوق الأساسية في الدولة والمجتمع ، كما تزودهم الزراعة وتربية الماشية بكل مطالب الحياة . وفي تلك العصور المضطربة ، كان الدفاع عن الملكيات ضد الغارات المسلحة ، والالتزام بالخدمة العسكرية المرتبطة ارتباطا وثيقا بملكية الأرض ، أمورا تستنفذ قوة كل انسان ووقته .

وأخيرا لم يكن « الجرمان » يملكون نقودا كافية . والنقود هي أولى الضرورات اللازمة للمشروعات التجارية الكبيرة . وكان الأمر بخلاف ذلك عند « الرومان » الذين أخضعهم « الجرمان » ، اذ كانوا مولعين بالكماليات التي تجلبها تجارة الشرق الأدنى الى الغرب ، فكان ذلك عندهم عادة متأصلة . الا أنهم ، وقد أعيتهم مطالب محصل الضرائب الرومانية ، ثم افقدتهم الغزوات أموالهم ، لم يعد لدى أغلبهم من الموارد ما يكفي لشراء هذه السلع ، أو من المال ما يكفي للمغامرة في مشروعات تجارية كبيرة . ومن الراجح في هذه الظروف أن اقبال التجار السوريين على الغرب لم يكن يقابله سوى تيار ضعيف جدا من القادمين من الغرب الى الشرق .

وثمة أفواج من الحجاج تأتي الى الشرق لزيارة الأماكن المقدسة ، طلبا للتنوير ، أو الاستشفاء ، أو المخلقات النميّة (١) . غير أن أحدا من هؤلاء المسافرين لم يذكر شيئا عن أي تاجر ، اللهم الا في القليل النادر (٢) . وكان المثال الذي يذكر عادة لاثبات أن الفرنجة كانوا يذهبون في عصر الميروفنجيين الى سوريا للتجارة ، ينطبق بالأصح على رحلات التجار السوريين الى فرنسا . والواقع أننا نطالع في حياة القديسة جنفييف (٣) أن القديس سيميون ستيليت S. Simeon Stylite المعروف الذي كان مقيما في أنطاكية كان يبدى إجلالا كبيرا لتلك القديسة الفرنجية ، ويكلف التجار الذين يسافرون الى بلاد الغال أو يعودون اليها ، أي مواطنيه الذين يسافرون الى فرنسا أو يعودون اليها أن يقدموا للقديسة تحياته أو يتحرون أخبارها .

ومن العسير أن نذكر أسماء موانئ بحرية في الغرب تمارس في ذلك العصر نشاطا تجاريا خاصا . ومع ذلك فمن المحتمل كثيرا أن تكون مرسيليا

(١) نحد هذه الحقيقة يشهد بها بالنسبة الى فرنسا جريجوار دو توار : Grég. de Tours, Hist. Franc. 1, 10 : id. De gloria martyrum, cap. 1, 5 6, 19, 21.

Antoninus Martyr

كما يشهد بها بالنسبة الى ايطاليا انطونيوس مارتيز

Fidelis, dans Dicuit, De mensura arbis

وبالنسبة الى انجلترا فيديلس

Grég. de Tours De gloria martyrum, cap. 78. نحد مثلا لذلك في جريجوار دو توار

Acta ss. Jan. I, pag. 140.

(٣)

استثناء من هذه القاعدة (١) ، اذ لم يفقدها الغزو الفرنجي كثيرا من أهميتها القديمة . ولما كنا ندين بهذه المعلومات الى أحد المؤرخين الروم (٢) ، فان لنا أن نمضى شوطا بعيدا ، ونستنتج أن مرسيليا كانت تقيم علاقات وثيقة مع الأباطورية البيزنطية . وكانت مرسيليا الموقع الذى يبحر منه ويعود اليه الفرنجة الذين يسافرون الى القسطنطينية (بصفتهم سفراء أو بأية صفة أخرى) (٣) . ويبدو من جهة أخرى أن المرسيليين كانوا يرسلون سفنا الى مصر لتأتيهم منها بورك البردى (٤) . وفي عهد جريجوار دو توار Grégoire de Tours كان ثمة ناسك يقيم فى ضواحي نيس يعيش فى أيام الصيام ، متشبهًا بنسك مصر على جذور نباتات هذا البلد (أى مصر) ، يأتيه بها بعض التجار ، من مواطنيه ، أى من أهالى مرسيليا ، لا من الأجانب بالتأكيد .

ومن الايطاليين ، اشتهر سكان الجزر (٥) المنتشرة على البحيرات الساحلية شمالي البحر الأدرياتي بجراتهم فى القيام برحلات طويلة (٦) . وليس فى مقدورنا لسوء الحظ أن نعرف الغرض من هذه الرحلات . حقا ان أخبار « الطينو » Altino التى كتبت فى القرن التاسع عشر (٧) تضع على لسان « لونجن » Longin البيزنطى حديثا يفهم منه أن سفن البندقية التجارية كانت تعبر بحار الأباطورية البيزنطية كلها ، وتمضى حتى انطاكية . غير أن هذا الحديث ليس فى الواقع سوى ثمرة من المؤلف لا تثبت أى شئ .

كان البيزنطيون يحتفظون اذن فى البحر المتوسط بسيادة لم يفكر الغربيون أن ينازعوهم فيها . كانوا سادة السواحل التى تنتهى اليها الطرق التجارية الآسيوية ، ويملكون مصر حيث يجلب لهم البحر الأحمر سلع الشرق الأدنى ، وسوريا التى تفرغ فيها حمولة القوافل القادمة من الخليج العربى ، (أو الفارسي) ، أو وسط آسيا ، وأخيرا المواقع الثانوية على البحر الأسود ،

(١) شوهه فى سوق سان ديس فى عهد الملك المروفتى بروفنسين الى جانب لومباردين وامسانين (Pardessus Dipl. II, p. 5.)

Agathias, 1, 2. éd. Bonn. p. 17. (٢)

Grég. de Tours VI, 2, VI 24 VII, 36. (٣)

(٤) المرجع السابق

Grég. de Tours VI, 6. (٥)

Cassiod., lib. 12, e p. 24. (٦)

Arch. stor. it VIII, p. 210; Mon. Germ. hist SS. XIV, p. 48. (٧)

التي تهتم بتجارة الشرق الأدنى ، غير أن العرب انتزعوا منهم في القرن السابع
أهم ولاياتهم الشرقية من حيث التجارة . ثم أن ظهور هذا الشعب على مسرح
العالم كان حدثا من تلك الأحداث التي تؤثر بعمق في كل الاتجاهات . فقد
أجرى في الحبة التجارية بالشرق انقلابات سديدة ، ومن ثم ينبغي لنا دراسته
بدقة قبل أن نواصل دراسة العلاقات التجارية لدى البيزنطيين والغربيين .

● الفصل الثاني :

ظهور محمد (صلعم) وبداية الحروب الصليبية

١ - العرب والطرق التجارية في اقليمهم

من المعروف أنه في الوقت الذي دعا فيه محمد (صلعم) العرب الى عقيدة جديدة ، كان يبت في نفوسهم كرها شديدا للكفار دفعهم الى الانطلاق خارج بلدهم الذي لم يكن معروفا حتى ذلك الحين . وسرعان ما فتحوا سوريا وبلاد ما بين النهرين وفارس من جهة ، ومصر من جهة أخرى (٦٣٥ - ٦٤٤) . ولم ير أصحاب العقول البسيطة في هؤلاء العرب أول الأمر سوى مدمرين لكل حضارة وصناعة وتجارة . ولكن سرعان ما تبين للجميع خلال الحروب التي شنها العرب اهتمام هؤلاء بالحقول المزروعة ، والسكان المسلمين المقيمين بالأرض ، والفتنة التي كانوا يتميزون بها في تنظيم سلطانهم في البلاد المفتوحة .

وكان لابد من التسليم بأن هذه الأمة الجديدة التي برزت بين الأمم العظيمة قد بلغت بالفعل درجة مرتفعة من المدنية ، وأنها قادرة على مزيد من التقدم . غير أنه اذا كان العرب قد تلقوا شيئا من الثقافة قبل عهد محمد ، فان التجارة لم تكن أقل عناصر هذه الثقافة شأنا . وقد اتاحت لنا من قبل فرصة دراسة الدور التجارى الذى لعبته إحدى قبائلهم في الشمال بالحيرة Hira ونجد أيضا عند عرب البحرين ، قبل عهد محمد آثارا لصلات تجارية مع الهند (١) . وفي الجنوب لم تفقد سوق عدن أهميتها بالمرّة (٢) . وكانت القوافل تربط القبائل العربية من الفرات الى اليمن بعضها ببعض .

وكانت مكة قبل محمد مركزا من مراكز العالم العربى الدينية ، يقطنها

(١) أنظر فى Ritter, Erdk, XII, p. 90. الفقرة المقتبسة من قصيده سابقة

على الاسلام .

(٢) يؤكد فيلوسطورج Philostorge مؤلف كتاب فى تاريخ الكنيسة Histoire de l'Eglise

هذه الحقيقة بالنسبة الى القرن الرابع ، المرجع السابق ، ٦٥ .

تجار نشيطون أثرياء ، ونرسل بانتظام قوافل الى الخارج ، كما تستقبل قوافل أخرى عائدة (١) . ومحمد نفسه ، ونحن نعرف أنه قام مرارا برحلات لأغراض تجارية ، لم يضع أية عراقيل أمام هذه الأوضاع . بل أنه لم ير أى خير فى أن يرتب المؤمنون أمورهم بحيث يجمعون بين أعمالهم التجارية وبين حجهم الى مكة ، كما أمرهم بذلك دينهم (٢) . وهكذا أصبحت قوافل مكة أداة قوية لمضاعفة المبادلات التجارية . وكلما انتشر الاسلام اتسعت دائرة البلاد التى كان سكانها يزورون الأماكن المقدسة حاملين معهم الى أسواق مكة منتجاتهم الطبيعية أو المصنوعة . وكل ما فعله الخلفاء ووزرائهم لتسهيل الحج ، وبناء الطرق ، وحفر الينابيع الموزعة على طول الطريق ، وتأمين حياة المسافرين وراحتهم ، كل ذلك أفاد التجارة . وبمرور الزمن ازداد عدد الأماكن التى يحج اليها المسلمون ، واقتربت برغبة العربى فى أداء عباداته فصول غريزى ، وروح المغامرة ، مما يدفعه الى السفر لزيارة بلاد ومدن لا يعرفها . وكان المسافرون العاديون ، شأنهم شأن الحجاج يجدون فى المدن فنادق ينفق عليها من المال العام ، وحتى يحصلوا على الطعام والمؤن التى يحتاجون اليها ، كانوا يبيعون على الطريق ما أحضروه معهم من سلع .

ولا ننكر رغم كل شيء أن ازدهار التجارة قد صادف فى صدر الاسلام عقبات ، لأسباب وظروف عديدة . فطالما كانت الحرب المقدسة ضد الكفار تتطلب حشد القوى ، فان عمليات نقل البضائع ، وبالأحرى التجارة توقفت من نفسها . ولم يكن المؤمنون الحقيقيون الذين يحملون فى صدورهم ضغينة ضد معتنقى الأديان الأخرى على استعداد لأن يوثقوا مع هؤلاء علاقات سلمية . ولكن حين رفع الخلفاء أعلامهم فى ثلاثة أركان العالم ، عمت السكينة شيئا فشيئا . واذ عاش الكثير من الكفار فى سلام تحت سلطان الأمراء العرب ، خفت حدة الكراهية التى كانوا هدفوا لها . ولم يعد المؤمنون الحقيقيون يخشون أن يضر بايمانهم صلتهم بالكفار . بل ان الأفكار والعادات الأجنبية كان لها تأثير متزايد على المسلمين .

يضاف أخيرا الى هذه الأسباب كلها ، زوال عقبة كانت تعترض بدايات الحياة التجارية عند العرب . فمن المعروف أن محمدا قد فرض على المؤمنين به أكبر قدر من البساطة فى الملبس والمأكل (٣) . ولكنهم حين استولوا على أقاليم مزدهرة ، وأصبحوا أثرياء ، وبخاصة حين اتحدوا تحت صولجان واحد مع

Caussin de Perceval, Hist, des Arabes, I, 256, 270, 319, 342 et ss., (١)
III, 36; Wüstengfeld, Chroniken der Stadt Mekka, IV, 35, 39.

Coran, trad, p. Rasimirsky, chap. 2, v. 194 et note. (٢)

Pariset, Hist de la soie II p. 150 et ss. (٣)

الفرس الذين اعتادوا الوفرة والرخاء في العيش ، نما في نفوسهم حب البذخ والرفاهية ، ونمت معه الحاجة الى المنتجات الأجنبية .

واجتمعت كل هذه الظروف والأحوال التي تشجع ازدهار التجارة في العصر الذي ارتقى فيه العباسيون الأوائل عرش الخلافة . فأعطوا التجارة حافزا قويا ، اما بطريق غير مباشر ، بحياة الترف التي كانوا يعيشونها في بلاطهم ، واما بطريق مباشر ، ببناء الطرق ، وتشبيدهم مدينة في قلب دولتهم ، أمست مهياة بحكم موقعها المختار الملازم كل الملاءمة لأن تكون سوقا في الدرجة الأولى من الأهمية .

كانت دمشق بالتأكيد ، المقر القديم للخلفاء ، ملائمة كل الملاءمة للتجارة ، واتصال القوافل الخارجة من آسيا الصغرى ، ومن بلاد نهر الفرات ، والمنتجة الى بلاد العرب ومصر ، وبالعكس . غير أن الشريانيين الرئيسيين للتجارة العامة الشاملة داخل دولة الخلفاء كانا على الدوام النهرين الكبيرين ، دجلة والفرات وثمة عالم عربي جغرافي من علماء القرن العاشر أطلق على الخليج الفارسي الذي يصب فيه هذان النهران اسم بحر الصين (١) . ذلك لان الخليج الفارسي كان نقطة انطلاق الملاحة الى الشرق الأقصى .

وبعد أن أحرز العرب انتصاراتهم الأولى على الفرس (٦٣٥ - ٦٣٦) ، وأرادوا أن يمنعوا أعداءهم من الإبحار على طول شاطئ الخليج الفارسي وارسال سفنهم الى عمان والهند ، شيدوا على ضفة الفرات مدينة البصرة (٢) التي أصبحت بالتالي نقطة انطلاق سفن العرب الى الشرق . وبنى العباسيون مدينتهم بغداد على ضفتي الدجلة . وثمة قناة صالحة للملاحة تبدأ من الفرات وتجتاز اقليم ما بين النهرين وتنتهي عند بغداد ، تربط العاصمة الجديدة بآسيا الصغرى وسوريا وبلاد العرب ومصر ، في حين كانت قوافل وسط آسيا تأتي عبر بخارى وفارس .

ولنبحث في البداية موضوع المواصلات البحرية عن طريق الخليج الفارسي . نذكر أولا حقيقة هامة : فنحن نعرف رحلات « السندباد البحري »

(١) المقدسي ، في سبرنجر . Sprenger, Abhand-lungen der deutschen.

Morgenlandischen Gesellschaft, T. III, chap. 3, p. 66.

(٢) « مجمل التواريخ » ، أورده سان مارتان : Saint - Martin, Recherches sur

l'histoire et la géographie de la mésène et de la characène, Paris,

1838 p. 54 et s.

يعتبر هذا الكاتب حجة في المسائل المتعلقة بالملاحة

وبالتجارة البحرية لدى الفرس .

المشهورة ، وتتضمنها حكايات ألف ليلة وليلة (١) . حسن ! كانت نقطة انطلاق ذلك المغامر البحري الجريء هي دائما بغداد ، منسوبة الى عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد (٧٨٥ - ٨٠٩) . ولابد أن ازدهار مدينة بغداد ، وما كان فيه ملوكها من بذخ وترف قد أضفى على التجارة البحرية نهضة لم تكن معروفة حتى ذلك الأوان . وحتى يملأ كبار تجار بغداد حوانيتهم بتوابل الهند وعطورها ، وحرائر الصين ، كان لزاما عليهم أن يشجعوا تلك الرحلات البعيدة التي عرفنا شيئا منها من مصادر أخرى غير الحكايات . ثم أننا اذا نحينا التفاصيل الخيالية ، تجد في هذه الحكايات أصول الأشياء الواقعية التي كان الملاحون العرب يتحدثون عنها عند عودتهم ، كما كانوا يذكرون صراحة أسماء البلاد التي يقصدونها في رحلاتهم ، أو يشيرون اليها فقط عند ذكرهم سكانها أو منتجاتها ، وبذلك نتعرف عليها : ويكفي في ذلك الرجوع الى الحكايات أو الأخبار الموثوق بها التي يرويها الملاحون العرب الذين زاروا هذه البلاد بالفعل . وكانت أقصى نقطة بلغها السندباد شرقا تسمى كنج Kalah في شبه جزيرة ملقا (أنظر فيما بعد) ، وليس ثمة ما يدعو الى أن نرى في ذلك مفارقة تاريخية ، لأن التجار العرب واصلوا رحلاتهم منذ ذاك الحين الى تلك الأنحاء على الأقل ، بل يحتمل كثيرا أنهم وصلوا في القرن الثامن بالفعل الى الصين ، وكانوا ضمن الجاليات الأجنبية التي فتحت لها عام ٧٠٠ مينا كانتون وسوقها (٢) . ويبدو أن بعض الاضطرابات التي وقعت بتلك المدينة في عام ٧٥٨ تؤكد وجود هؤلاء العرب بها . وقد ذكر بفقرة في « حوليات أسرة تانج » (٣) أن بعض رعايا الخلفاء اشتبكوا في هذه الأحداث مع بعض الجنود المرتزقة من الفرس الذين استخدمهم امبراطور الصين لمقاتلة الشوار (٤) ، فنهبوا السكان ، وأشعلوا النيران في بعض المنازل ثم فروا عن طريق البحر (٥) ولعل المقصود بعبارة « رعايا الخلفاء » التجار العرب ، أو بحارة السفن

(١) يعتبر لانجل Langlès أنها تشكل بذاتها دورة كاملة ، ومن ثم شرها بالنص العربي

مع ترجمة فرنسية بعنوان « رحلات السندباد البحري » باريس ١٨١٤ ، وفدم فالكرز Wolkenser تفسيراً لكل ما له علاقة بالجغرافيا في « الجوليات الجديدة للرحلات » ١٨٣٢ .

Richthofen, China I, 569.

(٢)

(٣) يقدم جويل Gaubil مقتطفات في مذكراته :

Mémoires concernant les chinois par les missionnaires de Pékin, XVI, p. 84.

(٤) المرجع السابق ص ٢٦٧ ، ٧١ ، ٧٣ .

(٥) أنظر في شرح هذه الفقرة :

Reinand, Relations des voyages faits par les Arabes et les Persans, prolég ; Bretschneider : On the Knowledge possessed by the ancient Chinese of the Arabs and the arabian colonies (London 1871) p. 10 et s.; Richthofen, China I, 570.

العربية • ولا يبدو أن هذا الحادث قد قطع علاقات كانتون بالأجانب • وعلى كل حال فانها لم تفعل ذلك لوقت طويل ، اذ دامت حتى عام ٧٩٥ ، وعندئذ قر عزم الأجانب الذين لاحقتهم الجمارك بمطالبتها الباهظة أن يهجروا المكان وينقلوا متاجرهم الى كوشنشن (١) Cochinchine

وهكذا فبينما كانت جزيرة سيلان تعتبر في القرن السادس أقصى حد يمكن أن تصل اليه السفن الفارسية والأثيوبية ، فان العرب في العصر العباسي تخطوا هذا الحد كثيرا وبجراة ، وفي الوقت نفسه أبدى الصينيون تحت حكم أباطرة أسرة تانج الأكفاء (٦٢٠ - ٩٠٧) نشاطا عظيما على متن البحار • وتحدثت حوليات هذه الأسرة عن بعثات بحرية على طول شواطئ ملبار (ويسمياها الصينيون « مولى ») حتى مصب الاندوس (السند) الذي كانوا يعرفونه باسمي « سيتيو » (سندو) وميلان (بالعربية مهران) ، ومن هناك الى الخليج الفارسي حتى سيراف ، وأحيانا حتى مصب الفرات (٢) • وكان أزهى عصر لتلك التجارة البحرية هو القرن الأول من حكم أسرة تانج (٦٢٠ - ٧٢٠) ، وبعد ذلك حين قام العرب بمزيد من الرحلات الى الصين ، قل بالتدريج عدد الصينيين الوافدين الى الخليج الفارسي • وكانت سفنهم ترسو عادة (٣) في ميناء سيراف التابعة لفارسستان Farsistan ، وتقع على الساحل الشرقي للخليج الفارسي • وقد اكتشفت حديثا مخلفات هذه المدينة على مسافة غير بعيدة عن مدينة بندر - كنكن Bender-Konkoum وبالقرب من قرية تارييه Tharié ، في حين بحث عنها الرحالة القدامى وعلماء الجغرافيا خطأ عند سفح جبل تشاراك Teharak قبالة جزيرة كيش Keich ، في موضع لا أثر فيه لأية أطلال (٤) • وهناك كانت السفن الصينية تشحن عند عودتها ببضائع آتية من البصرة وعمان وجهات أخرى ، ثم تمضي معاذية الساحل العربي حتى مسقط ، وبعدها تمخر عباب البحار حوالى أربعة أسابيع ، ترسو بعدها عند كولام Coulam على ساحل ملبار • ومن هناك تواصل طريقها ، تاركة على

(١) ريشتهوفن ، المرجع السابق •

(٢) Extraits des Annales de la dynastie des Tang, communication faite

par Mr. Deguignes, dans les Mém. de l'Acad. des Inscr. xxxii p. 367 ; Klaproth ; Lettres sur l'invention de la Boussole, p. 95 ; Yule, Cathay, I.

(٣) لم يتوغلوا في داخل الخليج الا بصفة استثنائية ، ولم يحدوا هناك سوى أعماق

قليلة ، كما كانت المياه شديدة الاضطراب ، فكانت تلقىهم على الشاطئ ، فضلا عن كثرة ما يتردد عليها من قراصنة : انظر : Relat. des voy. I c, p. 12; Prolég. p. IX et s.

ويحكى أبو الفرج كيف أن سكان البحرين نهبوا عام ٨٢٥ سفنا فارسية وهندية وصينية •

Ritter, Erdk VIII, 773 et s., XI, 386; Ibn Batouta, éd. Sanguinetti (٤)

et Defrémery, II, 456 not; Annales des voyages, 1848, II, p. 50 not 2.

الأرجح سيلان الى يسارها ، وتقطع خليج البنغال في خط مستقيم ، وتمر أخيرا عبر مضيق ملقا عائدة الى وطنها . ولا مجال هنا لذكر المزيد من التفاصيل عن تلك الرحلة البحرية ، وانما نجدها في أخبار « سليمان » (١) ، وهو تاجر عربي عاش في النصف الأول من القرن التاسع ، وقام مرارا بالرحلة من الهند الى الصين مستغلا السفن الصينية العائدة الى وطنها (٢) ، وكان ذلك في الوقت الذي قل فيه ظهور هذه السفن في سيرا ف . وكان الطريق الذي أشرنا اليه ترتاده السفن العربية أكثر من السفن الصينية ، وكانت سيرا ف الموقع الذي تبحر منه . وفي القرن التاسع دون صاحب البريد العظيم أبو القاسم بن خرداذبة - بمساعدة بعض خبراء الملاحة - دليلا للمسافرين ، وصف فيه ضمن أشياء أخرى الطريق البحري من مصب الدجلة الى الهند والصين ، وذكر كموقع لبحار السفن ميناء أوبولاه Obollah في قلب الخليج الفارسي . وكان من أثر انشاء مستودعات كبيرة خلف هذا الميناء ، في البصرة وبغداد انتعاش حياة جديد ، فكانت تبحر من ثمة الى الصين أساطيل تجارية عربية كاملة (٣) . ولم يمنع موانئ أخرى في الخليج نفسه من توثيق علاقات مع الصين . ومن هذه الموانئ نذكر سيرا ف ، ميناء فارس Fars الكبير بسكانه من التجار النشيطين ، والملاحين الجسورين (٤) . يقول ابن خرداذبة أن السفن العربية كانت تسير عادة بمحاذاة الساحل الفارسي ، ثم ساحل الهند حتى ملبار ، وكانت تتبع هذا الطريق لأنه كان عليها أن تشحن البضائع وتفرغها في مختلف موانئ الساحل ، لا لأنها تخشى مواجهة أعالي البحار . فالواقع أنها كانت ، ابتداء من ساحل كرماندل Coromandel تعبر خليج البنغال في خط مستقيم ، كما يفعل الصينيون ، وكان الطريق الذي ذكره ابن خرداذبة هو الطريق نفسه الذي ذكره

(١) هذه الأخبار التي دونت عام ٨٥١ تملا الصفحات الستين الأولى من كتاب رينو :
Reinard, Rel. des voy. faits par les Arabes et les Perssians dans
l'Inde et à la Chine, Paris 1845, II.

وبعد هذه الأخبار (٦١ - ١٥٤) يعطى الناشر مذكرات عن الاثنوجرافيا ، والتاريخ الطبيعي والتاريخ السياسي للهند والصين ، ألفها أيضا في مستهل القرن العاشر أبو سيد حسن من واقع أخبار الرحالة .

(٢) هذا ما يبدو على الأقل أنه مستخلص من بداية اخباره ص ١٣ - ١٥ .

(٣) ابن حمدون : أوردها كريم . Kremer : Culturgesch. des Orients, II, 276.

(٤) المسعودي : مروج الذهب : النص والترجمة : باربييه دومينار ، وبافيه دو كورتبي (١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٨) .

— Isstachri, Das Buch der Länder, trad. par Mordtmann p. 19, 69, 71, 74.

— Rel. des voy. éd. Re naud p. 79.

— Les tableaux du monde indien de Kaziuni لوحات العالم الهندي للقزوين
تضم الكثير من الحكايات الخرافية ، وهي ممتبسة بعض الشيء من حكايات بحارة سيرا ف ، أنظر :
Gildemeister, Op. Cit., p. 195, 197.

سليمان بالنسبة الى السفن الصينية . ويذكر ابن خرداذبة عدة موانئ صينية (١) . ولم تكن كانتون (ويسمىها خاكو) في عصره الموقع الوحيد لرسو السفن ونزول الأجانب منها ، ولم يكن موقعها البعيد عن مركز الحياة الصينية يتيح لها أن تطمح في هذا الامتياز ومنذ بداية القرن التاسع ، كان أهم تغر هو خان - فو Knan-fou الذي نجده فيما بعد فيما كتبه ماركو بولو تحت اسم جاميو Gampou الذي سوف نتكلم عنه بمزيد من التفصيل . ولما كان هذا التغر واقعا في الخليج جنوبى ميناء شنجهاى الحالى ، فانه كان على بعد بضعة أميال من كنج - سى عاصمة اسرة مونج ، وهو الآن مدينة هانجتشو - فو Hang-tchou-fou ، وكان بين المدينتين حركة مواصلات لا تنقطع . وفي خان - فو كانت السفن الصينية العائدة من رحلاتها الى الغرب تحبى بسرور أرض الوطن ، كما كانت السفن التجارية القادمة من جاوة والهند وفارس وبلاد العرب تصل الى نهاية رحلاتها المحفوفة بالمخاطر . وكان العرب يجسدون في العاصمة الكثير من مواطنهم المستقرين في مراكز ثابتة ، وكان عندهم هناك ، بفضل كرم وسماحة امبراطور الصين قاض يصدر أحكامه طبقا لأحكام القرآن ، ويقيم الصلوات تبعا لشعائر الاسلام (٢) . وكانت كنج - سى تمنح تسهيلات خاصة لبيع بضائع العرب : بل كان الامبراطور نفسه يأمر بشراء بعضها لحسابه الخاص (٣) ، وكانت حوانيت مواطنى العرب، وحوانيت كبار التجار الصينيين تزود التجار العرب بوفرة من منتجات البلد ومصنوعات الحرفيين البارعين لشحن سفنهم عند عودتها . وكان في مقدورهم التغلغل في داخل البلد وممارسة التجارة فيه بكامل حريتهم بشرط أن يتزودوا ببطاقات سفر معتمدة من السلطات الصينية (٤) . ولقى العرب هناك لزمن طويل ترحيبا كبيرا ، وكان القضاة يعاملونهم مثلما يعاملون المواطنين . غير أنه حدث في حوالى عام ٨٧٥ أن اندلعت ثورة في شمال شرقي الصين (٥) ، استمرت تسع سنوات واستتبعته تحولا

(١) يذكر فضلا عن المائتين المذكورين في النص Al-Wakin وفيها حديد ممتاز ، ويورسلين ، وزرز الصين ، ويقع هذا الميناء غالبا في تولكين عند مصب نهر سونكوى Songkoï ثم كانتو أو كيماو - تشو Kiaou-tshou في الساحل الجنوبي لسانتوچ Richthofen, China I, 575 et s., II, 177, 262 et ss. — ويرى أن هذا الميناء أوسع وأحسن موانئ شمال الصين ، وفد غمره الرمل فاصبح دخوله عسيرا ، ومن ذاك الحين فضل البحارة عليه ميناء تشى - فو Thsi-fou Relat. p. 13. (٢)

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٦ ، ١٠٦ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٢ ، ٤١ وما بعدها ، ص ٧٩ .

(٥) بخصوص هذه الثورة ، انظر : Mémoires concernant les Chinois, XVI, p. 261 et ss.; Richthofen, China I, 572.

كاملا ، ليس فقط في الوضع الداخلي للبلد ، ولكن أيضا في العلاقات مع الأجانب . وملا الثوار البلد بالخرائب : وفي فورة التدمير التي جاشت بصدورهم ، لم يسلم من أيديهم شيء ، حتى أشجار التوت ، فتوقف تصدير الحرير لعدة سنوات ، وأراقوا سيلا من الدماء ، وعانى المستوطنون العرب من ذلك معاناة شديدة ، وربما حل بهم الخراب الشامل . واستطاع الامبراطور ، بمساعدة بعض الفرق الأجنبية أن يقضى على الثورة ، ولكن سلطته ضعفت ضعفا شديدا . ففي الأقاليم راح نوابه يهزأون بسلطته ، ويتصرفون كما يحلو لهم ، وعانى ربانة السفن والتجار العرب من ناحيتهم من أهوال العنف ، ومن الامتناع عن النظر في شكواهم ، ومن أعمال السرقة والاعتصاب . وفي هذه الأحوال قر عزمهم على قطع صلاتهم بالصين وإقامة مرفأهم الرئيسي بـ *Kalah* في شبه جزيرة ملقا (١) ، وهي مدينة لم تكن حتى ذاك الحين سوى محطة وسطى (٢) على طريق الصين . ونتيجة لذلك اضطرت التجار الصينيون أن يذهبوا الى هناك لكي يظلوا على صلة بعمالهم العرب . وحظيت *Kalah* وقتئذ ، في مجال تجارة الشرق بالأهمية التي كانت لـ *Silang* في القرن السادس ، وأصبحت ملتقى السفن التجارية الآسيوية ، الغربية منها والشرقية ، وكان وضعها ممتازا من جميع الوجوه ، بصرف النظر عن موقعها المتوسط بين الصين وبلاد العرب (٣) . وانفتحت سوق جديدة وكبيرة للتجار العرب ، سوق لمنتجات الهند الصينية ،

(١) اعتقد أنه من الثابت أن *Kalah* (أو *Kalah*) كانت موجودة في شبه جزيرة ملقا ، ويشادكني في هذا الرأي كاتمرير :

— Guatremère, Journ. des Savants, 1846, Déc. p. 734.

— Walckenaer, Nouv. annal des voy. 1832, I. p. 19. وكذا فالكر :

وسيرنجر :

— Sprenger, Abband. der Deutsch, morgenl. Ges III, no. 3, p. 88.

— Peschel, Gesch. der Erdk. p. 107. ويشل :

وآخرون . ثم انه من الصعب تحديد الموقع : فموري *Maury* يفترض أنها كانت

Kadah (Quedda) وفي هذا الغرض قدر كبير من الصحة ، أنظر كذلك

Yule, Cathay, I, p. civ., exei. بول :

Relations, p. 17, 93 et ss.; Maçoudi, I, 308. (٢)

في هذا الآوان ، كان لا بد للتجار العرب الراغبين في الذهاب الى الصين ، أن يستقلوا من *Kalah* سفنا صينية ، أنظر : المسعودي ، المرجع السابق . ولا يبدو أن الصلات البحرية قد انقطعت بين الهند والصين ، على الأقل ذهب هنود الى الصين في حوالي ٩٧٠ ، ٩٩٦ على سفن تجارية (هندية أو صينية ؟)

— Stanislas Julien, dans le Journ. asiat., Sér. IV, T. X (1847) p. 113, 120.

(٣) في كتاب أبو الفدا (Geogr. II p. 131) أن *Kalah* هي « ميناء لكل المناطق

الواقعة بين عمان والصين » .

كالكا فور ، والقرنفل ، وخشب الآلوة (أو الغلوة) ، والصندل ، والبقم ؛ وجوز الهند ، وجوز الطيب ، بالإضافة الى القصدير الذي كان شديد الرواج في نواحي كلخ (١) ونمت هذه التجارة لدرجة كان معها تجار سيراف في القرن العاشر يعتبرون الرحلة الى شبه جزيرة ملقا أمرا بسيطا للغاية ، كما زادت في الوقت نفسه معرفتهم بجزيرة جاوة ، ووجدوا فيها تجارا صينيين كان عدد كبير منهم قد هاجر اليها في أعقاب الاضطرابات التي جرت في وطنهم (٢) .

وإذا كان العرب قد زاروا كثيرا بلادا نائية كالهند الصينية والصين ، كما يبدو أن البعض منهم وصلوا الى كوريا وأقاموا بها بعض المنشآت (٣) ، قلنا أن نتصور أن تكون « الهند الشرقية » هي غاية الكثير من الرحلات . وكان الساحل الغربي لشبه الجزيرة والغني بالحاصلات من جميع الأنواع في مواجهة الساحل الشرقي لبلاد العرب ، ويمكن الوصول اليه في شهرين أو ثلاثة شهور، بل أحيانا في شهر واحد اذا كانت الريح مواتية(٤) . وكان هناك تجار عرب يقينون في سيلان قبل عام ٧٠٠ ، ذلك لأنه حدث في حوالي عام ٧٠٠ أن نساء وبنات بعض التجار وقد أصبحن أرامل ويتسامى ، كن عائدات الى وطنهن ، فاخططفهن قراصنة هنود (٥) . وقد روى الرحالة العرب في القرنين التاسع

Relations, p. 93 : Ibn - Khordadbeh, éd. Barbier de Meynard (١)
p. 288, 294; Voyages de Sindbad, éd. Langlès, p. 73; Abou - Dolef,
Iter asiat. éd. Schlaezer, p. 18 et s.

(٢) المسعودي ، الجزء الثاني ٥٢ ، أبر الفدا : (Géogr. introd. p. Reinaud, I).
وبهذه الواقعة تتعلق الفقرة المعروفة للادريسي ، ومضمونها أنه « يقال انه حين تضطرب شئون الصين بسبب تمرد السكان ، وحين يستفعل القوضى والاستبداد في الهند ، ينقل الصينيون تجارتهم الى زانج Zanedj والجزر الأخرى التابعة لها . والحقيقة أن الادريسي يتحدث في هذا الفصل عن الجزر الواقعة قبالة ساحل زنجبار ، ولكنه يخلط بينها وبين الأديبيل الهندي ، والفره المذكورة بماليه تنطبق في الواقع على جاوة »

(٣) المسعودي ، الجزء الأول ٣٤٦ ، ابن حرداذية ، ص ٢٩٤ ، ٥٢٢ .
ولا يرجع أول هذه المنشآت الا الى القرن العاشر ، ففي القرن التاسع لم يكن أى عربي قد شق طريقه الى هناك :
Relations, p. 60 et proleg.

وكان المعتقد فيما مضى أن سيل Sila في الفقرات المذكورة هي اليابان ، ولكن رشتيوفن يرى بحق أنها كوريا (China I, 576)

وكذا كونج : Goeje, Arabische Berichten over Jafon Amst, 1880, p. 3,4 :

(٤) Relations, p. 15; Scherzy, dans Sprenger, op. cit., p. 87.
وكذا المسعودي ، الجزء الأول ، ٣٣٢ .

(٥) أنظر موجز بيلادوري في ايليوت. Beladori, dans Elliot., Hist of India I, 118.
وكذا :

— Reinaud, Mém. géogr. hist et scientif. sur l'Inde, dans les Mém. de l'Acad. des Inscr. XVIII, 2 (1849), p. 79 et ss.
أنظر أيضا . Gildemeister, Scriptum arab. de ref. ind. loci, p. 52 et s.

والعاشر ، أن الكثير من الملوك في القارة الهندية كانوا يراعون مصالح العرب (١) . واعتنق الاسلام زامورن كيرومان برمال Zamorin ueroman Permal وبعض أمراء ملبار ، وأذنوا للعرب باقامة منشآت وبناء مساجد على مدى الرقعة التي يملكونها (٢) . وعندما زار المسعودي الهند في عام ٩١٦ التقى بجالية كبيرة من هذا النوع في مقاطعة سيمور Saimour بالقرب من مدينة نبوببي الحالية (٣) ، وكان فيها قرابة عشرة آلاف مسلم ، ولم يكن هؤلاء قوما أتوا من سيراف أو عمان أو البصرة أو بغداد أو من غيرها من أسواق دولة الخلفاء فحسب ، ولكن كان منهم من ولدوا في البلد من آباء عرب ، ومن بين هؤلاء المستوطنين تجار كبار ، وقد عهد الملك الى واحد منهم بتولى السلطة القضائية في المستوطنة كلها (٤) . وكان المرء عندما يرحل من سيمور ويتجه شمالا ، يصادف مجموعة من المدن التجارية ، منها مدينتان معروفتان من قديم الزمان وهما : سوبارا Soupara ، وباريجازا Barygaza ، وهما اليوم سفارا Safara (أو سفالا Soufa'la) ، وباروتش Barotch ، ثم كامبي Cambaye على الخليج الذي يحمل هذا الاسم . ومن المحتمل بالنسبة الى كل هذه الأماكن ، والثابت بالنسبة الى المكان الأخير أنه كان يقطنها ، أو على الأقل يتردد عليها مسلمون (٦) . وفي حين أنشأ العرب مستوطنات سلمية على شاطئ الهند وفي مدنها (٧) ، اجتازت جيوشهم حدود فارس في مستهل القرن الثامن واستولت على منطقة نهر الاندوس (السند) الأدنى . وكان في إحدى مدن هذا القطر واسمها ملتون Moulton معبد يحنج اليه الهندوس قادمين من أقاصى البلاد . ومن حسن سياسة العرب أن أبقوا على هذا الموضع فاكتسبوا بذلك ود الأهالي ، وكان قدوم الحجاج مفيدا للبلد وللمدينة ، وكان

(١) Relation, p. 26, 27; Maçoudi, I, 382 et s. Isstachri, p. 82 et s.

(٢) Lassen, Indische, Alterthumskunde, IV, 255, 953, Ritter, Erdk V, 581 et ss. ; Gildemeister, I.C. p. 51.

(٣) Isstachri, p. 85 ; Edrisi, I, 172 ; Reinaud, Mém sur l'Inde, p. 220 : Aboulf éd. Reinaud; Lassen, op. cit III, 183; Sprenger, op. cit, p. 80; Yule, Cathay, I.

(٤) المسعودي ، الجزء الثاني ، ٨٥ وما بعدها ، أنظر أيضا ابن حوقل في كتاب جيلدمايستر ، المرجع السابق ص ١٦٥ ، كذلك رينو : Reinaud, Mém. sur l'Inde, p. 242.

أنظر أيضا الفزويني في كتاب جيلدمايستر ص ٢٠٨ .

(٥) Yule, Cathay, I, 227 et s. ; Lassen, op. cit., J, 107, IV, 957 : Indian antiquary 1, 321.

(٦) Reinaud, Mém. sur l'Inde, p. 220 et ss.; Isstachri, p. 82.

(٧) ذكرت في الكتابات الهندية في ذاك العصر باسم بافانا Yavana أو كالابافانا Kalayavana (بافانا السوداء) . أنظر في ذلك :

— Weber, Die Verbindungen Indiens mit den Ländern des Western ; l'Allg. Monatschrift, sept. 1953, 2 art. p. 733.

هؤلاء الحجاج يحضرون معهم بمثابة قربان لآلهتهم ، أو جزية للأمير العربي منتجات ثمينة من صنع بلادهم ، تباع للتجار بربح وفير (١) . وثمة سوق أكبر أهمية ، سوق ديبال Daybal ، وهي مدينة على الساحل غربى مصب السند (٢) ، كانت السفن الفارسية والعربية المتجهة الى الهند أو الصين ترسو عندها عادة ، عند ذهابها ، وعند عودتها ، فكان هناك دائما فى هذا الموقع بضائع من كل البلاد ، يوزعها تجار المدينة الأثرياء فى داخل البلاد ، ويصدرون عن طريق البحر منتجات المنطقة والبلاد الواقعة بعدها (٣) . وفى أوائل القرن العاشر ، وتحت ضغط سلاطين الأسرة الغزنوية ، مد العرب فتوحاتهم فى شمال غربى الهند ، وبذلك تمهد للتجار العرب الطريق الى المناطق الداخلية بالهند ، وكانت مغلقة دونهم تقريبا حتى ذلك الحين (٤) . غير أن التعصب الدينى الذى اتصف به الغزنويون جعل الأهالى يخشون بأسهم ، واشتد نفور الهندوس الطبيعى من كل تجارة مع الأجانب ، ذلك النفور الذى بقى فى داخل القطر أقوى منه على السواحل .

ولنعد الى نقط انطلاق البحرية التجارية العربية . لم تكن سيراف ، حتى فى أزهى عصورها هى المستودع الوحيد لمنتجات الهند وفارس . يقول الاصطخرى Isstachri بوجه عام : « ترحل البضائع الى ما وراء البحار من سيراف (٥) » . غير أنه لا يجوز أن يغيب عن البال أن هذا الكاتب كان يقيم فى جنوب فارس ، فى منطقة لا تستورد من سيراف سوى مؤناتها من التوابل . أما المسعودى الذى كانت معلوماته أوسع فانه يكمل هذه البيانات : فبالنسبة الى سفن سيراف التجارية ، يذكر أيضا ، وبصورة عادية منطقة عمان الساحلية ومن المؤكد أن المدن الساحلية فى عمان ، وبخاصة صحار ومسقط كانت تجهز فى أحيان كثيرة بعثات بحرية الى الهند الشرقية ، والهند الصينية ، والصين ،

(١) Reinaud, Mém. sur l'Inde, p. 184 et s., 213, 248 et s.;

Ibn-Hooukal, Oriental geography, transl. by Ouseley, p. 148 et s. ;

Maqoudi, I, 373; Relations, p. 135 et s.

(٢) « فى الشرق » قراءة خاطئة لنص ابن حوقل ، وبفحص مخطوط أصح والخريطة المرفقة

به ، نجد أنه يجب أن تقرأ « فى الغرب » ، أنظر :

Elliot, Hist of India, muhammadian period, I, 37, 377.

(٣) بخصوص حالة هذه المدينة وأهميتها التجارية أنظر : ابن خردادبة فى كتاب سبرنجر ،

المرجع السابق ص ٨٠ ، والاصطخرى ص ٢٠ ، والمسعودى ، الجزء الأول ، ٢٠٧ ، ٢٣٩ ،

٣٧٨ ، وابن حوقل فى كتاب جيلسمايستر ص ١٧٠ ، والقزوينى ، المرجع السابق ص ٢٠٥ ،

والادريسي ، الجزء الأول ١٦١ .

— يرى رينو أن هذه هى مدينة كراتشى الحالية (Mém. sur l'Inde, p. 170, not 6)

(Elliot, op. cit., p. 374 et ss.).

ويؤيد ايليوت هذا رأى

Reinraud, Relatins, introd.

(٤)

Trad. Mordtmann, p. 74.

(٥)

وتستقبل سفن هذه البلاد (١) . وهناك حقيقة أخرى تتيح لنا أن نتقدم في معلوماتنا عن الموضوع الذي يشغلنا : ذلك أن سوقطرة Sokotora كانت وكرا للقراصنة الهنود الذين يقلعون من هناك ويغيرون على السفن العربية وهي تمر على مرأى من الجزيرة متجهة الى الهند أو الصين (٢) . ويدل موقع سوقطرة على أن هذه السفن لا يمكن أن تأتي الا من جنوب الجزيرة العربية أو من باب المنذب ، وهذا ما يحدونا الى التحدث عن مجموعة من البلاد مثل اليمن والحجاز وأثيوبيا ومصر ، كان لها علاقات بشرقي آسيا : مثالا لذلك : كان خشب الساج (أو الدلب) مستعملا في بناء السفن في مصر وبلاد العرب (٣) . ولم تكن هذه البلاد مجردة من المنتجات التي تصدرها الى الهند والصين . من ذلك أن أحجار الزمرد في الساحل الشرقي للهند كانت تصدر الى الغرب عن طريق عدن ومكة ، في حين كان أمراء الشرق الأقصى يستوردون زمردات مصر العليا ، وأنياب الفيل البري المتوفرة في الحبشة ، ويصنع منها أشياء كثيرة في الهند والصين (٤) . وكانت عدن ، في بلاد العرب « السعيدة » من أهم أسواق هذه السلع ، وكان مرفأها ملتقى السفن القادمة من كل أنحاء آسيا ، ومن ساحل شرق أفريقيا (٥) . ونظرة سريعة الى قائمة البلاد التي تنتمي اليها هذه السفن تدل على أن البحر الأحمر كان يستقبل مباشرة وعلى الأقل جزءا من منتجات الهند والصين ، ولا ينفي هذا قدوم سفن من سيراف ، لأن بحارة هذا الميناء كانوا يبحرون على طول الساحل الشرقي والجنوبي لبلاد العرب ، بل كانوا كذلك يتجاوزون عدن ، ويصلون أحيانا الى جدة حيث ينقلون شحناتهم الى سفن أخرى أقدر على مواجهة أخطار الملاحة في القسم الشمالي من الخليج (٦) . أما جدة التي شيدها بعض التجار الفرس في أواسط القرن السابع ، وخصصها الخليفة العثماني لتكون نفرا لمكة فإنها استفادت كثيرا من رواج التجارة بهذه المدينة ، ولكنها حافظت دائما على أهمية خاصة بها اذ كانت مرسى للملاحة في البحر الأحمر (٧) وأما « الجار » El-Djar التي كانت آنئذ نفرا للمدينة

Relations, p. 93 ; Maçoudi, I, 303, 308; II, ٤2; Edrisi, I, 152, (١)

Almohallaby, dans Azyzy (du Xe siècle), cité par Aboulf., trad. Reinaud, II, 137; Isstachri, p. 14, 71.

(٢) المسعودي ، الجزء الثالث ، ٣٧ .

(٣) المسعودي ، الجزء الثالث ، ١٢ ، سبرنجر ، المرجع السابق ص ١٥٧ .

Relations, p. 153. (٤) المسعودي ، الجزء الثالث ، ٧ وما بعدها ، ٤٣ - ٤٨ ،

(٥) ابن خردادبه : Ibn Khordadbeh; éd. Barbier de Meynard, p. 282; Isstachri, p. 13; Azyzy, dans Aboulf. trad. Reinaud, II, 127; Géographie de Moïse de Khorène dans Saint - Martin; Mém. sur l'Arménie, II, p. 371.

Relations, I, 142 et s. (٦)

Isstachri, p. 9; Sprenger, op. cit., p. 124 not. 1; Wüstenfeld, Chroniken der Stadt Mekka, IV, 122. (٧)

فكانت تزورها سفن الصين والهند والحبشة (١) ، وأخيرا ، فى الشمال الغربى من الخليج ، كانت قلزم القديمة Kolsoum, Clisma ولم تزل تتمتع بشيء من الرخاء ، لأنها كانت ميناء مشتركا لسوريا ومصر (٢) ، ولأن نتائج أبعد من هذا سير منتجات الشرق الأدنى ، فقد وصلنا الى أقصى ما يمكن أن تنتهى اليه عن طريق البحر .

كان الانتقال بالطرق البرية قليلا بالنسبة الى حركة الملاحة الكبرى بين البلاد العربية والهند والصين (٣) ، ومن وقت لآخر ، حين كان سكان سمرقند وخراسان يريدون الذهاب الى الصين ، كانوا يركبون السفن فى الخليج الفارسى مفضلين طريق البحر ، عن طريق البر ، رغم طول المسافة (٤) . ومع ذلك استمرت القوافل تنقل البضائع ، وفى العصر الذى كان فيه العرب يسيطرون على مصب نهر السند ، كان هناك طريق تجارى يمتد من تلك المنطقة الى داخل بلاد الفرس عن طريق اقليم سجستان (سفيستان) (٥) ، والى الشمال كانت قوافل بنجاب تحمل كميات كبيرة من البضائع عبر هضاب أفغانستان الشاهقة ، وتأتى بها الى كابول وغزنة اللذين أصبحا بذلك مركزين كبيرين لتبادل البضائع (٦) . ومن هناك تتجه القوافل من ناحية الى الغرب صوب خراسان ، ومن ناحية أخرى الى الشمال صوب بخارى ، وبهذه الكيفية ، ورغم بعد البحر بعدا كبيرا ، كانت توأبل الهند تنتشر فى هذه البقاع ، وفى بخارى كانت هذه التوابل موجودة مع البضائع المجاورة من الصين عن طريق

(١) فى هذه النقطة غير المعروفة ، انظر : Sprenger : Die alte Géographie : Arabiens, p. 38; Reimer, Culturgeschichte des Orients, II, 278.

ويذكر كريم فقرة من « ياقوت » خاصة بعلامات هذه المدينة مع بلاد مختلفة .

Ishtachri, p. 18.

(٢)

(٣) ذكر ابن حوقل أنه فى حوالى عام ٩٧٥ كانت التجاره كلها وتجهيزات السفن المبحرة الى

الهند والصين وزنجبار فى يدى تاجر واحد واسع الثراء اسمه أبو بكر أحمد بن عمر السيرامى ، وكانت مخازنة مملئة بالأحجار الكريمة والعطور .

— انظر فى « الصحيفة الآسيوية » Journ. asiat ١٨٧٣ ص ٥٧٤ وما بعدها مضافا

عن الطبعة الجديده للنص العربى لهذا الرحالة ، نشرها جويج Goeje ،

(٤) نجد أمثلة لذلك فى المسعودى ، الجزء الأول ٣٠٧ وما بعدها ، و :

Relations, p. 106 et ss.

(٥) Maçoudi, I, 349 ; Reinaud, Mém. sur l'Inde, p. 216 ; Ishtachri, p. 111.

Elliott, Hist of India, I, 54, 468.

(٦) Ishtachri, trad. Mordtmann, p. 120; et les passages d'Ibn Haaukal,

cités par Reinaud, Mém. sur l'Inde, p. 243-245.

وفى عصر هذا الرحالة كانت كميات النيلة المستوردة الى سوق كابول تصل قيمتها الى مليونى دينار وأكثر سنويا . انظر ايضا : Ediot, i.c.

آسيا الوسطى . والواقع أن أهالي بخارى التجار استمروا على علاقات وثيقة ونشيطة مع الصين ، وأنا لنجد برهانا على ذلك حدثا صغيرا فى تاريخ فتح العرب لهذا القطر فى مستهل القرن الثامن : فالى جانب سمرقند بخارى كانت هناك « مدينة للتجار » مزدهرة اسمها بيكوند (Peikound) (Beykend) (١) واقتحم العرب هذه المدينة ، وكان من بين كبار سكانها رجل أراد أن ينقذ حياته ، فعرض - دون جدوى - أن يسلم خمسة آلاف قطعة من الحرير الصينى (٢) . وبعد الاستيلاء على بخارى لم تتعد الفتوحات العربية أقاليم فرغانة ونهر ياجزات . ومن ثم لم تنشأ بين هذه الأقاليم وبين الصين (٣) حروب الا فى القليل النادر . وعلى ذلك يبدو من الثابت أن التاجر الذى يريد الذهاب من دولة الخلفاء الى الصين ، دون أن يعانى المتاعب وضروب الحرمان ، والأحوال التى تلازم كل رحلة فى الصحراء ، لم يكن يصادف فى طريقه أية عقبة من قبل السلطات الرسمية . فبعد أن يعبر نهر ياجزات ، يجد شرقى هذا النهر مساكن « الخارلوك » Kharloks ، ثم يجتاز اقليم قبيلة من أقوى القبائل التركية فى ذلك الحين ، وهى قبيلة « تجازجاز » Tagazgaz - (Hwei-hou) ويمتد هذا الاقليم مسافة كبيرة على سفحى جبال تيان - شان (٤) . وكان هناك فى زمن المسعودى طريقان مستعملان بنوع خاص : أحدهما طويل ، ويستغرق اجتيازه أربعة أسابيع أى ٢٨ يوما ، ويلأثم مسير دواب النقل ، والثانى أقصر منه ، ولا يستغرق اجتيازه ٢٠ يوما (٥) غير أن هذا الرحالة لم يذكر اتجاههما بالضبط (٦) . وأخيرا كان هناك طريق عبر التبت، ولكنه محفوف بالصعوبات

- (١) هذا هو الاسم الذى أطلقه عليها ابن خرداذبة ، فى كتاب سبرنجر (المرجع السابق ص ٢٠٥) ، والطبرى فى فايل ، Weil, Gesch. d. Chalif. I, p. 499 et ss. not 2. — أنظر أيضا : Vambery, Gesch. Bochara's oder Transoxaniens I, 27. (٢) الطبرى ، فى فايل (المرجع السابق ، ٥٠٠) . كذلك : l'Histoire de Bokhara, de Marchache. التى كتبت عام ٩٤٣ أو ٩٤٨ ، وتحدث أيضا عن علاقات تحار هذه المدينة بالصين . — Vambery, Gesch. von Bochara, I, 10. أنظر فامبرى : (٣) Yule, Cathay. I. (٤) Isstache, p. 3; Reinaud, trad. d'Aboulféda, prolégum; Richthofen, China, I, 563-565. (٥) يحسب أبو سعيد Abou-Saïd سفر شهرين سيرا على الأقدام من بلاد الصغد (صغديانه) الى الصين ، أنظر . — Relations, p. 114. (٦) المسعودى ، الجزء الأول ص ٣٤٧ - ٣٤٩ : يقول انه باتخاذ أقصر الطرق ، يعبر المسافر جبالا بها رواسب من ملح النشادر . ويعتقد ريو ، وریشتهوفن أن المعصود هو جبل من سلسلة جبال تيان شو ، يقع على بعد مائتى ميل صينى شمال كوتش Koutch حيث يستخرج ملح النشادر ، ولكن هناك مناجم من هذا النوع فى صغديانه ، وبالقرب من اورومتسى Ouroumtsi (بيتسبالك Bichbalik) — انظر أيضا : Tomaschek, Centralasiatische Studien, I, Sitz. Ber der Wiener Akad, phil. hist (1877) et. LXXXVII, p. 87-89.

الشديدة ، فلم يكن مطروقا الا فى القليل النادر ، فيستخدمه مثلا تجار سمرقند الذين يحملون الى الصين مسك التبت (١) .

ويمكن التسليم بأن القوافل المرسلة الى الصين فى العصر الذى نتحدث عنه كانت أكثر ندرة ، لأن من أغراضها الرئيسية تجارة الحرير ، وكان الحرير وقتئذ ينتج أيضا فى شمال فارس . واستخدمت صناعة الحرير طريق بخارى التجارى القديم فى بلاد الفرس ، ومن ثم تركزت فى زمن مبكر فى مرو ، والى هذه المدينة أقبل سكان الأقاليم الأخرى فى القرن العاشر طلبا لبيض دود القز ، ومن هناك انتشرت هذه الصناعة وامتدت على طول الحدود الشمالية ليران الى أقاليم طبرستان (وحاضرتها أمول Amol) وجرجان . وكان جو الاقليم الواقع فى الرقعة التى تنخفض أرضها بالتدرج من الهضاب العليا حتى بحر قزوين مناسبا بنوع خاص لنمو دود القز . ويقول الاصطخرى وابن حوقل ان هذه البقاع كانت على عهدهما مركزا لانتاج الحرير ، واحتفظت بهذه الميزة الى يومنا هذا (٢) .

وبتتبع صناعة الحرير حتى فارس خلال القرون الأولى من دولة الخلفاء ، وصلنا دون أن ندرك ذلك الى حقل جديد فى هذه الدراسة . والواقع أنه اذا كان الناس يصنعون فى داخل دولة الخلفاء نفسها منتجات شبيهة بما ينتجه الشرق الأقصى ، فانهم كانوا يستثمرون منتجات أخرى مطلوبة بالمثل . ولم يكن ثمة حاجة للذهاب الى المالديف Maldives, Laquedives أو سواحل الهند للحصول على العنبر الرمادى ، لأن أمواج البحر تلقى بهذا العطر على الشاطئ الجنوبى لشبه الجزيرة العربية (٣) . ولم تكن سيلان الوحيدة التى تملك لآلىء وحجارة كريمة ، اذ كان هناك مصايد لآلىء ذات غلة وافرة فى الخليج الفارسى ، وجزر البحرين ، وكيس Keich ، والمعروفة الآن باسم خرج Kharek (٤) . ومن جبال فارس كان يستخرج أحجار كريمة ، وبخاصة الفيروز واللازورد ، وينمو قصب السكر فى أغواط مكران Makran وكوزستان Kousistan (٥) ، وكانت سهول سوريا وبلاد ما بين النهرين مغطاة بشجيرات

Relations, p. 114 et s.

(١)

Isstachri, p. 100, 117; Ibn Hoaukal, éd. Ouseley p. 21 et s.;

(٢)

Ibn Haoukal, transl. by Anderson, Journ. of The Bengal Society, XX (1853), p. 157; Ritter, Erdk. VIII, p. 232, 529, 702.

Relations, p. 4, 30; Maçoudi, I, 433 et s., 367.

(٣)

(٤) ابن خرداذبة ، الناشر باربييه دو ميتار ، ص ٢٨٣ ، المسعودى ، الجزء الأول ، ٢٣٩ ،

٣٢٨ والصفحات التالية .

Journ. of the Bengal Society, XX,

(٥) اس حوقل ، ترجمة اندرسن .

p. 154, 165, XXI, p. 55; Isstachri, p. 58.

القطن ، وبلاد العرب القاحلة تنتج على الأقل المر (الصبر) والبخور (١) . وكان هناك علاوة على الغلات الطبيعية ، منتجات صناعية : فلم يكن العرب يحرقون العمل اليدوي ، والقرآن يحب عليه لأنه مقبول عند الله ، ولكنه كان حقيقا أن يظل محصورا في حدود متواضعة لم احتفظ العرب زمنا طويلا ببساطة العادات والطبائع التي أمر بها محمد (صلعم) . نرى من كان يتوقع أياما مجيدة للصناعة العربية ، حين أمر الخليفة عمر بقسمة أبدع غنيمة اسنولى عليها العرب من فارس . وهى بساط فاخر عليه صورة الفردوس ، لنصير ألف قطعة ، وحين حظر على قواد جيشه أن يشيدوا قصرا مثل قصور الملوك الساسانيين (٢) ؟ ولكن هل كان فى الامكان اقناع الفرس المهزومين أن من الواجب عليهم بعد اعتناقهم الاسلام أن يتخلوا عن الذوق الفنى الذى كان يخدم ترفهم ، ويغلقوا المصانع التى كانت تخرج منها منسوحاتهم الرفيعة ومطرزاتهم الرائعة ؟ هل كان من المستطاع اجبار أهالى سوريا أن يتركوا صناعة الحرير التى كانوا يزاولونها من زمن بعيد لمجرد أنهم انتقلوا من السيادة البيزنطية الى السيادة العربية ؟ وبمرور الزمن نسى الفاتحون أنفسهم أن المتع المادية الرقيقة لا يجوز أن تكون من نصيب المؤمنين الا بعد الموت ، واستسلم الأقوياء والأثرياء للملذات الدنيوية دون أى حرج ، واختاروا لتياهم أغلى الأقمشة ، واستعملوا فى تزيين دورهم ترفا شرقيا حقيقيا . ورأينا كم استفادت التجارة من ذلك ، ولم تتخلف عن الصناعة الأهلية ، وأكسبها تقدم وسائل الرفاهية حافزا قويا . وحينما تبددت الخشية فى قلوب المسلمين من لبس الأنواب الحريرية (٣) وجد النساجون الفرس عملاءهم يزدادون عددا فى كل أنحاء البلاد التى فتحها الاسلام . وطورت مدينتا مرو ونيسابور (٤) بنجاح كبير هذا الفرع من الصناعة الذى استمر يزاول بنشاط فى الجنوب (٥) فى اقليم كوزستان وفارسستان ، ونعلم أن صناعة الحرير كانت مزدهرة فى عهد الملوك الساسانيين . وكانت مدينة « سوس » تنتج أقمشة من القطيفة النخيلة الفريدة فى نوعها ، ولكن رخاءها لم يدم طويلا . واشتهر هناك أيضا تبستر (شستر) بأطلسها الذى ينافس أجمل المنتجات اليونانية ، وطنافسها التى تكسى بها حوائط الكعبة بمكة . ولما كان الخلفاء حريصين على توطئ هذه الصناعة فى عاصمتهم الجديدة فانهم استقدموا الى بغداد جماعة من النساجين

Relations, p. 141.

(١)

Weil, Gesch. der Chalif, I, p. 74-76.

(٢)

(٣) فى عام ٦٦٥ حين ارتقى يزيد الأول عرش الخلفاء ، اعتبره الكثير من رعاياه غير جدير بالعرش لأنه كان فى شبابه يعيش حياة ماجنة ويلبس الحرير .

Aboulf., Annal. musulm. I, p. 367.

- أبو الفدا :

Pariset, Histoire de la soie, II, p. 150 et ss.

Issatchri, p. 121; Ibn Haoukal, dans Anderson, op. cit., XX, (٤)

p. 153 et s.

Issatchri, p. 59, 73.

(٥)

من تستر ، ومع ذلك احتفظت المنسوجات الحريرية في هذه المدينة بشهرتها حتى أواسط القرن الرابع عشر (١) . وفي دمشق وبعض مدن الوجه البحري بمصر، وبخاصة تنبس، كانت تسج وتطرز أقمشة ثمينة لصنع الملابس والبسط، وستائر الخيام ، وغير ذلك (٢) . وكان الأمراء العرب يحبون الأثاث المصنوع من المعادن الثمينة (من ذهب وفضة) ومن الخشب الذكي الرائحة المزين بالأحجار الكريمة . ويكفي الاطلاع على قائمة الجواهر التي تملأ كنوز العباسيين في بغداد أو الفاطميين في القاهرة (٣) لتكوين فكرة صحيحة عن مهارة الصانع المشتغلين بالذهب والفضة ، والأثاث والأبنوس والجواهر ، وصانعي الأسلحة .

رأينا أنه ما أن تصل السلع المستوردة من الشرف وكذا المنتجات الوطنية الى داخل دولة الخلفاء حتى تنتقل من يد الى أخرى ، ومن اقليم الى آخر . ويعزز هذه الحركة عاملان :

أولا : طبيعة العرب التي تنزع الى كثرة التحرك ، ثم بنوع خاص نظام الحج . على أن التجارة الداخلية للشعوب الاسلامية فيما بينها لا تدخل في نطاق دراستنا هذه ، فلا يهمنا الطرق التي كان يتبعها التجار الا من حيث استخدامها لنقل البضائع الى التفرع التي لها صلة بالغرب . ولنبحث أولا في كيفية نقل البضائع عبر البحر الأحمر حتى تصل الى البحر المتوسط .

ففي أعقاب الفتوحات العربية مباشرة ، أعيد فتح القناة التي كانت تربط في العصور القديمة أقصى موقع في شمال البحر الأحمر (قلزم) بعاصمة مصر (٦٤٣) لا لصالح التجارة فحسب ، وانما بالأولى لتتيح للقناة أن يصدر بطريقة اسهل وبسرعة قمح مصر الى البلاد العربية القاحلة . وكانت القناة قد بدأت في أوائل القرن الثامن تمتلئ بالرمال ، الى أن سدها تماما حكام مصر (٧٦١ أو ٧٦٢) لمنع ارسال المؤمنين الى المدينة (المنورة) التي أصبحت بؤرة للثورات (٤) . والثابت أنه طالما كانت القناة صالحة للملاحة ، كان التجار

(١) Istachri, p. 59, 73; Edrisi, I, 383; Quatremère, Mémoires sur l'Egypte,

11, 377, 380 ; Karabacek, op. cit., p. 19 et ss.

(٢) Quatremère, loc cit., p. 308 et s., 335 et s. 339 et s., 375-382;

Istachri, p. 31.

cmfhy' mfhypdréu

Aboulf. Annal muslim. II, p. 107, 333; Quatremère, op. cit., (٣) p. 366-383.

(٤) بخصوص تاريخ هذه القناة في عهد سيادة العرب ، انظر :

Weil, Gesch der Chalifen, I, 119 et ss.

وكذا مفتحات من وصف مصر للمقريزي .

يستخدمونها لنقل بضائعهم الى القاهرة ، ومنها يعيدون تصديرها الى البحر المتوسط عن طريق النيل (١) .

ولا شك أن شق قناة تربط البحرين عبر برزخ السويس كان خليقا بأن يعزز العلاقات التجارية بين الشرق والغرب . ويقال ان الخليفة هارون الرشيد فكر في ذلك ، ولكنه عدل عن تنفيذ فكرته حين اعترض البعض بأن اليونانيين سوف يجدون في هذه القناة طريقا مفتوحا لهم للوصول الى البحر الأحمر ، يستغلونه لارسال حملات الى الأماكن المقدسة في مكة والمدينة ، ومنع الحج (٢) . ومن ثم لم يكن بد ، لنقل البضائع التي تأتي عن طريق البحر الأحمر الى الغرب من اجتياز الصحراء ، اما بارسالها الى النيل على ظهور الجمال ، ثم نقلها على النهر ، واما بنقلها عبر صحراء برزخ السويس فقط . وكان أول هذين الطريقين يصل مباشرة الى الاسكندرية . وثمة رحالة هو أركلف Arculf اجتاز مصر بعد الفتح العربي بحوالى عشر سنوات (حوالى عام ٦٧٠) ، تحدث عن الاسكندرية فقال انها ملتقى التجارة العالمية اذ يأتي اليها للتزود «شعوب لا حصر لها» (٣) . واذا كانت شهرة هذه المدينة قد خبت قليلا بعد ذلك أمام شهرة بغداد الباهرة ، فان الرخاء الذي عرفته مصر تحت حكم الطولونيين (٨٧١ — ٩٠٤) (٤) قد انعكس على هذه المدينة . وكان جزء من البضائع الآتية من البحر الأحمر يرسل عن طريق برزخ السويس الى مدينة الفرما (بيلوز القديمة Péluse التي احتفظ ثغرها بأهميته وراثته . ومما زاد في أهمية هذا الطريق على سائر الطرق هو أنه يختصر مدة السفر برا الى أربعة أو خمسة أيام (٥) . أما بخصوص سلع الشرق الأدنى التي تفرغ في جدة لتباع للعدد الكبير من الحجاج الذين يهرعون كل عام الى مكة ، فانها يمكن أن تصل الى الغرب ، ولكن بطريق غير مباشر ، اذا اشتراها تجار مصريون يعودون بالتالى الى وطنهم عن طريق البر في

(١) تعرف أيضا أمثلة لحجاج مسيحيين استنادوا من ذلك تجنباً لجزء من الرحلة عن الصحراء . من ذلك الالنديون الذين سجل قصصهم القصيرة الأخ خيريلس :

— Fidelis, dans Dicuill, De mensura Orbis, ed. Letronne, p. 23 et ss.

(٢) المسعودي ، الجزء الرابع ، ص ٩٨ وما بعدها .

وذكر ابن سيد (المتوفى عام ١٢٧٤) في كتاب أبو الفدا ، ترجمة رينو ، الجزء الثاني ص ١٤٦ أن عمرو ، فاتح مصر كان قد اعتمد شق هذه القناة ، ولكن الخليفة عمر رفض تنفيذ المشروع للبائع الذي ذكرناه .

Itinera hierosolymitana, éd. Tobler et Molinier, I., p. 188. (٣)

Weil, Gesch, der Chalif, II, 426 et ss, p. 435. (٤)

(٥) ابن حرداذية ، الناشر نابييه دو مينار ، ص ٥١٣ ، الاضطخري ص ٣ ، ٣٢ ، أبو الفدا ، ترجمة رينو ، الجزء الثاني ، ١٤٦ .

وكثيراً ما ذكرت الفرما Faramiah على أنها محطة في الطريق الساحلي بين مصر وفلسطين . انظر في ذلك :

— Bernardi monachi franci Itinirarium, dans Tobler et Molinier, op. cit., p. 313; Sprenger, op. cit., p. 95, etc.

صحبة حجاج من أهل بلدهم ، وذلك بالالتفاف حول طرفي البحر الأحمر ، أو تجار سوريون يحملونها الى دمشق . والحق أن طريق قوافل الحجاج السوريين الكبير كان بعيدا عن البحر لأنه يمر شرقي الأردن ، خارج فلسطين ، الا أن المسلمين كانوا يعتبرون زيارة مسجد القدس وقبر ابراهيم في حبرون (الآن الخليل) عملا من الأعمال الصالحة ، وكان الكثير من الحجاج يختمون حجهم في القدس بعد أدائه في مكة (١)، وفي القدس يقابلون الحجاج المسيحيين الغربيين فتنحى الفرصة للمبادلات التجارية . وفي يوم ١٥ سبتمبر من كل عام تقام في القدس سوق كبيرة يتردد عليها عدد كبير من التجار من مختلف الأمم (٢) غير أن هذا الطريق لم يكن الا طريقا ثانويا ، ولنعد الى طريق القوافل الرئيسي . كان أغلبية الحجاج يتجهون الى دمشق مباشرة ، وكانت هذه المدينة ملتقى العديد من الطرق الهامة ، فكان الحجاج القادمون من الشمال يتواعدون عندها باللقاء ليمضوا معا الى مكة ، وبعد عودتهم يفترقون عندها أيضا . وكانت هذه الحركة المستمرة تجلب بطبيعة الحال كمية كبيرة من البضائع الى دمشق . ولما كانت مدن طرابلس ، وبيروت ، وصور ، وعكا الساحلية على مسافة أيام قلائل سيرا على الأقدام ، فمن المحتمل أنها كانت منذ بداية العصور الوسطى تتزود بمؤناتها من دمشق . وكان هناك بنوع خاص طريق هام آخر ينتهي الى سوريا ، ذلك هو مجرى نهر الفرات الصالح للملاحة من الخليج الفارسي حتى مسافة صغيرة من البحر المتوسط . وابتداء من مدينتي البصرة وبغداد (وكانت بغداد متصلة بنهر الفرات بواسطة قناة) كان ثمة حركة متصلة لنقل البضائع ، تصعد النهر ، أو تتبع طريقا للقوافل بمحاذاة ضفاف النهر . ويذكر قدامى الجغرافيين العرب على هذا الطريق موقعين هامين : الرقة Rakka ، وبليس Balis وقد أتيح لنا التحدث عن المدينة الأولى حين كان اسمها كالينيكوم Callinicum وهي من الأماكن التي كان الرومان يشترون عندها الحرير من الفرس ، واستمرت هذه المدينة مزدهرة تحت السيادة العربية ، وبخاصة في العصر العباسي (٣)، بفضل العديد من العلاقات التي كانت تربطها ، ليس فقط على طول نهر الفرات ، ولكن أيضا في الشمال الشرقي مع نصيبين Misibe والموصل ، وفي الجنوب الغربي مع دمشق (٤) . أما بلدة بليس فانها كانت على بعد يومين سيرا على الأقدام من الرقة ، ويصفها الجغرافي العربي الاصطخرى بأنها « ميناء السوريين » ، وهذا

(١) وجد المقدسي ، المعروف بالبشاري في أسواق اورشليم (المقدس) وفرة كبيرة من فواكه الجنوب ، وكانت السوق خاضعة لنظام دقيق ، وضرائب باهظة .

(٢) وجد الصليبيون بمدينة قيصرية كمية هائلة من الفلفل تأتيها من القدس :

— Arculf, I., c. p. 144; Ann. Jan. éd. Pertz, SS. XVIII, p. 14.

Isstachri, p. 47 ; Weil, Gesch der Chalif, II, 145, note ; Ritter, Erdk. (٣)

X, 1143 et ss.

Sprenger, op. cit., p. 92 et s., 105-108.

(٤)

دليل كاف على أن التجار السوريين كانوا يأتون إليها ، عند حدود بلدهم ، فيركبون السفن ومعهم بضائعهم في طريقهم إلى الشرف ، وينزلون بها عنده دعوتهم (١) . وعلى بعد يومين ، ناحية الغرب (٢) ، نجد حلب ، وهي مركز تجارى في شمال سوريا ، مثلما كانت دمشق في وسطها . ويواصل قسم كبير من البضائع الواردة على هذا الموقع طريقه إلى أنطاكية ويصل إلى البحر على مسافة ليست بعيدة عن هذه المدينة . وإذا أردنا أن نعرف مدى نشاط حركة التجارة بين حلب وأنطاكية ، حتى قبل الحروب الصليبية ، فلدينا مثال لذلك : فمن المعروف أن الروم نجحوا من ٩٦٦ إلى ٩٦٨ في انتزاع مدينة أنطاكية من العرب ، وكذا جزءا من الاقليم المجاور لها ، واحتفظوا بها حتى عام ١٠٨٤ . وما كادوا يستطيعون سيادتهم على أنطاكية حتى اتبحت لهم فرصة للتدخل في شئون حلب التي كان أميرها الشرعى الشاب سعد الدولة الحمداني (٣) قد خلعه من العرش اثنان من كبار أتباعه : كارجوجا Kargoujah (أو Korouba كما يقول Weil) ، وبأكجور (Bekdjour) Bakgour ، وطلب المغتصبان مساعدة الروم ، وأقرا بسيادة الأمباطور . ويذكر كمال الدين ، مؤرخ حلب (٤) المواد الرئيسية لمعاهدة عقدها مع حاكم أنطاكية في شهر صفر عام ٣٥٩ هـ . ومن بين هذه المواد فقرات خاصة بالتجارة ، وهي وحدها التي تهتمنا في هذا البحث . تقول هذه الفقرات ، على سبيل المثال ، انه لا يجوز اعاقه الروم الزاهبين إلى حلب في تجارتهم ، وأن يصحب القوافل اليونانية حراسة كافية لضمان أمنها حتى تصل إلى المدينة ، ويتبع ذلك قواعد تحدد العشور (الرسوم) التي تفرض على البضائع : وفي قائمة هذه البضائع ، الذهب والفضة ، والمنسوجات الحريرية اليونانية ، والحرير الخام ، والأحجار الكريمة ، واللآلئ ، والدباغ ، والأقمشة للملابس الشعبية ، والمنسوجات الكتانية ، والماشية ، الخ . وعلى ذلك ينبئنا كمال الدين أن القوافل في ذلك العصر كانت تقوم برحلات ذهاب وعودة بين حلب وأنطاكية . ترى هل يمكن التسليم بأن هذه الحالة لم تدم إلا للفترة التي كانت فيها حلب تابعة من الوجهة السياسية لأنطاكية وبينظة ؟ كلا بالتأكيد . لأن المعاهدة المشار إليها لم تكن منشئة لهذه العلاقات

(١) الاصطخرى ، ص ٣٨ .

ويقول ابن خردادبة ان اليهود الذين يحكى رحلتهم - وسوف نتكلم عنهم فيما بعد ، اجنازوا أيضا في ثلاثة أيام المسافة من أنطاكية إلى الفرات (éd. Barbier de Meynard p. 514)

(٢) الاصطخرى ، ص ٤١ ، وكذا : القدسي ، في « سبرنجر » ، المرجع السابق ص ٩٨ ، ١٠١ ، وكذا : Benjamin Tudel, éd. Asher, I, 88.

(٣) هو شريف بن علي بن عبد الله بن حمدان ، أبو المعالي ، سعد الدولة الحمداني ، ابن سيف الدولة صاحب وحمص وما بينهما ، والمتوفى سنة ٣٨١ هـ - ٩٩١ م (المراجع) .

(٤) كان فريتاغ Freytag أول من نشر النص العربى لهذا الجزء من تاريخه مع ترجمة ألمانية ، وأعاد نشرها لاسن Lassen باللاتينية ، وأخيرا ضمنها فريتاغ تاريخه . انظر أيضا : Weil, Gesch, d. Calif., III, 38 et ss.

الخاصة بسير القوافل ، ولكنها تثبت حالة موجودة من قبل . وعلى ذلك فعندما تستقبل أنطاكية البضائع الآتية من الفرات عن طريق حلب ، وتعيد تصديرها الى البحر ، فان هذا المكان كان لزمان طويل قبل الحروب الصليبية مستودعا هاما للبضائع وسوف نقدم فيما بعد براهين أخرى .

وعلىنا الآن أن نبحث عن الموانئ الأخرى التي يمكن أن تخرج منها بضائع الشرق لتصل الى الغرب . فثمة جغرافيان عربيان من القرن العاشر ، المسعودي والاصطخري ، يوجهان أنظارنا الى مستودع كبير لمنتجات الشرق الأدنى ، مستودع « تريبيزونده » (طربزون) Tribizonde . يقول المسعودي انه كان يقام بهذه المدينة كل سنة عدة أسواق يتردد عليها الشراكسة وعدد كبير من التجار المسلمين والبيزنطيين والأرمن وغيرهم (١) . وكتب الاصطخري « طربزون مدينة حدود رومية يذهب اليها تجارنا كلهم ، ويمر بطربزون كل الأقمشة الاغريقية الصنع ، وكل الديباج المستورد الى الأراضي الاسلامية » (٢) . ومن الواضح أن التجار المسلمين ، وكذا الأرمن كانوا يجلبون بضائعهم الى هذا السوق ، رغم أن هذين المؤلفين لا يقولان ذلك ، ولكن من أية أجزاء دولة الخلفاء كان يأتي هؤلاء التجار المسلمون ؟ كانت آسيا الصغرى في ذاك العصر تحت سيادة الروم ، ومن المؤكد أنه حين كان مسلمو سوريا يريدون عقد صفقات تجارية مع الروم لم يكونوا بحاجة الى اتباع طرق غير مباشرة ، وعلى ذلك فلا بد أن هؤلاء التجار كانوا من أهالي منطقة الدجلة أو فارس وبخارى ، ولسنا نملك عن هذه العصور القديمة أى دليل يتيح لنا أن نتبع الطرق التي كانوا يسلكونها . ومع ذلك يمكننا على الأقل أن نحدد نقطة مرحلية : فقد كان في أرمينيا الكبرى مدينة قديمة اسمها جارين Garin ، جعل منها البيزنطيون حصنا منيعا ، وأطلقوا عليها اسم تيودوسيو بوليس Theodosiopolis ولما وجد السكان مشقة في مزاوله حرفهم بسبب تحصينات المدينة ، فضلوا إقامة منشأة جديدة لا تبعد كثيرا عن المدينة ، في موقع أكثر ملاءمة للتجارة ، ولكنه مكشوف تماما . وعلى هذا النحو نشأت المدينة المزدهرة أرز Arze أو ارزن Arzen (٣) ، وأثرى فيها عدد كبير من الأهالي والتجار ، من سوريين وغيرهم بتلقيهم أنواعا مختلفة من البضائع من فارس والهند وسائر أنحاء آسيا ، وبيعهم هذه البضائع . وفي عام ١٠٤٩ غزا السلاجقة المظفرون البلد ، واستولوا على ارزن ، وجمعوا بها غنائم هائلة من معادن ثمينة وسلع غالية ، وأحرقوا المدينة وذبحوا السكان ، ومن استطاع الفرار التجأ الى مدينة

11, p. 3.

(١)

(٢) انظر هنا بالترجمة الاصح الى اجراها دفريمري : Defrémery, le Journ.-asiat. IV^s, XIV, p. 462.

Porphyre, De adm. imp. cap. 44, p. 192 et ss.

(٣)

Mich. Attal, p. 148.

ثيودوسيوبوليس القديمة التي هجرت منذ زمن بعيد ، وأطلق السكان الجدد على المدينة اسم البلدة التي دمرت ، أي « أرزن » وأضافوا صفة « الرومانية » بسبب تحصيناتها ، ومن ثم صار اسمها أرزنروم ، أو ارزروم (أرضروم) ، وعندما تحسنت الأحوال ، استعاد السكان نشاطهم التجاري (١) . والمعروف أن الأهمية التجارية لأرضروم الحديثة ترجع الى أنها كانت دائما مركزا من المراكز الرئيسية القائمة على الطريق الكبير المؤدى من داخل آسيا الى طربزون : ولم يكن لرخاء أرزن القديمة سبب آخر ، إذ أنه من الراجح أن التجار المسلمين والأرمن كانوا يتبعون للذهاب الى طربزون نفس الطريق الذي يتبعه أحفادهم في العصر الحاضر . ومع ذلك يتحدث قسطنطين بوفيروجينيت Constantin Porphyrogénète عن مدينة أخرى يستطيع عن طريقها تجار وسط آسيا الوصول الى طربزون . ففي جروزي Grouzie (جورجيا) ، على مسافة ليست ببعيدة عن مجرى نهر تشوروخ Tchorokh نجد ضيعة باسم ارتانوج Artanoudj (٢) كانت لها فيما مضى أهمية الموقع الحصين ، والسوق التجارية ، وكان يأتى إليها في القرن العاشر تجار من أرمينيا وسوريا من جهة ومن إيربيا (جورجيا) ، وإبازيا Abazie وطربزون من جهة أخرى . ومما هو معروف عن الرسوم الباهظة التي كانت هذه البلدة تحصلها يمكن الاستنتاج بأن الحركة التجارية بها كانت نشيطة (٣) . فضلا عن ذلك فإن هذه البلدة ، كانت بحكم موقعها مقصدا لسكان منطقة كولشيد Colchide ، يزورونها أكثر مما يزورها أغريق طربزون .

ولا بد أيضا ، وتكملة لهذا العرض لطرق المواصلات بين الشرق والغرب ، من دراسة الحدود الشمالية للمسلمين . فمن بحر قزوين الذى كان المسلمون يملكون نصفه الجنوبي ، كانت هذه الحدود تمتد شرقا حتى بحر أزال حيث تسود حركة تجارية كبيرة . كانت هذه التجارة ، فضلا عن قربها من الأسواق الكبيرة بسمرقند وبخارى ، وعلاقات هاتين المدينتين الواسعة (٤) وقربها من

-
- (١) Mathieu d'Edesse, traduit par Dulaurier, dans sa Bibliothèque arménienne, p. 33 et s. et notes p. 409; Cedrenus, II, p. 577 et s.; Michel Attal, p. 148; Saint-Martin, Mém. sur l'Ormenie(I, p. 68, II, p. 446 et s.; Ritter, Erdk, X, p. 271.
(٢) Wakhoucht, Description géographique de la Géorgie, éd. Brosset, p. 117; Koch, Wanderungen in Orient, II, p. 189 et ss.
(٣) Constant, Porphyrog., de adm. imp. p. 207 et s.

- (٤) رأى الرحالة أبو دلف مسعر (٩٤١) تجارا لهم حملات بالهند والصين ، وكذا بالترك مكان السهوب المحيطة شمالا ببحر أراك . وكان لمدينة الحدود الاسلامية جورجانش الواقعة في الجنوب صلات عديدة بهؤلاء التجار (الاصطخرى ، ص ١٢٧ ، ١٢٩)
— d'Ohson, Des peuples du Caucase, p. 146, 148.
— Kurd V. Schlozer, p. 11. انظر اخبار رحلته التي نشرها :

عاصمة الري (Ragoe) Raï القديمة (١) ، تتغذى بالصناعة المزدهرة في شمال فارس . وكانت الثغور العديدة المتناثرة على ساحل بحر قزوين ، من أبسكون Abeskoun ، وأستراباد Asterabad في الجنوب الشرقي حتى دربند Derbent في الغرب تغذى حركة ملاحية نشيطة . كانت استراباد تصدر ملابس حريرية ، وأغطية للرأس ، وطاقيات ، وتعرض أسواق دربند مجموعة من السلع والمنتجات من كل أجزاء الساحل (٢) بقي أن نعرف ما اذا كانت السلع التي تجمع في منطقة بحر قزوين تصدر الى البحر الأسود فيما وراء برزخ القوقاز ، اما بطريق الماء ، على طول مجرى نهر كورا Kour وفاز Phase واما بطريق البر ، بعبور القوقاز ابتداء من دربند ، ويبدو لنا هذا قليل الاحتمال . ذلك أنه كان يوجد بين القسم المسيحي من سكان البرزخ ، الملحق دينيا وسياسيا بالامبراطورية الرومية من جهة ، وبين المسلمين سادة الجزء الجنوبي الغربي ، والجزء الغربي من بحر قزوين من جهة أخرى نفور لا يشجع على عقد الصلات التجارية . ومن جهة أخرى فان الغارات العديدة التي كانت جورجيا المسيحية هدفا لها من جانب العرب أولا ثم الترك السلاجقة فيما بعد جعلت الطرق غير مأمونة ، ثم أن القوقاز الأصلية بطرقها الوعرة وسكانها ذوي السلالات واللغات المختلفة لم تكن ملائمة لشق طريق تجارى كبير (٣) . وكان القاشاق Kaschaks سكان هذه البقاع يقيمون علاقات تجارية نشيطة مع سكان شواطئ بحر قزوين المسلمين من جهة ومع الروم في طربزون من جهة أخرى . ولكنهم كانوا يكتفون بحمل منتجاتهم الخاصة الى السوق وشراء المنتجات التي يحتاجون اليها (٤) ، ولم يفكروا في مزاولة الوساطة لكي يزودوا الروم بمنتجات الشرق .

وفي هذه الظروف لم يكن بمقدور سكان منطقة بحر قزوين أن ينموا كثيرا تجارتهم مع الغرب ، ولكن كان عندهم ثغر مفتوح عن سعة صوب الشمال : ذلك هو مجرى نهر الفولجا . وكانت الحضارة البدائية عند أقوام هذه المناطق وتنقلاتهم المستمرة عقبة في سبيل إقامة علاقات دائمة . غير أن ملوك الخزر ،

(١) عن موقع هذه المدن (على بعد ساعتين تقريبا من مدينة طهران الحالية) أنظر : Ritter, Asien, VI, I, p. 595 et ss.

ولدينا كتاب لجغرافي مجهول في القرن العاشر ، ذكرت فيه رأى على انها مركز تجارى لأرمينيا ، وأذربيجان ، وخراسان ، والخزر ، وبورجان . أنظر في ذلك : — Sprenger, Some original passagers on the early commerce of the Arabs; Journal of the Asiat. Soc. of Bengal, XIV, 2 (1844) p. 526.

— أنظر أيضا الاصطخرى ، ص ٩٥ ، ٩٨ .

(٢) الاصطخرى ، ص ١٦١ ، وكذا ، — d'Ohsson, loc. cit., p. 6, 7.

(٣) Rasmussen, De orientis commercium Russia et Scandinavia, medio oeo Haven., 1825, p. 3.

(٤) المسعودى ، الجزء الثاني ، ٣ ، ٤٥ - ٤٧ .

سكان المناطق التي يخترقها مجرى نهر الفولجا السفلى نجحوا أخيرا في تهئية وضع منتظم ، وأذنوا لليهود والمسيحيين والمسلمين بالإقامة في بلادهم بكامل حريتهم ، ومنحهم حرية ممارسة شعائر أديانهم ، وسمحوا لهم بأن يكون قضائهم من أخوانهم في الدين (١) . ومن ذلك الحين (ويشهد بذلك العديد من الرحالة والجغرافيين في القرن العاشر) (٢) استطاع التجار العرب أن يوصلوا علاقات منتظمة مع مناطق شمال بحر قزوين . وشهدت إيتل (Ate) Itil عاصمة الخزر الواقعة على مصب نهر الفولجا وصول سفنهم وقوافلهم . وكانت نقطة الرحيل الرئيسية ، ثغر استراباد . أما بالنسبة إلى القوافل فكانت نقطة الرحيل مدينة الحدود جورجانية Djodjunich (٣) على بحر أرال . وسوف نرى أن العرب لم يقفوا بالوصول إلى إيتل ، وأنهم استطاعوا أن يصعدوا نهر الفولجا حتى قلب روسيا طلبا للجلود والفراء . ومن المفيد أن نعرف ما إذا لم يكن هناك في ذلك العصر ، إلى جانب الشريان الكبير المكون من نهر الفولجا ، تلك الطرق المتشعبة المعهودة في العصور الوسطى ، والممتدة من الفولجا السفلى إلى نهر الدن ، ومن هناك إلى البحر الأسود أو بحر أزوف . وكان الخزر قد توسعوا حتى غربي نهر الدن وبحر أزوف . ولما كانوا يتلقون الكثير من البضائع بواسطة العرب ، كان بمقدورهم أن ينقلوها مباشرة عن هذا الطريق إلى القسطنطينية .

والواقع أنه كان لهم مع الإغريق صلات متواترة (٤) ، ولدينا من الآثار ما ينبت علاقاتهم التجارية .

وفي القرن العاشر روى بعض السفراء البيزنطيين في بلاط الخليفة بقرطبة أن ثمة سفنا قادمة من بلاد الخزر إلى القسطنطينية تجلب إليها من وقت لآخر

(١) أنظر الفصل الخاص بالخزر في كتاب المسعودي ، الجزء الثاني ، ص ٧ وما بعدها .
— Froehn, De Chazaris, dans les Mém. de l'Acad. de St. Pétersbourg VIII, (1822) p. 590, 594; Vivien de Saint martin, Sur les Khazares, art. 1 dans les nouv. annal. des voy. 1851, Mai, p. 157 et s.

— يقول أيضا كاتب عربي من القرن العاشر ، اسمه ابن رسته أنه كان هناك مسلمون مقيمون في مدن الخزر ، وأنهم كانوا يمارسون ديانتهم بمطلق حريتهم .

(٢) الاصطخرى وابن حوقل . وقد جمع روسلر Rössler ودوسون d'hoson وشرحا كل ما كتبه الرحالة عن جنوب روسيا ، الأول منهما في كتاب عنوانه :

— Ibn Fossilans und anderer Araber Reiseberichte (Petersb. 1823).

وفي دراسات أكاديمية عديدة ، والنائي في كتابه :

— Des peuples du Caucasse, Paris 1828.

— Dorn, Geographico, Caucasia, dans les Mém de l'Acad. de St. Petersburg, Série VI, Polit-hist.-philol., VII, p. 454 et ss.

(٣) الاصطخرى ، ص ١٠١ ، ١٢٧ .

D'Ohsson (des peuples du Caucase, p. 194 et ss.

(٤)

سمكا وجلودا وفراء ٠٠ الخ (١) ، وتشحن عند عودتها أقمشة بطبيعة الحال ، كما يحكى ابن حوقل أن الخزر كانوا يبتاعون من البيزنطيين بعضا من الأقمشة التي يصنعون منها ثيابهم (٢) ٠ ولا يبدو أن هذه الحركة التجارية قد تجاوزت حدود التجارة المحلية ، وكانت الرحلات القادمة من الشمال الى القسطنطينية قاصرة بالأرجح على تجارة الجلود والفراء ٠ كل ذلك اذن لا يقوم دليلا على وجود حركة لنقل البضائع من آسيا الى الغرب ٠

بقى أن نعرف أيضا ما اذا كان من المحتمل أن تمر بضائع الشرق الأدنى من الخزر الى جيرانهم البنشينج Petchénègues المقيمين في منطقة نهر الدن الأسفل (٣) ، وما اذا كان هؤلاء ينقلونها بطريق البر الى خرسون Cherson وهي أقرب سوق رومية الى بلدهم ، والأمر هنا مثار للشك ٠ وليست حضارة البتشينج المتخلفة هي التي تثير شكوكنا ٠ اذ يروى قسطنطين بورفيريوجينييت أن البتشينج كانوا يقدمون كل أنواع الخدمات لسكان خرسون ، ويقومون لهم بالوساطة (السياسية أو التجارية) في الأعمال التي كان هؤلاء يعقدونها مع الأقوام البعيدين ، وينالون أجرهم عينا عن خدماتهم ٠ ويذكر هذا المؤلف بين ما يذكره من البضائع المستعملة كأجر للخدمات ، بعض منتجات الشرق الأدنى ، كالفلل وفرو الفهد (٤) ٠ ويدل هذا البيان دلالة كافية على أن سكان خرسون لم يكونوا يتلقون بضائع الشرق الأدنى من جيرانهم البرابرة ، وأنهم هم الذين كانوا يزودونهم بهذه البضائع بعد أن يستخلصوها من أجزاء أخرى من الأمبراطورية البيزنطية (طربزون ، والقسطنطينية ، الخ) ٠

كان قصدنا ، باستعراض كل البلاد الخاضعة للسيادة العربية ، من مصر الى بنطس Pont والى بحر قزوين وبحر أرال ، البحث عن الطرق التجارية ، والمواقع التي تأتي منها بضائع الشرق متجهة الى الغرب ٠ الا أن العرب كانوا قد أسسوا ممالك غربي مصر على طول الساحل الشمالى لأفريقيا حتى أسبانيا وصقلية ، وكان موقع هذه الممالك ملائما كل الملائمة للوساطة في التجارة بين الشرق والغرب ٠ وكانت بلاطات القيروان وقرطبة وبالرمو تقدر المنتجات الآسيوية حق قدرها ، وأتاح الرخاء الذى شاع بصفة عامة في هذه البلاد لعدد كبير من الأفراد أن يستمتعوا بهذه المنتجات ٠ وخلق هذا الأمر بعض المطالب ،

(١) أنظر رسالة اليهودى الاسافى حسداى الى ملك الخزر ، باللغة الفرنسية :

— Carmoly, Itinéraires de la terre sainte (Brux. 1947), p. 38.

— la Russ. Revue, VI, 74.

وباللاتينية في :

Froehn, Veteres memoriae Chasarorum, dans les Mém. de l'Acad. (٢)

de St. Petersburg, VIII, (1822) p. 605.

Constantin Porphyrog., De administ. imp. p. 177; ef. p. 181, en haut. (٣)

(٤) المرجع السابق ، ص ٧١ وما بعدها :

وأسهمت القوافل في اشباع هذه المطالب ، ولكن جزءا كبيرا من بضائع الشرق كان يجلب عن طريق البحر من سوريا ومصر الى ثغور شمال أفريقيا وأسبانيا . وكانت برقة هي أول ميناء لرسو السفن بعد أن تغادر ميناء الاسكندرية : ففي القرن العاشر وجد ابن حوقل هذا الميناء مزودا بوفرة من بضائع الغرب والشرق (يذكر من بينها الفلفل) ، ورأى هناك حركة كبيرة للتجار المشتغلين بهذه التجارة (١) . وبعد طرابلس ، تستمر سلسلة من الموانئ حتى المغرب (٢) . ومن بين هذه الموانئ كانت المهدية أكثرها رخاء لقربها من مدينة القيروان . ولا ينسى الرحالة « البكري » الذي كتب في حوالي عام ١٠٦٠ ، أن يذكر السفن الآتية من مصر ومن سوريا (٣) . ومن هناك تدخل في بلاد البربر منتجات آسيا كاختشاب الهند الثمينة (٤) . وكانت اسبانيا العربية أيضا على صلات تجارية بمصر . كتب شيسداي Chasday ، وهو يهودي في خدمة عبد الرحمن الثالث (٩١٢ - ٩٦١) في خطاب معروف موجه الى ملك الجزر ، يصف البلد الذي يحكمه سيده قائلا : « نشهد وصول الكثير من التجار في بلدنا (أسبانيا) قادمين من بلاد أجنبية ، ومن الجزر ، وبخاصة من مصر ، ومن بلاد أبعد منها ، يجلبون العطور والأحجار الكريمة ، وسلما أخرى ثمينة يستعملها الأمراء والعظماء ، وبعمامة كل منتجات مصر التي نحتاج اليها في بلدنا (٥) . وفي هذا يبدو خسرأى على حق ، لأنه كان هناك ، كما يقول أبو الفدا ، سفن تذهب من أسبانيا الى مصر حاملة البضائع ، وهناك تأخذ بضائع غبرها اعوضا عنها (٦) .

وأخيرا ، كان عرب صقلية يرسلون في كثير من الأحيان سفنهم الى المهدية وسوسة (٧) ، وربما أيضا الى مصر ، وكان من الميسور لهم التزود بالمنتجات

(١) Description de l'Afrique, trad. par Slane dans le Journ. asiat., Série 3, T. XIII (1842) p. 161.

(٢) جمعت كل المعلومات التي أعطاها عن هذه النقطة قدامى الرحالة العرب في كتاب أماري Amari, I diplomati arabi del r. archivio Fiorentino :

وفي دراستي عن « المستعمرات التجارية الإيطالية في شمال أفريقيا في العصر الوسيط » .

(٣) البكري ، ترجمة سلين Slane ، المجلة الآسيوية ، المجموعة الخامسة ، الزء ١٢ ، ص ٤٨٥ .

(٤) أماري Amari

(٥) Carmoly, Itinéraires de la terre sainte, p. 36 et s.; Harkavy, dans la Russ. Pevue, VI, 73.

(٦) أسرت إحدى السفن الأسبانية في عام ٩٥٥ سفينة مصرية ، وكان هذا العمل مصدره لنزاع بين الخليفة الفاطمي المعز والخليفة العباسي عبد الرحمن الثالث .

— أبو الفدا : Ann. muslim, éd. Reiska, II, p. 463.

(٧) Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia, II, 449.

الآسيوية . غير أن امكانية الحصول على هذا الوجه بطريق التجارة على أشياء كثيرة مصنوعة في الشرق لم تكن كافية للعرب المقيمين في الغرب ، فقد كانوا على دراية بفن زراعة نباتات في أوروبا ، لم تكن تزرع حتى ذلك الحين الا في آسيا وأفريقيا . ولم ينجح للمرة توطين النباتات التي تنتج التوابل الحقيقية ، غير أن شجيرات القطن ، وقصب السكر ، ونخيل البلح ازدهرت في بعض أنحاء أسبانيا وصقلية .

وفى هذين البلدين نمت صناعة الحرير نموا كبيرا ، وكان البلدان ينتجان جزءا على الأقل من المادة الأولية لهذه الصناعة . وهكذا فمع الجنسية العربية ، رسخت في الغرب رفاهية الشرق وحضارته وصناعته .

ونحن اذا تساءلنا عما اذا كان العرب قد عملوا بهمة على أن يستوردوا للبلاد المسيحية السلع التي يستخلصونها من أعماق الشرق ، وكذا منتجاتهم الخاصة ، هذا الشعب (العربي) الذي كان يرسل سفنه عبر المحيط الهندي الى نهاية العالم ، وكذا عبر البحر المتوسط الى السواحل المجاورة في اليونان وايطاليا وفرنسا حاملة كنوز الشرق ، فاننا نؤكد أنهم لم يفعلوا ذلك ، على الأقل في القرون الأولى . ذلك أن ما كانوا يصرحون به من سيادتهم على العالم باسم الاسلام ، قد وضعهم بازاء المسيحية في موضع العداوة التي لم يخمد أوارها الا بعد حروب طويلة . وكان لا بد أن يتعلموا بأنفسهم أن يحترموا الحدود التي واجهت محاولاتهم ، بفضل المقاومة العنيدة التي أبدتها حيالهم مسيحيو الأمبراطورية الشرقية ، وبأس الأجناس الرومانية الجرمانية الفتية ، وبذلك اشتدت ضراوتهم في القتال . وحين كانت سفنهم ترسو على سواحل اليونان وايطاليا وفرنسا ، لم يكن النازلون منها تجارا مسالمين ، ولكن شراذم من جند وقراصنة يحرقون ويدمرون كل شيء . ولسنين طويلة كان ظهور سفن المسلمين مثيرا للرعب في قلوب المسيحيين من سكان شاطئ البحر المتوسط . ولم تكن السفن التي تحمل الركاب والبضائع تبحر الا بين أسبانيا وصقلية وأفريقيا ، ولا تخدم الا تجارة العرب فيما بينهم .

ومع ذلك أدرك العرب شيئا فشيئا أنه يوجد شمال البحر المتوسط حشده هائل من المسيحيين الذين لا يمكن تحويلهم الى الاسلام ، لا بالقوة ولا بالاقناع ، ومن ثم هدأ تعصبهم الحربي بالتدريج ، ولم يعودوا في القرن الحادي عشر ينفرون من زيارة أوروبا كسياح فضوليين أو تجار ينشدون الثراء . وفي هذه الآونة قام العربي الاسباني أبو بكر محمد الطرطوشي (من طرطوشة) برحلته في قسم من أوروبا المسيحية (١) . ويبدى دونتزو Donizo الورع في كتابة

(١) انظر كانرمير في « المجلة الآسيوية » المجموعة الخامسة ، الجزء ١٧ ، ص ١٤٧

وما بعدها .

Froehn, dans les Mém. de l'Acad. de St. Petersb., Série VI, Sciences politiques, T. II (1834), p. 87 et ss.

« حياة الكونتيسة الكبيرة ماتيلدا الرشائية » سخطه من وجود عدد كبير من الكفار الترك والليبيين والبارثيين والسود الكلدانيين الذين يجوبون شوارع بيزا (١) . ولنا أن نسلم بأن هؤلاء المسلمين الأسيويين والأفريقيين لم ينتظروا حتى بداية القرن الثاني عشر (كتب دونتزو ماكتبه في عام ١١١٤) ليزوروا بيزا . ومن المحتمل أنه في الفترات الأولى من الحروب الصليبية جاءت فترة توقف فيها تدفق المسلمين . ولا شك أن دونتزو قد صور في شعره حالة سابقة على الحروب الصليبية . وفي عصر أكثر قدما كانت المدن التجارية في جنوب إيطاليا تستقبل داخل جدرانها مسلمين من شمال أفريقيا ، بل ومن مصر وسوريا وسوف نرى فيما بعد أن هذه المدن كانت في القرن التاسع ملاذا للقراصنة الأفريقيين ، وكانت تعقد معهم أحلانا ، وتشترك معهم في بعض الحملات . وإذا كان القراصنة الأفريقيون يحظون بترحيب طيب في سالرنو وأمالفي وناپولي وجائيتا ، ألم يجد التجار المسلمون ، من باب أولى ترجيحاً أفضل ؟ ومع ذلك فانا لم نجد في أى مكان برهانا أكيدا يثبت ذلك ، ولا حتى فيما ذكره الأفريقي المشهور أران Arrane (حراني Harrani) الذي أراد أن يظهر امتنانه لأمير سالرنو Waifre فحذره من أن المسلمين يدبرون هجوما على تلك المدينة (٢) .

ويجب البحث في القسطنطينية عن آثار أكثر وضوحا لهجرة المسلمين الى الأراضى المسيحية . وان وجود مسجد في هذه المدينة لدليل يثبت هذه الهجرة : فقد شيد العرب بها مسجدا في عام ٧١٧ عند حصارها في عهد الإمبراطور ليو الايسورى Léon l'Isaurien ، ولكن المسجد تهدم (٣) . وفي عام ١٠٤٩ أو ١٠٥٠ شيد الإمبراطور قسطنطين مونوماك مسجدا جديدا وزوده على حسابه الخاص بجميع لوازم العقيدة الاسلامية . حقا كان الباعث على هذا الكرم الرغبة فى اكتساب ود الأمير السلجوقى القوى طغرل بك (٤) . ولكن اذا كان الإمبراطور قد بنى مسجدا ، فذلك لأنه كان هناك مسلمون يترددون عليه ، وهذا ما يثبته أبو الفرج (٥) وهو يروى قصة ثورة اندلعت منذ بضع سنوات مضت (١٠٤٤) اشترك فيها أرمن ويهود وعرب . ولا شك أن الأخيرين كانوا قد قدموا الى عاصمة الإمبراطورية اليونانية من أجل مصالحهم التجارية . ثم أن ظهور تجار

(١) Pertz, SS. XII. 379.

(٢) Chron. Salern. dans Pertz, ss. 111, p. 528; Amari, Storia dei Musulm., di Sicilia, I, 383 et ss.

(٣) Constant, Porphyrog., De administr. imp., éd. Bonn, III, 101.

(٤) Aboulf., Ann. musul. III, 131 ; Barhebroeus, Chron. syr. éd. Bruns et Kirsh, p. 248.

(٥) Barhebroeus, loc. cit., p. 245.

عرب فى الاقليم المسيحى كان ولم يزل ظاهرة فردية ، حتى ان دورهم فى حركة استيراد منتجات الشرق الى الغرب لم يكن سوى دور متواضع للغاية .

٢ - الروم

ظل الشعب الذى كان معظم طرق آسيا تمر بأراضيه أو تنتهى اليها غريبا عن الحركة التجارية ، ويبدو أنه لم يكن له مصلحة فى أن يصدر الى الغرب البضائع الواردة من وسط آسيا ، بل لم يهتم بأن يقدم للاروبيين منتجاته الزراعية أو الصناعية . لا بد اذن من التسليم بأن هناك أمما أخرى كانت تقوم بدور الوساطة بين الشرق والغرب ، وينبغى البحث عن هذه الأمم . ومن الطبيعى فى هذا البحث التفكير أولا فى اليونانيين . ولما كان هؤلاء يقيمون بين أتباع الاسلام ، وبين أمم المجموعة الرومانية الجرمانية ، كان دور الوسيط يناسبهم كل المناسبة . حقا انهم مسيحيون ، اشتركوا بدور فعال فى النضال بين الديانتين ، غير أنه منذ كانت لهم السيادة على سوريا ومصر ، ومن ثم على الأراضى التى تنتهى عندها الطرق الآسيوية ، أصبح استعمال منتجات الشرق عادة عندهم ، وكان من العسير أن يحرموا منها . ولما كانوا مولعين بترف المائدة والملبس ، فانهم لم يستطيعوا الاستغناء عن الفلفل والحريير والنسيج الأرجوانى ، وكان لابد لولائهم من عطر خشب الهند (خشب الصندل) (١) .

وحين أحاط أطباء الروم علما بأدب اللغة العربية ، واكتسبوا بذلك معرفة أكثر صحة وكمالا بالطبيعة وتأثير العقاقير التى يستعملها أطباء الشرق (٢) . كان عليهم بدورهم أن يستخدموا هذه العقاقير فى مهنتهم ، وكان لا بد لهم لاستيرادها أن يستعينوا بالتجارة . ولهذه الأسباب كلها ، كان لا بد من أن يزول نفور اليونانيين من العرب ، دينيا وسياسيا لحاجتهم الى الاتجار معهم .

وفى بداية الفتوحات العربية كانت السفن البيزنطية متباعدة عن نفور مصر وسوريا ، الا أن هذا التباعد لم يدم طويلا . ومع ذلك لا يرجع أول أثر أكيد لعودة الصلات الا الى مطلع القرن التاسع . وفى هذا العصر ، حين اعتدى المسلمون على الأراضى المقدسة ، حظر ليو (لأوون) الخامس الأرمنى رعاياه من

Theophan, contin, p. 457.

(١)

Siméon Seth,

فى هذا الخصوص كتاب مشهور ، لسيميون سيت

مهدى الى الامبراطور ميخائيل السابع روكاس (١٠٧١ - ١٠٧٨) بعنوان :

De alimentorum facultatibus,

يعالج فيه عن خبرة تأثيرات الزنجبيل والقرفة والقرنفل وجوز الطيب والكافور ، وخشب

الصبر ، والفلفل : (éd. Langkavel, p. 40 et s., 55, 56, 58-66 et s. 74 et s.

الذهاب الى مصر وسوريا(١) ، ولا بد أن الأمبراطور أراد بقطعه العلاقات المفيدة للعرب أن يجعلهم يشعرون بوطأة غضبه . غير أن مرسومه هذا يدل على شيء واحد : ذلك أن الروم كانوا في ذلك العهد لا يتورعون عن مصادقة العرب فيما يتعلق بالتجارة . ويروى المؤرخ Cedrenus (٢) بخصوص هذا الأمبراطور أن من بين الهدايا التي منحها لراهب من أصدقائه نباتات عطرية ، يقول عنها انها « مثل تلك التي تأتي من الهند » وتدلل هذه الحكاية الصغيرة على استدامة التيار الذي كان يجلب منتجات الشرق الى القسطنطينية ، غير أنها لا تنبئنا عن كان يأتي بها ، التجار الروم أم الأجانب ، وعلى أية حال فإن تجارة الروم مع العرب نمت نموا هائلا في القرن العاشر . وتبعاً لما سجله الكتاب العرب الذين ذكرواهم قبلاً ، كانت أنطاكية وطربزون السوقين الرئيسيين اللذين تتم فيهما المبادلات التجارية ، ونضيف اليهما دون تردد الاسكندرية التي كان يتردد عليها تجار كثيرون من جنسيات مختلفة . وكان الجزء الأكبر من البضائع التي يستخلصها الروم من هذه الموانئ يتجه الى القسطنطينية ، اما عن طريق البحر المتوسط أو البحر الأسود ، واما عن طريق البر ، عبر آسيا الصغرى . غير أن تقدم السلاجقة لم يلبث أن جعل هذا الطريق غير صالح للسفر . كذلك كانت تسالونيك(٣) ، وخرسون(٤) تتلقيان نصيبها من بضائع الشرق .

وقد يخطر على البال أن تقدم الصناعة في بلاد الروم يترتب عليه الغاء استيراد المنتجات المصنوعة في الشرق . ولكن هذا ليس بصحيح : ذلك أن انتاج الحرير لم يكن متقدماً بالدولة البيزنطية وكميات المنسوجات الحريرية التي تنتجها مشاغل الحرير في البلاط الامبراطوري بالقسطنطينية لم تكن كافية لسد مطالب البلاط والدولة . وفي القرن التاسع ، وحتى في القرن العاشر ، كان الأباطرة يشترون من أجل تزيين قصورهم ، وتوزيع الهبات على حاشيتهم أقمشة مستوردة من مصر ومعروضة في أسواق القسطنطينية (٥) ، وكذا وبوجه عام سلعا مصنوعة في الشرق ، وتدلل أسماؤها بوضوح - وهي مستعارة من اللغة العربية - على مصدرها (٦) . ولم تكن الصناعة الخاصة ، شأنها شأن مشاغل حريم القصر الامبراطوري بقادرة على انتاج كميات المنسوجات الحريرية التي تتطلبها التجارة : أولا لأنها كانت تعاني من علتين أساسيتين :

Dandolo, p. 167.

(١)

Ed. Bonn, II, 54.

(٢)

(٣) يذكر كامنيانا Joh. Cameniata من بين السلع التي تباع في السوق أحجاراً كريمة واردة من الشرق ، وهذا أمر لا شك فيه ، أما الاقمشة الحريرية التي يذكرها فليست آتية حتماً من الشرق .

Constant Porphyrog. De adm. imp. p. 72 et s.

(٤)

Constant, Porphyrog. De cerim, p. 373, 595, et les notes de Reiske, p. 563, 700.

(٥)

Ibid, p. 468, 706 et les notes de Reiske p. 529, 712, 716.

(٦)

منافسة مصانع الدولة المتمتعة بالامتيازات ، وعبء الضرائب الفادح . وثانياً أنه ما أن أتى القرن العاشر حتى كان من أثر فتح العرب سوريا (١) أن انتزع منها أحسن أسواقها ، وكان لابد من مضى بعض الوقت لكي يسد البيع في أقاليم الامبراطورية هذا العجز .

وادعى بعض المؤرخين أن انتاج الحرير وصناعته كانا مزدهرين قبل في المورة ، وذكروا انباتا لذلك الأقمشة الفاخرة التي أحضرها سيدة ثرية اسمها دانييليس Danilis من بتراس Patras الى القسطنطينية لاهدائها الى الامبراطور باسيل الأول (٨٦٧ - ٨٨٨) . غير أنه بدراسة أصل النص الذي أخذت منه هذه القصة دراسة دقيقة (٢) يتبين لنا أنه لم يرد به ذكر لأقمشة حريرية . وانما ذكرت به أقمشة من القطن والكتان . وحتى اذا ثبت أن هذه الأقمشة صنعت في البيلوبونيز لا في الخارج ، فإن هذه الحقيقة في ذاتها تثبت شيئا واحداً ، ذلك هو براءة صناع البلد في نسج القطن والكتان . ونجد أيضا ضمن الأشياء المذكورة بساطا كبيرا أمرت دانييليس بصفة على نفقتها الخاصة في البيلوبونيز من أجل كبسة جديدة في القسطنطينية ، ومن ثم لا يمكن الاستناد الى هذا النص للتسليم بازدهار - صناعة الحرير (٣) . ثم ان البيلوبونيز لم تكن معروفة خلال القرون التالية بانتاج الحرير بنوع خاص : ولم يكن ذلك الا افتراضا نبع من تشابه كلمة المورة Morée بكلمة Morus ومعناها شجرة التوت ، وقد تبين الخطأ في أصل الكلمة منذ زمن بعيد . وكان انتاج الحرير أكثر تقدما في هيلاس نفسها (اليونان القديمة) ، وفي جزر الأرخبيل . ومع ذلك لم يبلغ ازدهار هذه الصناعة ذروته الا خلال الفترة التي أعقبت الفترة التي تهمنا في هذا البحث .

كان التاجر الذي يذهب الى القسطنطينية ، يسره كل السرور أن يجد فيها تشكيلة كبيرة من المنسوجات الحريرية ، الوطنية أو الأجنبية ، لذلك اشتهرت عاصمة الامبراطورية اليونانية بأنها أحسن سوق مزودة بمختلف أصناف هذه السلعة ، وكان الناس يطلبون فيها بنوع خاص الأقمشة الأرجوانية وكانت مشاغل الحرير بالقصر الامبراطوري تصنع هذه الأقمشة باتقان شديد غير أن الروم كانوا يحبون ارتداء أفخم هذه الأقمشة ، ولم تكن الحكومة تحظر رسميا تصديرها ، ولكنها مع ذلك تقيم كل أنواع العراقيل في سبيل هذا التصدير .

(١) عوض عن هذه الخسارة تعويضا جزئيا حين عاد اليونانيون فاحتلوا أنطاكية ومجاورتها .
وحين ارتقى الكسبوس كومنينوس العرش ، كان أخوه اسحق حاكما على المدينة ، ولكي يحافظ على ود الكسبوس ، أرسل الى البلاط مرارا أقمشة حريرية :

— Nicéph. Bryennius, éd. Bonn, p. 156.

Theophan., contin p: 318.

(٢)

Finlay, Hist of the byzantine and greed empires from 716 to 1453 ; (٣)

I, p. 302; Pariset, Hist, de la soie, II, p. 25 et ss.

وسوف نرى فيما بعد القيود المفروضة على التجار الروس المصدرين للمنسوجات الحريرية ، ونكتفى الآن بحكاية ما حدث لـ *Luitprand* أسقف كريمونة في ختام سمارته الثانية بالقسطنطينية : فقد كان في حقائبه منسوجات حريرية ، كان قد اشترى بعضها ، وأهدى اليه البعض الآخر . وحين أراد اجتياز الحدود احتجز موظفو الجمارك خمسا من أجمل القطع بدعوى أن تصديرها ممنوع . وعبنا حاول الأسقف اقناعهم بأن هذه الأقمشة تخص كنيسته ، وأن الامبراطور صرح له بأن يشتري للكنيسة أوشحة (من طيلسان) دون أن يحدد ثمنها لها ، وتوسل اليهم - دون جدوى - أن يتركوا له على الأقل القطع المهداة اليه ، فقد أصر رجال الجمارك دون رحمة على مصادرة الأقمشة . ولابد من القول بأن هذه المعاملة القاسية كانت امتدادا لما عاناه لويثيراند خلال سفارته من اهانات من جانب رجال الحاشية وموظفي الامبراطورية ، كما كانت هذه المعاملة متمشية تماما مع طبيعة الامبراطور نيقفور الذي كان يتولى مقاليد الحكم وقتئذ ، وكان من عادته أن يعامل الأجانب بغطوسة ملؤها الخشونة . وكان لويثيراند ابان سفارته الأولى عام ٩٤٩ (١) يتعامل مع الامبراطور قسطنطين السابع الذي كان يحسن معاملة الأجانب ، وكان لويثيراند قد حمل في عهده أقمشة ثمينة ، ولم يمنعه أى موظف بالجمارك من الخروج بها ، ولم يفتشه أى واحد منهم (٢) . وبديهي أن الأمور كانت تجري على هذا النحو بالنسبة الى التجار . فحينما كانت الرقابة تنفذ بصرامة ، وحينما كانت متراخية . وكان بعض موظفي الجمارك يقبلون الرشوة ، وبعض المصدرين يستخدمون طرقا احتيالية للتخلص من تفتيش الجمارك . والواقع أن البضائع الثمينة التي كان تصديرها ممنوعا ، وكانت تصل مع ذلك الى ايطاليا ، اما عن طريق البندقية أو أمالفى (٣) ، لم تكن بقليلة .

وبوجه عام لم يكن الروم يبذلون جهدا كبيرا لتوزيع المنتجات الوطنية والأسبوية المكدسة في المخازن في البلاد المجاورة . بل كان الأباطرة يبذلون جهودهم لابهار الأمراء الأجانب بكرمهم ، وهداياهم من التحف الأجنبية ، ويحبون عرض البضائع الثمينة التي ترد الى القسطنطينية ، ولكنهم لم يدركوا فائدة انتهاز سياسة تجارية واسعة النطاق (٤) ، تتيح للأمم الأخرى أن تحصل على

(١) لتحديد هذا التاريخ انظر Kapke, De vita et scriptis Liudprandi, p. 11.

(٢) Liudprandi, relatio de legatione Constantinopolitana, dans Pertz, ss. (٢) III, p. 359 et s.

(٣) Liudprandi, loc cit.,

(٤) كان الرسم الذي يجى على التصدير يبلغ بعامة ١٠٪ من قيمة البضاعة ، انظر ابن خرداذبة ص ٥١ ، وكذا :

Cinnamus, lib. 6, cap. 10 ; Joh. Cantacuz, lib 4, 12 ; Zacharioe van Lingenthal, les Mém. de l'Acad. de St. Pétersberg VII, série, T. IX, no 6, p. 6.

هذه التحف الرائعة • أما بخصوص رعاياهم ، فإن كل جهودهم كانت قاصرة على الحصول على الأشياء اللازمة لرفاهيتهم ، وركزوا للأجانب المشاق والمخاطر اللازمة لرحلات العمل الطويلة • وكان يحلو لهم ، ويرضى كبرياءهم أن يشاهدوا السفن التجارية التابعة لمختلف البلاد الأوروبية وهي تدخل ميناء القسطنطينية ، وأن نصير « ملكة المدائن » مركزا لتجارة الغرب ، ولا يهمهم كثيرا بعد ذلك أن يفقدوا باهمالهم أجمل الفرص لانماء تروتهم • وكان من السهل عليهم أن يلقوا كميات هائلة من بضائع الشرق الأدنى في أسواق جنوب إيطاليا حيث بقيت مدن باري و نابولي وأمالقي وغيرها قرونا طويلة تحت سيادة قياصرة الروم ، ويستثمرون ذلك في سائر أنحاء إيطاليا : ولكنهم كانوا يفضلون دعوة سكان هذه المدن الى الحضور الى القسطنطينية ، وكان هؤلاء السكان قد احتفظوا حتى في عهد السيادة البيزنطية بروح المغامرة التي اتصفت بها العبقريّة الإيطالية • وبمرور الزمن أصبح أهالي البندقية وبيزا وجنوا هم الموردّين الرئيسيين لمنتجات الشرق الأدنى في الغرب كله ، وتنازل لهم عن هذه المكانة التجار الروم الذين استسلموا للكسل والبطالة واكتفوا بالتذمر • وإذا كان نشاط التجار الروم في الغرب ضعيفا للغاية ، فانهم مع ذلك أبدوا نشاطا أكثر بقليل في الشمال ، في البلاد التي يرويها نهر الدانوب ، وفي روسيا ؛ وثبت أنهم كانوا يزورون بلد البلغار الذين يقبضون على ضفاف الدانوب (١) : وذهب البعض منهم الى روسيا (٢) ، وكانت نقطة انطلاقهم خرسون • ومن المحتمل أن يكون قسطنطين بروفروجنطوس قد اسنقى معلوماته التفصيلية عن الملاحة في الدنيبر السفلي ، مما كان يحكيه تجار خرسون ؛ ويعين هذا الأباطور العالم بالجغرافيا بالقرب من المخاضة المسماة كراريك Krarique الموضع الذي يعبر عنده أهالي خرسون النهر عند عودتهم من روسيا (٣) •

ومع ذلك فإن اليونانيين قد تفوق عليهم في هذه الناحية ، وكذا في الغرب « برابرة » الشمال الأكثر منهم نشاطا • وسوف نرى فيما بعد كيف أثار نجاح التجار البلغار المقيمين بالقسطنطينية غيرة اليونانيين ، وأن الروس كانوا يفدون الى هناك في جموع كبيرة لممارسة التجارة •

Theophanes, I, 775.

(١)

Cedren, II, 551.

(٢)

هذا ما تثبته المعاهدات التي عقدها بعض غراندوقات روسيا مع أباطرة بيزنطة •

De adm, imp., p. 77.

(٣)

كانت المخاضة المذكورة موجودة أعلى بقليل من مدينة الكسندروفسك الحالية •

٣ - روسيا واسكندناوة

(أ) التجارة مع العرب

مما يثير الدهشة تلك الكمية الهائلة من النقود الفضية شرقية الأصل التي تظهر في الحفريات التي تجرى شمال أوروبا ؛ ولابد أن أصحابها قد دفنوها بالأرض عند انصرافهم ، اما في رحلة عمل طويلة ، أو للاشتراك في حرب ، أو لعلهم دفنوها ثمة حتى لا يستولى عليها غاز من الغزاة ، ثم منعهم فيما بعد من اسرداد كنوزهم موت أو هجرة أو أسباب أخرى ؛ وهكذا يكتشفها في الوقت الحاضر بعض المزارعين أو الحطابين ، ويظهر معها أحيانا كميات كبيرة من النقود تشكل مبالغ ضخمة . وقد نشر ليدبور Medebur عام ١٨٤٠ دراسة مصحوبة بخريطة طبوغرافية ، تعطي فكرة واضحة للغاية عن توزيع هذه المكتشفات في منطقة بحر البلطيق ؛ ولم يعد هذا البيان يمثل بالضبط حقيقة معلوماتنا بهذا الخصوص في الوقت الحاضر ، اذ لا تمر سنة دون أن يتم اكتشاف جديد ، ومع ذلك فلم تزل هذه الدراسة بوجه عام ذات قيمة وبالنسبة الى روسيا يجب الرجوع الى خريطة بول ساولييف Paul Saueleff (١) ، أو الموجز الطوبوغرافي للنقود العربية القديمة في روسيا (٢) الذي ندين به للمستشرق فريهر Froehn . وما نعرفه عن الاكتشافات التي جرت في شمال شرقي روسيا على نهر بتشورا غير أكيد ، فلسنا ملزمين بأن نأخذها في اعتبارنا ، ومن ثم فان حكومة قازان شرقي أوروبا هي المنطقة القصوى التي عثر فيها على مكتشفات مؤكدة من هذا النوع (٣) . وإلى الغرب ، وبغض النظر عن بعض المكتشفات القليلة الأهمية التي تمت في أيسلندا وإنجلترا ، فان أقصى موقع عثر فيه على مثل هذه التحف هو اجرسند Egersund بإقليم كرستيانسند Christiansund بالنرويج . أما بخصوص روسيا فان الحد الشمالي للمكتشفات يتمثل في خط مستقيم يمتد من قازان الى بحيرة لادوجا ومنها الى فنلندا ؛ أما المنطقة الجنوبية القصوى فانها عند خرسونيز القديمة Chersonèse (القرم) ، وهنا أيضا لم يتم سوى اكتشاف واحد . وبوجه عام فان البلاد التي كشفت فيها الحفريات عن أكبر كميات من النقود الفضية العربية هي الأقاليم الواقعة في قلب روسيا ، على المجرى الأعلى والأسفل لنهر الفولجا ، وروافده

(١) لم أستطع مع الأسف الحصول على هذه الخريطة ، ولا على كتاب « المسكوكات الاسلامية » للمؤلف نفسه (سان بطرسبرج ١٨٤٧) وفيه يبحث بنوع خاص موضوع الحفريات التي أجريت في روسيا وتناجها بالنسبة الى تاريخ هذا البلد .

(٢) Bullet, de l'Acad, de St. Pétersbourg, 1, IX (1842) no. 20, 21.

(٣) Frahn, dans le Bulletin, ib, no. 19, p. 295-297.

الجنوبية ، والأقاليم الواقعة على المجرى العلوى لنهر الدينبر ، وأخيرا الأقاليم المجاورة لبحر البلطيق وخليج فنلندا (١) . ومن فنلندا الى السويد يمر الانسان بجزر أولاند Aland حيث استخرجت نقود فضية قديمة غريبة الشكل ، عليها شرقية الأصل . وإلى الجنوب تشكل جزيرتا جوتلاند وأولاند شبه قنطرة بين أقاليم البلطيق الروسية وبين اسكندناوة . وقد عثر في أقاليم البلطيق على كميات كبيرة من النقود العربية . ويحكى هايد لبرانند Hilderbrand أن الحفريات المعروفة هناك أسفرت عن أكثر من ١٣٠٠٠ قطعة (٢) . واسهمت جزيرة أولاند الصغيرة بقدر كبير في هذا الخصوص ، فقد عثر في حفرة واحدة على ١١٢٢ قطعة نقد عربية نادرة المثال . وفي السويد نصادف كثيرا نقودا عربية على طول الساحل الشرقي ، وهذه النقود أكثر ندرة في داخل القطر وفي قسمة الغربى (٣) . وفي النرويج لا توجد نقود عربية الا في السواحل الجنوبية (٤) . وبخصوص الدانمرك ، وجد أكبر قدر من هذه النقود في جزيرة بورنولم Bornholm ، وعثر على بعض منها في جزر مون Moen ، وفالستر Falster ، ولانجلاند langeland ، وأجيرسو Aggersoe (في بلت Belt الكبرى) ، كما عثر في أنحاء متفرقة من جتلانند وشلزويج على قطع فضية عليها حروف كوفية (٥) .

ومن السهل تحديد العصر الذى تنتمى اليه النقود الفضية العربية (الدراهم) التى يعثر عليها في أقاليم البحر البلطى بروسيا ، لأنها كلها تحمل تاريخ صنعها . ووفقا لقربهن ، يرجع أقدم هذه النقود الى أواخر القرن السابع ، وأحدثها الى مستهل القرن الحادى عشر . وينطبق هذا الرأى تماما على الملحوظة التى أبدأها تورنبرج Tornberg وفحواها أن مجموعة الدراهم التى وجدت في السويد تبدأ بقطعة من عام ٦٩٨ فى عصر الأمويين ، وتنتهى بقطعة من عام ١٠١٠ فى عصر البويهيين . يقول تورنبرج ان القرن الأول من هذا العصر لاينتمى اليه الا القليل جدا من هذه النقود ، فدراهم السنوات ٧٩٥ - ٨١٦ كثيرة ، ولكن الأكثر عددا هى نقود أواخر القرن التاسع حتى وسط القرن العاشر ؛ وتقدم السنوات ٩٠٩ - ٩١٤ أكبر حصة من هذه النقود . وابتداء من

(١) أنظر Frahn وفيما يختص بأقاليم بحر البلطيق بنوع خاص ، أنظر :

Kruse, Necrolivonica, Suppl. D. p. 6 et ss.

(٢) Hildebrand Das heidnische Zeitalter in Schweden, trad. Mestorf. (Hambourg. 1873) p. 184.

(٣) Mumi, cufici regü numophylaci Holmiensis (Ups. 1848) ; Ledebur, p. 8-30; Minutoli, op. cit., p. 7 et ss.

(٤) Tornberg, loc. cit., note Ledebur, op. cit., p. 5-7; Minutoli, p. 5 et s.

(٥) Worsgøe Däenemarks Vorzeit, trad. allem. par Bertelsen (Copenhag 1844), p. 53 et s.; Ledebur, op. cit., p. 71-76; Minutoli, p. 19-22.

عام ٩٥٥ تقل بالتدريج ؛ وبعد العقد الأول من القرن الحادى عشر ينعدم وجودها (١) .

وبدراسة ماهو مكتوب على قطع النقود ، نعرف على أسماء الأمراء الذين ضربت النقود فى عهدهم ، وأسماء الأماكن أو البلاد التى أتت منها . ومن ذلك يتبين أن أكبر عدد من النقود (أكثر من ثلثيها) آتية من الدولة السامانية التى حكمت فيما وراء النهر ، وخراسان منذ الربع الأخير من القرن التاسع حتى نهاية القرن العاشر ، والأسماء التى ترد غالباً فى الشروح المنقوشة على قطع النقود التى اكتشفت فى روسيا والسويد هى سمرقند ، وبخارى ، وشاش (طشقند)؛ وبلخ ، وأندراب ، ونيسابور وغيرها وبعد هذه الممالك تأتى البلاد الواقعة الى الغرب منها ؛ على طول الساحل الجنوبى لبحر قزوين : جرجان ، وطبرستان ، والديلم . وتعرفنا النقود بأسماء بعض صغار الأمراء الذين حكموا هناك . ومع ذلك تتمثل أرمينيا أكثر من غيرها فى هذه النقود ، وبخاصة فى نقود «بيردا» Berdaa باقليم « أران » Arran فى الجنوب الشرقى من بحر قزوين . وتقدم بغداد ، مقر الخلفاء العباسيين نصيباً كبيراً من النقود ، فى حين لا تظهر دمشق ، مقر أسلافهم الأمويين الا قليلاً على النقود . وبوجه عام تنتمى النقود التى عثر عليها الى ما وراء نهر أوجزوس شمالى فارس ، أى البلاد التى تروىها أنهار كورا والدجلة والفرات . أما النقود الآتية من جنوب فارس وبلاد العرب وسوريا ومصر وأفريقيا والمغرب وأسبانيا فأنها أكثر ندرة (٢) .

ويهمنا الآن البحث فى الكيفية التى وصلت بها هذه النقود العربية فى عصر موغل فى القدم الى أقصى المناطق الشمالية فى روسيا . وثمة علماء قدامى قدموا فى هذا الخصوص افتراضات قد تكون على شئ من الصحة ؛ ولسنا نريد أن نتوقف عندها ، لذلك نبدأ بتقديم تصريح نرجو أن يلمس القراء أهميته ، الثانوية على الأقل . اننا نعرف الغزوات التى كان يشنها الفايكنج الاسكندناويون ؛ كذلك ظهرت السفن الروسية - والروس قبائل من أصل اسكندناوى - ظهرت على بحر قزوين ، وأغار القرصان الذين خرجوا من صفوفهم مرتين خلال القرن العاشر (٩١٣ ، ٩٤٣) على البلاد الواقعة جنوبى وجنوب شرقى هذا البحر ونهبوها . كذلك تلقى عرب أسبانيا وشمال غربى أفريقيا عدة مرات فى القرن التاسع زيارة هؤلاء القرصان النورمان (٣) . ولابد أن هذه الغارات قد أتاحت للمغربين فرصاً لكى يحملوا معهم الى الشمال نقوداً عربية ، وهذا أمر لا جدال فيه ، غير أنه مهما تصورنا جسامه الغنائم التى جلبها

Froehn, op. cit., p. 304; Tornberg, loc. cit.,

(١)

Froehn, op. cit., p. 303; et s., Tornberg, loc cit.,

(٢)

Froehn, op. cit., p. 305 et s., 310 et s.

(٣)

هؤلاء القرصان ؛ فلا يمكن أن ننسب الى هذا السبب وحده الا جزاء ضئيلا من النقود التي اكتشفت (١)، فهناك من هذه النقود كميات هائلة ، وآلاف النماذج، ومن المستحيل أن تكون قد أتت كلها من هذه الغزوات التي كانت بالأجمال قليلة العدد نسبيا . وثمة ملحوظة أخرى : ذلك أن عددا كبيرا من هذه النقود وجدت مكسورة ، والملاحظ أن عملية كسر النقود هذه كانت شائعة في أسواق الشرق ، في سمرقند مثلا في عهد السامانيين (٢) ، ومن البديهي أن مقابل الشمال ليسوا هم الذين كانوا يتسجلون ، اذ جاء للوقت بكسر النقود التي كانت في غنائمهم ؛ ذلك لأن تجار الشمال هم الذين تلقوا النقود بهذه الصورة سدادا (لمبيعاتهم) . وكان العرف السائد وقتئذ يقتضى وزن الفضة المعطاة سدادا للبيع ، فكان الى جانب قطع النقود السليمة ، أجزاء مكسورة لاكمال الوزن ، ويحدث هذا أيضا حين لا يساوى الشيء (المبيع) الا نصف درهم أو ربه (٣) . وعلى ذلك فالتجارة هي السبب الأول لهذه الظاهرة . واذا لم تكن هذه الأسباب كافية ، فانه يكفينا أن نبدي ملاحظة واقعية : ذلك أن أهم النقود المكتشفة وأكثرها عددا قد عثر عليها في جوار المناطق التي تشير اليها المصادر على أنها المراكز التجارية في ذلك العصر ، وهذا هو ما أثبتته ليدبور . حقا ، لا يسعنا أن نثبت أن التجار العرب قد غامروا بالذهاب الى اسكندناوة ، وهذا لا يمنع من أن الجغرافيين العرب كان عندهم معلومات صحيحة عن هذه المناطق . وعلى أية حال فان القسم الأكبر من روسيا بقى بعيدا عن طريق هؤلاء التجار ؛ ولكن الثابت أنهم صعدوا نهر الفولجا بسفنهم حتى بلاد البلغار . والمعروف أن بعض قبائل البلغار تقدموا صوب نهر الدانوب في حين بقيت قبائل أخرى في روسيا واستقرت عند منتصف مجرى نهر الفولجا ، وكانت « بلغار » Boulgar عاصمتهم واقعة بين قازان وسيمبرسك Simbirsk أسفل ملتقى نهري كاما والفولجا (٤) . ولما كانت « بلغار » نقطة تجمع منتجات الشمال فانها جذبت اليها التجار العرب بقوة ، وكان هؤلاء التجار واثقين من أن يجدوا بها ترحيبا طيبا لأن الملك والأهالي كانوا قد اعتنقوا الاسلام (٥) . وكان ما يسعى التجار العرب للحصول عليه في تلك الأصقاع هو الفراء الذي كان مولعا باقتنائه عظماء

(١) انظر أيضا تردد تورنبرج في شأن النقود الأفريقية والاسبانية .

Oriental geography by Ibn Haoukal, éd. Ouseley, p. 258. (٢)

Froehn, op. cit., p. 304; Bohlen, op. cit., p. 20; Weinhold, Altnor- (٣)
disches Leben, p. 118.

F. H. Mueller, Der ugrische Volksstamm, 1e partie, chap. 2, p. 414 (٤)
et ss.

Froehn, les Mém. de l'Acad. de St. Pétersb., Série VI, Sciences (٥)
politiques, T. I. p. 183-199.

الشرق (١) . والواقع ان التجار البلغار والروس وغيرهم من سكان الشمال كانوا من قبل يسافرون حاملين الجلود والفراء الى انيل ^{III} عاصمة الخزر عند مصب نهر الفولجا حيث يملكون المستودعات (٢) غير أن التجار العرب لم يرهبوا مواجهة شهرين من الملاحة (٣) أو شهرا من السفر برا (٤) حتى يقتربوا بقدر المستطاع من مصدر أجل أنواع الفراء ؛ ومع ذلك فانهم لم يجروا على المضى الحر أبعد من بلغار (٥) ، ولم يكونوا في حاجة الى ذلك ، لأنهم كانوا يجدون ثمة منتجات الشمال بفضل نشاط البلغار (٦) . فالى الغرب من تلك المدينة شعب تهبط سفنه نهر الفولجا طلبا لبضائعه ، هؤلاء هم الروس . هذا الاسم الذى أطلقوه على أنفسهم ، وأجسامهم القوية ، وقوامهم الفارع . وعاداتهم الغريبة التى يصفها ابن فضلان الذى رآهم بنفسه فى عام ٩٢٠ (٧) ، كل ذلك يدل دلاله كافية على أن هؤلاء الناس لم يكونوا من القبائل السلافية التى لم يطلق عليها اسم الروس الا فيما بعد ، ولكنهم قبائل اسكندناوية . ومنذ أربعين سنة مضت بالكاد قبل الزمن الذى أرسل فيه الخليفة المقتدر هذا الكاتب (ابن فضلان) الذى ندين اليه بالمعلومات الهامة عن بلغار الفولجا وجيرانهم ، بعثة فى مهمة الى مدينة بلغار ، كان روريك واخوته قد غادروا وطنهم السويد ، وقدموا الى ضواحي بحيرتى لادوجا والمن ، أى فى مجاورات منابع الفولجا ، وأقبل فى أثرهم الكثير من مواطنيهم . وعلى هذه الرقعة الجديدة أطلقوا العنان لجرأتهم ونشاطهم فى كل ميادين الحرب والسلام . وهكذا فانهم حين هبطوا بمراكبهم نهر الفولجا ، نجحوا فى توثيق العلاقات مع البلغار الذين كانوا - كما رأينا - يتاجرون بالفعل مع العرب فيما وراء بحر قزوين . ودخل

(١) من بين السلع الأقل أهمية التى كانت متداولة فى هذه التجارة ، نذكر قرون الماموث ، وكان عمال خوارزم يصنعون منها أشياء متنوعة ، مثل عنبر الأفاليم البهلوية .

(٢) Froehn, De Chazaris, loc cit., p. 591, 601 et s. ; Frahn, Ibn-Fossan, p. 147; Maçoudi, II, p. 9, 11.

(٣) كانت سفنهم التجارية تدفع للملك رسما (عشرة) عند دخولها منطقة البلغار .

(٤) ابن حوقل Ibn Haoukal dans l'Ohsson, loc. cit., pp. 73.

(٥) Froehn, Ibn-Fossan, p. 168, 258, 266.

(٦) Saweljew, op. cit., p. 91 et ss.; Froehn, Ibn-Fossan, p. 226 et s.; Ibn-Dasta, op. cit.

ومما يدل على طبيعتهم المغامرة ارسالهم قوافل الى جورجانية (خوارزم) : المسعودى ، الجزء

الثانى ص ١٥ وما بعدها ، أبو حامد الاندلسى فى : Saweljew, op. cit., p. 97.

(٧) أنظر الفصل الذى كتبه فى شأن الروس فى :

— Froehn, Ibn-Fossan, p. 1-23.

أنظر أيضا Ibn-Dasta ، المرجع السابق .

الروس الاسكندناويون لدى البلغار في المجال الذي كانت فيه النقود العربية سارية المفعول . والواقع اننا نعلم من مذكرة كتبها ابن رسته (١) أن بلغار الفولجا كانوا يقبلون من المسلمين سدادا لقيمة بضائعهم دراهم بيضاء مستديرة ؟ أما فيما بينهم — كما يقول ابن رسته — فكانت جلود السمور نحل محل النقود الرنانة . ومع ذلك فمن الثابت أنه كان عندهم في بلغار أوصوار Souwar ورش يضربون فيها نقودهم ، ويزيفون الدراهم السامانية (٢) ، ويستفيدون من ذلك فائدة كبيرة في تجارتهم مع بلاد ما وراء النهر وخراسان . وعلى ذلك كان الروس يحضرون الى السوق البلغارية بضائعهم التي يبدو أنها تشمل بنوع خاص جلودا وفراء وعبيدا ، ويبيعونها للبلغار أو العرب ، ويحصلون في مقابلها اما على نقود اسيوية كانت ثمة متوفرة ، أو نقود بلغارية تشابه النقود اسيوية حتى ليصعب التمييز بينها . ثم انهم لم يتوقفوا دائما هناك ، فقد كان من السهل الملاحة في النهر مع التيار حتى ايتل عاصمة الخزر ، وهذا ما فعلوه وانشأوا هناك مستودعات (٣) . ونحن نعرف من ابن خرداذبة أن سفنهم شوهدت في بحر قزوين ، وأن بضائعهم كانت تنقل على ظهور الجمال من جورجيا الى بغداد (٤) . ولما كانوا يتقدمون بسفنهم حتى الشاطئ الغربي لبحر قزوين ، وتصل بضائعهم الى المركز السياسي للعالم الاسلامي ، فانه كان من الطبيعي أن يأتي الى روسيا نقود مصدرها ليس فقط الأقاليم الواقعة جنوبي بحر قزوين ، ولكن أيضا كل أجزاء العالم الاسلامي ، وتنتشر في الشمال كله .

كان الاسكندناويون في المناطق الواقعة وراء بحر البلطيق يعرفون منذ أقدم العصور « طريق الشرق » . وعندما أتى مواطنوهم الى روسيا ، واستقروا بها ، وفرضوا سادتهم عليها (٥) ، كثرت رحلاتهم في تلك النواحي،

Roesler, op. cit., p. 362.

(١)

(٢) اثبت فريهن وجود هذين المصنعين ، على قطعتين وجدتتا في روسيا :
Mém. de l'Acad. de St. Pétersberg ; Série VI, T. I, p. 171 et ss.
T. IV, p. 243, note; Bulletin, loc cit., p. 305, 316, 320, 323;

— أشار تورنبرج أيضا الى الواقعة نفسها بالنسبة الى قطع وجدت في السويد .

(٣) أنظر المعلومات التي أعطاها ياقوت وابن حوقل في :
Froehn, De Chazaris, Mém. de l'Acad. de St. Petersh, T. VIII
(1822), p. 591, 601 et ss.

— كذلك المسعودي في « مروج الذهب » الجزء الثاني ، صفحات ٩ ، ١١ .
Journ. Asiat Série VI, T. V, p. 514. (٤)

(٥) بخصوص العلاقات الودية بين السويد وروسيا في القرنين الأولين من تاريخ روسيا ،
— أنظر : Kunik, Die Berfung der schwedischen Rodsen II, 131 et ss.

وكانوا أغلبية بين العديد من التجار الذين تقاطروا من كل الأنحاء على أسواق نوفجورود ، وجلبوا اليها الفراء ، والصوف ، اذ ساءت تربية الأغنام في الشمال ، والريش ، وشوارب الحوت - وزيت السمك، الخ(١)، ويتلقون نظير بيعها قطعاً من نقود فضية عربية سارية المفعول لدى مواطنيهم الروس ، ذلك لأنهم لم يكونوا قد بدأوا في سك نقود لحسابهم الا في زمن متأخر (٢) . والثابت أن من بين اسكندناويي السويد كلهم ، كان سكان الساحل الشرقي هم الذين أقاموا علاقات متواترة مع روسيا ، يشهد بذلك النقود العربية التي اكتشفت على هذا الساحل . والأمر ثابت كذلك لأن هذه النقود تكدرت بنوع خاص في الاقليم الذي ازدهرت فيه في العصور القديمة مدينة « بيركا » Birka السويدية التجارية المشهورة(٣) . وكانت الدانمرك (وبخاصة مدينة شلزويج)(٤) هي أيضاً ، منذ زمن قديم نقطة انطلاق لتجارة بحرية نشيطة مع روسيا (٥) . وكانت السفن المبحرة ترسو أحياناً في جومنيه Jumne وهي مدينة تجارية مشهورة في يوميرانيا Poméranie ، وأحياناً في جزيرة بورنهولم Bornholm (٦) ، وكشفت الحفريات التي أجريت في هذه البقاع عن كثير من النقود العربية (٧) . الا أن كل السفن التجارية المتجهة الى روسيا ، سواء كانت آتية من السويد ، أو من مواقع بعيدة على الساحل البلطي ، أو أبعد من ذلك كانت كلها ترسو عند جزيرة جتلاند . وفي عصور الوثنية ، قبل ازدهار مدينة فسبى Visby بزمن بعيد - ، استغل سكان الجزيرة موقعهم الجغرافي الممتاز ؛ ولابد من التسليم بنمو علاقاتهم مع الغرب والشرق عند رؤية كتل النقود الأنجلو سكسونية والألمانية والعربية التي تكشف عنها الحفريات التي تجرى في الجزيرة (٨) .

(١) فاينبولد هو الذي أشار الى هذه السلع التصديرية :

— Weinhold, Altnordisches Lefen, p. 103.

(٢) كان سوينون تيفسكيج Suénon Tyfoeskeg أول ملك دالمركي سك النقود في حوالى عام ١٠٠٠ ، وكان أولاف شوسكونيغ Alaf Schoskonig (توفي عام ١٠٢٤) أول من سك النقود في السويد . ولم يكن للنرويج نقود خاصة بها الا في النصف الأول من القرن العاشر . انظر :

Ledébur, op. cit., p. 24 et s.

(٣)

Adam Brem, dans Pertz., SS. VII, 312, 368.

(٤)

Adam Brem, loc. cit 372.

(٥)

Adam Brem p. 312, 373.

(٦)

Ledebur, op. cit., p. 54 et ss., 78 et s.

(٧)

Bonnel, Russisch-livländische Chronologie, Commentar, p. 24;

(٨)

Worsae, Danemarks Vorzeit, trad. allem, p. Bertelegen, p. 54 :

Hilderbrand, Das heidnische Zeitalter in Schweden, trad. allem, n.

Mestorf, p. 181 et ss.

يتبين مما سبق ذكره بصورة لا تقبل الشك أن الشمال الاسكندناوى وروسيا قد وثقا لزمان طويل علاقات مباشرة وغير مباشرة مع اليقاع الأسيوية الخاضعة لسيادة العرب . بقى أن نعرف ما اذا كانت منتجات الشرق قد دخلت أوروبا عن هذا الطريق ؛ ولا يمكن الرد على هذا السؤال بالإيجاب دون ابداء تحفظات صريحة . ان الكميات المدهشة من النقود العربية التى بقيت فى روسيا وفى الأقاليم البلطية ، والتى خرجت بذلك من أيدي العرب ولم تعد اليهم تثبت بوجه عام أن شعوب الشمال كانت تشتري من العرب أقل مما تباع لهم (١) . وكان العرب الذين يصعدون نهر الفولجا يقومون برحلاتهم هذه للحصول على فراء الشمال الذى يقدرونه حق قدره ، وكذا عنبر البلطيق . ترى هل كانوا يحضرون معهم فى مقابل ذلك الكثير من منتجات بلادهم الطبيعية أو المصنوعة ؟ هذا هو السؤال المطلوب .

فى هذا العصر كانت عادات المعيشة فى شمال أوروبا بسيطة ، فلم يتيسر للعرب بيع السلعة الرئيسية فى تجارتهم ، وهى التوابل . أما فيما يختص بالثياب ، فان الروس الاسكندناوين الذين عرفهم ابن فضلان عند البلغار لم يكونوا يطلبون الحل الا لنسائهم ، ويدفعون عن طيب خاطر درهما واحدا ثمنا لخزفة من الزجاج الأخضر ، ويتبين مما يرويه ابن فضلان أن هذى هى السلعة الوحيدة التى كانوا يشترونها (٢) . أما السلاسل الذهبية أو الفضية التى كانت النساء الروسيات يحملنها حول أعناقهن بأعداد كثيرة أو قليلة تبعا لنزوتهم فانها كانت صناعة محلية كما يؤكد ابن فضلان . وكان « البروكار » (نسيج مقصب بخيوط الحرير والذهب - المترجم) التى رآها الروس وبلغار الفولجا يرد من الامبراطورية اليونانية ، وسوف نتكلم عن هذا البلد من ناحية السلع الكمالية التى كانت شعوب الشمال تبتوردها من هناك بالفعل . وعلى هذا لا يبدو ، حسبما يقول ابن فضلان أن الروس قد اشتروا الكثير من البضائع العربية ، لا لأنفسهم ، ولا لحملها الى بنى جنسهم الإسكندناوين . ومع ذلك يهمنى أن نعرف ما اذا كانت الحفائر التى أجريت وما زالت تجرى كل يوم ، فى الشمال سوف تؤدى الى نتيجة أخرى . هناك أيضا حقيقة : فقد وجدت الى جانب النقود العربية خواتم ، ومشابك ، وسلاسل ، و « بروشأت » مدفونة فى الأرض ، ومن الطبيعى أن ينسب الى هذه الحل نفس المصدر الذى تنسب اليه النقود . فاذا كان عليها نقوش عربية ، فان هذا الافتراض يغدو حقيقة ثابتة ؛ ولكن ليس

Froehn, Ibn-Fossan, p. 80 et s.; Saweljew, dans les Ermans Archiv., (١)

VI p. 101 et autres.

Froehn, Ibn-Fossan, p. 5.

عليها أية نقوش : ولا نعرف من ذلك الا مثلاً واحداً ، ذلك هو حلية لطقم فرس ، مملوكة بالفضة ، وجدت في ولاية باروسلاو Jaroslaw وكانت تنتمي بالتأكيد الى أحد بلغاري الفولجا ، قرأ عليها فريهن كلمتين عربيتين (١) . ومع عدم وجود مثل هذه النقوش ؛ أكد البعض على البراعة الفائقة التي تتجلى في هذه الحلية ، وقيل ان الصناعة الشرقية هي الوحيدة المتقدمة بدرجة تستطيع معها انتاج مثل هذه التحف الفنية الممتازة ؛ ولم تكن الصناعة في الشمال بقادرة على ذلك . وفي رأينا أن هذا غير صحيح ، اذ لا يجوز الخط على هذا النحو من قيمة فن صناع الذهب والفضة القدامى بالبلاد الشمالية ، هذا الفن الذي يرتبط بتقاليد الرجال والنساء الخاصة بارتداء الأطواق حول العنق والذراع ، والخواتم في الأصابع (٢) . وفي متاحف الشمال أشياء تحمل حروفاً رونية (أقدم الحروف الجرمانية والاسكندنافية - المترجم) ، ومن ثم فإن أصلها معروف لاشك فيه ، وهي دليل على معارف تقنية متقدمة . ويميل الخبراء الحديثيون الى أن ينسبوا الى صناع الشمال عدداً كبيراً من الأشياء التي كان الهواة في الماضي يعتبرونها شرقية المصدر (٣) . ثم ان الأشياء التي يدل طرازها على أنها من الواردات الأجنبية ليست كلها عربية الأصل ، فمنها في الكثير من الأحيان ماهو من أصل أفرنجي أو بيزنطي ، وبخاصة الحلية الذهبية (٤) . وجدير بالذكر أن الحلية التي يقال انها شرقية ، توجد كثيراً في الحفريات مختلطة بنقود عربية وانجلو سكسونية وألمانية واغريقية ، ومن ثم لا يوجد دليل كاف على نسبة هذه الأشياء الى أصل شرقي . وبفرض العثور على حلية مع نقود عربية أصيلة ، فإن ذلك لا يثبت حتماً اشتراك هذه الأشياء في أصل واحد ، لأن الاسكندنافية يمكن أن يملك نقوداً عربية وحلية وطنية في آن واحد ، ويدفنها معاً في الأرض . ومع ذلك فهناك حقيقة غريبة تستحق الذكر ، ولا يمكن أن تفسر بأنها مجرد صدفة ؛ ذلك أنه حين يعثر ، بوجه عام على بعض الحلية (حلقات من صفائح فضية) مع نقود عربية حقيقية ، فإنها تكون من معدن واحد ؛ أي مثلاً من فضة . والنتيجة التي نستخلصها من هذه الملاحظة الثابتة هي أن الحركة التجارية كانت تجلب أحياناً من الشرق (٥) مع النقود الفضية ، حلية من فضة ، أما بمشابة سلع ، أو انها وسيلة من وسائل دفع الثمن ، وفي هذا الفرض الأخير شيء من

Bulletin de l'Acad. de St. Pétersb. T., IX (1842) p. 319. (١)

Weinhold, Altnordisches Leben, p. 184 et s. (٢)

Worsae, op. cit., p. 57; Munch, Die nordisch-germanischen Völker, (٣)
trad. Claussen, p. 255 et s.

Worsae, p. 55 et s. (٤)

Worsae, op. cit., p. 55 et s.; Hildebrand, op. cit., p. 127. (٥)

الصحة لأن هذه الحلى كثيرا ما توجد مجزأة قطعاً ، شأنها شأن النقود : ففي التحركات التجارية ، ذهاباً وعودة ، كثيراً ما تكون السلعة الكاملة ذات قيمة أكبر من حاجة الناس إليها ؛ وبتقسيمها الى أجزاء ، تنشأ أجزاء من النقود . وباختصار ، فإنه مع التسليم بأن هذه الحلى الفضية كانت سلعة تجارية ، فالتأيت أن سكان شمال أوروبا لم يكونوا يشترون الا عددا قليلا من السلع العربية المصدر .

رأينا كيف كانت طبيعة التجارة بين أهالى الشمال والعرب ؛ وفي استطاعتنا أن نحدد مدتها ؛ وتنبأنا النقود التى وجدت فى الحفريات بقدر كاف من المعلومات فى هذا الخصوص . وحتى الآن لم نبحث الا فى الفترة الأكثر ازدهاراً فى هذه التجارة التى بدأت فى حوالى عام ٩٠٠ ، التى عرفنا بها معرفة يقينية اثنان من الشهود ، عاشا فى عصر واحد تقريباً ، ابن فضلان والمسعودى . وثمة عنصران أسهما فى هذا الازدهار: فمن جهة كان العرب يستمتعون بفتوحاتهم فى هدوء وسلام ، وبخاصة فى القسم الشمالى من دولتهم العريضة ، على ضفاف بحر قزوين ، وفى كل رقعة بسطت عليها اسرة السامانيين سيادتها : ومن هناك انطلقوا صوب الشمال ، لا بصفتهم غزاة ، ولكن بصفتهم تجاراً ، فصعدوا مجرى نهر الفولجا ، ووجدوا من يرحب بهم فى كل مكان ؛ عند الخزر ، وهم أمة مهذبة متسامحة تعيش عند مصب النهر ؛ وكذلك عند البلغار ، وهم أقوام من التجار اعتنقوا الاسلام واستوطنوا القسم الأوسط من النهر . ومن جهة أخرى وجد الاسكندناويون الذين استقروا حديثاً فى روسيا ، وجدوا فى النهر نفسه أداة صالحة لمزاجهم الحربى والتجارى ، فانحدروا فى مجراه ، وزاروا البلغار ، وانشأوا لغرض التجارة مستودعات عند الخزر كما رأينا قبلاً وفضلاً عن ذلك بذل أمراء الخزر كل ما فى وسعهم لمنعهم من الاتجار فى هدوء مع العرب سادة المناطق الواقعة وراء القوقاز وبحر قزوين (١) .

ومع ذلك لايجوز الظن بأن الشرق لم يكن أبداً حتى ذلك الحين على اتصال بشمال أوروبا ؛ فالقطع الذهبية العربية التى تنتمى الى القرنين الثامن والتاسع ، والتى يعثر عليها مدفونة فى روسيا ومناطق البلطيق دليل هام على قدم هذه العلاقات ؛ فالواقع أن النقود لم يكن لها قيمة عند العرب الا فى حياة الأمير الحاكم ، ثم يأتى خليفته فيبطل سريانها ويسك نقوداً جديدة . مثال ذلك أنه لم يكن فى الامكان فى القرن العاشر اصدار أو تداول عملات مسكوكة باسم خليفة أو سلطان القرن التاسع ، وبالأولى من القرن الثامن . وعلى ذلك ، فقبل أن يؤسس روك مملكته بزمان طويل ، حين كانت القبائل السلافية تعيش فى

(١) انظر رسالة يوسف ملك الخزر فى :

Vambéry, Ursprung der Magyaren, p. 71.

عزلة واستقلال على الأرض الروسية ، فان هذه القبائل كانت تصدر البضائع الى آسيا ، وتتسلم في مقابلها نقودا عربية ، ان لم تكن بغزارة كما حدث فما بعد ، ولكن على اقل بكميات كبيرة ، وفي ذلك الحين أيضا انتشرت تلك النقود فيما وراء بحر البلطيق . وعندما خضع السلاف للغازي الأجنبي ، استمروا مع ذلك يسهمون في تجارة الشرق الأدنى . وفي مسنهل القرن العاشر كان للروس الاسكندناويين ، كما كان للسلاف مسنوطنة تجارية عند مصب الفولجا ، في مدينة ايتل عاصمة الخزر (١) . لذلك يعثر على نقود عربية ، قديمة وحديثة في كل أنحاء روسيا ، ليس فقط في الجهات التي ركز فيها الاسكندناويون منشئاتهم الكبرى في مجاورات نوفجورود مثلا ، ولكن أيضا في داخل البلاد ، في الأقاليم التي احتفظ فيها السلاف بقوميتهم دون أن يختلطوا بغيرهم من الأجناس . فاذا اتخذنا النقود التي عثر عليها أساسا لاستدلنا ، وأرجعنا بذلك الى القرن الثامن بدايات العلاقات بين روسيا والشرق ، فلنا أن نعتبر أن أكثر الفترات ازدهارا بالتجارة هي الفترة الممتدة من أواخر القرن التاسع الى منتصف القرن العاشر ، ونستنتج من ندرة هذه النقود في روسيا واسكندناوة في النصف الثاني من القرن العاشر ازدياد ضعف التجارة بالتدريج . ومن السهل معرفة أسباب هذا الانحلال لدى الطرفين . ففي هذا العصر كانت روسيا في حالة انحلال ، مجزأة الى عدة امارات صغيرة ممزقة الأوصال بحروب أهلية ، ولم يكن عند الأمة المنقسمة على نفسها أية رغبة أو قدرة على مزاوله التجارة مع الأجانب . ومن جهة أخرى فان الروس ، باخضاعهم البلغار المسلمين ، وتحويلهم بالقوة الى الديانة المسيحية ، قضوا بأيديهم على الوسيط الذي كان يربطهم بالشرق بما يعود عليهم بالخير الجزيل . ومن جانب الشرق قضى اليك خان التركمانى على أسرة السامانيين المستنيرة التي صنعت الكثير في سبيل النهضة بالتجارة ، وكانت بداية فترة من حروب بين الأمراء الأتراك الذين خربوا بلاد ما وراء النهر . ومن تلك الآونة أصابت الأقدار السيئة ذلك الطريق التجارى الذى يصل الشرق ببحر البلطيق عن طريق بحر قزوين ، فظل غير صالح للاستعمال طوال العصور الوسطى ، وسوف نتكلم فيما بعد عن أسباب ذلك .

(ب) التجارة مع بيزنطة

نتقل الى طريق آخر للمواصلات بين بيزنطة والشمال . نتحدث أقدم الأخبار التاريخية الروسية (٢) عن « طريق من القسطنطينية الى بحر البلطيق » ؟

(١) المسعودى « مروج الذهب » ، الجزء الثانى ٩ ، ١١ .

(٢) Nestor, Russische Annalen, trad. allen p. Schlözer, 2e part, p. 88;

of Krug, Zur Münzkunde, Russlands, p. 32.

et s. ; Bonnell, Russische-livlandische Chronologie, Commentaire p. 3 et s.

ويبدأ هذا الطريق بصعود مجرى نهر الدنيبر ، ثم يبتعد عنه حتى يصل الى نهر لوفات sudut الذى يتقدم عليه المسافر هبوطا حتى بحيرة المن limen ومن هناك يتبع مجرى نهر فلنسوف Vorichov حتى يصل الى بحيرة لادوجا ladoga ، وأخيرا يصل الى بحر البلطيق عن طريق نهر نيفا Neva . وهكذا يمر معظم هذا الطريق بقنوات مائية صالحة للملاحة ، ونضرب أنه يمر أيضا بأكبر مدينتين فى روسيا فى ذلك الزمان : كييف ونوفجورود . ولا نذكر الأخبار التاريخية العصر الذى بدأ فيه ازدياد هذا الطريق ، ولكن من المؤكد انه كان مستعملا قبل عصر رورك (حوالى ٨٦٠) . من غير المعروف أيضا البلاد التى ينتمى اليها التجار الذين استخدموه . ولا بد من التسليم لأول وهلة أنهم كانوا من الاغريق ، ذلك أن وصف هذا الطريق يبدأ دائما من الجنوب الى الشمال : غير أنه من المشكوك فيه كثيرا أن يكون الاغريق قد توغلوا الى أبعد من كييف ، وعلى أية حال فان ما نعرفه عنهم من الحوليات الروسية القديمة يسمح لنا بأن نؤكد أنهم لم يصعدوا حتى خليج فنلندة . وبدراسة النصوص ، نصل الى ملاحظة عجيبة : ذلك أن وصف الطريق مزدوج ، فهو يبدأ أولا من بلاد الفاريج Varègues أى اسكندناوة ، ويعود اليها فى النهاية . بيد أن طريق الذهاب (عبر البحار ؟) ملخص فى بضع كلمات فى حين يوصف طريق العودة بالمزيد من التفاصيل . ولكن من الواضح أن المؤلف يتحدث عن مسافرين اسكندناويين ، وليسوا من السلاف . ولم يكن أهالى الشمال يعرفون الاستقرار فى بلادهم ، بل كانوا ينجذبون بصورة عجيبة نحو الجنوب . ولما كانت روح المغامرة فى طبيعتهم ، كانوا يرحلون عن طيب خاطر طلبا للمجد والثروة فى خدمة الامبراطور فى المدينة الكبيرة (مكلاجارد Miklagard) أى القسطنطينية (١) . وفى حملاتهم فى بحار الشمال ، كانت الحرب والتجارة غالبا متلازمتين ، وكان الفرد الواحد قرصانا وتاجرا مرة بعد أخرى (٢) ؟ كذلك فالى جانب المحارب الذى يسلك الطريق الذى وصفته الوقائع الرسمية القديمة ليحظى بالخدمة فى القسطنطينية ، كان هناك التاجر الذى يذهب الى هناك طلبا للمنتجات الأجنبية . أما الاسكندناويون الأوائل الذين استقروا على ضفاف بحيرتى لادوجا وألن ، ثم وصلوا الى المجرى المتوسط لنهر الدنيبر وانتهى بهم الأمر الى فرض سيادتهم على هذه البقاع ، فانهم مع ذلك لم يكفوا عن مشاركة أفراد جنسهم فى ميولهم . وتمثل الحافز الذى دفعهم صوب الجنوب أولا بغارات مسلحة على القسطنطينية . ولم يكدهم معاونا روريك : أسكولد Ascold . ودر Dir يسيطران على كييف

(١) تدرج هذه العادة الى زمن سابق ، ليس ببعيد ، فى عصر روديك . انظر :

Kunik, Die Berufung der schwedischen Rodsen, II, 329.

Antiquités russes (par Rafn) I, 285, 431, II, 235.

(٢) انظر مثلا :

حتى راحا في عام ٨٦٦ يشنان حملة سلب ونهب على الامبراطورية البيزنطية ، وتجددت هذه الغارات بكثرة حتى عام ١٠٤٣ (١) . غير ان اقدم المعاهدات المعروفة بين الاغريق والروس (سنتي ٩١١ ، ٩٤٤) تبينان أن الامور تغيرت وأن عددا كبيرا من التجار الروس كانوا يقيمون علاقات سلمية مع الاغريق ، وقيمون فترات طويلة في القسطنطينية . وكانت الحكومة اليونانية ترتاب في هؤلاء « الضيوف » ، وجنهم تقريبا من أصل اسكندناوى (٢) ، أى من جنس معروف بولعة بالمغامرات والسلب والنهب ، ومن ثم كانت تشتترط أن يتزود كل فرد منهم بجواز سفر موقع عليه من عاهل بلده (٣) ، وأى فرد يتقدم دون أن يكون معه هذه الوثيقة يفترض فيه سوء النية ويقبض عليه . وقد خصص لهؤلاء التجار حى يقع خارج أسوار المدينة بالقرب من دير القديس ناماس St. Namas (٤) ووضعت كل تحركاتهم تحت الرقابة الدقيقة لمنعهم من اقتراف أى عمل ضار ، ولم يكن فى وسعهم الدخول الى المدينة الا من باب واحد ، ويجب عند دخولهم ثمة أن يكونوا مجردين عن السلاح ، ويصحبهم شرطى يونانى ، ولا يجوز أن يجتمع أكثر من خمسين شخصا منهم ، وتتهم الحكومة بالآلا يقيموا وقتا أكثر مما ينبغى ، ولم يكن يصرح لهم بقضاء الشتاء فى القسطنطينية ، أو عند مصب الدينبر ، بل يجب عليهم العودة الى بلادهم قبل حلول فصل الشتاء . ومع ذلك فلا بد من القول بأن الاغريق كانوا يمنحون الروس الحائزين على ثقتهم بعض الامتيازات ، وكذلك الروس المقيمين فى القسطنطينية من أجل أعمالهم ، وتزودهم الدولة شهريا بكمية من المواد الغذائية ، وتضع تحت تصرفهم عندما يرحلون كل ما يلزمهم من مؤن أثشاء رحلتهم ، والأشياء الضرورية لتجهيز سفنهم . وكفلت لهم معاهدة السلام الاولى دخول منتجاتهم بلا رسوم ، ولم

(١) Wilken, Die Verhaeltnisse der Russen zum byzant. Reich in 9-12 Jahr., dans les Abh. der Berl. Acad. 1829, Hist. philol. Cl. p. 75 et ss

(٢) هذا الغرض له ما يبرره ، أولا بأسماء كبار الذين كانوا يرافقون سفير الفرندوق ايجور وعقدوا معه معاهدة ٩٤٤ ، أنظر Kunik ، المرجع السابق ص ١٧٨ ، وثانيا بالتوضيحات الرسمية التى كان يؤديها فى جزيرة Chorticy على نهد الدينبر أصحاب السفن المتجهة الى القسطنطينية ، وهى توضيحات تذكر تماما بالمعادات الاسكتنافية ، وأخيرا كانت لقناطر النهر أسماء أخرى بلغة الشمال ، زيادة على الأسماء التى أطلقها عليها سكان البلد القدامى .
أنظر ، المرجع السابق ص ٤٢٢ وما بعدها ، وكذا :

— V. Thomsen, The relations between ancient Russia and Scandinavia and the origin of Russian state, Oxf. and Lond, 1877.

(٣) فرض الشرط نفسه على البلغار بموجب معاهدة ، أنظر : Théophane, I, 775.

(٤) Ducange, Cpol. christ, lib IV, p. 18E.

كان هذا الحى فى Stenon وكان بالعرب منه ميناء صغير ، أنظر أيضا .

— V. Unger, Guellen der byzantinischen Kunstgeschichte, le partie p. 79, 258 et s.

يرد في المعاهدة الثانية أى ذكر لهذا الامنياز ، فلم يتجدد ، ولم يسحب (١) .
ويبدو أن الروس كانوا قبل معاهدة عام ٩١١ يدفعون عند دخولهم الامبراطورية
اليونانية رسما قدره ١٠٪ ، ولكن ليس فى وسعنا أن نؤكد أن هذا الرسم
كان مفروضا على البضائع المرسلة الى بيزنطة أو التي نعبّر البسفور لكى نصل
الى البلاد المشرفة على البحر المتوسط . ولا يتحدث ابن خرداذبة الذى استقىنا
منه هذه المعلومات الا عن البضائع الأخيرة (أى التي تعبر البسفور) ، غير أن
شهادته لها قيمتها لانها تتوافق مع فقرة من كتابات فسطنطين بورفروجنيث
تقول ان « السفن الروسية تذهب حتى سوريا » (٢) . وعلى ذلك ففي القرنين
التاسع والعاشر كانت سفن هذا الشعب الجريء تتجاوز القسطنطينية وتعبر
البحر المتوسط . ولعله من المناسب أن نذكر فى هذا الصدد ملاحظة للمسعودى (٣)
اذ يقول ان قبيلة « الروس » الكثيرة العدد كانت تقيم علاقات تجارية مع أسبانيا
وروما والقسطنطينية وبلد الخزر ، ويطلق على هذه القبيلة اسم « لودانيه »
Loudaanèh . ويبدو لى أنه من الصعب التسليم مع الناشرين بأن هذا
الاسم ينصرف الى اللتوانيين ، وأعتقد أنه يشير الى احدى القبائل السلافية الخاضعة
لسيادة الروس الاسكندناويين ، قبيلة اللوتشان Loutchanes أو اللوزياتان
Louzaniens الذين يجعل لولويل Lelewel مقامهم فى لوتسك Loutsck
(على نهر ستيير Styr) فى فولهيا Volhynie ، بينما يجعل شافاريك
Schafarik مقامهم ناحية الشمال فى : فليكييا لوكي Vélikia-Louky
(gouv de Pleskow) (٤) ويتحدث قسطنطين بورفروجنيث (٥) المعاصر
للمسعودى عن هؤلاء اللوتشان ، ولكنه يقول فقط انهم يبنون سفنا يبيعونها
للبوس ، ويبدو أنه ليس من المستحيل أن يحذو هؤلاء حذو الاسكندناويين ،

(١) ذكرت المعاهدتان اللتان أبرم أولهما الأمير أوليج Oleg فى عام ٩١١ ، وثانيتهما
الأمير ايحور Igor فى عام ٩٤٤ (من حيث التواريخ أنظر كروج :
Strahl (Krug, Forschungen II, 348) فى نستور Nestor ، وأثبتهما ستراهل
بالكامل ، ويعطى ايورز Ewers عنهما تفسيراً قانونياً ممتازاً ، كذلك اسمهم كروج كثيرا
فى ايضاح كل ذلك .

(٢) ابن خرداذبة فى : éd, Barbier de Meynard, dans le Journ. Asiat. VI S. T. V, p. 514.
— أنظر كذلك : Constant, Porphyrog., De adm. imp, p. 180; éd, Bonn.
توضح هذه الفقرات أيضا الطريق الذى كانت تسلكه نقود الافاليم الجنوبية فى العالم
الاسلامى وهى تتوغل أحيانا فى شمال أوروبا .
(٣) مروج الذهب ، الجزء الثانى ، ١٨ .

(٤) Lelewel Géogr, du moven age III p. 48 Schafarik Slawischew
Althenthümer, trad allem p. Mosig von Aehrenfeld II, 113.
Constant, Porphyrog. de Adm, imp, p. 75.

فيقومون بدورهم برحلات طويلة ، وهذا شيء ميسور لهم لأن بلدهم يتصل بالبحر الأسود بطريق مائي . ويعتقد فريهن (١) أن الاسم الصحيح لودانيه ، ويشير بذلك الى الأهالي المقيمين على ضفاف بحيرة لادوجا (التي قامت بجوارها مدينتا لادوجا القديمة ، ونوفجورود) : فهل توجد رواية أخرى صحيحة بدرجة كافية تسمح بهذا الفرض ؟ لست أجرو على أن أؤكد ذلك .

حسبنا هذا الاستطراء ، ولنعد الى العلاقات التجارية بين الروس والاغريق . يبدو أنه من الثابت أن الروس في عصر قسطنطين بورفروجنييت (حوالى ٩٥٠) كانوا يربطون كل عام مجرى نهر الدينبر ويصلون الى القسطنطينية بمحاذاة الساحل الغربى للبحر الأسود ، ولم يكن ينتهيهم عن رحلتهم هذه شيء ، لامشاق الا بحار على نهر الدينبر الذى يعترضه على سبع نقاط مختلفة سدود صخرية ، ولا غارات القراصنة البتشنج . Petchénègues على النهر الأدنى (٢) . ومن جهة أخرى كان الاغريق يفهمون دائما المزايا التي توفرها لهم هذه التجارة مع الروس . وفي المعاهدة التي عقدها الامبراطور يوحنا تزميسيس Jean Zimiscès عام ٩٧١ مع الأمير سيفيتوسلاف Svocloslav أقر الأول بالمزايا القديمة التي كانت ممنوحة للتجار الروس في امبراطوريته (٣) . ويدل النزاع المسلح الأخير الذى نشب بين الاغريق والروس في عام ١٠٤٣ بنوع خاص على أن عددا كبيرا من الروس قد استفاد من هذه الاعفاءات وزاول العمل فى القسطنطينية : فقد حدث أن احدى الشخصيات الروسية الكبيرة لقيت مصرعها فى احدى هذه المعارك الكثيرة التي كانت تحدث فى القسطنطينية بين الروس والاغريق ، ومن ثم اندلعت الحرب ، ومن أول الاحتياطات التي اتخذها الامبراطور أن وزع على الأقاليم التجار الروس المقيمين فى القسطنطينية ووضعهم بذلك تحت رقابة شديدة (٤) .

وفى وسعنا أيضا أن نحدد على وحه التقريب السلع التي كانت موضوع التجارة بين الروس والاغريق . كان الروس يجلبون الى القسطنطينية فراءهم ، والعسل والشمع اللذين ينتجهما نجلهم ، ثم ما عندهم من أسرى الحرب ، وكانوا يبيعونهم بيع الرقيق (٥) . والمسألة الأكثر أهمية بالنسبة لنا هي معرفة ما كانوا يحملونه معهم ، وتزودنا معاهدة ايجور Igor بجزء من الاجابة ، اذ تتضمن حظرا فرضه الاغريق على الأقمشة الثمينة : فقد نص فيها على أنه لا يجوز للروس

(١) ابن فضلان ، ص ٧١ ، ١٧٤ .

(٢) Constant, Porphyrog. I. c. p. 74 et ss., 69 et s.

(٣) Leo Diac. éd. Bonn, p. 156.

(٤) Cedren., II, 551.

(٥) Nestor, ed. Schloezzer, IV, 100; V, 140; Const. Porphyrog. I. c. (٥)

أن يشنروا أقمشة حريرية (١) يزيد منها على خمسين «صولا» ذهبيا Sols (٢) ، فإذا حدث استثناء من هذه القاعدة كان على موظف الجمارك الذي صرح بذلك (٣) أن يدمغ الأقمشة بطابع ٥٠ وكانت هذه الأقمشة الثمينة مطلوبة كثيرا في بلاد الشمال ، وكان الخزر ، والترك ، والروس وسائر البرابرة يطلبونها سدادا لخدماتهم بالحاح شديد كان يعتبره قسطنطين بورفروجنيت غير مقبول لأن هذه الأقمشة الثمينة كانت مخصصة لحفلات البلاط الامبراطوري ، والأعياد الرسمية بكنيسة القديسة صوفيا ٠ (٤) وإذا صرح في بعض الحالات الاستثنائية للتجار الروس بالخروج ببعض هذه الأقمشة الحريرية الثمينة ، فذلك لأنهم كانوا عادة يشترون كميات كبيرة من أنواع أخرى شائعة .

والواقع أننا نجد في الوقائع الروسية القديمة ، في كل أوان إشارة الى حرائر القسطنطينية . وتذكر الوقائع أيضا مع هذه الأقمشة ، من الأشياء المستوردة عادة من القسطنطينية الذهب والفضة (٥) . ويلاحظ ابن فضلان أن الروس كانوا يشترون « بروكار » من صنع الاغريق . ونضيف الى هذه السلع التجارية أصنافا أخرى نجدها مذكورة في عبارات يضعها نسطور Nestor على لسان الغرنوق سفيتوسلاف Svoetos' av : « أرسل إلينا الاغريق حرائر وذهبا ونبيذا وفاكهة من كل نوع ٠ » (٦) وبالتأكيد كانت القسطنطينية . وخرسون تصدران أيضا الى بلاد الروس توابل آسيا ، وبخاصة الفلفل (٧) . وتذكر المصادر أيضا الأسواق الرئيسية في روسيا ، والتي تنتهي إليها المنتجات الواردة من اليونان . ويقول قسطنطين بورفروجنيت ان أولئك الذين كانوا يمارسون الملاحة التجارية على نهر الدينبر والبحر الأسود كانوا يأتون من مناطق واقعة خارج امارة كييف التي يعتبرها روسبا الحقيقية ، من نوفجورود ، وسمولنسك ، ولويتش ، وتشيرينجوف ، وفيشنيجراد ، الا أن كييف كانت مركز تجمع السفن . ومن جهة أخرى ، نرى في معاهدة ايجور أن التجار الروس المجتمعين تحت أسوار القسطنطينية ، كانوا منقسمين الى مجموعات تبعا للأقاليم ، والغرض من هذا الانقسام تيسير توزيع المؤن شهريا ، وتذكر الوثيقة المشار

(١) بالروسية بافولوكي Pavoloki ، ويناقش كردج طويلا

(٢) مدى هي القيمة التي يذكرها كروج

(٣) Schloezer, Nestor IV, 67,

(٤) Constant, Porphyrog. De adm. p. 88.

(٥) انظر مثلا Nestor الجزء الرابع ، ٤٤ .

(٦) Schloezer, V, 140,

(٧) Porphyrog. p. 72,

اليها أولا أهالي كييف ، ثم أهالي تشيرينجوف ، وأخيرا أهالي بيريجاسلاف Perejaslave ، ولم يذكر اسم أية مدينة أخرى . وهكذا يذكر الكاتب الاغريقي أولا سكان نوفجورود ، بينما نذكر المعاهدة سكان كييف . نرى ما سبب هذا الاختلاف ؟ هذان المركزان السياسيان كانا في الوقت نفسه مركزين تجاريين . فبعد أن نشأت كييف نشأة متواضعة . أصبحت في عام ٨٨٢ عاصمة المملكة ، ونهضت سريعا حتى بدت وكأنها تريد أن تنافس القسطنطينية ، وكانت البضائع ترد اليها بوفرة هائلة ، اقتضى الأمر انشاء أسواق في ثمانية مواقع مختلفة بالمدينة (١) . أما نوفجورود التي كانت قوية قبل وصول روريك ، وآهلة بعدد كبير من السكان الذين يمارسون التجارة فانها صمدت بعزيمة في مجال المنافسة ، ودام رخاؤها القائم على أسس متينة الى ما بعد ازدهار كييف العابر ، وكانت المدينتان واقعتين على الطريق الكبير الممتد من الشمال الى الجنوب والذي وصفنا مساره فيها قبل تبعا للوقائع الروسية القديمة . وكان لكييف ميزة استقبال البضائع اليونانية من مصدرها مباشرة ، ولكن نوفجورود كانت تتلقى أيضا بضائع يونانية ، وعلاوة على ذلك كانت منصلة بالطرق النهرية لنهر الفولجا ودفينا Dvina . وكانت التجارة نسلك هذه الطرق منذ العصور التاريخية القديمة . كما يشهد بذلك نسطور (٢) ، ثم ان موقعها كان قريبا من خليج فنلندا مما يجعلها اسهل منالا من كييف بالنسبة الى التجار القادمين من الغرب طلبا لمنتجات روسيا وبيزنطة . وكما قيل بعاليه كان الاسكندناويون يذهبون كثيرا الى نوفجورود للتجارة : فاذا أراد ملك من ملوك الشمال أن يحصل على أقمشة حريرية أو قمرزية أو منسوجات مطرزة بالذهب ، أو أدوات للمائدة مشغولة بمهارة فنية ، فانه يبعث بتجارة الى جارداريك (روسيا) ، الى سوق هولجارد (نوفجورود) الحافلة دوما بكل أنواع السلع (٣) . ومنذ أن أنشئ بهذه المدينة مستودع لمنتجات الصناعة اليونانية ، أصبح في مقدور تجار البلاد الاسكندناوية أن يوفروا نفقات السفر الى بيزنطة . حقا ، لقد تحدث آدم دو بريم Adam de Brème عن أهالي شلزوويج الذين كانوا يتنافرون « حتى اليونان » ، ويذكر بورنهولم انها مرسى متوسط للسفن المتجهة « صوب بلاد الأغريق » (٤) ، ولكن من الخطأ أن نظن أن بيزنطة كانت بالفعل المكان الذي ينتج اليه العديد من نجار البحر البلطي . كان لآدم دو بريم فكرة غامضة عن امكانية الذهاب من اسكندناوة الى

Adam Brem. dans Pertz, ss, p. 7, 313; Ditm, Merseburg, ibid, (١)
III, 871.

Schlözer, II, 90-92. (٢)

Rafn, Antiquités russes, I, 295, 432, II, 119; cf. I, 317, 426. (٣)

من المشكوك فيه أن تكون الجداول الذهبية التي توجد أحيانا في بلاد الشمال بجوار النقود

البيزنطية واردة من الاقليم نفسه . انظر Worsaeoe ، المرجع السابق ، ص ٥٥ .

Adam. Brem. Op. Cit., p. 368, 378. (٤)

القسطنطينية بالطرق المائية كل الوقت ، والشئ الذى كان يجعله هو انه لابد
لذلك من صعود الانهار وهبوطها وعبور بحيرات . وكان ينصور انه بمكن
الوصول الى اليونان بالملاحة على بحر البلطيق . ومع ذلك يقول فى فقرات
أخرى ، وهذا صحيح ان روسيا تشكل حد البحر البلطيق ، وان غاية ملاحي
شلزويح هي روسيا لا اليونان (١) والشئ الذى أوقعه فى الخطأ هو أن الروس
قد تحولوا الى ديانة اليونان ، ومن ثم خط بين روسيا واليونان ، بل وصل
به الأمر الى ان يصف كييف بأنها أجمل جوهرة فى اليونان (٢) وكان الكتاب
يخلطون بين كلمة جارداريك Gardarike التى تطلق على روسيا فى لغتهم ،
وكلمة جريكلانند Grikland أو جيركلاند Girkland وهى اسم اليونان
la Grèce ، ويخلطون أكثر من ذلك بين النعتين جيروسكر Gerskr (روسى) ،
وجريسكر grisks أو جيسكر giskr (يونانى) (٣) وفى الواقع كان التجار
الاسكندناويون الذين يذهبون فعلا الى اليونان منذ العصر الذى تحدثنا عنه
استثناء من الحقيقة الواقعة . وليس فى الامكان أن أذكر سوى مثل واحد ، ذلك
هو شخص يدعى جريس سومنجسن Gris Soemingsson كان يعيش فى حوالى
عام ١٠٠٠ ويذهب الى القسطنطينية لانجاز أعماله (٤)

وفيما يختص بالروس ، كانت علاقتهم مع الأغريق عن طريق نهر الدنيبر
أكثر دواما من علاقتهم مع العرب عن طريق نهر الفولجا . وكان لوحدة الدين
أثر كبير فى ذلك ، فقد كانت القسطنطينية هى التى حولت الروس الى المسيحية
وكان القساوسة يتلقون منها سلطاتهم ، كما كانت الكنائس تأخذ منها
لوازمها وحلياتها . غير أنه كلما تماثل سكان روسيا مع الأغريق من الوجهة
الدينية ، وتفوق العنصر السلافى الأكثر عددا على العنصر الاسكندناوى ،
تراخت الصلات التى كانت ، تربط الروس بالاسكندناويين فى عهد الوثنية .
وتلقى الاسكندناويون المسيحية بدورهم ، ولكنها جاءتهم من ألمانيا ، فى صورة
كاثوليكية رومانية ، ومن ذلك الحين ازداد انجذابهم لألمانيا التى تسكنها أمة
متقدمة ، من جنسهم نفسه .

Adam, Brem, Op. cit., p. 373, 312.

(١)

Ibid, p. 313.

(٢)

Kunik, op. cit., p. 145 et s.; Rafn, op. citè, I, 295 not. a.

(٣)

Voyez la Saga d'Alaf Tryggvegon dans les Antiq. russ. II, 113.

(٤)

٤ - المانيا

اكتشفت أيضا نقود عربية في حفريات أجريت على طول الشواطئ الجنوبية للبحر البلطى ، ولكن لا يبدو أنها كانت متقاربة ووفرة في أية جهة مثلما كانت في الشمال وفي الشرق . وقد وجدت كميات كبيرة نسبيا من هذه النقود في مكلنبورج ، وبومرانيا ، وبروسيا الغربية . ومن الأقاليم التى تستحق الذكر في هذا الخصوص ، تلك المجاورة لمصب نهري الأودر والفيستولا ، وكذا السواحل الممتدة بين هذين النهرين . وقد تمت الاكتشافات بنوع خاص على طول الأنهار ، وامتدت أحيانا بعمق في داخل الأراضي : مثال ذلك ، بصعود مجرى نهر الفستولا تم اكتشاف كبير في مونستر فالده بالقرب من مارينغرد ، وعلى نهر الأودر ، عثر على نقود حتى مجاورات فرنكفورت التى نعتبر ، خطأ ، أقصى موقع في الجنوب جرت فيه مثل هذه الاكتشافات (١) . وهنا أيضا حقيقة ايجابية تدل على الصلة الوثيقة بين هذه الاكتشافات وبين المواصلات التجارية : فالمكتشفات أكثر عددا في المواقع الميسرة للملاحة البحرية والنهرية منها في الداخل . ففي بومرانيا وجدت أكثر المكتشفات وفرة في جومنيه Jumne ، المبنى الكبير على البحر البلطى ، وفي مجاوراته (٢) . وفي العصر الذى دفنت فيه هذه الكنوز ، لم يكن الألمان قد توغلوا في هذا المناطق التى كان يسكنها وقتئذ سلافيون (صقالبة) فى الغالب ، وأقلية من البروسيين ، ولم يكن لأى منهم صلات مباشرة بالعرب ؛ ولم يكن بينهم ما يقدمونه للشرقيين سوى سلعتين : الفراء والكهرمان ، وكان الكهرمان مطلوبا في الشرق منذ قديم الزمان (٣) . وتبين أن البلاد التى يكتشف فيها أقل قدر من النقود العربية هي بالذات ساملانده Samland التى يكثر فيها الكهرمان بنوع خاص ، وبروسيا الشرقية بنوع عام . ولا بد أن جزءا صغيرا جدا من النقود المكتشفة قد استعمل في سداد ثمن البضائع التى صدرت بالفعل الى الشرق ، ويدل وجود هذه النقود فقط على أن السلاف والبروسيين كانوا يبيعون منتجاتهم للشعوب التى تستخدم النقود العربية ، ولذلك لم يكن عليهم الا أن يذهبوا الى السويد أو روسيا ، ولا شك أن تجارهم كانوا يزورون هذين البلدين . ولنذكر فقط اسم التاجر الساملاندى فيدجوت Vidgaut الذى قام برحلات كبيرة في روسيا في بداية القرن الثانى عشر (٤) ، وكذلك السفن

(١) Ledebur, op. cit., p. 44-70; Minutoli, n. 27-40.

(٢) أنظر القائمة الممتازة للنقود التى عثر عليها (ومعها خريطة) فى بوميرانيا كوهن . Kühne, les Baltiche Stuien, 27, 203 et ss.

(٣) Sawelijew, dans Erman's Archiv, VI, p. 98.

(٤) Rafn, Antiquités russes II, 134 et s.

السلافية والساملاندية التي كانت تأتي في زمن آدم دو بريم تلقى مراسيها عند بيركا Birka ، وهي من أغنى موانئ السويد (١) : ونحن نسلم بأن هذين المنالين مقتبسان من عصر لاحق لم يعد فيه النقد العربي سارى المفعول على سواطى البحر البلطى ، ولكن ينبغي لنا ، بالنظر الى عدم وجود مصادر قديمة بشأن موضوعنا هنا أن نبحث عن الأدلة في وناثق أكثر حداثة . ومن جهة أخرى ، كانت السفن التجارية الدانمركية المبحرة من شلزويج تمضى لتزور البلاد السلافية التي تشرف على البحر البلطى ، وكذا ساملاندي البروسية (٢) . ومن شلزويج نفسها انطلق الرحالة المشهور فولفستان Wulfstan في أواخر القرن التاسع تاركا الى يمينه بلاد الوند Wendes ، فبلغ مجاورات مصب الفستولا ، وكانت غايته تروسو Truso وهي ميناء بروسيا القديمة ، اكتشفت أطلاله حديثا بروسكمارك Preuschmark (أى سوق البروسيين) أو بالأصح بروسنماركت Prussenmarkt على مسافة ليست بعيدة عن الضفة الشرقية لبحيرة دراوسن Drausen بالقرب من « البنج » Elbing (٣) . وفي كثير من الأحيان كان الدانمركيون أو غيرهم من الاسكندناويين الغربيين المسافرين الى روسيا يرسون فقط في البلاد السلافية أو البروسية ، ولعلمهم اذا وجدوا هناك بضائع يشحنونها لبيعوها في روسيا ، فانهم يدفعون ثمن هذه البضائع بنقود عربية ان لم توجد نقود أهلية . وعلى ذلك فان منتجات السواحل الجنوبية للبحر البلطى يمكن أن يحملها الى روسيا اما السلاف أو البروسيون أنفسهم ، واما الدانمركيون ، ومن ثم تنتقل عند الضرورة الى الشرق . والثابت أن السفن التي تحمل هذه المنتجات تعود بالتالى وهي تحمل سلعا روسية ، وربما أيضا أشياء شرقية . ومن المحتمل إذن أن يكون عدد من الحلى التي اكتشفت بجانب النقود العربية شرقية المصدر ، ويبدو لى أنه لكى يمكن التيقن من أن شيئا ما « شرقى بالتأكيد » — الأمر الذى يفعله « لوديور » بسخاء — يتعين البدء بأجراء دراسات مقارنة تؤدى الى تحديد السمات المميزة للحلى العربية أو البيزنطية أو الشمالية فى أقدم فترة من العصر الوسيط .

ويخلاف هذا الطريق البلطى الذى يربط السلاف بروسيا ، ومنها الى الشرق بواسطة الروس وبلغار الفولجا ، يمكن أن نتتبع الى داخل روسيا ولتوانيا وبولندا خطا يتكون من ودائع النقود الشرقية ، ويبدو أن هذا الخط يدل على طريق يرى خبر البلاد السلافية . وقد رأينا فى الواقع أن ابن خرداذبة يؤكد

Ed. Pertz ss. VII, 305.

(١)

Adam. Brem. loc. cit., p. 312, 368.

(٢)

(٣) هذى هي الخلاصة التى انتهى إليها نيومان Neumann بعد بحوث متعمقة أجراها فى

البنج Elbing

أن المسافر الذى يرحل فى أيامه من غرب أوروبا (من أسبانيا أو فرنسا) يستطيع دائما ان يصل برا عبر ألمانيا والبلاد السلافية الى عاصمه الحزر (اتيل) ، ومن هناك الى ما وراء نهر الاجزوس (بلخ) عن طريق بحر قزوين ، ويواصل رحلته حتى الصين عن طريق بلاد التاجازجاز Tagazagaz فى آسيا الوسطى (١) . ومن الواضح أن هذا ليس مجرد احتمال فى ذهن الكاتب العربى ، ولكنه يقصد بوصفه هذا الطريق بالخطوط العريضة التعريف بطريق برى كان كبار التجار اليهود الذين كان دورهم كوسطاء بين الشرق والغرب شديد أهمية فى ذلك الأوان يستخدمونه الى جانب طرق بحرية فى القسم الأكبر من رحلتهم . فاذا كان هذا الطريق الذى يخترق البلاد السلافية مفتوحا لليهود ، فلا بد أن يكون من باب أولى مفتوحا للسلاف ، والنايت أنهم كان ينتفعون به ، على الأقل حتى مشارف العالم العربى ، وهذا هو ما يدل عليه المنشئات التى أقاموها فى عاصمة الحزر ، والتى تحدثنا عنها من قبل .

بيد أن السلاف الغربيين لم يكونوا على صلة بالعالم الشرقى وحده ، إذ كانوا يستطيعون الاتصال بالعالم الاغريقى ، أو على الأقل بمنتجاته ، ولذلك كان لديهم طريقان ، أحدهما عبر البحر البلطى وينتهى عند نوفجورود ، والثانى طريق برى أقصر ينتهى فى كييف ، والراجح أنه كان مطروقا أكثر من الأول (٢) . وفى النصف الثانى من القرن التاسع ومستهل القرن العاشر نشأت على مصب نهر الأودر مدينة سلافية كانت آنئذ مزدهرة : مدينة جومنيه Jumne (٣) وهى سوق كبيرة الأهمية . ولا شك أنه رغم الحكايات الخرافية التى يرويها ستورش Storch ، فإن منتجات الهند وشرق آسيا لا بد أن تكون نادرة الوجود بهذه المدينة ، أما منتجات بيزنطة فلم تكن كذلك ، وليس معنى هذا أن الاغريق كانوا يأتون هناك ومعهم منتجاتهم ، إذ لا يجوز أن نفسر تفسيراً حرفياً ما يقوله آدم دو بريم : فهو يذكر الاغريق حين يحصى الأمم التى تتردد على هذا المكان (٤) ، ولكن الواقع أنه يطاق هذه التسمية (أى الاغريق) على كل من يعتنق الديانة اليونانية ، ومنهم قبل كل شيء الروس ، وبأيدى هؤلاء كانت تمر البضائع اليونانية .

وما دامت منتجات الامبراطورية اليونانية ، وربما منتجات آسيا تصير الى سكان الساحل الجنوبي للبحر البلطى ، فليس ثمة ما يمنع من أن تتولى

Ed. Barbier de Meynard, p. 515.

(١)

Lelewel, Tableau historique du commerce des slavons, dans sa

(٢)

Munismatique du Moyen - Age, 3e part, p. 98 et s.

Historisch - statistisches Gemaelde des russischen Reichs, IV, 45 .

(٣)

Pertz, ss. 312

(٤)

التجارة توزيعها على الألمان . وفي عهد شارلمان كان نهر الب وسال Saale يكونان بوجه عام الحد الفاصل بين الشعوب الألمانية والشعوب السلافية ، وقد عين شارلمان غربي هذين النهرين بعض المدن التي يجب أن تجرى فيها المبادلات بين الأمتين : باردويك ، شيزلا (١) ، مجدبورج ، وارفرت (٢) . ولسنا نعرف أنواع السلع التي كان السلاف يستوردونها من هناك ، فالمصادر صامتة في هذا الخصوص . وفي القرون التالية عبرت جموع الألمان حاجز نهر الالب اما محاربين أو مبشرين أو مستعمرين ، ولم يتخلف عنهم التجار . ونمة ساكسون تردوا على جومنيه Jumne واستقر بها بعضهم ، رغم أن هذه المدينة كانت وتنية ، وكانت ممارسة الطقوس المسيحية علانية محظورة ، وكان هؤلاء يأتون بالأرجح من مجدبورج ، أو باردويك ، أو هامبورج . ويقول آدم دو بريم ان المسافة من هامبورج أو من نهر الب الى جومنيه تبلغ ثمانية أيام (٣) ترى ما هي البضائع التي كان الألمان يأتون بها من المستودع السلافي الكبير ؟ هل كانت من منتجات الشمال فقط ، وهل كان معها سلع بيزنطية أو أسيوية ؟ لا تنبئنا المصادر بشيء من ذلك .

ولنتقل الى وسط ألمانيا ، فنجد هناك منذ زمن مبكر طريقا تجاريا يمتد من ثرنجيا Tharinge الى ماينانس Mayence (أو ماينتس) يستخدمه السلاف (٤) . هل لنا أن نعتبر هذا الطريق امتدادا غربيا لطريق مستخدم للتجارة العالمية ، يجتاز البلاد السلافية من طرف الى آخر ؟ هل استخدم هذا الطريق لنقل منتجات الشرق الى ضفاف الراين ؟ أو كان سكان ثرنجيا (الذين قد يوجد بينهم الكثير من السلاف) هم بالأحرى الذين استخدموه للذهاب الى ماينانس ، المركز التجاري العام للمنطقة ، طلبا للأشياء التي يحتاجون إليها ؟ هذه حقيقة يبدو أنها تثبت وجود علاقات تجارية بين ماينانس والشرق الأقصى لقد زار العربي الاسباني أبو بكر محمد (المولود عام ١٠٥٩ في طرطوسا ، ومن ثم لقب بالطرطوشي ، وعرف بهذا اللقب) زار ذات يوم ماينانس ، غالبا في احدى رحلاته الكبيرة التي قام بها في شبابه عبر البلاد المسيحية ، ورأى فيها نقودا فضية من سمرقند ، سككت في الأعوام من ٩١٣ الى ٩١٥ باسم الأمير الساماني نصر الثاني ، ابن أحمد . ومن الصعب التسليم بأن هذه النقود التي ضربت في بداية القرن العاشر لم تزل سارية المفعول في ماينانس في أواخر القرن الحادي عشر ، لذلك فمن المحتمل أن الطرطوشي لم يجدها في السوق كعملة متداولة ، وانما عرضها

(١) أنظر في خصوص هذا المكان :

Les Mecklin - Burgische Jahrbuecher XXXVI, 1871, p. 107 et ss.

Capitulaire, Dec. 805, dans Pertz, Leges, I, 33.

Adam, Brem, dans Pertz, ss, VII, 312.

Vita Starmi, éd. Pertz, ss, 11, 369.

(٢)

(٣)

(٤)

عليه بعضهم باعتبارها نحفة بالنسبة الى طابعها العربى . ومع ذلك فان هذه الواقعة قد تحمل على الظن بأن ما يانس اشتركت ، على الأقل من بعيد ، وفى زمن قديم فى تجارة البلاد البلطية مع روسيا والشرق ، وهى تجارة جلبت الى أوروبا كميات كبيرة من النقود السامانية . نضيف الى ذلك أن هذه الواقعة فريدة فى نوعها ، ذلك لأنه لم يعثر فيما وراء نهر الب على أثر نقود عربية ، ومن ثم ينبغي مراعاة الحذر فى هذا الخصوص . وفى الامكان اعطاء تفسير آخر : ذلك أنه ربما يكون بعض الروس القادمين الى ألمانيا لأسباب غير التجارة قد أحضروا معهم هذه النقود وتركوها هناك . وتذكر الوقائع الألمانية الكثير من البعثات الروسية الرسمية التى وفدت على البلاط الألمانى فى غضون القرنين العاشر والحادى عشر (٩٥٩ ، ٩٧٣ ، ١٠٤٠ ، ١٠٤٢) . ومع أنها لا تذكرها اذا كانت هذه البعثات قد مرت بمدينة ما يانس ، فأننا نعلم أن الغرندوق ايسيسلاف Isoeslav قد أتى من كييف الى ما يانس نفسها فى عام ١٠٧٥ يلتبس معونة الملك هنرى الرابع ، وأنه أتى معه بكمية من الأشياء النمينة . حدث هذا بالضبط فى الوقت الذى كان فيه الطرطوشى يتجول فى أوروبا ذلك ، لأنه ابتداء من عام ١٠٨٣ استقر فى مصر وبقي فيها الى آخر عمره . أليس من المحتمل أن تكون الدراهم التى رآها فى ما يانس قد تركها هناك الغرندوق الروسى ؟ ليس هناك ما يمنع من ترجيح التفسير الثانى على الأول ، ومع ذلك فليس ثمة خطأ فى الافتراض بأن ما يانس كانت على صلة بالشرق ويقدم المصدر العربى الذى زدنا به رواية الطرطوشى الدليل على صحة هذه الصلة لأنه يضيف قائلا : « من العجيب أن توجد فى هذه المدينة الواقعة فى أقصى الغرب وفرة من التوابل التى لا تصادف الا فى الشرق الأقصى ، كالفلفل ، والزنجبيل ، والقرنفل ، والحوّلجان ، وكلها حاصلات صادرة من الهند . » . ولو كان الجغرافى القزوينى (الذى استعرنا منه هذا البيان) قد علم من بعض معاصريه أن هذه التوابل كانت موجودة فى ما يانس لكان لدينا البرهان على أنه فى العصر الذى كانت فيه التجارة مع الشرق أكثر نشاطا ، كان بعض هذه التوابل يجلب الى هذه المدينة ، الأمر الذى يثير الدهشة لأن القزوينى حرر كتابه فى عام ١٢٦٣ ، وأعاد كتابته فى عام ١٢٧٦ (١) ، ولكن يغلب أن يكون قد استعار معلوماته بخصوص التوابل من الطرطوشى ، وهذا ينبئنا بشئ أكثر أهمية ، لذلك أن ما يانس كانت قبل الحروب الصليبية تتلقى من الهند توابل من كل صنف . غير أن هذه التوابل لا يمكن أن تصل الى هناك بالطريق نفسه الذى تصل به النقود السامانية ، ويمكن أن نؤكد أنها كانت تأتى عبر البحر المتوسط

على سفن فينيسية (١) . ومع ذلك لا يصح أن نتصور أن دور أهالي ماينس في هذه التجارة كان سلبياً محضاً . ويرى Gfroerer (٢) بحق أن بعض كبار تجار ماينس في عصر الملوك «الأوتونيين» Othons الألمان كانوا يذهبون إلى القسطنطينية لقضاء بعض الأعمال التجارية ، وهى الطريقة الوحيدة لتفسير التصرف الذى أجراه الملك أوتو الأول فى عام ٩٤٩ - وهو تصرف يبدو غير عادى فى أية ظروف - بأن عين سفيرا فى بلاط بيزنطة تاجرا تريا من تجار ماينس اسمه ليوتفريد Liutfrid (٣) : ومم ليوتفريد هذا بالبندقية فى طريقه من ماينس إلى القسطنطينية ، لذلك يمكن التسليم بأن منتجات الشرق كانت تتبع نفس الطريق فى ذهابها من القسطنطينية إلى ماينس . ولا يسعنا أن ندخل فى مزيد من التفاصيل فى هذا الموضوع . وفى العصر الوسيط كان على المسافر الذى يريد الذهاب من إيطاليا إلى ألمانيا أن يتبع بوجه عام الطريق الرومانى القديم المحاذى لبحيرة « كوم » (كوني) Côte (٤) ويقطع خط الجمارك عند كيافينيا Chiavenna (٥) ، ويجتاز نهر بريجاليا Bregaglia ، وممر سبتيمر Septimer (٦) ويمر بكوار Coire وينتهى عند بحيرة كونستانس Constance وهناك تطوّر نشاط تجارى منذ زمن مبكر فى موقعين : رورشاخ Rorschach فى الجنوب الغربى ، وكونستانس فى الطرف العلوى من البحيرة (٧) ، وكانت مدن بحيرة كونستانس طوال العصر الوسيط كله تغذى علاقات نشيطة مع مدن الراين العلوى والأوسط .

بقى علينا أن نلقى نظرة خاطفة على جنوب شرقى ألمانيا ، ونبحث عما إذا لم يكن هناك قبل الحروب الصليبية تيار تجارى بين الشرق الأدنى والدانوب . والمعروف أن شارلمان بدأ فى شق قناة بين التموهل Altmuehl ووردنيتز Rednitz وهو مشروع لم يتم ، ونسب إليه البعض رغبته فى تسهيل المواصلات بين الشرق والغرب . وفى العصر الذى بدأت فيه الأعمال ، كان يعد العدة لحملة جديدة ضد « الأبر » (الأفار Avars) ، وكان قد انتصر عليهم منذ قليل فى حملة أولى ،

(١) Froehn... dans les Mém. de l'Acad de St. Pétersb., Série VI; Sciences politiques II (1834) p. 87-99.

(٢) Gregor VII, p. 212.

(٣) Liutprandi antapodosis, dans Pertz, SS. III, 338.

(٤) Annal. Fuld., dans Pertz, ss. I, 412.

(٥) Mohr, Cod. dipl. I, 97 et s.

(٦) Mohr, ibid, I, 58 et s., 155, 396 et s.

(٧) Neugart, Cod. dipl. Alamann, no. 729, 820.

ليس من شك فى أن رهبان سان جال St. Gall كانوا يستوردون من بحيرة كونستانس التوابل ويخلطونها ببنيزم ، والفلفل الذى يتبلون به الاسماك والصلصة .

ولكنه كان نصرا قصير الأمد لا يسمح له بالقضاء على هؤلاء الأعداء المرهوبين .
والنابت أن الامبراطور ربط النهرين بعناء صناعيه يقصد ضمان سرعه رليز
جيشه وسهولة نقل مؤنه . ومن المحتمل أن يكون قد فكر في تشجيع التجارة الى
جانب غرضه المباشر ، غير أنه من المبالغه أن ننسب الى هذا المشروع المدى البعيد
الذى أشرنا اليه قبلا (١) . كان شارلمان بالتأكيد واسع الأفق — وسوف نرى
ذلك فيما بعد — يدرك قيمة طريق يضع امبراطوريته على صلة بالشرق ، ولكنه
يدرك أيضا حقيقة الوضع السياسى للبلاد الواقعة على مجرى الدانوب الأدنى ،
ويعلم أنه لن يكون فى الامكان لزمن طويل اعداد خدمة منتظمة للبضائع على
هذا الطريق . وفى شمال الامبراطورية اليونانية كان بلغار الدانوب يحتلون
القطر كله ، ولا يمكن القول بأنهم كانوا على درجة متأخرة من المدنية لا تتيح
لهم الاشتغال بالتجارة بل انهم على العكس من ذلك كانوا كاخوانهم على حوض
الفلجا يحبون التجارة ، وقد أقاموا مع الاغريق منذ زمن موغل فى القدم علاقات
تنظمها معاهدات (٢) ، وكان فى القسطنطينية تجار من بنى جنسهم مستقرين
فى قواعد ثابتة ، وكانت أعمالهم مزدهرة لدرجة أثارت غيرة التجار الاغريق .
وفى أعقاب مجموعة من المؤامرات ، أجبروا على نقل متاجرهم الى سوق
ثانوية فى سالونيك ، وأدى هذا العمل الى اندلاع الحرب بين الملك البلغارى
سيميون والامبراطور لأون السادس (٣) . وكان يحتمل مع ذلك أن تسير الأمور
على هذا المنوال رغم الحروب الكثيرة التى كانت من وقت لآخر تقيم العراقيل
فى سبيل التجارة . غير أنه بصعود مجرى الدانوب ، يصل المرء الى سهول باتونيا
Pannonie التى كان يحتلها الافار (الأبر) ، وهم شعب من الفرسان الرحل
احتفظوا حتى النهاية بطباعهم الغليظة (٤) ، وكدسوا كنوزا هائلة فى قصرهم
الدائرى الحصين ، ولم تكن التجارة هى التى زودتهم بهذه الكنوز ، ولكنها كانت
ثمرة ما كانوا يقتربونه من قطع الطرق وفرض الجزى على جيرانهم الضعاف .

(١) فى طعة حديثة ، أيد السيد اناما ستيرنج بقوة هذا الفرض :
Mr. V. Inama Sternegg, (Deutsche Wissenschaftsgesch. I 435 et s.)
وفى رأى السيد سيمسون أن الامبراطور لم يكن يتقبا سوى تسهيل العمليات العسكرية :
— Simon (Jahrbücher des deutschen Reichs unter Karl d. Gr. II, 55).
ويسلم كل من Riezler, Waitz أن القناة كانت ، الى جانب الفرض العسكرى منها ، تستخدم
لنقل البضائع بوجه عام .
(٢) Théophanes, éd. Bonn, 1, 775.
كان وسطاؤهم التجار اليونانيون فى المدن الساحلية ببنطس Pont التى انتزعها
الملوك البلغار من الأباطرة البيزنطيين ، مثل : Anchiales, Mesembria
(٣) Théophanes contin. p. 357; Leo Grammaticus, p. 266 et s.;
Georgéus Hamartolus, éd. Muralt, p. 771; Théodosius Melitenus, éd.
Tufel (Monum. saecul. acad. Monac. 1859) p. 186; Cedren II, 254.
Bûdinger, Oesterr. Geschichte I, p. 61 et ss. 131.
(٤)

وتضطرنا المعلومات التي تزودنا بها المصادر الجديرة بالثقة الى أن نعتبر هؤلاء القوم غير قادرين على مزاولة التجارة . وثمة رواية نقلها البلغار الى الاغريق ، وسجلها سويداس Suidas (١) ، وهي ذات سمة أسطورية ، تنسب ضياع هؤلاء القوم الى عدة أسباب منها أنهم أصبحوا جميعا تجارا . ويلاحظ المؤلف أن أخلاقهم فسدت ، وجعلوا يغشون بعضهم بعضا مما يدل بوضوح على أن الأمر هنا لم يكن تجارة دولية لبضائع الشرق فيها مكانتها ، ولكنه مجرد تجارة بين أفراد الآفار ، موضوعها الغنائم . وفي عام ٧٩٦ غزا جيش الفرنجة بلادهم وأعمل فيها الخراب والدمار ، وجنى منها غنائم هائلة ، من ذهب وفضة وحلي ، غير أنه ليس ثمة شيء من هذه الأشياء يدل حتما وتبعاً لمصدره على وجود علاقات تجارية مع الشرق . فالمعاطف الحريرية التي أشار اليها المؤلف كانت على الأرجح جزءاً من الجزية التي يدفعها لهم الأباطرة البيزنطيون (٢) . وبعد هذه الكارثة انهار الآفار سريعاً . وفي مطلع القرن التاسع ، ارتاد بعض التجار الألمان من راتسبون Ratisbonne ، ولورخ Lorch بلادهم (٣) ، ومن المشكوك فيه أن يكونوا قد وجدوا فيها شيئاً من منتجات الشرق . ولم يتحسن الحال من الوجهة التجارية حين استقر المجر في أواخر القرن نفسه في سهول بانوينا ، اذا كان لنا أن نتحدث عن الاستقرار بالنسبة الى شعب اجتاح كعاصفة هوجاء نصف أوروبا ، وغطاها بالخرائب وجثث القتلى . كان المجر لا يعرفون أية مدنية ، ويجهلون كل شيء حتى الزراعة ، مرهوبين عن بعد ، وكأنهم آفة مخيفة ، ولم يكن عندهم ذكاء تجارى (٤) أو أى ميل للتجارة ، أو أية فكرة للعمل وسطاء في التجارة بين الشرق والغرب . ولم يتسن للتجارة العالمية أن تشق لها طريقاً عبر البلاد التي يرويها الدانوب والتايس الا حين انجز الملك القديس اسطفان St. Etienne (توفي عام ١٠٣٨) العمل الحضارى العظيم الذى خلده اسمه : فكان لترحيبه بقدوم الأجانب من كل أمة وطبقة ليستعين بهم فى نشر الحضارة فى شعبه ، الصرامة التى استخدمها فى قمع اللصوصية ، والسهر على أمن الطرق أثره فى تشجيع الحجاج على المرور بهنغاريا فى طريقهم الى القدس ، ومن ذلك الحين كان الحجاج القادمون من فرنسا

Ed. Bernhardt, I, p. 1017.

(١)

Sinson, op. cit. 11, 104, 106 et s. 123 et s.

(٢)

Capitulaire Caroli Magni, in Theodori villa promulgatum, Dec. 805 dans Pertz, Leges, I, 133.

(٣)

(٤) زعم البعض أنه فى عهد الملك الميروفانجى داجوبر Dagobert رأى بعض المجر

فى أسواق ديس بالقرب من باريس ، ولكن هذا خطأ ترتب على قراءة غير صحيحة .

— Pardessus, Diplomata, Chartoe, etc. II, 4.

انظر أيضا :

وايطاليا يفضلون هذا الطريق لأنه يجنبهم السفر عن طريق البحر (١) . وليس هناك ما يمنع من الاعتقاد بأن هذه البواعت نفسها كانت تحمل التجار الاجانب على الاكثار من زيارة البلد . وثمة فقرة في قانون بتاريخ ١٠٩٢ (٢) تثبت انه كان في هنغاريا في تلك الآونة مسلمون مقيمون بها اقامه دائمة ، ويتعيشون من تجارتهم . ومن جهة أخرى استفاد التجار المجريون من العلاقات التي وتفتها الملك القديس اسطفان مع مختلف البلاد الأوروبية . ويبدو أنه قد نسباً في القسطنطينية في ذلك العصر مستعمرة هنغارية ، لأن الكنيسة الفخمة التي شيدها هناك الملك القديس اسطفان لم تكن بالتأكيد مجرد صرح رائع يشهد بالبذخ (٣) . وقد يخطر على البال أن نوعاً من الزهو لم يكن بعيداً عن الشعور الذي ألهم الملك القديس فكرة اشهار اسمه بتشييد منشآت مقدسة في المراكز المسيحية الرئيسية ، ولا يمكن انكار أن بناء كنيسة القسطنطينية كان تكملة عملية للمنشآت المماثلة التي أقيمت في روما والقدس : لقد أراد أن يكفل للهنگاريين الذين يؤدون الحج في موطن المسيحية أو في الأماكن المقدسة وسائل للتنوير ومأوى مضيافاً في آن واحد ، ومن ثم كان تشييد كنيسة رسمية في روما ، وديرا في القدس . ولكن القسطنطينية لم تكن مكاناً يقصده الهنگاريون للحج ، بل كانت على الأكثر مرحلة في الطريق الى القدس . فلاى غرض اذن كان بناء كنيسة في تلك المدينة ، ان لم يكن للوفاء بالمطالب الدينية لدى التجار المقيمين بها ؟ لسوء الحظ ، ساءت الأحوال بعد وفاة القديس اسطفان ، وأدت المنافسات بين الطامعين في خلافته ، والحروب المتواترة ضد الألمان الى عوده المملكة الى حالة الفوضى والوثنية القديمة بعض الوقت (٤) . وكان على الملك أندريه André (١٠٤٥ - ١٠٦٠) والملك لادسلاس Ladislav (١٠٧٧ - ١٠٩٥) أن يعيدا الأمن الداخلى والنظام الى نصابهما وثمة واقعة تعطينا فكرة عن اهتمام

(١) Glaber, Rodulfus hist., éd. Pertz ss. VII, 62; Guillaume, comte d'Angoulême 1026-1027, d'après la relation d'Adhémar, dans Pertz ss. IV, 145 et s.; enfin, en 1059-1059, le fameux annaliste Lambert von Hersfeld ; voy. ses Annales dans Pertz, ss. V, 159, 160.

(٢) Ladislav regis decretum I, cap. 9, dans Endlicher, Monumenta Arpadiana, p. 327.

(٣) Vita major Stephani regis, cap. 12, dans Pertz ss. XI, 235.

(٤) لدينا اثبات لا يمكن انكاره للعلاقات القائمة بين هنغاريا والقسطنطينية ، وبينها وبين العالم العربي ، ذلك هو حلة القداس (ثوب بلا كمين) التي منحتها في عام ١٠٣١ الملكة جيزيل زوجة القديس اسطفان لكنيسة سانت ماري ستالفسنبورج Stalwisenbourg والتي ما زالت محفوظة في أوفن Ofen بمثابة معطف للتويج ، وهى من حرير أرجسوانى ، بيزنطية التصميم ، موشاة بخيوط ذهبية بيد جيزيل نفسها ، ثم التحرير البنفسجى الضارب الى الحمرة المبطن للياقة ، وعليه رسوم لحيوانات غريبة ، ورسوم الهلال والنجوم ذات الرؤوس السبعة ، وكل ذلك يشهد باصلها العربى .

المسافرين قبل هذين الملكين بتجنب اقليم هنغاريا ، وذلك أن الملك أندريه نفسه قد نارهه التسك في نوايا جماعة من الحجاج عبروا مملكته في عام ١٠٥٤ بقيادة ليتبرت Lietbert أسقف كامبرى ، وذلك كما يقول كاتب سيرة ليتبرت لانه « لم يكن أحد تقريبا يسلك هذا الطريق » (١) . ولكي نوجز في بضع كلمات تاريخ الهنغاريين قبل الحروب الصليبية ، نقول اننا نعلم الان أنه في غضون القرن الأول الذي أعقب استقرارهم على ضفاف الدانوب ، لم يكن هناك فترة طويلة واحدة من الهدوء تسمح للتجار الأجانب بالقيام برحلات متتابعة عبر البلد ومعهم منتجات بيزنطية أو شرقية ، كذلك لم تكن طباعهم ترضخ لمقتضيات هذه التجارة العابرة ، ولا يمكن أن تقوم لهذه التجارة قائمة الا في ظل نظام مستتب ، ولم يستقر النظام الا في القرن الحادى عشر . وفي حوالى منتصف هذا القرن اضطربت البلاد من جديد بمجموعة من القلاقل الداخلية والخارجية تضر حتما بنمو التجارة . وليس من النادر أن نجد بعض الكتاب يستبيحون لأنفسهم ، في مجال تاريخ التجارة أن يؤكدوا أن العلاقات بين ألمانيا وإيطاليا كانت قبل الحروب الصليبية غير نشيطة ، وأن ألمانيا كانت تتلقى منتجات الشرق عن طريق الدانوب . هذا الرأى لا يصمد أمام المناقشة . وعلى أية حال فاني لا أستطيع أن أجد في هذا العصر مجموعة من السنوات ، مهما كانت قليلة . سمحت فيها الحالة الداخلية لهنغاريا بتعزيز هذه التجارة العابرة . ولست أنكر أنه قد تبدت هنا وهناك لحظات كان من المحتمل أن تجرى فيها بعض المحاولات في هذا الاتجاه ، ولكنى أؤكد أن تجارة الشرق الأدنى لم تسلك أبدا هذا الطريق بصورة مستمرة في العصر الذى نتحدث عنه .

ومع ذلك كان هناك طرق أخرى من الشمال الى نهر الدانوب عبر البلاد السلافية ، تنتهى الى الاقليم الألماني دون أن تمر بالاقليم الهنغارى ، ولدينا وثيقة كتبت في رافلستتن Raffelstetten بين عام ٩٠٣ و ٩٠٧ تعرفنا بالنظام الجمركى في القسم من الدانوب الواقع بين باسان Passan وموترن Mautern (٢) ونرى في هذه الوثيقة أن الألمان كانوا يترددون على أسواق جيرانهم سلاف موراquia ، وأن التجار السلافيين القادمين من روسيا وبوهيميا كانوا يملكون بمكاتب الجمارك المتناثرة على طول نهر الدانوب . يقول النص :
Sclavi qui de Rugis vel de Bocmanis mercandi causa exeunt

ويتطلب هذا النص بعض الايضاح . فال Rugi هم في رأى دوملر Duemmler ودودك Dudik مورافيون ، وهم في رأى بودنجر Buedinger روجيون Rugiens من البحر الباطى ، وهم روس في رأى فيتز Waitz وكيميل Koemmel ، وريزler Riezler . ويبدو لي أنه من غير المقبول أن يذكر

Vita Lietberti, Acta SS. Boll. 5 Juin, p. 507. (١)

Pertz, Legg. III, 480 et ss.; Urkundenbuch des Landes ob der Enns, II, 54. (٢)

المورافيون في وثيقة واحدة تارة باسم « مورافيون » (Moravi, Marahi) وتارة باسم آخر (روجيون Rugiens) ولا أظن أيضا أن أحدا في مستهل القرن العاشر وعلى ضفاف الدانوب كان يحتفظ بذكرى ظهور الروجيين ظهورا عابرا في عصر الغزوات الكبرى ، كما لا أظن أن أحدا أطلق على المورافيين اسم هذه العشيرة القديمة التي ربما صاروا خلفاءها على الحوض المتوسط لنهر الدانوب وسواحل البحر البلطى بعيدة جدا بحيث لا يتيح المجال هنا للحديث عن الروجيين الذين أطلقوا اسمهم على جزيرة Ruegen . غير أنه لا يبدو لي مستحيلا أن يكون الروس قد ظهوروا كثيرا على ضفاف الدانوب ، وفي تكملة رجينو Regino (إضافة في ٩٦٠ - ٩٦٢) ، ذكروا بالذات باسم روجي Rugi . فهل كان هؤلاء التجار السلاف القادمين من روسيا يحضرون معهم منتجات الشرق ؟ الاجابة على هذا بالنفي ، على الأقل تصديقا لما ورد بهذه الوثيقة ، لأن المؤلف لا يذكر سوى الخيل والعبيد والشمع الذي هو من أكثر المنتجات وفرة عند السلاف وهم من كبار مربى النحل .

وعلى هذا لم تكن الأقسام الألمانية من حوض الدانوب تتلقى أيًا من منتجات الشرق عن طريق البلاد السلافية ، وتتلقى القليل جدا منها عن طريق هنغاريا ، وكان الجزء الأكبر من هذه المنتجات يصل من الجنوب عن طريق إيطاليا . ولم تزل الطرق القديمة التي شقها الرومان عبر جبال الألب موجودة من ناحية التيرول وكارنثيا ، وكذا من ناحية سويسرا ، لحسن الحظ لم يستقر على هذا الطريق الطويل أي من العشائر الهمجية الرحالة التي يمكن أن تعرقل التجارة أو تقضى عليها تماما . وبالحق بعض المؤرخين في هذا الأمر إلى حد ادعائهم بأن الانقراض التي تخلفت عن جماعة من قدامى التجار الرومانيين ظلت محفوظة في راتسبون Ratisbonne حتى منتصف العصر الوسيط (١) ، ولكن بامعان النظر ، يتبين أن هذه الجماعة ليست سوى فرد واحد من أصل روماني ، يحس اسما ألمانيا ، ويعيش في القرن التاسع ، ونصادف أمثاله من الأصل نفسه هنا وهناك ، في جنوب ألمانيا ، ولكن بين سكان الريف أكثر من سكان المدن (٢) . ونجد في بعض وثائق القرون التالية شارعا من شوارع راتسبون المذكورا باسم inter Latinos وبالألمانية Walhenggasse (Gasse der Woelschen) ، والجدير بالملاحظة أن هذا الشارع موجود في المدينة الجديدة وأن كلمة Vilchov لا تشير إلى نواة من الرومان القدامى مندمجة بالطبقة البورجوازية ، ولكن إلى عدد من أسر التجار الذين يتكلمون باللغة الرومانية أو الإيطالية أو الفرنسية ، آية ذلك أن تسمية inter Latinos قد استبدل بها في إحدى هذه الوثائق عبارة

Gemeiner, Ursprung der Stadt Regensburg, p. 22, 47, 54. (١)

Watz, Deutsche Verfassungsgeschichte, II; 177 et s (٢)

inter Gallicos (١) • نضيف الى ذلك انه اذا ثبت أن الذين كانوا يزاولون التجارة بين إيطاليا وراتسبون لم يكونوا تجارا من أصل روماني ، فان هذه التجارة كانت مع ذلك حقيقة لا مرأى فيها • فمتبعا لاحدى المانورات النابتة ، كان أهالى راتسبون هم أول من نردد على فينيسيا (البندقية) من الألمان لأعمال تجارية : ولا بد أن هذه المانورة قد نبعت من بعض الحقائق • ويبدو كذلك أنه منذ بداية القرن العاشر ، كانت مدينة أوجزبرج تقيم علاقات تجارية مع إيطاليا وتتلقى منها منتجات شرقية • ترى من أى طريق جاءت أقمشة « صور » الأرجوانية التى أهداها ادالبيرون Adalbéron أسقف أوجزبرج عام ٩٠٨ الى دير سنت جال St. Gall (٢) ، ان لم يكن عن طريق إيطاليا أو بالراجح فينيسيا ؟ وكان من المعروف لدى الكافة فى هذا العصر أن الألمان يأخذون من إيطاليا منسوجاتهم الحريرية وتوابلهم •

٥ - بريطانيا العظمى

لم تكن بريطانيا فى الفترة التى سبقت الحروب الصليبية منقطعة الصلة بالشرق كل الانقطاع ، وكان الاسكندنافيون من جهة والألمان من جهة أخرى وسطاءها « فى التجارة » • وبحفر الأرض ، هنا وهناك ، فى انجلترا وايرلندا تكتشف نقود شرقية ، أحيانا مع عقود أو حل فضية أخرى ، دليلا على أن تجارة الشرق الأدنى كانت تسلك طريق الشمال لتمد نشاطها الى هناك • والواقع أن هذه النقود لا يمكن أن تصل هناك الا بعد أن تجتاز اسكندنافيا فى السفن الاسكندنافية التى ترتاد سواحل بحر الشمال بنفس السهولة التى تعبر بها السفن البحر البلطى ، والتى تجذب الى بريطانيا العظمى المنشآت الضخمة التى كان يبننها النورمانديون • وكان للبحرية الاسكندنافية التفوق فى بحر الشمال ، وبخاصة فى عصر حملات الفيكنج حتى لم يبق للانجليز السكسونيين أى مجال للاسهام فى التجارة اسهاما نشيطا • وقد عثر فى الحفائر التى أجريت بالبلاد الاسكندنافية على كميات ضخمة من النقود الانجلوسكسونية ، دلالة على وجود تجارة نشيطة جدا كان للاسكندنافيين حرية التصدير فيها • ولما كانت النقود موجودة غالبا فى السويد ، وبنوع خاص فى جزيرتى أولاند وجتلاند (٣) ، فانا نستنتج من هذه الظاهرة أن الاسكندنافيين الشرقيين هم

Gemeiner, op. cit., p. 22.

(١)

الفضل فى ايضاح أوجه الخطأ فى هذه الاخبار القديمة •

Hegl

كان لهيجل

Trudp Neugart, Cod dipl. Alamann, no. 667.

(٢)

Hilderbrand, Das heidnische Zeitalter in Schweden, p. 184.

(٣)

بالأخص الذين كانوا يزاولون التجارة مع الانجليز السكسونيين ، وهم الذين كانوا على صلة بروسيا ، وعن طريقها بالشرق .

ومن جهة أخرى كان سكان ضفاف الأنهار التي نصب في القسم الجنوبي من بحر الشمال بحكم موقعهم هذا يميلون بطبيعة الحال الى نوثيق العلاقات مع انجلترا . وأقدم وثيقة تثبت وجود تجار المان في انجلترا هي قانون من لندن يرجع الى عهد الملك اينلرد Ethelred (٩٧٨ - ١٠١٦) (١) ففي نظير الامتياز الممنوح لهؤلاء الألمان التجار بمزاولة أعمالهم في سوق لندن ، كان عليهم أن يدفعوا مرتين في السنة ، في عيد الميلاد وعيد القيامة قطعتين من جوخ رمادى ، وقطعة من جوخ بنى ، وأربعة أرطال من الفلفل ، وخمسة أزواج من القفازات ، وبرميلين صغيرين من الخل . وكثيرا ما نجد في العصر الوسيط كمية معينة من الفلفل مفروضة كأتاوة عينية على التجار أو سواهم من الأفراد . ومما يسترعى الاهتمام التسليم في عصر مبكر كهذا العصر بأنه من المعتاد أن يكون لدى التجار الألمان لفلفل في مخازنهم . وليس في وسعنا أن نفترض أنهم لم يكونوا يستوردون الى انجلترا الا الكمية الضرورية من الفلفل لأداء الضريبة ، ومن ثم فليس ثمة خطورة في التسليم بأنهم اعتادوا أن يستوردوا الى لندن الفلفل والتوابل بوجه عام . ولسنا نملك بخصوص المدن التي كان يأتى منها هؤلاء التجار الألمان سوى بعض التخمينات، وأكبر احتمال أنهم أتوا من تيبيل Thiel على نهر الوال Waal ، ودفنتر على نهر ايسل Deventer sur l'Ussel ، ولييج على ميز Liège sur la Meuse وكولوني على الراين ، وبريمن على الفيزر Weser (٢) وقد رأينا أن ما ينس كانت من قبل ، وفي هذا العصر مستودعا كبيرا للتوابل . هناك اذن ما يبرر الاعتقاد بأن توابل الشرق كانت تشحن في السفن من نهر الراين في طريقها الى انجلترا .

وفي غير ذلك ، كان ملوك انجلترا وكبار رجال الكنيسة الانجليزية ، حين يذهبون الى روما ، يحضرون معهم عند عودتهم أقمشة بيزنطية الأصل اشتروها (٤) ، أو تلقوها كهدايا .

(١) Worsae, Dis Dänen und Nordmänner in England, Schottland,

und Irland, trad. allem. p. Meissner (Leipzig, 1852) p. 67-71.

(٢) Ancient laws and institutes of England, ed. Thorpe, p. 127.

Hansisches Urkundenb., I, no. 2.

(٣) Lappenberg, Urkundl. Geschichte des hansischen Stahlhofs in

London, p. 5 ; Hirsch, Kaiser Heinrich II, p. 346 et s.

(٤) Inguphus, dans Fell, Hist angl. script., I, 60; Beda, Hist., abbat

Wiremith, dans son Hist. eccl., éd. Smith (Cantabr. 1722), p. 297.

٦ - فرنسا

رأينا أنه قد توطد بين فرنسا الميروفنجية ومسيحيي مصر وسوريا تجارة نشيطة جدا . وكان سكان شواطئ البحر المتوسط قد اعتادوا هذه الصلات ، ولم تبطلها الفتوحات العربية . ومع ذلك فمن المحتمل أنهم كفوا منذ الفترات الأولى من العصر الميروفنجي عن تلقي خمور غزة وصربتا Sarepta (صيدا) (١) وكان هناك لذلك باعث آخر ؟ فالعرب كانوا في حميتهم الدينية الأولى قد حرموا زراعة الكروم في الأرض السورية ، ولكن بعد ذلك تلقت فرنسا ، كما كانت تتلقى من قبل المنتجات الصادرة من البلاد العربية أو التي تمر بها . وتبعاً لوثيقة رسمية من الملك الميروفنجي شلدريك الثاني Childéric II عام ٧١٦ (٢) ، كان دير كوربي Corbie يحصل من إيرادات جمارك فوس Fos دخلاً سنوياً يشمل ، ضمن أشياء أخرى فلغلا ، وقرنفلا ، وقرفة ، وناردين وتمرا وورقا Carta tomī (٣) . وكانت قناة فوس القديمة تيسر بنوع خاص اتصالات المدن الواقعة على المجرى السفلي لنهر الرون بالبحر المتوسط (٤) يمكن إذن أن نستنتج مما قلناه آنفاً أن منتجات آسيا وأفريقيا في مستهل القرن الثامن كانت تصل إلى دولتي الرون في سفن كانت ترسل على الأرجح من مدن جنوب فرنسا . وفي هذا العصر لم تكن التوابل نادرة الوجود في فرنسا ، ويتضح ذلك من مرسوم صادر من الملوك الميروفنجيين على أن لموظفي المملكة المسافرين في مهام خاصة بوظائفهم الحق ، في كل أنحاء البلد ، في التمتع بكل رعاية ، وفضلاً عن ذلك في الحصول على كمية من السلع الكمالية لتبجيل مأكولاتهم ومشروباتهم (٥) . من هذا نرى أن كبار رجال المملكة كانت لديهم هذه العادة ، وكان في الامكان تزويدهم بالتوابل من جهات غير المدن الكبرى .

(١) Sidon. Apoll. Carm., XVII, 15; Grég. de Tours, VII, 29.

(٢) Pardessus, Diplomata, Chartae etc., 11, 309.

(٣) هذه ورقة بردى مصرية ، يسميها العرب « قرطاس » ، وبعد الفتح بقيت صناعة ورق الردى في أيدي عمال مسيحيين ، ودهش الفرييون الذين استعملوا هذا الورق حين اكتشفوا وهم يفحصون النقوش هذه الكلمات : « الأب ، الابن ، وروح القدس » ، ولم تخف هذه الكتابة إلا في بداية القرن الثامن ، واستبدل بها شعار إسلامي .

انظر — Sauvaire, Matériaux pour servir à l'hist de la numism et de la métrol musulm. Journ. asiat. Série VII, T. XIV (1879), p. 458 et ss. Desjardius, Géogr. de la Caule romaine, I, 199 et ss.

(٤) كذلك فإن موقع فوس (les Marligues) Fos مبين على الخريطة .

(٥) Formulæ Marculfi, lib. I, cap. 11 dans les Mon. Germ. hist. legum, sectio V, p. 49 : Pardessus, dipl. I, c.

وانا لنجد التوابل في العصر الكاروفنجي مستصلحة بقدر أكبر اما لتبيل الأطعمة (١) أو لتطيب النبيذ ، أو كعناصر في تركيب الأدوية (٢) . ومع أن هذه التوابل كانت مرفعة الثمن للغاية (٣) . فان الكثير من الناس ، وبخاصة رجال الكنيسة كانوا يستمتعون بها ، ولم يكن الأطباء يترددون في ادخالها في عقاقيرهم حتى تزيد فعاليتها .

وفي عهد شارلمان تضاعفت العلاقات بين فرنسا والشرق . وكان اتساع امبراطوريته ، والتسدة التي استخدمها لحفظ الأمن والنظام في جميع أنحائها ، واهتمامه بنمو الرفاهية العامة من العوامل المشجعة للتجارة . واذا كان هو نفسه قد أعرض عن صنوف الترف في الطعام والشراب والكساء (٤) ، فإنه كان يقدر الأشياء الجميلة التي يمكن أن توفرها التجارة . يحكى أنه كان يتحدث ذات يوم مع سفير الامبراطورية الشرقية فأبدى له أسفه الشديد من أن الامبراطوريتين يفصلهما البحر ، الأمر الذي يحول بينه وبين الاشتراك مع الاغريق في ثروات الشرق (٥) . واذا كان هذا هو فكره ، فمن الطبيعي أن يجهد اقامة العلاقات مع الشرق الأدنى . والمعروف أنه أول من بعث السفراء الى الخليفة هارون الرشيد ، وأن الخليفة أجابه مرحبا بصادقته (٦) . وتوثقت بين الأميرين علاقات ودية قائمة على تقدير متبادل ، هذا في الوقت الذي كان فيه شارلمان يحارب عرب أسبانيا . غير أن هذا الموقف لم يضع العراقيل في الصلات القائمة بين الأميرين ، بل انه كان في صالحها ، لأن قادة عرب أسبانيا لم يكونوا سوى متمردين في نظر خليفة بغداد . وكان الغرض من المفاوضات التي كلف باجرائها مبعوثو شارلمان في بلاط الخليفة هو بالتأكيد الأماكن المقدسة في بيت المقدس ، وحماية الحجاج . ومنذ أن توج شارلمان امبراطورا اعتبر نفسه زعيم المسيحية ، ومن واجبه بهذه الصفة أن يهتم بمصير

Cibi pigmentati, «Theodulf, episc. Aurelian ad, Carolum regem, V, (١)

198, éd. Dümmler, p. 4 et ss.

Alcuin, Epp. éd. Jaffé, dans la Biblioth. rer. german., VI, 593; (٢)

Constitutio Ansegisi, abb., dans Pertz, ss., II, 300.

« Indica pigmentorum genera magno emenda pretio » Alcuin, ib. (٣)
628 et s.

Einhardi vita Caroli cap. 23, 24, dans Pertz ss. II, 455 et s; Monachus S. Gall., ib. 761. (٤)

Monach. S. Gall. I, c. p. 743. (٥)

« لا يفكر شارلمان بالمره في نجارة برية بين بلاد نائية »

(٦) كانت هدايا الخليفة الى الامبراطور تشمل حيوانات نادرة (فيلة ووردو) ، وقطعا ميكانيكية ، وآلات موسيقية ، ونجف ، وأقمشة حريرية ، وخيمة بستائرهما ، وأدوية ، وتوابل ، وعطورا (بلسما ، وناردين) .

مسيحيي الشرق ، وبأولئك الذين يسافرون الى هناك للحج (١) . وفي عام ٧٩٩
أقر بطريرك القدس آراءه بأن اعترف له علنا بحق الرعاية على المدينة والاماكن
المقدسة ، وبعد قليل أقره الخليفة بنوع ما عاهلا على البلد ، بقى أن نوضح
كيف استطاع شارلمان ، بلا أسطول خاص أن يعزز مطالبه في بلد بعيد الى
هذا الحد ، ولكن المسلمين كانت لديهم فكرة عالية عن قدرته ويعلمون علاقته
الودية بالخلفاء ، وكان هذا كافيا ليقافهم عند حدهم : وتمتع كل من الحجاج
والتجار بالأمن والسلام ، وجمع الكثير من المسافرين في أشخاصهم صفة الحاج
والتاجر ، وأقام لهم شارلمان مستشفى في القدس ، وكان هذا عملا عظيما من
أعمال الهر ، وقبالة هذا المستشفى سوق مباح لكل انسان أن يعرض فيها
سلعة في مقابل أجر قدره قطعتان من الذهب في السنة (٢) . فضلا عن ذلك
لم تكن المصالح التجارية في نظر الامبراطورية الا في المرتبة الثانية بين كل
ما أذاه في الشرق ، ومن المشكوك فيه أن يكون لهذه المصالح أى تأثير في
اختيار الهدايا التي كان يرسلها الى الخليفة . ويذكر راهب القديس جال St. Gall
أنه كان من بين هذه الهدايا أقمشة صوفية من فريزية Frise من أصناف
والوان متنوعة ، وأن الامبراطور يعلم أنها نادرة وتمينة في الشرق (٣) . حقا ،
لا يضيف المؤرخ هذه الملحوظة الا ليثبت أنه في الامكان القول بأن قيمة هذه
الأقمشة الصوفية تمثل هدية تسر الخليفة ، ورلها يتهمنا البعض بأننا نبالغ
في القراءة بين السطور حين نسبنا الى الامبراطور الرغبة في تشجيع تصريف
أقمشة « فريزية » الصوفية في الشرق بأن يجعلها أولا مقبولة في بلاط
الخليفة (٤) . وعلى أية حال فان ملاحظة المؤرخ تعرفنا بأنه كان في الامكان
في ذلك العصر القديم تصدير بعض المنتجات المصنوعة في الغرب الى الشرق ،
وأن تحظى هناك بالتقدير . ومن المعروف أن التجار الفريزيين كانوا يجوبون
ألمانيا وفرنسا وانجلترا ، ولكن لا ينبغي لنا بالمرّة أن نتساءل عما اذا كانوا

(١) يكفي اثباتنا لذلك أن نذكر المونة التي أرسلها الى المسيحيين الفقراء في القدس ،
والاسكندرية ، والقبروان . انظر Einhardi, vita Caroli, cap. 27; ibid. p. 457.
— Annales Laurissenses majores, ad an. 800, dans Pertz, ss. انظر أيضا I, 186.

(٢) Bernardus monachus francus, dans Tobler et Molinier, Itinera hierosolymitana, I, p. 314.

أخذ صاحب القصيدة البطولية الفرنسية القديمة بشأن رحلة شارلمان الى القدس والقسطنطينية
أوصافه للقدس من « أخبار الحجاج » في القرن الحادي عشر ، ويتحدث عن هذه السوق التي
يتردد عليها تجار يتكلمون لغات عديدة ، ويستوردون أقمشة حريرية وصوفية ثمينة ، وقرقة ،
فلغلا ، وتوابل ، ونباتات طبية . واذا كان لنا أن نستشهد بشهادة شاعر ، فان هذه الفقرة
تثبت أن القدس كانت على علاقة بالبلاد النائية جدا بآسيا ، انظر .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٥٢

— L'éd. de ce poème par Koschwitz, 1883, p. 13, V. 209-212.

Gfrörer, Gregor VII, vol. VII, p. 200 ; Sugenheim, Geschichte (٢)
des deutschen Volks, I, 124.

يحملون بأنفسهم الى الشرق أقمشتهم الصوفية اذا كانت مرسيليا أو البندقية
تقوم لهم بدور الوساطة ، فهذه أسئلة لا قبل لنا بالإجابة عليها .

وليس من شك في أن التفاهم السلمى والودى الذى استقر بين شارلمان
والعاهل الشرقى كان حقيقيا بأن يعزز تقدم البحرية التجارية في الغرب (١) ،
غير أنه لا يصح لنا أن نتصور أنه قد أعد في ذلك العصر خدمات بحرية منتظمة
بين ثغور جنوب فرنسا وبين الشرق الأدنى وثمة كاتب من الدرجة الثانية
ادعى في قصة محلية (٢) أن البرجوازيين في مدينة ليون كانوا يجتمعون منذ
عام ٨١٣ مع برجوازيي مرسيليا وأفينيون ، ويسافرون معهم الى الاسكندرية
مرتين كل سنة ويعودون منها ومعهم توابل الهند وعطور بلاد العرب ، وتنتشر
هذه السلع بالتالى في فرنسا وألمانيا عن طريق نهر الرون وسائر الطرق
المائية ، وهذا زعم باطل ، لم يقبله دوجيني Deguignes (٣) الا بتحفظ ،
ورفضه هيرين Heeren بحق في مجال الحكاية الخرافية ، ولم أكن أعتقد أنه
من الواجب التنويه به لولا أن عالما معروفا ذكره أخيرا من جديد (٤) . ولم
تنظم مثل هذه الخدمات الا في عصر الحروب الصليبية . علاوة على ذلك فان
من بين المدن الثلاث المذكورة بعاليه ، مرسيليا وليون وأفينيون ، كانت
الأولى هي أكثرهن التى تكفل خدمة بحرية منتظمة مع الاسكندرية ، ولم يكن
ذلك في العصر الكارلوفنجي ، وانما فقط بعد عدة قرون .

وفى عهد خلفاء شارلمان انفتح لفرنسا عصر مليء بالكوارث . ففى حين
راح النورمان ينهبون ويدمرون السواحل الشمالية ، وتوغلوا فى الأنهار التى
تروى هذه المناطق ، ظهر قراصنة عرب على سواحل بروفانس واستولوا على
حصن فراكسينتوم Fraxinetum (la Garde Frainet) ومن هذا الموقع الحصين
تقدموا فى داخل البلاد ينهبون ويخربون قرابة قرن من الزمان . وكان كل
حاج يجتاز جبال الألب ذاهبا الى روما عرضة للوقوع فى أيديهم ، وكل سفينة

(١) يبدو أن مدينة آرل Arles كان لها مزية توثيق العلاقات بالعرب ، وقد وجد بها الأسقف
ثيودلف دورليانز Théodulphe d'Orléans فى عام ٨١٢ تقودا عربية كميات كبيرة ، ولآلء من
الشرق ، وأصنافا مختلفة الألوان ، عربية الصنع . والمطلوب معرفة ما اذا كانت هذه النقود
والسلع تأتي من عرب الشرق أو من عرب اسبانيا ، الأمر الذى يبدو لي أكثر احتمالا . وعلى أية
حال كان يأتي من اسبانيا جلود قرطبة التى ذكرت مع سائر الأشياء . انظر فى ذلك :

— Theodulfi Epise, Aurel, versus contra judices, V, 171-174, 211 et s.
éd., Dümmler, 1, c, p. 498 et s.

Pollin de Lumina, Abrégé chronologique de l'histoire de Lyon : (٢)
Lyon 1767, p. 31.

Mém. de l'Acad. des Inscriptions, XXXVII, 475. (٣)

Peschel, Das Zeitalter der Entdeckungen, p. 8 ; en Saivator, Hist. (٤)
des échelles, du Levant, Paris 1857, p. 28.

تجروء على الخروج من أحد الثغور فى الجنوب الشرقى والابحار الى الشرق الأدنى تقع فى قبضتهم حتى قبل أن تصل الى أعالي البحر ، ذلك لأنهم كانوا يسيطرون على الجزر كلها تقريبا ، وأنشأوا أوكارا للقرصنة . ولم يكن من الصعب أن نعتقد فى هذه الظروف أن التجارة البحرية بين فرنسا والشرق الأدنى توقفت تماما ، لذلك كان الحجاج الفرنسيون الذين يريدون الذهاب الى القدس يفضلون الذهاب الى ايطاليا ، وركوب السفن من أحد موانئها ، وينجون بذلك من عرب الغرب .

ولا يبدو مع ذلك حتى فى هذه الفترة أن فرنسا قد انقطعت عنها تماما منتجات الشرق . فبقالو كامبريا Cambria مثلا كانوا يتزودون بوفرة من هذه المنتجات ، اذا كان صحيحا أن دير كورى Corie استطاع أن يحصل منهم على كل التوابل المبينة فى مذكرة مكتوبة على ما يبدو بين عام ٨٢٢ و ٩٨٦ .

والغالب أن تجارا ايطاليين هم الذين زودوا فرنسا بمنتجات الشرق ، أما باجتيازهم . هم أنفسهم البلد (١) ، واما بتسليمها الى باعة بالتجزئة ، من الفرنسيين . وقد ادعى البعض أنه كان فى ليموج فى بداية القرن الحادى عشر مستعمرة حقيقية للتجار البنادقة ، ولكن هذه الواقعة مشكوك فى صحتها ، ولا يعتمد أولئك الذين يرددونها الا على صحة كتاب لم يطبع ولم يعرف صاحبه ، يرجع الى عام ١٦٣٨ (٢) ، ويبحث فى « آثار ليموج »

٧ - ايطاليا

ليس هناك بلد فى أوروبا استورد منتجات الشرق بكميات ضخمة وأشكال شديدة التنوع مثلما فعلت ايطاليا ، ولذلك بواعث كثيرة : فهى أولا ، وبسبب موقعها الجغرافى كان لها صلات كثيرة مع الشرق ، وخاصة مع الامبراطورية البيزنطية ، وثانيا لأن الامبراطورية اليونانية كانت تملك ايطاليا السفلى ، ورافينا ، والبندقية ، وكان لهذا الجوار تأثير كبير فى العلاقات المتبادلة ، كما كانت هناك حركة ذهاب واياب مستمرة بين روما والقسطنطينية ودامت هذه العلاقات الودية حتى القرون الأولى من العصر الوسيط ، لم يعكرها شئ الا فيما بعد ، فى أعقاب المنازعات العقيدية ، والمنافسات الطبقية . وأخيرا راح البذخ فى الطقوس الدينية ينمو باطراد فى العاصمة الغنية ، عاصمة المسيحية الغربية . وكان لابد لاشباع هذا البذخ من أقمشة متألقة وكميات

Pardessus, Diplom., Chart. etc. II, p. 5.

(١)

Verneilh, L'architecture byzantine en France, p. 130 et s.

(٢)

كبيرة من العطور • الا أن الصناعة كانت متأخرة في العالم الجرمانى الرومانى ،
والتربة الأوروبية فقيرة لا تكفى لاشباع هذه المطالب •

لنتوقف قليلا عند هذه النقطة • ففي مستهل العصر الوسيط ، كانت
روما هى التى تتلقى وتستهلك القسم الأكبر من منتجات الشرق • ولا تشتهل
سير البابوات ، وبخاصة بابوات القرنين الثامن والتاسع (١) الا على القليل
من الأحداث التاريخية ، ولكنها على العكس من ذلك تزخر بمعلومات شديدة
الأهمية عن الموضوع الذى نبخته • والشئ الذى يحتل أكبر حيز فى هذه
السير هو كشف الهبات التى كان البابوات يمنحونها لمختلف الكنائس فى
روما ، من حليات ثمينة للقساوسة ، وأقمشة فاخرة ، وبسط ، وطنافس
لكسوة الحوائط والهيكل والعمد • وبالبحث فى هذه الكشف عن مصادر
الأقمشة نجد بها أحيانا أقمشة صنعت فى روما أو جاءت من أسبانيا
العربية (٢) ، الا أن العدد الأكبر منها خرج من أيدي صناع الاسكندرية
أو بيزنطة • ولما كانت الاسكندرية ، ومصر بوجه عام خاضعة لسيادة العرب ،
فانه من الراجح أن الكثير من النساجين أو المطرزين العرب كانوا يعملون من
أجل أبهة العقيدة المسيحية ، دون أن يدركوا ذلك • كانت هذه الأقمشة
والبسط بوجه عام مغطاة برسوم الاسود والقبيلة والنسور والدجاج والطاوس
والحيات الأسطورية ، والعنقاء (حيوان خرافي نصفه نسر ونصفه أسد) (٣) ،
والقارن (حيوان اسطورى بجسم حصان ، وله قرن وسط الجبين) (٤) الخ ،
منسوجة أو مطرزة ، ولكن لا جدوى من أن نحاول أن نجد فى كل ذلك رمزا
للمسيحية ، فلكل هذه الزخارف طابع شرقي غالب عند كل من العرب
والاغريق •

والأمر على خلاف ذلك تماما فى الأقمشة التى عليها صور الأشخاص ،
والتي تمثل أحداثا من التاريخ المقدس أو الأساطير أو الصلبان ، وفى هذه نجد
بداية أعمالا يونانية • ومن بين هذه الزخارف الكنسية نجد أمثلة من الأقمشة
القرمزية ، وليست الأسماء اليونانية المدونة على بعض المنسوجات نادرة
الوجود ، وهى من السمات الدالة على الأصل الشرقي • ولنتصور أيضا كميات
اللؤلؤ والأحجار الثمينة التى تغطى الأشياء المكرسة للعبادة ، من صلبان
وغيرها ، وكمية البخور والعطور التى تحرق أثناء القداس • وفى الامكان أن

Anastasius Bibliothecarius, dans Vignoli T. II et III. (١)

Ibid II, 231, 243-245, 248; Stragulum hispanicum de fundatum et
stauracin, dans la Vie de St. Ansegus, abbé de Fontenelle, par Mabillon,
Acta ss. Bened. saec IV, pars I, p. 634.

(٣) المترجم

(٤) المترجم

نتصور مقدار ما تستهلكه مدينة روما وحدها من منتجات الشرق ، وكان الغرب كله يحذو حذو روما فيما يختص بالطقوس الدينية ، كما أن الكثير من الكنائس كان يطلب منها الأقمشة التي تحتاج إليها ، وكان الكثير من الأساقفة ورؤساء الأديرة يستغلون أداءهم الحج في روما ليشتروا بها أنبياء يستعملونها في تجميل كنائسهم وأديرتهم . من ذلك أن بنوا Benoit رئيس دير ويرموث Wearmouth بانجلترا أحضر من روما قطعتين من قماش لا نظير لهما في جمال الصنع ، ولو أنهما استعملتا بعد ذلك لغرض خلاف الغرض الديني ، لأنه أعطاهما للملك اجفرايد Egfried نظير حصوله على قطعة كبيرة من الأرض (١) . كذلك كانت بعض الأشياء المكرسة للعبادة تنتشر في الكثير من الأحيان في الغرب على شكل هبات . من ذلك أن القديس بونيفاس St. Boniface قديس الألمان كان يتلقى من رجال الدين الرومان هدايا من عطور نادرة لتستعمل كبخور (٢) . وكان يخلط بالبخور أحيانا اصطرك ، وفلفل ، وزنجبيل مما يدل على أن روما كانت مزودة بوفرة من التوابل التي تستعمل لتتبيل الطعام أو بمثابة أدوية . ولكن برجوازي روما لم يتميزوا البتة بمزاولة نشاط تجارى كبير ، فكيف اذن حصلوا على تلك التوابل والأقمشة النينة ، اليونانية أو العربية الصنع ؟ أولا ، كان أباطرة روما الجديدة يرسلون في الكثير من الأحيان الى البابوات هدايا من أقمشة حريرية ثمينة خارجة من المصانع اليونانية ، ونجد برهانا لذلك في سير البابوات . غير أن هذا التفسير ليس بكاف ، لأن الأغلبية العظمى من هذه الأشياء كانت بالطبع مسنودة عن طريق التجارة ، وكانت ايطاليا غنية بالبجارة المتمرسين ، والتجار الأكفاء النشيطين ، وكان هؤلاء في كل الأزمان على اتصال باليونانيين ، ولكنهم لم يكونوا يترددون في عقد الصلات مع العرب ، بل أنهم زادوا في تألفهم مع العرب أكثر مما كان البابوات يسمحون بذلك ، اذ سرعان ما تبين أن بعض التجار المسيحيين لم يكونوا يتورعون ، لفرط ولعهم بحياة الترف ، أن يبيعوا اخوتهم في الدين بيع الرقيق لعرب أسبانيا أو أفريقيا أو سوريا . واتخذ شارلمان ، ومن بعده البابوان زخارى Zacharie وأدريان الأول Adrien I اجراءات صارمة للقضاء على هذه التجارة الشنيعة (٣) . ألم تصل جرأة البنادقة الى درجة أن يشتروا في روما نفسها عبيدا من الجنسين ؟ (٤) غير أن تجارة سائر التجار كانت

Beda, Vita S. Benedicti abbot. Wiremuth, primi lib. I, no. 9. (١)

Jaffé, Bibliotheca rerum germanicarum, III, 156, 157, 199, 218, 231 (٢)

Cenni, Monumenta dominationis pontificiae, I, 369 et ss. (٣)

Liber Pontificalis, vita Zacharioe papae éd, Vignoli, II, 79. (٤)

— كان هناك أيضا يونانيون ، من تحار الرقيق الذين يجولون بحرا على طول سواحل تسكانيا ، ومعهم لومبارديون يدفعهم الفقر الى الاستسلام لهم ، أو كان هؤلاء التجار يشترونهم .

تتمشى مع تجارة الرقيق الشنيعة . ومن المفيد البحث عما اذا كان التجار البنادقة هم أنفسهم الذى يحصلون على منتجات الشرق فى مقابل عبيدهم ، أو أنهم كانوا يشترون فقط هذه المنتجات ويذهبون بها الى روما . ومع ذلك لا ننسى الأمالفيين الذين ربما ينبغي ذكرهم قبل البنادقة عند البحث عن الأشخاص الذين كانت روما تتلقى منهم منتجات الشرق . ومدينة أمالفي أكثر قربا من روما منها الى البندقية ، وكان سكانها يزورون الشرق أسوة بالبنادقة . وسوف نرى ذلك بعد قليل .

نبحث الآن عن المدن الإيطالية التى كانت تمارس التجارة مع الشرق بهمة ونشاط فى الفترة التى نتحدث عنها ، ونبدأ بجنوب إيطاليا . كانت هناك طريقة لاختصار الرحلة الى الشرق الأدنى ، وذلك بركوب السفن من أحد ثغور ابوليا Pouille ، ومن ثم كان هذا الثغر ملتقى الحجاج الراغبين فى الذهاب الى القدس مع قضاء أقل وقت ممكن فى بحر لجى خطر . وقد يكون أمرا غريبا لو أن التجارة لم تستغل هذا الطرف ، غير أن الحروب ، والتغيرات الكثيرة التى تطرأ على الحكام منعت مناطق السواحل زمنا طويلا من الاستمتاع بالهدوء اللازم لرحلتها . فمن جهة توغل اللمبارديون فى داخل إيطاليا ، ومن جهة أخرى نازع عرب صقلية سادتها القدامى ، الأباطرة البيزنطيين . وأخيرا نجح هؤلاء فى أواخر القرن العاشر فى بسط سيادتهم بصورة دائمة : وأصبحت بارى Bari مقرا لواليهم (الكاتابان Katapane) واستغل سكان المدينة ، وهم خليط من عناصر يونانية (١) هذا الوضع فى تنمية تجارتها مع وطنهم الأصلي . ولدينا فى هذا الخصوص دليل ، سلبى على الأقل ، فى مرسوم للأباطرة باسيل وقسطنطين ، بتاريخ ٩٩٢ ، يحظر على ربانة سفن البندقية الإبحار الى القسطنطينية وفى سفنهم تجار من بارى ومعهم بضائعهم مما ييسر لهؤلاء التجار التمتع بالمزايا الممنوحة للبنادقة اضرارا بخزانة الامبراطورية (٢) . والواضح أن الوثيقة لم تكن لتذكر أهالى بارى صراحة لو لم يكن لهؤلاء أية صلة بالقسطنطينية ، ولكنهم لم يقصروا رحلاتهم على العاصمة : ففي عام ١٠٨٦ ذهبت سفنهم وهى تحمل فاكهة وبضائع أخرى الى انطاكية . وكان من المحتمل أن تغدو هذه الرحلة نسيا منسيا ، كغيرها من الرحلات لو لم تقترن بها تحفة تذكارية ثمينة أتى بها أهالى بارى وأصبحت موضع فخرهم . حدث ذلك أثناء عودتهم ، حين القوا مراسيهم عند ميرا Myra وهى مدينة فى ليكية Lycie كان المسلمون قد استولوا عليها ودمروها ، وانتهب أهالى بارى فرصة الفوضى التى سادت المدينة ، واختلسوا عظام القديس نقولا دو مير الشهير

Petroni, Storia di Bari, I, 35 et s., 103.

(١)

Taf. et Thom. I, 38.

(٢)

St. Nicolas de Myre وعادوا بها الى بارى (١) حيث نزلوا ثمة فى شهر مايو ١٠٨٧ (٢) . وفى زمن هذه الحملة كانت انطاكية فى أيدي المسلمين ، ثم أن سوريا العربية المسلمة كانت بلدا مألوفاً لدى بحارة بارى : فعند عودة بعثة الحج المشهورة التى أعطت الحافز النهائى للحركة التى أدت الى قيام الحرب الصليبية الأولى ، وجد بطرس الناسك على ساحل سوريا سفناً تجارية من بارى استقلها عائداً الى بلده (٣) . وربما كان أصل هذه العلاقات التجارية بين سكان بارى وعرب الشرق يرجع الى الفترة القصيرة التى كانت فيها مدينة بارى خاضعة لسيادة أحد السلاطين (٨٤٢ - ٨٧١) ، غير أنه من الصعب اثبات ذلك بصورة ايجابية . ومع ذلك فانا نطالع فى التواريخ القديمة أن هذا السلطان نفسه منح ذات يوم حاجاً فرنسياً ، هو ناسك اسمه برنار Bernard بناء على طلبه نوعاً من جواز السفر (وبه وصفه) يضمه لدى حكام الاسكندرية والقاهرة . وتزود برنار بجواز السفر هذا وركب سفينة عربية فى تاراتو (٤) Tarente قاصداً الاسكندرية . ويبدو لنا بهذه المناسبة أنه اذا كان حاج فرنسي قد جرؤ على ابداء هذا الطلب للسلطان ، فلا بد أن بحارة بارى وتجارها كانوا أقل منه تخوفاً من حيث تقديم مثل هذا الطلب للسلطان ، ولابد أن السلطان من جانبه كان يعطيهم عن طيب خاطر مثل هذا الجواز ، لأن هذا الجواز بالنسبة اليه مصدر للإيراد . ويحتمل أن تكون مدن ترانى ، وبرنديزي ، وتاراتو كذلك قد أرسلت من قبل الى الشرق قبل الحروب الصليبية سفناً تجارية ، غير أنها لم تكتسب أهمية فى هذا الشأن الا فيما بعد . ولسنا نستثنى من ذلك مدينة ترانى رغم ما يقوله البعض فى ذلك . وقد تكلم البعض كثيراً عن القانون البحرى الذى كان سارى المفعول هناك ، والمؤرخ عام ١٠٦٣ ، ولكن هذا القانون لا يحوى أى حكم خاص بملاحة الشرق الأدنى (٥) ومن جهة البحر التيرانى (يترهينيا) ، نجد مجموعة من المدن الساحلية التى تميزت

-
- (١) هناك روايتان عن هذا النقل ، كتب احدهما رئيس التماسسة جان دوبارى Jean de Duri بأمر رئيس الأساقفة أورسو Urso (١٠٧٨ - ١٠٨٩) ، والثانية ألفها الراهب ينقفور Nicéphore الأولى نجدها فى سوربوس : Surus, De probatis ss. historis, VII, 397 et ss. والثانية فى فالكونيوس : Falconius, S. Nicolai acta primigenia, Neap. 1751, p. 131 et ss.
- (٢) نجد هذه الرائعة مذكورة بضعة سطور فى : — Lup. Protosp., Pertz ss. V, 62, Cf. Petroni, Storia di Bari, I, 197 et s. Alb. Aq. I, 2. Guill de Tyr. I, 12. (٣)
- (٤) Bernard, monach, franc, dans Tobler et Molinier, I, c. p. 310. (٥)
- Allanelli : Delle antiche consuetudini e leggi marittime delle provincie Napolitane, Nap. 1871 ; et dans le Blackbook of Admiralty, éd. Twiss, Lond. 1876.

عن غيرها بما فى سكانها من روح الاقدام والمغامرة : سالرنو ، وأمالفى ، ونابولى ، وجائيتو . كانت سالرنو تابعة للأمراء اللومباردين ، أما المدن الأخرى فكانت خاضعة خضوعا اسميا لسيادة الأباطرة اليونانيين ، ولكنها فى الواقع كانت تنتخب بنفسها رجال السلطة من بين أفراد الأسر النبيلة فى المدينة ، على اختلاف ألقابهم Profecturi, comites, hypati, duces وغيرهم . ولم تنكر القسطنطينية سلطتهم ، حتى حين أدعى أصحاب هذه السلطة حقهم فى توارثها .

وكان فى مقدور أصحاب السلطة هؤلاء ، وهم يملكون حرية التصرف أن يرضوا بمطلق الحرية طموحهم وحبهم للكسب . لذلك فانهم ، على غرار جيرانهم الأمراء اللومباردين ، لم يترددوا فى التحالف مع المسلمين حين أقبل هؤلاء ووطئوا بأقدامهم أرض القارة الأوروبية . وفى البداية ، كانت الضرورة هى التى تبرر هذه التحالفات ، وكانت هذى هى الطريقة الوحيدة ليتجنبوا غاراتهم . ولكن فيما بعد وصل الأمر بهذه المدن الى الاستعانة بالعرب جهارا ، اما للقيام بمساعدتهم بشن حملات لم تكن فى الواقع سوى غارات للسلب والنهب ، واما للدفاع ضد بعض الجيران الأقوياء . ويتبين من وثائق هذا العصر (١) أن الامبراطور لويس الثانى ، حين اتهم نابولى بأنها أصبحت بمنابة « بالرمو » أخرى ، أى تابعة لأفريقية ، كان على حق ، لأنها (أى نابولى) كانت نوزر للقراصنة العرب مأوى آمينا ، ونقطة انطلاق مريحة لرحلاتهم البحرية ، وتزودهم بالأسلحة والمؤن ، وتقتسم معهم الأسلاب (٢) . وفى عام ٨٧٥ عقد أمراء سالرنو ونابولى وجائيتو وأمالفى تحالفا مع العرب ، ونهبوا معهم الاقليم الرومانى . وبذل البابا يوحنا الثامن كل ما فى وسعه من وعد ووعيد للقضاء على هذا التحالف ، ولكنه لم ينجح الا فى اخراج ويفرى Waifre أمير سالرنو من الحلف ، أما بالنسبة للآخرين ، فان حرمان الكنيسة الموقع عليهم لم يكن الا سلاحا كليلًا (٣) . وأدرك البابا بدهاء أنه بالنسبة الى أهالى أمالفى لم تكن التهديدات بالحرمان الكنسى كافية ، لذلك أضاف بالنسبة اليهم خاصة أنهم اذا لم يتنازلوا عن هذا التحالف فانه سوف يغلق فى وجه سفنهم التجارية كل الموانى التى اعتادوا الدخول فيها (٤) . وأخيرا تمكن فى عام ٩١٦ من حشد جيش من اليونانيين والايطاليين طهر أرض ايطاليا من هؤلاء الغزاة المرعبين ، وفى

Chron., Salern., dans Pertz, ss. III, 521, 527. (١)

Chon., Salern., dans Pertz, ss. III, 526. (٢)

Mansi, Coll. concil., XVII, p. 34-38, 41, 44, 45, 58, 62, 157 et s., 167, 169, 177, 196 et s., 215, 243; Chron., Salern. p. 531; (٣)

Erchemperti, Hist. Longob., dans Pertz, ss. III, 253-258, 261.

Mansi, Loc. Cit. p. 178. (٤)

اللحظة الحاسمة انقلب دوقات نابولي وجائيتو وأمالفي أنفسهم في صفوف المسيحيين ولكن المؤرخ لم يفته وهو يذكر أسماءهم أن يضيف أنهم كانوا قبل ذلك أعوانا للعرب (١) . هذا الالتحاح من جانب سكان نابولي وجائيتو وأمالفي على المحافظة على تحالفهم مع العرب يجد له تفسيراً صحيحاً في علاقاتهم التجارية، وعندنا في هذا الخصوص دلالات ثابتة بالنسبة إلى أهالي نابولي : ففي عام ٨٣٦ عقد سيكارد Sicard أمير بنيكنتو Bénévent معاهدة سلام مع نابولي ، ولكنه اشترط أن يمتنع أهالي نابولي عن شراء رعايا لومبارديين تم بيعهم في الجانب الآخر من البحر ، وهذا برهان جديد على أن النابوليين كانوا يتاجرون في الرقيق مع البلاد الإسلامية ، ويستوردون في مقابل ذلك منتجات تلك البلاد (٢) . نرى بالمثل في حوالي عام ٨٧٠ أهالي أمالفي يزاولون التجارة بنشاط مع العرب ويشهد بذلك أنه في عام ٨٧١ حين بعث الأمير الأغلبى محمد بن أحمد مولاه عبد الله ليغزو سالرنو ، كان ثمة أفريقي يقر بحميل أسداه إليه أمير سالرنو ، فحذر الأمير عن طريق أحد أهالي أمالفي ويدعى فلورس Florus (من الغزو) .

وكان فلورس هذا موجوداً وقتئذ في أفريقيا مع بعض مواطنيه في شئون تجارية ، وشهد كل تجهيزات الحملة دون أن يعتريه شك في الغرض منها (٤) . وكان الأسطول يتجمع غالباً في « المهدية » ميناء القيروان الآهلة بالسكان ، مقر الأمراء الأغالبة . وكان الساحل الأفريقي الشمالي يجذب إليه الأمالفيين بطبيعة الحال ، حيث كانت العلاقات التي أقامها هؤلاء مع العرب تمهيداً ممتازاً للعلاقات التي وثقوها فيما بعد مع العرب في مصر وسوريا . وثمة عقد تجاري أبرم عام ٩٧٣ بين عدد من الأمالفيين في سالرنو ، أي بعد انقضاء أكثر من مائة عام على الحدث الذي ذكرناه آنفاً ، هذا العقد هو أقدم برهان لدينا على « رحلات إلى مصر لأعمال تجارية » قام بها هؤلاء الجماعة من البحارة ، ونرى في العقد أن مفعوله لا يسرى إلا عند عودة أحد المتعاقدين ، وكان موجوداً في تلك الآونة في بابلون ، أي في القاهرة (٥) .

وهكذا فمنذ القرن العاشر ، ربما قبله ، كان لتجارة أمالفي فروع تصل

(١) Leo Marsicanus, Chronic. monast. Casin, dans Pertz, ss. VII, 616 et s.

(٢) Capitulare Sicardi, dans Pertz, Legg. IV, 218.

(٣) من ناحية أخرى ، رأى فيليبالد Willibald اسقف ابشتات Eichstaedf الذي .

اشتهر بحجه إلى القدس ، رأى عام ٧٢٢ في ميناء نابولي سفينة قادمة من مصر .

(٤) Chron. Salern., loc. cit., p. 528, et Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia, I, 383 et ss.

(٥) De Blasio, Séries principum Longob. Salern.

الى الاسكندرية ، والى القاهرة ، وفى الوقت نفسه كان فى مقدور كل تاجر أمالفي أن يرتاد كل أنحاء الامبراطورية اليونانية دون أن يصادف أى عائق : فمع أن هذه المدينة لم يكن بداخل أسوارها حاكم معين من قبل بيزنطة ، وكانت تنتخب حكامها (الذين نالوا فى النهاية لقب دوج) من بين الأسر القديمة فى المدينة ، فانها كانت تقر للامبراطور اليونانى بالسيادة ، ودام هذا الوضع حتى عام ١٠٧٣ (١) . حقا ، ان نفوذ الامبراطور كان قاصرا على منح الشخصيات الرئيسية فى المدينة الألقاب اليونانية ، وهى ألقاب فخريه فحسب ، ورغم ضعف تبعية المدينة سياسيا للامبراطور اليونانى ، فان المدينة كانت مع ذلك تسمح لعدد كبير من الأمالفيين بالخدمة فى الجيش الامبراطورى (٢) ، كما استقر الكثير منهم فى القسطنطينية بصفتهم تجارا ، وكان لهم فيها حوانيت ، ويشكلون طائفة دينية مستقلة كما سوف نرى . وكان الأمالفيون يستوردون الى الغرب المنتجات اليونانية ، ويتنافسون فى ذلك مع البنادقة ، ويحصلون على الأقمشة القرمزية التى كان خروجها (من اليونان) محظورا بنوع خاص ، ويتاجرون فيها .

وفى غضون الأربعين سنة التى سبقت الحروب الصليبية ، يتجمع كل ما نعرفه عن علاقات أمالفي بالقسطنطينية ، وكذا بسوريا ومصر حول تاريخ اسرة واحدة كانت من أغنى وأنبلى الأسر فى المدينة (٤) ، ويرجع أصلها الى الكونت مورو Mauro . وهناك من وجهة بحثنا هذا عضوان فى هذه الأسرة لعبا دورا هاما : موريوس Maurus وابنه الأكبر بانتاليون Pantaléon وكان للاثنين مكانة كبيرة فى القسطنطينية ، ويملكان بها منزلا مجهزا بأثاث فاخر (٥) . ويقرن المؤرخون والسجلات دائما باسم بانتاليون لقبى بطريق وقنصل (هيباتوس) (٦) اللذين منحهما اياه الأباطرة . كذلك فانه وضع نفوذه فى خدمتهم ، وعمل على تكوين تحالف للقضاء على سيادة النورمان فى ايطاليا . وفى عامى ١٠٦٢ ، ١٠٦٨ ضاعف جهوده ، اما بالرسائل أو بشخصه ليجذب

-
- (١) فى أواسط القرن الحادى عشر ، نشبت ثورة أمالفي ، طرد أثناءها أحد دوجات المدينة ، فلجأ الدوج الى الامبراطور قسطنطين الثانى مونوماكس ، وبمساعده استعاد منصبه ،
Camera, Mémoire di Amalfi, I, 243, 250 et s.
أنظر :
Liutpr. Legat. Cpol dans Pertz SS. III, 357. (٢)
Liutpr. ibid, p. 359. (٣)
(٤) سبق أن نشرت دراسة عن هذه الأسرة وأهميتها ، وبخاصة من الوجهة التاريخية
— Deutsche Kunstblatt, IX (1858) p. 233 et s. والفنية فى :
كذلك تحدث ستريكل Strehlke فى هذا الخصوص بكثير من التفاصيل
Aimé, l'histoire de li Normant, publ. p. Champollion - Figeac, (٥)
p. 231.
Schulz, Denmäler, II, 248. (٦)

البابا المزيف هونوريوس الثاني (كادالوس) ، ويحمل بوساطته البلاط الألماني .
 (أوصياء الملك هنري الرابع) على التعاون ضد النورمان (١) مع الامبراطور
 اليوناني قسطنطين العاشر دو كاس . وعندئذ جمع الامبراطور فرقا عسكرية
 في la Pouille « بوليا » لايكاف غزوات النورمان (٢) ، وعمل موروس لنفس
 الغاية التي عمل لها ابنه ، وساعد بنصائحه جيزولف Gisulf دوق سالرنو ،
 وعندما مر هذا الأمير بالقسطنطينية بحجة أداء الحج بالقدس ، ولكي يحمل
 الامبراطور اليوناني على اعلان الحرب على النورمان ، كان موروس أيضا هو
 الذي استضافه في منزل ابنه بانتاليون (٣) . وفشلت محاولات الاتارة هذه ،
 واستمرت السيطرة النورماندية تتسع وتتوطد ، بل وأسهمت أمالفي كثيرا في
 ذلك ، أولا بخضوعها عن طيب خاطر لروبرت جيسكار Robert Guiscard
 (١٠٧٦) (٤) . غير أن بانتاليون ترك عن نفسه ذكريات طيبة أكثر دواما في
 مجال آخر ، بعيدا عن السياسة . ذلك أنه تحت تأثير مشاعر دينية سامية راح
 يمنح الكنائس والأديرة في جنوب إيطاليا هبات فاخرة . وكانت هبته المفضلة
 تتمثل في أبواب برونزية فخمة من صنع مسابك القسطنطينية ، وهب منها
 أولا لكاتدرائية المدينة التي ولد فيها (قبل ١٠٦٦) ، ثم لكنيسة القديس
 بولس المشهورة خارج أسوار روما (١٠٧٠) ، وأخيرا لكنيسة سنت ميشيل
 التي يحج اليها الناس على جبل جرجانو بالقرب من ما نفريدونيا Monfredonia
 (١٠٧٦) . ولابد أن هذه الروائع من ابداع الفنانين البيزنطيين ، المنقولة الى
 إيطاليا والمعروضة في أماكن يرتادها خلق كثيرون كان لها أثر كبير في تقديم
 الفن (٥) . فما أن ثبتت أبواب كاتدرائية أمالفي في مكانها حتى صور

-
- (١) Benzo, Panegyricus, dans Pertz, ss. XI, 615, 622, 623, 626 et ss.
 Giesebrecht : Annal Altah, p. 216, not. 2; De Blasius, La insurrezione
 Pugliese e la conquista Normanna, II (Napli. 1864), p. 88 et s.
 De Blasius, op. cit., p. 64 et s., 82 et s. (٢)
 Aimé, op. cit. p. 129 et ss. 231. (٣)

— يبدو أن هذه الرحلة جرت بين سنتي ١٠٦٢ ، ١٠٦٦

(٤) بخصوص تحديد هذه التواريخ انظر :

- Weinreich, De conditione Italiae inferioris Gregorio VII pontifice (Re-
 glimont 1864), p. 34 et ss., 89 et ss.
 (٥) انظر شولز Schulz ومقال اونجر Unger في الفن اليوناني في مصر
 الوسيط في . l'Encyclopédie générale de Ersch et Gruber, sect. I, Vol. LXXXIV, p. 438 et s.

— لعل هذه الأبواب وأشبابها ، التي صنعت لكنائس إيطالية مختلفة على نمط أبواب
 بانتاليون قد ركت في إيطاليا ، واستعمل في تركيبها صفائح من البرونز ، لعلها يونانية الصنع ،
 استوردها تجار أمالفيون .

دزیدریوس Désidérius رئيس ديرمون كاسان نسخة منها وطلب أن تصنع أبواب منها في القسطنطينية (١) ، وأرسل مقاسات أبواب مصلى ديريه ! ونكفل موريوس ، أبوبانتاليون بكل النفقات (٢) . وفي هذه الآونة كانت مبانى الدير البدائية مازالت قائمة . وإذا كان القس دزیدریوس قد رأى أنه لتجميل الدير يجب الاستعانة بفنانين أجانب ، فإنه يمكن تصور ما كان يدور بخلفه فى هذا الخصوص حين شرع فى إعادة بناء الدير بأحجام كبيرة ، ولابد أن العمل غير المتقن الذى كان يؤديه الصناع الأمالفيون واللومبارديون كان يبدو له غير كاف فى هذا الشأن ، لذلك استقدم من القسطنطينية والاسكندرية فنانين من اليونانيين والعرب ، وبخاصة فى أسغال الموزايك (الفسيفساء) التى يتفوق فيها هؤلاء بكثير على الايطاليين (٣) . ومن المرجح أنه حين يقتضى الأمر استخدام عمال من بلاد بعيدة على هذا النحو ، فإن التجار الأمالفيين كانوا هم الذين يتكفلون باحضارهم . وحين أراد دزیدریوس الحصول على أشياء لازمة لأنثا الكنيسة بعث الى القسطنطينية بأحد رهبان ديريه ومعه مبلغ من المال وخطاب توصية للامبراطور لكي يتولى السباكون والصاغة والرسامون اليونانيون صنع الأشياء التى تتطلب دقة كبيرة ليس فى قدرة الصناع الوطنيين ، والمتعهدين العاديين لشئون الدير أن يصلوا اليها (٤) .

ولنعد الى بانناليون . ان الألقاب التى تنسب اليه تثبت أنه كان يشغل مركزا كبيرا ، ومع ذلك لا يحتمل أن يكون على رأس حكومة أمالفي ، فلدينا القائمة الكاملة لدوجات هذه المدينة (٥) ، وليس بها هذا الاسم . ويمكن على العكس من ذلك أن نفترض أنه كان على رأس «الجالية الأمالفية فى القسطنطينية» لفترة معينة على الأقل (٦) . وكانت هذه الجالية موجودة بالفعل ، وهى معلومة تاريخية تثبت ذلك : فحين سافر جيزولف دوق سالرنو لأداء الحج ، كما رأينا من قبل ، كان فى صحبته الفانس Alfano اسقف سالرنو ، وبرنارد ،

(١) Leo Ostiens, Chron. Casin, dans Pertz, ss. VII, 711.

(٢) تبين هذه الواقعة من الكتابة التى تذكر موريوس Maurus باعتباره الراهب .

— Schulz, Denkmäler, II, 116 et s. أنظر :

(٣) Aimé, p. 105. Leo Ostiens, op. cit., p. 717-718.

(٤) Leo Ostiens, Chron. op. cit., p. 722 et s.

(٥) Camera, Istoria della città e costiero di Amalfi (Napoli 1836), p. 149.

et s.; Memorie di Amalfi (Salerno 1876) p. 251 et s.

(٦) Caravita, I, codici e le arti a Monte Cassino, I, 194.

يطن كارفيتا أيضا أن بانناليون كان أحد القناصل البحريين لحدى المستعمرات التجارية فى الشرق

أسقف بالرمو الذي نوفي بالقسطنطينية ودفن بها في الدير الأمالفي (١)، وهو اما دير القديس سوفير St. Sauveur المذكور في قائمة قديمة برؤساء أساقفة أمالفي وأما دير القديسة ماريا دي لانيينا Santa Maria de Latina الذي أعطى البابا الكسندر الرابع بخصوصه في عام ١٢٥٦ خطابات توصية لم تزل موجودة الى الآن (٢) . وإذا كان للأمالفيين أديرة خاصة بهم في القسطنطينية (٣) ، فذلك بالتأكيد لأنه كان بها جالية من أصل أمالفي . ويحكى أنه (٤) في حوالي عام ١٠٨٤ دخل دير مون كاسان نبيل أمالفي فأهدى للدير قطعة من الصليب الحقيقي الذي كان ضمن بصيبه من الغنيمة التي حصل عليها في القسطنطينية، ولا يمكن أن يكون الشخص الذي ينسب اليه هذا الخبر أحد الأفراد المغامرين .

وسوف نحاول أن نتتبع خطوة خطوة آثار هذه الأسرة الأمالفية النبيلة . نجد أولا أن آثار أعمال البر المسيحية التي ألهمت موروس قد امتدت الى أنطاكية حيث أسس بها مستشفى تعهدا بالرعاية من ماله الخاص (٥) . وبترتيب المعلومات المتناثرة في تاريخ أماتوس Amatus الذي نستفي منه هذه المعلومة ، نرى أن تأسيس هذا المستشفى كان لصالح الحجاج الغربيين : الا أن انطاكية لم تكن مكانا للحج بالنسبة الى الغربيين ، ومن جهة أخرى لم تكن بالنسبة الى المسافرين الذين يقصدون القدس تحولا بعيدا عن الطريق المباشر ، حتى ان القليل من هؤلاء المسافرين كانوا يمرون بها . من الراجح اذن أن موروس أراد ببناء هذا المستشفى استقبال واستضافة مواطنيه الذين تجذبهم التجارة الى هذه السوق السورية الكبيرة (٦) . ويزودنا جويوم (وليم) Guillaume (من صور) برأى يعزز هذا الافتراض : فقد تبين له أن الأمالفيين كان لهم قبل الحروب الصليبية فنادق في مواني سوريا ، وهذا ما لا شك في أنه أوحى اليهم الرغبة في أن يكون لهم ملجأ ومكان للاجتماع شبيه ببيت المقدس . والواقع أنهم كثيرا ما كانوا يذهبون الى هناك اما لأعمالهم أو لزيارة الأماكن المقدسة ، أو للغرضين

Aimé, p. 129 et s.

(١)

كذلك الكتابة الصغيرة التي ألفها الناس Alfamus ونقشها على قبر رفاقه في الرحلة : النظر : — Giesebrecht, De litter. stud. ap. Ital. p. 37 et s.

Ughelli, op. cit., p. 222 et s.

(٢)

(٣) كان يوجد أيضا في جبل أتوس Athos دير أمالفي شيد في القرن العاشر . حظي بامتيازات من الأباطرة الكسيس ، ويوحنا كومنينوس .

Petr. diac. Chron. monast. Casin. dans Pertz, SS. VII, 742.

(٤)

Aimé, p. 231.

(٥)

(٦) في القرن التاسع ، نجد خلفاء لشخص يدعى Maurus Vicarius Antiochenus أو Antiochia يحملون لقب كونت على رأس حكومة أمالفي ، ومن ثم يبدو أن العلاقات بين أمالفي وانطاكية ترجع الى عهد بعيد .

كليهما . ولكن كان من الضروري لاقامة منشأة من هذا النوع في بيت المقدس . الحصول على تصريح من الخليفة في مصر ، وكان الأمالفيون في أحسن وضع يتيح لهم الحصول على مثل هذا التصريح ، لأن علاقاتهم التجارية بمصر ترجع الى زمن بعيد ، وكانوا يجدون في مصر كل ترحيب لأنهم يجلبون اليها من الغرب أشياء يطلبها المصريون والسوريون . لذلك فما أن علم الأمير الفاطمي الحاكم وقتئذ برغبتهم هذه حتى خصص لهم مساحة كبيرة في الحي المسيحي بالقدس . وللحال شرعوا في العمل ، وسرعان ما ارتفعت مباني دير سنتا ماريا دي لاتينا (١) التي كانت تستضيف أيضا الأمالفيين عند وصولهم . وكان هذا الدير خاصا بالرجال ، فالحق به فيما بعد ، كما يروى جويوم الصوري دير للنساء يستخدم كذلك ملجأ لنساء أمالفي . وشيد أخيرا بناء خاص للحجاج الغربيين الفقراء والمرضى دون تمييز بينهم من حيث الوطن . وكانت هذه المنشآت كلها قبل أن تقع المدينة في أيدي الصليبيين تعتمد في انفاقها على حصيلة الصدقات التي كان الأثرياء الأمالفيون يرسلونها الى القدس أو يتركونها هناك في نهاية اقامتهم بها . ويبدو أن رواية جويوم الصوري (٢) التي استقينها منها هذه المعلومات جديرة بالثقة ، ومع ذلك فهناك نقطة ليست صحيحة كل الصحة : ذلك أن الأمالفيين لم يكونوا مؤسسي كنيسة القديسة ماريا دي لاتينا ، بل انهم هم الذين رموها . ففي وثيقة لعام ٩٩٣ (٣) نجد اشارة الى كنيسة بهذا الاسم في بيت المقدس ، تملك أموالا مختلفة في ايطاليا ، ويرجع أنها هي التي تسيدها شارلمان . ولما كان موقعها بجوار كنيسة القديس سيبولكر St. Sépulcre فانها هدمت حين هدمت هذه الأخيرة بناء على أمر أصدره في لحظة تعصب ديني الخليفة الحاكم بأمر الله (١٠١٠) . وعلى أية حال فانها اذا كانت قد تهدمت . فان الأمالفيين أعادوا بناءها في نفس الموقع . ولم يحدد جويوم الصوري العصر الذي تم فيه البناء ، ويجعله الكونت دو فوجيه de Vogüé (٤) بين ١٠١٤ ، ١٠٢٣ ، وهذا خطأ بين لأن المساحة المخصصة للأمالفيين ليقيموا عليها المباني الجديدة واقعة في الحي المسيحي . ولكن حتى عام ١٠٦٣ كان مسيحيو بيت المقدس يعيشون متفرقين في المدينة ، وفي تلك السنة فقط نشر الخليفة المستنصر بالله المرسوم الذي يجبرهم على الإقامة في حي محدد (٥) . وعلى ذلك

Sanuto, Secr. fidel cruc., p. 178.

(١)

Lib. XVIII, cap. 4, 5.

(٢)

Martène, Coll. vet. monum., I, 347.

(٣)

هذه نسخة رديئة ، مأخوذة من نص يعتبره السيد ريو Riout أنه النص الأصلي :

Mém. de l'Acad. des inscr XXXI, 2 (1884) p. 151. et ss.

— Les Eglises de la terre sainte, p. 249.

(٤)

Guill. de Tyre; lib. IX, cap. 18.

(٥)

لا يمكننا أن نسلم بأن بناء هذه الأديرة والفنادق كان سابقا على عام ١٠٦٣ ، كذلك لا يمكن أن يكون لاحقا على عام ١٠٧٠ (١) ، لأن في هذه السنة طرد الأتراك الخليفة من بيت المقدس . حقا ، انه في هذه المرة لم يلبث أن عاد الى المدينة ، ولكنها انتزعت منه نهائيا في عام ١٠٧٨ ، وبالتأكيد لم يعمل الأتراك حسابا لامتياز منحة العاهل المصري للأمالفيين . وعلى أية حال فان المباني كانت موجودة في عام ١٠٨٠ : ذلك لأن يوحنا أسقف أمالفي حين زار القدس في تلك الآونة رأى هناك ملجأين للرجال والنساء ، شيهما مواطنوه منذ بضع سنين (٢) ، والثابت أن هذين الملجأين لا يمكن أن يكونا غير النزلين الملحقين بالديرين . ومن جهة أخرى ، فان المنشأة الأخيرة ، أى الملجأ المخصص للحجاج الغربيين الفقراء والمرضى دون تمييز بسبب الجنسية لا يمكن أن تكون قد شيدت بعد عام ١٠٨٠ ، فالواقع أنها كانت منذ أعوام ١٠٨٣ - ١٠٨٥ معروفة تماما في الغرب ، حتى لقد وهب لها عدة أراضى واقعة في الألبيجوا *l'Albigeois* (في جنوب فرنسا) . بل ان شخصا يدعى انسيلينوس *Anselinus* كان مكلفا هناك بتسليم هذه الهبات وتدير شئونها *magister domus hospitalis* (٣) .

وسرعان ما اتسع نطاق هذه المنشأة بتأثير غايتها العامة ، وأصبحت مهدا لرهينة القديس يوحنا الغنية القوية ، في حين أن الأديرة التي نشأت منها ولا تستقبل سوى الأمالفيين ، أو بالأكثر الايطاليين لم تلبث أن انحط شأنها . وعلى ذلك كان التجار الأمالفيون يتولون الاتفاق على منشآت خاصة في القدس العربية ، لا لاستعمالهم الخاص أو لاستعمال مواطنيهم ، وانما أيضا لصالح الحجاج الغربيين كلهم ، ويجد هؤلاء في هذه المنشآت معونات دينية وعادية أكيدة ، وعلاجا في حالة المرض ، واحسانا في حالة العوز . ويقول جويوم الصوري ان كل التجار الأمالفيين الذين يذهبون الى القدس يسهمون بتقديم صدقات كبيرة ، اما لتأسيس هذه المنشآت أو للاتفاق عليها . الا أن فقرة من سانوتو *Sanuto* (٤) تنبئنا بأن واحدا منهم شيد على نفقته الخاصة دير القديسة ماريا لاتينا . ويمضى أماتوس *Amatus* الى أبعد من ذلك ، فيذكر اسم ذلك التاجر الكريم : فهو موروس أبو بانتاليون . ويقول هذا المؤرخ ان موروس شيد مستشفى في القدس ، وخصص إيرادات كبيرة للاتفاق عليها ، ولعل أماتوس كان يقصد بذلك النزل الملحق بدير القديسة ماريا لاتينا أو المنشأة التي أصبحت مهدا

(١) حدد الكونت ريان *Rianl* بحق هذا التاريخ باعتباره انه الحد الأقصى :
— *Arch. de l'or. lat.*, I, 28.

(٢) *la Petite chronique d'Amalfi*, dans *Ughelli*, Ital. sacra VII, 198.

(٣) *Actes des Archives de Toulouse*, communiqués par Saige, dans

la Bibliothèque de l'Ecole des chartes, Série V, T. V p. 552 et ss.

Secr. fidel cruc., dans *Bongars*, II, 178.

(٤)

لرهينة القديس يوحنا (١) . وعلى أية حال فسواء أكان موروس هو الذى أسس أقدم هذه المنشآت أو أحدثها ، فإنه يكفي أن نعرف النصيب الذى اضطلع به فى إقامتها لكى نضع حدودا زمنية للبحث الذى نجريه حاليا ، ذلك لأننا نعلم أن موروس ، بعد أن انسحب من العديد من الاعمال التى اشترك فيها ، نهب فى عام ١٠٧١ فى أحد الديرية تأهبا للقاء ربه (٢) .

أوضحنا أن تجارة الأمالفيين كان لها فروع فى قسم كبير من البلاد المشرفة على البحر المتوسط . هذه التجارة أنرت أمالفي ، وكندس تجارها فى مخازنهم أندر السلع وأمنها ، وكان الحرير بها متوفرا بنوع خاص (٣) . وذات يوم كان دزيرديوس رئيس دير مونت كاسان ينظر زيارة الملك هنرى الرابع ، فاشترى من أمالفي ، أكراما للملك عشرين قطعة من الحرير المسمى *triblattia* (أرجوانى ثلاثى الألوان) ، ويشير هذا الاسم اليونانى الى البلد الذى صنع فيه هذا الحرير (٤) . ويحملنا هذا الخبر على الاعتقاد بأن دير مونت كاسان كان يأخذ عادة من أمالفي سلع الشرق الأدنى التى هو فى حاجة إليها ، ويمكن أن نفترض أن تجار أمالفي هم الذين اسنوردوا قماش أعطية المذبح الحريرية من بيزنطة وأفريقيا ، وشموخ القاهرة (بابلون) التى وهبها القس نبوبالد Théobald فى بداية القرن الحادى عشر الى دير القديس ليبراتورى St. Liberatore بالقرب من كيتشى Chieti ، الفرع التابع لمونت كاسان (٥) . وسبق أن أوضحنا أن روما كانت على الأرجح تستورد من أمالفي الكميات الكبيرة التى نحتاج إليها من سلع الشرق .

ولسوء حظ الأمالفيين ، لم يستند الوضع السياسى الذى كان أقوى عوامل رخائهم التجارى . ويتلخص هذا الوضع فى كلمتين : فى الداخل استقلال فى ادارة شئونهم ، وفى الخارج تبعية اسمية تقريبا للامبراطورية اليونانية . ولما

(١) Strehle, dans la Zeitschrift für christliche Archäologie und Kunst, de Quast et Otto, II, (1858), p. 118-120.

— وينسب الى باتاليون انفساء مستشفيات انطاكية والقدس ، ولكن يبدو لى أن المؤرخ

لم يصل الى هذه النتيجة الا بحريف معنى النص .

Almé, p. 232. (٢)

Guill. Ap. I.C.V. 478. (٣)

— يصف أمانوس ، ص ٣٨ أمالفي بأنها « مدينة زاخرة بالذهب والحرير »

Leo Ostiens, I, c. p. 711. (٤)

— كان دير مونت كاسان بشندرى أقمشة صوفية من بيزا ، بفضل امتياز كان للكونتس مانيلدا

Tosti, Storia della badia di Monte Cassino, II, 426 et s. : التسكانية :

Murat, Antiq. it, IV, 767 et ss. (٥)

كانوا ضعفاء لا قبل لهم بمقاومة جيرانهم الأقوياء ، فان هؤلاء الجيران ما لبسوا أن سحقوهم . ففي عام ١٠٣٩ استولى جوايمار الرابع Guaymar IV أمير اللبارد قبل الاخير على أمالفي . وفي عام ١٠٥٢ ثار القسم الأكثر استقلالاً في الطبقة البورجوازية ، وظن أنه تخلص من السيطرة التي كان خاضعاً لها بقتله جوايمار، ولكن محاولته فشلت اذ بسط جيزولف Gisulf ابن جوايمارسياد على المدينة بمزيد من القسوة . ولما كانت أمالفي عاجزة عن استرداد حريتها بمفردها ، فانها التمسست معونة روبرت جيسكار الدوق النورماندي (١٠٧٣) . وسقطت سالرنو ، وأبعد جيزولف عن عرسه ، ونفى (١٠٧٦ - ١٠٧٧) ، ولكن أمالفي فقدت استقلالها الى الأبد، وعاشت الجمهورية ، واندمجت في المملكة النورماندية (١) . وقضى هذا التغير السياسي قضاء تاماً على تجارة أمالفي مع الشرق الأدنى .

والمعروف أن النورمان كانوا أعداء اليونانيين الألداء ، فلم يكتفوا بطردهم من إيطاليا ، ولم يلبثوا أن هاجموهم في عقر ديارهم . وعلى ذلك فممن أن لم يعد الأمالفيون من رعايا الامبراطورية البيزنطية ، فانهم أصبحوا من رعايا أعدائهم : ومن ذلك الحين فقدوا عطف الامبراطور الذي حول كل رعايته لأهالي البندقية ، ووقع بهم الذل والهوان يوم أن أصدر الامبراطور الكسيت كوميننوس في عام ١٠٨٢ مرسوماً بأن على كل أمالفي يملك حانوتاً في القسطنطينية أو في أية مدينة أخرى بالامبراطورية أن يدفع لكنيسة سان مارك بالبندقية ضريبة سنوية مقدارها ثلاثة « هيربر » hyperpres (٢) . وحتى ذلك الحين كان الأمالفيون والبنادقة يتنافسون على قدم المساواة التامة . وابتداء من صدور هذا المرسوم هبط مستوى الأمالفيين بالنسبة الى البنادقة ، وأقروا بأفول نجمهم في حين أن نجم البنادقة كان يزداد تألقاً يوماً بعد يوم .

ويبدو أن جائيتي Gaète قد أسهمت بعض الشيء في تجارة اليونان . ففي عام ١٠٦٤ توفي في القسطنطينية شخص يدعى يوحنا الجائيتي بعد أن أجرى عدة تصرفات وصائية ، ومن الراجح أنه أقام في القسطنطينية لمزاولة التجارة .

Chron. Amalph. dans Murat, Antig. it I, 211; Annal Cav. dans Pertz, ss. III, 190; Aimé, p. 229 et s. 235 et ss., 247 et ss, Leo Ostisus, I. c. p. 672, 658, 735. — وبالنسبة الى التسلسل التاريخي للأحداث انظر :
 — Weinreich, De conditione Italiae infer, p. 32, 34-37, 89-91 ; Koepke, dans les Archiv, der Ges für deutsche Gesch. IX, 170 et s. ; Hirsch, art. sur Amatus, dans les forschungen zur Deutschen Gesch VIII, 317, et ss.
 Taf et Thom, I, 52 : Anne Comm, I 286, éd. Bonn.

غير أنه ليس في وسعنا أن نثريث لنناقش هذه الفروض : ولننتقل الآن الى شمال ايطاليا . فهناك ، في كل ما يتعلق بشئون التجارة ، كان الدور الأول يتولاه البنادقة الذين قال عنهم كاسيدور Cassidore ان سفنهم تجوب البحار وتقطع مسافات كبيرة . وكان أجدادهم قد لاذوا بالفرار من شرادم البرابرة ، ولجأوا بكل ما يملكون الى جزر فينيتو Vénétie ولم تكن فينيتو الجزائرية هذه منفصلة عن رض القارة الا بذراع ضيقة من البحر ، ولكنه كان كافيا لحماية سكانها من البحارة من الانقلابات التي تعصف بسائر شعوب ايطاليا ، وبفضل هذا الوضع استطاعت أن تخلق لنفسها حياة اجتماعية وسياسية خاصة بها . وقد بذل حكام شمال ايطاليا أكثر من محاولة للسيطرة على هذه الجزر ، بل تكون بها أكثر من مرة حزب موال لهؤلاء الحكام ، الا أن باقى الطبقة البورجوازية المخلصة لسادتها الورايتين ، أباطرة بيزنطة ؛ كانت تستطيع دوما أن تقاومهم . على أن سيطرة بيزنطة لم تكن ثقيلة الوطأة على سكان الجزر ، وذلك لسببين : أولا ، بعد الشقة ، تم الظروف التي تجبر الأباطرة على مراضاتهم حتى لايقعوا فى أيدي حكام ايطاليا العليا . وكان الأدواج الذين حكموا الدولة منذ عام ٧٠٠ ينتخبهم منذ البداية مواطنوهم انتخابا حرا ، الا أن هذا الانتخاب كان يخضع لموافقة الأباطرة ، ولم يكن الأباطرة يتدخلون كثيرا فى تصريف الشئون الداخلية للمجتمع ؛ ولكنهم كانوا ، فيما يختص بالعلاقات الخارجية يصدرون الى الأدواج تعليماتهم التي كانت بمنابة أوامر . وفى حالة الحرب كان الأباطرة يستدعون قوات البندقية للخدمة فى جيوشهم ، ولما كانت المنازعات كثيرة فى ايطاليا السفلى بين اليونانيين والعرب ، كان هذا الاستدعاء يتكرر كثيرا . وهكذا فان الدولة الفينيسية (البندقية) الصغيرة الكائنة بين قونين عظيمين ، لم تعد احدهما تسيطر عليها الا بوشائج تضعف يوما بعد يوم ، فى حين تحاول الأخرى عبتا أن تضمها اليها . وراحت هذه الدولة الفينيسية الصغيرة تخطو كل عام خطوة جديدة نحو استقلالها ، وكان لها فى ذلك أسبقية كبيرة على سائر المدن الايطالية . وكانت هذه الأحوال ملائمة للتجارة كل الملاحة . فاستفاد منها أفراد الطبقة البورجوازية الفينيسية فائدة كبيرة . وكان موقع فينيسيا (البندقية) الجغرافى وتاريخها كله يؤهلها للاضطلاع بدور الوسيط بين الشعوب الجرمانية الرومانية وبين الشرق . ويمكن القول بأن كلا من الحزبين اللذين كانا يتنازعان السلطة ، الحزب الايطالى ، والحزب البيزنطى ؛ كان يحل جانبا من جانبى المشكلة ؛ وله مبرراته ، ليس فقط فى النطاق السياسى ، ولكن أيضا فى النطاق التجارى . كان الحزب البيزنطى يعمل على ابقاء الوضع بالنسبة الى الإمبراطورية اليونانية ، ويريد أن تبقى البندقية خاضعة لدولة أجنبية ، وكانت هذه السياسة ملائمة لأقصى درجة لاتساع نطاق تجارتها ، وفتحت أمام سفنها العديد من الثغور فى الشرق ، وكفلت لها أسواقا فسيحة لتصريف بضائعها ؛ كما ضمننت لها ما هو أهم من ذلك ، وهو دخول

أسواق مزودة بوفرة من منتجات الشرق الأدنى . أما الحزب الايطالى فانه بذل كل ما فى وسعه للاتحاد مع حكام القارة المجاورة ، وبهذا كان يمثل مصلحة من مصالح البندقية الحيوية ، اذ كان من مصلحتها بالفعل أن تعقد مع هؤلاء الأمراء معاهدات صلح وصداقة حتى تحتفظ لنفسها بحرية استخدام الطرق والمجاري المائية التى تصل بوساطتها الى البندقية بضائع القارة لتنقل منها الى الشرق ، وتوزع عن طريقها بضائع الشرق الأدنى المستوردة فى أنحاء القارة . وكانت نتيجة هذا الازدواج من جهة نمو ثروات الأفراد ، وارتفاع شأن المجتمع الفينيسى، ومن جهة أخرى زيادة عدد البنادقة الذين تعمل فى نفوسهم مشاعر وطنية صادقة ، ويدركون أهمية عدم خضوعهم لأى من القوتين العظميين المتنافستين، ويريدون أن يجعلوا من البندقية مدينة مستقلة ، ومنطقة محايدة ، وسوقا حرة مفتوحة لمنتجات الشرق والغرب .

وفى عهد الكارولنجيين ، كانت تجارة البندقية قد بلغت درجة كبيرة من التقدم . فبغض النظر عن المتاجر التى فتحوها بجوارهم فى اقليم رافنا (١) ، وسوق روما التى كانوا دوما يترددون عليها ، وكان بها من البوائع ما يجذبهم اليها ؛ خلاف ابتياع العبيد ، فانا نكتفى بأن نذكر أن سفنهم كانت تقوم برحلات ذهاب وعودة بين أفريقيا وصقلية ، حاملة الركاب (٢) والبضائع ، وأنها كانت من قبل تزور سوريا ومصر . وحين حظر الأمبراطور لأوون الخامس الأرمنى (٨١٤ - ٨٢٠) على تجار أمبراطوريته ، لبوائع أوضاعها من قبل كل اتصال بهذين البلدين ، اتخذ الدوج الحاكم وقتئذ فى البندقية الاجراء نفسه مع مواطنيه (٣) . ولم يكن لهذا المرسوم أى معنى لو لم تكن هناك علاقات تجارية بين البندقية وبين سوريا ومصر . وبعد انقضاء بضع سنين (٨٢٧ أو ٨٢٨) (٤) كان فى الاسكندرية تجار بنادقة ، اما لأن الحظر قد رفع عنهم ، واما لأنه لم ينفذ بدقة ؛ (٥) بل استطاع هؤلاء التجار أن يسرقوا ثمة وفات القديس مرقس (سان مارك) الذى غدا شفيح مدينتهم (البندقية) ، والذى كان حتى ذلك الحين ، وفقا للسيرة التى تتعلق بنقل وفاته (٦) ، موضوعا لتقديس خاص من جانب البنادقة الموجودين فى الاسكندرية .

Cenni, I. C. I, 459 et s.

(١)

Cenni, I. C. 11, 79 ; Jaffé, Monum, Carol. p. 327 ; cf.

(٢)

Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia, I, 225 et ss.

Dandolo, p. 167.

(٣)

— Zon et Cicogna, à la Chronique de Canale, dans l'Archiv. Stor. ital. T, VIII, p. 710.

(٤)

(٥) الواقع أنه لا أحد يصدق أن العاصفة القت بهم ربما عهم فى ميناء الاسكندرية .

(Dandolo, p. 170).

Acta ss. Boll., Avril, III, 353 et ss.

(٦)

وبالنسبة الى تعيين المنجيات الغربية التى كان البنادقة يزودون بها اليونانيين والعرب ، فليس عندنا بشأنها سوى بعض الفروض : كانت على الراجح أصوفا ، وخشب البناء ، وأسلحة ؛ و ٠٠٠ عبيدا . ولكننا نعرف معرفة أفضل ما كانوا يستوردونه من الشرق ؛ ويزودنا التاريخ المشهور الذى سجله راهب القديس جال الداد فى هذا الخصوص بمعلومات قيمة ، اذ يحكى أن عددا من رفاقه كانوا يلبسون ذات يوم فى رحلة قام بها شارلمان فى ايطاليا ثيابا فخمة تتعارض مع بساطة الأمباطور وتتشغه ، وكانوا قد اشنروها فى مدينة بافيا Pavia حيث أقيمت وقتئذ سوق كبيرة ، وكان هناك تجار بنادقة يبيعون سلعا قيمة من الشرق الأدنى ، ولا يذكر لنا المؤرخ مصدر هذه الثياب ، ولكن بالنسبة لبراء القاقم ، فان كل ما ذكر عنها يتشير الى بيزنطة بسبب علاقتها بروسيا ، كما يشير الى سوريا ما ذكره عن ثياب مدينة صور الأرجوانية (١) . أما الأقمشة المتعددة الألوان المنسوجة أو المطرزة بصور الطيور (٦) . فلعلها يونانية أو عربية فارسية ، لأن ذوق هذا النوع من الزخارف كان مشتركا عند الجنسين . هذه الفترة تجعلنا نتبع الاتجاه الذى كانت تتخذه البضائع التى يستوردها البنادقة وقد عقد شارلمان مع أمباطور الشرق عدة معاهدات تحالف ، ومن الراجح أن الأمباطور تكفل بهذه المناسبة برعاية مصالح البنادقة ، وأن شارلمان منحهم الحرية التامة فى مزاوله التجارة فى ولاياته . حقا ان الوثيقة الخاصة بهذا الامتياز لم يعد لها أثر ، غير أنه يمكن اعادة انشاء مضمونها على وجه التقريب ، أما بوساطة خطابات التعزيز التى أعطاها خلفاؤه من الأباطرة والملوك ، والتى يشار فيها الى وثيقة شارلمان الرسمية أو بوساطة « تاريخ الطينو » .

Chronique d'Altino (٣) .

والشئ الذى يمكن تأكيده بصورة ايجابية تقريبا هو أن شارلمان منح البنادقة حرية التجارة فى أمباطوريته بشرط أن يدفعوا الضرائب المعتادة فى أماكن رسو السفن ؛ وعند ممرات الأنهار . وكانت ايطاليا العليا من بين أقاليم هذه الأمباطورية الشاسعة أقربها الى البندقية ، وثمة طريقان ، نهر البو Po

(١) يبدو اذن أن مصنع النسيج الأرجوانى فى صور استمر قائما تحت سيادة العرب ، ولكنه لم يعد يعمل لحساب بلاط القسطنطينية ، ففى هذا البلاط كانت هذه الصناعة تجرى على نعمة بيت المال ، وفى دار الامباطور نفسه ، وهذا ما انتهى اليه ، و ١٠٠ شميث W. A. Schmidt من كثرة ذكر عبارة : blatta byzantea فى Anastasius Bibliothecarius

(٢) يبدو أن المؤرخ كان يعتقد أنها طيور حقيقية ذات ريش مختلف الألوان يلصقها أفراد الحاشية على ثيابهم .

(٣) بخصوص خطابات التعزيز انظر :

— Romanin, Storia di Venezia, I, 359, 364, 366, 384.

وبخصوص صانعي النسيج انظر دراسة .

— Kohlshütter, Venedig unter dem Herzog Peter II. Orseolo (Gött, 1868), p. 75 et ss.

ونهر أديجة adige مصباهما بعيدان قليلا عن المدينة . وتشكل تعرجاتهما شريانين تجاريين كبيرين ، يتيجان لسفنها المرور حتى داخل البلاد وعن طريق نهر بو تصعد السفن حتى مدينة بافيا Ravenna ، وكانت هذه المدينة القائمة عند ملتقى ممرات الالب الكبرى متصلة بفرنسا وسويسرا وألمانيا عن طريق مجرى سانت برنارد ؛ وسيلوجن spugen (١) . وكانت بافيا وقتئذ مدينة كبيرة ؛ يحمل اليها البنادقة على ما يبدو منتجات الشرق الأدنى بنوع خاص . ولانستطيع القول عما اذا كانت مدينة فيرونا على نهر أديجة ، وعلى مسافة منها التيرونك تستفيدان بعض الشيء من تجارة البنادقة مع الشرق الأدنى .

وبعد العصر الكارولنجي ازدادت تجارة البندقية مع اليونانيين البيزنطيين نشاطا يوما بعد يوم ، وأسهم في ذلك بقدر كبير العلاقات المتصلة التي كان الأديج يوتقونها مع الأباطرة (٢) . وكان لويتهراند Luitprand أسقف كريمونة قد أقام بالقسطنطينية بصفة سفير مرتين ، الأولى في ٩٤٩ - ٩٥٠ والثانية في ٩٦٨ فوجد فيها عددا من البنادقة في الجيش اليوناني ، كما رأى في الميناء سفنا تجارية فينيسية ، ولاحظ أن موظفي الجمارك اليونانيين يفتشون السفن ، ويفحصون المنسوجات الحريرية المشحونة بها ، ويدمغون بعض القطع المصروح في ذلك الحين بنقلها ، ويصادرون قطعاً أخرى يحظر القانون تصديرها . وتحدث الأسقف بنفسه مع موظفي الجمارك وشرح لهم أن اجراءات الحظر التي يقومون بها غير مجدية ، وأن الأماليين والبنادقة يعرضون في أسواق الغرب أجمل الحرائر البيزنطية ، وهي ذات الحرائر الممنوع تصديرها ، وأنه من السهل اذن التهرب من نتائج التفتيش الرسمي (٣) . ولابد أن رحلات السفن التجارية الفينيسية الى اليونان كانت متواترة ، ان لم تكن منتظمة ، والدليل على ذلك أن البنادقة كانوا يتولون مهمة نقل الرسائل بين ايطاليا العليا وألمانيا والأمبراطورية اليونانية . وتسبب هذا الامر ذات يوم في مشاكل مؤلمة : ففي عام ٩٦٠ وصل بهذا الطريق الى البلاط خطابات سببت به كربا شديدا ، وأوقع الأمبراطور سخطه على الذين أحضروا له هذه الخطابات : لذلك كانت الرسائل التي يلتبس بها أصحاب السلطة في البندقية ومرؤوسوهم عطف الأمبراطور تقابل بأسوأ ما تكون المقابلة . وبلغ هذا الأمر مسامع الدوق بيتيرو كانديانو الرابع Pietro Candiano IV ، وللفور منع منعاً باتاً أداء هذه الخدمة الخاصة

(١) انظر ملاحظات كولشوتر ، المرجع السابق ص ١٨

(٢) من وجهة النظر هذه يحسن الاطلاع على مجموعة :

— Armingaud, Venise et le Bas-empire, dans les Archives des missions scientifiques, Série II, T. IV, p. 328 et ss.

Luitpr. I.C. p. 350, 357, 359.

(٣)

بنقل الرسائل ، حتى لا يترتب على ارسال خطاب مكدر ، يسلم الى صاحب الشأن بشيء من الطيش ، أن يفقد التجار البنادقة عطف الامبراطور ، وهم في حاجة شديدة الى عطفه ، وأمسست رسائل الدوق من ذلك الحين هي وحدها المستتناة من هذا الاجراء (١) ، وكانت علاقات البنادقة بالعرب عرضة لأن تثير مشاكل أكثر خطورة . ذلك أن من بين الأشياء التي كانت تحملها السفن الفينيسية أسلحة ، وخشب من المستعمل في بناء السفن ، وهو وارد من غابات دالماتيا Dalmatie ، أما الأسلحة فربما كانت خارجة من مسابك سيتريا Sterie و كارنثيا Carinthie (٢) . ولابد أن الأباطرة الحربيين من الأسرة الباسيلية كانوا غاضبين من رؤيتهم ربانة السفن الفينيسية وهم يزودون بالعتاد الحربي المسلمين الذين كانوا يشنون عليهم حربا ضروسا في آسيا الصغرى وسوريا وكريت . وفي عام ٩٧١ بعث الامبراطور يوحنا تزييميسيس Jean Zimiscès بشكاواه الى الدوق عن طريق السفراء ، وهدد بحرق السفن المستخدمة في هذه التجارة ، أينما وجدت . وللحال حظر الدوق بيع الأسلحة الى المسلمين أو تزويدهم في بلادهم بخشب يمكن استعماله اما لبناء السفن أو تسليحها ، ويستثنى من ذلك ألواح خشب الدردار أو الجوز التي طولها خمسة أقدام ، والأدوات المنزلية الخشبية (القصعات والجففات) ، ويعاقب كل مخالف بغرامة جسيمة ، أو يعدم اذا كان معسرا . وطبق هذا الاجراء في الحال على ثلاث سفن كانت على أهبة الابحار ، اثنتي منها متجهتين الى المهديّة (ميناء القيروان) والثالثة الى طرابلس (بأفريقيا) (٣) . ولا يجوز أن نستنتج من هذه الواقعة أن شمال أفريقيا كان السوق الرئيسية للخشب والأسلحة ، فلم يكن الامبراطور اليوناني ليهتم كثيرا بالقضاء على هذه التجارة لو لم تكن البندقية تزود بها أيضا المسلمين في مصر وسويا . ولعل الوسيلة الأقوى فعالية هي حمل سلطات البندقية على إلغاء كل صلة تجارية بالمسلمين إلغاء مطلقا ؛ ولكن الامبراطور اليوناني كان يعلم تمام العلم أنه سوف يصطدم بذلك بمقاومة شديدة ، ولم يجزؤ

(١) كانت هذه الرسائل من بافاريا ، وسكس ، ولومبارديا ذات صلة بالسياسة بطبيعة الحال . وفي هذا الوقت كان امبراطور المانيا أوتو الأول ، والمركيز برنجر (من افريا) يتنازعان سلطة الملك في ايطاليا ، وكان بلاط بينظلة على علاقة ودية بالامبراطور أوتو الأول ، ولم يكن الامبراطور اليوناني رومانوس الثاني الذي تولى الحكم عام ٩٦٠ يتوقع خيرا كثيرا من الأمير الثاني . والواقع أن برنجر كان هو الذي طرد من ايطاليا الملك هوج ، ملك بروفانس ، حما رومانوس ، وابن هوج لوتير الذي تشفع من أجله الامبراطور لدى برنجر ، انظر :

— Luitpr. dans Pertz, ss. III, 337.

ومات مسموما بيد برنجر . هذا على الأقل ما أكدته الشائعات . يمكن إذن أن نفترض أن كاتب الرسائل المشار اليها كانوا أعداء لأوتو الأول .

Gfrörer, Gregor VII, 215 et ss.

(٢)

Taf. et Thom. I, 25-30.

(٣)

على اقتضاء هذا الامر . الواقع أن البنادقة كانوا قد اعتادوا هذه التجارة حتى أصبحت لهم ضرورة حيوية ، ولم يتقبلوا الحظر الذى فرض عليهم الا لانهم شعروا أن مساندة ولو غير مباشرة تبذل للمسلمين ليحاربوا المسيحيين تكون بمثابة اعتداء على الآداب العامة . وبالأجمال كانت جهودهم تميل دائما الى تعزيز علاقاتهم أكثر فأكثر بالعالم الاسلامى . وقد أقام الدوق بيترو الثانى أورسيولو مجده على انماء مدينته ومسقط رأسه ، جمالا

Pietro II Orseolo

وثراء (١) ؛ وجمع الى هذا الشعور الوطنى عقلا راجعا وأقفا واسعا مجردا من كل تعصب ، ومن ثم بعث بالسفراء الى « كل » الأمراء المسلمين واستطاع أن يكسب مودتهم (٢) . ويبدو لنا أن فى هذا شيئا من المبالغة ، وأنه ينبغي ابداء بعض التحفظات . من ذلك أن كولشوتر Kohlshütter (٣) يستثنى بحق بلاط الأمويين فى قرطبة . وأرى أنه يمكن أيضا استثناء بغداد التى كان موقعها النائى بداخل القارة يجعل الوصول اليها عسيرا على المسافرين المسيحيين . كان هؤلاء المبعوثون يقومون على الأرجح بزيارة بلاطات حلب ودمشق والقاهرة والقيروان وبالرمو (٤) ، ويعودون معهم بلا شك امتيازات تضمن من جديد لتجار البندقية حسن استقبال مسلمى سوريا وشمال أفريقيا وصقلية . وفى الوقت نفسه بعث أورسيولو سفراء الى القسطنطينية حيث كان يتولى الحكم وقتئذ الامبراطور باسيل الثانى بالاشتراك مع أخيه قسطنطين ، وكلفهم أن يطلبوا خفض الضرائب على السفن التجارية الفينيسية فى الامبراطورية اليونانية . والواقع أنه فى كل زمان كان على كل سفينة يستأجرها تجار بنادقة ، قادمة من البندقية أو من أى ميناء آخر أن تدفع عند مدخل مضيق أبيدوس Abydos أى الدردينيل رسما لا يتجاوز « صوليدين » Solidi . غير أنه جد فى الامر بالتدريج مطالب أكثر من ذلك بحجة أو بأخرى ، وأثبت تحقيق أجرى على ما يحتمل بناء على طلب سفير البندقية أنهم كثيرا ما اقتضوا وحصلوا بالفعل على أكثر من ٣٠ صوليدى ؛ وأن الامبراطور قد فرض رسما للدخول من صوليدين؛ ولكن رسم الخروج يمكن أن يكون أكبر من ذلك ، دون ضرر ، لأن البنادقة يصدرون من الامبراطورية اليونانية منتجات أثمان وأغلى بكثير من المنتجات التى يستوردونها اليها ، وقد تحدد رسم الخروج بمبلغ ١٥ صوليدا فقط ، فكان على السفن الفينيسية اعتبارا من تلك اللحظة أن تدفع بالأجمال ١٧ صوليدا . ولما كان فى هذا امتياز خاص ، فانه حظر على البنادقة - والا حرموا من هذا

Johannis Diaconi Chron. Venet., dans Pertz, ss. VII, 29. (١)

Johannis Diaconi l. c. ; Dandolo, dans Murat XII, 223. (٢)

Venedig unter Peter II. Orseolo, p. 18. (٣)

Kohlshütter, Op. cit., p. 16-17 : Gfrörer, Byzantische Geschichten, I, 375. (٤)

الامتياز - أن يشحنوا سفنهم ببضائع تنتمي الى أمالفيين أو يهود أو باريين (سكان باري) (١) ، الخ والادعاء بأنها بضائعهم . ومن جهة أخرى ، ولازالة كل شكوى من جانب البنادقة من المغالاة في المكوس ، سحب من صغار موظفي الجمارك ومراقبي الموانئ مهمة تفتيش السفن الفينيسية وسلطتهم القضائية بشأن بحارة هذه السفن ، وكلف بهذه المهمة - كما كان في الماضي - موظفا كبيرا من موظفي المالية ؛ كما نص على أن السفن التي تريد الابحار لايحوز احتجازها دون مبرر جدي أكثر من ثلاثة أيام . وكان على البنادقة من ناحيتهم أن يتعهدوا بوضع سفن تحت تصرف الحكومة اليونانية في كل وقت لنقل جيوشها الى إيطاليا ؛ وصدر هذا المرسوم الهام في شهر مارس عام ٩٩٢ (٢) ولكننا لا نملك النص اليوناني الأصلي للمرسوم ، وليس معنا سوى ترجمة لاتينية أعجمية ، فضلا عن أنها غير كاملة (٣) .

وبعد أن تم اعطاء دفعة جديدة لتنمية تجارة البندقية مع الشرق بالطرق الدبلوماسية ، بقيت عقبة لايمكن ازالتها الا باستخدام القوة وحدها ، وتتمثل هذه العقبة في قرصنة كرواتيا ، وهذا ما فعله بيترو أورسيولو في عام ١٠٠٠ ، اذ أعطى هؤلاء القرصنة درسا قاسيا ، وفرض عليهم الجزية (٤) . وبعد هذه الضربة الشديدة تم له اخضاع الدالماشين في رومانيا حتى راجوزة Raguse (دبروفنك حاليا - المترجم) ، ومن هذا الحين أصبحت البندقية سيدة البحر الادرياتي بلا منازع .

كل هذه الجهود لم تمنع الدوق من الاهتمام بأن يكفل لشعبه حرية التجول على طرق إيطاليا وأنهارها ، فجدد مرارا مع صديقه الامبراطور أوتو الثالث المعاهدات القديمة (٥) ، وكانت هذه المعاهدات قد أقرها منذ عهد شارلمان عدد من ملوك إيطاليا العليا ، ثم أوتو الأول ، وأوتو الثاني ؛ وفي كل مرة كان ينص في المعاهدات على أن يتولى الأمير حماية التجار البنادقة الذين يرتحلون بهذا البلد . وفي عهد حكومة أوتو أورسيولو ، ابن بيترو الثاني وخليفته

Longombardos de civitale Bari. (١)

Kohlschütter, p. 65 et s. (٢)

Taf, et Thom, I. 35-39 ; Cf. la discussion de Kohlschütter, op. cit., (٣)
p. 11-14, 65 et s. ; Gfrörer., Op. cit., p. 359 et ss. ;

غير أن هذا الكاتب يدعى كثيرا أنه يقرأ ابن السطور ، في هذه النقطة وفي غيرها بوجه عام .
Hirsch, Heinrich II., I. 168, not, 3 : Kohlschütter, op. cit., p. 39. (٤)

Romanin, I, 383 et ss. (٥) بخصوص معاهدة ٩٩٢ انظر :

وبخصوص معاهدة ٩٩٦ انظر :

Joh. ioc. Chronis-venet I,C, p. 30.

(١٠٠٩ - ١٠٢٦) صدر مرسوم للامبراطور هنرى الثانى على الأرجح (١) يحظر على البنادقة عرض حرائرهم للبيع فى أى مكان خلاف بافيا Pavia ، وسوقين آخرين يصعب تحديد موقعهما (Mercatum S. Martini et Olivum) (٢) ؛ غير أن هذا الحظر لم يكن سوى حظر مؤقت . وبوجه عام لم يكن مما يتعارض مع مصالح الألمان أن ينشر البنادقة منتجات الشرق الى مدى بعيد ، لأنهم كانوا على غرار اللمباردين مضطرين الى الاتصال بالبندقية للحصول على المنتجات التى يحتاجون اليها ، كما تتكفل البندقية فى مقابل ذلك بتصريف منتجاتهم فى الشرق . لذلك كان الناس ، حتى فى وسط ألمانيا ؛ يتابعون باهتمام رحلات البنادقة . وفى عام ١٠١٧ غرقت أربع سفن ضخمة محملة بالتوابل ، فذاع خبر هذه الكارثة حتى وصل الى مرزبورج Mersebourg التى اهتم أسقفها بتييتمار Thietmar بتدوين هذا الخبر فى سجله التاريخي (٣) .

ونذكر أيضا ، كدلالة على خطوة جديدة فى تقدم تجارة البندقية ، المزايا التى منحتها لهذه المدينة الامبراطور الكسيوس الأول كونيونوس اعترافا بالمعونات التى تلقاها منها فى فترة حرجة : اذ ما أن اعتلى العرش (فى ابريل ١٠٨١) حتى تعرضت امبراطوريته لغزو خطر ، فقد حشد أمير بارع فى فنون الحرب كلها ، وهو الدوق النورماندى روبرت جيسكار فى ميناءى برنديزى واورانت Oirante جيشا قليل العدد ، ولكنه ممتاز ، تاهب به للاستيلاء على بعض أقاليم الامبراطورية اليونانية . وكان فى مقدور الامبراطور أن يواجه النورمان بجيوش كثيرة العدد ومدربة على القتال ، لايُنقص أفرادها الشجاعة والاقدام ، ومع ذلك رأى من الضرورى البحث عن حلفاء . واستطاع القوى فى مثل هذا الوقت عون له قيمته ، وفى مقدوره أن يقيم فى وجه العدو مصاعب خطيرة ، اما فى عرض البحر ؛ أو وقت نزول الجند من السفن ؛ بل فى امكانها اذا واتاها الحظ أن تقضى على الحملة برمتها . غير أن الامبراطور لم يكن يثق كثيرا فى أسطوله ، ومن ثم ولى وجهه شطر جمهورية فينيسيا ، فبعث اليها بالهدايا ؛ ووعدا بهدايا أخرى ، حتى ولو لم ينجح ؛ واستجاب لكل مطالب الشخصيات التى أرسلها البنادقة الى القسطنطينية للتحالف معه (٤) . ولم يكن ثمة داع لكل ذلك اذ لم يكن بوسع الجمهورية أن تنظر بلا مبالاة الى نابولي وبيزنطة أو حتى السواحل

Gfrörer op. cit., p. 435.

(١)

ثم أن هذا الامبراطور صدق فى عام ١٠٠٢ على معاهدات المدك أوت مع البندقية ، انظر : Hirsch, Heinrich II, I, 235.

(٢) تذييل يضاف فى نهاية : Codex urbinas de la chronique de Johannes. Diaconas, dans Pertz I, c. p. 38.

Pertz, ss. III, 860.

(٣)

Anne Comnène, Alexias, éd. Bonn, I, 191 et s.

(٤)

اليونانية، والاطالية للبحر الأدرياتي تحت سيطرة قوة حربية فتية كقوة النورمان ، وكانت تلك مسألة حياة أو موت بالنسبة الى تجارتها البحرية . وحتى يفرض أن النورمان لم ينجحوا الا في الاستيلاء على سواحل البحر الادرياتي الشرقية أو سواحل الجزر الايونية ، فان البندقية لن تكون بمأمن من هجماتهم . ألم يحاول روبرت جيسكار في عام ١٠٧٥ الاستيلاء على جزء من الاقليم الفينيقي بأن أغار على سواحل دالماشيا ؟ غير أن النورمان اختبروا آئذ تفوق البحرية الفينيسية ، فقد طردهم الدوق دومينيك سلفو Dominique Selvo من دالماشيا ، وأجبرت مقاطعات سبالاتو ؛ وترو ، وزارا ، وبلغراد على التعهد بألا يستنجد أى من مواطنيها بالنورمان أو بأى عدو آخر من عداء البندقية (١) ولعل هذه المعلومة تثبت أن بعضا من سكان دالماشيا كانوا يتحيزون للنورمان ويفكرون فى أن يزعموا بمعونتهم تفوق البندقية . ونعود الى عام ١٠٨١ حين هاجم روبرت جيسكار الامبراطورية اليونانية ، فارسلت مدينة راجوزة الحرة لمساعداته أسطولا حارب الى جانب السفن النورماندية (٢) .

ومن الواضح أن البنادقة فى هذه الأحوال لم يصبروا طويلا على دعوات الكسيوس : ففي شهر يولية عام ١٠٨١ ، قبل التاريخ الذى حدده الامبراطور بثلاثة ايام ، ظهر أسطولهم فى مياه دورازو Durazzo مجهزا بكل سرعة وبعدد كبير من البحارة تحت قيادة الدوج دومينيك سلفو نفسه ، وكان هذا الموقع هو مفتاح الامبراطورية اليونانية من ناحية الغرب (٣) ، وهذا هو الباعث الذى دفع النورمان الى أن يوجهوا اليها جهدهم الرئيسى ، فحاصروها برا وبحرا منذ ٧ من يولية (٤) ، وتصادم الأسطولان بشدة ، وتقاتلا ثلاثة ايام (٥) ، وفى اليوم الثانى اقتحم البنادقة مدخل الميناء ، وأجبروا العدو على رفع الحصار من ناحية البحر (٦) ، وفى اليوم الثالث تمت هزيمة

(١) Dandolo, p. 248; Taf. et Thom. I, 41, 43; Lucius, De regno Dalmat. lib. II, p. 88.

(٢) Guill. Apulus ; lib. IV, v. 134, 302.

(٣) هذا هو الوصف الذى أجراه بصدق لهذه المدينة كارل شوارتز فى دراسته الرائعة للحملات التى شنّها روبرت جيسكار على الامبراطورية البيزنطية :

— Fuldaer Gymnasial - programm, 1854, p. 11.

(٤) هذا هو التاريخ الذى ذكرته الأكوميننا :

— Anne Comnène, Op. Cit., éd. Bonn. I, 187.

— P'Anon. Barenis, dans Murat. III, 173. — ويذكر شهر يولية :

— Lupus Protospatharius, dans Pertz ss. V, 60. — أما :

فانه يؤخر الحدث الى شهر يولية ، ولكن هذا غير صحيح .

— Schwartz, p. 14-18. — (٥) بخصوص التفاصيل ، انظر

Lupus Protosp., ibid, p. 60 et s.; Dand p. 248 et s. (٦)

الأسطول النورماندى . وفى هذه الأثناء تقدم الكسيوس برا صوب دورازو ، وشن على مرأى من المدينة معركة حاسمة ، ولكنه خسرهما ، واضطر الى الفرار ، ولم يتوان فى أن يعهد بالدفاع عن القلعة الى فرقة من صفوة مختارة من الجند ، من بينهم بنادقة من سكان دورازو ، وسلم امرة المدينة الى شخص يدعى كوميسكورسيز Comiscortès (١) . وتسجل أنا كومينا Anne Comnène أن البنادقة والأمالفيين وهم الغالبية من سكان دورازو ، وقد أوهن عزمهم هزيمة الامبراطور ، وخشوا تجدد الحصار فى الخريف القادم ، عقدوا العزم بالاجماع على فتح أبواب المدينة للدوف النورماندى (٢) وتحكى السجلات التاريخية النورماندية بكثير من التفاصيل - وهى أكثر دراية بهذه المسألة . كيف سقطت المدينة بخيانة رجل فينيسى واحد رغم دفاعها العنيف (٣) . وعلى أية حال لم يلق الامبراطور على البندقية بمسئولية الخطأ الذى ارتكبه أفراد جاليتها فى دورازو ، أو بالأحرى خطأ واحد منهم . فبعد الانتصار البحرى الذى تحدثنا عنه آنفا ، بعث بهدايا فاخرة الى الدوج ومعاونه (٤) .

وفى شهر مايو عام ١٠٨٢ أوفى بوعده ، ومكافأة للمساعدة التى تلقاها من الجمهورية ، منحها بمرسوم مجموعة من الامتيازات . وتعطينا أنا كومينا لمحة من ذلك ، ولكنها تخطئ فى تحديد التاريخ . ذلك لأنها تربط هذه الامتيازات بأحداث عام ١٠٨٤ : وفى هذه المرة ، أراد أسطول فينيسى أن يصد محاولة أخيرة قام بها روبرت جيسكار ، فعمل الأسطول مرة أخرى فى البحر الأدريائى ، ولكنه لم يوفق كلها ينبغى (٥) . ويبدو أن النص الأصلى لهذا المرسوم قد فقد ، ولكنه نقل حرفيا فى وثيقتين لاحقتين أصدرهما الامبراطوران عمانويل Manuel واسحق Isaac (٦) . وسوف أضرب صفحا عن الهدايا الفاخرة التى وزعت بهذه المناسبة على كنائس البندقية ، والألقاب الرنانة التى منحت للدوج والبطريك ، لهما ولخلفائهما ، وأكتفى بأن أذكر أن التجار الأمالفيين المقيمين بالامبراطورية اليونانية أصبحوا فى هذه الآونة تابعين لكنيسة القديس مرقس . وكانت النقطة الأساسية فى المرسوم هى الامتياز الممنوح للتجار البنادقة بأن يزاولوا البيع والشراء فى كل ربوع الامبراطورية اليونانية دون أن يتعرض لهم موظفو الجمارك أو المالية أو الموانئ ، وحظر على الآخرين القيام بتفتيش بضائعهم أو مطالبتهم باسم

Anne Comnène 1, c. éd. Bonn, 1, 221. (١)

Anne Comnène, ed. Bonn, I, 223. (٢)

Gaufr. malat, p. 584 et s.; Guill. Apulus, lib. IV, v. 449 et ss. (٣)

Anne Comnène, éd. Bnn, J, 194. (٤)

Ibid, éd. Bonn, I, 286 et s. (٥)

Tof et Thom. I, 51-54, 116 123, 182-186. (٦)

الدولة بأداء ضريبة لذلك . وقد جعل هذا الاجراء البنادقة فجأة في وضع متميز عن كل منافسيهم ، وفتح لهم مجموعة لا حصر لها من الموانئ دون أن يلتزموا بدفع أى شيء ، سواء لرسو سفنهم ، أو لشحن أو تفريغ بضائعهم ، واصبح فى مقدورهم أن يجوبوا أقاليم شاسعة دون أن يلتزموا بدفع أية ضرائب عن الاستيراد أو التصدير أو البيع أو الشراء . ولا بد أن منح البنادقة هذه الامتيازات غير العادية كان فرصة لنمو جديد فى نشاطهم التجارى فى الامبراطورية اليونانية . ثم ان المرسوم الذى نحن بصدده يدعوهم الى ذلك ، فهو يذكر عددا كبيرا من المدن الواقعة على شواطئ البحر ، أو التى يمكن أن تصل اليها بسهولة البضائع الآتية عن طريق البحر ، يذكرها على أنها أماكن تجارية مفتوحة للبنادقة ، دون أن يتضمن هذا التعداد أى قيد (بالنسبة الى التجارة) على المدن الأخرى . وتبدأ هذه القائمة بشمال سوريا ، وبها أسماء اللاذقية ، وأنطاكية (١) ، ومن هناك يتتبع الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى ، فيذكر مدن مامسترا Mamistra (mopsueste) وأطنة ، وطرسوس ، وقلقية ، وأطليا Attalia (Satalia) فى بامفيليا Pamphylie ثم يصعد شمالا ، ويتبع خطا يمر باستروبيولوس Strobilos فى كاريا Carie وينتهى الى كيو Chio (٢) وفوكيا Phocée (Fog'ia) ويشب فجأة الى أوروبا ، ويفتح مجموعة ثانية تبدأ بأسماء مدن واقعة فى الجزء من الاقليم اليونانى الذى يواجه إيطاليا ، ونجد ثمة أسماء دورازو ، وأفلونا Avlona ، وبوندتزا Bonditza وجزيرة كورفو ، ومودون Modon وكورون Coron ونوبليا Napulie وكورنثيا Corinthie فى اليبوبونيز ، وأثينا ، وطيبة فى اليونان الوسطى تم نجر بونت (ايوبويا حاليا ، - المترجم) Eurippos) وديمترياس Démétrias فى خليج فولوس Volo ، وتسالونيك Thessalonique وكريزوبوليس Chrysopolis أعلا مصب نهر ستريمن Strymon وأخيرا مدن تراقيا Thrace ، وبيرثيورون Perithéorion وأبيدوس Abydos واندريونيل (حاليا درنة) Andrimople وأيروسوس Apros واراكليون Héraclée وسلمبيرا Selymbria على بحر مرمرة ، وفى النهاية القسطنطينية ، وقد ذكرت هنا كما ذكرت فى وثائق أخرى باسم Megalopolis (٣) (أى المدينة

(١) فى حوزتنا دلائل مختلفة تثبت أن البنادقة كانوا يزورون هذه المدينة قبل الحروب الصليبية . فذات يوم ، على سبيل المثال ، قام بعض البحارة البنادقة بتخليص ابن ملك حربى اسمه قسطنطين بودينوس Constantin Bodinus كان ثمة أسيرا فى أيدي اليونانيين (فى حوالى عام ١٠٧٠) . وفى مرة أخرى كان أهالى بارى الذين سرقوا المخطفات الآثرية فى مير Myre (١٠٨٦ - ١٠٨٧) قد فابلوا بأنطاكية بنادقة بديرون مؤامرة ماثلة : انظر :

— Joh. Curopal, éd. Bonn. p. 718.

(٢) سوف اتحدث فيما بعد عن اسم ثيولوجوس Théologos الذى أطلق هنا على أفسس

Nicet, p. 205, 522 ; Eustathius, Opp. p. 234, 271, 273 et s. ; (٣)

Documenti sulle relazioni, toscane, coll'Oriente, p. 42.

الكيرة) ، وهو حقا اسم على مسمى . ومن الطبيعي أن يتردد البنادقة منذ تلك اللحظة ، وأكثر من قبل على موانئ وأسواق الامبراطورية اليونانية ، وأن يعرفوا كيف يستغلون الوضع المتميز الذي جعلهم امة الأكثر رعاية . وكان لابد من انقضاء زمن طويل قبل أن تظهر أمة أخرى تنازعهم مكان هذه الصدارة . وفي هذه الآونة لم يكن أهالي جنوا وبيزا مزاحمو البنادقة في المستقبل قد ظهروا بعد في اقليم الامبراطورية . وكان البنادقة والأماليون في كل العهود مرتبطين بروما الشرقية يوشائج سياسية .

أما بخصوص جنوا وبيزا ، فلم يكن لهذه التبعية وجود ، لأن هاتين المدينتين كانتا واقعيتين في القسم من إيطاليا الذي استقر فيه وساده القوط واللمبارديون والفرنجة على التوالي . وبتأثير النفوذ الجرمانى على هذه المناطق كان نمو استقلال المدن بها أبطأ من نموه في سائر المدن . وفي البداية كانت السلطة الملكية المثلثة في الكونتات والدوقات هي المسيطرة بقوة على السلطات المحلية ، وفيما بعد أصبح السادة الاقطاعيون الأقوياء هم المتحكمون في هذه المدن . وفي القرن الحادى عشر مارس مركيزات توسكى Tuscie (تسكانيا Toscanie) سلطتهم القضائية بصفتهم كونتات في مدينة بيزا (١) ، أما بأشخاصهم ، لأنهم كثيرا ما كانوا يعقدون بها محاكمهم ، واما بوساطة الفيكونتات (٢) ، وفي الوقت نفسه كان لمركيزات بيت أوبرتى Oberti بمحاكمهم الخاصة داخل أسوار مدينة جنوا (٣) . فقط ، قبل الحروب الصليبية الأولى بقليل ، كما سوف نرى فيما بعد ، ضم بورجوازيو المدينتين بجهودهم ، ونجحوا في الحصول على استقلالهم المحلي . وطالما كانت المدينتان اللتان قدر لهما أن تلعبا دورا عظيما وبعريتهما مضطرتين للكفاح خطوة بعد خطوة ضد سادة اقليمين قويين لدعم حريتهما السياسية فانهما صادفتا عقبة بعد أخرى في طريق تقدمهما .

والمعروف أن جنوب إيطاليا لم يكن هو وحده الذى قاسى من غارات المسلمين فقد تلقت سواحل تسكانيا وليجوريا زيارات هؤلاء الضيوف المرعبين الذين استولوا على جنوا ونهبوها في عام ٩٣٥ (٤) ، وتحملت بيزا في عامى ١٠٠٤ ،

(١) Murat, Antig. ital III, 1091.

(٢) Chron. S. Hubert, Andag., dans Pertz ss. VIII, 583; Fiorentini, Vita della Grancontessa Matilda, 2e éd. II, 130.

(٣) Monum. hist. patr. Charloe, I, 527-529.

(٤) Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia II, 181 et s.

— يحكى أمارى عن هذا الحدث رواية مختلفة ، وفقا لما ذكره الكتاب العرب . وقد اتخذ

هذا الحدث من الوقائع الغربية في زمن مكر صورة أسطورية ، وبقي تحديد العصر محجولا .

— Liutpr. Antapod., dans Pertz, ss. III, 316; Dandolo, dans Murat XII, 201 ; Jac. de Voragine, ibid IX, 10 et s. ; Cf. Pallavicino dans les Mem. dell'Acad. di Tornio, 2e série, T. II, 120 et ss.

١٠١١ نفس المصير (١) . على أن كل هذا لم يكن لحسن الحظ سوى أحداث عارضة سرعان ما زالت آثارها ، ومع ذلك كان من المستحيل على المدينتين أن تتوسعا طالما بقي القراصنة العرب مهيمنين على القسم الغربي من البحر المتوسط. يهددون أمن السفن التجارية المسيحية، وقد كانوا من قبل مهيمنين على جزر صقلية والبلبار . وكان الموقف خطيرا : إذ لو أنهم استقروا بصفة دائمة في سردينيا ، الأمر الذي كان يخشى منه نتيجة لغاراتهم المتكررة لكان في ذلك قضاء على بحرية ليجوريا وتسكانيا المحاصرتين والمهددتين من جميع الجهات . ودور لهذا الخطر بذل أهالي بيزا جهودا شديدة ، وساعدهم أهالي جنوا في ذلك بشجاعة . وفي مرتين ، عامي ١٠١٥ ، ١٠١٦ سيروا أساطيلهم الحربية الى سردينيا حيث استقر بها منذ قليل قائد من عرب اسبانيا ، هو مجاهد بن عبد الله الأمري (٢) ، ونجحوا في طرده منها (٣) . واذ قويت شكيمتهم بهذا النجاح ، فإنهم مضوا للقاء عرب أفريقية في عقر ديارهم . وفي عام ١٠٣٤ استولوا على بونة Bone (٤) (حاليا عنابة ، بالجزائر - المترجم) . وتميز عام ١٠٨٧ بحملة هامة : ففي تلك الفترة كان يحكم المهديّة الأمير تميم (١٠٦٢ - ١١٠٧) من أسرة بني زيري ، وهو قرصان ذائع الصيت أشاعت حملاته البحرية الرعب في أنحاء بعيدة من البحر المتوسط ، واستعبد الكثير من الأسرى المسيحيين ، وعامل بقسوة تجار بيزا . وكان لابد من الانتقام من هذه الإهانات وكان البابا فيكتور الثالث هو الذي أعطى إشارة البدء في الثورة المسلحة (٥) ، وعين على رأس الحملة قائدا من رجال الدين يدعى Praesul Benedictus (القائد بندكتس) ، واشترك في الحملة جنود من الرومان تعنت امرة بانتاليون

(١) Marang, Annal Pis., dans Pertz ss. XIX, 238 .

— ذكر « مارنج » العامين ١٠٠٥ ، ١٠١٢ ، ربما لأنه اعتمد على التاريخ البيزي .
أنظر أيضا : Dove, De Sardinia insula, p. 65 et s.

(٢) Dove, I.C. p. 50, 63 et ss.

— لم يثبت أن العرب امنلوكوا سردينيا معنا طويلا ، أنظر :
Dove, p. 51 Amari, I.C. III, 1e p. 5 et ss. 12; Biblioth. Arabo-sicul trad. I., 436 et ss.

(٣) Marang, loc cit.; Dove, p. 65-67. Amari, I. c., p. 8, 9.

— ذكرت هذه الواقعة كتابة منقوشة على حوائط كاتدرائية بيزا ، بلا تاريخ .
Morrona, Pis illustr. I, 155; Marang., I. c. p. 238;
Amari, I. c. p. 13.

— يفترض أماري أن سفن جنوا وبروفانس قد اشتركت في هذه الحملة .

(٤) Petr. Diac. Chron. Cassin, dans Pertz ss. VII, 751.

(٥) أنظر مقال ستريلك :
Strehleke, dans les Denkmäler de Schulz : II, 244 : Guigliemotti,
Storia della marina pontifica nel medio evo, I, 218 et s.

يعرض هنا الأخير الواقعة بصورة أخرى ،
فيقول ان بانتاليون كان تحت امرته الامالين ، وعلى رأس الرومانيين شخص يدعى بييترو Pietro

الأمالفي (١) . الا أن معظم الجيش الذي تقدر المصادر العربية تعداداه بحوالى ٣٠٠٠٠ رجل على ظهر ٣٠٠ الى ٤٠٠ سفينة (٢) كان مكونا من جنود بيزا وجنوا . استولت الحملة أولا على بلدة زويلة Zuila وهي ضاحية تجارية على مشارف مدينة المهديّة ، ثم استولت على المدينة نفسها . واذ انتهى الأمر بتميم الى الاعتصام بداخل قلعته ، فانه لم يتوصل الى انسحاب المسيحيين الا بعد أن بذل تضحيات كبيرة من مال وأسرى ؛ واضطر فوق ذلك أن يأخذ على نفسه تعهدات ثقيلة ؛ أهمها - بالنسبة الى المدن التجارية . السماح لتجارها بدخول اقليمه دون أن يؤدوا أية ضريبة (٣) ؛ وهكذا عاقب أهالي جنوا وبيزا عرب أفريقيا ، وفتحوا الطريق لتحارثهم البحرية .

كان من المقدر لأمة أخرى أن تطرد العرب من صقلية ، الا أن البيزيين لم يكتفوا من هذه الناحية بدور المتفرجين . فمند زمن بعيد ؛ ورغم وجود المسلمين ، كان تجارهم يزورون هذه الجزيرة ؛ ولما كانوا يقاسون المعاملة السيئة من جانب سادة البلد ، فانهم راحوا يتابعون باهتمام انتصارات الدوق النورماندى روجر ، والتي كانت تبشر ببسط سيادة مسيحية في المستقبل في صقلية . ومع ذلك كان تقدم الدوق بطيئا جدا فى نظرهم ، فقد كانوا يودون لو أنه وجه جهوده أولا الى بالرمو ، عاصمة الجزيرة ومركز الحياة التجارية ، ولكنه تردد فى الهجوم على المدينة لأن جيشه كان قليل العدد ؛ وكان قسم من قواته مشغولا فى ناحية أخرى . وتوسل اليه البيزيون دون جدوى أن يتعاون معهم فى حصار المدينة . واذ رفضه ، قرعهم فى عام ١٠٦٢ على أن يغامروا وحدهم بتنفيذ هذا المشروع ، وقام أسطولهم ذات يوم بمهاجمة الميناء ، ودمروا السلسلة التى تغلق مدخلها ؛ واقتحموها ؛ واستولوا على بضع سفن عربية مشحونة ببضائع ثمينة ، وأنزلوا فرقا شنت هجوما موقفا تحت أسوار المدينة ؛ غير أن نجاحهم توقف عند هذا الحد ، فلم يستطيعوا الاستيلاء على المدينة نفسها (٤) .

Amari, 1, c. p. 102.

(١)

(٢)

Marango, 1, c. p. 239; Gaufr, Malaterra, dans Murat, SS. V. 590 590 et s.

(٣)

Abou-S. Salt Omea, dont El Tidjani a reproduit la relation dans ses voyages (Journ. asiat., série V.II, p. 375 et s) ;

Amari (Stor, dei mus. III, 171, note); Cf. Biblioth. Arabo-Sic., trad. T. I, p. 440 et s., II, 32 et s., 62 et ss. 153 et s., 213.

(٤) فى كاتدرائية بيزا كناسة تحوى على قصة هذه الحملة ، وتحدد تاريخها (عام ١٠٦٣ حسب

— Publ. par Morrona, Pisa illustr. I, 157, 2e éd. النفويم البيزى :

— Marang. I, c. p. 238 et s. أما مارانج فانه يحدد اليوم .

— Gaufr. Malat, p. 569; art. de Hirsch sur Amatus, dans les Forschungen. Zur deutschen Gesch. p. 304; Amari, III, 102; Giesebrecht, Gesch. d. deutsch Kaiserzeit III, 3, p. 1082.

وانصرم أيضا قرابة عشر سسنوات قبل أن يستطيع النورمان السيطرة على بالرمو (١) ، ثم بالتدريج على الجزيرة بأكملها . وكان لاستيلاء المسيحيين على صقلية أعظم النتائج لصالح الأمم البحرية في أوروبا ، إذ فتح لهم أبواب بلد لم يزل يباهى بشهرته القديمة بالخصوبة ، ووضع في متناولهم كمية كبيرة من الحاصلات الطبيعية والمنتجات الصناعية ، أتيج للعرب الوقت الكافي لاقامتها أثناء احتلالهم الطويل للجزيرة ، من سكر ، وبلج ؛ وقطن ؛ ومنسوجات حريرية . ولم يلبث أهالي أماغيا (٢) ، والبندقية (٣) ، وجنوا (٤) أن حصلوا من الملوك النورمان على الحق في دخول الجزيرة والتصريح لهم بإقامة متاجر فيها ؛ واستطاعوا تزويد حوانيتهم ومخازنهم بهذه المنتجات ، واستيرادها في سفنهم . واجتذب هذا الحدث الأنظار الى موضوعات أخرى ، ذلك أن كل السفن المبحرة من أسبانيا ، أو فرنسا ، أو الساحل الغربي لايطاليا صوب الشرق الأدنى أو شمال أفريقيا كان لابد لها أن تمر على مرأى من صقلية الكائنة وسط طريقها . لم يعد أمام هذه السفن من تلك اللحظة أية مشكلة ! فقد أصبح في امكان السفن التي تمضي بمحاذاة الساحل الغربي للجزيرة أن ترسو بأمان عند تراباني Trapani (٥) ، وكانت السفن تجتاز دون خوف مضيق مسينا الذي كان شاطئاه خاضعين لسلطة أمراء أصدقاء ، ولم يعد الرسو في موانئ مسينا ، وكاتانيا ، وسيراكوسة (٦) التي نما رخاؤها سريعا بتأثير الحروب الصليبية يمثل مشكلة بالنسبة اليهم منذ أن كفلت لهم الامتيازات التي منحها

(١) أشك في أن البيزبين أنفسهم نجحوا في الاستيلاء عليها ، ذلك لأن الواقعة لم تذكر في تواريخ لاحقة ، ولا يعتقد كثيرا بروايتها ، أنظر :

— Le Breviarium hist Pis. dans Murat, ss. VI, 168; Ranieri Sardo, dans les Archiv. stor. VI, 2, p. 77.

Hugo Falcandus dans Del Re, Cronisti, p. 283; Gregorio, Con- siderazioni sopra la storia di Sicilia, T. II, prove, p. 23, lig. 5, 6.

Mortillaro, Opere I, 379 et s.; 388 et s.; Taf et Thom. I, 135 et s., 171 et ss.; Romuald Salern; dans Pertz ss. XIX, 450 et s., Noche., Heinrich VI, p. 630.

(٤) لا يرجع استيطانهم مسينا الا الى مطلع القرن الثاني عشر ، كما سنرى فيما بعد : Annal Jan., dans Pertz SS. XVIII, 108.

(٥) بخصوص أهمية هذه المدينة ، أنظر ابن جبير : Ibn-Giofair, trad. P. Amari dans les Arch stor. if App. 4, p. 41-43

— Amari, Bibl. Arabo-sic trad. I, 165 et s. أنظر كذلك :

Gregorio, Discorsi intorno alla Sicilia, I, 135 et ss.

(٦) الادريسي ، الجزء الثاني ٨١ - ٨٣ ، أثبت ازدهار هذه المدن الثلاث في عهد السيادة النورماندية .

— Amari, Bibl. Arabo-sic, trad. I, 67-73. أنظر أيضا :

وبخصوص سينا ، أنظر ابن جبير ، المرجع السابق ص ٣٣ ، و « أماري » :

— Amari, Bibl. cit I, 144 et s.

أياهم الملوك النورمان استقبالا وديا ، ووثقوا من الحصول بالجزيرة على مساعدة قناصل دولهم ، أو على الأقل مواطنيهم المقيمين بها من أجل أعمالهم . هذه الملاحظات تعود بنا الى الموضوع الخاص بدراستنا هذه ، أى تاريخ تجارة الشرق الأدنى .

لم يترث ربانة السفن التجارية التابعة لجنوا حتى يضمن لهم غزو صقلية الأمن في طريقهم الى الشرق : فنحن حين نقرأ أن جيزولف Gisulf أمير سالرنو (١٠٥٢ - ١٠٧٧) (١) كان بدافع من جشع شديد يستولى في كثير من الأحيان على سفن ييزا أو جنوا التي كانت لسوء حظها تمر أمام سالرنو ، فانا نتساءل للفور عن الجهة التي تقصدها هذه السفن ، فتأتينا الاجابة للتو : لابد أنها مبحرة الى سوريا أو مصر عن طريق مضيق مسينا . ولكننا نعتمد في ذلك على مجرد افتراضات . أما بخصوص أهالي جنوا ، فانا نعلم بشهادة حاج انجليزى أنهم كانوا في هذا العصر على علاقة تجارية بفلسطين . فالواقع أن انجلف Ingulf قس كرويلاند Croyland ، بعد أن أدى الحج في القدس في ربيع عام ١٠٦٣ ركب البحر ثانية في يافا في سفينة من أسطول جنوا التجارى (٢) . ويقال ان جودفروى دو بويون ، في رحلة الحج التي قام بها الى قبر السيد المسيح (بالقدس) مع كونت الفلاندر وأشرف آخرين ، أبحر أيضا الى الاسكندرية على سفينة من جنوا تسمى لا بوميللا la Pomella ، وركب السفينة نفسها عند عودته (٣) .

غير أن جنوا ويزا لم تبدأ في الاسهام بنصيب فعال في تجارة الشرق الأدنى الا منذ الحروب الصليبية ؛ وحتى ذلك الحين كانت هذه التجارة في أيدي الأمازيغيين والبنادقة وحدهم ، وتدين إيطاليا لهؤلاء بنوع خاص بتزويدها بمنتجات الشرق التي كانت تحصل عليها بوفرة والتي أسهمت بقدر كبير في تهذيب الطبائع (٤) ، كما ندين لهم بشهرتها في أنها أحسن مصدر لهذه السلع الثمينة ، والميزة في أنها بمثابة مستودع لهذه السلع بالنسبة الى العالم الرومانى الجرمانى .

Gaufr. Malat. I. c. p. 569, 590. (١)

Ingulphi Abb. Croyland, Chronic., dans Fell, Rer. anglie script. I, 74. (٢)

Cagaro, De liber civit, orient, dans Pertz ss. XVIII, 40. (٣)

لم يرد ذكر هذا الحج في أى مصدر آخر ثم انه كان موضع شك النقد التاريخي .
(٤) قبل الحروب الصليبية ، نعى بعض الرقباء المتشددين على رجال الدين الايطالى أنهم

يكذبون على مواعدهم ثوابل هندية ، ويسئون استعمالها لاستثارة الأحاسيس المخجلة :

— Ratherius de Vérone, dans son ouvrage, De contentu canonum, écrit en 963 (dans Dachery, Spicil. II, 188), et Petrus Damiani, vers 1070 (Opusc. 31, cap. 6).

٣ - اليهود

بقي علينا ، قبل أن ننتقل الى فترة الحروب الصليبية أن نبحث عما اذا لم يكن اليهود الذين يعيشون متفرقين وسط شعوب الشرق والغرب قد أسهموا بنصيب فعال في تجارة الشرق الأدنى . لقد لعبوا منذ زمن مبكر دورا هاما في التجارة . ففي الغرب لم تكن الغزوات الكبرى عنصرا قليل الشأن من عناصر ثروتهم . ذلك أنهم اذ كانوا محتقرين من كل الأمم التي عاشوا في كنفها ، فأنهم لم يشاركوا ايا منها في شئونه . لذلك فبينما كانت الشعوب تتقاتل فيما بينها ، استطاعوا هم أن يتجولوا ويربحوا أرباحا طائلة ، دون أن ينيروا ريبة فيهم ، ودون أن يتعرضوا لاية أخطار ، واتخذهم ملوك القبائل الجرمانية التي استقرت في الاقاليم الغربية للأمبراطورية الرومانية موردين لهم ، وفي الممالك الجديدة لم يتردد الكثير من أعيان الكنيسة في أن يشتروا منهم أشياء ثمينة (١) ولما كان اليهود يعيشون في التجارة فحظ ، فأنهم كانوا يقيمون في المدن وحدها تقريبا ، شأنهم في ذلك شأن السوريين الذين كثيرا مانجدهم مذكورين معهم ، وكانت مدن ناربون Narbonne (٢) ، ومرسيليا (٣) ، وآرل Arles (٤) ، وجنوا (٥) ، ونابولي (٦) ، وبالرمو (٧) ، الخ مراكزهم المفضلة . بقي أن نعلم ما اذا كان نشاط هؤلاء اليهود الغربيين في التجارة قد امتد الى الشرق : هذا هو السؤال الذي سنتولى بحثه . ومن الضروري الامام قليلا بعادات جريجوري دوتور Grégoire de Tours اللغوية لكي نسلم بأن لفظة Species التي يشير بها الى بضائع اليهود ، تعنى ببساطة épices (توابل) ، وتشمل بوجه عام كل أنواع الأشياء الثمينة . ومن جهة أخرى نطالع في أخبار الكاتب نفسه أن شخصا يهوديا كان يملك سفينة تبحر من نيس الى مرسيليا (٨)؛ غير أننا لا نجرؤ أن نستنتج من ذلك أن اليهود كانوا في ذاك الأوان يمتلكون سفنا تذرع البحر المتوسط كله . ومع ذلك نصادف هنا وهناك اشارة الى بعض التجار اليهود الآتين من بلاد الفرنجة لزيارة فلسطين . وكانت تجارة الرقيق

Grégoire de Tours, Hist. franc, IV, 12, 35; VI, 5; VII, 23. (١)

Gregor. M, Epist lib VII, no 24 ; Concil Narbonn, op. Mausl, 1 c. (٢)

Grégoire de Tours, 1. c. V, 11; VI, 17; Greg. M, Epist, I, 45. (٣)

Greg. M. 1. c. ; Vita Coesarü, dans les Acta ss. Boll, Août, T. (٤)

VI, p. 69,

Cassiod, Var, 1. IV, ép. 33. (٥)

Procop; De bello goth. 1, 8, 16. (٦)

Greg. II, Epist, IX, 55. (٧)

Le gloria martyrum, cap. 97. (٨)

التي يؤثرون مزاولتها (١) تجعلهم بالضرورة على صلة بالمسلمين . وكان كثير من الأطباء اليهود يدرسون كتب العرب ، فإذا اقتضى الأمر أن يطبقوا المعلومات التي اكتسبوها على هذا النحو ، لجأوا الى عقاير شرقية لا يتسنى الحصول عليها الا عن طريق وسطاء التجارة . وكان اليهود في ذاك العصر يجوبون بصفتهم تجار جملة كل أنحاء العالم المعروف ، ولدنا في هذا الخصوص دليل ايجابي في فقرة ممتعة لابن خرداذبة (٢) . كان هناك دواما في زمن هذا الكاتب ، أي في أواسط القرن التاسع تجار يهود يؤدون برا وبحرا الرحلة الطويلة من بلد الفرنجة الى الصين : فيبعد أن يفادروا بلد الفرنجة بحرا ، ينزلون عند الفرما بمصر ، ويجتازون برزخ السويس في خمسة أيام ، ثم يركبون البحر ثانية عند القلزم ، ويمرون أمام محطتي الجار ' El-Djar (نهر المدينة) ، وجدة (نغمكة) ويدخلون في المحيط الهندي . وفي أحيان أخرى ، يطرقون قارة آسيا عند مصب نهر اورونت Oronte (نهر العاصي) ويمرون بأنطاكية (وحلب) ويصلون الى نهر الفرات ، ويتبعون مجراه حتى مدينة بغداد ، ومن هناك يواصلون مسيرتهم حتى المحيط الهندي عن طريق نهر الدجلة والخليج الفارسي . ولكن مهما كان الطريق الذي يتخرونه . فان غايتهم هي الوصول الى مصب نهر الاندوس (السند) ، ثم الهند ، وأخيرا الصين ، والعودة بالطرق نفسها ؛ غير أنهم لا يعودون كلهم الى بلد الفرنجة ، اذ يتوقف عدد منهم في القسطنطينية ومعهم بضائعهم . ويتم القسم الاكبر من هذه الرحلة بطريق البحر ، غير أن هناك أيضا طريقين آخرين يستخدمهما الكثيرون ، فيهما المسافات البرية أطول من البحرية ؛ والمسافر اما يبدأ رحلته من فرنسا واسبانيا فيمر من مضيق جبل طارق ويجتاز أفريقيا كلها ، ثم سوريا ، بابل وأقاليم فارس الجنوبية ، وفارستان ، وكرمان ، وينتهي على هذا النحو الى الهند أو الصين ، واما يجتاز ألمانيا (٣) وبلاد الصقالبة حتى مدينة الخزر (اتيل Itil) ، أعلى مصب الفولجا) ، ويعبر بحر قزوين ، ثم يعود الى الطريق البري فيمر ببلخ ، ومنها يتجه الى الصين عبر نهر أوجزوس (افوداريا ، وبالغربية جيمون) ، وكان ابن خرداذبة « صاحب البريد » على علم واف بأمور مهنته ، ومن ثم لا ندهش حين

Agobardi, Opp. éd. Baluyze, p. 62, 65 ; Rosière, Recueil général des formules, no. 27, 28, 29 : Greg M. Epist IX, 36. (١)

A. Sprenger (Same passages on the early commerce of the Arabs, dans le Journal of the Asiatic society of Bengal, vol. XIV, 2e part., 2, 1844, p. 519 et ss. (٢)

كان سبرنجر أول من نشر هذه الفقرة ، وبعده آدمجها رينو Renaud في مقدمته المشهورة لجغرافية أبو الفدا . وأخيرا نشرها باربييه دو مينار مع كتاب المسالك والممالك — Journ. asiat., série 6, T. V.p. 512 et ss. لابن خرداذبة :

— Richthofen, China, I, 558 et s. أنظر أيضا :

(٣) يذكر النص الاسم العربي لأرمينيا ، غير أن تفييرا خفيقا في الاسم يجعله « ألمانيا » ، الأمر الذي يتماشى مع الأفكار .

نتصفح اللوحات التي رسمها ، فنرى أنه كان هناك ما لا يقل عن أربعة طرق يرتادها التجار ذهابا وعودة بين غرب أوروبا وشرق آسيا ؛ هذا في زمن كانت فيه المصادر الأوروبية فقيرة جدا في المعلومات حتى لنميل الى التسليم بأن العلاقات بين هذين القسمين من العالم كانت نادرة للغاية . ويعرفنا ابن خرداذبة أيضا بالأشياء التي كان التجار اليهود يحملونها عبر هذه الطرق : فهي تشمل في الرحلة من الغرب الى الشرق خصيا ، وعبيدا من الجنسين ، وحريرا (لا يمكن أن يرد الا من الأمبراطورية البيزنطية) ، وفراء ، وسيوفا ، ومن الشرق الى الغرب ، مسكا ، وصبرا ، وكافورا ، وقرقة ، وغير ذلك من المنتجات المماثلة .

ولسوء الحظ مازلنا نجهل موطن اليهود القادرين على زيارة هذا العدد الكبير من البلاد ، وفهم مختلف اللغات ، ويضفي ابن خرداذبة على هؤلاء اليهود نعتا يعبر عنه باربييه دومينار Barbier de Meynard في ترجمته الفرنسية بكلمة Rodanites التي يرى أنها تشير الى أصلهم ؛ ولكنها في الواقع وببساطة مرادفة لعبارة « جوايو البلاد ، رحالة » (١) ومن ثم لا يتيح هذا النعت معرفة ما اذا كان هؤلاء اليهود من أهل الشرق أو الغرب . ويمكن تأييدا للافتراض الأول (أى أنهم من الشرق) القول بأنه يتعين لقيام أى انسان بمثل هذه الرحلات أن يكون عنده معلومات جغرافية لا وجود لها الا في العالم العربى ، وبخاصة في وسطه .

أى في بغداد . غير أنه من جهة أخرى ، كان هناك من اسبانيا الى الصين مجموعة من اليهود متصلة بعضها ببعض بحيث يستطيع الاسرائيليون في كل البلاد أن يحصلوا على معلومات غزيرة عن مختلف الأماكن التجارية والطرق والفرص المتاحة . وبفضل هذه المساعدة يستطيع يهود الغرب أيضا القيام بأطول الرحلات . وعلى هذا يمكن التسليم بأنهم كانوا ينظمون رحلات كبيرة لسالحي تجارتهم ، ذلك لأن العصر الكارولنجي ، وهو نفس العصر الذى كتب فيه ابن خرداذبة ما كتب كان بالنسبة اليهم فترة رخاء غير عادى (٢) . ويبدو أن المؤلف العربى يقصد بقوله ان تجار الحملة الذين يتحدث عنهم كانوا غربيين ، لأنه فى وصفه ، يرسم الطريق بادئا من أوروبا الى آسيا ، ثم من آسيا الى أوروبا .

Goeje, Bibl. géogr. arab., gloss., p. 251.

(١)

Groetz, Gesch. der Juden, V, 216 et ss., 245 et ss.

(٢)

— لم يكن من النادر فى ذلك الوقت وجود سفن يهودية . وذات يوم ظهرت سفن على مرأى من موانئ غالة الناربونية ، فراح الناس يتشاورون لمعرفة الأمة التى تنتمى اليها ، فرأى البعض أنها تنتمى الى تجار يهود ، غير أن شارلمان عرف بنظره الثاقب انها من سفن القراصنة النورمان . — Monach, S. Gall., dans Pertz, ss. II, 737, 757.

الحقبة الثانية

**انشاء مستوطنات تجارية على سواحل الليفانت
(شرقى البحر المتوسط)**

(عصر الحروب الصليبية)

١ - الدول الصليبية في سوريا في القرن الأول من وجودها

(١) المستوطنات التجزية في الدول الصليبية

لم تكن حملات جنوا وبيزا ضد مسلمي الغرب ، وغزو النورمان صقلية ، وهجوم روبرت جيسكار على الامبراطورية البيزنطية الا تمهيدا لمشروعات أكبر نطاقا ، تستهدف الشرق ، أسهم فيها كل شعوب الغرب : تلك هي الحروب الصليبية . وأتارت هذه الحملات حماسة شاملة في بلاط الأمراء ، وقصور الاقطاع ، وفي المدن والأرياف . وكان الشعور الديني والروحى بالتأكيد هو الباعث الأول والرئيسي الذي دفع كل طبقات المجتمع الى الاشتراك في هذه الحركة . ولكن الى جانب هذا كانت كل طبقة تتبع مبدءا ماديا مختلفا : كان هذا المبدء عند الأمراء والفرسان هو حب القتال والمغامرة ، وعند الطبقات الدنيا الرغبة في التخلص من وضعها الذي لا يحتمل ، الوضع الذي خلقته الحالة الاجتماعية ، وعند بورجوازية المدن ، التعطش الى الربح . وفي الحملات الصليبية الكبرى التي قادها أمراء من طبقات متفاوتة المرتبة ، بقي بورجوازيو المدن مختلطين بعمامة الشعب . من ذلك أن الصليبيين من مواطني ناربون Narbonne (مدينة بجنوبي فرنسا ، المترجم) كانوا يعملون تحت امرة ريمون ، كونت تولوز (١)

غير أنه بجانب الجيوش الكبيرة التي زحفت برا ، كان هناك أيضا أساطيل كبيرة وصغيرة تنجھ الى سوريا . وكانت هذه الأساطيل تجهز وتشحن في الموانئ الإيطالية حاملة الى الجيوش الصليبية فرقا مكونة من بورجوازيين من سكان المدن ، تعمل لحسابها الخاص ، تحت امرة قادتها ، وتأتى بقوات ومعدات مفيدة للغاية ، ان لم تكن ضرورية لا غنى عنها . ولم تكن الجيوش البرية بقيادة وحدها على أن تستولى على الموانئ المحصنة التي كانت في أيدي المسلمين في سوريا ، ولم يكن في وسع الشجاعة والفنون العسكرية عند الفرسان أن يفعل شيئا في هذا المجال ، فقد كان من الضروري تدخل الأساطيل لاتمام الحصار ، والبحارة الذين يقاتلون بحرا لمساعدة الجنود الذين يقاتلون برا . وبهذه الصورة أسهم البورجوازيون في الأحداث العسكرية ، وبذلك اكتسبوا حق الحصول على أرباح تتناسب مع الخدمات التي يقدمونها . وهكذا مثلت مدن ثلاث وبالأخص جهمويات ثلاث : فينيسيا ، وجنوا ، وبيزا العنصر البورجوازي في الحروب الصليبية .

(١) Raoul de Caen dans les Hist. des crois, hist. decid. III, 676, Cf. Raim. d'Aiguilhe, ibid. 266.

والى ذلك الحين ، مارست جنوا وبيزا بنوع خاص نشاطهما التجارى فى القسم الغربى من البحر المتوسط ، أما فينيسيا (البندقية) فانها كانت تباد بالأرلى البحر الأدرىاتى والبحار التى تحف بالامبراطورية اليونانية . ولأول مرة تتلاقى الدول الثلاث على اقليم مشترك ، هو سوريا . والى جانب البنادقة الذين كانوا منذ سنين طويلة يتمتعون بالحرية وبتفوق لا جدال فيه فى مجال البحار ، فى ظل الجمهورية ، ظهر أهالى جنوا وبيزا كأنهم وصوليون ، محدثو نعمة . ومع ذلك ، فمنذ عدة سنين كانت أساطيلهم تحارب المسلمين ، وفازوا بأكبر من نصر مجيد . ومن جهة أخرى تطورت الحياة السياسية فى الجمهوريتين تطورا سريعا ، وعندما بدأ عصر الحروب الصليبية كانتا منذ قليل تمتلكان كامل حريتهما القومية ، فلم يكن بوسع أية سلطة أجنبية أن تقيم العوائق فى طريق نشاطهما الخارجى . وفى أواخر القرن الحادى عشر كان بوجوازىو جنوا الأحرار قد شكلوا رابطة سياسية (Compagna) على رأسها قناصل ينتخبونهم انتخابا حرا ، يتولون مقاليد (على رأسها قناصل ينتخبونهم انتخابا حرا ، يتولون مقاليد الحكم بالمدينة رغم معارضة ادمراء والأحزاب . ويبدو أن هذه التورة قد قامت بإيحاء من كبار الأساقفة ، غير أنه ليس فى إمكاننا اليوم أن نتبع تاريخها . ولا تذكر حوليات جنوا التى بدأت عام ١١٠٠ إنشاء حكومة القناصل ، وإنما تذكر عودها الى السلطة . والواقع أنها الغيت سنة ونصف سنة فى أعقاب خلافات داخلية . وينبغى ارجاع نشأة حكومة القناصل الى تاريخ سابق ، وعلى الأقل الى سنة ١٠٩٨ ، وربما الى قبل ذلك (١) . وكان للجمهورية فى بيزا نشأة مماثلة . . فبعد أن عارض مركزيات تسكانيا زمنا طويلا تحرر هذه المدينة (أى بيزا) وجدوا أن نفوذهم يزداد ضعفا فى غضون القرن الحادى عشر ، وانحاز ممثلوهم ، الفيكونتات الى « القومون » . ومن ناحية أخرى أدى طموح بعض أسر النبلاء الذين يريدون أن يحلوا سلطتهم بالقوة محل سلطة المركزيات الى اثاره مازعات داخلية انتهت بهزيمتهم . وفى عام ١٠٨٥ وصل الأسقف ديبيرت Daibert الى فرض وسماطته ، واعترف الكافة بسلطة قومون البوجوازىين (Commune colloquium civitatis) ، بموجب ميثاق للسلام (٢) . ويبدو أن هذا الميثاق يحدد نقطة البداية للسلطة الفعلية للقومون . حقيقة ، لا مجال للبحث فى موضوع انشاء وظائف القناصل ، ومع ذلك فلانا نجد منذ عام ١٠٨٧ حكاما يحملون هذا اللقب (٣) على رأس البيزىين فى الحملة

(١) Ann. Jan., dans Pertz SS XVIII, p. 11, et Caffaro, De liberatione civitatum Orientis, ibid, p. 45.

(٢) Bonaini, Statuti Pisani, 1, 16.

(٣) انظر الأبيات ١٦١ وما بعدها من القصيدة اللاتينية المؤلفة عن هذه الحملة .

التي وجهت الى مدينة « المهدية » وكذا في المواثيق الصادرة في السنوات ١٠٩٤ ، ١١٠٠ ، الخ (١) .

وعلى هذا ففي اللحظة التي اشتركت فيها البندقية وجنوا وبيزا في العمليات العسكرية التي جرت على سواحل سوريا ، لم تكن هذه المدن مجرد قوات بحرية من الطراز الأول ، ولكنها كانت قد أصبحت بالفعل جمهوريات منظمة . وكانت السفن الأولى التي غادرت موانئها متخذة هذا الاتجاه قد أبحرت فرادى تحمل مؤن وأسلحة والات حصار لجيش الصليبيين الذي كان يزحف من ناحيته برا ، أو تحمل أفرادا من الجنود قاصدين الانضمام الى هذا الجيش (٢) . غير أن عددا كبيرا من بورجوازي جنوا ، من أبرزهم وأقدرهم على حمل السلاح أعلنوا الجهاد الصليبي في شهر مايو ١٠٩٧ ، ورحلوا على متن اثنتي عشرة سفينة حربية ، وحين وصلوا الى ميناء سان سيميون

على بعد بضعة أميال من أنطاكية ، كان جيش الصليبيين قد بدأ حصار هذه المدينة . ومع ذلك لم يستطع هؤلاء الذين وصلوا أخيرا أن يعزوا اتصالهم بقلب الجيش القائم بالحصار الا بعد معارك ضارية ، وانضم أكبر عدد من جنود جنوا الى سائر الصليبيين ، واقتسموا معهم متاعب الحصار وقسوته . ومع ذلك لم يبق أولئك الذين لم يبرحوا السفن عاطلين ، وانما انهمكوا في توثيق الاتصال بالبحر ، وتموين الجيش ، وهي مهمة شاقة ، كبيرة الأهمية (٣) ، وأقاموا حامية في ميناء سان سيميون ، ومارسوا فيها وحدهم حقوق السيادة (٤) ، وظلوا مستولين عليها حتى ضمت الى اماراة أنطاكية الجديدة . وبعد أن استولى بوهيمند Bohémond الأمير الجديد على أنطاكية ، وهب لمواطني جنوا ثلاثين منزلا داخل المدينة ، وكنيسة القديس يوحنا ، وسوقا ، ونافورة (٥) ، وفي نظير ذلك ، تعهدوا بتقديم المساعدة للأمير ضد كل من يحاول

Pawinski, op. cit., p. 28-40.

(١)

Raim, d'Aig., dans le Rec. des hist. des crois. 1, c. p. 276, 290 (٢)
(dans Bong., I, 164, 173) Baldricus, dans Bong., I, 89, Orderic Vital, hist. eccl., éd. Le Prévost, III, 479 ; Guill. de Tyr, V, 4, VII, 21.

Caffar. De liberat civ. Orient, dans Pertz SS, XXIII, 41-44, Cf. (٣)

Raim d'Aig. dans le Recueil, I, c. p. 242-290 (dans Bong. p. 143, 173).
Guill. de Tyr, V, 4.

(٤) تقول وثيقة لخصت فيها أعمال الجنوين في سوريا من ١٠٩٧ الى ١١٠٥ :

« Solinum per se ceperunt » : Lib jur. I, 17.

وسوف نعود الى هذه الوثيقة والى اسم Solinum الذي أطلق على ميناء سان سيميون

وفي عام ١١٠١ ، بعد الاستيلاء على أرسوف وقيصرية انسحب الحنويون الى هناك (أى الى سولنيوم)
(Ann. Jan p. 14). ليتنامسوا في هدوء غنيمتهم الكبيرة :

ومع ذلك لم يدم الاحتلال أكثر من بضع سنوات .

Charte du 14 Juillet 1098, dans Ughelli. It sacr IV, 846 et s. (٥)

الاستيلاء على المدينة . وفي هذا التعهد بند خاص يتعلق بالكونت ريموند دو سان جيل Raimond de St. Gilles الذي كان يحتل بضعة مواقع محصنة رفض التخلي عنها (١) . وكان بوهيمند يريد أن يتكفل جنود جنوا بمهاجمة هذا الأمير اذا نازعه ملكية المدينة ، غير أن جنود جنوا كانوا مرتبطين برابطة صداقة مع البروفانسيين ، وكانت لهم صلات عمل مع سان جيل (٢) ، ومن ثم رفضوا ما يطلبه بوهيمند . وعلى ذلك اكتفى في المعاهدة بالنص على أنه في حالة ما اذا يأسر ريموند أعمالا عدوانية ضد بوهيمند ، يعرض مواطنو جنوا وساطتهم ، فاذا ما فشلت هذه الوساطة فعليهم أن يراعوا الحياد . وبالفعل لم يقدم ريموند على إخلاء أجزاء المدينة التي كان قد استولى عليها الا على مضض ، وكان من الضروري إجلاء رجاله منها بالقوة .

كان بين الصليبيين الذين اشتركوا في أول عمل بطولي في الحرب الصليبية الأولى ، وهو الاستيلاء على بيت المقدس ، جنود من جنوا ، قليلو العدد؛ لأن الجمهورية كانت في ذلك الوقت في صميم حرب أهلية : فقد ألغى نظام القناصل ، ولم يعد للجمهورية حكام ، وكان على الأفراد أن يتولوا بأنفسهم تجهيز السفن لرحلات طويلة (٣) . وهكذا وصل الى يافا على متن سفينتين حربيين بضعة أفراد من جنوا على رأسهم جوبوم امبرياكو Guillaume Embriaco وأخوه بريموس Primus ، ولحق بهم هناك سفن أخرى جهزها بعض الصليبيين (٣) . ولما كانوا يريدون البقاء في هذا الميناء ، فانهم طلبوا مساعدة الأمراء الذين كانوا وقتئذ معسكرين تحت أسوار القدس ، وحصلوا على المساعدة المطلوبة . غير أن أسطولا للمسلمين أقبل ذات ليلة من عسقلون Ascalon وانقض على الأسطول الراسي بالميناء : وكانت المقاومة مستحيلة ، ومن ثم لم يكن لمواطني جنوا من بديل سوى أن يهجروا سفنهم ومعهم كل ما يمكن استعماله في بناء الآلات الحربية ، ومضوا فلحقوا بالصليبيين القائمين أمام القدس ، وانضموا الى فرق ريموند كونت تولوز ، وقدموا لها ، كمهندسين أثناء الحصار خدمات جليلة (٤) .

Sybel, Gesch. der ersten Kreuzzüge, p. 446, 450. (١)

Canale, Nuova istoria della repubblica di Genova, I, 352, II, 493 et ss. (٢)

Pawinski, op. cit., p. 43 et ss. (٣)

(٤) يراوح العدد الاجمالي بين ستة وتسعة :

les msc. de Raim. d'Aig, Recueil, 1, c. p. 294 :

— De liber or. p. 44. ومن الغريب أن « كافرو » يحدده باثنين فقط :

Caff. 1. c. et Raim d'Aig, p. 294, 298. (٥)

يقول جويوم دي تير (الصوري) VIII, 9, 10. انه كان في عزم الجنوين منذ البداية أن ينضموا الى الجيش ، ولم يطلبوا هذا التعزيز الا لمرافقة الجيش ، ولكن يبدو أنهم لم ينضموا الى الجيش الا غصبا .

أما بيزا فانها ركزت كل قواها في تلك الآونة في اعداد حملة صليبية كبيرة . وفي صيف عام ١٠٩٩ أبحر البورجوازيون القادرون على حمل السلاح على متن ١٢٠ سفينة اتجهت الى سوريا تحت قيادة الأسقف ديبرت Daibert ، ووصل معظمها قبالة اللاذقية (١) . وفي ١٥ من يولية كان بيت المقدس في أيدي الصليبيين : واستطاع يوهمند أمير أنطاكية أن يقنعهم بمحاصرة ميناء اللاذقية الذي كان خاضعا لليونانيين ، وذلك لحسابه ، الا أن المحاصرين قاوموا بشجاعة . أما سائر القادة الصليبيين فانهم لم يوافقوا على مشروعات يوهمند ، وتوسطوا في الموضوع ، ورفع الحصار عن الميناء . واذ ترك البيزيون وشأنهم ، فانهم ساروا الى بيت المقدس ، وكان جودفرى دو بويون ، ومن اعتزموا البقاء معه منهمكين بتنظيم شئون الدولة والكنيسة ؛ فلم يكن نمة مجال وقتئذ لاجراء عمليات عسكرية ، واضطر البيزيون أن يقنعوا بالمساهمة في الأعمال المتعلقة بتحصين بيت المقدس ويافا (٢) ، وبقي زعيمهم ديبرت الذي عين بطريركا لبيت المقدس ، بقى في الأرض المقدسة ، وحذا حذوه بلا شك الكثير من رفاقه بأمل أن يحظوا بحمايته ، والمرجح أن يافا أصبحت مركزهم الرئيسي ، لأن جودفرى دو بوبون كان قد خصص حيا بأكمله من أحياء المدينة اقطاعية للبطريرك (٢ من فبراير ١١٠٠) (٣) ؛ وبدا أن للمدينة مستقبلا زاهرا باعتبارها ثغرا للقدس . وسوف نرى فيما بعد كيف نشأت بها جالية كبيرة من البيزيين .

واذا كانت جماعات التجار الايطاليين قد أسهت بنصيب كبير في انشاء دول الصليبيين ، فان دورها كان أهم أيضا في تنظيم هذه الدول . ويمكن أن تؤكد أنه من غير معونة الأساطيل الايطالية ، لم يكن بمقدور اللاتينيين أن يحافظوا على فتوحاتهم . ومن البديهي أن امتلاك الثغور على ساحل سوريا كان مسألة حياة أو موت بالنسبة الى الدول الصليبية ، فكان امتلاكها وحده يضمن لهذه الدول اتصالاتها بالغرب حتى يصلها منه المعونات البشرية والمالية الضرورية لبقائها . ثم ان ملوك هذه الدول لم ينكروا البتة أهمية الخدمات التي أدتها لهم الأساطيل الايطالية ، وبرهنوا على عرفانهم بهذا الجميل بتقديم الكثير من المنح والامتيازات . كذلك كانت القوات البحرية الايطالية من ناحيتها مقتنعة بحاجة هؤلاء الأمراء الى مساعدتهم ، ومن ثم كانت تهتم قبل الاستيلاء على أى مكان أن تشتترط ، ثمنا لمساعدتها ، التنازل لها عن بعض الممتلكات والحقوق داخل المدينة وفي ضواحيها . وعلى هذا النحو نشأ عدد كبير من المستوطنات التي تتكون من

(١) في شهر سبتمبر غالبا ، انظر :

— Hagenmeyer, Ekkehardi Hierosolymita (Tubing. 1877) p. 183.

Gesta triumphal, per pisanos facta, dans Murat. ss. VI, 100. Chron. (٢)
Pis., dans Ughelli, It. sacr. X, 121.

Guill de Tyr, IX, 16.

(٣)

بورجوازيين ايطاليين ، والتي أصبحت مراكز هامة بنوع ما لتجارة الشرف الأدنى .

وكانت القوات التابعة لجودفرى دو بويون قليلة جدا ، فلا يستطيع أن يستولى بها على مدن فلسطين الساحلية ، وكان بعض هذه المدن قويا لدرجة لا يمكن معها أن يفكر في غزوها ان لم يصله مدد لا يتوقعه . ففي صيف عام ١١٠٠ (١) قدم اسطول قوامه حوالى مائتى سفينة جهزها البنادقة ، وألقت مراسيها عند يافا (٢) . وتعهد هؤلاء القادمون أن يخدموا تحت امرة جودفرى من عيد القديس يوحنا المعمدان (٢٤ يونية) حتى عيد صعود العذراء (١٥ أغسطس) ، وطلبوا في مقابل ذلك أن يتعهد بالتنازل لهم عن كنيسة وموقع ملائم لاقامة سوق ، وذلك في كل مدينة استولى عليها الصليبيون أو يستولون عليها مستقبلا ، سواء في ذلك الثغور والمدن الداخلية ، واشتروا كذلك أن يتنازل لهم في كل موقع يستولى عليه في الحملة القادمة عن ثلث المدينة . فإذا نجح في الاستيلاء على طرابلس ، فإنهم يمتلكونها كلها نظير ادايتهم جزية سنوية صغيرة . وأخيرا ، يجب اعفاء البنادقة من الضرائب في مدن مملكة القدس كلها ، ويحظر على أى من اتباع الملك أن يحجز على بضائع سفن البندقية التي تجنح على الساحل (٣) . ويبدو أن هذه الحملة كان يتوقع لها نتائج عظيمة ، والواقع أنها ضربت الحصار على عكا (٤) ، وهى من أهم ثغور سوريا ، ولكن الحصار لم يأت بنتيجة (٥) ، وكان لابد من الاكتفاء بالاستيلاء على مدينة كايفا Caiffa الصغيرة (حاليا حيفا) عند سفح جبل كرم (٦)

ولم يكن حصار هذه المدينة قد انتهى (٧) حين توفي جودفرى دو بويون (١٨ من يولية ١١٠٠) ولم يتخذ أى اجراء لتعيين خليفة له ؛ وكان بوهمند أمير أنطاكية قد وقع في هذه الفترة في أيدي المسلمين ، لذلك كانت الامارات

(١) بخصوص تحديد هذا التاريخ ، انظر :

Kugler, Boemund und Tancred, p. 63.

(٢) Dandolo, p. 258. Historia translationis S. Nicolai, dans Flaminio Corner, Ecol. Venet, IX, p. 19.

(٣) تلك هى الشروط المذكورة في وثيقة معاصرة :

— l'Historia transl. Si Nic. p. 19, 20.

وداندولو قد أوجز في هذه النقطة ، اذ كتب في صفحة ٢٥٨ :

"immunitatis obtento privi legio"

(٤) المصدر الوحيد الذى ذكرت به هذه الواقعة : Hist-transl S. Nic. p. 22-25.

(٥) داندولو (فى المرحع السابق) يناقش التاريخ وهو يتحدث عن الاستيلاء على عكا .

Cf. aussi Alb. Aq. dans Bong, pag. 299-301 ; (٦)

— Ibn-Khaldoun, dans les Nov. act. Acad. Upsal XII, 57.

(٧) هذا هو الرأى الذى يؤيده هاجنماير :

Hagenmeyer, Ekkehardi Hierosolymita, p. 202.

الصليبية نجتاز أزمة شديدة . وفي خريف السنة نفسها نزل جيش جنوى في ميناء اللاذقية ، وكان وصوله مناسباً في أوانه ، وتكفل قادته بحل المشاكل القائمة ، وبدأوا بأن يذلوا كل مافي وسعهم لاقامة بلدوين (بغدوين) Baudouin كونت أدسا Edessa (حالياً أورفا) على عرش القدس ، وتعيين تانكرد Tancrede وصياً على عرش أنطاكية ، واسترط بلدوين أن يقاتل الجنويون تحت امرته حتى يفتح مدينتين . وقبل الجنويون عن طيب خاطر هذه المهمة وسأعدوه في ربيع عام ١١٠١ في الاستيلاء على أرسوف Arsouf وقيصرية Césarée . (١) وكانت الغنائم هائلة وبخاصة في قيصرية (٢) حيث نال الجندي العادي من النقود ٤٨ فلساً ، ورطلين من الفلفل (٣) ؛ وكان أئمن مافي الغنائم « الرعاء المقدس » Sacro Catino المشهور ، وكان من نصيب كاتدرائية جنوا (٤) . وقد أسهمت هذه النتائج الباهرة في تقوية روح المغامرة لدى أهالي جنوا واجتذابهم الى سوريا ومدنها الثرية . أما بالنسبة الى أولئك الذين ينظرون الى الأمور نظرة بعيدة ، فإن الغنبة لم تكن في اعتبارهم سوى أمر ثانوي ، وأدركوا مصدر الثروة العظيمة الذي سوف يتيح للغربيين نمو الحياة التجارية على سواحل سوريا . وفي عيد الصعود (٢٦ مايو) عام ١١٠٤ فتحت عكا أخيراً أبوابها للملك بلدوين (٥) ؛ وفي هذه المرة أيضاً قدم أسطول جنوا مساعدة كبيرة أسهمت في نجاح العملية . ترى من الذي ربح أكثر من غيره في هذه الغزوة؟ الأمم التجارية الإيطالية التي تفتح لها هذا النصر ميناء من أكثر موانئ الساحل أمناً ورواجاً ، أو الملك بلدوين الذي ضم الى مملكته موقعا من أمنع المواقع في سوريا ؟ واعتراقاً بأهمية الخدمات التي أسداها أهالي جنوا ، منحهم بلدوين في كل من المدن الثلاث التي فتحتها ثلث المدينة ، بالإضافة الى مساحة مماثلة من الأراضي المجاورة ، كما منحهم ثلث إيرادات جمارك ميناء عكا ، ولابد أنها كانت تشكل دخلاً كبيراً ، وأعفاهم من

(١) التواريخ هي : بالنسبة للأولى ٩ مايو ، وللثانية ٣١ مايو ، وذلك حسب تقدير حاجنماير : Hagenmeyer, Ekkeh. Hierosol. p. 220 et s.

(٢) كانت قيصرية أكثر أهمية فل أن يستولى عليها الصليبيون ، انظر :

— de Vogué, Les églises de la terre sainte, p. 430.

(٣) Gaffar, Ann. Jan. p. 11-14 ; De liber civ. or p. 45-47 ; Lib-jur. 1, 17.

(٤) يقال ان هذه هي الكأس التي شرب منها السيد المسيح في العشاء الآخر ، وكان المعتقد زمناً طويلاً أنها مصنوعة من زمردة واحدة لا نظير لها في قوامها وجمالها ، ولكن بفحصها جيداً تبين أنها من زجاج :

— Guill de Tyr, X, 16; Jac. de Vorag., Chron. Jan. dans Murat, ss. IX, 32 : La Revue archéologique .. ann. 1845, p. 149-157 (une courte notice sur le catino).

Foucher de Chartres, dans le Recueil, 1. c. p. 407 et s.; Abb. Aq. (٥)

dans Bong. p. 335; Guill de Tyr, X, 28; Caffar, Ann p. 14; De liberat. p. 47; Lib. jur. I, 17.

الضرائب في جميع أنحاء المملكة . تم انه وهبهم بأثر رجعي حيا من أحياء كل من مدينتي القدس ويافا ، وتعهد بأن يمنحهم في المستقبل حيا في كل مدينه يستوفى عليها بمساعدتهم (١) . وحرص الجنويون حرصا شديدا على أن يضمّنوا لأنفسهم الى الأبد هذه الأملاك الشاسعة ، لذلك طالبوا بلديون وحصلوا منه على تصريح بأن يضعوا في صدر كنيسة القبر المقدس خلف المذبح الرئيسي لوحة نقش عليها بحروف ذهبية قائمة بالمنح التي نالوها ، وكلفتهم هذه اللوحة الفى دينار ذهبي بيزنطى (٢) . وليس من شك في أن نص هذه الوثيقة موجود في الـ *Liber iurium reipublicae Genuensis* بعد ميثاق التنازل الذي قلنا بضع كلمات عنه (٣) ، وهذا النص منقوش بحروف أكبر مما قبله ، وجزء منه بالحبر الأحمر ، ويشمل بأسلوب موجز للغاية تعدادا للخدمات التي أداها الجنويون للامارات الصليبية المعاصرة للحملة الصليبية الأولى ، وأهم الامتيازات التي منحها اياهم بلديون (٤) . ولا يقتصر الجزء الأول على سرد الأحداث التي وقعت في مملكة بيت المقدس نفسها ، اذ نجد فيه أسماء أنطاكية وثرها سان سيميون ، واللاذقية؛ وطرطوس *Tortose* ، وجبله *Gibet* ، ذكرت باعتبارها مسرحا لمختلف العمليات الحربية التي أسهم فيها الجنويون .

وتذكرنا الأسماء التي أشرنا اليها ، بأنه بقى علينا أن نتحدث عن الدور الذي أداه الجنويون في القسم الأوسط من سوريا ، حيث أسهموا اسهاما قويا في انشاء « كونتية طرابلس » ، تلك الدولة التي استولى عليها الكونت ريموند التولوزى وخلفاؤه قطعة قطعة .

وفي خريف عام ١١٠١ غادر ميناء جنوا (٥) اسطول صغير ، وحين وصل الى سوريا ، انضم رجال الأسطول الى الكونت ريموند وساعدوه في الاغارة على مدينة طرطوس ، وتم الاستيلاء على المدينة بعد حصار دام بضعة أيام ، وكان ذلك

(١) Fouch, de Chartr. Recueil, p. 387 et s.; Guill. de Tyr. X, 14, 28; Caffar. De liberat p. 48; Lib. jur I, 16 et s.

(٢) Caff. De liber p. 48, 49.

(٣) Le sénateur Federici, dans sa «Lettera a Gasp. Scioppio sulle cose di Genova»; Ansaldo (Atti della Soc. Lig. I, 1, p. 71).

Langer (Polit. Gesch. Genua's und Pisa's im XII. Jahrh - Leipz. 1882- p. 156).

(٤) Lib. jur. I, 17.

(٥) قابل هذا الأسطول الصغير في كورفو الأسطول الذي أحضر الى جنوا الغنيمة التي أخذت من قيصرية ، من يولية الى أكتوبر ، انظر : Caffar, p. 14, 47.

في أواخر عام ١١٠١ أو أوائل عام ١١٠٢ (١) . وكان هذا الفتح نواة لكونتية طرابلس . وفي عام ١١٠٤ استولى ريموند على مدينة ثانية هي جبلة Gibelet الواقعة بين بيروت وطرابلس ، وتم ذلك بمساعدة جيش جنوى آخر ، وهو نفس الجيش الذي استولى من قبل على عكا (٢) . غير أن أهم موقع في هذه المنطقة ، وهو طرابلس ، أبدى مقاومة أشد ، ودافع به المسلمون دفاعا عنيفا ، واستطال الحصار عدة سنوات ؛ ولم يكن قد انتهى عندما توفي ريموند عام ١١٠٥ . وطالب بوراثه أملاكه في سوريا ، وإدارة المشروعات التي بدأها في حياته اثنان من أقربائه : جو يوم Guillaume كونت سارداني Cerdagne ابن أخيه ، وبرترام Bertram ابنه الطبيعي ؛ وانصل الاثنان بجنوا طالبين المعونة اللازمة لانهاء حصار طرابلس ، فبعث أحدهما بعض السفراء ، وسافر الآخر الى هناك بنفسه . وفاز براترام بمطلبه . وفي مستهل عام ١١٠٩ عاد من جنوا الى سوريا ومعه أسطول يضم ستين سفينة . واذ أتاح له وفاة مزاحمه أن يضع يده على كل ما حصلت عليه أسرته في سوريا من أملاك ، فانه تنازل بموجب وثيقة محررة بتاريخ ٢٦ يونية من السنة نفسها (٣) لصالح خلفائه عن ملكية جبلة التي كان ريموند قد احتفظ بها لنفسه ، ومن ثم آل لجنوا ملكية هذه المدينة بالكامل ، وفضلا عن ذلك وهب برترام لجمهورية جنوا قصر القائد روجر Roger (٥) ، وثالث مدينة طرابلس من جهة البحر ، مع الميناء والجزر الواقعة قبالة . حقا لم تكن طرابلس قد وقعت في قبضته ، ولكن كان من المؤكد قرب وقوعها ، وبالفعل استسلمت المدينة بعد بضعة أسابيع ؛ في حوالى منتصف شهر يولية (٥) . وبعد هذا الانتصار الحربى ، عقد قادة الأسطول الجنوى معاهدة تحالف مع تانكرد أمير أنطاكية وساعده في إقامة الحصار حول جبيل Gibellaum التي

(١) Fouch de Chart, i.c, p. 399 Alb, aq. dans Bong. 326.

Guill de Tyr, X, 13, 19 ; Caff. Deliber. p. 47 ; annal jan, p. 15.

— كل المؤرخين العرب . أبو الفدا ابن الأثير ، ابن خلدون يجعلون الاستيلاء على هذه المدينة في عام ٤٩٥ م . الذى يبدأ في ٢٥ من أكتوبر عام ١١٠١ م . ويرجع « كافارو » هذا الحدث الى عام ١١٠١ م وكذلك بفعل « فوس » على الأرجح .

Lib. jur. I, 18, D. Vaissette, Hist de Languedoc, IV, 348 et s. (٢)

(٣) يظهر اسم القائد العام روجر Roger كثيرا في موائيق النصف الأول من القرن

الثاني عشر ، والخاصة بشمال سوريا .

Ritter (Erdk, XVII, 1, p. 606, 619 et s., 625). (٤)

— فى عصر الحروب الصليبية ، أهديت إحدى الجزر الصغيرة الى العديس نيقولا .

St. Nicolas : Wilken, Gesch. d. Kreuzz. VII, 705.

Foucher de Chartr. p. 420; Caffar Annal p. 15; De liberat. p. 48; (٥)

Hist. regni hieros. p. 49; Guill de Tyr, XI, 10. Kugler, op. cit. p. 74. Hagenmeyer, Ekkeh. p. 328.

يحدد هاجنماير مع فوش يوم ١٣ من يولية تاريخ الاستيلاء على المدينة .

استسلمت في ٢٣ من يولية (١) ، وأتم الاستيلاء على هذه المدينة ربط الجزء من سواحل سوريا الذي يملكه البروفانسيون بالاقليم الشمالى الذى يحتله النورمانديون ، وكانت هذه خطوة عظيمة فى سبيل الحفاظ على الدول الصليبية بوجه عام . ومع ذلك لم يزل باقيا بين مملكة القدس وكونتية طرابلس ثغرة شديدة الخطورة : فقد كانت عكا الواقعة فى أقصى الشمال من المملكة ، وجبله فى أقصى الجنوب من الكونتية مفصولتين بشريط عريض من اقليم لم يفتح بعد : وفى هذا الاقليم نفع مدن صور Tyre ، وسيدون (صيدا حاليا) Sidon ، وبيروت (بيريت) Beryte ، ومن هذا الحين أصبح الاهتمام الرئيسى عند ملوك بيت المقدس أن ينتزعوا هذه المدن من أيدي المسلمين ، ويضموها الى مملكتهم . وفى غضون عام ١١١٠ نجح الملك بلدوين فى فتح اثنتين من هذه المدن : بيروت ، وصيدا ، الأولى فى ١٧ من مايو بمساعدة اسطول جنوى (٢) ، والثانية فى ١١ من ديسمبر بمساعدة صليبيى الشمال بقيادة سيجورد جورسالا فارى Sigurd jorsalafari (٣) وأسطول فينيسى بقيادة الدوج اوردلافو فالبيرو Orde lafo Falier نفسه . ولا تذكر وقائع الحروب الصليبية شيئا عن تعاون البنادقة فى هذه الظروف ، غير أن هذا التعاون أكدته فيما بعد داندولو Dandolo فى أخباره (٤) ، وعزز قوله هذا بمواثيق (٥) أثبت فيها أنه فى مناسبة الاستيلاء على صيدا ، تنازل الملك بلدوين لكنيسة القديس مرقس بالبندقية وللدوج اوردلافو فالبيرو عن أملاك وحقوق عديدة فى عكا . وقد فقد النص الأصلي للميثاق المشار اليه ، ومن ثم لانعرف عنه سوى ما ذكرناه آنفا ، ولكن من المرجح كثيرا أنه كان يتضمن أيضا تنازلات عن بعض الأملاك لصالح البنادقة .

وانقضت فترة تزيد على عشر سنوات قبل أن يظهر ثانية أسطول إيطالى على سواحل سوريا ؛ وفى هذه الفترة كان البيزيون يحاربون المسلمين فى جزيرة ماجورقا Majorque (مالوركا بالاسبانية - المترجم) التى استولى عليها المسيحيون فى وقت ما (١١١٤) ، ولكنها مالبثت أن ضاعت منهم . وكانت جمهوريتنا جنوا وبيزا تتصارعان علنا ، صراعا طال أمده ، كان العقبة الرئيسية

Ann. Jan. p. 15.

١٠٠

- تما لابن الأثير (ص ٢٧٤) وابن خلدون (ص ٧١) ، كان تانكرد هو الذى استولى فى الواقع على المدينة ، وألفها بامارة أنطاكية ، ومنح الجنوبيين فى الداخل رفعة من الأرض يقيمون عليها مبانيهم

Ann. Jan. p. 1٤; Fouch. de Chartr. p. 420 et s.; Alb. Aq. p. 362; (٢)

Guill de Tyr. XI, 13.

Riant, Expéditions et Pèlerinages des Scandinaves en Terre (٣)

Sainte, p. 190 et ss.

Murat. SS. XII, 264. (٤)

Taf et Thom, I, 86, 91, 145. (٥)

التي حالت بينهما وبين متابعة مشروعاتهما في الشرق . وفي عهد بلدوين الثاني أدى هذا التوقف من جانب الغربيين الى وقوع المسيحيين في سوريا في ضيق شديد : فقد جعل المسلمون يناوشونهم من الشمال والجنوب في وقت واحد . وعندما كان وجود الملك في الجنوب ضروريا للغاية ، كان مضطرا في الوقت نفسه للدفاع في الشمال عن امارة أنطاكية التي كان أميرها آنثذ في قبضة المسلمين ، ومن ثم أرسل بلدوين الى البندقية طلبا للنجدة ، في اسلوب شديد الالجاج ، ضمنه وعودا خلاصة (١) . ولما كان البابا يؤيده بكل ما يملك من سلطة ، فان ندائه قوبل بالترحيب من جانب أهالي البندقية ودوجها دومنيكو ميشيل Domenic Michiel . ومن البندقية أقلع في عام ١١٢٢ (٢) أسطول قوامه مائتا سفينة شراعية (٣) بقيادة الدوج نفسه . ولكن طال انتظار وصول الأسطول الى سوريا لأن البنادقة توقفوا في الطريق لفض نزاع بينهم وبين الأمباطور اليوناني ، وضربوا الحصار قبالة كورفو Corfou ، وفي هذه الأثناء ازدادت الحالة سوءا في فلسطين ، ووقع الملك بلدوين أسيرا في أيدي المسلمين (أبريل ١١٢٣) ؛ وكان العدو القادم من مصر يتأهب لغزو البلد برا وبحرا ، وأرسل الأهالي الى البنادقة رسالة بعد أخرى يستعجلون وصولهم . وأخيرا وقر عزم البنادقة على الابتعاد عن كورفو ، واقترون وصولهم الى سوريا بانتصار بحري عظيم على المصريين قبالة عسقلون ، وهزم فرسانهم الجيش المصري قبل ذلك ببضعة أيام (٤) . وقد كشف هذان النصران عن شجاعة ضباط الملك الأسير ، وقر عزم هؤلاء الضباط على أن يحاصروا بمساعدة البنادقة موقعا من الموقعين البحرينيين اللذين لم يزالا في قبضة الأعداء ، وهما عسقلان وصور : وعلى ذلك عقدت معاهدة (٥) في أواخر عام ١١٢٣ غالبا ، في مدينة عكا حيث كان الأسطول

Historia-ducum Veneticorum, éd. Simonsfeld, Mon. Germ. hist. (١)

SS. XIV, 73; Dandolo, p. 269 et s. et Sanuto qui s'inspire du précédent, dans Bongars, p. 158; cf. Taf et Thom, I, 85.

(٢) بين ابحار الأسطول من البندقية ووصوله الى سوريا عام ١١٢٣ فترة فصل الشتاء ، قضاهما الأسطول أمام كورفو .

(٣) هذا هو الرقم الذي ذكره المؤرخون البنادقة : ويذكر أرفاما أخرى كل من :
— Fouch, de Chartr, p. 449, et Guill de Tyr., XII, 22.

(٤) بخصوص هذا النصر البحري ، أنظر :
— le Pactum Warmundi, dans Taf, el Thom, I, 84; Guill, de Tyr, I. c. L'hist. duc Venet., I. c. p. 73 et s., et Dandolo, p. 270
وحسبما ذكر هؤلاء ، جرت المعركة على رأي من Joppé . حقا ، كان أسطول العدو قد رساثة قبل ذلك بعدة أيام ، ولكن بعد هزيمة الجيش البري انسحب الأسطول الى عسقلان .
(٥) في حوزتنا للنسخة الأصلية من هذه المعاهدة ، ونسخ أخرى قديمة ولكنها سليمة ، نشرها :
Guill de Tyr Tafiet Thom, I, 79 et ss.
بأكملها في كتابه (XII, 25) ، وعرض داندولو ، ص ٢٧٠ نبذة منها .

العينيى قد ألقى مراسيه ، وذلك بين نواب بودوان (بلدوين) ، والبطريك ويرمند Waremund ، والقائد العام جويوم دو بور Guillaume de Bures (مجتمعين مع سائر الأشراف ، من مدنيين واكديروس فى المملكة) من جهة ، والبنادقة من جهة أخرى ، وعززت هذه المعاهدة الوعود التى أعطاها فيما مضى الملك بلدوين ، وأضافت إليها وعودا جديدة . ونص فى المعاهدة على أنه اذا أسهم البنادقة اسهاما رئيسيا فى الاستيلاء على المدينتين ، يصير ثلث كل منهما ملكا خالصا لهم ، ويبقى الثلثان الآخران للملك ، ويقسم الاقليم وفقا لهذا المبدأ . وفضلا عن ذلك ؛ يجب فى كل مدينة تنتمى الى الملك أو الى أحد بارونات ، أن يوضع فى أيدي البنادقة شارع ، وميدان ، وكنيسة ، وحمام ، وفرن - دون أن يدفعوا أى تعويض - وتكون مجردة من أى حق ارتفاق ، ويخصص لهم فى القدس حتى تساوى مساحته مساحة حى الملك (١) . واحتفظ البنادقة بالحق فى أن يكون لهم فى عكا مخبز ، وطاحونة ، وحمام - رغم أية مطالبة من قبل السكان - وكانوا معافين من جميع الضرائب على المشتروات والمبيعات ؛ ومن رسوم الدخول الى الأراضى التابعة للملك وأتباعه والخروج منها .

وبعد تمام التوقيع على المعاهدة أجريت القرعة لتحديد أى من المدينتين تحاصر أولا . وخرج اسم مدينة صور (٢) فى القرعة ، وكان موقعها منيعا بطبيعتها ؛ ومحاطا بحصون قوية . وبدأ الحصار فى ١٥ من فبراير ١١٢٤ . وارتأى للبنادقة أن المدينة لا يمكن غزوها من ناحية البحر ، لذلك سحجوا سفنهم الحربية كلها الى البر ، فيما عدا واحدة تتجول أمام الميناء ؛ وصنعوا آلات للحصار ، وقتلوا بشجاعة الى جانب الفرنجة (٣) . ولما كان الفرنجة يعوزهم المال ، فانهم أعانوهم وقدموا لهم مائة ألف دينار ذهبى بيزنطى (٤) . وفى ٧ من يولية استسلمت المدينة (٥) ، ونفذت المعاهدة فى الحال ، فاحتل البنادقة ثلث المدينة ، ملكا خالصا لهم (٦) ؛ ويدعى البعض أنهم منحوا نصف المدينة أو ثلثها عرفانا لهم

(١) بخصوص نصوص المعاهدة ، أنظر ترجمة جويوم دو بير (Taf. et Thom, I, 85)

بالفرنسية القديمة .

(٢) لم يتم الاستيلاء على عسقلان الا فيما بعد ، استولى عليها الملك بلدوين الثالث دون الاستعانة بأسطول ايطالى . ويجمل ويلكن Wilken بحق هذا الحدث فى عام ١١٥٣ ، وتايد هذا الراى فيما بعد ، أولا بكتابة وجدت فى بارليتتا Barletta ونشرها شولز فى : (Denkmaeler Unteritaliens I, 138).

— Wüstenfeld, Gesch. der Fatimiden Chalifen, Goelt. Abh. XXVII, 1881, sect. 3, p. 92.

Guill de Tyr, XIII, 1-14; Fouch. de Chartr. p. 479 et ss; Hist. duc Venet. 1.c.p. 74; Dandolo, p. 271.

Hist. duc. Venet. 1. c.

(٤) هذا المبلغ فرابة ١٣٠.٠٠٠ فرنك

Fouch. de Chartr. p. 465.

(٥)

Guill de Tyr, XIII, 14; Dand 1 c.

(٦)

بما أدوه من خدمات جليلة ، غير أن الدوج رفض ذلك (١) . وحين استعاد الملك بلدوين حريته بعد هذه الواقعة بقليل ، لم يفته أن يصدق على ما وعد به نوابه (٢) ، ولكنه أضاف أن على البنادقة أن يحشدوا للدفاع عن صور جيشا يتناسب قوامه مع دخل التلث الذى يملكونه . أما فى المحرر الاصل للمعاهدة ، فكان ثمة التزام بعدم دفع الرسوم الجمركية التى تحصل فى المملكة من الأهم التى تمارس التجارة مع البنادقة . وبالتأكيد لم يكن هناك حذف أو اضافة ، بالصدفة أو عن خطأ ، ولكن الحقيقة أن الملك لم يكن يريد أن يتقيد بشئ فى موضوع الجمارك (٣) .

وباختصار ، يتبين من كل ما سبق ذكره أن أمراء الدول الصليبية لم يستولوا على أية مدينة من مدن سوريا الساحلية دون معاونة الأساطيل الإيطالية . وقد أسهم الجنويون فى غزو العدد الأكبر من هذه المدن ، أما نصيب البنادقة فى الغزو فكان أقل من نصيبهم ، ولكنهم ساعدوا فى الاستيلاء على صور ، أهم هذه المدن .

أما البيزيون بعد الحملة الطموح التى قادها ديبرت Daibert رئيس الأساقفة ، والتى لم تأت بنتائج ذات شأن ، فاننا لانراهم بعد ذلك سوى مرة واحدة ، فى عام ١١٠٨ بصفتهم حلفاء للصليبيين ؛ وكان الأمر ، بالصدفة الغربية يتعلق مرة أخرى بالاستيلاء على « اللاذقية » Laodicée ، ولم يكن الأعداء الذين يحاربونهم هم المسلمون ، ولكنهم كانوا اليونانيين . وانتهت المنافسة التى اشتدت شمالى سوريا بين النورمان وبين اليونانيين الى صراع فاصل للاستيلاء على اللاذقية . وحارب الطرفان بضراوة . ولم يكده الأمير تانكرد يصير سيدها على المدينة (١١٠٣) بعد حصار دام سنة ونصف سنة (٤) حتى وصل جيش يونانى جديد للنجدة واسترد المدينة والميناء . الا أن القلعة ، التى دافع عنها حامية نورماندية ، كانت هى وحدها التى صمدت طويلا ضد عدو يفوقها كثيرا فى القوة (٥) ؛ ومع ذلك فانها استسلمت فى النهاية على ما يبدو ، لأن تانكرد لم يستطع أن يرسل

Chron. Altin. 1. c.

(١)

يذكر هذا المصدر أنه كان ثمة مشروع باقامة الدوج على العرش مدلا من بلدوين الذى وقع فى الأسر ، هذه المعلومة غير صحيحة بالتأكيد .

(٢) لم تكن وثيقة التصديق ، فى نقاطها الرئيسية سوى نسخة من المعاهدة ، ويعطى مورات عنها (Murat. Ad. calc. Dandul. p. 274 et s.) نصا غير صحيح ، وتاريخا كاذبا . أما : (Taf. et Thom. I, 90 et ss.) فيعطيان عنها معلومات أصح ، ويحددان التاريخ الحقيقى ، عكا ، مايو ١١٢٥) .

Wilken, Gesch. d. Kreuzz. p. 501.

(٣) ويل هذا عكس ما زعمه ويلكن .

Raoul de Caen, p. 708 ; Ann Comn. II, 107 ; cf. Fouch, de Chartr. p. 407.

(٤)

Tudebod, contin., dans le Recueil des hist des crois p. 228 ; Anne

(٥)

Comn., II, 123-126; Raoul de Caen, p. 712, 715 et s.

ليها أية نجدة لانشغاله في جهة أخرى . غير أنه ما أن استعاد قدرته على التحرك حتى ظهر ثانية تحت جدران الحصن بجيش يبزى ساعده في الاستلاء عليه وضمه الى اماره أنطاكية (١١٠٨) (١) ؛ وكان قد وعد البيزيين ، قبل استسلام اللاذقية أن يعطيهم ، في حالة نجاحهم ؛ حيا في كل من اللاذقية وأنطاكية يمارسون به تجارتهم ، كما وعدهم بممارسة التجارة بكامل حريتهم ، واعفائهم من الضرائب في موانيه وأقاليمه بصفة عامة . وبعد الاستيلاء على المدينة ، عزز وعوده بميثاق قائم على نصوص مماثلة (٢) . وقد قيل انه كان هناك أسطول يبزى الى جانب الأسطول الجنوى في حصار أرسوف وقيصريه عام ١١٠١ ، وعكا عام ١١٠٤ ، وطرابلس عام ١١٠٩ ، ولكننا نشك في صحة هذه الزمالة في السلاح اذ نعلم ما كانت عليه العلاقات بين الجنوبيين والبيزيين . ونحن اذا فكرنا ، فضلا عن ذلك ، بصدد هذه الحملات الثلاث ، في أن مؤرخا واحدا ؛ « البير من ايكس » Albert d'Aix هو الذي جمع بين البيزيين والجنوبيين (٣) ، في حين أن المصادر الأخرى كلها لا تذكر الا الأخيرين (أى الجنوبيين) ، فانه من العسير التسليم بأن البيزيين كانوا حاضرين في هذه الحصارات . ومع ذلك فمن الثابت بشهادة شاهد موثوق بصدقه ، أوردها فوشيه دوشارتر Foucher de Chartre أنه كان في صفوف جيش جنوا في حصار أرسوف وقيصريه ايطاليون من قوميات أخرى (٤) . كذلك من المحتمل أن نبيلًا بيزيا يدعى جاندولفس Gandolfus كان يحارب الى جوار الجنوبيين ومعه عدد من أقربائه ، اما في هذه المناسبة ، واما في حصار عكا ، وبرز في القتال بنوع خاص ، ذلك لأن الملك بلدوين الأول شمل أفراد أسرته بالاعفاء من رسوم الجمارك ، أسوة بالجنوبيين (٥) .

(١) في الوقت الذي تم فيه الصلح بين الإمبراطور الكسوس وبوهيمند (سبتمبر ١١٠٨) في دورازو Durazzo لم نعد اللاذقية بالتأكيد تنتمي الى اليونانيين ، ولكن من العسير تحديد التاريخ الذي انفصلت فيه عن الإمبراطورية . ويحدد كوجلر لذلك عام ١١٠٦ (Kugler, op. cit., p. 71) أما ويلكن فيحدد له عام ١١٠٨ (Wilken, op. cit., II, 276 et s.) وأما الوثيقة البيزية الأصل ، والتي سوف نتحدث عنها بعد قليل ، فانها تؤيد التاريخ الأخير .

(٢) الميثاقان بتاريخ ١١٠٨ ، Documenti sulle , Dal Borgo, Dipl. Pis, p. 85 et s., relax, tox, coll'Oriente, p. 3.

سكان اللاذقية متصلة بالبحر بوساطة شارع ذي أعمدة ، وهذى خاصية تتميز بها المدن السورية . وكانت هذه الطرق ذات العمد ، مع كنيسة القديس نيفولا المبنة عند المدخل تشكل القسم الخاص بالبيزيين . وأضاف الأمير رينو ، بصفة مؤقتة ، ساحة أخرى للبناء وادعة عند الميناء ، أنظر :

— Dal Borgo, p. 86 et s., 94; Doc. sulle relax, p. 6, 15 et s.

Ed, Bong, p. 310, 335 et s.

(٣)

Recueil, p. 385.

(٤)

Lib. jur. reip Jan, I, 16.

(٥)

وبعد أن ذكرنا المدن البحرية الإيطالية الثلاث التي أسهمت اسهاما فعالا في تأسيس الدول الصليبية وتوسيعها ، لا بد لنا من التنويه بمدينة في جنوب فرنسا ، هي موسيليا ، والقاء المزيد من الضوء على الدور الذي أداه المرسيليون في هذا العمل . ويبدو أنهم قد برزوا قبلا أثناء الحملة الصليبية الأولى : ذلك لأن بلدوين الأول ، اعترافا منه بالخدمات التي أسدوها لسلفه جودفري دوبريون أصدر لصالحهم في عام ١١١٧ (١) مرسوما يبيح لهم تخطيط حدود جيبهم في مدينة القدس بحيث لا يسمح لأى أجنبى بالإقامة في هذا الجب ، وأن يكون لهم به فرن خاص .

وأضاف المرسيليون إلى الخدمات التي أدوها في الأصل ، خدمات أخرى ، وكانوا نافعين ليس فقط للمملكة القدس ، ولكن لكونتية طرابلس ، اما بعمل مباشر أثناء المعارك ، واما بتقديم أموال ، واما بإسداء نصائح مفيدة . هذى هي الحقائق التي أثبتتها مديحا لهم كل من الملك فولك دانجو Foulques d'Anjou في عام ١١٣٦ ، والملك بلدوين الثالث في عام ١١٥٢ . وكانت مكافأة الجالية المرسيلية نظير خدماتها هذه الإعفاء من الرسوم الجمركية ، والقريبة على الانتاج ، والحق في امتلاك شارع وكنيسة وفرن في القدس وعكا وكل المدن الساحلية في المملكة (٢) .

ومن الطبيعي أن تكون لكل الأمم التجارية التي قدمت تضحيات في الأرواح والمال للمساعدة في انشاء الدول الصليبية الحق في امتيازات خاصة يمنحها إياها ملوك هذه الدول . وهناك على العكس من ذلك أمم لم يتأت لها أن تقدم مثل هذه الخدمات ، ومن ثم تخافت في هذا المضمار ، مثال ذلك الأماليون الذين كانت لهم علاقات قديمة بسوريا كانت خليقة بأن تكفل لهم في هذه الظروف بعض المزايا . وكان في أنطاكية قبل اندلاع الحروب الصليبية حتى أماليا (٣) ، بقى على ما كان عليه ، وبنى الى جواره حتى جنوى ، الا أن الأمراء الجدد لم يضيفوا الى أملاك الأمانيين الا شيئا قليلا جدا ، واقتصرت أملاكهم في مجموعها على

(١) يعطى M. Deguignes. ملخصا لهذا الميثاق في :

les Mém. de l'Acad. des Inscr., XXXVII, 515.

ولكنه ينسبه خطأ الى بلدوين الثاني ، في حين أن

بلدوين الأول (المتوفى عام ١١١٩) كان ولم يزل يتولى الحكم في عام ١١١٧ .

(٢) Papon, Hist de Provence II. Preuves, no XVIII ; Méry et Guindon,

Histoire des actes de la municipalité de Marseille, I, 183 et s.

— Papon, l. c. no XIV ; Méry et Guindon, I, 182.

— لما ورد في مرسوم بلدوين ذكر لمبالغ قدمها المرسيليون ، فان هذا المعلومة تتيح لنا أن نفترض ان المرسوم لم يكن تاريخه في الواقع عام ١١٥٢ ، ولكنه مؤرخ بعام ١١٥٣ ، لأن التاريخ الأخير ، هو تاريخ حصار عسقلان والاستيلاء عليها .

Ughelli, it. sacr. IV, 847; Paoli, Cod. dipl. I, 27, 38.

(٣)

ثلاثة حوانيت في ميناء اللاذقية منحها لهم الأمير بوهمنه الثالث (١) . وفي مدينة طرابلس حصلوا في عهد سيادة الصليبيين على بضعة منازل (٢) ، ذكر منها منزل النيكونت ، وسوق احتفظوا بها الى أن استعاد العرب المدينة ، وكان الملاك الحقيقيون هم أساقفة أمالفي ، وقد تركوا ريع هذه العقارات لبعض المواطنين الذين تكفلوا بصيانتها على حسابهم الخاص (٣) . وختاما لهذه النقطة نضيف أن عكا هي المدينة الوحيدة بين كل مدن مملكة القدس التي نبت وجود جالية أمالفية فيها ، لهم بها بعض الأملاك الى جوار الحي البيزي (٤) . كذلك كان في جبانة القديس نيقولا قسم لموتاهم ، ومستودع لعظام المرتى بناء نبيل أمالفي يدعى مانسو (٥) . ولم أصادف في أية وثيقة اسم فيكونت أو قنصل أمالفي في سوريا .

ما أعظم الفرق بين الهبات الزهيدة التي كانت تعطى للأمالفيين ، وبين المنح الضخمة والتنازلات الكبيرة عن الأراضي للبنادقة والجنوبيين والبيزيين ! ولكننا نقول ، حتى نكون صادقين ، ان المزاياء الموعودة بها لم تكن تنفذ كلها دائما ، وأن البعض منها قد سحب فيما بعد . مثال ذلك أن معاهدة عام ١١٢٣ التي كانت في الواقع تجديدا وتوسيعا للوعود المبرمة في عام ١١٠٠ ، والتي أقرت للبنادقة الحق في ملكية حي كامل (أي بما فيه موضع للسوق وكنيسة وحمام وفرن) في كل مدينة بمملكة القدس ، هذه المعاهدة لم تنفذ أبدا تنفيذا دقيقا . والحقيقة أن البنادقة أنفسهم لم يتمسكوا بهذه المعاهدة ، دون شك ، على الأقل بالنسبة الى المدن الداخلية ، فيما عدا القدس ، ولكنهم لم يحصلوا بهذه المعاهدة على حقوقهم ، حتى في المدن الساحلية كلها ، وفي عسقلان التي ضمن لهم فيها الثلث بنوع خاص (٦) ، والمرجح أن الأمر كان كذلك بالنسبة الى المرسيليين الذين كان لهم أيضا الحق في ملكية حي في كل مدينة ساحلية .

(١) Ughelli, it sacr. VII, 203 ; Pansa, Istoria dell'antica repubblica di Amalfi, I, 94 ; Camera, Istoria d'Amalfi, p. 204 ; Memorie di Amalfi, p. 202.
وأصدق نص في هذا الخصوص هو نص كاميرا

(٢) صودرت بعض هذه المنازل ، ولكنها أعيدت الى ملكية أصحابها بحكم أصدره الكونت ريموند الثالث (١٥ من يونية ١٩٦٣) انظر Camera, Memorie di Amalfi II, 202 et s.

(٣) أنظر وثيقة ١٩ من نوفمبر ١١٨٦ في Pansa, op. cit., I, 97; dans Camera, Istoria, p. 205; Memorie, p. 203 et s.; Ughelli, op. cit., p. 204

وكذلك ملخصات وثائق عامي ١٢٦٧ ، ١٢٨٦ في : Pansa, II, 53 et s., 137 et s.

(٤) ملخص لوثيقة في عام ١٢٦٧ في : Pansa, II, 53 et s., 137 et s.

(٥) Pansa, I, 91; Ughelli, VII 203; Camera, Storia di Amalfi, p. 206! id. Memorie di Amalfi, p. 200.

(٦) أنظر الشكوى التي حررها عام ١٢٤٤ البابل (الحاكم) البندقي مارسيلوس حوجيوس

في : Taf et Thom. II, 398. ويطلب فيها بتنفيذ نصوص معاهدات سابقة .

وكثيرا ما رأى الجنويون بمرور الزمن امتيازاتهم وقد انتهكت وأملأهم وقد نقصت غصبا ، وقدموا لذلك العديد من الشكاوى (١) . بل أن الملك أموري (١١٦٢) - (١١٧٣) ، بالتواطؤ مع كهنة كنيسة قبر السيد المسيح مضى في هذا السلوك إلى حد محو الكتابة المنقوشة أحياء لذكرى الخدمات التي أداها الجنويون للملكة ، وتعدادا للمزايا التي حصلوا عليها مكافأة لهم على هذه الخدمات (٢) . وأثار هذا العمل مخاوف الجنويين من أن نضيع شيئا فشيئا حقوقهم في الأملاك التي يتمتعون بها ، لذلك سعوا مرة بعد أخرى لدى البابوات الذين أظهروا لهم العطف ، حتى يستطيعوا بفضل تدخلهم أن يعيدوا نقش هذه الكتابات (٣) . ولم تنجح هذه المساعي ، وتصرف معهم بلدوين الرابع ابن أموري بقصد سيء ، ونازعهم أملاكهم ، وأنكر حقوقهم . وأصابتهم خيبة أمل مماثلة في كونتية طرابلس : فما أن تسلموا هذه المدينة حتى طردهم منها الأمير برترام Bertram نقضا لما سبق أن وعدهم به (٤) . وليس من الثابت أن الجمهورية أنشفت بعد ذلك بالثلث الذي كانت تملكه ، كما نازعها هذا الثلث الكونت ريموند الثالث ، وأرسل إليه البابا أوربان الثالث Urbain III انذارا في هذا الشأن (٥) ، ولم يثبت بالمرّة أن كان لهذا الانذار أي أثر .

وظهر في توزيع الأموال التي تمتلكها الأمم الثلاث الأكثر رعاية في إقليم سوريا تفاوتات كبيرة ، وكان هذا التوزيع يمثل بوجه عام نصيب كل من هذه الأمم عند غزو أية منطقة . منال ذلك أن البنادقة لم يقدموا أية وحدة عسكرية في القسم الشمالي من سوريا ، لذلك فانهم لم يمتلكوا بها إلا النزر اليسير ، وكان كل ما يملكونه في امارة انطاكية ، وفي كونتية طرابلس محصورا

Annal., Jan, p. 24, 31.

(١)

Annual, Jan, p. 51 ; Mr. de Vogüé (Les églises de la terre sainte, p. 221).

(٢)

يعتقد السيد فوجويه أن الكتابة محيت بسبب بعض التغييرات التي أجريت داخل الكنيسة ، وأنه ليس هناك ما يثبت سوء نية الملك تجاه الجنوبيين . ولنسلم بأن هذه التغييرات قد أدت إلى هدم كل ما بداخل الكنيسة ، ولكن ذلك لا يمنع من الاحتفاظ بالكتابة ، ونقلها إلى جهة أخرى إذا توفر حسن النية ، كما أنه قد وصل إلى علمنا تصرفات أخرى عدائية من جانب الملك نحو الجنوبيين ، فمن المعروف أنه لجأ إلى البيزيين ، أعداء الجنوبيين الألداء ، ملتصبا مساعدتهم له في حملة يوجهها إلى مصر .

Lib. jur. 1, 228 et s., 309, 331 et ss.; Ughelli, 1. c. IV, 874 et S. ; (٣)
Langer, op. cit., p. 156.

وقد أذن كونراد دو مونفيريا ، أمير صور في عام ١١٩٢ بنزيم الكتابة ، غير أن الجنوبيين لم يستفيدوا من ذلك لأن المدس وقعت منذ عام ١١٨٧ في أيدي المسلمين .

Calff, p. 48, 49.

(٤)

Lib. jur. I, 338 et s.

(٥)

تاريخ التجارة - ١٦١

داخل أسوار العاصمة . أما الجنويون فانهم نالوا من الهبات ، عقب الاستيلاء على أنطاكية un fondaco (مستودع) ، وكنيسة القديس يوحنا ، وثلاثين بيتا (١) . وفيما بعد ، منحهم تانكرد موقعا للبناء في ميناء هذه المدينة ، وعقارا (فيللا) خارج المدينة ، كما منحهم في اللاذقية حيا في الميناء ، وقصر ايليا Elie وكنيسة (٣) ، مكافأة لهم دون شك على المساعدة التي قدموها له لكي يستولى على جبيل Gibel (يولية ١١٠٩) . وفي هذا الحين تلقى البيزيون ملكا خالصا لهم ، حيا في أنطاكية ، وشارعا ذا عمد ، وكنيسة القديس نيقولا في اللاذقية (٤) ، في حين قنع البنادقة بكنيسة ، و (مستودع) fondaco . وبضعة منازل في أنطاكية (٥) . وجرت الأمور على هذا المنوال في كونتية طرابلس . ولم يصل إلينا طوال القرن الأول من تاريخ هذه الكونتية سوى صك امتياز واحد ، أصدره عام ١١١٧ لصالح البنادقة أحد كونتات طرابلس ، كما أن الهبة التي قدمها الكونت بونس Ponce لكنيسة القديس مرقس كانت قاصرة على بيت في الميناء (٦) . أما البيزيون فكانوا على العكس من ذلك يمتلكون في المدينة الكثير من المنازل التي ازداد عددها بهبات أو بالشراء (٧) . أما بخصوص الجنويين ، فإن سوء نية الأمير برترام منهم من الحصول على ثلث مدينة طرابلس . وهو الثالث الذي كان لهم حق امتلاكه ، ولكنهم حصلوا عوضا عن ذلك على مدينة باكلمها ، مدينة جبلة Gibelet ، وضبعة « جبل القائد العام » Puy du Connetable فكانوا بذلك الأمة الأكثر رعاية .

وكان الأمر على خلاف ذلك تماما في مملكة القدس ، إذ بقي البيزيون هناك متخلفين على الأمتين الآخرين ، أولا لم يكونوا يملكون بها سوى خمسة منازل في صور ، وهبها لهم الملك بلدوين الثاني (٨) . وفي غضون القرن الثاني عشر اضافوا الى هذه العقارات ، بالشراء أو بهبات جديدة عدة منازل وأراضي

Ughelli, It sacr. IV, 846 et s. (١)

Cf. sur ce chateau Raoul de Caen, cap. 151. (٢)

Ughelli, It sacra, IV, 847 et s. (٣)

Dal Borgo, Dipl Pis, p. 85 ; doc. sulle relazioni tox. coll' Oriente, (٤)
p. 3.

، تلقوا أيضا فيما بعد منزلا في أنطاكية ، وموقعا للبناء في اللاذقية ، انظر :

— Dal Borgo, p. 86, 93; Doc. p. 6, 15 et s.

Taf et Thom. I, 102 et s.; 134, 149, 176. (٥)

Taf el Thom. I, 76; cf. I, 146. (٦)

Dal Borgo, p. 95, 84, 84 103; Doc. sulle relaz tox. p. 17, 24, 25. (٧)

Doc. sulle relaz tox, au bas de la p. 7. (٨) (بأسفل الصفحة ٧)

للبناء ، وسوقا ، وكنيسة ، وحدائق ، وطواحين في الضواحي (١) ، شكلت في النهاية مستعمرة كبيرة وغنية .

وفي عكا تنازل لهم الملكان أموري (١١٦٨) وبلدوين الرابع (١١٨٢) عن أراض لبناء كنيسة ودور عامة وخاصة (٢) . وفي عام ١١٤ أعطاهم الكونت أموري العسقلاني بلا مقابل في يافا موقعا ملائما لاقامة سوق وكنيسة وبيوتا سكنية كثيرة (٣) . ونعلم أن الجالية البيزية كان لها أملاك في القدس وقيصرية ، ووجدنا البرهان على ذلك في وثيقة بها فقرة تتعلق بمنازعات بين البيزيين وبين بطريرك القدس ودير سانتا ماريا دي لاتينا *Saneta Maria de Latina* بالقدس ، واكليروس قيصرية (٤) .

وإذا أردنا المقابلة بين الجنوبيين ووضع البيزيين ، فإن معنا قائمة بالتنازلات التي منحت للأولين في عام ١١٠٤ بموجب وثيقة رسمية للملك بلدوين الأول (٥) ، هذه التنازلات تشمل : حيا في كل من مدينتي القدس ويافا ، وثلثا من كل من مدن أرسوف ، وقيصرية ، وعكا وضواحيها ، وكذا من كل مدينة يشترك في حصارها في المستقبل فرقة من خمسين جنويا على الأقل ، وحدث هذا الاشتراك بعد ست سنين في حصار بيروت .

وأخيرا ، كان للبنادقة امتياز وحيد في نوعه ، إذ كان لهم الحق في حصنة في كل مدينة من مدن المملكة ، حتى ولو تم الاستيلاء عليها بدون مشاركتهم . وقد رأينا أنهم لم يتوصلوا الى تنفيذ هذا الحق في كل الجهات ، ولكن هذا كان استثناء من القاعدة ، ونحن على ثقة من أن الاتفاقية قد طبقت في حيفا (اسمها القديم *Caiffa* وفي صيدا ، وهذا ثابت في صك امتياز صادر في عام ١١٦٥ بالنسبة الى حيفا (٦) . وبالنسبة الى صيدا ، فقد أسهم البنادقة في الاستيلاء عليها ، لذلك منحهم الملك بلدوين الأول صك امتياز . ضاع لسوء الحظ . وأنا لنجد ذكرا لهذه المسألة في صكوك لاحقة (٧) تتعلق بشوارع في عكا منحوه في هذه الفترة . ونمت أملاك البنادقة بهبة جديدة في عام ١١٢٣ ، وفي الوقت نفسه منحهم الملك في القدس رقعة من الأرض ماثلة في مساحتها

(١) أنظر براءات أعوام ١١٥٦ ، ١١٦٥ ، ١١٨٧ في : Doc. sulle relaz tox, p. 6 et s.; (Dal Borgo, Dipl. p. 87 et ss., 90, 100 et ss.) ; Taf et Thom II, 385.

(٢) Doc. sulle relaz, tox, p. 14, 23. (Dal Borgo, p. 91 et s., 96).

(٣) Doc. sulle relaz, tax, p. 8 (Dal Borgo, p. 89).

(٤) Doc sull relaz, tox, p. 8 (Dal Borgo, p. 88).

(٥) Lib. jur. I, 16 et s;

(٦) Taf, et Thom, I, 146.

(٧) Taf, et Thom I, 88, 91, 145.

الرقعة التي يملكها هو نفسه . الا أن أهم أملاكهم كانت في صور (١) ، وقد تسلموا ثلثها بالكامل ، بما فيه الأراضي والحقول التابعة لها ، المساجرة بطريق المزارعة (٢) . نرى مما سبق أن الامتيازات الممنوحة في المدن للجاليات المبعونة من قبل الجمهوريات التجارية الغربية تتكون من أراض تقام عليها المباني ، أو من عدد من المنازل ، أو من شارع كامل ، أو من قسم من المدينة . وكان مجموع المباني التي تصبح ملكا لأمة تجارية ، يطلق عليه اسم *ruga* أو *vicus* لهذه الأمة (٣) ، وتتضمن المباني الخاصة بالسلطات والمنشآت العامة التي يستخدمها أفراد الجالية ، وبيوت الأفراد . ونذكر في مقدمة المباني من النوع الأول ، *Bailliage* ، مقر الإدارة والمحكمة ، ويقوم به رئيس الجالية ، ويجتمع به مع المحلفين الذين تتشكل منهم المحكمة ، كما يجتمع بمجلسه (٤) . وفي الجاليات الصغيرة كانت دار واحدة تضم أحيانا الإدارة والمحكمة والمخازن ، مثال ذلك في أنطاكية حيث طلب البنادقة من الأمير رينو التصريح لهم بنصريف شئونهم القضائية في المبنى الخاص بمخازنهم (٥) . ومع ذلك كان هذان المبنيان منفصلين بوجه عام ، كما في أحياء صور وعكا (٦) : ففي هذين المركزين التجاريين الكبيرين ، كانت الحاجة تتطلب مستودعا فسيحا صالحا لأن يكون مخزنا ودارا للبيع . ولم تكن المطالب الدينية للمستوطنين مهمة ، أما لأن حيهم يضم كنيسة موهوبة لهم ، وأما لأن أفراد الجالية قد شيدوا كنيسة أو أكثر (٧) . وكانت هذه الكنائس تهدى عن طيب خاطر للقديس شفيح كاتدرائية الوطن الأصلي .

(١) يؤكد السيد الاستاذ يروتز Prutz الذي درس هذه الجهات أن هذا الثلث الذي حصل عليه البنادقة يشكل القسم الجنوبي ، أو بالأصح الجنوب الشرقي من مدينة صور الحالية انظر : *Aus Phönizien*, p. 269.

(٢) Taf et Thom I, 79 et ss. 140 et ss., 145 et ss., 167 et ss.

(٣) حينما نصادف بعد كلمة *ruga* كلمة *Campus* ، فإن هذه الكلمة الأخيرة يقصد بها أرض مكشوفة (سوق) تنتمي الى حي تجارى . مثال ذلك في :

— Sanuto, Istoria di Romania, dans Hopf, Chron. greco-rom.
p. 165 Taf. et Thom, III, 32.

(٤) Taf et Thom, III, 40; *ibid* *ibid* II, 364, 390 et s.

(٥) وفي أحد البيوت التي تمتلكها الحالية الجنوبية في عكا ، كان الدور الأرضي مخصصا للمحكمة وكان البيت المخصص لهذا الغرض نفسه في المستعمرة الجنوبية بصور ، يطلق عليه اسم *lobia communis*

انظر في ذلك : Arch de l'Or lat, II, 2, p. 215, 222.

Taf. et Thom, I, 134. (٥)

Ibid, II, 364, 390-393. (٦)

(٧) كان للبنادقة ثلاث كنائس في صور : Taf et Thom II, 362 et s.

وكانت أكبر وأغنى كنيسة هي كنيسة القديس مرقس St. Marc.

من ذلك نجد أن البنادقة كان لهم كنائس للقدّيس مرقس في صور وعكا وبيريت (أو بيروت) béryle ، كما كان للجنوئين كنائس القدّيس لوران St. Laurent في صور ، وعكا ، وفي قيصريّة (على ما يحتمل) (١) . ومن جهة أخرى ، كان للمستوطنين طواحينهم وأفرانهم وسلخاناتهم الخاصة ، تكملها دار خاصة للاستحمام ، مخصصة لهم دون غيرهم ، يستخدمونها مرة في الاسبوع (٢) .

وكلما كان الحى التجارى واسعا ، ازداد ما فيه من بيوت سكنية ، وحوانيت للبيع ، وورش صغيرة يشتغل بها الأفراد ، وتؤجرها أو تبيعها لهم الجالية ، فنحصل على إيرادات كبيرة (٣) . وكانت إيجارات البيوت والمخازن التجارية والحوانيت ترتفع (٤) بنوع خاص في فترات السنة التي تصل فيها قوافل السفن التجارية القادمة من الغرب ، وفي كل مرة ، كان وصول هذه القوافل فرصة لمضاعفة نشاط الحركة التجارية (٥) . وكان المسافرون الذين تأتى بهم هذه القوافل ، ثم يعود بهم فيما بعد ينزلون في ديار المستوطنين حتى تنتهى أعمالهم . ومن المفيد أن نعرف أى جنس من الناس يتشكل منهم السكان المقيمون في كل من هذه المستوطنات . إلا أنه من العيب البحث عن احصائية تفيدنا في هذا الخصوص . وكل ما نعلمه ، علم اليقين ، هو أنه في عكا أو في صور ، على سبيل المثال ، لم يكن الحى البندقى في أحداها ، أو

(١) Taf. et Thom I, 140, 148, 281 et ss., 425; II, 26, 126, 174, 362 et s. 429 et s., 445 et ss.; III, 31 et ss., 153.

(٢) Paoli, Cod. dipl. I, 164; Ughelli, It sacr. IV, 882; Lib jur. 1, 412; Caifar, p. 14; Arch de l'Or, lat. II, 2 p. 215, 220.

(٣) كان للجنوئين دار من هذا اليوم في بيروت ، انظر Lib jur I, 665, 687.

(٤) وضع البابل (الحاكم) مارسيليو جورجيو قائمة تفصيلية بالإيجارات الى كانت

تحصلها الادارة القينيسية في عكا عام ١٢٤٤ ، انظر : Taf et Thom, II, 389 et ss.

وبعد بضع سنين ، وضع Gugl. di Bulgaro Simone Malocello

من قنصلية المستعمرات الجنوبية ، قائمة بإيجارات المنازل ، والحوانيت ، والأفنية ، الخ التابعة لبلدية

عكا (١٤ من يولية ١٢٤٩) ، وكانت التاجيرات تتخذ اما لفترة السوق ، واما للسنة كلها .

وقد وضع S. Malocello قائمة واحدة من هذا النوع لإيرادات مستوطنة صور ، بما فيها إيرادات

الحدائق والأراضي والمزارع الواقعة في النواحي المجاورة (١٢ من ديسمبر ١٢٤٩) ، وفي السنة

التالية وضع قائمة مماثلة لمدينة عكا (٣ من مايو ١٢٥٠) . هذه الفوائم ذات أهمية كسره

ولا يوجد منها حاليا سوى مطبوعات نافضة وملأى بالأخطاء والتناقضات وقد نشرها السيد C. Desimoni

les Archiv de l'Or, Lat II, 2, p. 215-224.

(٥) Tar-et Thom, II, 362, 390 et ss. ; Camera, Istoria, p. 204 ; Murat,

Antiq ital II, 413.

Taf. et Thom, II, 391 et ss.

(٦)

وسوف نتحدث عن هذا الموضوع فيما بعد ، بمزيد من التفاصيل .

الجنوى في الأخرى يسكنه فقط أفراد ينتمون الى هذه الأمة أو تلك ، دون غيرهم من سائر الأمم وكانت الأمم التجارية ، عندما تضع يدها على حى من الأحياء لا تقدم على طرد السكان الموجودين أصلا فى الحى . من ذلك مثلا أنه قد نص فى المعاهدة المبرمة فى عام ١١٢٣ بين سادة مملكة القدس وبين دوج البندقية على أن المستوطنين الذين ينتمون الى جنسيات مختلفة يستطيعون أن يقيموا مساكنهم فى الحى الفينيسى (١) - باعتبار ذلك أمرا طبيعيا . والواقع أنه كان فى الثلث الفينيسى بمدينة صور سوريون ويهود يستمتعون تمة بأمن وطمأنينة تامه (٢) . فضلا عن أنهم يدفعون ايجارا ، كانوا يضعون فى خدمة التجار الأجانب ما لديهم من معلومات ، وكان التجار الأجانب يجدون عندهم بنوخ خاص عمالا مهرة ، لذلك رأينا بالمدينة مصانع للحريير يديرها سوريون ، ومصانع للزجاج يستغلها يهود ، قائمة فى قلب حى البنادقة (٤) .

وفى توزيع الأملاك على طوائف التجار ، لم تكن الحداثى هى التى تعتبر وحدها ، وبوجه عام بمثابة أجزاء مكملة لهذه الأملاك ، ولكن يضاف اليها عادة امتيازات كبيرة حول المدن ، وفى الأرياف . فاذا كان ثلث المدينة هو الممنوح للطوائف ، فانه يضاف اليه ثلث الأراضى المجاورة فى دائرة نصف قطرها ميل واحد ، وكانت هذه العادة تيسر لأفراد هذه الطوائف أن يزرعوا فى أراض يملكونها حبوبهم وخضرهم وعددا كبيرا من النباتات التى يختص بها الشرق ، والتى كانوا يجهلون بها حتى ذلك الحين . وكانت الحقول تشكل مجموعات حول مبان تسمى Casaux ، وتطلق هذه التسمية على مزارع صغيرة ، وكفور ، وقرى (٥) . وفى المعاهدات الأولى نجد تنازلات فى الأرياف من هذا القبيل ، بمثابة ملاحق للتنازلات المنعقدة فى داخل المدن (٦) .

Taf. et Thom. I, 88, 92; cf. III, 152.

(١)

Ibid. II, 353 et s.

(٢)

وكان اليهود يقيمون فى مجموعة منعزلة من المساكن ، وهذا ما استنتجته روتز بحق من

عبارة "domus nostrorum Indiorum" ، انظر : Taf. et Thom II, 364.

Ibid. II, 359.

(٣)

(٤) انظر فى قائمة الايرادات التى تكتسبها الجالية التينيسية من صناعة الزجاج :

Benjamin de Tudèle (Taf. et Thom. II, 385) والفقرة التى كتبها فى امتداح

مهارة صناع الزجاج اليهود فى صور : (éd. Asher, p. 62 et s.)

Beugnot, Mém. sur le régime des terres dans les principautés (٥)

ardées en Syrie par les Francs à la suite des croisades, Bibl. de l'école des chartes. 3e série (1854), p. 252-256.

Lib. jur. I, 16; Taf et Thom. I, 88.

(٦)

وعلى هذا نمت الملكيات العقارية التي تكونت لصالح الجاليات (١) . وفي الامكان أن نتصور أهمية الاملاك التي كانت للبنادقة داخل المدن السورية ، كما ورد في أخبار مارسليو جورجيو Marsilio Giorgio (زورزي Zorzi) الذي صار في عام ١٢٤٠ بايل (*) الجمهورية في سوريا ، واحتفظ بمصبه عدة سنوات (٢) ونجد في أخباره قائمة (٣) بأسماء حوالي ثمانين ضيعة casaux حول مدينة صور ، وكان أغلبها في عام ١٢٤٣ ملكا حقيقيا للمستعمرة الفينيسية وقد انتزع عدد صغير منها في أعقاب أعمال عدوانية عنيفة يقتربها بعض الجيران أو الأتباع الجشعين ، أو بسبب إهمال معاونيه . كانت هذه الأملاك تمتد من ساحل البحر حتى الهضبة التي تتوج المرتفعات المجاورة للمدينة ، وترى فيها حقول ، وحدائق ، وبساتين فاكهة ، وكروم ، ومزارع قصب السكر ، وأشجار الزيتون والتين ، وهنا وهناك بيوت الفلاحين ، منعزلة أو متجمعة في شكل ضياع . ويبدو أن البنادقة لم يباشروا بأنفسهم استغلال هذه الأملاك ، الا أنه يمكن الاستنتاج من بعض العبارات على أنهم لم يكونوا يهملون هذا المصدر للدخل . من ذلك أنهم كانوا يقدمون للفلاحين بذورا «لتجود زراعة أراضيهم» كما قيل . وكانوا يعينون في الضياع (ال casaux) الكبيرة مديرين يقال لهم gastaldiones . وكان المزارعون الحقيقيون لهذه الأراضي فلاحين سوريين ، وتعرف عليهم من الأسماء التي تصادفها هنا وهناك . ومع ذلك فانهم لا ينتمون كلهم لطبقات الشعب الأكثر وضاعة ، ففيهم من نسب اليه صفة «الريس» ، وهذا نعت لمنصب من مناصب الحكام ، ويدل على أن أصحابه يتمتعون بين مواطنيهم ببعض الاعتبار (٤) . وجرى العرف على أن يترك لهؤلاء ثلثا أو ثلاثة أرباع المحصول ، فلم تكن الجالية تقتضي منهم سوى الثلث أو الربع (٥) . فضلا عن ذلك كان على المزارعين عادة أن يعطوا «البایل» (حاكم مستعمرة

(١) في عام ١١٦٣ تنازل راؤول Raoul أسقف بيت لحم للجالية المرسيلية عن الكثير من المنازل في عكا ، انظر Bifl. de l'Ecole de chart. XXXIV, 1873, p. 656 et s. — وفيما يختص بالجنوبيين انظر :

— Lib jur. J. 358, 401; Taf et Thom. II, 368 et s.; Arch. de l'or lat. II, 2, p. 223, 228.

وبالنسبة الى ال casaux التي يمتلكها البيزيون في ضواحي عكا ، وصور ، و Joppé انظر Doc. sulle relaz. tox, p. 26 et s., 28, 30, 34, 36, 39 (Dal Borgo, p. 97, 101. 107, 109) ; Taf et Thom. II, 377 ; Prutz Phönizien, p. 286 et s.

(*) لقب حكام المستعمرات التابعة لمدينة البندقية في القطاع الشرقي (المترجم) .

(٢) Wilken, Gesch der Kreuzz. VII, 371 et ss.; Taf, et Thom. II, 381 et ss.

(٣) Prutz, Aus Phönizien, p. 276 et ss.; Quatremaière édition de Hils des sult. mamel. de Makrizi, II, 1, p. 216 et s.

Beugnot, I. c. p. 413.

(٤)

(٥) تدو ان هذا العرف كان شائعا في البلاد الصليبية سوريا .

(البنادقة) ثلاث مرات في السنة ، في بعض مناسبات الأعياد دجاجة ، أو عشر بيضيات ، أو نصف وزن من الجبن ، الخ من كل حرث . وفي مرة من الثمرات ذكرت كلمة السخرة (angarioe) التي كان عليهم أن ينفذوها بدوابهم . وقيل أحيانا ان عددا معيناً من المحارث تشكل «كازالا» casal حرا ، ويبدو أن ذلك يعنى أن جزءاً من الأراضي الممنوحة للفلاحين معفى من الضرائب . وأخيراً ، فيما يختص بحالة الفلاحين الاجتماعية ، يبدو أنهم لم يهبطوا جميعاً إلى طبقة القنانة (رقيق الأرض) ، لأن عدداً منهم ذكروا على أنهم hom.iges ، وهذا متال ممتع لتطبيق عرف افطاعى فى الشرق .

والى جانب هذه الأموال العقارية فى المدن وفى الأرياف كانت الجاليات التجارية تتمتع بنصيب من بعض إيرادات المدينة . من ذلك أن الجنوئين كانوا يحصلون ، حسب المعاهدات ، فى صور ، وعكا ، واللاذقية ، والسويدية على ثلث إيرادات الميناء (١) . وكان للبنادقة أيضاً فى صور الحق فى ثلث الرسوم التى تحصل فى الميناء ، وبعض الإيرادات الأخرى ، فضلاً عن ذلك ، وبمقتضى معاهداتهم ، كان لهم أن يتسلموا سنوياً مبلغ ٣٠٠ دينار بيزنطى ، كانت تدفع لهم أولاً من الصندوق الملكى لرسوم الإنتاج (lunda) فى صور ، وفيما بعد من إيرادات جمارك ميناء عكا (٢) . ولدينا أيضاً فى هذا الخصوص مثل لعدم مراعاة ملوك بيت المقدس الذين كانوا دائماً فى حاجة إلى المال ، للحقوق من هذا النوع ، والتى منحت للأمم التجارية . وكان الملك فولك Foulques أول من نازع البنادقة مبلغ الثلاثمائة دينار بيزنطى هذه ، وفعل خلفاؤه الشيء نفسه . وعلى مر الأيام انتهى الأمر بانكار الحقوق كلها وعدم صرف ما سبق لهم أن صرفوه من ثلث الإيرادات العامة بصور (٣) .

والجدير بالملاحظة أن كل الامتيازات التى منحها ملوك الدول الصليبية لجماعات التجار ، سواء عن طريق المعاهدة ، أو عن طريق الهبة الخاصة لم تؤد بهؤلاء التجار إلى حالة العبودية الاقطاعية ، أو تفرض عليهم ضرائب الزامية . وكانت الجمهوريات الإيطالية قد اشتركت فى الحملات الصليبية إلى جانب قادة الجيوش بصفتها حليفات لهم ، وعلى قدم المساواة معهم ، ونالت نصيبها من الغنائم ، وامتلكت هذه الغنائم معفاة من كل التزام أسوة بالأمراء (٤) . ومع ذلك فقد نص فى المعاهدات على أن تسهم مستعمراتها فى الدفاع عن المدن التى

(١) Lib jur. I, 16, 30 et s., 249, 358, 401; Canale, Nuova istoria della repubblica di Genova, II, 293.

(٢) Taf. et Thom. I, 86, 92 141, 168; II, 367 et s. Arch. de l'Or. lat. II, 2, p. 225.

(٣) Ibid. I, 141; II, 384 et s.

(٤) Taf. et Thom. I, 85; Ibid 88; éd. Thomas p. 15.

استوطنتها . وفرض الملك بلدوين الثاني على بنادقة صور أن يقدموا للدفاع عن المدينة عددا من الرجال يتناسب مع دخل الثلث الذي يملكونه فيها . ونتيجة لهذا المبدأ نجد البنادقة مفيدون بقائمة الأفراد الخاضعين للخدمة الإلزامية وفي الحرب ، ووصلت إلينا هذه القائمة ضمن مجموعة قوانين ومراسيم مملكة بيت المقدس (١) Assises de Jérusalem ، فكان عليهم أن يجهزوا ثلاثة فرسان من بين الثمانية والعشرين فارسا الذين كان على مدينة صور (٢) أن تقدمهم (٣) . وكان على المدينة فضلا عن ذلك أن تجهز مائة « رقيب » (من الجند) ، ولم يقل أحد بأن البنادقة كانوا ملزمين بتقديم وحدة منهم ضمن هذه الجماعة (٤) . ويبدو أنه قد فرض عليهم أيضا في عكا أن يجهزوا عددا معيناً من رجالهم للدفاع عن المدينة . وأضاف سانوتو Sanuto إلى هذا الأمر خريطة لمدينة عكا ، نرى فيها ، بعيداً عن حي البنادقة ، قسماً من سور المدينة وبرجا كانا دون شك في حراسة البنادقة ، لأننا نقرأ ثمة هذه العبارة *eustodia Venetorum* (أى حراسة البنادقة) . ما بالنسبة إلى الجنوبيين ، فليس هناك ما يثبت التزامهم بالخدمة العسكرية في أوقات الحرب ، والعجيب أنه لم يرد لهم ذكر في مجموعة قوانين مملكة بيت المقدس . وليس من النادر أن يرى فرق الجاليات التجارية ضمن الحملات التي كان الملوك أو نوابهم يشنونها على المسلمين أو غيرهم (٥) . غير أن الجاليات كانت تتمتع بحرية تامة في هذا الشأن ، فلم يطلب أحد بالمرّة من الجاليات الصغيرة أن تزود الجيش بالرجال في حملات عسكرية هجومية . وفي عام ١٢٥٧ حين أنشأ سكان « انكونا » (*) منعمرة بمدينة عكا ، فإنهم التزموا فقط بأن يضعوا تحت تصرف الملك خمسين رجلاً مسلحاً في حالة قيام عدوان بالهجوم براً أو بحراً على المدينة أو مينائها أو اقليمها (٦) .

وقد طبق النظام الإقطاعي بكامل أوصافه على الدويلات التي أنشأها الصليبيون ، وكانت الجاليات التجارية بأملأها المستقلة بمثابة بقع ساذجة وسط هذا النظام ، لذلك كان البارونات ينظرون إليها باستياء . ولما كانت الأملاك التي اكتسبتها تلك الجاليات قد صارت في مركز أمين غير قابل للطعن ، فإن البارونات كانوا يجتهدون على الأقل أن يحولوا دون أن يقع في أيدي الجاليات

Le livre de Jean d'Ibelin, dans Beugnot, I, 425. (١)

Sanut, Secr. fid. cruc. p. 174. (٢)

Tof et Thom. II, 387. (٣)

Sanuto, 1. C. ; Assises, 1 426 ; Prutz, Aus Phönizien, p. 258. (٤)

Cf. p. ex. Cont. de Guill de Tyr, p. 218 D. 219 et s., 334, 433. (٥)

Paoli, Cod. dipl. I, 157-161. (٦)

(٦) مدينة إيطالية وميناء على البحر الأدرياتي - (المترجم) -

أية منطقة يقرن بملكيتها أى ارتفاع . ولهذا السبب فإن «مجموعة قوانين مملكة بيت المقدس» التى هى كما نعلم تعبير عن الأفكار الاقطاعية ، حظرت على هذه الجاليات شراء أية أملاك اقطاعية ، أو من تلك المسماة بورجوازية (١) . فضلا عن ذلك فإن المستعمرات التجارية ، بتكوينها نفسه وأسلوب ادارتها تشكل تباينا جليا مع العالم الاقطاعى . ولكى نفهم ذلك فهما صحيحا ، ينبغي لنا أن نعود قليلا الى الوراء وندرس هذه المستعمرات منذ نشأتها . فحين تحصل إحدى القوى التجارية على امتياز فى مدينة ما ، كان عليها أن تعين بعض الأشخاص لادارة المستعمرة الجديدة ، وإقامة القضاء فيها ، والدفاع عنها ضد اعتداءات جيرانها . من ذلك أن قادة الجيش الجنوى الذى استولى على جبلة لم يبرحوا المدينة الا بعد أن عهدوا بحكم الحى الذى كان لجنوا حق امتلاكه (وكان يتسغل وقتئذ ثلث المدينة) الى أحد مواطنيهم ويدعى انصالدوكورسو Ansaldo Corso وفيما بعد ، حين تم التنازل عن الثلثين الآخرين بالمدينة الى مدينة جنوا ، عين حاكما عليها رجل يدعى اوجونى امبرياكو Ugone Embriaco جمع بين يديه بعد قليل ادارة المجموعة كلها . وجرى الأمر على هذا المنوال بعد الاستيلاء على عكا ، وهنا أقيم على رأس الحى الجنوى رجل يدعى سيجبالدوس Sygbaldus وهو من كهنة كاتدرائية جنوا (٢) ، ذلك لأن كنيسة سان لورنزو ، كاتدرائية جنوا هى فى الواقع التى منحها صك الامتياز ملكية هذا الحى (٣) . وكان لسيجبالدوس لقب viccomes ، وهو لقب كان لزمين طويل لرئيس مستعمرة جنوا فى عكا (٤) . وفى البداية اتخذ البنادقة هذا اللقب لممثل الجمهورية فى منشآتهم بسوريا . حقا . لقد قال ماركو فوسكارينى Marco Foscarini ان أحد البنادقة ويدعى تيوفيلو زينو Teofilo Zeno شغل هذا المنصب فى سوريا بلقب بايل (أو بايلو) Bailo ، وكانت هذه الواقعة مسلما بصحتها حتى عام ١٨٦٠ ، تصديقا لما رواه هذا العالم الذى كان اسمه موضع ثقة كبيرة ، ولكننى أوضحت عندئذ أن فوسكارينى قد أخطأ فى مائة سنة ، فالواقع أن الوثيقة التى استند اليها لم تكن سوى صك امتياز « جى » Guy سيد « جبلة » ، وهذا الصك مؤرخ بعام ١٢١٧ (٦) ، وطوال فترة تمتد عشرات

Assises de Jérusalem, éd. Beugnot, I. 372, 399 ; II, 255.

(١)

وكذا ملاحظات الناشر فى مقدمة الطبعة الثانية .

De liber liv. or., l.c. p. 47, 48 Caffro, « حكى هذه المعلومات » كافرو .

(٢)

(٣) ومن ثم كان اسم «Ruga beati Laurentii» الذى اطلق على الحى الجنوى فى عكا ،

— lib. jur. I, 412.

انظر :

Belgrano, dans l'Archiv. stor. it Sér. 3, VIII, 2, p. 160.

(٤)

Delle letteratura Veneziana, 2e éd. p. 25.

(٥)

Taf. et Thom. II, 196.

(٦)

السنين بعد تأسيس الدويلات الصليبية ، لم تتضمن أية وثيقة اسم موظف ملحق بمستعمرات البندوية ، وأول وثيقة تصادف فيها اسما من هذا القبيل ترجع الى عام ١١٨٢ وهى خاصة بمن يدعى Jacobus Gradenicus viscomes in Achan (١) . أما بخصوص البيزيين ، فيبدو أن رؤساء مستعمراتهم كان لهم فى الأصل لقب فيكونت ، ذلك أنه فى عام ١١٥٦ منحهم بلدوين الرابع فى شكل امتياز بفيكونتية ، امتياز محكمة خاصة فى مدينة صور (٢) . وبعد ثلاث وعشرين سنة ظهر رئيس المستعمرة البيزية بعكا حاملا لقب القنصل (٣) الذى استخدمه البيزيون من ذلك الحين فى سوريا . ثم ان هذه العادة ، عادة اقامة فيكونتات على رأس مستعمرات الدول التجارية كانت من تقاليد سادة البلد الآخرين . فبعد الاستيلاء على جبلة ، كلف ريموند التولوزى فيكونتا بمهمة ادارة القسم الذى كان يتبعه فى المدينة (٤) ، فكان من الطبيعى أن يكون للجنوئين أيضا فيكونت يتولى ادارة القسم الخاص بهم . ونرى فى مجموعة قوانين مملكة القدس أن لكل مدينة فيكونتا ، سواء كانت المدينة تابعة للملك مباشرة ، أو تنتمى الى أحد أتباعه ، وكان الفيكونت هو رئيس الادارة ، ورئيس « محكمة البورجوازيين » : كان رئيس كل السكان غير النبلاء فى مقاطعته ، فى أوقات السلم والحرب ، وكانت المحكمة التى يرأسها مختصة بنظر كل القضايا المتعلقة بالبورجوازيين ، فى حين يحاكم النبلاء فى « المحكمة العليا » المشكلة من نظرائهم (٥) . وكانت الجمهوريات الايطالية تبذل جهدها لخلق وضع استثنائى لمستوطنينهم ، بحيث لا يتلقى هؤلاء أمرا ، أو يلتمسون عدالة من موظفى الدولة ، ولا شأن لهم الا بموظفى أمتهم . ثم ان الأمراء والملوك والأتباع منحوا هذا الجمهوريات فى البداية وعن طيب خاطر تلك الاعفاءات اعترافا بالخدمات العظيمة التى قدمتها لهم ، وصرحوا لها فى الجهات التى يعيش فيها مواطنوها بأعداد كبيرة أن يكون لهم فيكونتاتهم ومحاكمهم الخاصة ، حيث يحاكم المستوطنون بمعرفة محلفين من بنى أمتهم (٦) ، يجتمعون تحت رئاسة الفيكونت . وعندما تمنح أمة غربية فى مدينة سورية مجموعة من المنازل والشوارع المجاورة لها ، فان هذا الحى يشكل منطقة خاصة مستقلة ، لها حصاناتها ، ولا يمكن لأى موظف من موظفى الدولة أن يعطى فيها أية أوامر ، أو يصدر أى حكم ، ولم يكن لسكان المنطقة كلم ، دون تمييز رئيس أو قاض

Ibid, I, 176. (١)

Doc. sulle relaz. tox, n. 7. (٢)

Ibid, p. 17, Pipindo consul Aconensis (Pianorum) 1179. (٣)

Caffaro, De liber. civ. or. p. 47. (٤)

Assises de Jérus., éd. Beugnot, T. I, Introd. p. XVI, s.; T. 11, p. XX et 22, note. (٥)

Taf, et Thom. 2, 361, Lünig, Cod. dipl. Ital. I, 2459 et s. (٦)

خلاف الفيكونت المفوض من الوطن الأصلي (١) . وفيما بعد ، حين اهتم الملوك بتنظيم دويلاتهم وتطبيق النظام الاقطاعي فيها ، أصبح وجود هذه المستعمرات الخارجية عن سلطتهم عائقا لهم في الكثير من الأحيان ، لذلك فانهم ما لبثوا أن بذلوا جهودهم للحد من سلطات الفيكونتات وتوسيع سلطات موظفيهم هم . وفي عام ١١٥٥ ، رفعت جمهورية جنوا عدة شكاوى ضد ملك القدس ، وكونت طرابلس ، وأمير أنطاكية لأنهم يحاولون يوما بعد يوم تضيق اختصاص المحاكم الجنوية في سويسرا . وفي تلك الآونة (في شهر نوفمبر أو ديسمبر) تواجد البابا اديان الرابع Adrien IV مع بعض الأبحار الشرقيين في مدينة بينفنتو Bénévent (بإيطاليا) ، فرفعت اليه جنوا شكواها ، عن طريق مبعوث خاص . وهدد البابا الأمراء بالحرمان اذا هم استمروا في التعدي على الجنويين . ولسوء الحظ لم يبق من هذا النص سوى رسالة واحدة من الرسائل البابوية التي حررت في هذه المناسبة ، وكانت موجهة الى بلدوين الرابع ملك القدس ، نرى فيها أن الملك استهدف باعتدائه بنوع خاص فيكونتية جنوا بمدينة عكا ، وأن رجاله استولوا على سفينة جنوية محملة بالنقود (٢) . وفي عام ١١٥٦ عقد بلدوين الرابع معاهدة صلح مع البيزيين ، ويتبين من هذه الوثيقة أن المعاهدة سبقتها أعمال عدوانية (٣) . وكانت ييزا قد عقدت في هذه الآونة علاقات ودية مع مصر ، الا أن هذا لم يكن وحده سببا كافيا لتبرير الاعتداءات ، في حين أن تزامن هذا النزاع مع ما كان يجرى مع الجنويين ، كما رأينا منذ قليل يثبت وجود نوع من التآمر من جانب ملوك سوريا ضد الحريات التي تتمتع بها المستعمرات التجارية . ثم ان الموقف كان مماثلا لذلك في المجال الديني ، فقد علقت الجمهوريات الايطالية أهمية كبيرة على أن يشغل الوظائف الكهنوتية في مستعمراتها رجال من مواطنيها (٤) . وهنا برزت مسألة خطيرة : فهل يخضع القساوسة المبعوثون من جانب الوطن الأصلي الى إحدى المستعمرات لسلطة الأساقفة المحليين أو لسلطة أساقفة وطنهم الأصلي ؟ ومن هذه المسألة تولد بين الأساقفة والمطارنة في سوريا من جهة ، وبين الإمبراطورية من جهة أخرى سلسلة من المنازعات . وقد أدى موقف الكهنة البنادقة في صور بالنسبة الى أسقف الأبرشية الى قضية طويلة في محكمة روما ، لم تعرف نتيجتها

(١) بعد الاستيلاء على صور ، حررت معاهدة ، بمناسبة فتح البنادقة حيا في المدينة :

— Taf et Thom, I, 88, 92.

Cf. Caffar, Jan, p. 23, 24; Jaffé, Reg, pontif, p. 664 et s. (٢)

Doc sulle relaz. tox, p. 6 et s.; Langer, op. cit., p. 66. (٣)

(٤) رسائل جاك دوفترى Jacques de Vitry مطران عكا : (Mém de l'Acad de

Brux T. XXIII 1849) . ونرى في الرسالة الثانية أن هذا الأسقف يعنى على الجنويين ،

والبيزيين ، والبنادقة عصيانهم الكنيسة .

بوضوح (١) . وقد نجح أسقف عكا عن طريق اتفاق تسوية في أن يضم لسلطته كهنة كنيسة القديس مرقس بتلك المدينة ، وللوصل الى هذا الاماى تنازل لهم عن كنيسة القديس ديمتريوس St. Demetrius التي كانت في داخل « خورنية » (*) . البنادقة (٢) . وبين الوثائق التي في أيدينا أن مثل هذا النزاع كان قائما بالنسبة الى الجنوبيين والبيزيين (٣) .

وعلى ذلك كانت الأمم التجارية المستقرة في سوريا في نزاع متواصل مع الملوك وأصحاب المناصب الكبيرة ، الكنسيين منهم والعلمانيين في البلد ، من أجل الدفاع عن أموالهم وحقوقهم وحرّياتهم . غير أن متاعبهم لم تقف عند هذا الحد ، ذلك لأن المستوطنين كانوا في الكثير من الأحيان أول من ينتهكون أملاك الوطن الأصلي وحقوقه ، على الأقل ما يختص منها بالبندقية وجنوا . وبالتأكيد لم تحظر جمهورية جنوا في عام ١٢٢٥ دون مبرر على رؤساء مستعمراتها فيما وراء البحار أن يتصرفوا في الأملاك البلدية ، والا تعرضوا لأشد العقوبات (٤) . ومن جهة أخرى اسفر إهمال بعض مديري مستعمرات البندقية عن خسائر أصابت الدولة (٥) . غير أن أكبر الاختلاسات كانت تلك التي اقترفتها أسر الأشراف التي استغلت اتجاه ذاك العصر نحو النظام الاقطاعي، فاستطاعت بمهارتها أن تستولى على أملاك بلدية باعتبار أنها من قبيل الاقطاعيات . مثال ذلك : كان دوق البندقية قد منح شخصا يدعى رولاند كونتاريني ، بصفة اقطاعية منازل و « ضياع » Casaux كائنة في صور ، ولما توفي كونتاريني بلا وريث، أعلنت ادارة المستعمرة الفينيسية ضم أملاكه الى البلدية بحق الأيلولة، الا أن الأرملة رفضت التخلي عنها ، واحتكمت الى الملك ، ونجحت بهذا الاجراء في أن تحتفظ بملكية العقارات ، وحررت أخيرا وصية لصالح الملك، فضاعت هذه الاموال على البلدية (٦) . وفي جنوا ، كانت التنازلات عن الأملاك البلدية في سوريا بصفة اقطاعية أو اجارة زراعية أكثر منها في البندقية . وقد رأينا أنه بعد الاسنيلاء على جيبيل تنازل الأمراء الصليبيون لجمهورية جنوا أولا عن ثلث

(١) Dandolo, dans Murat., XII, 319; Archiv. Venet., XXII, (1881), p. 325.
et ss.; Taf. et Thom. I, 281 et ss., 425; II, 26 et s., 174, 362,
445 et s.; Innocent, III, epist. lib. IX no. 138, éd. Bréquigny, II, 951
et s. Registrum epistolarum perditurum Innoc. III dans Theiner, Monum.
hist. Slav. merid. p. 48, 67.

(*) (قرية بخدما كاهن . المترجم) .
Taf. et Thom. II, 31 et ss.

(٣) Ughelli, Ital. sacr. IV, 876-883; Doc. sull. relaz. tosc. p. 27, 37.
82 et s.; Tronci, Memor. pis. p. 169.

(٤) Lib. jur. I, 753; Belgrano : Le colonie commerciali degli Italiani
in Orient : Archiv. stor. ital. Série III, T. VIII, part. 2 p. 160.

Taf. et Thom. II, 388. (٥)

Ibid, II, 387 et s. (٦)

المدينة ، ثم عنها كلها ، وأن الجمهورية أقامت على ادارة الثلث الأول انصالدو كورسو ، وعلى ادارة الثلثين الآخرين اوجونى امبرياكو ، وبعد قليل حصل الأخير على تنازل لصالحه عن المدينة كلها باعتبارها اقطاعية ورائية ، وتعهده فى مقابل ذلك بأن يدفع للجمهورية أتاوة سنوية . ويشهد البابا أوربان الثالث بأنه أوفى بالتزامه بانتظام (١) . وورث ابنه غليوم الاقطاعية فى حوالى عام ١١٣٥ ، وحصل فى عام ١١٥٤ على تجديد الاقطاع لمدة تسعة وعشرين عاما . الا أن ديونه كانت قد تراكت (٢) . وعندما انتقلت الاقطاعية الى ابنه هوج Hugues (٣) اضطرت الجمهورية الى أن تحتكم ثلاث مرات الى البابوات اسكندر الثالث ، لوسيان الثالث ، وأوربان الثالث للحصول على الرريع الذى الذى رفض هوج باصرار أن يدفعه ، وكانت تعلم مقدما أنها لن تحصل على شيء من خلفه الذى يدعى أيضا هوج (٤) . وفى هذه الأثناء غزا صلاح الدين البلد واستولى على جبيل (٥) التى بقيت ست سنوات (١١٨٧ - ١١٩٣) فى قبضة المسلمين . وفى عام ١١٩٣ استطاع آل امبرياتشى Embriaci العودة الى المدينة بعد رشوة حاميتها المسلمة (٦) ولكن لم يكن بها أحد يطالب بحقوق الوطن الأصلي ، ونسى سادة جبلة الذين اكتسبوا مركزا رفيعا بين بارونات الدويلات الصليبية بفضل ما حصلوا عليه من ثروات كبيرة ، أو مصاهرات متألفة ، نسوا تماما ما كان عليهم من التزامات (٧) . ولابد أن الشيء نفسه قد حدث لجزء من أملاك جمهورية جنوا فى أنطاكية واللاذقية وسولينم Solinum . (ميناء سان سيمون) ، وجابولم Gabuum وعكا ، وكانت أسرة امبرياتشى Embriaci قد أنجبت العديد من الأبناء ، وحصل هؤلاء فى كل هذه المدن على حيازة أموال بلدية نظير ريع سنوى يدفعونه ، غير أن هذه الحيازة كانت محدودة بعشرين سنة ، وحين انقضت هذه المدة فى عام ١١٤٧ ،

- (١) Lib. jur. I, 336.
المعروف أن شخصا يدعى جويوم امبرياكو اشترك فى حصار بيت المقدس مع أخيه بريمو .
(٢) Ibid. I, 173; Itinerary, éd. Asher, I, 28, 60; 11, 69 et s.
- رأى الرحالة الشهير بنيامين من تبوديل Benjamin de Tudèle جويوم هذا ، وكان وقتئذ سيد جبلة ، وأسماء بنيامين جيليانس (Guglielmo) Gilianus
(٣) كان سيد جبلة فى الزمن الذى كتب فيه جويوم الصورى تاريخه ، أنظر :
liv. XI, chap. 9.
(٤) Lib. jur. I, 308 et s., 336-338.
(٥) Wilken, Gesch. d. Kreuzz, III, 2, p. 295.
(٦) Contin. de Guill. de Tyr. p. 217 et s., Jacq. de Vitry, p. 1124.
(٧) Ducange, Familles d'autremer, éd. Rey : أنظر :
p. 316 et ss. - ولسوء الحظ نسى المؤلف أن يستفيد من الايضاحات التى تنيحها
Lib. jur. بشأن تاريخ أسرة امبرياتشى ، كما أنه أهمل كل الأعمال السجلات الجنوية والبيزية والفينيسية ، وهذا الأهمال كان له ضرر كبير على قيمة أبحاثه .

عملوا على تحويل هذه الأموال التي ينتفعون بها الى ملكية خاصة ، ورفضوا التخلي عنها (١) . وليس في الامكان معرفة ما اذا كانت الجمهورية قد قضت على مطالبهم أو أنها فقدت حقوقها في هذا الصدد . وبافتراض حدوث خسارة ما ، فان مدينة جنوا هي وحدها التي نكبت هذه الخسارة ، أما السكان فلم يكونوا يابهون لذلك ، لأنه اينما كان أفراد أسرة امبرياتشى سادة ، كان المستوطنون والمترحلون الجنويون يلقون كل ترحيب ومودة .

(ب) الدول الصليبية من وجهة تجارة الشرق الأدنى

حظيت تجارة الشرق الأدنى خلال الحروب الصليبية بنهضة لم تكن نحلم بها قبل ذلك بقليل . وربما كانت هذه أول مرة يطأ فيها التجار الغربيون أرض آسيا ، وقد قنعوا في البداية باحتلال شريط ضيق من البلاد على طول الساحل ، ولكن هذا الشريط كان يجمع كل المزايا الممكنة ، فأول كل شيء لم بعد سوريا اقليما أجنبيا ، لم تعد بلدا من تلك البلاد التي كان فيها التاجر الغربي نحت رحمة أمراء من أصل وطبائع شرقية ، يتعامل فيها مع سكان نختلف لغتهم وطبائعهم ، وعاداتهم كل الاختلاف عما يراه في وطنه ، ولم يكن في وسعه أن يستقر هناك الا بحصوله على حظوة يشتريها بوسائل عسيرة للغاية ، دون أن يكون لحظة واحدة في مأمن على نفسه . أما الآن فانه أصبح بحق في وطنه ، في كنف حكومة من أمراء من جنسيات غربية ، وسط سكان يسودهم العنصر اللاتيني ، وهناك لم يعد الشرقيون المقهورون يؤدون سوى دور ثانوي ، وأصبح فضلا عن ذلك يتمتع بمزايا وامتيازات منحها اياه الأمراء بصفتهم مواطنين ورفقاء في السلاح : كان كل شيء بالنسبة اليه كسبا وامتيازا . وهو اذا أراد أن يستقر نهائيا في البلد ، فانه يختار مسكنه في حي تملكه مدينته الأصلية ، حتى فيه رجال الادارة والشرطة والرؤساء الدينيون من مواطنيه ، ويحيط به عدد كبير من بنى وطنه . فاذا كانت اقامته في سوريا إقامة عرضية وقتية ، فانه يجد فيها أيضا قاعدة متينة لعملياته التجارية ، ومسكنا جيدا له وللبضاعته ، وحماية من قبل السلطات الاستعمارية ، وعونا ونصحا من جانب المواطنين المستقرين بالبلد .

كان التجار الغربيون يجدون في سوريا منتجات الشرق كله على وجه التقريب ، فلم يكونوا مضطرين من أجل الحصول عليها للقيام برحلات طويلة الى قلب آسيا ، اذ كان هناك العديد من الطرق التجارية الكبيرة التي تأتي عبرها هذه المنتجات حتى شواطئ البلد . ولكن لكي نفهم جيدا أهمية الدول

Lib. jur. 1, 133 172-174 ; cf. Doc. sull relaz. tosc.

p. 6, 16; Monum.

hist patr., Leges municipalis, p. 248, 276 et s.

الصليبية من وجهة « الترانزيت » (عبور البضائع والأشخاص) ، وبحيط
علما بتطور الحياة التجارية بها ، ينبغي أن نبدأ بدراسة ما آلت إليه الحركة
التجارية في آسيا في أواخر القرن الحادى عشر .

فى عصر الحروب الصليبية ، كانت التجارة فى المحيط الهندى نشيطة
كما كانت فى أزهى عصور الخلفاء ، وكان العرب ، بما اتصفوا به من روح
الاقدام والمغامرة ينافسون الصينيين فى هذا المجال . ولم تزل سيلان التى
كانت وقتئذ كما كانت قبلا مركزا للتجارة البحرية فى الشرق ، وباروتشى
Barotch بخليج كامبى Cambaye (بالهند) ، وديبال Daybal المجاورة
لمصب نهر الاندوس (السند حاليا) ، لم تزل تشهد فى القرن الثانى عشر
السفن الصينية وهى تتوافد على ثغورها (١) . وفى القرن التالى ، وتحت
التأثير الوقتى للسياسة التجارية التى كانت تتبعها حكومة الصين ، لم يعد
الصينيون يتجاوزون من ناحية الغرب جزيرة سومطرة (٢) . ومع ذلك لم تنقطع
الصلات بين غربى آسيا وشرقيها : فقد تكفل العرب بتعزيز هذه الصلات .
فاذا اعتبرنا أولا الجزيرة العربية ذاتها وجدنا أن التجارة على ساحل عمان قد
أصابها الشلل بسبب أعمال القرصنة التى مارسها السلطان المرعب ، سلطان
جزيرة قيش Kéich الواقعة فى الخليج الفارسى (٣) . لذلك امتنع سكان صحار
Sohâr عن ارسال سفن تجارية الى الصين . وعلى العكس من ذلك لم تزل
Kalhat فى الجنوب الشرقى من مسقط ، فى القرن الثالث عشر ملتقى عدد
كبير من السفن القادمة من جهات مختلفة (٤) . وكانت عدن فى أوج ازدهارها ،
وعلاقاتها تزداد نموا (٥) ، وكانت نقطة اقلاع السفن المتجهة الى السند ،
والهند ، والهند الصينية ، بل وإلى الصين حيث كانت خان فو Khan-fou
هى غاية الملاحة (٦) ، وفى كل هذه البلاد كانت السفن التجارية تشحن عند
عودتها بالمسك ، والصبر وخشب الصبر ، والقلفل ، والقاقل (٧) ، والقرفة ،
وجذور الخولجان (٨) ، وجوز الطيب ، والكافور ، والقرنفل . . . الخ (٩) ،
وباختصار التوابل التى كان الغربيون يعتبرون حيازتها أعظم نتيجة لصلاتهم

Edrisi, Géogr. trad. Janbert, I, 73, 161, 175.

(١) الادريسي

Kazwini, dans Gildemeister, Script. arab loci de rebus.
indicis, p. 193.

(٢) القزويني

Edrisi, I, 152.

(٣) الادريسي

Ibn-al-Mogawir (1228), cité par Miles, Account of Kalhat, dans
l'Indian Antiquary, IV. (1875), p. 48-51.

Karabacek, Ueber einige Benennungen mittel-alterlicher Gewebe,
I, p. 15.

(٥)

(٦) الادريسي ، الجزء الاول ، ٨٤ وما بعدها ، ٩٩ .

(٧) (القاقل الهال - فوه من أفواه الطيب ، وهو المعروف بالبهان - المترجم)

(٨) (الخولجان) نبات طى من الفصيلة الزنجبيلية - المترجم)

(٩) الادريسي ، الجزء الاول ، ٥١ .

بالشرق . ومن الناحية الأخرى ، أى من ناحية الخليج الفارسي ، تقلع أيضا أساطيل من السفن التجارية قاصدة بحار الهند والصين . ولم يفقد أهالي سيراف ولعهم بالأسفار البعيدة ، ولم يكن نشاطهم مفيدا لجيرانهم فقط ، أى لأقاليم فارس ، وكانت مدينتهم من أغنى المدن (١) . وكان أحد سكان هذه المدينة يؤدي أعمالا كثيرة مع الصين ، حتى ان أحد وكلائه أحضر من « خان فو » فى رحلة واحدة بضائع قيمتها ٥٠٠.٠٠٠ دينار . وفى عام ١١٣٧ أهدى هذا التاجر العظيم لمسجد مكة ستائر نفيسة من حرير الصين مما أكسبه شهرة بين اخوانه فى الدين (٢) . ومع ذلك يبدو أنه فى أوائل القرن الثالث عشر بدأ تدهور مدينته سيراف . وحين زارها « ياقوت » لم يجد بها الا نفرا من الأهالي الفقراء ، وهجرت الأسر الثرية مساكنها الجميلة التى صارت خرائب (٣) . وانتزعت جزيرة قيش المكانة الأولى من المدينة الساحلية ، وسادها حكام نشيطون ، بسطوا سلطانهم على كل الجزر المجاورة ، وأغارت أساطيلهم على الكثير من السفن ونهبتهما ، ودمرت الكثير من الأنحاء الساحلية ، وأوقعوا الرعب فى النفوس حتى فى بلاد الهند (٤) . وقد جعل نفوذهم ، أو بالأحرى الضغوط التى يمارسونها من جزيرة قيش Keïch المرفأ الرئيسى للسفن القادمة من الهند (٥) ، ولم تكن أية سفينة قادمة من بلاد الدجلة والفرات تجرؤ على المرور على مرفأ من الجزيرة دون أن نرسو عندها (٦) . وهكذا أصبحت الجزيرة سوقا هامة ، وكان تجار الهند ، والهند الصينية يبيعون فيها كميات كبيرة من نوابلهم لتجار الجزيرة العربية ، وفارس ، وبلاد ما بين النهرين ، الذين يجلبون بدورهم منتجات هذه البلاد الصناعية والزراعية (٧) . وكان تجار الجملة من كل الأنواع يتواعدون للقاء فيها . وثمة فقرة فيما كتبه الشاعر « سعدى » تعطينا فكرة عن الأعمال التى كانت تجرى فيها : فقد قال له تاجر ثرى قابله فى قيش ، فى غضون حديث دار بينهما انه سوف يقوم برحلته الأخيرة قبل أن يعتزل العمل ، وانه كان مشغولا وقتئذ بشحن كبريت من فارس الى الصين حيث كانت اسعار هذه المادة مرتفعة كثيرا فى تلك

(١) الادريسي ، الجزء الأول ، ٣٩٧ .

(٢) Pariset, Histoire de la soie, II, 142, not. 1.

(٣) Wüstenfeld, Jakut's Reisen dans la Zeitscher der deutsch, mor-genl. Des XVIII, 420 et s. Jaqout Dictionn. de la Perse, par Barbier de Meynard, p. 332 ; Weil, Gesch d. Chalif III, 23 et s.

Edrisi, I, 59, 152, 171 : Jaqout, dans Wüstenfeld, op. cit., p. 419 et s.

(٥) ياقوت - المرجع السابق .

Marco Polo, éd Pauthier, I, 47.

(٦) ماركو بولو .

(٧) Benj : of Tudela itinerary, éd, Asher, I, 137 : Zaccaria Kazwini et Abdallah Schirazi, cités par Ouseley, Travels in various countries of the East, I, 171 et s.

الآونة ، ربعد ذلك يصدر الى اليونان خزفا صينيا ، والى الهند ديباجا من اليونان ، والى حلب فولاذا من الهند ، والى اليمن زجاجا من حلب ، وأخيرا الى فارس أقمشة مخططة من اليمن (٢) . ولم يقل سعدى ما اذا كان هذا التاجر من أهالى جزيرة قيش ، غير أن هذا لم يكن محتملا لأن أهالى هذه الجزيرة لم يكونوا من الرحالة ، وانما هم يقنعون بالعمل سماسرة للتجار الأجانب (٢) . وكان من بين السلع الرئيسية فى سوف قيش ، بخلاف منتجات الهند ، سلعة من منتجات الخليج الفارسى ، ونعنى بها اللآلى ، فقد كان هناك أكثر من ثلثمائة مغاص متناثرة على طول السواحل ، وبخاصة بالقرب من جزيرة أفال (البحرين) ، ولذلك كانت على الدوام ملتقى العديد من التجار (٣) . وكان الجزء الأكبر من هذه اللآلى يصعد الى الشمال ، عن طريق مصب نهر الدجلة (٤) ، ويتكدس فى سوق بغداد الكبيرة . وكانت بغداد فى عصور الخلفاء سوقا رئيسية من أسواق آسيا ، تصل اليها عن طريق البر منتجات فارس ووسط آسيا والصين . وكانت القوافل المنطلقة من فارس والمتجهة غربا تسلك غالبا طريق بغداد . وهذا أمر طبيعى بالنظر الى السيادة التى كان يمارسها الخلفاء على هذا البلد . ومن جهة أخرى كان العرب والفرس والتاوجك المستوطنون حول نهر الأجرس (حاليا أموداريا - جيحون - المترجم) ، على حدود دولة الخلفاء يجتازون مناطق وسط آسيا التى يقطنها شعوب مستقلة من الجنس التركى ، ويواصلون طريقهم حتى الصين ، ويعودون لمنتجاتها الى الأسواق العربية . وكان يرحلون من فرغانة (خوقند Khokand على نهر ياجزارت الأعلى ، ويعبرون ممر تريك Terek ، أو يسلكون الطريق الكبير الذى يمر بطلس Talas ويحاذى بحيرة اسيك قول Issik Koul وينتهى فى حوض نهر تريم Tarim عند كوتشا Koucha حيث يتلاقى الطريقان ، ومن هناك يواصلون سيرهم صوب الحدود الصينية مارين غالبا بواحة خامي Khami ، وكانوا يذهبون أيضا الى الخوتان Khotan لاحضار المسك والراوند . وكان سكان الخوتان والتبت يمضون من جانبهم حاملين بضائعهم الى فرغانة وأفغانستان وفارس (٥) . كانت هذه الحركة كلها فى صالح بغداد التى تصب فيها منتجات الشرق كله . وكانت المنتجات التى لا يستهلكها سكان المدينة الكثيرون تخرج من هناك وتنتشر فى العالم

(١) توجد هذه المعلومة فى القصة الثانية والعشرين من الفصل الثالث من كتاب « الجستان » للسعدى (المکتوب فى عام ١٢٥٨) . أنظر الترجمة الفرنسية ل : DeFrémery, p. 177-179. Benj. Tudel I.C. (٢)

(٣) الادريسى ، الجزء الأول ، ص ٣٧٢ وما بعدها

(٤) وهناك أيضا ، كان يتصدى لها جمارك سلطان فيش ، انظر « يا قوت » فى :

Barbiere de Meynard, p. 112; dans Wüstenfeld, p. 418 et s.

(٥) الادريسى ، الجزء الأول ، ٤٩٢ وما بعدها ، الجزء الثانى ٢١٤ وما بعدها ، بنبغى أيضا

قراءة تفسيرات رشهوفن (Richthofen, China, I, 502 et ss.) وأنظر أيضا الخريطة رقم ٩

المرقعة ، لهذا المؤلف .

كله ، اما عبر الطرق النهرية العديدة ، واما عبر طرف القوافل الممتدة حولها .
ويؤدى بنا موضوع هذا الفصل الى الاهتمام أولا بالطرق المؤدية الى سوريا .
ومن المزايا العديدة لموقع بغداد ، مزية ليست أقلها شأنا ، ذلك أنها واقعة على
نقطة يكون عندها مجرى الدجلة ومجرى الفرات أقرب ما يكونان احدهما من
الآخر ، ويتصل النهران أحدهما الآخر بقناة قصيرة ، تسمى « نهر عيسى »
Nahr-Issa ، وتشكل في بحننا هذا الشريان التجارى الرئيسى . وكانت
منتجات الهند وفارس التى تصدر عن هذا الطريق تصل الى الفرات عند عنبر
Ambar وتبعد النهر حتى الرقة Rakka وهي موقع تجارى مزدهر منذ عدة
قرون (١) . وكانت نقطة تقاطع طريقى القوافل الكبيرين المؤديين الى الفرات :
أحدهما يخرج من نهر الفرات شمالى بغداد ، عند الموصل ، وهي مقر صناعة
أنسجة هامة وتجارة سناسعة (٢) ، ويسحول الى Nisibe (نصيبين ؟) ثم يمتد
وراءها فيصب في آسيا الصغرى كمية هائلة من منتجات الشرق ، أما الطريق
الآخر فانه يبتعد عن الدجلة عند أميدا Amida (ديار بكر) ، ويصل الى الرقة
مارا بساموساطة Samosate ، وادسا Edessa ، وحران Harran (٣) .

ونصادف هنا بضعة أسماء تتردد كثيرا فى تاريخ الحروب الصليبية ،
ونحن نعلم أن الصليبيين واصلوا غزواتهم حتى نهر الفرات وما بعده الى بلاد
ما بين النهرين ، وأسسوا كونتية فى ادسا ، عاشت حوالى نصف قرن
(١٠٩٨ - ١١٤٤) . ولعله يهمنا أن نعرف ما اذا كان الغربيون الذين استقروا
فى هذه الكونتية قد استفادوا فى تجارتهم من التسهيلات التى أتاحها لهم
مجرى النهر الصالح للملاحة ، أم أنهم اتبعوا طرق القوافل للذهاب لأداء
مشترياتهم فى بغداد أو الموصل . ولا يوجد فى الأخبار التاريخية أية إشارة
فى هذا الخصوص ، غير أنى لا أتردد فى القول بأنهم لم يفعلوا شيئا من هذا
أو من ذلك : فقد اقتضت سيطرة الفرنجة على اقليم الفرات على احتلال أهم
المدن والقلاع احتلالا عسكريا ، وكانت الحاميات قليلة نسبيا ، ولم يكن لدى
الرجال المسلحين الذين يشكلون هذه الحاميات أى وقت أو ميل لممارسة
التجارة ، لذلك لا نرى من أية جهة أن الجنويين أو البيزيين قد مضوا الى ضفاف
الفرات طلبا للثروة . فالسكان من الأهالى القدامى ، وغالبيتهم العظمى من

(١) الادريسي ، الجزء الثانى ، ١٣٦ ، ١٤٤ .

éd. Pauthier, p. 45.

(٢) اقرأ ما نقله ماركو بولو بشأن الموصل :

وسوف أثبت فيما بعد أن هؤلاء التجار الكبار ، تحار الموصل كانوا يزورون أيضا مملكة

بيت المقدس .

(٣) الادريسي ، الجزء الثانى ، ١٤٨ - ١٥٣ : ياقوت ، فى

— Wuestenfeld, op. cit., p. 431-444;

السوريين والأرمن المسيحيين هم وحدهم الذين زاولوا هذا النشاط بعبء لعادتهم القديمة (١) .

لقد تتبعنا حتى الرقة الطريق التجاري الرئيسي الممتد من الشرق الى الغرب ، وابتداء من هذه المدينة يصعد الطريق مجرى نهر الفرات حتى الى القرب من بليس Baris . ثم يبتعد منحرفا أولا الى حلب (٢) ، سوق الحراير الكبير ، الأمر الذي يثبت أن هذه المدينة كان لها علاقات عديدة بوسط آسيا (٣) ، ومن هناك ينقسم الطريق الى فرعين رئيسيين ، يصلان الى البحر المتوسط عند أنطاكية من جهة . ولاوديكييا من جهة أخرى . ويحكى سانوتو Sanuto الذي كتب في بداية القرن الرابع عشر ما يلي : « في الزمان الماضي كان القسم الأكبر من السلع والتوابل (الهندية) المرسلة الى الغرب تمر ببغداد ، وتنقل منها الى بحرنا (البحر المتوسط) عن طريق أنطاكية ولاوديكييا ، وكان عندنا وقتئذ منتجات الهند بكميات كبر وثمان أقل مما هي عليه في الوقت الحاضر » (٥) .

والمؤرخ حين ينوه برخص تمن المنتجات الهندية في زمن ماض فانه يسترجع ذكريات أيام شبابه ، أو يردد حكايات شائعة لدى مواطنيه البنادقة ؛ ذلك لأنه لا يوجد في ذلك العصر مؤرخ كان له صلة بهذا الموضوع . وعلى ذلك فان عبارة « في الزمان الماضي ، لا يمكن أن تنصرف الى عصر سابق على عصر الحروب الصليبية . ونحن نعلم أن إحدى المدينتين اللتين ذكر اسمهما توا . وهي أنطاكية ، لم تكن بذاتها ثغرا على البحر ، وانما كانت متصلة بالبحر بطريق طوله عشرة أميال (٦) ، ينتهي الى ميناء سان سيمون (مدينة السويدية

Guill. de Tyr. XVI, 4.

(١)

(٢) يؤيد الادريسى ، الجزء الثاني ١٣٦ أن الطريق الكبير ، طريق « العراق » ، والفرس ،

وخراسان « يمر بحلب » .

(٣) رحله ابن بطلان Ibn-Boutlan (المتوفى عام ١٠٥٢) ، ويتضمنها المؤلف

الجغرافى الكبير لياقوت . انظر Wuestenfeld, Jakut's Reisen, op. cit., p. 450; — Kremer, Auszuege aus Ibn-osch-schinch's Gesch V. Haleb, dans les Wiener Sitz, Ber phil. hist Cl, 1850, Avril, p. 239, 243.

(٤) عند الاسنيلاء على أنطاكية ، وجد الصليبيون بها كمية كبيرة من الفلفل والبهار ، انظر :

هذا النا يثبت أن تلك المدينة كان لها (Alb. d'Aix dans Bongars, p. 247) .

صلات بالهند (عن طريق الفرات) .

Secr. fid. cruc. p. 22.

(٥)

Guill. de Tyr, XV, 13; XVI, 26 : Sanuto, op. cit., p. 244 : Eugesippus, (٦)

De distantues locorum terrae sanctae, éd. Allatius Symmict, p. 4.

الحالية (١) الواقعة على مصب نهر الأورنت (Oronte) (*) على الضفة الشمالية من النهر . أما اللاوديكي (اللاذقية) فانها تقع على شاطئ البحر ، ومينائها من أجمل موانئ سوريا ، وكانت آتخذ حصينة ، مفتوحة لكل السفن (٢) . وفي الفقرة التي ذكرناها آنفا لا يذكر سانوتو الاسكندرونة التي أصبحت في هذا العصر ميناء التصدير الرئيسي لسوق حلب ، ولكن هذا السكوت ليس بمستغرب لأن هذه المدينة لم يكن لها في زمن الكاتب أية أهمية تجارية . ومع ذلك كان هناك وقتئذ مدينة تستحق الذكر الى جانب أنطاكية واللاذقية : تلك هي جبلة (Gibel le grand Gibel, Gabulum) ، وتبعد عن حلب نفس المسافة التي تبعد بها عنها المدينتان الأخريان (٣) . وكانت تتلقى بالتأكيد في مينائها الصغير جزءا من البضائع الواردة من الفرات ؛ وكان استيطان الجنوبيين بها أكبر دليل على أن لها أهمية تجارية خاصة .

لقد تتبعنا حركة البضائع من الشرف الى الغرب حتى يصل الى شاطئ البحر المتوسط ، وسندرس الآن الطرق التي تمتد من الشمال الى الجنوب وراء الدول الصليبية . وكانت السوقان الاسلاميتان الكبيرتان ، حلب ودمشق متصلتين احدهما بالآخرى بطريق نرتاده القوافل كثيرا ، يجتاز مدينة حماه وحمص ، والاتنن نهتمان كثيرا بحركة مرور البضائع (٤) . كذلك كانت أسواق حمص نستقبل البضائع من جهة أخرى، لأن طريقا للقوافل حاذيا لحدود الصحراء كان يصلها مباشرة بالرقّة والفرات (٥) . ولما كانت حماه وحمص على بعد قليل من البحر ، كان على تجار هانين المدينتين بطبيعة الحال أن يبحثوا عن منفذ اليهما ، غير أن الجزء من الساحل الأقرب الى المدينتين كان وقتئذ في قبضة كنت طرابلس،

(١) كان هذا الاسم مستعملا عند العرب في عصر الحروب الصليبية . انظر الادريسي ، الجزء الثاني ١٣١ : (Adoulf, Géogr. II, 2, p. 12) وكان الغربيون أيضا يعرفون هذا الاسم ، وأجروا عليه مختلف النحويّات ، والأسماء الأقرب شيها من الشكل الأشوري هي الألفاظ Sedum في كتابه Raoul de Caen ص ١٥٦ و Suidin Sudin في الموائيق الفينيسية ا والحنوية انظر : (Taf, et Thom. I, 102; Lib jur. I, 30, 31, 249.) ثم يأتي اسم Soldinum, Soldyn مبنيين عن التسمية القديمة ، ثم Solinum, Sollinum (Ughelli, It sacr. IV, 847; Lib jur. I, 17, 133; Caffar. انظر : Annal, p. 14 ; De liber civ. or, p. 41, 42).

(*) نهر العاص - المترجم
(٢) Edrisi, II, 131 : Aboulf, Géogr. II, 2, p. 35 : Chemseddin Dimachky, trad Mehren, p. 285 : Ibn Batouta, I, 185 : Wilbr. V. Oldenburg, p. 171.
وقد تغيرت الأحوال منذ ذلك الحين .

(٣) يقدر يافوت في (Wuestenfeld, op. cit., p. 452) المسافة بينها وبين كل من المدينتين الأخريين بثلاثة أيام .

(٤) يافوت ، المرجع السابق ، ص ٤٥٥ : الادريسي ، الجزء الأول ٣٥٧ وما يليها .

(٥) الادريسي ، الجزء الثاني ، ١٣٧ .

وكان لابد من شحن البضائع الواردة من القسم الأعلى من نهر الأورونت (العاصي) في موانئ تابعة للفرنجة. كان الانسان يصادف أولا ، وعلى مسيرة يومين مرفأ صغيرا كثير النشاط ، ذلك هو مرفأ طرطوس Tortose الذي يذكره الادريسي ، تبعا لما ذكره الاصطخرى على أنه مرفأ حمص (١) ، وعلى بعد قليل ، طرابلس التي كانت مخازنها مكتظة بالبضائع الثمينة ، ومينائها يجذب اليه السفن من كل البلاد ، وسكانها خليطا من اللاتينيين ، واليونانيين ، والأرمن ، والمارنيين ، والنستوريين ، واليهود ، والمسلمين ، يمارسون التجارة والصناعة بنشاط (٢) . وهناك أخيرا على مسافة قليلة جبلة ، الميناء الصغير الصالح لرسو السفن ذات الحمولة الصغيرة ، وبه سوق ذكره أبو الفدا (٣) . فاذا عدنا أدراجنا الى الجزء من سوريا الذي بقي في أيدي المسلمين ، صدمنا باسم دمشق ، مركز المنطقة ، وأهم سوق في ذلك القطر . ومما يجعل أهمية كبيرة لهذا الموقع هو أنه نقطة تلاقي البضائع الواردة من فارس ، وبلاد ما بين النهرين ، وآسيا الصغرى مع البضائع القادمة من مصر ، وبلاد العرب والمتجهة الى الشمال . وقد قلنا سالفا ان دمشق كانت نقطة انطلاق أكبر القوافل ، قوافل الحجاج الذاهبة الى مكة ، قافلة « الحج السورية » ، وكانت تضم أيضا الكثير من المسلمين من البلاد ومعهم منتجات بلاد العرب ، وبضائع الهند المستوردة عن طريق عدن . وهكذا الشمالية . وكان التجار الذين يصحبون هذه القافلة وغيرها من القوافل الأقل أهمية - فقد كانت هناك قوافل من هذا النوع طوال السنة - يعودون من مكة ومعهم منتجات بلاد العرب وبضائع الهند المستوردة عن طريق عدن .

وهكذا كانت دمشق تتلقى توابل الهند من جهتين ، عن طريق الخليج الفارسي ونهر الفرات ، وعن طريق عدن ومكة ، كما ترد اليها منتجات غرب آسيا بكميات هائلة . ثم انها كانت أخيرا تقيم علاقات نشيطة مع مصر ، وبخاصة منذ أن اتحد البلدان تحت سيادة الأيوبيين . وفوق هذا التدفق للبضائع من كل البلاد ، كانت دمشق التي يسكنها قوم أذكيااء بارعون (٤) ، تنتج بنفسها مواد ذات قيمة كبيرة ، فكانت الأقمشة الحريرية على اختلاف أنواعها ، وبخاصة الديباج المطرز بخيوط ذهبية تصنع هناك باثقان شديد ، لم يوجد ما يفوقه الا في اصفهان ونيسابور ، ولم يستطع اليونانيون أن يبلغوا مستواه ، ولذلك كان هذا الحرير مطلوبا في بلاد بعيدة (٥) . وكان يصنع بها مربيات ممتازة (٦) ، كما كان

(١) الادريسي ، الجزء الأول ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ : الجزء الثاني ، ١٣٠ ، الاصطخرى ، ٣٧ .

(٢) الادريسي ، الجزء الأول ، ٣٦٥ ، Wilbr., , Burchardus, éd. Laurent, p. 28 : V. Oldenb., éd. Laur., p. 168.

(٣) الادريسي ، الجزء الأول ، ٣٥٦ :

— Wilbr. I, c. p. 167 : Aboulf. Géogr. II, 2, p. 26.

Thietnar, éd. Laurent, p. 10. (٤)

Edrisi, I, 352 et s. ; Francisque Michel, Recherches sur le commerce (٥)
des étoffes de soie I, 254, 310 et s.; II, 214 et ss.

(٦) الادريسي ، الجزء الأول ، ٣٥٣ .

لسيوف دمشق شهرة عالمية ، مثلما كان لسائر الأشياء التي تخرج من أيدي صانعي الأسلحة بهذه المدينة . ولم تكن ثمة مدينة اسلامية جنوبى دمشق وشرقى الدول الصليبية فى عصر الحروب الصليبية تمارس التجارة بنشاط ؛ وكانت المدينة الوحيدة التي امتد رخاؤها الى ما بعد نشأة الاسلام ، وهى بستر Bastra . قد اضمحلت . ومع ذلك لانسى أن نتحدث عن سوق كانت تقام فى صيف كل عام فى الهواء الطلق على السهل شرقى الأردن ، وقد حدد السيد Motzarib حديثا موقع هذا السوق (meidan) بدقة تفوق من سبقوه فى ذلك ، فقد عين موقع موزرب Mauzarib فى الجوران Haruran (١) . ولما كانت موزرب مرحلة من المراحل الرئيسية فى طريق قافلة الحج السورية(٢) فمن المفترض أن السوق كانت تقام ثمة عند وصول القافلة القادمة من مكة . وعلى أية حال ففى مستهل الصيف ، كان جمع حاشد من المسلمين يهرع من جميع الأنحاء ، حتى من بلاد ما بين النهرين ، ويتدفق على سهل موزرب ؛ ويقضى هناك تحت الخيام فترة السوق (٣) . ومن المحتمل أنه كان يرتاد هذه السوق أيضا تجار من الغرب لأن سكان الدول الصليبية حاربوا فى كل الأنحاء المجاورة ، ويعرفونها باسم سويتا Sueta أو سويت Suite (وحاليا سويت Souwet كما ذكر Wetzstein) ، وكانت جزءا من مملكة القدس فى أقصى امتداد لها (٤) . وعلى أية حال فلا بد أن حركة المبادلات التجارية التي كانت تجرى فى سوق موزرب كان لها تأثير محسوس على المدن التجارية بمملكة القدس . فالواقع أنه فى الوقت الذى كانت فيه امارة أنطاكية وكونتية طرابلس بمثابة المعبر لتجارة البلاد الاسلامية والغرب ، كانت مملكة القدس ، مع بقائها على الدوام فى حالة حرب مع المسلمين ، توثق معهم فى أكثر من ناحية علاقات سلمية . كانت قوافل المسلمين التي تجتاز اقليم يحكمه أمير مسيحي أو أحد أتباعه تتعرض بالتاكيد

(١) Westzstein : Job, de Delitzsch (Leipzig 1864) p. 522 et ss. ; Ritler, op. cit., p. 1018 et ss.

(٢) Ritter, Erdk. XIII, 420, 423 ; l'éd, anglaise, dans les publications de la Hakluyt Society, p. 16.

(٣) Eugesippus, 1. C, p. 4 : Theodoricus, Libellus de locis sanctis, éd. Tobler, p. 109 : Thietmar, éd. Laur, p. 8 : Anon. lat., dans Vogué, op. cit. p. 422; Burchard., éd. Laur. p. 37; Guill de Tyr, XVI, 9 (cf. XII 118 : XXII, 21) : Sanut. Secr. fid. cruc. p. 246.

(٤) Chartes de Terre Sainte provenant de l'abbaye de Notre Dame de Josaphat, publ par Delaborde (Bibl. des écoles française d'Athènes et de Rome, fasc. 19).

— رى Rey . مذكرات عن الاماليم التي يمتلكها الفرقة شرقى بحيرة طبرية ، والبحر الميت ، والاردن : (Mém. de la Soc. des antiq. de France, XLI)

للسلب والنهب (١) ، ولم تكن هذه حالة نادرة ، وربما لم تكن الرغبة في الاستيلاء على الغنيمة هي الباعث الوحيد لدى سادة البلاد ؛ فقد تكون عندهم اسباب سياسية تدفعهم الى عرقلة التقدم المستمر في التجارة بين سوريا ومصر ، لأن اتحاد هذين البلدين لا يمكن أن يتم الا اضرارا بمملكة القدس . على أن هذه التجارة كانت تجرى بنوع خاص بوساطة القوافل التي تضطر الى اجتياز مملكة القدس ، فتدخلها اما عن طريق غزة ، وتبعد نحو الشمال الشرقي لتخرج ثانية عند بحر الجليل (بحيرة طبرية Genezareth) ، أو أنها تصل الى هناك قادمة من البحر الأحمر ، فتدخل وادي الأردن عن طريق غور Ghôr . ومهما كان الطريق الذي تسلكه القوافل ، فانها تجد نفسها تحت رحمة ملوك القدس لأن طريق الغور تتحكم فيه قلعتا كرك Karak وشوبك Choubek (٢) . وحتى قبل عهد صلاح الدين ، كانت المملكة تمتد حنى « ايلة » Ailah (ايلات) على البحر الأحمر (٣) . وكان صاحب حصن كرك هو رينو دوشاتيون Renaud de Châtillon المغامر المشاغب الذي تركت احدى حملاته ضد قافلة للمسلمين ، وما أعقبها من سلب ونهب ؛ تركت ذكرى لا تنسى ؛ ذلك أن صلاح الدين أعلن على الصليبيين في عام ١١٨٧ حربا مشنومة انتقاما من هذه الأعمال . كانت أعمال النهب والسلب هذه ، على قول كل من اصدقاء والأعداء انتهاكا صريحا للهدنة . ومهما كان الأمر ، فإن تلك الاحداث تثبت أن قوافل المسلمين كانت في أوقات السلم تجتاز حسب عاداتها الاقليم المسيحي (٤) . وكانت معاهدات الصلح أحيانا تفرض أمن القوافل صراحة (٥) ، وكانت هذه الحركة التجارية فضلا عن ذلك جزيلة الفائدة للدول الصليبية . ذلك لأننا حين نتصفح التعريفات الجمركية لمملكة بيت المقدس في مجموعة قوانين المملكة ، نرى مثلا أن الكتان المصدر من القاهرة الى دمشق يخضع لرسم مرور (٦) . وكم من السلع الأخرى الذاهبة والعائدة على نفس الطريق كانت تأتي للخزانة الملكية بعوائد كبيرة ، ولم ينس الملك بلدوين الثالث هذا المورد في الصكوك

(١) Alb. d'Aix, X, 35; XII : Joinville, Hist de Saint-Louis, éd de Wailly (1874) p. 294.

— استول ريتشارد قلب الأسد على احدى هذه القوافل Itin Reg. Ricardi, p. 290; Contén de Guill. de Tyr, p. 185 D. 189, 196 et s. D.)

(٢) في أهمية هذه الغلاء انظر : Wilken, II, 616 111, 2, p. 141, 229, 236, note : — Oliver. Scholast., De captione Damiatæ, éd. Bong, p. 1191

Annal. musul. III, 633. (٣) أبو الفدا :

Ekkeh. (Hierosolymita, éd Hagenmeyer, p. 195 et s.) (٤)

(٥) نجد مثلا لذلك ، في عهد بودوان (بلدوين) الثاني ، في الجزء من الوقائع الذي ذكره

Assises de Jérusalem, II, 181. Beugnot في كتابه : بيجنو

(٦) بيجنو ، المرجع السابق ، II ، ١٧٥ .

التي نزل فيها عن قلاع الشوبك والكرك ، ووادي موسى بصفتها اقطاعيات .
فنص فيها على حفظ خاص بالقوافل (أى برسوم المرور التي تخضع لها)
التي تمر على مرأى من هذه القلاع وهي ذاهبة من مصر الى بغداد ، وبالعكس (١) .
وفي غير هذه الضريبة المباشرة ، كانت القوافل المارة تترك دائما بعض الأشياء
في مدن المملكة التي تجتازها . فاذا كانت مدينة طبرية ، مثلا ؛ أهم مدن وادي
الأردن ؛ فذلك لأنها واقعة على الطريق الكبير الممتد من مصر الى دمشق ؛ على
مسيرة ثلاثة أيام من هذه المدينة : فهذا الجوار جعل منها مدينة تجارية ، وكانت
البضائع التي تصدرها ترسل عن طريق ميناء حيفا الواقع عند سفح جبل
الكرمل Carmel (٢) .

ومع ذلك لم تقتصر تجارة مملكة بيت المقدس على حركة مرور من بلد
اسلامي الى بلد اسلامي آخر ، فقد أصبح البلد بعد قليل مركزا كبيرا للمبادلات
بين الشرق والغرب . حقا ، لم يكن هناك طريق من الطرق التجارية الكبيرة
الموصلة من الشرق الى البحر المتوسط يصب في إقليم المملكة : فبضائع الشرق
التي تسلك هذه الطرق تصل اما الى شمال سوريا ، أو الى شمال مصر نبعاً
لما اذا كانت قد عبرت الخليج الفارسي وصعدت نهر الفرات أو عبرت البحر
الأحمر . وكان هذا أمراً سيئاً ناتجاً عن موقع البلد نفسه : ولكن ثمة مزايا
تعوضه . فدمشق ، المستودع الكبير الذي ترد اليه منتجات الشرق كله بكميات
هائلة ، يقع خلف المملكة ، وعلى مسيرة بضعة أيام من موانئها التجارية ،
ثلاثة أيام من بيروت وصيدا ، وأربعة من صور وعكا (٣) . ومن جهة أخرى،
كان لأمم الغرب التجارية منشآت رئيسية في موانئ مملكة بيت المقدس .
وكان لهذا الاختيار ما يبرره : فهذه الأمم ، في مجال الغزو قد كرس كل
جهودها وقراها للاستيلاء على هذه الأماكن ، ومن ثم كان لابد أن تتركز هناك
الحياة التجارية (٤) .

قلنا فيما سبق كلمة عن التعريفات الجمركية ، ويرجع أول ذكر لها على
الأرجح الى القرن الثاني عشر ، ونرى فيها تشكيلة كبيرة من السلع من منتجات
معظم بلاد الشرق . فاذا كانت هذه التعريفات تطبق في مدينة عكا ، وليس في

(١) Chart de l'année 1161, dans Strehlke, Tab. ord. teuton, p. 4.

(٢) الادريسي ، الجزء الأول ٣٤٧ : ٣٤٨ : ياقوت في وسننfeld

ص ٤٦٠٠ .

(٣) ياقوت ، في وسننfeld ، ص ٤٥٩ .

(٤) لم تكن امارات انطاكية تحتل الكثير من التجار الغربيين . وثمة ظاهران شبان ذلك .
اولاهما بده الصاريح التي يمنحها أمراء انطاكية للأمم النصارى (الغربية) ، ثم ، وبوع خاص ،
الرسالة التي حررها الأمير بوهمند الثالث في عام ١١٦٩ وفيها يحث صراحة الجويين على الاكثار
من التردد على بلده ، والاسنيطان به في أعداد كبيرة : (Lib. jur. I, 249)

ذلك أى شئ ، فاننا نجد فى سوق هذه المدينة الراوند الوارد من الشرق الأقصى ، ومسك التبت ، والفلل ، والقرقة ، وجوز الطيب ، والقرنفل ، وخشب الصبر ، والكافور ، وغير ذلك من حاصلات شبه القارة الهندية وجزرها ، وعاج الهند وأفريقيا ، والبخور ، والبلح من بلاد العرب ، وغير ذلك (١) . ويذكر بيغولوتى Pegolotti وهو يتحدث عن حالة التجارة فى عكا قبل أن تخرج المدينة نهائيا من أيدي المسيحيين ، يذكر من بين السلع التى كانت تباع فيها عددا كبيرا من منتجات الشرق الأقصى ، منها التوابل (٢) . ونجد أيضا فى أحد الصكوك (٣) ، أنه كان فى سوق بيروت الفلفل ، والبخور ، والنيلة ، وخشب البقم ، واللآلىء . من الواضح إذن أن موانئ مملكة بيت المقدس كانت تتلقى كميات كبيرة من منتجات وسط آسيا .

كان أهم هذه الموانئ بلا مراء ميناء عكا ، فكان ينزل من السفن هناك أعداد كبيرة من الحجاج ، ويعود إلى السفن أغلبية هؤلاء الحجاج . وكان الميناء الفسيح الأمين يأوى عددا كبيرا من السفن (٤) المخصصة لنقل الحجاج أو البضائع ، ويجد التجار فرصا كثيرة لتصدير منتجات الشرق إلى أوروبا . وبلى عكا مدينة صور ، وهى مدينة زاهرة ، ومستودع فسيح ، تتيح للسفن الوطنية والأجنبية مأوى آمينا بنوع خاص ، بفضل مينائها المزدوج ، وحصونها المنيع (٥) . ولم تكن بيروت فى حالة تسمح لها بمنافسة هاتين المدينتين ، ومع ذلك فإنها كانت أقرب منهما إلى دمشق ، وكان مينائها ممتازا ، وقد اسهم هذان الطرفان آنئذ فى بعث الحياة والحركة داخل أسوارها (٦) . ولهذا السبب نفسه ، ولكن على نطاق أصغر ، كان لميناء حيفا الصغير بعض الأهمية إذ تمر به القوافل القادمة من طبرية . وكانت كل الموانئ التى ذكرناها تتبع القسم الشمالى من المماكة ، أما القسم الجنوبى فلم يكن به أى مرفأ له اتساع كاف لايواء السفن التجارية : ومن هذه الموانئ قيصرية (٧) ، ويافا (٨) ، وعسقلان (٩) . ومع ذلك ، ورغم

(١) Assises de Jérus. II, 173 et ss.

(٢) Practica della mercatura, dans Pagnini, Della decima e delle altre gravezze dei Fiorentini III, 48 et s.

(٣) Taf, et Tham, II, 233.

(٤) أحصى الحاج بيدوريك الذى رار هذا الميناء بين ١١٧١ و ١١٧٣ ثمانين بها .

— Theodericus, De locis sanctis, éd. Tobler, p. 91. انظر :

Theoder I. C. p. 111 : Benj de Tud. p. 62 et s. : Jacq de Vitry, l. c. (٥)

— Aboulf. Géogr, II, 2, p. 25 et s.; Phoeas, l c. p. 531, أبو الفدا : (٦)

Guill. de Tyr, X, 15 : Jacq de Vitry p. 1067. (٧)

Cf. Tobler, Topographie von Jerusalem und seinen Umgebungen, II, 585. (٨)

Aboulf. Géogr, II, 2, p. 17. أبو الفدا : (٩)

هذا العيب ، كان ميناء يافا أقرب ميناء من وسط المملكة ، ومن مقصد الحجاج ، لذلك كان يستقبل كثيرا من سفن الغرب طالما بقي اللاتينيون سادة بيت المقدس . وحتى بعد سقوط المدينة المقدسة ، ولأن دخول الميناء كان مسموحا للحجاج الغربيين ، فإن حركة المرور لم تتوقف أبدا توفقا كليا . ولم يكن للتجارة الكبيرة شأن يذكر بهذه الناحية ، ولم يكن باستطاعة بيت المقدس أن ينافس المدن الساحلية مثل صور وعكا . كان بيت المقدس متصلا بمصر وبلاد العرب بطرق تجارية ، وكان بأسواقه توابل من الشرق الأقصى ، غير أن التجارة هناك كانت قاصرة على الحركة المحلية ، لسد حاجات بلاط لم يكن غنيا بنوع خاص ، وسكان قليلين ، وجمهور متذبذب من الحجاج . ومن أجل هذه الحاجات ، كان هناك مثلا حوانيت الصيارف ، وتجار الجوخ ، والصاغة ، يديرها بعض الفرنجة من الأهالي الذين ورد الحديث عنهم في أوصاف بيت المقدس في ذلك العصر (١) . وفي هذه الظروف ، لم يكن في المستطاع أن تصير يافا ميناء بيت المقدس مركزا للمبادلات الهامة بين الشرق والغرب ، ومع ذلك كانت أسواقها في عهد سيادة الفرنجة مليئة بالسلع (٢) . وإلى الجنوب ، كانت عسقلان أيضا مركزا لحركة تجارية كبيرة (٣) ، غير أنه بسبب قربها من مصر ، وسهولة الوصول منها إلى هذا البلد ، عن طريق البحر أو البر ، باتباع طريق غزة المحاذي للساحل ، فإن ميناءها كان بالأغلب وسيطا بين سوريا ومصر ، أكثر منه بين الشرق والغرب .

استعرضنا سواحل الدول الصليبية كلها ، من السويدية إلى غزة ، وبيننا الموانئ التي كانت تأتي إليها وتخزن بها منتجات الشرق بكميات كبيرة أو صغيرة في انتظار سنوح الفرص لكي تصدر إلى أوروبا . بقي علينا أن نعرف ما إذا كان التجار الفرنجة المقيمون بهذه الموانئ يتسلمون مباشرة بضائعهم الواردة من الشرق ، أو يذهبون لشراء هذه البضائع من أسواق المسلمين . ليس لدينا في هذا الخصوص ، وبالنسبة إلى العصر الذي بلغت فيه الدول الصليبية ذروة مجدها سوى معلومات قليلة ، هي والعدم سواء . أما بالنسبة إلى العهود التالية ، فإننا نقر بأن الوسيطتين كانتا متبعتين (٤) ، فالثابت أن

(١) 3e vol. de la série géographique publiée par la Société de l'Orient latin (Itinéraires à Jérusalem, rédigés en français aux XIe, XIIe et XIIIe siècles) .. p. 34, 38, 42 et s., 146, 147, 155.

(٢) أبو الفدا : Aboulf., Géogr. II, 2, p. 17.

(٣) Benj-de Tud., éd. Asher, I, 79, 80.

(٤) استقبال العالم المسيحي بصيحات الفرح والامل لبأ انتصارات جنكيز خان :

Lettre de Jacq. de Vitry, dans d'Achéry, Spicilegium, III, 591, et dans Zaurocke, Der Priester Johannes, Suppl. II, p. 14.

البنادقة كانوا في حوالى منتصف القرن الثالث عشر يذهبون الى دمشق ، والى جهات متنوعة من اقليم المسلمين لأغراض البيع والشراء (١) ، ومن جهة أخرى نجد في عكا ، الى جانب طائفة التجار الفرنجة عددا كبيرا من المسيحيين واليهود الشرقيين (٢) الذين يعيشون من التجارة : كذلك نرى نجار الموصل الكبار (٣) الذين تشير اليهم فقرة مما كتبه ماركو بولو ، اذ يحكى هذا الرحالة المنهور أن « أهالى الموصل » هم الذين يتاجرون فى التوابل ، والحرائر ، والديباج ، ومن ثم يحق لنا أن نفترض أن هؤلاء هم الذين كانوا يستوردون هذه السلع الى عكا . وما كان يجرى فى عكا كان يجرى ايضا فى سائر المدن الساحلية بمملكة بيت المقدس : لذلك فانا نقر بأن التجار الغربيين كانوا يذهبون بأنفسهم الى أقرب الأسواق الاسلامية طلبا لمنتجات البلاد الآسيوية ، أو أنهم لا يذهبون بعيدا عن مقارهم ، ويستلمون هذه المنتجات من أيدي الترقين المقيمين بجوارهم . وكان لحلب فى شمالى سوريا ، بالنسبة الى أمم الغرب التجارية نفس الجاذبية التى كانت لدمشق فى وسط سوريا . وليس من شك فى أن البيزنين بأنطاكية كانوا فى حوالى عام ١٢٠٠ يتاجرون ببضائعهم فى داخل البلد ، وأن وجهتهم كانت حلب ، لأنهم يدفعون رسما لأمر أنطاكية عند مرورهم على جسر أرونت المحصن (على نهر العاصى - حاليا) ، وهو الآن « جسر الحديد » على طريق أنطاكية - حلب (٤) . ومنذ أوائل القرن الثالث عشر ، عقد البنادقة مع أمير حلب العديد من المعاهدات التى سوف ندرسها فى فصل خاص .

اننا الى الآن لم ننظر الى الدول الصليبية الا من حيث مرور البضائع الواردة من داخل آسيا بها : غير أن التجار الأوروبيين كانوا يجدون فى البلد نفسه حاصلات طبيعية أو صناعية تستحق التصدير . وكانت سوريا وفلسطين تتمتعان وقتئذ بخصوبة مذهشة (٥) ، وكانت المنشآت الكبيرة القائمة لرى الأراضى ، والعديد من المزارع والحقول المؤجرة بطريق المزارعة ، والقرى (٦).

Taf. et Thom. II, 397 et s.

(١)

(٢) وجد فيلبراند دولدنبرج Wilbrand d'Aldenburg (الناشر لوران ، ص ١٦٣)

سكان عكا من عناصر يونانية ، وسورية ، من يهود ويعامة .

Assises de Jérus. II, 178 : Contin : de Tyr, p. 474.

(٣)

Doc. sulle relaz. tox p. 80 ; voy. Ritter, Erdk, 2, p. 1641.

(٤)

(٥) خصوص الحاصلات الطبيعية فى هذه البلاد فى عصر الحروب الصليبية ، أنظر بخاصة :

Jacques de Vitry, p. 1099 et s. Burchardus de Monte Syon, éd. Laurent, p. 86-88.

(٦) أحصى حول عسقلان ٧٢ مزرعة كبيرة يسكنها ٢٠٠ أسرة ، وعشرون مزرعة صغيرة :

(Taf. et Thom. II, 398)

ويقول المصدر نفسه أن الثلث العنيسى بمدينة صور كان يضم قرابة ٨٠ مزرعة ، فكانت هناك فى المجموع حوالى ٢٤٠ مزرعة فى الضاحية .

التي وجدها القادمون الجدد في ضواحي المدن ، واستمروا في استغلالها ، تشهد كلها بمدى ما تلقاه الزراعة من عناية . كذلك كانت الحدائق ، وخاصة في ضواحي طرابلس (١) ، وصور (٢) غاصة بفواكه الجنوب ، من ليمون ، وبرتقال ، وتين ولوز . وعلى سفوح لبنان من جهة البحر ، وعلى الكثير من النواحي الأخرى ، تزرع الكروم ، ويصنع منها نبيذ فاخر ، أشهر أنواعه نبيذ نيفن Nefin في كونتيه طرابلس (٣) . وكانت مزارع الزيتون وحقول السمسم (٤) تعطى محاصيل وفيرة من تمار زيتية (٥) ، وفي الأراضي المقدسة رأى الغربيون قصب السكر لأول مرة (٦) . وكثيرا ما ارتوى الصليبيون بقصب السكر حين كانت جيوشهم تبحر في سوريا وفلسطين إبان الحملة الصليبية الأولى . وفيما بعد ، حين أصبح الفريجة سادة البلد ، تعلموا من السوريين زراعته واستخلاص عصيره ، وأصبح السكر من السلع التصديرية الرئيسية في سوريا (٧) ، وأصبح الكثير من المحاصيل الفاتحة للشهية ، التي تنتجها تربة سوريا زينة لموائد الغربيين . وفي القرن الثاني عشر ، قسم ثرى من كانوسا Canossa لضيوفه ، مع الفواكه المستوردة من الخارج ، فواكه فلسطين وطرابلس التي استجلبها غالبا عن طريق باري أو تراني Trani (٨) .

وإذا انتقلنا من الأغذية الى الثياب ، نرى أن الدول الصليبية تنج القطن والحرير (٩) ، وكان جزء من هاتين المادتين يصدر كمادة خام (١٠) ، وجزء منهما يصنع محليا . ففي سوريا تنسج أقمشة بارعة في فنها ، تتمتع بشهرة

(١) Burchard, éd. Laur, p. 28 : Edrisi, I, 356.

(٢) Guill. de Tyr, XIII, 3 : Taf et Thom, II, 351 et ss.

(٣) Burch. p. 88, 28 etc. : Wilbr. ab Oldenb. éd. Laur, p. 168 : Assises de Jérusalem II, 177, 179, 180.

وبخصوص زراعة الكروم والنباتات الزيتية في الدول الصليبية ، انظر :

— Prutz, Culturgesch der Kruzz, p. 553 et ss.

(٤) ذكر زيت السمسم في قوانين مملكة القدس ، الجزء الثاني ، ١٧٥ :

— Taf. et Thom, II, 385 ; etc. etc.

(٥) في عصر الخليفة المأمون كانت فلسطين تصدر سنويا لبلاط بغداد ٣٠٠٠٠٠ رطل من

cf. Ibn Khaldoun, Prolégomènes, I, 366.

الزيت :

Jacq. de Vitry, pp. 1075, 1099.

(٦)

(٧) سوف نقدم مزيدا من التفاصيل عن موضوع السكر في الفصل الخاص بالمواد التي كانت

موضوعا للتجارة .

Joh. Sarisberiensis, De nugis curialium, lib. 8, cap. 7. (٨)

Jacq. de Vitry, p. 1099; Burkhard p. 86 et s.; Wilbrand d'Oldenbourg (٩) trouve la sire au nord de Tripoli (éd. Laurent, p. 169).

Taf et Thom, II, 233; Assises de Jérusalem, II, 173; Lib. jur. 1, 71 (١٠), et s.

عريضة (١) . وعندما كان القديس لويس في فلسطين ، بعث نائبه دو جوافيل ليبنتاع في طرطوس مائة قطعة من قماش « الكاميلان » المختلف الألوان ليهدئها عند عودته الى الفرنسيين سكان (٢) : ويدل هذا الخبر الصغير على أن أصغر المدن كان لها تخصصاتها في هذا الفرع من الصناعة . ومع ذلك كانت المراكز الرئيسية لصناعة الحرير أنطاكية وطرابلس وصور . وعندما استولى الصليبيون على أنطاكية وجدوا من الغنائم بخلاف الذهب والفضة والأحجار الكريمة والأواني الفاخرة سجاجيد وأقمشة من الحرير الخالص (٣) . وفي عهد سيادة الفرنجة استمر في تلك المدينة صناعة الأقمشة البديعة (٤) . وفي طرابلس ، تشغل نسج الحرير عددا كبيرا من الصناع . وفي نسخة من « وصف الأراضي المقدسة » لبركهارد Burkhard - محفوظة الى يومنا هذا - نجد أن عدد المشتغلين بنسيج الحرير و « الشملة » (*) في هذه المدينة بلغ ٤٠٠٠ عامل وأكر (٥) . ويلاحظ أن هذا الرقم يطابق تماما الرقم الذي ذكره المقرئ ، فيقول هذا المؤرخ أنه في الزمن الذي استعاد فيه السلطان قلاوون هذه المدينة ، بعد رحلة بركهارد في سوريا ببضع سنين ، كان بها ٤٠٠٠ نول تعمل بهمة ونشاط (٦) . وكانت صور متخصصة في صناعة أقمشة بيضاء ثمينة تصدر الى جهات بعيدة ، وكانت الأقمشة الحريرية الخارجة من مصانعها تباع أيضا في الغرب (٧) ، كما كانت الأقمشة التي يصنعها النساجون السوريون في حى البنادقة مطلوبة كثيرا حتى ليقال أن السفن الفينيسية كثيرا مما كانت تنتظر الانتهاء من صنعها لتشحنها الى أوروبا . وكان معظم هذه الأقمشة يلون بألوان متنوعة ، وتزودها الطبيعة بهذه الألوان ، وكانت مواد الصباغة موجودة في البلاد نفسها ؛ فينتج وادي الأردن النيلة (٨) ، وتنتج ضواحي دمشق ووادي « الأورونت » (نهر العاصي) « القوة » (٩) . وكان البحر يلقي على شاطئ صور الأرجوان (١٠) ، تلك الصدفية المعروفة من قديم الزمان . وكانت الصباغة صناعة مزدهرة ، ازدهار

Francisque Michel, Recherches sur les étoffes de soie, I, 347 et s. (١)

Joinville, Hist de St Louis, éd de Wailly (1874) p. 328. (٢)

Guill de Tyr, V, 23. (٣)

(٤) الإدريسي ، الجزء الثاني ، ١٣١ ، « فوائين مملكة القدس » ، الجزء الثاني ، ١٧٩ .

(*) (كساء من صوف أو شعر يلقي به على الكتفين - المرجع)

Edition de Reinerus Reieccius (Magdeb, 1578) no 13; éd. Laurent, (٥)
p. 25; Neumann, dans l'Asterr, Monatschrift fuer den Orient, 1880,
p. 78.

Mekrisi, Hist. des sultans mamlouks, éd. Quatremère, (٦) المقرئ
II, 1, p. 103.

— Michel, 1, c. I, 208. (٧) الإدريسي ، الجزء الأول ، ٣٤٩ :

(٨) الإدريسي ، الجزء الأول ، ٣٣٩ .

(٩) (عشب معمر ، يستخرج من ثنوره مادة نستعمل في صنع الصوف والحرير - المرجع)

Ritter, Erdk. XVI, 1, p. 622; XVII, 2, p. 1358, 1391. (٩)

Benj. de Tudèl., éd. Asher, I, 63. (١٠)

صناعة النسيج ، وكانت مركزية في أيدي اليهود (١) . وكان بسوريا مصانع للأواني الخزفية والزجاجية الدقيقة (٢) ، واحتفظ زجاج صور دائما بشهرته القديمة الراجعة الى سفايته غير العادية . وثمة سببان لهذه الشهرة : جودة المواد الأولية (البوتاس المستخلص من الرماد) التي ينتجها البلد نفسه . تم مهارة الصناع ، وكلهم تقريبا من اليهود . وكانت التجارة تصدر هذه الزجاج الى جهات بعيدة ، وتحصل منه على أرباح كبيرة (٣) .

مما سبق كله يتبين لنا مدى ثراء سوريا بسلع التصدير . الا أنه من الثابت أن السفن التي كانت تأتي طلبا للمنتجات الشرق لم تكن تصل خالية ، ولكنها تجلب شحنات من بضائع الغرب . ذلك أن فرسان الغرب وسيداته ، الذين استقر بهم المقام في قصور سوريا ، ورجال الدين الذين نشأوا في الكنائس والأديرة وأفراد الطبقة البورجوازية في المدن الفرنجية الذين انتقلوا الى مدن الشرق الأدنى ، كانوا في حاجة الى أشياء كثيرة لا يمكن أن يزودهم بها غير الصناعات القائمة في أوطانهم الأصلية . بل ان الوطنيين أنفسهم قد عرفوا منهم أقمشة أوروبا وأدواتها المنزلية . والثابت ان احضار منتجات الغرب لعرضها في أسواق الشرق كان يتطلب جهودا لا نملك بشأنها سوى دلائل غير كافية . يضاف الى هذه الحركة التجارية حركة غير عادية للمسافرين بين أوروبا وفلسطين ، فكان هناك كل يوم أعداد كبيرة من رجال الدين والفرسان والحجاج والمغامرون ورجال الصناعة يرغبون في السفر حتى لم تكن ثمة سفينة تبحر وهي خالية من الركاب ، وكانت حركة السفر نشيطة جدا ، فكان الى جانب السفن الفردية ، أساطيل حقيقية ، تسمى « قوافل » ، وكان التجار الذين يحضرون معهم سلعاً ثمينة ، يفضلون هذه الوسيلة في السفر ، لأنها تكفل لهم أمنا كبيرا من غارات القراصنة . وكان ينتظم بعامة في موانئ الغرب رحلتان كبيرتان في الموسم الملائم : الأولى في (أعياد الفصح تقريبا) (٤) ، والثانية في عيد القديس يو حنا

(١) Ibid. I, 58, 63, 65, 69, 75, 78, 79 : Carmoly, Itinéraires de la Terre sainte, p. 129 et passim ; Cf. Ritter Erd., XVIII 1, p. 379.

(٢) — Carmoly, 1, c. p. 248, Edrisi, I, 349. في يافا وصور :

(٣) Guill, de Tyr, XVII, 3 ; Jacq de Vitry p. 1098 : Benj de Tudél, I, 63 ; Edrisi, I, 349. Benj. du Tudél, I, 58.

— كان اليهود القلائل الذين يقطون في أنطاكية يزاولون صناعة الزجاج .

Taf, et Thom, II, 391 et ss. Cf. Annal. Jan, p. 238, 239, 412, (٤) 457, 489, 508; Dandolo dans Murat., SS., XII, 371; Cont. de Guill. de Tyr, p. 447, 610.

(٥) «Passagium pascoe s. Martii» Paoli, Cod. dipl, I, 125 : Ravnold, Annal eccles, ad an. 1238, no 26 ; Roger, de Hoveden, éd. Slubs, IV, 187, «Passage de Marz» : Villeh., éd. de Wailly, p. 44; Jacq. de Vitry p. 1138 : Guill de Tyr. XVII, 8, etc.

المعمدان (١) (٢٤ يونيو) . ومع ذلك كانت رحلة الربيع
تؤجل أحيانا الى شهر مايو (٢) كما يؤجل رحلة الصيف الى شهر أغسطس
أو سبتمبر (٣) . وفي مستهل القرن الثالث عشر ، نظم البنادقة رحلته سناء (٤)
الى سوريا ، الا ان الرحلات بقيت بوجه عام قاصرة على رحلتين ، حتى عام
١٢٧٨ ، وفي هذه السنة قرر مجلس شيوخ البندقية الا يرحل كل عام سوى
أسطول واحد ، في شهر أغسطس ، قاصدا سوريا وأرمينيا ومصر وقبرص ،
وحظر على السفن المبعوثة الى جهات أخرى أن تغير وجهتها لتزور هذه البلاد (٥) ،
وكان الاقلال من الرحلات يبرره غالبا الحاجة الى عدد أكبر من السفن لخدمة
خطوط ملاحية جديدة . وكان وصول أسطول من هذه الأساطيل دليلا على تجديد
النشاط التجاري في موانئ الشرق الأدنى ، وتنتظم التجارة في سوف كبيرة
طوال فترة توقف الأسطول في الميناء . ومع ذلك كان النجار الغربيون الكثيرون
المستقرون في مواقع ثابتة من موانئ سوريا يهتمون بالا تفرغ مخازنهم من
السلع ، فتظل حوانيتهم مفتوحة ، وتستمر حركة التبادل التجاري بين منتجات
الغرب ومنتجات الشرق نشيطة طوال السنة . من الصحيح اذن أن نسلم بان
هؤلاء المستوطنين يؤدون لتجارة الشرق الأدنى من الخدمات أكثر مما يؤديه
التجار الذين تقتصر مهمتهم على الذهاب والعودة مع الأساطيل التجارية . ولم
يكن في عبور البحر المتوسط مصاعب كثيرة ، وكان في مقدور الذين يخشون
مخاطر السفر في أعالي البحار أن يعبروا مع ذلك البحر المتوسط بالسير بحذاء
سواحل أوروبا ، والانتقال بين الجزر العديدة المتناثرة في هذا البحر ، فيجدوا
بذلك موانئ مناسبة يرسون عندها . ثم انه كان من النادر في ذاك الأوان
أن يخاطر الناس بالابتعاد عن الشواطئ ، فنرى مالا لذلك أن الصليبيين
والحجاج القادمين من بحر الشمال (٦) ، بعد أن يجتازوا مضيق جبل طارق ،

(١) «Passagium oestivale, passagium S. Johannis»; v. les lettres de Grégoire IX dans Reynald, 1. c. no 2, de St Louis, dans Duchesne, V. 432, de Guillaume, patriarche de Jérusalem, dans la Biblioth. de l'école des chartes, 4e serie, T, IV, p. 124.

Duchesne, 1. c. (٢)

Duchesne, 1. c.; Guill de Tyr, XI, 20 ; Paoli, 1. c. Dal Borgo, Dipl. (٣)
Pis., p. 185 Taf et Thom, III, 36 ; Mas-Latrie, Traité de paix et de commerce, Suppl. p. 2, 3 : «Caravana Augusti», dans la «Commission pour la Crète» de l'an 1350, publié par Thomas, Alh. d. bayr. Akad. Cl. I, vol. XIV, Sect. 1, p. 195; Bibl. de l'éc des Chartes, 4e série, T, IV, p. 124.

Taf. et Thom II, 261. (٤)

Collect des doc. inéd., Mélang. hist, III (1880), p. 17. (٥)

Adam de Brém, Pertz, ss. VII, : نحد ه مات الدف، هؤلاء الحجاج في : 368 (addit), et dans les Annal. Stad, ibid, XVI, 340, et lsa Chron d'Emcn et de Menkon Pertz ss. XXI 478 et ss., 554 et ss.

- توقف كل هؤلاء الحجاج في ميناء مرسلينا .

يخشون المخاطرة بالبحار على طريق مباشر من الغرب الى الشرق ، ويفضلون اتباع طريق طويل يحاذي سواحل أسبانيا وفرنسا وإيطاليا . وفي البداية ، كان أهالي مرسيليا يسيرون أيضا بحذاء سواحل إيطاليا ، ويتوقفون عند صقلية كانديا، وربما أيضا عند رودس وقبرص، ولم يجسروا على الابتعاد عن الملاحة الآمنة التي توفرها السواحل والجزر الا فيما بعد ، فكانوا عندئذ يتركون سردينيا وصقلية وكانديا الى يسارهم ، وينطلقون في أعلى البحار على خط مباشر الى عكا ، ولم يكن هذا العبور يستغرق أكثر من خمسة عشر يوما وليلة اذا أتيح له ريح مواتية (١) . ولم يتبع هذا الطريق بوجه عام الا في أواسط القرن الثاني عشر ، وحتى بداية هذا العصر لم تكن السفن تخاطر باتباعه الا بنوع استثنائي ، وفي بحر هادئ ، ولم تكن تواصل الملاحة الا بجوار السواحل (٢) . ولما كان نقل البضائع يتم فقط على سفن شراعية تجارية ثقيلة ، وكان المطلوب عدم تعرضها لأية مخاطر ، فقد بقي الطريق التجاري المطروق أكثر من غيره ، كما كان في الماضي هو ذلك الذي يخترق مضيق مسينا . وبالنسبة الى أهالي جنوا ، وبيزا وأمالفي لم يكن هذا الطريق هو الأكثر أمانا من غيره ، ولكنه كان أيضا الأقصر . وابتداء من صقلية كانت السفن تسلك طريقا مباشرا صوب الشرق عبر البحر الأيوني حيث ننضم السفن القادمة من غربي البحر المتوسط الى القادسة من البندقية وأنكونا وموانى بوليا (أو أبوليا) . وكان أول مرسى لهذه السفن كانديا في منتصف الطريق بين صقلية وعكا ، وقبلما كانت السفن تمر أمام رودس دون أن تتوقف عندها ، وكانت قبرص آخر موقع ترسو عنده .

كانت الدول التي لها علاقة تحاربه بالشرق تهتم بمعرفة المحاط الوسطى التي في أيدي بلاد صديقة . ففي صقلية كان الأمراء النورمان قد طردوا العرب منها ، وكانت كانديا ورودس وقبرص تابعة للإمبراطورية البيزنطية ، وقد عقد كل منها معاهدات مع الدول التجارية . وفيما يختص بالملوك النورمان فانهم منحوا الجنوبيين في صقلية مجموعة من الامتيازات (٣) عرف هؤلاء كيف

(١) هدى هي المدة التي ذكرها روجر دو هوفدن :

Roger de Hoveden (éd. Stubbs, III, 51) :

أما المعلق على « آدم دو بريم » (المرجع السابق) فانه بحسب ٤ أيام من مرسيليا الى مسينا ،

و ١٤ يوما من مسينا الى عكا ، فيكون المجموع ١٨ يوما .

Gesta Regis Ricardi, éd. Stubbs II II, 198 et s. : Roger de Hoveden, (٢)

I. c. 51, 160 Annal Stad. I. c.

(٣) نعرف براءة منحها إياهم روجر الثاني في عام ١١١٧ ، ونعرف أيضا براءة تثن الآخرين

منحهما الملك جويوم الأول (Lib jur. I, 190, 202 et s.) غير أن الدراسة

الدقيقة تتيح لنا أن نعرف أنهما ورفنان مأخوذتان من وثيقة واحدة تنتمي الى سنة ١١٥٦ ، أنظر

في ذلك : — Atti della Società Ligure, I, 289 et s.

يستغلونها لصالح تجارتهم مع الشرق الأدنى . وكانت سفنهم ترسو عند مسينا ، ومنذ بداية القرن الثاني عشر ، كانوا قد أقاموا هناك قنصلية (١) ، ويمتلكون بها تحت رعاية القديس يوحنا مستودعا (٢) يحتوى فى الكثير من الأحيان على بضائع من الشرق الأدنى تجلبها سفن جنوبية عائدة من الاسكندرية أو سوريا لتباع فى صقلية (٣) . وكان للأمازيغيين أيضا مستودع فى مسينا (٤) . أما البيزيون فكانوا على ما يبدو أقل حظا ، اذ كانت علاقاتهم الواهية بأسرة هوهنشتاوفن تجعلهم بلا شك مخطئين فى نظر الملوك النورمان (٥) . لذلك يبدو أنهم استفادوا كل الفائدة ، من حيث المزايا وكسب المال من الحملة التى أعدها فردريك بارباروسا ، ونفذها ابنه هنرى السادس بنجاح بغزوة الجزيرة ، فعقدوا تحالفا مع الامبراطور ، ومع الجنويين الذين لم يكونوا مع ذلك من الجبلين (٦) ، ولكنهم حذعوا ولم ينالوا الأجر الذى وعدوهم به (٦) . وفى هذه الأثناء توفى هنرى السادس ، واستغل البيزيون فرصة خلو العرش فى أعقاب هذا الحدث واستولوا على سيراكيوز : الا أن الامبراطورين كانا قد وعدا الجنويين بالذات بمنحهم هذه المدينة ، ولم يقبل هؤلاء أن يسيطر البيزيون على مدينة وقع عليها اختيارهم (أى البيزيين) ليفرضوا سيادتهم عليها . وفى عام ١٢٠٤ ، اجتمع عدد من سفن جنوا أمام جزيرة كريت ، وكانت احداها تحت قيادة رجل يدعى الامانوس دى كوستا Alamannus de Costa . قد استولت من البيزيين على كمية كبيرة من الأسلحة فى معركة بحرية ، وشعر بحارتها بأن لهم من العدد والقوة ما يؤهلهم للقيام بهجوم مفاجئ على سيراقوسة . وفى الطريق انضم الى الأسطول جنوى آخر ، هو الكونت انريكو بسكاتورى Enrico Pescatore من مالطة ، وبعد حصار دام سبعة أيام سقطت المدينة فى أيدي هؤلاء القرصان الأشداء واستولوا عليها باسم جمهورية جنوا ، وأقاموا حاكما عليها الامانوس دى كوستا الذى منح نفسه لقب كونت سيراقوسة (٧) . واستطاع أن يحكمها سنوات طويلة . ومن هناك أرسل سفنه تشقى عباب البحر المتوسط كله للاستيلاء على سفن أعداءه .

(١) انظر براءة الملك روجر الثانى ، المذكورة بعاليه .

(٢) Annal. Jan. ad an. 1194. p. 108.

(٣) Lib jur. I, 202.

(٤) «Ravellus magister Amalphitanorum Messanae» figure comme témoin dans un document de l'année 1172, cité par Gregorio, I, c. p. 23.

(٥) Gregorio, Cosiderazioni, II, 226.

(٦) (أنصار الأباطرة من آل هوهنشتاوفن - المترجم)

(٦) Lib. jur. I, 207 et ss., 369 et ss.; Dal Borgo, Dipl. Pis p. 26, 34;

Annal. Jan. p. 108-110.

(٧) Annal Jan. p. 121 et s.; Pirri, Sicil. sacra I, 658, II, 936 et s.

جنوا (١) . وأخيرا ، في عام ١٢٢١ وضع فردريك الثاني نهاية لهذه الأمور (٢) ، كما أنهى سيادة جنوا على سيراكوسة ، وكان الباعث له على هذا التصرف ان هذه الأقاليم التي كانت تابعة للسلطة الملكية تبعية اسمية فحسب لا يتوافق وصفها مع النظام المركزي الدقيق الذي اجتهد في تطبيقه على صقلية . وهكذا فبعد سبع عشرة سنة من الحيازة فقدت جنوا واحدة من أهم المحاط لتجارتها مع الشرق الأدنى ، وحاولت استردادها بنحالفها مع الكنيسة ضد الامبراطور ، وحمل الكرسي البابوي على التنازل لها عنها بصفتها اقطاعية (٣) . وأثبتت الأحداث أن هذا كان وهما . وفي الوقت نفسه استرد الامبراطور من الجنوبيين ملكية قصر في مسينا كان قد وهبه لهم في عام ١٢٠٠ (٤) . وباستثناء هذا الخلاف الذي استمر أمدا طويلا ، كان عهد فردريك الثاني (٥) وابنه مانفرد Manfred (٦) ملائما كل الملاءمة للجنوبيين ، فقد منحهم الأميران الكثير من الامتيازات التي جعلت منهم - رغم فقدهم - سيراكوسة - الأمة الأكثر رعاية ، وأعطتهم في صقلية مركزا متفوقا .

وفي العصر الذي تنازعت فيه جنوا وبيزا من أجل امتلاك سيراكوسة وانتهى هذا النزاع لصالح الأولى ، بدأ نزاع جديد بين جنوا وبين دولة أخرى بشأن محطة أخرى من محاط التجارة مع الشرق الأدنى . وكان الموضوع يتعلق بكالديا ، وهل تتبع البندقية أو جنوا ، وبقيت المسألة مزعجة ، واضطرت البندقية الى استخدام كل طاقاتها للاستيلاء على تلك الجزيرة والاحتفاظ بها (٧) . وسوف نتاح لنا الفرصة لنعود الى دراسة تاريخ هذا النضال .

هذه الوقائع تعرض علينا الأمم التجارية ، وكل منها يحاول التفوق على الآخر بامتلاك المحاط المتراصة على طول طريق الشرق ، وسوف نقدم الآن برهاننا

Annal Jan. p. 123 et s., 127, 129, 130, 132, 138, 141. (١)

Annal. Jan. p. 146. Cf Winkelmann, Kaiser Friedrich II, p. 143, (٢)
145, 165.

(٣) انظر معاهدة الصلح التي أبرمت عام ١٢٣٩ بين البابا جريجوار (غريغوريوس) التاسع من جهة وجنوا وفينيسيا من جهة أخرى في :
— Lib. jur. I, 980 et ss.

Lib. jur. I, 462 et s. (٤)

Ibid. I, 621, 462, 564 : Annal. Jan. p. 139 Lib. jur. I, 653 et ss. 774 (٥)
et ss.

(٦) براءة عام ١٢٥٧ (البراءة وثيقة رسمية - المترجم) المصدق عليها من مانفرد في ٢٢ مارس ١٢٥٩ - بالرمز ١٨٥٧ ص ١٠٢ وما بعدها ، ومن جمهورية جنوا في ١٧ من سبتمبر ١٢٥٩ (Lib. jur. I, 1293).

ولمة براءة أخرى تحتوى على أحكام مماثلة ، صادرة في يولية ١٢٦١ :
— Lib. jur. 1346 et ss.; Orlando, I, c. p. 115 et ss.

— يقر فايرا Vavra ان مانفرد منح الجنوبيين وحدهم حق استغلال أسواق صقلية :
Vavra, dans l'introduction des Fandetta delle gabelle, 1, c. p. 31.

(٧) (كالديا Candia هو الاسم القديم للجزيرة كريت - المترجم)

على الجهود التي كانت تبذلها الأمم الأقدم والأقوى من غيرها لسد الطريق في وجه الأمم الأحدث منها ، فمنذ مستهل القرن الثاني عشر على أكثر تقدير ، نمت حركة تجارية نشيطة للغاية بين المدن التجارية الواقعة على ساحل إيطاليا الغربي وجنوب فرنسا . ولسنا نريد اثباتا لذلك سوى العديد من المعاهدات التي عقدتها جنوا بنوع خاص ، وكذا بيزا مع كثير من المدن الكبيرة والصغيرة ، والسادة ، والأشراف بجنوب فرنسا . وكان الغرض من هذه المعاهدات أن تكفل لتجار هاتين المدينتين استقبالا طيبا في جميع الأنحاء ، وضمان الأمن للأشخاص والبضائع في البر والبحر (١) . وكان الساحل الجنوبي لفرنسا في كثير من الأحيان مسرحا لحروب طويلة الأمد ناتجة عن المنافسة بين جنوا وبيزا الأمر الذي يتتبع أهمية المصالح التي كان على هاتين الجمهوريتين أن تعمل على رعايتها في هذه المناطق ، وقيمة الأموال العقارية والمنقولة التي تدافعان عنها هناك . وكان حماس التجار الإيطاليين في أن يفتحوا لأنفسهم أسواقا في فرنسا ويطبقوها بها منشآت يعود بالتأكيد على سكان القسم الجنوبي من فرنسا بمنافع هائلة ، كما يعود بالمنفعة بطريق غير مباشر على جيرانهم في الشمال . وكان هؤلاء التجار يجلبون معهم كميات كبيرة من المنتجات الكثيرة التنوع من كل البلاد . وفي الزمن الذي زار فيه بنيامين دي توديل Benjamin de Tudèle مونبيلييه (١١٦٦ - ١١٦٧) كانت هذه المدينة سوقا عالمية شديدة الأهمية يقد إليها التجار من البلاد الإسلامية والمسيحية (٢) ، وكما قال هذا السائح الذي نقتبس منه هذه المعلومة ، كانت المدينة تدين برخائها الى وجود التجار الجنوبيين والبيزيين بها (٣) . وكان هذا هو السبب في نجاح أسواق سان جيل Saint-Gille وفريجوس Fréjus ، فقد ثبت بأدلة كثيرة أن الجنوبيين والبيزيين كانوا يتجرون بهما (٤) . وكانت الأمتان تملكان مستودعات دائمة (٥) في بعض المدن الكبيرة مثل مونبيلييه وناربون (٥) ، وكانت حوانيتهما مفتوحة بها طول العام .

-
- (١) من المستحيل أن نذكر بالتفصيل كل الوثائق التي يتضمنها ال *Liber iurium* بحنوا ، وكتابي جيرمان Germain عن مونبيلييه (تاريخ بلدة مونبيلييه ، وتاريخ تجارة مونبيلييه) وغيرها .
- (٢) يعدد بنيامين دي توديل البلاد الآتية : الجارفة (بالبرتغال) ، ولبارديا ، والإمبراطورية الرومانية (ألمانيا ٩) ، ومصر ، وفلسطين ، واليونان ، وفرنسا ، وأسبانيا ، وإنجلترا .
- (٣) Ed. Asher, p. 33.
- (٤) Marang., Annal. Pis., p. 253 bis 266 ; Annal Jan., p. 66 Lib. jur. I, ٤12 et ss., 1277 ; Canale, Nuova istoria di Genova, I, 333.
- (٥) Lib jur., I, 39 ; ibid., I, 88 ; Germain Hist. de la commune de montp. II, 424, 431 434, 476 ; Lib jur., I, 1146.; Germain, Hist. du commerce de Montp. I, 113, not. 1, 234-236, 395.

غير أن مدن جنوب فرنسا هذه كان لها أيضا سفنها ، ولم تكن مجرد مدن قائمة على شاطئ البحر ، ولكن منها ما يتصل بالبحر بطرق غير مباشرة ، مثل آرل عن طريق الرون ، وناربون عن طريق الأود ، ومونبيلييه عن طريق ثغر لات Lattus وفيما بعد « ايج مورت » « Aigues-Mortes » ولم تقتصر سفن هذه المدن على الملاحة بطول السواحل المجاورة في أسبانيا وإيطاليا ، ولكنها كثيرا ما قامت برحلات الى الشرق الأدنى ، كنتيجة لازمة للحروب الصليبية . وقدمت هذه الرحلات للحجاج تسهيلات زادت من أعدادهم زيادة كبيرة . وفي حوالى عام ١٢٣٨ كانت مرسيليا ترسل مرتين كل عام فى شهر مارس (فى أعياد الفصح) ، وفى شهر أغسطس قوافل كاملة من الحجاج ، وباشرت السلطات البلدية رقابة فعالة تكفل للحجاج أماكن كافية بالسفن ومعاملة طيبة (١) . ومن ثغر مرسيليا أيضا ، وبتصريح من السلطات ، فى عهد الرحلات البحرية ، تقلع السفن التى يجهزها « فرسان الهيكل » ، وفرسان القديس يوحنا (٣) لنقل الحجاج الى فلسطين ، وسفينة يملكها كونت امورباس Empurias ، تجمع لها الركاب وكالة خاصة « تابيولا » Tabula (٤) ، ويسافر أيضا حجاج كثيرون من سان جيل (٥) ، وآخرون من آرل ، ومن ناربون كما سوف نرى . على أن نقل الحجاج لم يكن الباعث الوحيد لهذه الرحلات ، اذ كان جزء من حمولة السفن يتشكل من التجار والبضائع (٧) ، وبخاصة حين حصل المرسيليون على امتياز ببعض الأحياء التجارية فى مملكة بيت المقدس . وان رؤية الفرنسيين يرسلون بأنفسهم من جنوب فرنسا سفنا الى الشرق ، ويذهبون الى هناك لاحضار السلع التى هم فى حاجة اليها دون الاعتماد على وساطة الايطاليين ليثبت قيام منافسة لم يكن بوسع الجنويين أن يتقبلوها عن طيب خاطر . وكشفت الجمهورية عن مقاصدها فى عام ١١٠٩ حين طلبت من بترام Betram كونت تولوز أن يتعهد بعدم التصريح بدخول مدينة سان جيل التابعة له لأى تاجر قادم عن طريق البحر ان لم يكن من أهالى

(١) Mery et Guindon, Hist. de la municipalité de Marseille, II, 279 et ss., IV, 118 et ss., 128 et ss.

(٢) Winkelmann, Acta imperii inedita, p. 117.

(٣) Paoli, Cod. dipl. I, 124-127.

كانت السفن التى تجهزها الطوائف الدينية تحمل فى الرحلة الواحدة من الحجاج عددا يصل الى ١٥٠٠ حاج ، وأدت هذه المنافسة الى شكوى مجهزى سفن ميناء مرسيليا ، انظر : — Prutz, Culturgesch der Kreuzz. p. 105.

(٤) Teulet, Layettes du trésor des Chartes, I, p. 482 et ss.

(٥) Benj. de Tudél, éd Asher, II 35.

(٦) Leges municipales Arelatis 1162-1202, cap. 140, dans Giraud, Essai sur l'hist du droit français au moyen âge II, 232 et s.

(٧) كانت سفن « فرسان الهيكل » المجهزة لخدمة الحجاج مرخصا لها صراحة بحمل النجار والبضائع ، انظر فى ذلك : Winklemann, op. cit.,

جنوا(١) ، ولم يكن القصد من هذا سوى الهبوط بمدن جنوب فرنسا الى حالة من التبعية لجنوا في مجالى التجارة والملاحة ، وخلق تفوق بحرى لصالح هذه الجمهورية(٢) شبيهه بالتفوق الذى انتزعه البندقية لنفسها فى البحر الادريانى ، ولكن فى ظروف أفضل . بل جعل الجنويون يراقبون باهتمام السياسة المتزايدة يوما بعد يوم ، التى يحظى بها بورجوازيو بروفانس ولاتجدوك . وفى عام ١١٤٣ ساعدوا جوبوم الرابع ، سيد مونبيليه فى القضاء على ثورة محلية(٣) ، فكان عليه فى نظير هذه الخدمة أن يعدهم بمعافاتهم من رسوم تفريغ سفنهم فى ميناء هذه المدينة ، وتعهدهم بالأى يصرح بدخول الميناء أو الخروج منه الا للسفن التى يمتلكها سكان مونبيليه ، والتى تقصد سواحل اسبانيا ، أو تنقل الحجاج ، ولا يجوز التصريح لأهالى مونبيليه بالبحار شرقا الا بعداء السواحل ، بحيث لا يتجاوزون مدينة جنوا (ومن البديهي أن نقل الحجاج كان مستبعدا ضمنا من هذا البند) . ولم تكن هذه الاتفاقية سارية المفعول الا لخمس سنوات ، غير أن الجنويين عقدوا فى عام ١١٥٥ معاهدة جديدة أبقوا فيها على الشروط الخاصة بقصر حركة سفن مونبيليه على الملاحة بحداء الساحل غربا الى اسبانيا ، وشرقا حتى جنوا(٤) . والواقع أن كل المدن البحرية فى جنوب فرنسا لم تكن تلقى من الجنويين مثل هذه المعاملة السيئة ، فقد وتقى هؤلاء علاقات طيبة مع ناربون وسمحوا لبحارتها بالملاحة فى كل الاتجاهات بشرط الا ترسل المدينة أكثر من سفينة واحدة تحمل حجاجا فى كل عام(٥) . وكان الحظر والتصريح يقومان أيضا على أساس ادعاء الجنويين بحقوقهم المطلق فى تحديد المسافة التى يجوز لفرنسيى الجنوب أن يقطعوها فى البحر المتوسط . وكان هذا التفوق خليقا بأن يصير غير محتمل بالمرّة لو استطاع الجنويون أن ينفذوا المشروع الذى وضعوه بالاتفاق مع ريموند كونت تولوز(١١٧٤) الخاص بغزو مقاطعة بروفانس بقواتهم المشتركة . وتم الاتفاق مسبقا على اقتسام الغنيمة ، واحتفظ الجنويون لأنفسهم بملكية مدينة مرسيليا ، وحصلوا على وعد بالأى تفتح الموانئ على مدى الأقاليم التابعة

Lib. jur. 1, 19.

(١)

(٢) أنظر تفسيرات Corn. Derimoni مصطلح pelago (أعلى البحار) فى « الوثائق الجنوية »

(Atti della Soc. Lig. II, 2, p. 740-742 et 111, p. xc) وتبين منها أن جنوا كانت فى الماضى تعتبر أعلى البحار بمثابة مجالها الخاص ، ولا تسمح للأمم البحرية فى القسم الغربى من البحر المتوسط بالملاحة الا بعداء السواحل .

Germain, Hist de la commune de Montpellier, I, 12.

(٣)

Lib. jur I, 88, 182.

(٤)

Vic et Vaissette, Hist. de Languedoc, éd. Dumège, ١١٦٦ عام ، معاهدة عام ١١٦٦ ، IV, 517 et s.

— لم يكن من الجائز أن يكون هؤلاء الحجاج من أهالى مونبيليه أو سان جيل ، أو الاقليم الواقع بين الرون ونيس (بروفانس) .

تكونت تولوز الا للجنوبيين والأهم التي يصرحون لها بذلك ، وأن يحظر ، حتى على رعايا الكونت ، تسيير سفن في أعالي البحار دون اذن من القناصل ومن الأغلبية في مجلس جنوا(١) . ولو انقضى على هذا زمن قليل لأصبحت تجارة جنوب فرنسا وبحريتها التجارية في وضع قريب الشبه من وضع البنجا Albenga ، وسافونا Savone ، وفنتيملا Vintimille ومدن أخرى من الريفيرا دي بوننتي Riviera di Ponente التي فرضت عليها الجمهورية القوية زعامتها(٢) . ولحسن الحظ فشلت هذه الحملة . وثمة مؤامرة أخرى دبرت في عام ١١٧٦ بين كونت تولوز ، وسادة آخرين وجنوا لتخريب مرسيليا ومينائها ، انتهت هي الأخرى الى المصير نفسه(٣) .

ومنذ أن بذل الجنوبيون كل ما في وسعهم لمنع سفن جنوب فرنسا التجارية من الذهاب الى الشرق ، كان من الطبيعي أن يعملوا على سد الطريق الى صقلية في وجه البروفانسيين : هاتان الفكرتان مرتبطتان احدهما بالأخرى ارتباطا وثيقا ، فقد رأينا أن صقلية كانت من أهم المحاط في الطريق الى الشرق الأدنى . وفي عام ١١٥٦ أوفدت الجمهورية مبعوثا الى الملك النورماندى وليم الأول ملك صقلية يطلب منه التصديق على الحصانات التي تتمتع بها في الجزيرة ، ويطالب بغيرها ، كما طالبت بالحصول منه على تعهد برفض دخول السفن التجارية البروفانسية في موانئ مملكته ، والا يرسل هو نفسه سفنا تجارية صقلية الى جنوب فرنسا(٤) . وفيما بعد ، حين احتاج فردريك باربروسا الى مساعدة الجنوبيين لينتزع من النورمان ملكية صقلية ، منحهم تفويضا مطلقا بمنع البروفانسيين وفرنسيي الشمال من مزاولة التجارة مع صقلية وجنوب ايطاليا ، وسد طريق الذهاب والعودة أمامهم ، بكل ما لديهم من وسائل(٥) .

ولحسن الحظ بقيت هذه الأمور كلها في نطاق المشروع ، وأدرك الجنوبيون أخيرا أن كل العوائق الممكنة سوف تتحطم بمرور الزمن ، دون أن تمنع نمو البحرية البروفانسية ، ولم تعد المعاهدات التي انعقدت في غضون القرن الثالث عشر بين جنوا ومونبيليه تحمل أى أثر لمطالب جنوا المبالغ فيها ،

Lib. jur I, 294-300.

(١)

وكان الكونت ريمون قد تعهد بالتزامات مماثلة في عام ١١٧١ . المرجع نفسه ص ٢٥٦ .

Lib. jur. I, 106, 312, 316, 436, 448, 451, 475, 478, 621, 1040; 1079. (٢)

Lib. jur. I, 302.

(٣)

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٠٣ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٢٠٨ وما بعدها . نقل هنرى السادس هذا الحكم بحذافيره في براءة

صدرها لصالح الجنوبيين في عام ١١٩١ : المرجع السابق ، ص ٣٧١ .

ونجد فيها أسماء تجار من مونبيلييه يقيمون في القسطنطينية أو في سوريا دون أن تبدي جنوا أية مطالب ضد اتساع تجارة منافستها(١) .

وفي حين نجا البروفانسيون من طغيان الجنويين ، ولم يصبهم منهم أذى ، راحت أمالفي ضحية لغيرة منافس لها ، وحدث ذلك على الوجه الآتي : ففي عهد ولاية روجر الثاني ، ارتأى لبيزا أن تتدخل في شئون المملكة النورماندية في إيطاليا ، وكان الملك يعمل على تركيز السلطة في يديه مما أثار عليه بارونات فتمردوا . وبالاتفاق مع البابا انوسنت الثاني ، عرض البيزيون على هؤلاء البارونات مساندتهم وأرسلوا اليهم مددا من سفن حربية وقوات عسكرية(٢) . وفي الوقت نفسه سنحت لهم الفرصة ليرووا غليلهم من أمالفي . وذات يوم حاصر أسطول قوامه ست وأربعون سفينة حربية المدينة فجأة ، واستولى عليها وعلى مواقع حصينة في ضواحيها ، ونهب من عليه كل شيء ، وأحرقوا البيوت والسفن الثراسية في الميناء (٤ - ٥ من أغسطس ١١٣٥) (٣) . وبعد سنتين ظهر أسطول بيزي في مياه جنوب إيطاليا ، وذلك لتحويل أنظار العدو في الوقت الذي قام فيه الإمبراطور لوثير Lothaire بغزو مملكة روجر . وكادت أمالفي تلقى من جديد المصير الذي لقيته أول مرة ، ولم يتخلص السكان من الخطر الذي تهددهم الا بدفع جزية ، والتعهد بالولاء للبيزيين ، واكتفى هؤلاء بتخريب الضواحي ، وحلت الكارثة بكل ثقلها على مدينة سالرنو السيئة الحظ (يولية وأغسطس ١١٣٧) (٤) . الا أن غارة عام ١١٣٥ كانت كافية لتحطيم قدرة أمالفي التجارية بما بذله البيزيون من جهد لتحطيم اسطولهم . ومن هذا الحين نلاحظ أن الأمالفيين قل نشاطهم في الشرق عما كان عليه فيما مضى ، وصاروا أقل جراءة ، وذلك بلا شك بسبب الكارثة التي حلت بهم .

وكان هناك مع ذلك أمر آخر : ذلك أنه اذا كانت أمالفي قد تخلفت عن سائر الأمم في الشرق ، فالعلة في ذلك أنها وقعت تحت سلطة النورمان ، وأن أمراء هذه السلالة شديدا البأس ، لا يرتاحون الى الحريات البلدية التي يتمتع بها البورجوازيون ، والحصانات التي يتمتع بها البارونات . وعندما ارتقى روجر الثاني العرش ، كان من أول أعماله الاعتداء على استقلال أمالفي القديم

Germain, Hist de la commune de montpellier, II, 427, 469 (Lib. (١)
jur. I, 761, 1148).

Alexandri Telesini abb. De rebus gestis Rogerii, dans Del Re., (٢)
Cronisti e scrittori sincernj Napoletani I, p. 121 et s., 129, 132, 140 et s.,
148; Falco Benev. ibid. p. 220, 222, 225, 227 et s.; Romuald Salern.,
dans Pertz ss. XIX, 420-422; cf. Epist. Wibaldi, 324, éd. Joffé.

Alex. Teles. I.c. p. 140; Falco Benev. if. p. 227; Romuald, (٣)
I.C. p. 421; Marangonis Annal. Pis., dans Pertz, SS. XIX, 250; Annal
Saxo, ss. VI, 774.

Falco Benev. p. 232 et s. ; cf. Marangonis Annal. Pis p. 241. (٤)

العهد . ولما كانت المدينة محاطة بقصور منيعة تعتبرها بمثابة قلاع تحمي حريتها فقد طلب منها روجر أن تسحب حامياتها من هذه القصور لتحل محلها قوات عسكرية ملكية . ولما رفض الأمالفيون تنفيذ الأمر ، استخدم الملك القوة ، فاستولى على القصور (١) ، ورأى الأمالفيون معاقلمهم القديمة وقد صارت حصونا تتهددهم . وتحت هذا الضغط اضطر البورجوازيون الى التخلي عن حرياتهم البلدية ، وفقدوا معها بالتدريج نشاطهم وطبيعتهم المغامرة .

بيزنطة تحت حكم أسرة كومنينوس وأسرة انجيلوس

أعقبت الحروب ضد النورمان في الأمبراطورية اليونانية كلها فترة من الهدوء الوقتي ، لم تلبث الحملة الصليبية الأولى أن عكرت صفوه بقوة . ذلك لأن « مشروع الغربيين » هذا كان حقيقيا بأن يسبب لسادة الأمبراطورية أشد أنواع القلق : فقد كان مجرد مرور تلك العصابات التي لا حصر لها ، ولا نظام يسودها مما أصاب نظام الدولة ، وهناء سكانها بأضرار بليغة . غير أن كل هذا لم يكن سوى أقل المصائب فداحة : فقد حام على الأمبراطورية نفسها وعلى وجودها خطر دائم ، لأن مرأى هذه البقاع الخصبة وسكانها المترفين كان خليقا بأن يثير في نفوس الصليبيين الرغبة في الاستيلاء على اليونان التي كان موقعها صالحا لأن يكون نقطة ارتكاز لأملاكهم الحديثة في سوريا ، ولم يكن الأباطرة اليونانيون في حالة تسمح لهم بمقاومة القوات المشتركة التابعة للدول الغربية . ومرت الحملة الصليبية الأولى في سلام ، اذ لم يكن لقادتها سوى فكرة ثابتة واحدة ، وهدف واحد ، هو سوريا . غير أن الجيوش تنابعت ، والأساطيل تعاقبت ، وفي كل مرة تثير نوبات جديدة من الفزع في قلب الأباطرة . ومنذ البداية اتخذ الكسيوس موقفا متحفظا وحذرا لم يلبث أن تحول الى عداء مكشوف . وعندما كانت أساطيل جنوا المرسلة لمساعدة الدول الصليبية تعبر مياه الأمبراطورية ، كانت تلقى مقاومة من جانب حاميات الجزر أو أساطيل الأمبراطورية ، فلا تلبث أن تأخذ بنأرها . من ذلك أنه حدث في عام ١٠٩٩ أن أسطولا بيزيا كان مبحرا صوب الأراضى المقدسة بقيادة المطران ديبيرت Daibert ، فوجد عند الجزر الأيونية حامية يونانية حاولت اعتراض طريقه ، ولكن الأسطول شق له طريقا بين الجزر واستولى على جزر كورفو ، وكيفالونيا ، وسانت مور ، وزانتى (٢) (زكشوس باليونانية) ، وطارد أسطولا

Alex, Teles. 1, c. p. 103-105.

(١)

Murat, ss. VI, 90; Maragone, dans l'Archiv. stor ital VI, 2, p. 7, (٢)
et Prtz, ss. XIX, 239 ; Anne Comnène Alex., éd. Bonn., 11, 115. :
Alb. d'Aix, IX, 16, dans Bongars, p. 332.

يونيا في بحر ايجه وأدركه وهاجمه بين جزيرة رودس ، ومدينة باتارا Patara في ليكية Lycie (١) . وتحكى بعض الوقائع المتأخرة أن هذا الأسطول عند عودته انتقم بالاستيلاء على عدة مدن يونانية (٢) . ولما كانت هذه الوقائع تقابل بين الأحداث وبين بعض الامتيازات التي منحها الإمبراطور يوحنا (كالم يوانس) الذى لم يرتق العرش الا بعد فترة طويلة ، كما أن أقدم الوقائع لا تذكر شيئاً عن هذه المعارك ، فلنا أن نقر بأن هذه المعلومات لا قيمة لها ، وأن نهملها . وبعد انقضاء عام على رحيل هذا الأسطول البيزى قدم أسطول جنوى متيحاً بدوره الى الشرق ، وعكف أميرال يونانى على مناوشة هذا الأسطول (٣) . وفى خريف عام ١١٠١ بعد أن استولى الأسطول على أرسوف وقيصرية ، وكان عائداً الى الوطن ، وبازاء ايتاكي Ithaque (٤) التقى بأسطول يونانى كبير أراد قائده أن يختبر بسالة الجنويين ، ولكنه عانى من هذا الاختبار ، واضطر أن يطلب التفاوض للصلح . واستمرت فى القسطنطينية المفاوضات التى بدأت فى كورفو ومثل الجنويين فيها رينالدس دى رودلفو Raynaldus de Rodulfo ولامبرتس جيتوس Lambertus Ghetus اللذان انتقلا من كورفو الى بلاط الإمبراطور الكسيوس لمتابعة المفاوضات ، ولا يبعد أن يكونا قد حصلا فى هذه المناسبة على بعض المزايا التى ساعدت على نمو تجارة أمتهما فى الامبراطورية اليونانية (٥) .

غير أن بوهمند Bohémond سبب للامبراطورية ارتباكات شديدة ، ولما استقر به المقام أخيراً فى امارته بأنطاكية ، عمل على انقازها بتنظيم حملة صليبية كبيرة ، الهدف الأول منها قلب عرش القسطنطينية . ولكى يضم اليه

(١) « أنا كومنينيا » Anne Comnène هى المؤلفة الوحيدة التى ذكرت هذه الواقعة .
Annal. rer. Pisan., dans Ughelli, It sacra, 2e éd. X, 99; Chron. breve (٢)
Pis., ib. p. 118 ; Mich de Vieo, dans Murat, ss. VI, 168 ; Ranjeri Sardo,
dans l'Archiv. stor. it VI, 2, p. 79.

— عند عوده البيزيين ، سنبط لهم الفرصة لاختطاف ابن الإمبراطور وسجنه :
Tronci, Annal. Pis p. 37; Roncioni, Istorie Pisane : Archiv. stor. it. VI,
1, p. 152.

Ann Comn. II, 121 et s. (٣)

— اذا سلمنا بأن الحرب بين البونانيين والبيزيين نشبت فى عام ١٠٩٩ بدلا من ١١٠٣ .
فان مطارده الأسطول اليونانى لأسطول جنوى فى السنة التالية ، حسبما ذكرت أنا كومنينيا نفسها
تكون قد جرت فى عام ١١٠٠ . وهذا التاريخ هو بالذات تاريخ حملة صليبية قام بها الجنويون :
(Caffaro, dans Pertz, XVIII, 11, 45)

(٤) I.e Val de Compar Gesta هى ايتاكي ، انظر Bened. Petroh, Uzzano, p. 218; Richardi, éd. Stubbs II, 198, 203 ; Georg.

Germnic, dans Pez, Thes anecd II, 3e part., p. 633; Archiv. Venet.,
20, 93 ; Sanudo, Diarii, III, 444, 498 et s., V, 883, 1009.

Caffaro, De liberatione civitatum Orientis, dans Pertz, op. c. p. 46; (٥)
les Atti della Società Ligure, I, 1, p. 70.

بعض الحلفاء قام بجولة في فرنسا وإيطاليا (١١٠٥ - ١١٠٦) حيث أثار المشاعر ضد الكسيوس ، واتهمه باستخدام الدهاء تارة والعنف تارة أخرى لايقاع الصليبيين في كوارث لا آخر لها . ولكي يخمد الكسيوس العاصفة التي تجتمعت فوق رأسه بعث الى عدد كبير من أمراء الغرب ومدنه ، وبخاصة بيزا وجنوا والبندقية رسائل دافع فيها عن نفسه ضد الاتهامات الموجهة اليه ، وناشد الدول ألا تتحالف مع الأمير النورماندى (١) . وفى البندقية نجح بسهولة فى مسعاه . ولما كانت الجمهورية (البندقية) مخلصه لسياسته فانها أرسلت أسطولها لينضم الى الأسطول اليونانى ، باعتبارها حليفة لليونان . وراعت جنوا وبيزا موقفا محايدا على الأقل ، وبقيتا بمنأى عن الأحداث خلال الحملة التي شنّها الأمير النورماندى . والمعروف أن تلك الحرب انتهت بفشل بوهمند ، وبعقد معاهدة مخزية بالنسبة الى اللاتينيين (١١٠٨) . ومع ذلك تعهد الامبراطور بأن يحمى مستقبلا كل شخص يجتاز اقليمه فى طريقه الى الدول الصليبية اذا امتنع القضاء عن حمايته (٣) .

كان للأحداث التي ذكرناها آنفا فى كلمات قلائل تأثير مباشر على تأسيس الجالية التجارية البيزية فى القسطنطينية . ونحن نعلم أنه عندما كانت الحرب توشك على الاندلاع بين بوهمند والكسيوس ، عمل الأخير على اجتذاب بيزا الى صفه ، وجرى عندئذ بين القسطنطينية وبين الجمهورية تنقّلات لسفراء البلدين . وانقطعت المفاوضات مرارا . ومع ذلك يبدو أن السفير (Couropalatés) باسيليوس ميزيميريوس Basilius Mesimérius (٤) أجرى فى عام ١١١١ نيابة عن الكسيوس مفاوضات ناجحة ، أدت الى عقد اتفاق ، واذ ارتاح البيزيون الى تصريحاته فانهم تعهدوا بالامتناع مستقبلا عن أى عمل عدائى ضد الامبراطورية البيزنطية ، وأن يدفعوا تعويضا عند أول طلب من الامبراطور اذا نقض واحد منهم هذا التعهد . ويجب أيضا على كل بيزى يقيم بالقسطنطينية أو بأى ناحية أخرى باقليم الامبراطورية أن يحمل السلاح فى حالة الضرورة دفاعا عن الامبراطورية ضد أعدائها . وسجلت هذه التعهدات وسلمت الوثيقة الى ميزيميريوس فى ١٨ من أبريل ١١١١ . ومع ذلك ففى خريف السنة نفسها أبحر أسطول مشترك من سفن حربية بيزية وجنوية وسفن ايطالية أخرى

Ann Comnène, II, 132 et s.

(١)

Dandolo, p. 261.

(٣)

Fouch. de Chartres dans le Recueil des historiens des croisades, (٣) p. 418.

(٤) نجد الشخصية نفسها وقد كلفها الكسيوس بمهمة فى البلاط الرومانى ، انظر :

Jaiffé, Reg. Pontif, no. 4782.

قاصدا سواحل الامبراطورية اليونانية لتخريبها (١) ، ولا شك في أن الباعث على هذا السلوك المخالف صراحة للتعهدات السابق تسجيلها كان تأخر الكسيوس في الوفاء بوعوده . واتخذ الامبراطور اجراءاته ببراعة ، ففضى على الحملة قضاء مبرما ، ولكنه تعب أخيرا من هذه المنازعات الدائمة ، فقرر عزمه في شهر أكتوبر عام ١١١١ أن يسلم السفير البيزى المبعوث خصيصا للقاءه وثيقة رسمية ، نقدم فيما يلى تحليلا لأحكامها الأساسية :

يتعهد الكسيوس ، بعد أن يشير الى أحداث السفن السابق ذكرها بآلا يقيم في المستقبل أية عقبات في طريق الحملات الصليبية التى يشنها البيزيون ، وأن يضمن للبيزيين المقيمين فى ولاياته عدالة القضاء . واثباتا لعطفه السامى على الجمهورية ، يتعهد بأن يقدم كل سنة لكاتدرائية بيزا وكبير أساقفتها هبة تتكون من مال وحرير . ويمكن تفريغ البضائع التى تأتى بها السفن من بيزا فى اقليم الامبراطورية كله وعرضها تمة للبيع . ولا يدفع البيزيون أية رسوم على استيراد الذهب والفضة ، وبالنسبة الى المواد الأخرى يدفعون رسما قدره ٤٪ . وبالنسبة الى السلع التى يشترونها داخل الامبراطورية وينقلونها الى جهة أخرى فى اقليمها ، فانهم يخضعون للرسوم نفسها التى يخضع لها الأهالى . ويخصص لهم فى القسطنطينية رصيف بحرى ، وحى مناسب يضم بيوتا لسكنائهم وحوانيت لبضائعهم . ويتنازل لهم أيضا عن أماكن فى كل مدن الامبراطورية وجزرها حيث اعتادت سفنهم أن ترسو عندها . وتشجيعا للتجار على الإقامة فى القسطنطينية ، يخصص لهم فى كنيسة أيا صوفيا أماكن فى احتفالات القداس ، وفى مضمار الخيل أثناء إقامة العروض العامة . ويتعهد الامبراطور أخيرا بالاسراع فى اصدار الأحكام القضائية فى شأن ما يقترب ضد البيزيين من إهانات أو اغتصابات ، ويتعهد لهم بتقديم الترضية الكافية فيما يصيبهم من إهانات ، وتعويضهم عما يقع لهم من سرقات . وقبل كل هذه الأحكام وضمنها الأمير يوحنا ، وابنه وولى عهده (٢) .

ومن الطبيعى الا ينظر البنادقة بعين راضية الى خصومهم (البيزيين) وهم يوطدون أقدامهم فى أرض كانوا هم تقريبا وحدهم حتى ذلك الحين سادة

(١) آن كومينا ، الجزء الثانى ٢٦٤ وما بعدها ، و ٢٧٠ وما بعدها : تقول ان النساء يقترب، شتاء ١١١١ الى ١١١٢ لأن الملك بودوان تلقى نأ فشلت تلك الحملة حين كان مشغولا بحصار مدينة صور فى ذلك الشتاء نفسه ، انظر : Wilken, Gesch, der Kreuzz, II, 227 et ss.

(٢) هذا الميثاق الذى يحتوى فى الوقت نفسه على عرض للمفاوضات التهديدية ، قد أدرج فى ميثاق لاحق لاسحق انجيلوس ، نجده باللغة اليونانية فى :

— Miklosich et Muller, Acta et dipl. graeca, III, 9-13.

وبالانينية فى : Dal Borgo, Dipl. Pis., p. 151-154;

وباللغتين فى : Les Docum. sulle relazioni toscane coll' Oriente, p. 43, 52-54, 45.

فيها . واذا أردنا أن نكون فكرة عن الجهود التي بذلوها لاقضاء الأجانب من سوق اليونان ، فانا نذكر مثلا متميزا : ذلك أن أسطولا يحمل صليبيين من البنادقة استقر به المقام في رودس في شتاء ١٠٩٩/١١٠٠ ، وفي هذه الأثناء قدم أسطول بيزي كان متجها أيضا الى فلسطين فأغار على أسطول البنادقة ، ولكنه انهزم . وأسر البنادقة عددا من البيزيين ، ولكنهم لم يحتفظوا بهم مدة طويلة . وحين أطلقوا سراحهم ، أخذوا منهم عهدا بألا يطيأوا أرض رومانيا Romanie لأغراض تجارية (١) . وهنا حصل البيزيون على امتياز بحيازة حتى تجاري ، وتأهبوا لزيادة نشاطهم التجاري الذي كانوا يزاولونه مع بيزنطة حتى ذلك الحين ! والواقع أن علاقات البنادقة مع العالم اليوناني كانت قديمة العهد . وكانوا يتمتعون بالمعافاة من رسوم الجمارك استثناء من سائر الأمم (٢) ، وهذا امتياز كبير ، حتى انهم لم يكونوا يخشون شيئا من جانب منافسيهم الجدد . واذا كانوا قد تغلبوا من هذه الناحية على منافسيهم ، فانهم كانوا يدركون تفوقهم على اليونانيين الذين لم يكونوا قادرين على مباراة الغربيين في القدرة والنشاط ، سواء في فنون الحرب أو في فنون السلم ، وأسهمت الثروات التي جمعوها بالتجارة في تنمية شعورهم بقيمتهم ، ولعل المؤرخ البيزنطي كينامس Cinnamus كان على حق حين اتهم كلا من الطبقة الدنيا وذوى المكانة الرفيعة منهم بالخطرسة حيال اليونانيين ، وبخاصة أولئك الذين يحملون ألقابا رنانة من قبيل سباستوس Sébastos (٣) .

وبعد وفاة ألكسيوس (١١١٨) أرسل الدوق دومنيكو ميشيل سفراء الى خليفته يوحنا الثاني (كالدو يوانيس) طالبا منه تأكيد الامتيازات التي سبق أن منحها أبوه ، فرفض الامبراطور الجديد (٤) . ويذكر كينامس أن الباعث على هذا الرفض كبرياء البنادقة المفرط ، ولعل من الجائز أن نفترض أن ايجاعات بعض الأمم الغربية التي أقيمت في أذن الامبراطور في لحظة مناسبة كان لها بعض التأثير في هذا الرفض . وكان البنادقة يعتقدون ، بسبب الخدمات الكثيرة التي أدوها للأباطرة البيزنطيين في العديد من الحروب ، أنهم اكتسبوا حقا في أن يعترف الأباطرة لهم دواما بالجميل : ولكنهم مع ذلك لقوا جزاءهم ! وبلغ سخطهم أقصاه ، وزودتهم الحملة الصليبية التي شنوها في عام ١١٢٢ بفرصة للانتقام . وفي البداية ضربوا الحصار أمام عاصمة جزيرة كورفو ، الا أن النداءات الملحة التي وصلتهم من فلسطين اضطرتهم الى رفع الحصار (في ربيع

Hist. transl., S. Nicola, dans cornelius, Ecol. Venet. IX, 8, 9. (١)

Cinnam., éd. Bonn, p. 281. (٢)

Cinnam 1, c. (٣)

Hist. duc. Venet., dans Pertz, ss. XIV, 73; Dandolo, p. 269; Cinnamus, op. cit., (٤)

عام ١١٢٣) ، ولكن عند عودتهم اتسع لهم الوقت ليعودوا الى ما كانوا قد بدأوه . وفي رودس امتنع الأهالي عن تزويدهم بالمؤن التي كانوا في حاجة اليها ، وعاملوهم كالأعداء . غير أن الغارة على المدينة ، والاستيلاء عليها ونهبها ، كل ذلك لم يستغرق بضعة أيام . ومن هناك أغاروا على جزيرة خيوس Chio ، واستولوا على العاصمة ، وعسكروا بها طوال شتاء ١١٢٤ - ١١٢٥ ، وانتشروا حول خيوس ، وراحوا ينهبون ويخربون جزر ساموس ، ولسبوس ، واندروس ، وحين استطاعوا في الربيع أن يعودوا الى وطنهم ، نهبوا مدينة مودون Modon على الساحل الجنوبي لشبه جزيرة المورة (١) . وكان الإمبراطور يوحنا ضعيفا فلم يكن يوسع أن يتصدى لمشروعاتهم ، وانتهزوا هذه الفرصة لمعاودة حملاتهم . وفي عام ١١٢٦ كانوا قد استولوا على جزيرة كيغالونيا Cephalonia وارتأى للإمبراطور أنه من الحكمة أن يتنازل لهم عنها ، وأنبأ الدوق سرا أنه اذا أراد أن يرسل اليه سفراء لتسوية الخلاف فانهم يكونون على الرحب والسعة (٢) . وكان الدوق طاعنا في السن ، ويسعده أن يستتب الأمن ، فلم يتمنع كثيرا . وفي شهر أغسطس عام ١١٢٦ عقدوا اتفاقية ، وأصبح البنادقة حلفاء لبيزنطة ، ووعد الإمبراطور من جهة أن يتناسى أعمالهم العدوانية الأخيرة نظير خدماتهم السابقة ، وأن يعيد اليهم دون قيد الانتفاع بالحقوق والایرادات التي كان الكسيس قد منحها اياهم (٣) . ولم يكن البنادقة قد ظهوروا في أسواق الإمبراطورية منذ ثلاث سنوات (٤) . واستطاعوا أخيرا أن يعودوا من جديد الى ممارسة عاداتهم القديمة ، ومزاولة تجارتهم المربحة . ومن تلك الآونة نشطت الأعمال من جديد بين بيزنطة والغرب اللاتيني (٥) : ثم ان الظروف كانت مواتية بشكل غريب . ذلك أن الإمبراطور يوحنا حافظ على صلات ودية للغاية مع أوروبا طوال فترة حكمه ، في حين لم يكف عن النضال من ناحية سوريا وآسيا الصغرى . ويصور نيكيتاس Nicéas (٦) التجار الإيطاليين في هذا العهد وهم يدخلون بسفنهم الشراعية

(١) Hist. duc Venet, I, c. p. 73 et s.; Dandolo, p. 270 et s.; Fouch;

d. Chartr, I, c. p. 470 Cinnam, p. 281.

(٢) Hist duc Venet, I, c. p. 74; Dandolo, p. 274.

(٣) هذه الوثيقة مدرجة في وثيقة لمانويل ، ونجدها على حدة في :

— Taf. et Thom, I, 96-98.

(٤) Hist duc Venet, I, c. p. 74.

(٤)

تري هل هاجر البنادقة الذين أقاموا بالقسطنطينية منذ سنين طويلة ؟ هدى نقطة لم نوصح

بعد .

(٥) في حوالى عام ١١٢٩ شب حريق في الحى الفينيسى بالقسطنطينية وأُتلف مجموعة قيمة

ومع ذلك لا يبدو أن هذا الحدث كان كارثة بالنسبة الى الحالية (الفينيسية) بوجه عام ، والا تحدث عنها المؤرخون .

Moise de Bergame (Cod. dipl. Bergam., éd. Ronchetti, II, p. 951)

Nicéas, p. 25.

(٦)

تغر ملكة المدائن (القسطنطينية) ، والأمبراطور وهو يحاول أن يتأكد من حسن نواياهم ، وفي سريرته مقاصد طموحة . ويسود العلاقات بين مدينة بيزا وبين الأمبراطور يوحنا غموض تام حتى عام ١١٣٦ . ولم يذكر أى مؤرخ — من الاغريق أو من البيزيين — حدوث أى انقطاع فى العلاقات ، أو يقول ان الامبراطور ثارت ثائرتة من غارة البنادقة ، فأنزل جام غضبه على البيزيين الأبرياء من هذه الآثام . ومع ذلك يؤيد السيد لانجير M. Lagner (١) هذه الواقعة ، ففي رأيه أنه ليس هناك الا تفسير واحد للكمية الهائلة من الحرير التى أحضرها السفراء الاغريق الذين قدموا الى بيزا عام ١١٣٦ من طرف الأمبراطور : ذلك أن الأمبراطور يوحنا كان غاضبا على البيزيين سنين طويلة ، ومن ثم منع عنهم المنحة السنوية التى تشمل ثلاثة أثواب (الباليوم ، وهو طيلسان الأساقفة) التى كان مدينا لهم بها بمقتضى المعاهدات ، والتى أوفى لهم بها مرة واحدة فى هذه المناسبة . واذا كانت الرواية التى سجلنها « الحوليات البيزية » صحيحة ، وكان السفراء الاغريق قد أحضروا بالفعل فى عام ١١٣٦ ووهبوا لكاتدرائية بيزا حوالى مائتى « باليوم » أمبراطورى بالإضافة الى كساء للمذبح بديع الصنع ومطرز بالذهب (٢) ، فمن المؤكد ، حسبما هو معروف عن هدايا الأباطرة ، أن الهدية التى قدمها الامبراطور كانت عظيمة . غير أن نص فقرة الحوليات المشار اليها قد طرأ عليه تحريف كبير . ويرى السيد لانجير نفسه أن الرقم CC (٢٠٠) فى النص مشكوك فى صحته ، ويستبدل به الرقم LII (٥١) ، انه مجرد تخمين ، ولكن ما المانع من اجراء تخمين آخر ، وجعل الرقم II (٢) ؟ وبذلك يكون هذا الرقم هو الذى حددته المعاهدات ، وتكون الهدية المشروطة قد تأجل الوفاء بها فى عام ١١٣٦ كما حدث فى السنوات السابقة . ومن المرجح أن يكون أعضاء بعثة عام ١١٣٦ مكلفين بتجديد المعاهدة القديمة باسم سيدهم ، لأن وثيقة التصديق موجودة ، والبرهان على ذلك ثابت فى وثيقة محررة باسم ابنه « مونويل » Manuel (٣) . وعلى ذلك لا يجوز فى خصوص هذه المعاهدة القول بأنها لم يكن لها وجود الا فى خيال المؤرخين الذين جاءوا بعد هذه الأحداث بزمن طويل (٤) . وحين يضيف هؤلاء أنه عند رحيل السفراء الاغريق انضم اليهم « اجونى دوودى » Ugone Duodi فذهب معهم الى القسطنطينية للتصديق على المعاهدة باسم مدينة بيزا ، وادارة شئون الجالية البيزية بالقسطنطينية ، فان

Pol. Gesch. Genua's und Pisa's, p. 9-11, 203 et s. (١)

Marang., Annal. Pis, dans Pertz, SS. XIX, 240. (٢)

Doc. sulle relaz. tox, p. 45, 54. (٣)

Tronci, Annali Pisani, p. 71 ; Roncioni, Istorie Pisane, dans l'Archiv. stor. ital. VI, a, p. 250. (٤)

هذه الأقوال تبدو قائمة على أخبار جديدة بالنقطة (١) . لأننا نملك وثيقة متعلقة
بمنشأة أقامها في القسطنطينية عام ١١٤١ زوجان من بيزا ، والوثيقة موقع
عليها في الصدارة باسم Ugo Dudonis, qui tune erat legatus Pise (٢) .
والمعروف عن دوودي هذا أنه بقي في القسطنطينية حتى وفاة الإمبراطور
يوحنا ، ولما توج ابنه مانويل في عام ١١٤٣ ، سلم الإمبراطور الجديد خطاب
عزاء من مدينة بيزا ، وعقد معه معاهدة جديدة (٣) . وظلت الجالية البيزية
مقيمة بالقسطنطينية في أمان تام ، وكانت قبلا تملك كنيسة مكرسة للقديس
نقولا (٤) .

وفي هذا العصر نفسه ، أجرت جمهورية جنوا لأول مرة مفاوضات مع بلاط
بيزنطة . وفي عام ١١٤٢ ذهب السفيران أوبرتو ديلا توري Oberto della torre
وجوليئمو ديلا باركا Guglielmo della Barca باسم القنصلية لمقابلة
الإمبراطور يوحنا الذي كان موجودا وقتئذ مع الجيش في شمال سوريا (٥) .
ولا يعرف أحد شيئا عن الاقتراحات التي كانا يحملانها إليه ، وما حصلنا عليه
منها (٦) ، غير أن الثابت هو أن السبب الرئيسي لهذه المهمة كان متعلقا
بمسائل تجارية .

ومات يوحنا بعد هذا بوقت قصير (في ٨ من أبريل ١١٤٣) تاركاً
عرشه لابنه مانويل . واستهل حكم هذا الأمير مع فترة خطيرة بالنسبة إلى
الامبراطورية والجاليات الإيطالية . ويبدو أن الأحداث التي تجتمعت خلال
السنوات الأولى كانت تكراراً للأحداث التي ميزت نشأة جالية البندقية .
وما حدث في عهد روبرت جيسكار ، حين أعلن ابن أخيه روجر الحرب على
الامبراطورية ، حدث في عهد الكسيوس إذ دعا مانويل البنادقة إلى مساعدته .
وارتأى للإمبراطور أن طلبه لن يرفض : فعين بذل أبوه يوحنا مساعيه لدى
الامبراطور لئلا يثير لحملة على الزحف ضد روجر (١١٣٥) (٧) ، قدمت له
جمهورية البندقية مساندة دبلوماسيتها ، ولم تكن تقصد وقتئذ مجرد الانتقام
من الملك النورماندي المتهم بأنه سلب من بعض التجار البنادقة كمية من

(١) نبدى مع ذلك نحفظا : ذلك أنه لا توجد أية وثيقة تثبت أن درودي كان يحمل لقب
قنصل الذي نسب إليه ترونس . Tronei ورونسيوني Roncioni
(٢) Documenti sulle relaz. tox coll' Oriente, p. 4.
(٣) Roncioni, 1. c.
(٤) Documenti sulle relaz. tox, p. 4.
(٥) Annal Jan. p. 20.
(٦) بزعم لانجر Langer أن المفاوضات التي أجراها السفراء الجويون لم تحز وضاء
مواطنيهم (ص ١٠) ، ولكن براهينه على ذلك ليست قوية .
(٧) Annal. Erphesfurdenses, dans Pertz, SS, VI, 440.

البضائع يقدر ثمنها بمبلغ ٤٠٠٠٠ جنيه فضة ، ولكن كان يدفعها الى ذلك مصلحة سياسية رفيعة . وفي هذه المرة ، في عام ١١٤٧ (١) ، كان روجر يعلم أن الملك الألماني كونراد الثالث ، ومانويل من همكين تماما ، الأول بالاستعدادات للحرب الصليبية ، والثاني بالاجراءات اللازمة لاستقبال الصليبيين (٢) ، لذلك اعتقد أن الفرصة ملائمة للاغارة على الامبراطورية اليونانية ، ولكن الجمهورية (البندقية) وضعت هذه المرة أيضا قواتها تحت تصرف الامبراطور الذي فوجئ على غير استعداد . ولم يكتف الدوج بهذا بل طلب من البنادقة الموجودين في الامبراطورية لأعمال تجارية أن ينضموا الى الجيش (٣) . وتركز الصراع حول كورفو ، وقائل الجنود من كلا الطرفين بضراوة شديدة . وبعد أن مرت العصابات النورماندية كالسيل الجارف على كورنيتي ، وأثينا ، وطيبة ، ونجربونت Nègrepoint (جزيرة ايوبويا حاليا) وهي مدن عزلاء من السلاح ، اختفت سريعا ، كما ظهرت ، حاملة معها الذهب والفضة والحرث ، واستصحبوا معهم قسرا بعض نساكي الحرير (٤) . غير أن روجر ثبت في كورفو ، وكان هذا الموقع قد سقط في قبضته بالخدعة والخيانة ، فعقد العزم على أن يبقى به مهما كلفه ذلك . وكان الحصار عسيرا طويلا ، وأسدى البنادقة بمعداتهم الحربية الممتازة خدمات جليلة للاغريق . ولسوء الحظ وقع حادث مؤسف أظهر مقدار ما يمكنه كل من الحليفين للآخر من نفور وكراهية ، كراهية ولدتها تصرفات الامبراطور يوحنا السيئة في نفوس البنادقة ، وشعورهم بجدارتهم ، واحتقارهم اليونانيين ، كل هذه الأشياء خلقت الشقاق بين الطرفين ، ومن ثم اقتضت الفطنة أن يخصص لقوات الأمتين مواقع منفصلة بعضها عن بعض (٥) . ومع ذلك لم يكن هذا الاحتياط الحكيم كافيا لمنع النزاع (٦) ، وتطرق الأمر من الأقوال الى الأعمال العنيفة ، فأريق الدماء رغم الجهود التي بذلها القادة لتهدئة النفوس . وغلب البنادقة على أمرهم ، واستشاطوا غيظا ، ومن جزيرة صغيرة كانوا يحتلون راحوا ينسلون باطلاق

(١) Kugler (Studiën Zur Geschichte des Zweiten Kreuzzugs, p. 116.

et s., not 13); et Amari (Storia dei Musulmani di Sicilia, III, 435, not 2).

لا شك انه يجب تحديد بداية الحرب (بالاتفاق مع سيمونسفيلد) في ربيع عام ١١٤٧.

وعلى ذلك تمتد فترة حصار كورفو من ربيع ١١٤٨ الى نهاية صيف ١١٤٩ .

Taf, et Thom I, 110.

(٢)

Hist. duc. Venet., dans les Mon. Germ. SS. XIV, p. 75; Dandolo,

(٣)

1.c.; Taf, et Thom, op. cit.,

Cinnam, p. 92, 119; Nicet, p. 96 et ss.; Annal. Cavens., dans Pertz,

(٤)

SS. III, 192; Sigeberti contin. Praemonstrat., ibid. VI, 453; Romuald.

Salern., ibid. XIX, 424; Otto Frising. ibid. XX, 370; Hist. duc. Venet.

1. c. p. 75; Dandolo, p. 282.

Nicet, p. 103.

(٥)

Cinnam p. 98 ; Nicet p. 113 et s.

(٦)

القذائف على الأسطول اليوناني ، وأشعلوا النيران في بعض السفن ، وانتهوا بالاستيلاء على سفينة الامبراطور ، حيث مثلوا بها ملهات آذت مشاعره : فبعد أن غلقوا جدران غرفته بأقمشة أرجوازية ومذهبة ، أدخلوا بها زنجيا ليؤدي دور الامبراطور (وكانت بشرة مانويل شديدة السمرة) (١) ، ووضعوا تاجا على رأسه ، وأقاموا حفلة اختلطت فيها ضروب التكريم الموجهة للامبراطور باهانات وضروب من الشطط والتهريج . أما الامبراطور المتعجرف فإنه أخفى مؤقتا ما كان يعمل في صدره من ضغينة . إذ كان من الضروري أن يستمر الحصار الذي كان له فيه مصالح كبيرة : وانتهى الأمر بالتغلب على المتمردين ، واستسلام الموقع (١١٤٩) بعد طول معاناة .

وكانت النتيجة الظاهرة لهذه الحرب بالنسبة الى البنادقة ، دعم مستوطناتهم التجارية في الامبراطورية البيزنطية ، وامتداد جديده لهذه المستوطنات . الا أن هذه الحرب كانت في الواقع نواة لأحداث مشؤمة سوف نتحدث عنها فيما بعد . وحتى تلك الآونة ، منح مانويل حلفاءه امتيازات خلال عام ١١٤٨ (٢) : أحدهما زاد من أملاك التجار البنادقة في القسطنطينية : إذ لما أصبح الحى الذى يشغلونه بين باب اليهود والمخفر الأمامى (فيجلا Vigla) ضيقا أكثر مما ينبغي ، فإنه أعطاهم مجموعة جديدة من المنازل بجوار المخفر الأمامى ، ورصيفا رابعا بالإضافة الى الأرصفة الثلاثة التى كانت لهم من قبل (٣) . أما الامتياز الثانى الذى منحوه فى شهر أكتوبر ١١٤٨ فإنه مد الاعفاءات الممنوحة لهم لمبيعاتهم ومشترياتهم لتشمل علاقاتهم مع جزيرتى كريت وقبرص (٤) . وفى تعداد محاط الامبراطورية التى كان على البنادقة أن يتقدموا اليها ليتمتعوا بالاعفاء بموجب البراءة التى منحها اياهم الكسيسيوس فى عام ١٠٨٢ أغفل اسما هاتين الجزيرتين عمدا ، ومن ثم كان موظفو الامبراطورية حتى ذلك الحين يقتضون من التجار البنادقة الرسوم المفروضة . وعلى ذلك صدر مرسوم من الامبراطور يوحنا يلغى هذا الاستثناء الذى بقى فى الواقع قائما ، ولم يلغ الا بعد صدور رسوم مانويل . واذا رضى البنادقة بالامتيازات التى منحهم اياها الامبراطور الجديد ، فإنهم رسخوا أقدمهم أكثر فأكثر فى الامبراطورية اليونانية ، وزاد اختلاطهم يوما بعد يوم بالأهالى ، وتزوجوا من نسايتهم ، وراحوا يقيمون وسط اليونانيين خارج حدود الحى الخاص بهم ، ومضوا كذلك يستوطنون فى كثير من مدن الامبراطورية ، وجعلوا بعجرتهم التى كانت تتزايد بسبب شعورهم بما يملكون من ثروات يجرحون فى كل لحظة

Eustathii opp. éd., Tafel, p. 201.

(١)

Domenico Morosini

(٢) كان السفيران الفينيسيان وقتئذ دومينيكو موروسيني

Taf. et Thom. I, 107.

، انظر :

والندريا جينو

Taf. et Thom. I, 109-113.

(٣)

Taf. et Thom. I, 113-124.

(٤)

مشاعر اليونانيين ، كما راحوا ، بعدم مراعاتهم مرة بعد أخرى القوانين واللوائح ، يغضبون الامبراطور الذى كان غيورا على حقوقه باعتباره عاهل البلاد (١) .
وصمم مانويل على وضع حد لهذه الانتهاكات فأنشأ - كما يذكر كيناموس -
وضعا خاصا للبنادقة المستوطنين فى الامبراطورية ، وكان هؤلاء حتى ذلك
الحين يخضعون لنفس النظام الذى يخضع له مواطنوهم الذين يأنون فى سفنهم
ثم يرحلون عائدين الى بلادهم ولما لم يكن فى الامبراطورية وفتتد وضع مماثل
لهذا الوضع فقد أطلق عليه اسم مستعار من اللغات الغربية ، هو *burgenses*
وقبل أن نفسر معنى هذه الكلمة ، نقول ان المرسوم المشار اليه قد ضمن فى
فئة الـ *burgenses* هذه ليس فقط البنادقة - كما يقول كيناموس - ولكن
أيضا كل المستوطنين الغربيين . ويبدو أن مانويل نظر بشئ من القلق الى هؤلاء
الأجانب وهم يشكلون جماعات محتشدة على أرض الامبراطورية ، وبخاصة فى
العاصمة ، وليس هناك ما يضمن ولاهم واخلاصهم . وفى هذه الآونة بالذات
كان هناك نبيل بيزى يدعى سينيوريثو *Signoretto* قام نزاع بينه وبين موطنه
الأصلى ، وربما استبعد منه ، فجاء ليعيش فى القسطنطينية ، واعتبر مواطنوه
هجرته هذه من قبيل فقد الجنسية ، وقالوا انه كان من قبل مواطنا بوجوازيا
ينتمى الى أمة عظيمة ، ولكنه لم يعد الآن سوى *burgensis* تابع للامبراطور
مانويل (٢) . وبعد انقضاء خمس سنوات على وفاة مانويل حاصر النورمان
تسالوينك ، وبلغت مسامع المحاصرين أنباء عن حدوث خيانة ، ولظفوا اشارات
تجرى من أعلى برج مجاور لى التجار الغربيين . ولم يذكر أوستاث *Eustathe*
أسقف سالونيك الذى يروى هذه الواقعة هؤلاء الغربيين الا بكلمة
burgensis (٣) . من الثابت اذن أن الوضع الذى جعل للبنادقة كان يشمل
أيضا كل الأمم التجارية الأخرى . كذلك يصف كيناموس الوضع القانونى
الذى وجدوا فيه منذ أن أصبحوا *burgensis* ، اذ يضيف أن عليهم أن يقدموا
ضمانا على أن يخضعوا طوال حياتهم للالتزامات المفروضة على الرعايا
اليونانيين (٤) . وعلى ذلك اقتضى مانويل منهم نوعا من الولاء ، وضمانا
للاخلاص ، وكذا فى الغالب تأمينا على الأراضى والبيوت الممنوحة لهم . والواقع
أن البوجوازي يتمتع تبعا للقوانين الاقطاعية بكامل حريته الشخصية ، ولكنه
يدين للأمير أو البارون الذى يعيش فى اقليمه بايراد عن منزله أو ماله ، واعانات.

'Cinnamus, p. 282; Nicét, p. 223.

(١)

Docum, sulle relaz, tosc, coll' Oriente, p. 12.

(٢)

Eustathue opuscula, éd, Tafel, p. 290.

(٣)

Cinnam, loc. cit.

(٤)

مالية ، والخدمة العسكرية ، الخ (١) ونحن نجهل المدى الذى بلغته مطالب مانويل فى هذا الخصوص ، الا أن الثابت انه فرض ضرائب على الجاليات الأجنبية ، ضرائب قاذحة فى بعض الأحيان . من ذلك أنه فى عام ١١٦٦ عند عودته من حملة فى هنجاريا (٢) ، استقدم معه يهوديا يدعى استافورت Astaforte ، استنهر بخبرته فى الشئون المالية ، وأثبت كفاءته بأن أثقل بالضرائب اللاتينيين المتفرقين فى أنحاء الامبراطورية . ويبدو أن الامبراطور كان يريد أن يرث أموال الأشخاص الذين يتوفون دون أن يتركوا وصية . وفى حالة نذكرها ، بالغ استافورت فى حماسه وإخلاصه لمالية الامبراطورية ، وذلك فى مسألة تخص شركة سينيوريتو الذى ذكرناه آنفا : فقد أوصى المتوفى بأمواله المؤسسة خيرية ، فأمر استافورت بمصادرة الأملاك وألقى فى السجن منفذ الوصية المعين حسب الأصول القانونية . على أننا نقول ان هذا الاجراء قد ألغى بعد ذلك بحكم قضائى (٣) . وأخيرا فرض مانويل على أفراد الجاليات الغربية أداء الخدمة العسكرية ، وفى الغالب كنتيجة لوضعهم الخاص باعتبارهم Burgenses . ونجد آثارا للقواعد التى وضعها فى هذا الشأن فى المعاهدات التى عقدها مع مدينة جنوا : ففي حالة اغارة أسطول للعدو على اقليم الامبراطورية اليونانية ، تلتزم الجاليات الجنوبية بالخدمة على السفن الحربية التابعة للامبراطورية ، وفى نظير ذلك يكون لأفرادها الحق فى مرتبات ، ولا يسمح لهم بالاحتفاظ بأكثر من عشرين رجلا لحراسة سفنهم الخاصة (٤) .

وفى الوقت الذى عمل فيه مانويل ، بهذه الوسائل والاجراءات على استغلال الجاليات الغربية المقيمة فى امبراطوريته لمصلحته الخاصة ، عمل أيضا على كسب صداقة شعوبهم . والواقع أنه اتبع فى إيطاليا سياسة ذات هدف كبير ، تتمثل فى بعث السيطرة الاغريقية بالحالة التى كانت عليها من قبل ، واستعادة لقب الأباطرة الرومان وسلطانهم لصالح أسرة كومنينوس . وفى هذا السبيل كان لا بد له من حلفاء بين مدن إيطاليا وأمرائها . وكان من الطبيعى أن يولى وجهه

(١) Ducange, dans son Gloss. med. et inf. latinitatis, s.v. burgagium, burgensis, et les Notes du même auteur sur cinnamus, éd. Paris, p. 487-490; Ordonnances des roys de France, XII; Gregorio, Considerazioni sopra la storia di Sicilia, I et II, passim; Amari, Storia der Musulmani di Sicilia, III, 250 et ss.

Cinnam, p. 248. (٢)

Doc. sulle relaz. tosc. coll' Oriente, p. 11-13. (٣)

Lib. jur. I, 184, 186, 253; Langer op. cit. p. 60, not. 3). (٤)

يقول لانجر انه كان فى مصلحة الحاليات (الغربية) أن تشارك فى الدفاع عن الامبراطورية ، وهذا صحيح من الوجهة النظرية ، غير أنه قد يحدث عندما يلتحق المستوطنون بجيوش الامبراطورية أن تبغى الموائع التى توجد فيها متاجرهم ومصانعهم وسفنهم بلا حراسة كافية ، أو من غير حراسة بالمرّة .

أولا شطر المدن التجارية المرتبطة معه فبلا بمصالحها في الشرق الأدنى ، فيغيرها بالامتيازات والوكالات التجارية ، ولكنه يحاسب جالياتها اذا لم تلزم بالطاعة والخضوع ، ونبعا لهذه السياسة الطموح ، أصبح الجنويون في عداد الأمم الأكثر رعاية في الامبراطورية اليونانية . وبعد أن أحبط الامبراطور محاولة النورمان غزو كورفو ، عمد العزم في عام ١١٥٥ على نقل الحرب الى أرض العدو . وكان عدد كبير من بارونات جنوب إيطاليا قد ناروا علنا ضد وليم الأول ، خليفة روجر ، كما أظهر البابا وامبراطور ألمانيا عداها له ، ومن ثم بدت الأحوال ملائمة ، وبدا لخاطر مانويل - وله بعض الحق في ذلك - أنه بتحالفه مع خصوم الملك سوف يتسنى له توطيد أقدامه في إيطاليا (١) . ولم يدخر مالا أو وعودا في سبيل اكتساب حلفاء له ، أو على الأقل تخليص حلفائه من سيطرة أعدائه . وعلى ذلك انطلق مندوبوه من حليف الى آخر حتى وصلوا الى جنوا ، وكان المندوب الذي حل الى هناك أول اقتراحات مانويل هو نفسه الذي تفاوض في انكونا مع الامبراطور بارباروسا (٢) ، وفي بنيفنتو مع البابا أدريان الرابع (٣) لحملهما على تشكيل رابطة ضد ملك صقلية : كان هذا المندوب هو ميشبل داليولوجوس Michel Paléologue ، وهو من أبرع قباطنة ذلك العصر (٤) ، ولكن استبدل به بعد ذلك ديمتريوس ماكريمبوليتس Démétrius Macrembolites (٥) ، وكل ما طالبه الامبراطور من قناصلة جنوا على ما يبدو هو الا يرتبطوا بأية تعهدات مع أعدائه ، وأن يفرضوا على مواطنيهم المقيمين بأرض الامبراطورية واجب المعاونة في الدفاع عن الامبراطورية في حالة الهجوم عليها . وتمسك بشدة بهاتين النقطتين ، وفي نظير الحصول عليهما وعد الجمهورية بهدايا فاخرة تشمل قطعا من المصوغات والحريز ، وحيا تجاريا وأرصفة في القسطنطينية ، في أجزاء المدينة التي كان للبيزيين والبنادقة فيها أحيائهم وأرصفتهم من قبل . ولم يحدد ماكر يمبوليتس موقع هذا الحى ، ولكنه تعهد بأنه اذا كان سلفه أو زميله (٦) قد وعد بمنح معين أو رصيف معين فإن الامبراطور سوف يفى بالوعد

(١) Cinnam. p. 135 et ss.; Nicét., p. 120 et s., 124 et ss.; Guill de Tyr, (١)

XVIII Chap. 2, 7, 8.; Romuald. Salern., dans Pertz, ss. XIX, 428 et ss.; Marango, ibid., 242 et s.

Otto Fris., dans Pertz, SS. XX, 408, 413. (٢)

Hadriani vita out. Bosone, dans Watterich, Vitae pontif. roman. (٣)
II, 332 et s.

Hase, Introductio de Timarion, Not. et extr. IX, 2e part. (٤)
p. 154 et s.

(٥) يظهر اسم هذا الشخص أيضا في مناسبة أخرى : فقد بعثه مانويل الى كوزاد الثالث حين اقترب الجيش الصليبي بقيادة هذا الأمير من الحدود (Cinnam p. 67)

(٦) يطلق على هذا الزميل لقب Subitus : وهو في الغالب le Sebatos Jean Ducas (Cinnamus, p. 135 et ss.) يقترن اسم كثيرا في ذلك الحين باسم داليولوجوس

دون مناقشة . فضلا على ذلك يستطيع الجنوبيون ، مثل البيزين أن يقيموا منشآت في مدن أخرى من مدن الامبراطورية ، ويكون وضعهم القانوني على أية حال مماثلا لوضع البيزين ، ولا تكون رسوم الجمارك التي نحصل منهم أعلى من الرسوم التي نحصل من الآخرين . وسجلت التزامات ماكريمبوليتس من جهة والتزامات القناصلة من جهة أخرى وشكلت وثيقتين مرتبطتين (١) . ويتفق مضمون الوثيقتين تماما مع ما يقوله كافارو Caffaro في خصوص هذه المعاهدة في عام ١١٥٥ (٢) ، وينبئنا فوق ذلك أن الحي الموعود به يشمل كنيسة . وترتب على الماثلة بين الجنوبيين والبيزين ، بالنسبة الى الجنوبيين أن خفض ١٠٪ من الرسوم الجمركية ، و ٤٪ من التعريفة الخاصة بالذين لا يتمتعون بأى امتياز .

وأرسل قناصلة جنوا لعام ١١٥٧ الى القسطنطينية أميكو دي مورنا Amico de Murta ليستلم الحى المخصص لاقامة التجار ، والأماكن المخصصة لرسو سفنهم (٣) ، وخلفه في عام ١١٦٠ ايرنكو جوير Enrico Guerico (٤) . ويبدو أن الجنوبيين كانوا يملكون في القسطنطينية في هذا الحين منشآت ومنازل كثيرة ، الا أن منافسيهم لم يتركوهم يتمتعون زمنا طويلا بهذه الأشياء . ففي ذات يوم من عام ١١٦٢ أقبل ألف شخص من البيزين المتعطشين للنهب والدماء ، وأغاروا على الجنوبيين الذين لا يزيد عددهم على الثلاثمائة ، والذين دفعوا مع ذلك بشجاعة حتى المساء ، واضطر المغيرون الى الانسحاب دون أن يحققوا جريمتهم . ولكنهم أعادوا الكرة في اليوم التالي ، وانضم اليهم مدد من بنادقة ويونانيين وعصابة من الأوباش من كل نوع ، وقصدتهم نهب مخازن الجنوبيين . ولما رأى هؤلاء أنهم سوف يهزمون أمام تفوق أعدائهم في العدد ، تركوا منازلهم وأموالهم ، وحمل الأعداء غنائم تقدر بمبلغ ٣٠٠٠٠ هيبير hyperpres وقاتلوا نبيلاً جنوياً شاباً ، ابن اوتو روفو Otto Rufo . وعاد الجنوبيون الى وطنهم ، وكان هذا الحادث بداية لحرب ضروس نشبت بين جنوا وبيزا . ولما كانت هذه الحرب قد اتخذت من ايطاليا ميداناً لها ، فائنا لن

(١) Sauli : Della colonia dei Genovesi in Galata, II, 181 et s.;
Lib. jur. I, 183-186.

— صارت هذه المعاهدة ملزمة للجنوبيين في عام ١١٥٧ ، انظر في ذلك :
Atti della società Ligure di storia patria, I, 192.

Annal. Jan, p. 23. (٢)

bid. p. 25 ; Olivieri, dans les Atti della Soc. Lig. I, c. p. 30 (٣)

Cf. Monum hist patr. Chartae, II, 402 et s.

Annal. Jan, p. 30. (٤)

نتصدي لها في مجالنا هذا (١) . وعلى ذلك انتهت بالفشل المحاولة الاستعمارية الأولى التي قام بها الجنويون في القسطنطينية . ومع ذلك لم يتوان الامبراطور مانويل في أن يقدم لهم بنفسه مزايا جديدة ، وطلب اليهم أن يبعثوا بالسفراء الى بلاطه ، وأعلن أنه مستعد من جانبه لتنفيذ المعاهدات القديمة . واستجابة لهذه الدعوة بعثت الجمهورية ثلاثة سفراء مفوضين استقبلوا بحفاوة ، ولكنهم لم يحصلوا على أية نتائج هامة (٢) . وسارت الأمور على هذا المنوال حتى قيام السفارة الثانية التي تولاهاميكو دي مورتا (١١٦٨) (٣) ، وانتهى هذا السفير بعد مفاوضات طويلة بالحصول (في أكتوبر ١١٦٩) (٤) ، على موافقة الحكومة اليونانية على تحرير معاهدة تبقى مع ذلك مجرد مشروع الى أن تصدق عليها حكومة جنوا . ويتبين من بصريحات السفير أن جمهورية جنوا نتعهد ألا تقوم بأى عمل ضد الامبراطورية اليونانية لحسابها الخاص أو لحساب أى حاكم متوج أو غير متوج (٥) . وتعد أيضا بالعمل على احباط أى هجوم على أى مكان فى اقليم الامبراطورية ، ووضع كل مواطنى جنوا المقيمين فى الامبراطورية تحت تصرف الامبراطور للدفاع عنه ، وتلتزم - فى حالة قيام حرب بين مانويل وبين أية شخصية متوجة أو غير متوجة ، ويرى من المفيد أن يرسل الى جنوا قوافل محملة بالذهب ، أو سفنا أو فرقا عسكرية - أن تتصرف حياله تصرف دولة صديقة . ويضمن مانويل من ناحيته المدينة جنوا أن يمنحها حيا ورصيها وكنيسة فى موضع مناسب خارج القسطنطينية ، فى منطقة غير معروفة مع ذلك ، اسمها أوركو Orco . ولم يغرب عن البال اشتراط الهدايا المعتادة ، من ذهب وحريز ، وهى كبيرة المقدار ، نظرا الى النفقات الكبيرة التى سوف تلتزم الجمهورية بتغطيتها ، ومن ثم يجدد الوعد الذى سبق أن أعطاه ماكريمبوليتس بدفع ائانة مالية قدرها ٥٠٠ هيبير ، ويتعهد بأن يسدد دفعة واحدة الستة والعشرين قسما سنويا الأولى . وفيما يختص بالرسوم الجمركية ، يجب على الجنويين أن يدفعوا للقسطنطينية اعتبارا من ذلك الحين ٤٪ فقط ، كما

Annal. Jan. p. 33;

(١)

- فى أعقاب هذا العدوان ساءت جنوا للامبراطور فى عام ١١٧٤ على يد السفير حريما لدى طلبا بدفع تعويضات تبلغ ٢٩٤٤٣ هيبير (تذكر الحوليات رقما صحيحا هو ٣٠٠٠٠) ، انظر ، Desimoni, dans le Giorn. ligust, 1874, p. 157-159. فى خصوص موت روفو الصغير

Annal. Jan. p. 61.

(٢)

Ibid. p. 78.

(٣)

(٤) ذكر عام ١١٧٠ فى ال Lib jur خطأ ، بسبب قراءة غير صحيحة ، انظر :

— Olivieri, dans les Atti della Soc. Lig. I, 338 et s. desimoni dans le Giorn. lig. 1874, p. 148 et ss.

(٥) ذكر اسم الأمير المقصود بهذه العبارة شفاهة الى السفير ، فوافق هذا وصرح بأن من صالح وطنه أن يتمتع عن مساندة هذا الأمير اذا شن حملة ضد الامبراطورية اليونانية . وكان هذا الأمير الذى بقى اسمه مضعرا ، هو بالتاكيد فردريك بارباروسا .

يدفعون في الأماكن الأخرى نفس النسبة التي يدفعها سائر اللاتينيين إذا كانوا خاضعين لهذه الرسوم . وأخيرا ، اتفق على أنه يمكن للسفن التجارية الجنوبية أن تدخل في كل موانئ الامبراطورية بكامل حريتها فيما عدا ميناء روسيا Rossia و Matricha ماتريكا إلا إذا صدر مرسوم لاحق يلغى هذا الحظر (١) . ويبدو أن هذا المرسوم لم يصدر أبدا ، وعلى العكس ، انعقد اتفاق جديد مع مانويل في العام التالي جدد التحفظ المشروط بالنسبة إلى الميناءين ، وفي وقت لاحق لم يتحدد تاريخه ، أرسل الجنويون وفدا مكلفا بالعمل على رفع الحظر (٢) . ولكن الثابت أنه أخفق في ذلك .

تري ما السبب في نشب الامبراطور بهذا الحظر ؟ من المفيد البحث عن هذا السبب (٣) . لا شك في أن ماتريكا Matricha ليس سوى Tamataracha التابعة لقسطنطين بورفيروجنتوس ولم يكن يفصل إقليم هذه المدينة سوى أحد أنهار إقليم Zichie ، وهو أقصى إقليم شمالي للامبراطورية في جبال القوقاز ، وكان الاقليمان تابعين لرئيس أساقفة واحدة (٤) . ويفول ولیم (جويوم) دى روبروك Guill de Rubrouk الذى يطلق على المدينة اسم ماتريكا Matrica (٥) ان اقليمه يحد من الغرب بالمضيق الذى يربط البحر الأسود ببحر أزوف . وعلى ذلك كانت Matricha المذكورة في وثيقة مانويل واقعة في شبه جزيرة تهمان Taman وتشكل المركز السياسى والتجارى لمنطقة شاسعة مغطاة بالقرى (٦) ، تصل اليها السفن الآتية من أعالي البحار ، وتمتاز فوق ذلك بأنها قائمة على ضفاف نهر كبير يسميه الادريسي (سكير أوستير) Le Eokir (٧) ، ومن ثم فهي كائنة على أحد مصاب نهر كوبان ، وهو مصب لم يعد له وجود (٨) . يصعب معرفة جنسية أمراء وسكان ماتريكا Matricha في عصر الامبراطور مانويل . وكان الأمراء الروس فيما مضى قد دفعوا بغزواتهم حتى هناك ، واستولوا على إمارة تموتوراكان Tmoutorakan التى أجمع العلماء على

-
- (١) هناك ترجمتان باللاتينية لهذه المعاهدة ، احدهما في . le Lib. jur. I, 252-255. والثانية في : Sauli, II, 188 et ss.
(٢) Desimoni, Giorn ligustico, 1874, p. 156.
(٣) Lib. jur. I, 255; Sauli II, 192, Miklosich et Muller, Acta graeca, 111, 35 .
(٤) Const. Porph, De administrando imp., p. 181, 268 , Mikloschi et Muller, Acta graec. I, 76, 477; II, 268; Tafel, Const. Porph. Europa, p. 45, 53, 55.
(٥) Recueil de voy. et de mém. publ. p. la Soc. de géogr. IV, 21E.
(٦) الادريسي ، الجزء الأول ، ٤٠٠ .
(٧) Guill. de Rubrouck, p. 215; Edrisi, II, 396, 400.
(٨) Dubois de Montpéroux, Voyage autour du Caucase, V, 37, 64, 78 et s.

اعتبارها هي وماتريكا Matricha اقليما واحدا ، غير أن اسم هذه الامارة اختفى من المصادر التاريخية منذ الربع الأول من القرن الثاني عشر . ولما كان هذا الاختفاء معاصرا تقريبا لغزو البوتوفست Polovtses هذا البلد ، فالراجح أنهم هم الذين دمروا الامارة (١) . وفي الوقت الذي كتب فيه الادريس كتابه في الجغرافيا « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق - المترجم » (١١٥٤) أى فى عهد مانويل ، كان سكان ماتريكا Matricha فى حرب متصلة مع جيرانهم الروس (٢) ، وليس فى وسعنا أن نطلق اسما آخر على سكان روسيا Rousia التى سوف نتكلم عنها بعد قليل . ومع ذلك يبدو أن الادريس نفسه يشير الى جنسية أمراء Matricha لأننا نقرأ فى ترجمة جوير Jaubert (٣) أنهم كانوا معروفين باسم Alou-Abas وهذه التسمية قريبة الشبه من اسم Abkases (٤) . ولكن دوزى Dozy وخويه Goeje (٥) يذكران أن المصطلح الذى استعمله الادريس ليس اسم علم ولكنه نعت يصف هؤلاء الأمراء بأنهم أولو بأس شديد . ها نحن اذن قد وقعنا فى حيرة . وعلى أية حال فالراجح أنهم ينتمون الى احدى القبائل التى كانت تسكن جبال القوقاز ، وبخاصة قبيلة اعتنقت الحضارة والديانة اليونانية . والواقع أن المبشرين الذين أرسلهم هنغريو نهر التايس Theiss عام ١٢٣٠ الى اخوانهم الوثنيين فى حوض نهر الفولجا ، مروا بماتريكا Matricha ووجدوا فيها أميرا وسعيا يتكلمون ويكتبون اليونانية، كما وجدوا ثمة كهنة يونانيين (٦) . من الصعب اذن التسليم بأن الحظر الذى فرض على التجار الجنوبيين من أن يزوروا ماتريكا كان الباعث له علاقات عدائية بين الأمباطور وامارة ماتريكا . ويشير الرحالة وليم دى روبروك (١٢٥٣) الى الباعث الحقيقى ، اذ يرى (٧) أن تجار القسطنطينية كانوا يذهبون الى ماتريكا ، ومن هناك يعبرون بحر أزوف على قوارب صغيرة ليصلوا الى مصب نهر تنايس Tanais حيث يشترون كميات كبيرة من السمك . وما كان يفعله تجار الفرنجة فى عهد الأمباطورية الرومانية ، كان التجار اليونانيون يفعلونه بالتأكيد فى عهد الكومنينوس . وعلى ذلك كان

-
- (١) أنظر مقال Pogodin عن وصح اماره تمونوراكان فى :
— l'Eraman's Archiv fuer die Kunde Russlands, V, 429-431; Karamsin,
الادريسي ، الجزء الثاني ، ٤٠٠ .
(٢) Gesch. des russ. Reiches, I, 140, 345; II, 117.
(٣) الادريسي ، الجزء الثاني ، ٣٩٥ .
(٤) هذا هو التفسير الذى يقره المترجم نفسه :
Lewel, Géogr. du moyen-âge, III, 197.
(٥) الادريسي، Description de l'Afrique et de l'Espagne, Préf. p. xix.
(٦) Theiner : Monum. vetera Hungar. I, 152.
(٧) Guill de Rubrouk, p. 215.

الاجراء الذى اتخذه مانويل يستهدف منع الجنوبيين من استخدام هذه المياه التى يقصدها اليونانيون للتزود بالسّمك ، وأن يضمن لرعاياه احتكار فرع من فروع التجارة الأكثر ربحا .

ومن العسير تحديد مدلول كلمة Rosia (روسيا) المذكورة فى مرسوم مانويل . وفى رأى أنه اذا كان المقصود بهذه الكلمة « بلد الروس » فانى لا أعارض فى ذلك . وبالأجمال فان مانويل قد يكون لديه بواعث التى تدعوه الى منع الأمم التجارية الغربية من التعامل بالتجارة مع الروس ، فكثيرا ما كان هؤلاء يبدون نوايا عدوانية ضد الأمباطورية ، وحتى حين يأتون الى القسطنطينية فى مظهر سلمى ، فان الأهالى يستشعرون الخوف والحذر منهم ، وفى الامكان تفسير قرار الامباطور تفسيراً أكثر استساعة : فبين ما تراك الواقعة على خليج تامان وبين سولدايا Soldaia (سوداك Soudak) فى القرم ، يشير الادريسي (١) المعاصر لمانويل الى محطتين ، احدهما أكثر قربا من سوداك ، ويطلق عليها اسم Boutra أو Bouter ، وهم اسم لا أثر له فى أى مكان ، والأخرى أكثر قربا من ماتراك ونجدها المذكورة أحيانا على أنها منفذ لنهر من أنهار روسيا ، نهر الدن ، وأحيانا على أنها مدينة اسمها « روسيا » Rousia واقعة على نهر كبير ينحدر من جبال كوكايا Kokaia ، أى نهر الدن أيضا . هذه النقاط الأربع كما تبدو على خريطة الادريسي (٢) واقعة على أبعاد متساوية من بعضها بعضا ، يقدر كل بعد منها بعشرين ميلا (٣) ، ومصطفة على طول البحر الأسود على خط عرض واحد . ويمكن تبعا لهذه المعلومات أن تكون Boutra فى كافا Caffa (٤) ، وروسيا فى كيرتش Kertch (٥) . والواضح أن الادريسي يعتبر مصبا للدن ما هو فى الواقع مضيق كيرتش . ثم أن وليم دى روبروك (٦) لا ينظر هو أيضا الى بحر أزوف الا باعتباره انتفاخا لجرى نهر الدن ، وفى رأى أنه هذا النهر يضيق (مكونا مضيق كيرتش) قبل أن يصب فى البحر الأسود . غير أنه كلما ذكرت مدينة كيرتش فى كتابة من كتابات العصور الوسطى ، سماها الكاتب « البسفور » Bosfous (Vosporo) القديم ، أو أطلق عليها اسمها الحالى ، ولم يطلق عليها أحد اسم روسيا Rosia, Rousia ، ولا يذكر التاريخ فى أى مكان منشأة أقامها الروس فى هذا الموقع . ومن جهة أخرى اذا

(١) الادريسي ، الجزء الثانى ، ٤٠٠ر٣٩٥ وما بعدها .

(٢) يحدد الادريسي المسافة بين ماتركا وروسيا ب ٢٧ ميلا فى ثمانية الفقرات المشار اليها .

(٣) Hommaire de Hell, Steppes de la mer Caspienne, Atlas : Monumens géographiques, no. 4.

(٤) I. elwel, 1. c.

(٥) Ibid. ; Brunn, Notices sur les colonies italiennes en Gazarie, p. 6.

(٦) Guill de Rubrouk, p. 215, 250.

كانت « روسيا » تختلط بكيرتش ، فهناك تناقض مع خريطة الادريسي الذى يجعلها على الضفة اليسرى للنهر الذى ظن أنه نهر الدن ، أى البسفور ، فى حين أن كيرتش موجودة على الضفة المقابلة كما يعلم الجميع . ولنحاول وضع الحقائق فى نصابها : فالادريسي نقل الى البحر الأسود مصب نهر الدن الذى يصب فى الواقع فى بحر أزوف ، ولكن كان تحت ناظريه خط سير صحيح يجعل مدينة الروس على يسار المصب الحقيقى للنهر ، ومع ذلك نقل المدينة الى الجنوب من موقعها الحقيقى ، وهذا هو ما أخطأ فيه . وهناك خرائط من بداية القرن الخامس عشر ، نرى عليها جنوبى مصب نهر الدن اسم : *Casal (Cassar) degli Rossi* (١) (كزال - أو كسار الروس) ، والراجح أنه كان هناك بقايا منشأة للروس . كان هؤلاء القوم فى الأصل سادة على أهالى النهر فقط ، ولكنهم ما لبثوا أن نظموا حركة ملاحه نشيطة للغاية ، حتى سمى النهر فى عهد الادريسي نهر الروس (٢) . وفى الامكان أن نسلم بأنهم أنشأوا هناك محطة غبر بعيدة عن مصب الدن ، نمت نموا سريعا جعل لها مظهر المدينة ، ثم انكمشت فيما بعد حتى صارت مجرد قرية صغيرة (*Casal*) هي « روسيا » لدى الجغرافيين العرب (٣) . ويروى وليم دى روبروك أن تجار القسطنطينية كانوا يرسلون زوارقهم من ماتركا لتأتى بالسلك من مصب الدن ، ولا شك أنهم كانوا يتعاملون هناك مع المستعمرة الروسية ، فاذا كنا بذلك على صواب ، فإن الحظر الذى فرضه الامبراطور على الجنوبيين يسرى على كل من روسيا وماتركا .

حسبنا هذا الاستطراد ، ولنعد الى المفاوضات التى جرت بين جنوا والامبراطور مانويل ، ففى جنوا لم يكن أحد راضيا عن المعاهدة المتعقدة بين اميكو دى مورتا والامبراطور فى شهر أكتوبر ١١٦٩ ، والتى استرطت تصديق حكومة جنوا عليها . وبوجه عام لم يتشبث الجنوبيون ، أو على الأقل لم يعودوا يحرصون فى تلك الآونة على أن يفرضوا على اليونانيين التزامات واسعة . والشئ العجيب أن المعاهدة كانت على ما يبدو بوضوح سلاحا موجها ضد

(١) Lelewel, Alt. p. 13, dans Thomas, *Periplus des Pontus Euxinus*, p. 245 et s., 266, et dans les *Wiener Jahrbuech*, 1834, I, p. 9.; Rubr. p. 249.

(٢) Edrisi, II, 395; cf. Traehn, *Ibn Fossan*, p. 38.

(٣) لتحديد موقع روسيا *Rousia* ، انبع ابن سعيد (المتوفى عام ١٢٧٤) وشمس الدين (المتوفى عام ١٣٢٧) بيانات الادريسي الخاطئة فى هذا الخصوص . فبالنسبة لأول هذين الجغرافيين انظر : (Aboulfeda, *Géogr.* II, 340) (Ibn. Fossan, p. 31) وبالنسبة للثانى انظر ترجمة Mehren ص ٣٧٧ . والى جانب هذا أعنفد البعض فى وجود

روسيا *Rusia* أخرى ، عاصمة الروس ، وجعلوها فى الشمال ، انظر أبو الفدا وابن سعيد ، راجع *Froehn* ص ٣٢ .

أمبراطور ألمانيا . ثم أن الجنوبيين استاءوا من رفض مانويل اعطاءهم حيا داخل عاصمته . واذ بقى مورتا فى القسطنطينية وقضى بها فصل الشتاء ، فقد أرسل اليه تعليمات ، حصلنا عليها فى صورة تعديلات للمعاهدة واضافات عليها - وهى المعاهدة المبرمة فى عام ١١٥٥ مع ماكريمبوليتس (١) . وتلقى مورتا الأمر بأن يبذل قصارى جهده لمحو الفقرة التى أشير بها الى شخصية متوجة ، أى فردريك بارباروسا ، وألا يسمح ببقاء هذه الفقرة الا اذا تعرضت المفاوضات للفشل بسبب هذا الالتزام . وخول لمورتا أن يقبل البند الذى يفرض على الجنوبيين المقيمين فى اقليم الامبراطورية ، التزاما بالمعونة فى الدفاع عنها فى حالة غزو يقوم به عدو من الخارج ، وذلك بالصيغة المثبتة فى المشروع ، على أن يوضح صراحة أنه فى حالة حدوث غارة جزئية ، لا يستدعى للسلاح سوى الجنوبيين المقيمين فى الاقليم المهدد ، أما فى حالة غزو عام يشنه أسطول كبير للعدو يضم مائة سفينة حربية أو أكثر ، لا يجوز للجنوبيين أن يتركوا أكثر من عشرين رجلا فى كل وكالة من وكالاتهم التجارية لحراسة المباني والسفن .

ويجب على سائر الجنوبيين فى كل موقع من الامبراطورية وجودون فيه أن يخدموا فى الأسطول الامبراطورى . وعلى مورتا فضلا عن ذلك أن يلح بشدة على الامبراطور ليسدد التعويضات المتأخرة . ولما كان ماكريمبوليتس قد تعهد بأن يتمتع الجنوبيون فى الامبراطورية اليونانية بنفس المعاملة التى يتمتع بها البيزيون ، فقد كلف السفير بأن يجمع المعلومات الصحيحة عن أملكهم والحقوق الممنوحة لهم ، والأعباء المفروضة عليهم ، حتى يتسنى له المطالبة بالمساواة فى المعاملة ، استنادا الى أدق المعلومات والتفاصيل . وأخيرا فيما يختص بالجلالية الرئيسية ، أوصى بأن يبذل كل ما فى وسعه ليحصل للجنوبيين على مستودعات وأرصفة فى العاصمة : وعليه أن يختار بالأولى المنطقة الواقعة بين حى البنادقة وبين قصر الطاغية انجيلوس Angelos أو المكان المجاور للبيرفورم Perforum (٢) ، فإن استعصى عليه الحصول على موقع فى الداخل فعليه على الأقل أن يطالب بمكان فى بيرا (٣) بصفة مؤقتة مع التحفظ بأنه اذا حدث فى يوم ما أن رخص لسائر الجاليات اللاتينية بالاقامة فى المدينة ، فانه يجب أن يحفظ للجنوبيين بها مستودعات وأرصفة ، ويجب على الحكومة اليونانية منذ الآن أن تعين للسفير مواقع هذه المستودعات والأرصفة .

(١) نحد هذه التعديلات والاصافات بعد نص المعاهدة مباشرة فى .

-- Le lib. jur. I, 184-186.

(٢) Cf. Nicét, p. 719, 742; Paspatis, Journal du Syllogos de Cons-
tantinople, VI, 148, VII, 90 et B. p. 141.

(٣) * (حى فى القسطنطينية - المترجم)

وتحت الحاج مورتا ، تنازل مانويل أخيرا للجنويين عن حي في داخل المدينة (أبريل ومايو ١١٧٠) (١) ، في المنطقة المسماة كوبياريون Coparion (أو كوبريا Coparia) على مقربة من حي بيزا ، واذ أبلغ مورتا حكومته بنتيجة مساعيه ، كان له الحق في أن يتوقع منها حفاوة أحسن مما استقبلت بها مشروعه في أكتوبر ١١٦٩ . وحين وصل الى جنوا ، رجد بها سفراء يونانيين ينتظرون عودته ليحصلوا على اجابة حاسمة ، وكانوا قد وصلوا هناك في شهر يونية ١١٧٠ ومعهم مبلغ كبير من المال ، ولم يكن هذا المبلغ هو التعويض الذي كثيرا ما طالب به الجنويون عن الخسائر التي لحقت بهم في حيهيم القديم بالقسطنطينية ، ولكنه منحة خالصة أرسلها مانويل لاستمالة الحكومة الجنوية واقتناعها بحمل السلاح ضد أسرة هوهنشناوفن . ولعل السفراء في محادثاتهم قد أضفوا على الفكر الحقيقي للامبراطور تأكيد أقوى مما أثبتته هذا في كتابه ، غير أن كلامهم لم يكن يتوافق مع التقرير الشفوي الذي قدمه أميكو عن مفاوضاته مع البلاط البيزنطي . ورغم ما قد يبدو غامضا أو متناقضا في هذه القضية كلها ، فلم يكن هناك ما يدعو حكومة جنوا الى الارتياح في نوايا السفراء . غير أن قبول الهدية التي أرسلها مانويل قد يكون بمثابة تصريح قاطع لصالح الامبراطور اليوناني ضد الامبراطور الألماني ، وهذا هو ما حرصت حكومة جنوا على تجنبه ، ومن ثم أخطرت السفراء بأنه ليس في وسعها أن تقبل الهدية (٢) ، فعاد هؤلاء بنقودهم . ومع ذلك كان من الضروري التخفيف شكلا من هذا الرفض ، وكان أميكو هو الذي كلف أيضا بالذهاب الى القسطنطينية لتقديم بعض التفسيرات في هذا الخصوص (٣) . ورجع الامبراطور دون صعوبة عن مشروعه الخاص بالتحالف واكتفى بوعده من حكومة جنوا بالا تعقد أى تحالف ضده مع أية شخصية متوجة أو غير متوجة ، وأن تتعاون في الدفاع عن الامبراطورية في حالة وقوع هجوم خارجي تشنه قوات كبيرة ، وذلك بالطريقة المنصوص عليها في التعليمات المسلمة قبلا لاميكو دي مورتا ووافق الامبراطور من ناحيته على منح الجنويين حيا داخل عاصمته ، وخفض رسوم الجمارك الى ٤٪ ، وأيد وعده بتقديم منحة سنوية دفع مقدما وفي الحال أقساطها السنوية العشرة الأولى (٤) . ولم يتمتع الجنويون طويلا وفي سلام بحيهيم الجديد ، فقد أغار عليهم منافسوه ، مثلما

(١) نشر وثيقتي التنازل هاتين ديز يموني Desimoni في نهاية كتابه :
Memoria sui quartieri dei Genovesi a Constantinopoli nel secolo XII, dans
le Giornal. ligust. 1874 (p. 178 et ss.)
Annal. Jan. p. 90 91; Lib. jur. I, 254 et s. (٢)
Annal. Jan. p. 86. (٣)
Miklosich et Muller, Acta graeca, III, 25 et ss. (33-36); Sauli, (٤)
Della colonia dei Genovesi in Galata, II, 194 et s. ; M. Langer, p. 170..

حدثت في عام ١١٦٢ ، فهدموا بيوتهم ، ونهبوا أموالهم . وألقى الامبراطور مسؤولية هذه الأحداث على البنادقة ، كما سنرى فيما بعد ، كما يتهممهم المؤرخ كيمايوس باقترافها . غير أن الناس في جنوا لم يكونوا من هذا الرأي ، وتنبين ذلك في التعليمات المرسلة في عام ١١٧٤ الى السفير جريمالدي Grimaldi اذ نجد فيها بين سائر طلبات التعويض مطالب مختلفة متعلقة بالخسائر التي لحقت بالجنويين بسبب الغارة التي وقعت على حبيهم الجديد ، ونطالع فيها أيضا أن الامبراطور اعتبر البنادقة مسئولين عن ذلك ، ومن ثم وضع أموالهم تحت الحراسة ، ولكنهم لم يكونوا الجناة الحقيقيين . وكان جريمالدي آخر سفير لجنوا لدى الامبراطور مانويل ، وكان مكلفا أيضا ، بالإضافة الى المطالب السابق ذكرها ، بطلب تعويضات عن أضرار لحقت بمواطنين جنويين في البر وفي البحر في جهات تابعة للامبراطورية اليونانية ، وإضافة كنيسة قائمة على مشارف الحى ، وبضع منازل تفصل الحى عن البحر ، ورصيف ثان . وليس هناك أية معلومات عن نتيجة هذه المهمة ، ولا يوجد شيء خلاف التعليمات التي شرحتها آنفا (١) .

أما بيزا فانها ثابرت منذ زمن مبكر على اتباع سياسة جبيلية (الجبليون : اسم أطلق في ايطاليا على أنصار الأباطرة الرومان الجرمانيين ، في مقابل الجولفيين انصار البابوات واستقلال ايطاليا - المترجم) ، ولم تكن هذه بالتأكيد هي الطريقة الملائمة للحصول على منافع من مانويل . ففي أواخر عام ١١٦١ وصل سفيران من هذه الجمهورية ، هما كوكو جريفي Cocco Griffi ورائيرى بوتاكشى Runieri Bottacci الى بلاط مانويل لعقد معاهدة جديدة . ووضع مانويل شرطا مسبقا أنه في حالة قيام حرب بين آل هوهنشتاوفن والامبراطورية اليونانية تتعهد بيزا بأن ترفض للأولين كل مساندة ، أدبية كانت أو مادية . ولكى يحمل السفيرين على قبول هذا الشرط ، استخدم حجته المعتادة ، وهي الوعد بتقديم اعانات مالية ضخمة . ولما كانت بيزا عازمة على أن تبقى مخلصه للعلم الجبلى ، مهما كان الأمر ، فانها رفضت هذا الشرط ، وتوقفت المفاوضات عند هذا الحد (٢) . وانهز السفيران فرصة اقامتهما طويلا في القسطنطينية فعلا على تنفيذ مرسوم للقناصلة البيزين صدر في عام ١١٦٠ (٣) ، وينص على أن كل الرسوم التي تدفعها السفن التي ترسو عند الأرصفة البيزية ، والضرائب التي تحصل على استعمال الموازين والمكاييل

(١) لم يعرض سول هذه التعليمات الا بكيفية ناقصة : Sauli, 1. c. p. 183-188.

(٢) Marang, Annal Pis. p. 246 et s.

— عاد بوتاكشى الى وطنه في ٢٩ من يولية ١١٦٢ ، وعاد كوكو جريفي في ٢٢ من يولية

١١٦٣ .

Doc. sulle relaz. tosc. p. 8. et s., 10.

(٣)

التي تملكها الجالية ، وإيجار المنازل الممنوحة للمستعمرة ، والمبالغ المخصصة لمؤسسات خيرية ، الخ ، وباختصار كل إيرادات المستعمرة البيزية يجب أن تسلم لصندوق كاتدرائية بيزا في القسطنطينية ، فضلا على ذلك لا يمكن بيع كنوز كنيسة بيزا في القسطنطينية ، أو رهنها أو استعمالها في أغراض ذات نفع عام دون ترخيص الوكيل المفوض بالكاتدرائية . وهكذا فنقل الثروة التي تملكها المستعمرة من إدارة علمانية الى إدارة كنسية كان المقصود على ما يبدو بوضوح جعلها في مأمن من مشروعات الامبراطور الذي كان الجميع يخشون جشعه واستبداده ، وثبت بعد قليل أن هذا الاجراء كان ثمرة بصيرة حكيمة : ذلك أن استافورتى Astaforte سفير الامبراطور أوقع باللاتينيين كل ضروب الكيد والأذى ، ووصلت جرأته الى حد مصادرة مبلغ من المال كان بيزي قد حصل عليه بموجب وصية لصالح بعض أعمال البر . وفي العصر نفسه نقل مانويل بالقوة الى البيزيين الى خارج المدينة ، ولم تزل بواعث هذا العمل مجهولة (١) ، فهل كانت راجعة الى الخلاف السياسى الذى ظهر واضحا بعد بعثة عام ١١٦١ ؟ أم بسبب العداء الذى أبداه البيزيون ضد الجالية الجنوبية الصغيرة ، ثم تحول في الفترة الأخيرة الى عنف مكشوف ؟ أم لعل هذا الاجراء كان تنفيذا لأحد مشروعات الامبراطور ، يتغيا تطهير العاصمة من العناصر الأجنبية (٢) التي كانت متأهبة دوما للتآمر مع الأعداء الخارجين ، الأمر الذى يمثل خطرا مستمرا على الأمن العام ؟ وفي رأينا أن الباعث الأخير هو الصحيح ، إذ أراد الامبراطور فى عام ١١٦٩ أن يخرج الجنوبيين من المدينة . ولسنا نملك عناصر تحدد لنا تاريخ طرد البيزيين ، ولكن لنا أن نؤكد أن الأمر لم يكن يتعلق بطردهم من الامبراطورية كما يزعم ماران Marin (٣) ، وانما اكتفى مانويل بطردهم من الحى الذى كانوا يشغلونه داخل المدينة ، وتخصيص حى آخر لهم ، أقل ملاءمة لهم بطبيعة الحال ، ويقع على الضفة المقابلة من البسفور (ربما من ناحية سكودارى ، أو غلطة) ، وهذا هو كل شئ . ثم ان هذا النفي لم يكن طويلا الأمد . ولكى تستعيد بيزا رضاء الامبراطور ، بعثت اليه فى شهر نوفمبر ١١٦٨ القنصل البرتوس بولسى Abbertus Bulsi ، والفقيه المشهور بورجنديوس Burgundius (٤) ، والكونت ماركوس Marcus وذهب الثلاثة أولا الى راجوزة Raguse (*) حيث مضوا فى ١٣ من مايو ١١٦٩ معاهدة بين المدينتين (٥) ، وقضوا بالقسطنطينية عام ١١٧٠ كله ، وبهذا

Doc. sulle relaz tosc. p. 54.

(١)

Benj. de Tudèl., I, ٤5.

(٢) نفى كذلك اليهود الى بيرا ، انظر :

Storia del commercio dei Veneziani, III, 118.

(٣)

(٤) بخصوص هذه الشخصية انظر :

Savigny, Gesch des R. Rechtes im Mittelater, 2e éd. IV, 394-410.

(*) (راجوزة مدينة بيوجسلافيا ، وهى الآن دبروفنك - المترجم)

Monumenta spectantia historiam Slavorum meridionalium (éd. (٥)

Ljubic). Zagrab. 1868, I, p. 10.

العام أرخ الاتفاق الذي عقده مع مانويل ، ثم عادوا الى وطنهم في ٩ من نوفمبر ١١٧١ ، واستصحبوا معهم في عودتهم ثلاثة سفراء يونانيين مكلفين بتسوية كل التفاصيل (١) . ومال الامبراطور الى التساهل ، ورخص للبيزنتين باستعادة الأماكن التي كانوا يشغلونها في القسطنطينية ، وعلى العكس من ذلك كان على قنصله بيزا أن يقسموا يمين الولاء له ، ويتعهدوا بأن يعتبروا لاغيا وكان لم يكن كل التزام تعقده الجمهورية نحو أى أشخاص ، متوجين أو غير متوجين ، اذا كان الالتزام يتعارض مع هذا القسم (٢) . ووعد الامبراطور ، فضلا عن ذلك بتحسين حالة الأرصفة المخصصة للبيزنتين ، وتسليم المدينة ورئيس أساقفتها الهدايا التي نصت عليها المعاهدات ، وكانت محتجزة منذ خمس عشرة سنة (٣) . ويبدو أن السفراء اليونانيين قد عادوا الى القسطنطينية في بداية عام ١١٧٢ ومعهم المعاهدة مصدقا عليها من سلطات بيزا ، والغالب أن البيزنتين حصلوا آنئذ على التصريح بعودتهم الى حيزهم القديم .

ولم يهمل الامبراطور في هذه الأثناء مشروعاته الخاصة بإيطاليا ، وضاعف جهوده للتقدم فيها ، ولكنه كان يصطدم بعقبات في كل الاتجاهات . لقد استطاع في عدد كبير من المدن أن يضم الى قضيته بعض الأفراد (٤) ، الا أن الأغلبية أبدت عدم استعدادها للتمرد على امبراطور ألمانيا والوقوف في حبال الامبراطور اليوناني . وكانت أنكونا وحدها هي التي شنت من هذه الظاهرة : فمنذ أن أعاد مانويل الاستيلاء على كورفو ، فكر في أن يجعلها مركزا للأسلحة والعمليات الحربية . ولم يقل المؤرخ كيناهوس الذي ذكر هذه المعلومة شيئا عن السبب في فشل المشروع ، هل كان ذلك بسبب عجز القائد اليوناني المكلف بالتنفيذ ، أو بتأثير البنادقة سرا (٥) . وبعد مضي بضع سنين ، نظم مانويل في أنكونا مركزا للتعبئة من أجل حربه ضد النورمان . غير أن عملاءه لم يكتفوا بجمع قوات من المرتزقة ، ولكنهم كلفوا بوجوازي ثغر أنكونا وسادتها بالعمل في هذا السبيل : واعتزم مانويل أن يعيد في حالة نجاحه تنظيم اكسرخسية ، (حكومة عسكرية بيزنطية - المترجم) ، أنكونا ، فيستطيع بهذه الوسيلة أن

(١) Marang, Annal Pis p. 262, ad an. 1172 (more Pisano), Ind. 5 (commencant au 24 Sept. 1171).

(٢) بلغنا نص هذه المعاهدة مدمجة في وثيقة لاحقة للامبراطور اسحق ، وقد نشر النص

اليونانية مكلوسدن ومولر Acta graeca, III, 13 et s.) وباللاتينية (Dal Borgo, pp. 155 et s.)
(les doc. sull' relaz. tox p. 45, 54)

وباللغتين في :

Marank, op. c.

(٣)

Nicét, p. 262.

(٤)

Cinnam, p. 102.

(٥)

يهزم البندقية ويذلها ، فهو لم ينس مما أنزلت به من ذل واهانة أمام كورفو (١) (*) كذلك لم يكن البنادقة من ناحيتهم يجهلون الأخطار التي تحيق بحريتهم السياسية وتفوقهم التجاري في البحر الأدرياتي (٢) اذا نجح اليونانيون في توطيد أقدامهم في هذه المنطقة واحياء تجارة انكونا ، وكانوا من جهة أخرى يحقدون على الامبراطور بسبب منحه الجنويين أحياء تجارية ومزايا ، وهم منافسوه في أسواق الشرق الأدنى . وأخذت وشائج الصداقة القديمة التي كانت تربط البندقية بالامبراطورية اليونانية تتراخي يوما بعد يوم، ولم يبق الا نقطة واحدة تتلاقى عندها مصالحهما المشتركة ، وكان هذا الأمر هو وحده الذي منع انقطاع العلاقات : فالواقع أن البندقية كانت عضوا من أشد أعضاء اتحاد المدن اللمباردية حماسة ، وكانت تعمل بكل قوتها ، كما يعمل الامبراطور اليوناني على طرد الامبراطور فردريك بارباروسا من ايطاليا . ويبدو أنها هي التي كانت تتفاوض مع الامبراطور اليوناني لكي يقر الاعانات المالية التي تمر عن طريقها للاتفاق على كفاح اللمبارديين ضد آل هوهنشتاوفن (٣) . ومن الصعب تحديد السبب الذي أدى الى انقطاع العلاقات بصورة نهائية (٤) . وثمة سجل تاريخي حرر بعد مرور خمسين سنة على هذه الأحداث Historia ducum Veneticorum يذكر عدة بواعث اسهمت في هذا الانقطاع : فقد تكون الغيرة ، والغضب ، والخوف قد أثرت في نفس مانويل ، الغيرة من الثروات التي يملكها البنادقة ، والغضب لرفضهم التآلف الذي عرضه عليهم ، وأخيرا الخوف من نشاطهم وقدرتهم (٥) . ويبدو أن المؤرخ ، عند ذكره الباعث الثاني ، قد أخذ في اعتباره الأحداث التي رواها داندولو Dandolo فيما بعد وبمزيد من التفاصيل (٦) . يقول هذا الكاتب ان مانويل وعد ملك صقلية الشاب أن يزوجه ابنته ، ثم رجع بعد ذلك فيما وعد به (٧) ، واذ توقع أن تؤدي هذه الاهانة الى نشوب حرب بينهما ، فانه جعل يجس نبض البنادقة ليعرف ما اذا كانوا في هذه الحالة ينحازون اليه ، فكان جواب البنادقة عليه

(١) * (اكسرخسيه ، حكومة عسكرية بيزنطية - المترجم)

Cinnam, p. 170; Sudendorf, Registrum, II, 131 et ss.; Annal. Colon. max. dans Pertz SS. XVII, 767; Epist. Frederici I, dans Otto Fris., ibid, XX 348 et s. ; Rogevinus, ibid, 428.

(٢) على الضفة الشرقية من البحر الادرياتي انحازت سبالاتو ، وتراو ، وراجوزه الى مانويل ، كما أن زارا ثارت على البندقية .

Cinnam, p. 228-231; Vignati, Storia dipl. della lega lombarda, (٣) p. 145; cf. Prutz, Friedrich I, I, 354; II, 100 et s., 373.

Dand, p. 292-294; Appendini, Notizie sulle antichità dei Ragusei, (٤) I, 267.

Mon. Germ. SS. XIV, 78. (٥)

Murat, SS. XII, 291. (٦)

Romuald . Salern, dans Pertz, SS. XIX, 436, 439 et Nicét, p. 221 et s. (٧)

بالنفسى . غير أن مؤرخا آخر جديرا بكل الثقة ، وهو روموالد دى ساليرن
 يجعل هذه الواقعة فى عام ١١٧٢ أى عاما بعد Romuald de Salerne
 وقوع الكارثة التى جلبت على البنادقة غضب مانويل . وعلى ذلك فليس فى
 وسعنا أن نقبل الباعث الذى قدمه واندولو دون أن نصادف مصاعب تتعلق
 بتاريخ الأحداث . ومع ذلك فليس هذا سببا يدعو الى ما أشارت Veneticorum
 l'Historia ducum . فربما كان فى ذهن الكاتب اقتراح آخر بالتحالف ،
 ومن الأسف أنه لم يذكر القصد بمزيد من الايضاح . ومن بين المؤرخين
 اليونانيين ينسب نيكتاس الخطأ كله الى غطرسة البنادقة التى لم يعد مانويل
 يحتملها ، ولكنه لا يذكر أية واقعة ايجابية على أنها الباعث على انقطاع
 العلاقات (١) . وعلى العكس من ذلك يروى كيناموس الأمور على الوجه الآتى ،
 فيقول ان البنادقة المقيمين بالقسطنطينية أساءوا جهازا معاملة اللومبارديين ،
 وهو يقصد بهذه التسمية دون شك الجنويين (٢) ، وذلك بدعى أن هؤلاء
 نقضوا معاهدات التحالف القديمة ، قدموا منازلهم تدميرا ، وأنزلوا بهم
 خسائر لا تعد ولا تحصى ، ومن ثم حملهم الامبراطور مسئولية اصلاح الأضرار
 التى أوقعوها ، وحكم عليهم باعادة بناء منازل اللومبارديين ، وتعويضهم عن
 الخسائر التى حدثت نتيجة لأفعالهم . ولكن البنادقة لم ينصاعوا لهذا الحكم ،
 بل انهم هددوا اليونانيين بغارة كتلك الغارة التى راح ضحيتها الامبراطور
 يوجنا . وكان هذا أمرا فوق ما يمكن احتماله ، ولم يكن ثمة مجال للتردد ،
 وهذا ما استقر عليه رأى مانويل ، ومن ثم اعتقلهم جميعا فى يوم واحد . هذه
 الرواية تعتمد على وقائع تاريخية : ففى الفترة التى نتحدث عنها وقعت غارة
 على الجنويين فى حيهم ، وكان هذا الحى ، كما عرفنا من البيان الذى سلم
 للسفير الجنوى جريبالدى (١١٧٤) هو نفس الحى الذى منحوه قبل ذلك
 بوقت قليل (بمقتضى « مرسوم ذهبى » صادر فى شهر أبريل ١١٧٠) فى
 منطقة كوباريا Coparia . وألقى مانويل مسئولية هذا الفعل على
 البنادقة فصادر كل ما فى حوزتهم من أموال (٣) . ومع ذلك ففى جنوا ، لم
 يتهم الأهالى البنادقة بارتكاب هذه الأفعال (٤) . أما من ناحية الامبراطور ، فان
 الاتهام الذى وجه ضدهم ، والعقوبة التى وقعت عليهم ، لم يكونا سوى تهديد
 للأعمال العدوانية التى نحاول أن نعرف سببها . وليس ثمة شاهد واحد ممن
 استشهدنا بهم يؤيد رواية كيناموس ، فهو من بين كل المؤرخين المعاصرين
 الوحيد الذى يتحدث عن غارة قام بها البنادقة على حى الجنويين فى

Nicét. p. 222 et s.

(١)

(٢) يستخدم كيناموس كلمة « لومبارديون » كمرادف للجنويين ، راجع صفحة ١٠ .

Sauli, op. c. II, 185.

(٣)

Sauli, op. c.

(٤)

القسطنطينية (١) . ويبدو لنا أنه من الأوفق أن نتمشى مع بيانات ال
Historia ducum Venetiorum (٢) ونبحث عن السبب في غضب
مانويل ، وخيبة الأمل التي انتابته حين جس مشاعر « الولاية » عن طريق بعض
الوسطاء فاصطدم برفض مطلق لسياسته في إيطاليا ، بل وعزم ثابت على
مناهضة هذه السياسة إذا صمم على تثبيت أقدامه نهائيا على الضفة اليسرى
من البحر الأدرياتي وبخاصة أن يتخذ مدينة أنكونا نقطة ارتكاز له . ولعلنا
نضيف الى هذا السبب أن منظر الثروات الضخمة التي جمعها بنادقة
القسطنطينية قد أثارت جشعه (٣) إذ أنه كان في حاجة الى الكثير من المال ليواصل
الحروب التي تورط فيها ، والاتفاق على أساليب الرشوة التي كان يستخدمها
بسعاء ، وضروب البذخ التي يمارسها . ورغم الأعباء التي كان يثقل بها كاهل
رعينه ، فإن خزانة الدولة لم تكن كافية للوفاء بمطالبه (٤) . وشعر الدوق
ميشيل الثاني Michel II - الذي كان يتولى الحكم وقتئذ - بالخطر الذي
يتهدد مواطنيه ، فمنع بوجه عام الرحلات الى رومانيا (٥) . وردا على هذا الخطر ،
أرسل مانويل بعثة وكلفها بدعوة البنادقة الى العودة كما حدث في الماضي ، ضمن
لهم السفراء أمنًا تامًا على أموالهم ، كالأمين الذي يتمتعون به في بلدهم ،
وأضافوا أن في عزم الامبراطور أن يمنحهم امتيازًا مطلقًا بممارسة التجارة في
كل أنحاء الامبراطورية . فوقع الدوق في الفخ ، وأذن لمواطنيه بالعودة الى
رومانيا ، بل وأمرهم بذلك . وسافر عشرون ألف شخص مزودين بأموال كثيرة ،
ومسلحين تسليحًا جيدًا ، وفي صحبتهم سفيران : سباستيانو زيانى ، وأوربو
ماسيتروبييترو . وجدد لهم مانويل تعهده ، وضاعف لهم من آيات الصداقة
حتى يمحو الشكوك التي لم يستطع السفراء أنفسهم أن يبدوها . وفي هذه
الأثناء حشد قوات عسكرية كثيرة في المدينة ، وزود أسوارها وقصورها بمعدات
الدفاع . وحين أكمل استعداداته أصدر أمره بالقبض على كل البنادقة ومصادرة
أموالهم ، واحتجاز سفنهم : وكان ذلك في ١٢ من مارس عام ١١٧١ (٦) . ومن
القسطنطينية وحدها راح ١٠٠٠٠ من البنادقة ضحية هذا الاعتداء . ولما كانت
السجون غير كافية لاحتوائهم ، كان لابد من حبس جزء منهم في بعض الأديرة .
وصدر الأمر ذاته ليعم في الامبراطورية ، بل ونفذ في ذات يوم صدوره

Langer, op. cit., p. 171, note 3.

(١) انظر الشرح في :

Hist. ducum, Venet, 1, c.

(٢)

Hist. ducum, Venet, 1, c.

(٣)

Nicét p. 265 et ss.; Tafel, Komnenen und Normannen, p. 14 et ss.

(٤)

Dandolo, p. 291.

(٥) يقول داندولو أن هذا الخطر كان في عام ١١٦٨ :

(٦) كان هذا عيد القديس جريجوار :

Cronaca di Marco, Arch stor, ital, VIII, p. 260.

نفسه (١) ، وفي الميرو Almyro نجح عدد من البنادقة فى الهرب (٢) ، غير أن القليل هم الذين أنيحت لهم بالاجمال هذه الفرصة ، ولما لم يكن فى المستطاع إيواء المسجونين جميعا ، اضطر الامبراطور بعد بضعة أيام أن يطلق سراح عدد منهم بكفالة . وأبحر الكثير من هؤلاء ، ومعظمهم من العزاب ، وعلى متن سفينة كبيرة من سفن البحرية الامبراطورية ، وضعت برانها تحت تصرفهم ، والربان بندقى الأصل ، وأقلعت السفينة مع ربح مواتية . وطوردت السفينة ، ولكنها استطاعت الافلات من القذائف والنيران اليونانية ، فلم يصيبها ضرر (٣) .

كان مانويل يتمتع بخليط غير عادى من الشجاعة العسكرية التى لا شك فيها ، والمكر والخداع اللذين حلا عند الرومان ذوى الأخلاق المخلة محل البسالة الزائلة : ولم يعلم البنادقة ذلك الا بعد فوات الأوان ، وفى غير صالحهم . وفى البندقية كان الرعب أول انطباع لهذا العمل فى نفوس الأهالى ، وكانت أول فكرة طرأت لهم أن يرسلوا سفراء يطلبون من الامبراطور تفسيراً عن تصرفه العجيب ، الا أنه عند وصول الهاربين من الميرو ، وحين علم الأهالى بغدر الامبراطور ، وما حل بضحاياه من مصائب ، تغلبت فى نفوسهم الرغبة فى الانتقام على سائر المشاعر ، ونسوا فكرة ارسال وفد ، وأصبحت الحرب ضالتهم المنشودة . وفى بضعة أيام تم تجهيز مائة سفينة حربية جديدة وعشرين ناقلة ، وصدر الأمر الى كل الغائبين بالعودة الى البندقية قبل نهاية شهر أغسطس للاستراك فى الحملة ، وعلى سكان استريا ودالماشيا أن ينضموا الى الحملة فى منتصف الطريق . وأقلع الأسطول فى أواخر شهر سبتمبر تحت قيادة الدوق نفسه ، وخرب فى طريقه شواطئ اليونان وجزره ، ولكن ما أن وصل الى جزيرة نجرى بونت (ابويية - ايفيا حالياً - المترجم) حتى توقف فجأة : فقد تراخى الدوق ، واستمع مرة أخرى الى اليونانيين ، وعاد أسلوب المفاوضة معهم . وأمضى الجيش الشتاء فى جزيرة خيو ، وهناك أصاب صفوف الجيش وباء أهلك خلقا كثيرا ، ولم يعرف سبب الوباء ، وشاع أن الامبراطور سقم ينابيع الماء والنبيل . ونقل المعسكر مرارا الى جهات أخرى ، ورغم كل ما بذل فى هذا الشأن من علاج ، كان عدد ضحايا الوباء يزداد يوما بعد يوم ، ولم يعد الجيش قادرا على المقاومة بعد أن ضعف جنده ، وطوقه أسطول العدو .

Annal Venet. breves, Mon. Germ, SS, XIV, 72 l'hist duc, 1, c. p. 78 (١)

et s.; Mori da Canale, p. 312; la Cronaca di Marco, 1, 1, c.; Dandolo, p. 293; Cinnam, p. 282; Nicét, p. 223.

Hist. duc. Venet p. 79.

(٢)

Cinnam, p. 283; Nicét, p. 223; Taf. et Thom, I, 168.

(٣)

وأخيرا ، وبعد عيد القيامة عام ١١٧٢ ، قر العزم على العودة الى البندقية (١) . وهكذا بدأت هذه الحملة بحماسة ، وبدت وكأنها سوف تلتهم كل شيء ، وشنت العديد من الغارات ، ومارست الكثير من أعمال التخريب على طول الشواطئ (٢) ، ولكنها بالاجمال انتهت دون أن تنجز عملا حاسما ، ودون أن تجبر الامبراطور على ارضاء البنادقة ، وأن يرد لهم حق الانتفاع بأحيائهم وسائر أموالهم . ولم يصل السفراء الذين بعثهم الدوج مرتين الى القسطنطينية الى أية نتيجة . وترث الامبراطور أولا ، وترك الأمور تأخذ مجراها ببطء . غير أنه عندما راح الوباء يشتت صفوف أعدائه ، لم يبد عليه أى استعداد لتوقيع معاهدة شبيهة بالتى كانوا يطالبونه بها ، بل انه تحول الى التهديد ، ولم يعد يتحدث فى شيء خلاف ايقاع الهزيمة المنكرة بالبنادقة .

يقول المؤرخ ماركو (٣) ، انه ما أن عاد الدوق الى البندقية الذى قامت هذه الحملة التعسة بناء على أمره حتى بدأ يعلل العدة لتسليحات جديدة ، ولكن مانويل جعل هذه التسليحات عديمة الجدوى بأن أطلق سراح كل البنادقة المسجونين . ورغم أن ماركو كتب ما كتبه بعد انقضاء مائة سنة على هذه الأحداث ، فانه كان يملك بوجه عام معلومات وافية ، ولكنه اقترف خطأ فى هذا الخصوص . فأولا ، اغتيل الدوق المشار اليه بعد عودته (فى مايو ١٩٧٢) دون أن يتاح له وقت للتفكير فى شن حملة ثانية ، وثانيا ، لم يتعجل مانويل كثيرا فى اطلاق سراح أسراه ، بل انقضت عدة سنوات فى مفاوضات عقيلة (٤) ، وظلت تجارة البندقية مع بيزنطية منقطعة زمنا طويلا (٥) . ولا بد من التسليم بأن السياسة التى اتبعها البنادقة طوال هذا الوقت لم تكن ملائمة لأن تقرهم من الامبراطور . ولم يقنع البنادقة بدفع العرب الى محاربة الامبراطور (٦) ، ولكنهم أمدوا كريستيان ، رئيس أساقفة ماينس ، ومستشار فردريك الأول بالتعزيزات اللازمة لحصار مدينة أنكونا التى كانت نصف يونانية (٧) . ولكن

(١) Hist. duc. Venet. p. 79 et s.; la Cronica di Marco, p. 260 et s.; Dandolo, p. 293-296; Cinnam. p. 283-286; Nicélas, p. 224 et s.

(٢) كان الهدف من احدى هذه الغارات مدينة الميرو ، واحترقت فيها سفينة للجنوبيين الذين كانوا يدافعون عن المدينة ، وكانت هذه الواقعة من الاسباب التى حلت بهم الى مطالبة مانويل بتعويضات عن طريق جريمالدى : (Sauli, II, 185).

Archiv. stor. ital VIII, 261. (٣)

Hist. duc. Venet. p. 81 ; Dandolo, p. 298 et s. (٤)

Hist duc. Venet. p. 81. (٥)

Cinnam. p. 286. (٦)

Romuald, Salern. p. 441; Hist duc. Venet. p. 81 et s.; Buoncompagni, (٧)
De obsidione Anconae, dans Murat. ss. VI, 929 et ss. Cinnam. p. 288
et s.; Taf. et Thom. I., 160.

هكذا المشروع أخفق بالفعل . وفي هذه الأثناء كانت العثات تروح وتجيء بين البندقية والقسطنطينية (١) : وأخيرا تعب البنادقة من التفاوض مع خصم يتهرب باستمرار ، فتحالفوا ضده مع وليم الثاني ملك صقلية (١١٧٥) . ونحن اذا نظرنا الى نص المعاهدة بمعناها الحرفي ، نجد أنها لا تحتوى فى الظاهر الا على بنود تتعلق بالتجارة ، وضمانات متبادلة بشأن الملكيات الاقليمية ، ومواطني كل من الدولتين ولكن بامعان النظر فيها ، نكتشف فى النص سلاحا موجها ضد مانويل ، يتمثل فى حرمان أنصار الإمبراطور اليوناني من كل المزايا المنصوص عليها (٢) . ولم يخطئ الإمبراطور لحظة فى فهم مدلول هذا التحالف ، وفى الوقت نفسه طرد الدوق كل سفرائه (٣) . ولم يكن الإمبراطور يخشى شيئا كخشيتته من تحالف الدول الغربية ضده (٤) ، ولذلك رأى من الحكمة أن يستسلم ، فأعاد الى البنادقة الحقوق التى كان قد منحها اياهم فى الوقت الذى جعلهم فى طبقة ال *burgenses* . ووضعهم هذا الاجراء الجديد على قدم المساواة مع اليونانيين ، وأصدر مرسوما باطلاق سراح الأسرى ، وأن ترد لهم الخزانة أموالهم التى صودرت . ونيكتاس هو الكاتب الوحيد الذى يذكر هذا الصلح الذى تم بين مانويل والبنادقة (٥) . والغريب أنه يبدو أن داندولو لم يعلم شيئا عن هذا الخصوص ، بل يقول ان أسرى مانويل لم يطلق سراحهم الا فى عهد اندرونيكوس (١١٨٢ - ١١٨٥) تحت الحاح الدوق ، وان هذا الإمبراطور وعدهم بتعويض يصرف اليهم على أقساط سنوية (٦) . الا أن داندولو جاء فى زمن لاحق لنيكتاس ، فهو ليس جدير بالثقة التى يستحقها الأخير ، ولهذا السبب أيضا أخذ ماران Marin ورومانين Romanin برواية الأخير (٧) .

ومع ذلك حين نفكر فى كل الخلافات التى جرت ، ليس فقط بين مانويل والبنادقة ، ولكن أيضا بينه وبين سائر الأمم التجارية ، ندهش من أن رعاياه اليونانيين كانوا يعتبرون عليه بالذات ميلا المفرط الى اللاتينيين . والواقع كان فى خدمته على الدوام عدد كبير من هؤلاء ، وكان يأوى عنده المنفيين ، ويجد

(١) Streit, Venedig und die Wendung des vierten Kreuzzugs gegen Costantinopel, p. 40 et s. not, 118.

Taf. et Thom. I, 173; cf. Dandolo, p. 301. (٢)

Dandolo, p. 301. (٣)

Nicét. p. 260. (٤)

Nicét. p. 225 et s.; Taf. et Thom. I, 207, 210. (٥)

Dandolo, p. 309. (٦)

Marin, III, 166 et s.; Romanin, 11, 118. (٧)

المتذمرون عنده الحفاوة والحماية ، والتأييد لمؤامراتهم(١) . وإذا كان قد أقام
العراقيل أمام الحركة التي تجذب تجار الغرب الى امبراطوريته ، فان هذا لم
يكن عنده مسألة مبدأ . ويقول نيكثاس بحق انه دعاهم الى المجيء وسعى الى
استخدامهم بوسائل بارعة (٢) : هذا صحيح ، الا أن المشروعات الطموحة التي
كان يخفيها وراء ما يبديه لهم من مودة ومجاملة ، والقيود غير المحتملة التي
وضعها على حرية المستوطنين استثارت سخطهم ، وأدت في الكثير من الأحيان
الى انقطاع العلاقات التجارية . ثم ان المدن التجارية الرئيسية في ايطاليا كانت
تدين له بأمالك استعمارية كبيرة ، وزاد عدد الايطاليين المقيمين في اليونان
في عهده زيادة كبيرة . ويقدر اوستات Eustathe عدد اللاتينيين المقيمين
بالقسطنطينية في حوالى عام ١١٨٠ (عام وفاته) بأكثر من ٦٠٠٠٠ شخص
(٣) . ويمكن التسليم بأن هؤلاء اللاتينيين كانوا كلهم تقريباً من
الايطاليين ، وأن عدد البنادقة يفوق كثيراً عدد البيزيين والجنوئين ، وفي
الحشد المختلط الذي يملأ عاصمة الامبراطورية ، كان هؤلاء الألوف من اللاتينيين
على صلة بتجار قادمين من الكثير من مختلف البلاد . وقد وصف بنيامين دى
توديل (٥) الذى زار القسطنطينية في عصر مانويل الحركة التجارية وصفاً
بارعاً ، ولم يعرف سوى بغداد ، مدينة يمكن أن تنافس القسطنطينية في هذا
المجال ، ويقول ان المرأ يصادف هناك تجاراً من بابل ، وبلاد ما بين النهرين ،
وميديا ، وفارس ، ومصر ، وفلسطين ، وروسيا . وهنغاريا . وبلاد البتشيبيج
Petchenegues أو Patginaguic (*) ، وبلغاريا (٦) ، ولبارديا ، وأسبانيا ، وثمة
مصادر أخرى تتيح لنا تكملة هذا التعداد : فهناك الأرمن (٧) المقيمون بأعداد
كبيرة في القسطنطينية ، ويزاولون بها التجارة التي يبدو أنها مهنة شعبهم ،
ويذكر الكثير من الفقرات صراحة أن «بيري» Ibères مضيق القوقاز كانوا يذهبون

(١) Guill de Tyr, XXII, 10; Eustathe, Oraison funèbre de Manuel, dans ses Opuscules, éd. Tafel, p. 200, et dans Tafel, Komn. und Normann p. 15, 16; Nicét. p. 266-268. Robert Antissiod., dans les Monè Germ. ss. XXVI, 247.

Nicét. p. 260. (٢)

Opusc, p. 275 ; Tafel, Komnen, und Normann, p. 98. (٣)

(٤) نجد ٢٠٠٠٠ بندقي يلبون دعوة مانويل ، و ١٠٠٠ بيزى (فى عام ١١٦٢) يهاجمون متاجر الجنوئين ، و ٣٠٠ جنوى فقط يدافعون عنها .

Ed. Asher, I, ٥1. (٥)

Tafel : De Thessalonica ejusque agro, p. 509. (٦)

Anne Comnène, éd. Bonn II, p. 3; Nicét. p. 527. (٧)

كثيرا الى القسطنطينية لأعمال تجارية (١) . وكثيرا ما شاهدوا هناك تجار من الترك واليونانيين قادمين من حدود ولايات سلطان قونية (Iconium) (٢)

وكان اللاتينيون يشكلون بتعدادهم الكبير النواة الأساسية لهذا الحشد المختلط ، لذلك راحوا يؤدون هناك بالتدريج دورا ممتازا . وبعد وفاة مانويل (في ٢٤ من سبتمبر عام ١١٨٠) تولت أرملته مع نديمه « بروتوسيباست » الكسيوس الحكم باسم الامبراطور الكسيوس الذي كان وقتئذ قاصرا ، فأساءا التصرف حتى كرههما الشعب ، وكانا قد ورتا عن مانويل ايثاره اللاتينيين ، وأجبرتبهما العزلة التي ما لبثت أن أحاطت بهما أن يلتصبا عون الأجانب (٣) أما الوطنيون فانهم لجأوا الى اندرونيقوس andronic الذي تشجع بهم فدبر ثورة في عام ١١٨٢ وزحف على العاصمة . وأعد البروتوسيباست الكسيوس جيشا لصدده ، وكان اللاتينيون أهم عنصر في هذا الجيش ، أغرتهم الرواتب الكبيرة ، أو على الأقل كان هذا الخبر الذي ذاع بين اليونانيين ، ووعد الكسيوس بأن يسمح لهم بنهب العاصمة واسترقاق اليونانيين (٤) .

ولم يلبث اليونانيون أن هجروا المدينة بجمعهم . أما اللاتينيون فقد حاصروهم من ناحية جيش اندرونيقوس ، ومن ناحية أخرى أنصاره الذين بقوا في المدينة ، فانهمزوا أمام الأعداء المتفوقين عليهم عددا (ربيع ١١٨٢) . وانصب حقد اليونانيين على كل الغربيين ، وأعقب ذلك بمذبحة مرعبة لم يسلم منها النساء والأطفال ، ولا المرضى في مستشفى فرسان القديس يوحنا (٥) ، وانطلقت أعنة الأحقاد الدينية ، فعومل القساوسة ورجال الدين معاملة وحشية ، وبيع عدد كبير من اللاتينيين بيع الرقيق الى الكفار ، واستطاع ٤٠٠٠ منهم بعد ذلك أن يشتروا حريتهم ، أما منازلهم التي كانوا قد كدسوا فيها ثروات هائلة ، فانها نهبت ، وأحرقت الكنائس التي احتوى بداخلها الكثير ، وأحياء كاملة صارت رمادا (٦) . ويبدو أن القسم المسالم من السكان هو الذي كان به أكبر عدد من الضحايا ، واستطاع الكثير من الناس أن يهربوا ويركبوا

Nicét. p. 303, 499. (١)

Nicét. p. 653 et s. (٢)

Gull, de Tyr, XXII, 6, 10, 11 ; Eustathe, Opusc, éd. Tafel, p. 275. (٣)

Nicét. p. 321; Eustathe, 1. c. (٤)

Ducange, Cpol, christ lib, IV, p. 163, éd. Paris, et du même, annotations à l'oeuvre de Villehardouin, p. 302 et s. (٥)

Guill. de Tyr, XXII, 12; Nicétas, p. 326. (٦)

— لم يكن البيزيون وحدهم الذين أصيبوا ، فقد أصيب مثلهم الجنويون ، انظر :

— Tafel, Komnenen und Normannen, p. 117 ; Eustathe, Opusc, p. 280.

— وبلغت قيمة التعويضات التي طالبوا بها ٢٢٨٠٠٠ هيبير ، انظر : Miklosich et Muller, III, 27.

السفن • وامتلأ أربع وأربعون سفينة راسية في الميناء بالهاربين . وبعها بضع سفن أخرى استطاعت أن تلحق الواحدة بعد الأخرى بمعظم الأسطول • ويؤكد « أوستاث » أن قذائف أطلقت على السفن ، ولكن يبدو أنه كان مخطئا في ذلك • وينفى نيكيتاس هذه الواقعة نفيا باتا ، ويقول ان الفارين أمضوا ليلتهم أمام جزر الأمراء Princes ، ولم تعلق السفن الا في اليوم التالي بعد أن أشعل هؤلاء النار في بعض الأديرة • ويضيف وليم (من صور) أن الهاربين قد اتسع لهم الوقت والقدرة ليأخذوا بثأرهم بصورة أكمل مما قال بها نيكيتاس • وكان أسطولهم قويا وكثير العدد فاستطاعوا أن ينهبوا ويدمروا ضفتي البسفور وبحر بروبونس (مرمرة حاليا - المترجم) دون أن يخسروا شيئا ، وقتلوا البورجوازيين ، والقساوسة ، والرهبان في المدن والأديرة القائمة على الساحل ، ونهبوا كنوز الأديرة ، والأشياء الثمينة التي وضعها هناك سكان القسطنطينية أثناء نشوب الحرب ، وبذلك عوضوا كثيرا من خسائرهم • ودلت السنة النيران التي ارتفعت من الأديرة المحترقة لسادة الامبراطورية الجدد أن الانتقام لم يتأخر كثيرا (١) • ولما تمت هذه الأعمال ، ألق الهاربون متجهين صوب سواحل الأرخبيل اليونانية ، ولم يكن ثمة ما يمنعهم من النزول حيثما شاءوا ، وممارسة اعتداءاتهم الرهيبة بكل ما يملكون من قوة ، ومضوا ينهبون ويدمرون حتى وصلوا الى تسالونيك وتجاوزوها (٢) •

وفي هذه الأثناء ، كان اندرونيقوس قد وطد دعائم سلطته • ونحن اذا فكرنا أنه يدين بعلو مكانته الى رد فعل نصفه سياسى ونصفه ديني ، موجه ضد الأجانب (٣) ، وأن جريمة مانويل والكسيوس كانت في أعين اليونانيين أنهما أنعما بأكثر مما ينبغي على هؤلاء الأجانب ، فانا نجد من الصعب أن نقر مع داندولو أنه لكي يوطد هذا الامبراطور مركزه على العرش ، أطلق سراح التجار الذين سجنهم مانويل ، ووعد البنادقة بتعويضات • وقد أوضحنا فيما قبل أن مانويل اتخذ الخطوات الأولى للوصول الى مصالحة • وعلى العكس من ذلك استهل النظام الجديد بفتنة خربت في خلالها أحياء التجار الايطاليين في القسطنطينية • ومع ذلك لم يكن التخريب تاما ، وحتى في عهد اندرونيقوس

Guill. de Tyr, XXII, 13 : cf. Nicéas, 1. c. (١)

Nicéas, 1. c. : Eustathe, Opux, éd. Tafel, p. 284; Tafel, Komnenen und Normannen, p. 127 et s. (٢)

يذكر Guill de Tyr أيضا سواحل تساليا • وثمة سفينة محملة بالفارين أفلعت في البحر المتوسط وسقطت في أيدي القرصان المصريين •

(٣) كان هذا أيضا هو الرأي السائد في الغرب ، انظر :

— Sigeberth Gemblac. contin. Agnicinct. dans Pertz, ss. VI, p. 421 et s.; Rob. Altissiod., ibid. XXVI, 247.

بقى فى هذه الأحياء بعض الحياة . وتنبئنا بعض الاتفاقات الفردية المنعقدة فى سنتى ١١٨٣/١١٨٤ أن بعض البنادقة على الأقل كانوا يملكون عفارات فى القسطنطينية فى ذلك العصر (١) . غير أن معظم اللاتينيين هجروا مدينة عمها الفوضى والعسف دون رادع . ولم تقاس الأقاليم قدر ما قاسته العاصمة ، وبقي بها دون شك الكثير من التجار الأجانب الذين استشعروا بعض الجوانب الطيبة من طبيعة اندرونيقوس : فالواقع أن هذا الأمير اكتسب شهرة هو جدير بها ، اذ تعقب بشدة لم تكن معروفة حتى ذلك الحين الموظفين الطغاة ، وغير النزهاء فى الجمارك والادارة المالية ، ودافع بقوة عن الممتلكات الأجنبية ضد حق الكسر والتعطيل .

ومع ذلك جلب هذا المقتصب على نفسه أعداء كثيرين حتى لم يعد فى الامكان التسليم بطول عهده فى الحكم . وبالإضافة الى اللاتينيين الذين هلكوا على يديه ، فان عددا كبيرا من اليونانيين ، وبخاصة فى صفوف النبلاء وكبار الموظفين كانوا يرغبون فى سقوطه . هؤلاء المتذمرون ، ومنهم بطبيعة الحال البيزيون والجنويون ، راحوا يستقصون آراء أمراء الشرق والغرب لينظموا حملة ضد طاغية بيزنطة (٢) . وثمة أمير واحد ، هو ملك صقلية قام بالفعل عام ١١٨٥ بإعداد حملة ضد الامبراطورية اليونانية ، وكانت هذه الحملة بالنسبة لليونانيين بمثابة انتقام ١١٨٢ (٣) ، ولكنها كانت عنده بمثابة تنفيذ لحظة فتوحات واصل القيام بها اسماء بأجداده . ولم يشترك فى هذه الحرب أية جمهورية من جمهوريات شمال ايطاليا التجارية . غير أنه حين أقبل النورمان وعسكروا أمام تسالونيك ، اتصل بهم اللاتينيون (اى التجار الايطاليون) وسهلوا لهم الاستيلاء على الموقع . وسوف نتحدث عن ذلك فيما بعد .

ومع أسرة انجيلوس الحاكمة ، بدأ عهد جديد أكثر ملائمة للمستوطنات الايطالية فى الامبراطورية البيزنطية . ويبدو أن كلا الطرفين كان يشعر بالحاجة الى توثيق روابط الصداقة . وكان الامبراطور اسحق (١١٨٥ - ١١٩٥) يدرك تماما هذه الضرورة لأنه كان يتوقع دواما غزوا جديدا من ناحية النورمان أو حملة صليبية موجهة ضد الامبراطورية اليونانية ، ولم يكن كبير الثقة فى جيشه أو بحريته ، لذلك فحين وصل الى بلاطه أوتافيو كويرينى ، وبيثرو ، وجيوفانى

(١) Taf. et Tom. I, 177; Flamin. Cornelius, Eccl. venet. III, 13.

(٢) Eustathe, Opux, p. 280 ; trad. par Tafel, dans Komnenen und Normannen, p. 117-119.

(٣) هذا هو رأى أوستاث (Opux, p. 275) فهو بعد نيكيتاس الكاتب الجدير بالثقة من جانب اليونانيين ، فى كل ما يتعلق بهذه الحرب . أما المفاوضات التى أدت الى عقد الصلح فى عام ١١٨٧ فقد تحدث عنها : Rob. Altiss., 1. c. p. 253.

ميشيل (١) مبعوثين من قبل الدوج أوريو ماسترويتيرو ، استقبلهم كأصدقاء قدامى عائدين بعد خصام طويل ، وعقد معهم معاهدة تحالف ، هجوى ودفاعى ، كان أول نتائجها أن وضع تحت تصرفه أسطولان يستطيع أن يواجه بهما أى عدو . فقد نص فى المعاهدة على أن تقدم البندقية فى حالة الغزو أسطولا يضارع فى قوته قوة الأسطول اليونانى ، وتكفل الامبراطور بنفقات التسليح ، والتزويد بالرجال والعتاد ، كما يلتزم البنادقة المستوطنون بالامبراطورية اليونانية اما بالاشتراك فى الدفاع عن المدينة التى يقيمون بها ، أو الخدمة فى السفن المرسلة من البندقية ، أو فى سفن الامبراطور ، ويجب أن تستقل السفن ثلاثة رجال من كل أربعة ، ويعفى من ذلك فقط الأشخاص الذين يقل عمرهم عن عشرين سنة أو يزيد على الستين (٢) . فاذا تم الاستيلاء على بعض المدن فى خلال حرب مشتركة ، كان للبنادقة الحق فى أن يكون لهم فى كل مدينة كنيسة وحى ورصيف ، وحرية التجارة ، والاعفاء من الرسوم الجمركية . ولا يجوز للامبراطور أن يعقد صلحا دون أن يشمل الصلح البندقية . وصدق « اسحق » من جهته على المزايا التى منحها أسلافه للجمهورية بموجب مراسيم ، وتعهد برد كل الأموال التى صنادرها مانويل من البنادقة فى ١٢ من مارس ١١٧١ ، ولا يقتصر الرد على أحيائهم ، بل يشمل كل أموالهم المنقولة ، سواء انتقلت الى أيدي الأفراد ، أو استخدمت فى تزيين القصور والأديرة ، أو سلمت للخزانة العامة (٣) . وفى حالات كثيرة لم يكن فى الامكان تنفيذ هذا الحكم لاستحالة معرفة مصير الأشياء . غير أن البنادقة عرفوا كيف يتصرفون حتى لا يضيع منهم شيء : فبدلا من الأشياء التى لم يكن من الممكن العثور عليها ، استولوا على الأحياء والأرصعة التى يشغلها الفرنسيون والألمان ، ويكفل هذا لهم دخلا سنويا يقدر بخمسين « هيبير » ، كما احتفظوا لأنفسهم بحق مقاضاة كل يونانى يثبت لهم أنه امتلك شيئا يخص أحد البنادقة فى عهد مانويل ولم يردده . وأخيرا حصلوا من اسحق على تعويضات مالية كبيرة . وقد وقعت معاهدة التحالف فى عام ١١٨٧ ، وعقدت الاتفاقيات الأخيرة فى شهر يونية عام ١١٨٩ بمعرفة السفراء

Dandolo, p. 313 ; Taf et Thom, I, 207.

(١)

(٢) يتخذ رومانى (Romanin, Storia di Venezia, II, 127, note 3) هذه الفقرة من المعاهدة أساسا لاحصاء عدد المستوطنين البنادقة فى الامبراطورية اليونانية ، ولكن منطلقه هذا غير صحيح ، لانه يذكر أن المستوطنين قد زودوا بالعتاد الاسطول كله الذى جهز فى البندقية (من ٤٠ الى ١٠٠ سفينة حربية ، بكل منها ٤٠ جديفا) ، فى حين أن الاسطول أفلح من البندقية بمعذاته واسلحته ، سفينة حربية ، بكل منها ٤٠ جديفا) ، فى حين أن الاسطول أفلح من البندقية بمعذاته واسلحته ، ولم يجهز المستوطنون الا بضع سفن .

(٣) كل ما سبق تجده فى الخطابات الثلاثة باعتماد الامتيازات الممنوحة من اسحق فى غضون شهر فبراير من عام ١١٧٨ . انظر : Taf, et Thom, I, 178-203.

أنفسهم ، وانضم اليهم سفيران آخران : بيترو كورنارو ، ودومنيكو ميمو (١) ،
الا أن الامبراطور لم يوافق عليها على ما يبدو الا بعد مفاوضات طويلة : فمن جهة
كان يشق عليه أن يلتزم بدفع مبالغ نقدية ، ومن جهة أخرى كان يتردد في
منح البنادقة أماكن أكثر في القسطنطينية ، لعلمه بمدى استهجان اليونانيين
لهذا العمل . ومع ذلك فانه بدد وساوسه ، وبرر كربه هذا بأن البنادقة من
جنس وثيق الصلة بجنس اليونانيين ، وأنهم كانوا فيما مضى تابعين للامبراطورية
ومع ذلك كانت أمامه مشاكل محيرة : ذلك أن الممتلكات التي جرد منها الفرنسيين
والألمان دون اخطارهم مسبقا بذلك كانوا قد منحوها بمقتضى « مرسوم ذهبي »
امبراطوري ، فكان لابد له من مبرر ، فتعلل بأن الامتيازات لم تمنح للفرنسيين
والألمان باعتبارهم هيئة تنتمي الى أمة ، وانما منحت لبعض الأفراد دون ارتباط
بوطنهم ، ومن ثم لم يكن التمتع بهذه الملكيات مكفولا لهم . وهكذا تم التغلب على
كل المضاعف لصالح البنادقة ، فلم يسترد هؤلاء حيهم القديم من الأفراد
والجماعات التي اقتسموها في أعقاب أحداث عام ١١٧١ فحسب ، ولكنهم
حصلوا أيضا على مواقع جديدة في المدينة .

وفي عام ١١٩٥ خلع اسحق من العرش ، خلعه أخوه الذي حكم باسم
الكسيوس الثالث Alexis III حتى الحملة الصليبية الرابعة . وفي البداية
كانت الجمهورية تأمل في أن تواصل معه العلاقات الطيبة التي كانت تقيمها مع
سلفه ، ولكن المفاوضات استغرقت معه زمنا طويلا دون نتيجة : فقد أرسل
الدوق واندولو الى القسطنطينية ثلاث سفارات (٢) ، وأرسل الكسيوس الى
البندقية سفارتين (٣) ، كل ذلك دون جدوى . وكان من العسير علينا أن نفهم
نوع المضاعف التي صاحبت هذه المفاوضات الكثيرة ، لولا الكشف الموفق الذي
وقع عليه لسيد أرمينجو M. Armingaud في «أرشيف فراري» Archivio dei Frari
تلك هي التعليمات (٤) المحررة لسفارة البندقية الثالثة المكونة من انريكو
بافينجا يوزو ، وأندريا دوتانو (٥) . وكان للكسيوس مصلحة تفوق مصلحة
سلفه اسحق في أن تتحلل البندقية من التزاماتها حيال مملكة صقلية
وامبراطورية ألمانيا ، ومن ثم ترتدى بكليتها في أحضان الامبراطورية اليونانية .
ولما بدأت المفاوضات كان الامبراطور هنري السادس يفكر في مشروعات كبيرة
بخصوص بيزنطة ، ولكنه توفي فجأة في عام ١١٩٧ .

Taf. et Thom. I, 206-211; cf. Dandolo, p. 314.

(١)

Dandolo, p. 318; Taf. et Thom. I, 249; Streit, op. cit., notes 185, 192

(٢)

Dand. 1, c.; Taf. et Thom. 1, c.

(٣)

Armingaud, Venise et le Bas-empire, dans les Archives des missions
scientif., 2e serie, IV, p. 426 et s., not.

(٤)

(٥) يبدو أن بنديتو جريلوني لم يلحق بهم الا فيما بعد .

Taf. et Thom. I, 199 et s.

(٦)

ولكن خليفته الملك فيليب السوابي ، صهر اسحق الامبراطور المخلوع من العرش ، وحما الأمير الكسيوس انجيلوس ، كان خصما لا يستهان به . أما البنادقة فانهم حريصين على الاحتفاظ بحرية التصرف : كانوا يريدون عقد تحالف مع بيزنطة ، ولكنهم لم يكونوا يريدون أن تسوء العلاقات بينهم وبين صقلية أو ألمانيا . وانتهى أمر السفيرين بيتر وميشيل ، واوتافيانو كويريني بأن يضا مع الكسيوس في ٢٧ من سبتمبر ١١٩٨ نصوص معاهدة (١) كانت بنوع ما نسخة مطابقة لمعاهدة التحالف الهجومي والدفاعي في عام ١١٨٧ ، فيما عدا أنهما نجحا في نحو النص المتعلق بصقلية ، وكان الامبراطور مرتاحا الى هذا المحو لأن صقلية لم تعد وقتئذ مرهوبة الجانب ، بل انه على العكس من ذلك توصل الى اضافة نص نلتزم به الجمهورية بمعاملة ملك ألمانيا على أنه عدو اذا هو غزا رومانيا (٢) . ويقول داندولو (٣) أن السفراء لم يستطيعوا أن يحملوا الامبراطور على توقيع هذه المعاهدة الا بالتهديد بتأييد مطالبة الأمير الكسيوس انجيلوس بالعرش . ولم تنفذ هذه الفكرة الا ابان الحملة الصليبية الرابعة . وعلى أية حال لم تستخدم هذه الفكرة في تلك الآونة الا كوسيلة للضغط ، وعدلت عنها في المعاهدة لأنها التزمت أن تنحاز الى الامبراطور ضد الحامي الطبيعي للمطالب بالعرش . وشملت المعاهدة ، بخلاف تجديد الخلف الدفاعي والهجومي ، تصريحاً خاصاً لصالح البندقية ينص على الاعفاء من الرسوم على البضائع ، سواء كانت مصنوعة في الداخل أو مستوردة من الخارج ، ومهما كانت وسيلة النقل المستعملة ، مركبات أو دواب أو سفن ، وجاء في أعقاب هذا التصريح تعداد صادق ودقيق لكل ولايات الامبراطورية المفتوحة للتجار ليقوموا فيها بجولاتهم التجارية . والواقع أن البنادقة كانوا يصادفون في بعض الولايات ، وخاصة في بعض الأقاليم التابعة للكنائس أو أديرة أو أملاك الدولة موظفين يدعون أن الاعفاء الممنوح لا يسرى على منطقتهم ، ومن ثم يفرضون عليهم ضرائب جزافية : ولذلك وضعت هذه القائمة درءا لهذا الوضع السيء . وكان لهذه القائمة فائدة كبيرة من الوجهة الجغرافية (٤) ، لأنها أكثر تفصيلا من القائمة التي من نوعها الملحق بمرسوم الكسيوس الأول لعام ١٠٨٢ والتي اقتصر على تعداد الموانئ والجزر أو المواقع التي يمكن الوصول اليها عن طريق

Ibid. I, 246 et ss. Cf. Dand., p. 319.. (١)

— التاريخ الحقيقي (للمعاهدة) هو اليوم الذي أقسم فيه السفراء البنادقة بمراعاة بنود المعاهدة ، ولم يصدق عليها الامبراطور الا في شهر نوفمبر .

Ibid. I, 254, 255. (٢)

Dand. p. 319. (٣)

(٤) اكتسب السيد تافل شهرة يسبقها ، بالتعليقات التي دمجها بأسفل Symbolae criticae geographiam. والشرح التفصيلية التي كتبها بكتاب Byzantinam spectantes, pars I (Abhandl. des hist. Cl. der K. bair. Akad., V, sect. 2, 1849).

البحر ، فى حين أن القائمة الأخرى تشمل كلا من المقاطعات البحرية والمقاطعات البرية الداخلية ، مما يثبت أن البنادقة كانوا يتوغلون فى داخل اقليم بنطس Hemipont وآسيا الصغرى . وأخيرا استطاع السفراء بعد مقاومة طويلة من جانب الامبراطور أن ينتزعوا منه امتيازاً متعلقاً بالمحكمة المختصة بالقضايا والمنازعات بين المستوطنين البنادقة وبين الرعايا اليونانيين ، وهذه نقطة سوف نعود إليها فيما بعد .

أما بالنسبة الى الجنوبيين والبيزيين فقد تأخر التعويض عن خسائرهم مدة أطول من مدة التعويض عن خسائر البنادقة . ففى حين تم صلح البنادقة مع اسحق انجيلوس فى عام ١١٨٧ ، فإن البيزيين لم يتوصلوا الى التفاهم معه الا فى شهر فبراير عام ١١٩٢ ، والجنويون فى ابريل من العام نفسه . والواقع ، رغم ما يقوله السيد كانالى Canale (١) أن السفيرين نيكولا مالونيه ، ولانفرانكو بيفيرى اللذين أوفدهما جمهورية جنوا فى عام ١١٨٦ لم يحصلوا على شيء (٢) ، وأعقبهما ثلاث سفارات لم تحرز أى نجاح (٣) : فمرة رفض اسحق مقابلة السفراء ، ومرة عرض سفيره الخاص قسطنطين ميزديوتاميتس مقترحات أكثر فائدة للجنوبيين ، فتنصل منها (الامبراطور) باعتبار أنها تجاوزت حدود تعليماته . والشئ الذى أزعج الامبراطور بنوع خاص هو مطالبة الجنوبيين بتعويضهم عن الأضرار التى لحقت بهم فى عهد اندرونيقوس ، وأن يتسلموا الهدايا التى كان على هذا الامبراطور أن يرسلها الى جنوا ولكنه احتجزها . وكان لاسحق بعض الحق فى أن يرفض مسئوليته عن تصرفات أندرونيقوس ، فلا مشاحة فى أنه اذا كان الجنوبيون قد عانوا من بعض المظالم ، فإنهم انتقموا لذلك انتقاماً شديداً . ومع ذلك كان الامبراطور مستعداً للتعامل مع الجنوبيين ، وشرح وجهة نظره فى خطابين وجه أحدهما الى الجنوى بالدوينو جويريكو (١١٨٨) والثانى الى «بورستات» محافظ جنوا ، مانيجولدو دى تيتوتشيو (١١٩١) (٤) . وردا على الخطاب الثانى أوفد المحافظ الى القسطنطينية جولييلمو توريللو ، وجويدو سبينولا ، وأعاد هذان السفيران المطالبة بالتعويضات . الا أن اسحق رفض أن ينساق فى هذا الطريق ، وقدم بدوره مطالبات بالتعويض عن أضرار أوقعها الجنوبيون ببعض السفن اليونانية ، وبعض سكان السواحل . وتبين استحالة الوصول الى اتفاق ، واستعد السفيران للعودة ، ولكن تم فى اللحظة الأخيرة عقد اتفاق : ذلك أن الطرفين سحباً مطالبهما ، وأقسما اليمين على الصفح

Nuova istorica di Genova, I, 319.

(١)

Annal, Jan, p. 101.

(٢)

Miklosich et Muller, Acta groeca, III, 1, 2 et s., 27; cf. Annal. (٣)

Jan, p. 103, 110, 113, 139, 140 ; Canale, op. 1, 436.

Miklosich et Muller, op. c. p. 1, 2 et s.

(٤)

عما مضى . ومن بين المسائل المشكو منها ، ذكر السفيران ما كان يقتصره الموظفون اليونانيون كثيرا من عسف بفرضهم رسما يزيد على ٤٪ على السفن الجنوبية ، وعرضت الحالة بنوع خاص بالنسبة الى السفينة التي قدم عليها هذان السفيران : وكان من رأيهما أن مجرد توقيع العقوبة لهذه المخالفة لأحكام المعاهدات غير كاف ، وطالبوا بتخفيض الرسوم الجمركية الى ٢٪ بالنسبة الى السفن الجنوبية التي ترسو عند القسطنطينية : ووافق الامبراطور على اداة تصرفات موظفيه التعسفية ، ولكنه تمسك بثبات بمسألة الرسوم الجمركية بنسبة ٤٪ ، وأمر بأن تطبق هذه الرسوم بنسبة واحدة في القسطنطينية وفي سائر أنحاء الامبراطورية (١) . أما بشأن باقى الطلبات فكان كريما ، اذ اضاف الى حى الجنوبيين القديم مجموعة من البيوت ، وضاعف حجم الرصيف القديم فالحق به رصيفا مجاورا ، ورفع رقم الهدايا المتصوص عليها لصالح الطائفة ، ورئيس أساقفة جنوا (٢) .

وتم الصلح مع البيزيين بكيفية مماثلة . ففي عام ١١٩٢ ، أوفد حاكم بيزا « تيديتشو Tedecii » ابن الكونت اوجولن Ugolin الى القسطنطينية سفيرين : رينيريوجاثاني ، والقاضى سيجيريوس . وطبقا للتعليمات التي أعطيت لهما ، طالبا ، كما فعل الجنوبيون ، بتعويضات عن الأضرار التي أصابتهم بفعل اندرونيقوس ومن جاء بعده ، بالإضافة الى ما يعادل الهدايا المتصوص عليها في المعاهدات والتي لم تسدد اليهم ، وكذا ايراد المخازن الذي حرموا منه منذ ذاك الحين ، وأخيرا رد الرسوم الاضافية التي فرضها لصالح التجار الجنوبيين بعض موظفى الجمارك اليونانيين : وبالغا أيضا في مطالبهما ، واستشاط اسحق غضبا حين طالب السفيران بسداد قرض تلقاه اندرونيقوس ، عدوه اللدود من تجار بيزيين في القدس في فترة طاف فيها البلاد مغامرا (٣) . وكان يمكن أن يستجيب لطلب بسداد قرض آخر كان أخوه وخليفته الكسيوس الثالث انجيلوس قد عقده مع بعض التجار البيزيين ليفتدى نفسه من الأسر لدى كونت طرابلس (٤) ، ولكنه رفض الاستماع الى هذا الطلب أيضا . وفي عام ١١٩٧ قدم سفراء آخرون هذا الطلب نفسه الى المقترض ذاته الذى أصبح

(١) تأيدت هذه الواقعة بالتعليمات المسلمة الى السفير اوتوبونو دللا كروتشى (١٢٠١) ، انظر : Sauli, Della colonia dei Genovesi in Galata, II, 198 et s. (٢) Miklosich et Muller, Acta graeca, III, 2٤-37; Silvestre de Sacy, Mém. de l'Institut, III, 1818, cf. Miklosich et Muller, 111, 24 et S.; Desimoni, dans le Giornale ligustico, 1874, p. 164.

(٣) فى خصوص اقامة اندرونيقوس فى القدس انظر : Nicét, p. 180 et ss.; Cinnam p. 250; Guill. de Tyr, XX, 2. (٤) la Lettre du levant dans le Presbyter Magnus, Pertz, ss. XVII, (٤) p. 511; Mon. hist. patr., Chartae, II, 1225.

بدوره امبراطورا ، وكان طلبهم هذا أكثر ملاءمة من الطلب الأول ، ولكنى لا أستطيع أن أؤكد أنه كان أكثر منه توفيقا (١) . ولتسوية هذه المطالب كلها بالجملة ، قدم اسحق قائمة بالأضرار التى أوقعها بعض البيزيين برعاياه فى بعض الأمور التى فصلها بالتحديد . واتفق الطرفان على إسقاط الماضى فى أغوار النسيان . وكان منح الامتيازات للبيزيين أمرا ميسورا ، ولم يضمن عليهم الامبراطور فى منحهم مزايا جديدة ، اذ وعد بزيادة الهدايا السنوية لكاتدرائية بيزا ورئيس أساقفتها ، وسمح بتوسيع المستوطنة البيزية فى القسطنطينية ، بشغل منازل وأرصعة جديدة . وفيما يختص بالضرائب ، كان مرسوم الكسبوس الأول يميز بين البضائع التى يستوردها البيزيون من بلدهم أو من أى جهة أخرى غير تابعة للامبراطورية اليونانية وبين منتجات الامبراطورية . فبالنسبة الى الأولى يدفع البيزيون ضريبة تعادل ٤٪ ، وبالنسبة الى الثانية يدفعون نفس الضريبة التى يدفعها اليونانيون . وبناء على طلب السفراء الغي اسحق هذا الفرق ، وقرر أن يخضع البيزيون من ذلك الحين لضريبة واحدة قدرها ٤٪ لجميع بضائعهم ، دون تمييز من حيث مصدرها .

ويمكن القول على وجه اليقين بأن اليونانيين استاءوا من المزايا التى منحها اسحق للاتينيين . وكان أهل القسطنطينية بنوع خاص يكرهون هؤلاء الدخلاء الذين يحتكرون القسم الأكبر من الأعمال التجارية ، ويفزون خطوة بعد أخرى فى الحى البحرى أكثر المواضع ملاءمة للحركة التجارية ، وقضوا بالخراب على الصناع والتجار الوطنيين ، ودفعوهم الى داخل المدينة ، وتأسفوا على عهد اندرونيفوس ، حين كان بوسعهم أن ينقضوا على اللاتينيين وينهبوا بيوتهم دون أن ينالهم أى عقاب . ونجد الدلالة على هذه الروح فى حدث وقع قبيل تتويج اسحق فى عام ١١٨٦ : فقد برز شخص يدعى الكسيوس براناس Alexis Branas يطالب بالعرش . وفقد الامبراطور رشده بعض

الشيء ، الا أن صهره كونراد دى مونفيررا Conrad de Montferrat حشد من اللاتينيين فى القسطنطينية جيشا صغيرا ولكنه قوى والحقيقة أن هؤلاء لم يكونوا من المستوطنين ، ولكنهم بالأحرى من الجنود المرتزقة الذين يجوبون البلاد ، ومن البحارة والمغامرين الذين يوجد منهم الكثير بالمدينة (٢) . وتولى كونراد قيادتهم ، وما لبث أن أنهى أمر براناس ، الا أن اللاتينيين ، وقد أسكرهم النصر ، اقتربوا كل ضروب العنف والأذى فى ضواحي العاصمة . وحين عادوا الى قواعدهم ، كانت أعمالهم قد جرحت مشاعر اليونانيين ، وغلت

Doc. sulle relaz. tox p. 72, au haut de la 2e colonne.

(١)

Eustathius, Opux. p. 200, cap. 18.

(٢)

فى قلوبهم مراحل العداوة ، فاحتشد الصناع واندفعوا بقضاهم وقضيتهم الى
أحياء النجار ليعتدوا عليهم . غير أن الوقت كان قد اتسع لسكان هذه
الأحياء ليأخذوا أهبتهم ، فتحصنوا خلف المتاريس ، وانتظروا المغيرين بقد
ثابتة ، وكان معظم هؤلاء سكارى غير مسلحين ، فقتلوا عددا منهم . وفى اليوم
التالى جدد الرعاع هجومهم ، وفى هذه المرة قام جنود الامبراطور باخضاعهم ،
وأعادوا الأمن الى نصابه . واذا كانت معاملة اسحق الطيبة للايطاليين قد
أغضبت رعاياه ، فمن الثابت أن الايطاليين لم يجازوه عن ذلك الا بالبحود .
ويبدو أن مانالهم فى عهدى مانويل واندرونيقوس من ضروب الطرد المتكررة
قد ترك فى نفوسهم ضغينة لا تفتت ضد اليونانيين . وكان فى وسع حكومات
المدن التجارية الايطالية أن تعقد أواصر السلام مع الامبراطور ، غير أن هذا
لم يكن ليمنع بعض الأفراد من الاستمرار فى مطاردة السفن اليونانية ، والاغارة
على السواحل . ولم يكن من النادر رؤية تاجر ، نعب من دوام المظالمة بسداد
دين يستحقه ، أو استغله أحد موظفى الجمارك دون وجه حق ، ينقلب قرصانا ،
ويسعى بوسائله الخاصة الى استعادة ماخسره . ويبدو أن الجنوبيين والبيزيين
كانوا أكثر من يعمل فى هذه المهنة (أى القرصنة) حمية وصلابة ، ويشكلون
القسم الأكبر من طائفة القراصنة الذين كانت تعج بهم المياه اليونانية .
وكانت حالة البحرية اليونانية السيئة للغاية تسمح لهم بأن يشنوا غارات
قوية . وفى صيف عام ١١٩٢ ، قام اثنان من القراصنة ، أحدهما جنوى
والآخر بيزى بغارة أثرت فى نفس اسحق بنوع خاص (١) . وكان اسم القبطان
الجنوى هو أول اسم يشد الأنظار فى الخطاب الذى كتبه الامبراطور شكابا من
هذا الاعتداء : ولهمس جراسوس Wilhelmus Grassus ، وهذا فى الواقع هو
نفس الشخصية التى نجدها فيما بعد أميرال مملكة صقلية ، وكونت مالطة ،
وهما انريكو بسكاتورى Enrico Pescatore ، اشهر كونت عرف بهذا
الاسم ، وكان تبعا لكل ما نعرفه عنه ، من أصل جنوى (٢) . وبعد أن زار
القرصانان رودس وسواحل آسيا الصغرى الجنوبية ، استوليا على سفينة أو
أكثر من سفن البنادقة القادمة من مصر متجهة الى القسطنطينية . وكان الاسطول
الفينيسى الصغير عائدا ببعض سفراء اسحق فى البلاط المصرى ، وبه بعثة
مرسلة من قبل صلاح الدين الى اسحق ، ومكلفة بأن تقدم له هدايا ، منها

(١) Miklosich et Muller, Acta graeca III, 37 et ss., 40 et ss.; Les Doc.
nulle relax, tox p. 66 et ss.; Desimoni, dans le Giornale ligustico.
1874, p. 165 et s.

— كتب الامبراطور اسحق ثلاثة خطابات يشكو فيها من هذه الاعتداءات .

(٢) Cf. winkelmann, Geschichte Friedrichs II, p. 362, et Forschungen
Zur deutschen Geschichte XII, 556; Huillard — Bréholles, Hist-dipl.
Frid. II, Introd., p. cxliii; Desimoni, dans le Giorn., ligust. 1876,
p. 222 et ss.

خيول ، وبغال ، وحيوانات برية ومستأنسة ، من مصر وليبيا . وسروج مذهبة ، ومرصعة باللآلئ والأحجار النمينة ، وحرائر ، وخشب الألوة ؛ وبلسم ، وعنبر (١) ، وبين الركاب أيضا بعض العملاء المكلفين من قبل اسحق وأخيه الكسيوس بشراء بضائع ثمينة لهما ، وتجار يونانيون وسوريون وغيرهم . وقتل القراصنة السفراء والتجار ، ولم يتركوا حيا سوى الغربيين ، واستولوا على كل ما وقع في أيديهم ، وعاملوا بمثل هذا سفينة لومباردية كان على متنها الأسقف باقوس Paphos الذي أسروه . ترى هل وقع القراصنة بالصدفة على السفينة التي تستقل السفراء اليونانيين والمصريين ؟ لنا أن نشك في ذلك حين نتذكر أن بعض البنادقة (ويقول البعض أنهم جنويون) قد استولوا في عام ١١٨٩ في صور على أثر اسلامي ثمين (سماه أحد المؤرخين خطأ idolum Saladini ، أى تحفة لصالح الدين) كان معدا للارسال الى القسطنطينية (٢) . أليس من المحتمل أن يكون هذان العمالان قد قصد بهما بث الاضطراب في روابط الصداقة بين اسحق وصلاح الدين ، ألد أعداء الدول الصليبية ، وكل من يساعدها ، وموضع مقت ورعب العالم المسيحي الغربي كله ؟ (٣) ومهما كان الأمر ، فإن قتل السفراء أثار سخط اسحق ، كذلك حاصره التجار اليونانيون الذين استولى القراصنة على بضائعهم ، وطالبوه بالراح ليعرضهم عن خسائهم . ولم يضيع الإمبراطور وقته ، بل أرسل الى جنوا وبيزا شكوى رسمية مرفقا بها طلبا بالتعويض ، وفي الوقت نفسه حجز على كمية من البضائع التي يملكها المستوطنون الجنويون والبيزيون (٤) في القسطنطينية ، وذلك لتهديئة نفوس الضحايا الذين عيل صبرهم ، وحتى يكون تحت يديه رهن تعادل قيمته قيمة الأشياء المقتصبة : وقد استبدل بهذا الرهن العيني بعد بضعة أيام كفيل مضمون . وعندما تلقت حكومة جنوا الشكوى أوفدت الى القسطنطينية بلدوينو جوريشيو Balduino Guercio ، وجويدو سبنيولا Gdido Spinola (١١٩٣) وكلفتهما بأن يتوسلا الى الامبراطور الا يحمل شعبا بأسره مسئولية جريمة اقترفها بعض الأفراد ،

(١) لهذا التعداد أهميته ، أولا لأنه يعطى فكرة عن نوع البضائع التي كانت تستورد كثيرا من مصر الى اليونان ، ثم لأنه لم يذكر هدية لا بد أن يذكرها اسحق لو أنه وجدها بالسفن القادمة : أقصد بذلك الصليب « الحقيقي » المشهور الذي وقع في أيدي صلاح الدين في معركة حطين (١١٨٧) .

Gesta Henrici II, éd. Stubbs, II, 52.

(٢)

Riezler (Forschungen X, 102); Monum. hist. patr., Chartae, II, 1226. (٣)

(٤) فقد الخطاب الأول الذي وجهه الإمبراطور الى مدينة بيزا ، ولا نعلم بوجوده الا عن طريق خطاب ثانٍ لخصت فيه الوقائع ، وينبئنا هذا الخطاب الثاني بالذات أن اسحق أراد أن يحصل على ضمان أكيد ، فصار بضائع يملكها بيزيون .

وأن يؤكدوا له أن المجرمين حكم عليهم بالنفى ، فإذا وطئت أقدامهم أرض الوطن فإنهم سوف يسلمون اليه . وفي أعقاب السفيرين أقبلت عن كنب سفينة تجارية تحمل مبالغ كافية لسداد التعويضات ، واستعادة الرهن المأخوذ من المستوطنين . واتبعت بيزا هذا السلوك نفسه . ففي بداية شهر يولية من عام ١١٩٣ قررت أن تبعث وفدا رسميا الى القسطنطينية (١) ، واضطلع البيزو Albizzo ابن البيزنوني Albizzzone وانريكو بارلاشيو Enrico Parlascio بهذه المهمة ، وقدموا للامبراطور كل ما يرغبه من ترصيات ، وحصلا منه على رفع الحجز الذي كان قد أمره به (٢) . وهكذا تلاشت غمامة كثيفة من التهديدات التي كان يمكن ، مع امبراطور من خلق آخر أن تنزل بالمستوطنات البيزية والجنوية في القسطنطينية كوارث يصعب اصلاحها .

وفي عام ١١٩٤ ، بينما كان السفراء البيزيون في القسطنطينية ، أقبل أسطول من خمس سفن يقودها قراصنة من مواطنيهم ، وألقت السفن مراسيها أمام أبيدوس Abydos ، وراحت تنهب أملاك اليونانيين وتوقف القوافل المتجهة الى القسطنطينية : وأرسل قناصلة بيزا ، ورؤساء المستوطنة البيزية في القسطنطينية ، والسفراء أنفسهم تحذيرات الى القراصنة ، ولكن دون جدوى . وأخيرا اقتربت سفن حربية يونانية وحملت القراصنة على الفرار . إلا أن سفن قراصنة أخرى اقبلت وحلت محل السفن الغارة ، وانقضت على السفن اليونانية ، الى أن اقتربت من القسطنطينية وصارت على مرمى البصر منها ، فحرقت بعض هذه السفن اليونانية ، وباعت سفنا أخرى ، وأعملت السلب والتقتيل في كل مكان . وأدرك الامبراطور مدى العار الذي سوف يلحق بحكومته اذا لم يتمكن من القضاء على هذا الاخلال بالأمن ، الا أنه لم يكن يملك القوة الكفيلة بذلك ، فبعث الى بيزا بمبعوثه جاك (٣) Jacques حاملا رسالة تفصح عن يأسه . وحصل جاك من قناصلة بيزا على تعهد بمطاردة القراصنة بقوة السلاح ، وتخليص رومانيا منهم . ولكن ما قيمة هذا العلاج بالنسبة الى هذا البلاء الشديد ؟ ثم ان الطبقة البورجوازية في بيزا رفضت المواثيق التي التزم بها قناصلتها . وتوقفت الأمور عند هذا الحد (٤) .

وفي فترات الاضطرابات العامة ، كانت المدن التجارية الإيطالية ، جنوا

Doc. sulle relax tox, p. 61 et ss. (١)

Ibid, p. 66 et s. (٢)

(٣) كان هذا الشخص بيزيا حسب مولده ، واعتقد انه هو نفسه جاك البيزي الذي أرسله اسحق للاقاة الجبش الصليبي بقيادة فردريك بارباروسا ، انظر :

Ansbertus, De expeditione Friderici, éd. Tauschinsky et Pangerl, p. 46;

Doc, sulle relax tox, p. 67, 69, 77, 78.

Doc. sulle relax tox, p. 66 et s., 72. (٤)

وبيزا بنوع خاص ، وكذا البندقية ، بدرجة أقل تتساهل مع أعمال القرصنة (١) ان لم تكن تشجعها - ولم تكن القرصنة تعرقل التجارة الوطنية ، لأن القراصنة كانوا يتسامحون دائما مع مواطنيهم ، ولكنها (أى القرصنة) كانت وبالا على الأعداء والمنافسين ، حتى دون اعلان حرب ، وكان فى المستطاع دائما التنصل من أعمال هؤلاء المغامرين . وعند نشوب الحرب ، كان لدى القوم بحارة شجعان ومدرّبون ، لا يعرفون الخوف ، مستعدون لخوض غمارها ، وشهود أكثر من زعيم قديم من زعماء القراصنة يتولى بصفته أمير حرب قيادة أسطول وطنه ، أو أسطول دولة صديقة (٢) . أما بالنسبة الى جزر البحر المتوسط وسواحلها التى لم يكن لها أسطول قوى يحميها ، فإن المصيبة كانت فادحة . وعندما عاد فيليب أوجست ملك فرنسا من فلسطين فى عام ١١٩١ زار جزر الأرخيبيل ، فوجد معظمها وقد هجره سكانه ، أو احتله بعض القراصنة . وكان « الميناء البيزى » الذى صادفه عند مصب نهر فينيكا Phinéca غربى مير Myre فى ليقيا Lyeie ينتسب اسمه دون شك الى وجود قراصنة جعلوا منه مأوى لهم أكثر منه الى تجار مسلمين يترددون عليه (٣) . ولاخضاع هؤلاء الذين يعكرون صفو الأمن والسلام كان لا بد من وجود بحرية قوية ، ولكن البحرية اليونانية كانت قد أصابها الانحلال باهمال الأباطرة أنفسهم . ففىما مضى كانت الأمم التجارية تخشى المخاطر التى تتعرض لها سفنها بتواجدها فى المياه اليونانية ، ومن ثم كانت تلتمس حماية السفن الحربية الأمبراطورية (٤) . أما فى عهد الكسيوس الثالث ، فانه هو نفسه الذى يطلب مساعدة القراصنة ضد نظائهم ، أو يسعى للتحالف مع دولة بحرية ليحارب قراصنة دولة أخرى : وسوف نرى مثالا لذلك فى موضع لاحق من هذه الدراسة .

وبعد انقضاء بضعة أيام على اعتلاء الكسيوس الثالث ، أخى اسحق وخليفته العرش (١١٩٥) ، دعا مدينة بيزا الى أن تبعث اليه بسفراء يجدد معهم المعاهدات القديمة . ولم يرد حاكم بيزا على هذه الدعوة الا فى صيف عام ١١٩٨ : وكان سفيراه فى هذا الخصوص هما أوجوتشيونى Ugucione

Les Annales génoises, p. 114.

(١)

- تحكى الحوليات الجنوبية أن بيزا استدعت قراصنتها فى عام ١١٩٦ لتعزيز الحرب ضد جنوا

(٢) فى تاريخ جنوا بنوع خاص أمثلة كثيرة من هذا النوع .

Gesta Henrici II, éd. Stubbs, II, 195, 198.

(٣)

Doc. sulle relaz. tox. p. 20 et ss.

(٤)

ابن لامبرتو بونو ، وبيترمودانو Pietro modano (١) وكانت التعليمات التي يحملانها تنص أولا على اعفاء مواطنيهما اعفاء تاما من الرسوم الجمركية ، أو على الأقل ، اذا لم يتمكن من ذلك فخفض هذه الرسوم الى ٤٪ بالاكثير ، وهذه هي في الواقع القيمة الرسمية منذ زمن بعيد ، ولكن كبيرا ما كان بعض موظفي الجمارك يطلبون أكثر منها ، فكان من الضروري على أية حال القضاء على هذا التعسف . وكان على السفراء فضلا عن ذلك أن يطلبوا إلغاء التفرقة في جمارك القسطنطينية مستقبلا بين السفن البيزية القادمة من بيزا مباشرة أو تلك القادمة من دكان ما من الاقليم البيزنطي ، والمعافاة من الرسوم الجمركية لصالح التجار البيزيين اذا أرادوا أن ينقلوا من مكان الى آخر بضائع بقيت معهم ، وذلك في أول سوق تصادفهم ، وأخيرا اذا أرادوا العودة الى بيزا أو الذهاب الى بلد آخر ، فلهم أن يحصلوا على اذن بمغادرة الأراضي اليونانية ومعهم بضائعهم دون اتخاذ أية اجراءات بشأنها ودون أن يدفعوا رسوما جديدة . وكان على السفراء ثالثا أن يحصلوا على زيادة في الهدايا السنوية ، وضم مجموعة من المنازل ورصيف الى الحى البيزى ، وكانت هذه المنازل والرصيف تشكل عائقا لحركة السكان . وأخيرا ، كان عليهم أن يعالجوا بضع مسائل متعلقة بمنشئات تسالونيكا ، وأليرو ، وسوف نعود الى ذلك فيما بعد . ولستنا نعرف ما اذا كان الامبراطور قد حقق كل هذه الرغبات ، ولكن الثابت أن قراره قد نشر في صورة مرسوم ذهبى محرر باليونانية واللاتينية : ذلك لأن فيكونت البيزيين كان عليه أن يدفع من أجل المرسوم نفسه أربعة « هيببر » وللتختم ثلاثة ، وريالا من عملة مانويل Manuellatus وبالنسبة الى المسائل الخاصة بتسالونيكا وأليرو ، أصدر الامبراطور مرسوما خاصا دفع الفيكونت أجر ترجمته ثلاثة « هيببر » ، الى رئيس المترجمين (٢) . وقد ضاعت هذه العملات .

ولكننا لم ننته بعد من التعليمات المسلمة الى السفراء البيزيين : فنحن نرى في هذه التعليمات أن هؤلاء السفراء يملكون السلطات الضرورية لعقد الصلح مع البندقية ، في حالة ما اذا أبدى سفراء الدوق ، أو قناصلته أو فيكونتات البنادقة في القسطنطينية أو قادتهم العسكريين الرغبة في ذلك

(١) اتخذت الاجراءات التمهيدية الأولى في شهر بولية ١١٩٧

(Doc, sulle relaz, tox, p. 69)

وتحمل التعليمات المعطاة للسفراء تاريخ ٦ سبتمبر ١١٩٧ ، ولكنها مصحوبة بملحق في ١٨ من يولية ١١٩٨ ، وعلى ذلك فلا يمكن أن يكون رحيل السفراء قبل هذا التاريخ . وكان بيزو مودانو في القسطنطينية في ٣٠ من بولية ١١٩٩ . (Doc, p. 78) ، كذلك كان جواز السفر المسلم الى السفيرين من أجل عودتهم يحمل هذا التاريخ :

— Doc, p. 79; Miklosich et Muller, Acta graeca III 48.

Ies Doc. sulle relaz, tox, p. 78.

(٢)

بصورة واضحة (١) . هذه المعلومة تثبت أن بيزا والبندقية كانتا فى وضع عدائى ، احدهما حبال الأخرى . والواقع أن هذه الحالة استمرت زمنا طويلا . ويؤكد نيكيتاس (٢) أنه فى عهد الامبراطور الكسيوس حاربت الاثنتان احدهما الأخرى ، أحيانا فى القسطنطينية (٣) ، وأحيانا فى البحر ، وتقاسما النجاح والفشل . وانهم الامبراطور بأنه كان يحرض سرا أحدهما ضد الأخرى الا أن التحريض لا يكفى لتبرير صراعات مسلحة بين الأمتين ، فقد كان هناك باعث آخر : فللهذه من بيزا الى القسطنطينية كان لابد من عبور البحر الأدريانى فى خط مستقيم ، لذلك كان سفراء بيزا فى بلاط الشرق يركبون السفن بوجه عام فى أنكونا (٤) وكان التجار يفضلون بلا شك سلوك هذا الطريق بدلا من اتخاذ طريق بحرى طويل بحذاء سواحل ايطاليا واليونان ، غير أن ما أعلنته البندقية على الملأ من سيطرتها وحدها على البحر الأدريانى كان أمرا مزعجا لجمهورية بيزا التى ترغب فى الأخرى فى أن يكون لها بعض المراكز على سواحل ايطاليا ودلماشيا ، وحرصت على أن تكفل لمواطنيها أمن الملاحة على البحر الأدريانى . هذه الحالة تفسر السبب الذى من أجله عقدت بيزا معاهدة صداقة مع راجوزه ، ويمكن فهم العلاقة المباشرة التى كانت قائمة بين هذه المعاهدة وبين المصالح التى كانت بيزا تدافع عنها فى القسطنطينية اذا تذكرنا أنها أبرمت أثناء مرور بعض السفراء البيزيين فى طريقهم الى عاصمة الامبراطورية اليونانية ، وأنه كان على الفيكونتات البيزيين فى القسطنطينية أن يجددوا كل سنة التعهد بمراعاة أحكام هذه المعاهدة (٥) ، وهذا الظرف نفسه يفسر العلاقات التى كانت قائمة بين بيزا وأنكونا (٦) ، وبينها وبين زارا (٧) : وأخيرا انفجار الصراعات بين المنافستين بعد سلام استمر خمس عشرة سنة ، وأمكن المحافظة عليه بفضل معاهدة عام ١١٨٠ (٨) التى تحددت مدتها أولا بخمس سنوات ثم مدت الى عشر سنوات أخرى (٩) .

سبق أن تحدثنا عن أسطول من القراصنة البيزيين الذين استقروا فى ابيدوس (فى عام ١١٩٣ أو ١١٩٤) ، واستثارت غاراتهم على الأراضى اليونانية

Toeche, Heinrich VI, p. 463, not 2.

(١)

Ed. Bonn, p. 713.

(٢)

Doc. sulle relaz. tox. p. 78.

(٣)

Doc. sulle relaz. tox. p. 62, 63.

(٤)

Monum. spect. hist. Slav. merid, I, 10.

(٥)

Doc. sulle relaz. tox. p. 21, 22

(٦)

(٧) معاهدة التجارة لعام ١١٨٨ :

Makuscev, Monum. hist. Slav. merid, I, 422 et ss. :

Doc. sulle relaz. tox. p. 20 et ss.

(٨)

Dandolo, p. 311.

(٩)

شكاوى اسحق ، ولعل هذه الغارات لم تكن على الأرجح سوى بداية لنشوب المعارك ، ذلك لأنها تدل على أن القرصان كانوا يريدون محاربة البنادقة (١) . وفى عام ١١٩٥ قام البيزيون بحملة فى البحر الأدريانى واستتاروا على ما يبدو ثورة فى مدينة بولا Pola ضد البندقية . ولكن فى شهر أغسطس خرج أسطول حربي يرافق قافلة من السفن التجارية من ميناء البندقية تحت قيادة جيوفانى موروسينى ، وروجيرو بريمارينى ، وبدأ بالقضاء على ثورة بولا ، ثم انطلق يطارد البيزيين ، وهاجم أسطول من ست سفن تجارية ، فأسر اثنتين منها فى عملية ، ثم سفينة نالتة ، وعاد الى البندقية ومعه أربعمئة أسير (٢) . وفى السنة التالية طلبت الجالية الفينيسية - وكانت تخشى على ما يبدو أعمالا ثأرية من جانب البيزيين المتربصين فى جزر الأرخبيل - طلبت المعونة من أسطول راس أمام أبيدوس . ولست أجد تفسيراً لسلوك قادة هذا الأسطول ، لأنهم رفضوا أمراً صدر اليهم من الدوق بالعودة ، وتحملوا مسؤولية البقاء فى الدردنيل (٣) . حدث هذا فى شهر مارس عام ١١٩٦ ، وفى أول سبتمبر من السنة نفسها ، تصالحت الجمهوريتان بشروط مناسبة لصالح مدينة بيزا (٤) . ولكن تبين من كل من التعليمات الصادرة الى السفيرين البيزيين اوجوتشيونى بونو ، وبيترو مودانو ، والسفيرين الفينيسيين انريكو نافيجاجوسو ، واندرىا دوناتو فى عام ١١٩٨ (٥) ، أن أياً من الطرفين لم يراع كثيراً الأوضاع السلمية بالنسبة الى الطرف الآخر . فالواقع أن البيزيين عادوا فى عام ١١٩٩ الى شن الغارات على البندقية ، وانطلق أحد أساطيلهم يجول قبالة برنديزى ليقطع الطريق على سفنها ، غير أن أسطولاً فينيسياً نجح فى فتح الطريق ، وارتد البيزيون على أعقابهم (٦) .

واستطال نزاع الخصمين على هذا النحو طوال عهد الكسيوس الثالث ، فلم يترك لجاليات القسطنطينية سوى لحظات قلائل من الهدوء والسكينة . وانحاز الامبراطور على ما يبدو بوضوح ضد البنادقة ، فأثقل كاهلهم بالضرائب رغم المعاهدات ، وآخر مرة بعد أخرى دفع التعويضات التى وعد بدفعها ، وانتهى الأمر ، من كثرة ماسييه لهم من ازعاج الى أن جعل منهم أعداء للامبراطورية (٧) . وعلى العكس من ذلك خص البيزيين برعايته ، وكثيراً

Dandolo, p. 66. (١)

Annal. Venet. brev. I, c. p. 72 : Chron. Justiniani, ibid. p. 91; (٢)

Mart da Canale, p. 338; Dandolo, p. 317.

Taf. et Thom. I, 216 et ss. (٣)

Toeche, Heinrich VI, p. 463; Cod. Ambr. Dandolo, p. 317 et s. (٤)

Armington, Op. c. p. 426 et s. (٥)

Dandolo, p. 319 et s.; Winkelmann, Acta imperue inedita, saec. (٦)

XIII, p. 470 et s., no. ٤83.

Nicét, p. 712 et s. (٧)

مازورهم بالسفن ليقاتلوا بها القراصنة أو غيرهم من الأعداء (١) . لسنا نذكر من ذلك سوى هثال واحد : فئمة جنوى يدعى جافوريو Gaffairo (٢) . كان يقوم برحلات كثيرة الى القسطنطينية بصفته تاجرا بسيطا مسالما : وفي حوالى عام ١١٩٨ تصدى له رجل مستغل جشع ، هو الأميرال ميشيل ستريفنوس ، أوقع عليه غرامة ظلما وعدوانا ، فاضطربت فى نفسه الرغبة فى الانتقام ، وتحول الى قرصان ونجح فى وضع الامبراطور فى مأزق حرج ، وبدأ على رأس أسطول كبير يغير على موانئ وجزر الأرخبيل ، ونهب ادراميتيوم Aderamyttium ، وهزم أسطولا من بلاتين سفينة تحت قيادة جيوفانى ستيريونى ، وهو قرصان كالابرى (من كالابريا ، جنوبى ايطاليا) قديم ، أصبح أميرالا فى خدمة امبراطور اليونان . وبعد هذا العمل الرائع ، فجأ سفنا حربية أخرى رأسية عند سستوس وأسرها ، واستطاع منذ ذلك الحين أن يمد جولانه البحرية مسافات طويلة ، وفرض ضرائب على الجزر والشعور .

واذ رأى الكسيوس أن الحرب المكشوفة لا تجدى معه ، لجأ الى الحيلة ، وتفاوض معه بوساطة بعض الجنوبيين من سكان القسطنطينية الذين كانوا يعرفون مواطنيهم ، وبذل له أحلى الوعود . وانخدع جافوريو ، ولم يأخذ حذره لسوء حظه ، وذات يوم أغار عليه فجأة ستيريونى Stirione على رأس سفن يونانية وبيزية ، فأسره وقتله ، أما سفنه ، فيما عدا ثلاثا أو أربعا فانها وقعت فى قبضة العدو (٣) .

واتهم عدد كبير من الجنوبيين بالتواطؤ مع جافوريو ، وأسر الكثير منهم معه ، ومع ذلك أطلق الامبراطور سراحهم (٤) ، وواحد منهم فقط دفع ما أخذه من الثورة بتنازله عن اقطاعيته ، ويدعى بلدونيو جويرشيو ، وهو جندى قديم كان منذ سنين طويلة فى خدمة الأباطرة اليونانيين ، وكان مانويل قد منحه اقطاعات كبيرة مكافأة له على ما أداه له من خدمات جليلة ، ولاخلاصه المشهور به . وفى عهد اسحق ، تذبذب هذا الاخلاص فى وقت ما ، ولكنه استعاد ثقة الامبراطور ، وصدق الامبراطور الكسيوس على حقه فى اقطاعيته . على أن الحركة الأخيرة أفقدته نهائيا اقطاعيته ، وحل الخراب بأسرته (٥) . ولم يكن

(١) Doc. sulle relaz. tox. p. 72, 77.

(٢) Nicétas; Doc. sulle relaz. tox. p. 72; Mon. hist patr. Chartae II,

1225; Lib jur. I, 411 et s.

مدينة فى تراقيا على الدردنيل قاله ابيدوس - المترجم

(٣) يقول نيكيتاس فقط ان هذه الأحداث لاحقة على وفاه الامبراطور (Nicét, p. 636 et s.)

هنرى السادس أى فى ٢٨ من سبتمبر ١١٩٧ ، ولكنه لا يحدد التاريخ .

(٤) Miklosich et Muller, Acta graeca III, 46 et s.

- يبدو مع ذلك أنه احتفظ بعدد منهم فى الأسر .

(٥) Monum. hist partr., Chartae II, 1225; Miklosich et Muller, op. c.

p. 1.

هذا الثأر كافيا وحده لتسكين غضب الامبراطور ، فأنزل جام غضبه على مدينة جنوا ، أو بالأرجح على الجالية الجنوبية بالقسطنطينية . وهناك ما يدعو الى الاعتقاد بأنه انتهاز فرصة قيام ثورة جافوريو فاسترد من الجنوبيين قصر كالامانوس Calamanus بملحقاته من مصلاة ، وحمام ، وصهرج ، وفناء ، وكان اسحق قد منحهم هذا القصر في عام ١١٩٢ (١) ، وأسكن به بعض الألمان (٢) . ولكي تستعيد مدينة جنوا خطوتها لدى الامبراطور بعثت اليه بالطبيب نيكولاس حاملا رسالة تطلب اليه فيها أن يستقبل سفارة مكلفة بتجديد المعاهدات القديمة . وحين وصل هذا الطلب ، كانت السفن الجنوبية قد أغارت منذ قليل على الأراضي اليونانية وأحدثت بها بعض الدمار بحجة الاعتداء الذي وقع على البيزيين ، ومع ذلك أجاب الامبراطور اجابة مرضية (٣) . وكلف قناصلة جنوا لعام ١٢٠١ ، اوتو بوني ديلا كروتشي أن يمضى لعقد اتفاق جديد مع الامبراطور ، وكانت طلباته (٤) تتعلق بنقطتين : أولاها مسائل تتعلق ببعض الأفراد ، وتهتم بها حكومة جنوا ، ومضمونها أن يسترد الجنوبيون الذين أصابتهم خسائر مالية ما فقدوه من مال ، واطلاق سراح أولئك الذين مازالوا مسجونين في أعقاب مسألة جافوريو ، كما كان رد الاقطاعية التي نزعمت حديثا من جويريكو شرطا من شروط التسوية المطلوبة . وتتلحق النقطة

(١) ليس ثمة شك في أن الأوصاف الى سوف نذكرها نعلق بموقع واحد فحسب : — Chartae II, 1224; Sauli, II, 196.

(٢) Mon hist, part., Chartae, II, 1224; Sauli, Storia di Galata II, 196; Serra (Storia dell'antica Liguria I, 434 et ss.)

— فيما يخص بالألمان ، آخر دون صعوبة أنهم هم المرتزقة الذين استعدهم اسحق ، وضمهم الكسيوس اليه ، وغمرهم بافضاله ورعايته . (Toeche, Heinrich VI, p. 364 et s.)
(٣) Miklosich et Muller, III, 46 et s.

— لا أجد في أي موضع برهانا على أن الطبيب نيكولاس قد أرسله الامبراطور في سفارة ، كما يؤكد السادة مولر وديزيموني : Muller et Desimoni (Giorn. ligust, 1874)
(٤) التعليمات التي ذكرت بها هذه الطلبات ، وصلتنا في نسختين خطيتين : نسخة في

بورين ، في مخطوطات (أرشيف) البلاط حيث استنسخها سولي Sauli لينشرها ، أنظر (Della Colonia di Galata II, 195-199) . ولكنه لسوء الحظ صرف النظر عما اعتبره ذا أهمية ثانوية ، أما النسخة الثانية فانها محفوظة في « الأرشفيف » السري بجنوا ، وقد نشرت في : Les monum, hist part, Chartae, II, 1224-1227; et dans Cibrario, Della economia politica del medio eco; 2e éd, III, 399 et ss.

وفي رأس النسختين دونت أسماء السلطات التي حررت هذا الأمر . وهي فواصل حوا لعام ١٢٠١ ، ولكن اسماء هؤلاء الفناصل في النسخة الأولى فقط تتوافق مع تاريخ ٤ مايو ١٢٠١ ، أما النسخة الثانية فانها تحمل تاريخ ١٥ مايو ١٢٠٣ وهذا التاريخ يتعارض مع اسماء الفناصل ، لأنه في عام ١٢٠٣ لم يكن الفناصل هم أنفسهم فواصل عام ١٢٠١ الذين كانوا على رأس الحكومة ، بل حتى لم يكن ثمة فناصل ، لأن الحكومة كانت في ايدي « البودستات » جويردوبو حراريللو Guifredotto Grasello . وفيما يختص بالمواد فانها محررة في النسختين بعبارات متماثلة تقريبا .

الثانية بالملكيات والامتيازات ذات المصالح العام ، وموضوعها المطالبة بالتأخر من الاعانات المالية السنوية التي لم تدفع منذ سبع سنوات ، والحصول على علاوة في المستقبل ، والمطالبة بخفض الرسوم الجمركية من ٤٪ الى ٢٪ ، أو على الأكثر ٣٪ ، وترميم قصر كالاماتوس الذي خربه الألمان الذين سكنوا فيه ، وأخيرا التنازل عن المباني التي تسد منافذ الحى الجنوى ، وأرصفت أخرى .

ولسنا نعرف رد الامبراطور على كل نقاط هذا البرنامج ، لأن المرسوم الذهبى الذى عاد به السفير الى بلده لم يحفظ ، أو أنه على الأقل لم ينشر : وليس لدينا سوى الوثيقة الاصلية ، والترجمة اللاتينية لبروتوكول التسليم المرفق بها (١) . وينبني منها أن السفير حصل على الاذن بتوسيع الحى الجنوى .

هذا البروتوكول مؤرخ فى النسخة اليونانية الاصلية بعام ٦٧١١ ، وفى الترجمة اللاتينية بعام ٦٧١٠ ، ويقابل هذان العامان عامي ١٢٠٢ ، ١٢٠٣ من التاريخ المسيحى . ولما كانت السنة فى التقويم اليونانى تبدأ قبل نظيرتها فى التقويم الغربى بأربعة شهور ، أى فى أول سبتمبر ، ولما كان اليوم المذكور فى البروتوكول هو ١٣ من أكتوبر ، فانه يتعين التسليم بأن تاريخ الأصل اليونانى يوافق ١٣ من أكتوبر عام ١٢٠٢ ، وتاريخ الترجمة اللاتينية يوافق ١٣ من أكتوبر عام ١٢٠١ (٢) . هناك اذن اختلاف ، ولكن يبدو لى أنه يتعين تفضيل تاريخ النص اللاتينى بسبب أن تحديد تاريخ انعقاد المجلس فى الوثيقتين واحد : وعلى هذا يمكن التسليم بأن اوتوبونو ديلا كروتشى قد أنهى مأموريته فى ١٣ من اكتوبر ١٢٠١ . الا أن السيد كانالى Canale (٣) يؤكد أن الجمهورية لم تقبل التسوية بشكلها الأول ، وأعادت السفير نفسه الى القسطنطينية مزودا بتعليمات جديدة . هذه التعليمات المؤرخة ١٥ من مايو ١٢٠٣ لبست فى الكثير من النقاط سوى نسخة مطابقة من تعليمات ٤ مايو ١٢٠١ ، ويريد السيد كانالى أن يثبت بهذا الاستدلال أن التاريخ الحقيقى هو المثبت بالوثيقة الخطبة بالمحفوظات السرية بجنوا . فلنعرض أنه على صواب : يتعين اذن التسليم بأن السفير عند عودته ثانى مرة الى القسطنطينية ، وجد هناك الجيش الصليبي الذى أطاح بحكومة الكسيوس الثالث فى صيف عام ١٢٠٣ . غير أن صعوبات جديدة تظهر عندئذ : ذلك أن تعليمات جديدة محررة فى شهر مايو عام ١٢٠٣ لا يمكن بأية حال أن تحمل فى مقدمتها اسماء قناصل عام ١٢٠١ . ينتج من ذلك أنه اذا كان تاريخ ١٥ مايو ١٢٠٣ لا يمكن الموافقة

(١) انظر النص الاصلى فى Miklosich et Muller III, 49 et ss.

والترجمة اللاتينية فى : le Lib. jur. I, 496 et ss.

(٢) Desimoni (Giorn. ligust. 1874, p. 168-171).

- يردد ديزيمونى بين سنتي ١٢٠١ و ١٢٠٢ ، ومع ذلك فهو يميل الى السنة الثانية ، وعلى أية حال فهو يرفض تاريخ ١٢٠٣ للأسباب نفسها التى ذكرتها .

(٣) Nuova istoria della repubblica di Genova, II, 365 et s

عليه ، فإن البعثة الثانية المنسوبة الى اوتويونو ديللا كرتشي تكون غير مقبولة ، والحقيقة أنه لم يتم الا برحلة واحدة ، ولم يتلق سوى مرة واحدة تعليمات تاريخها الحقيقي ٤ مايو ١٢٠١ . وكانت الاجابة الامبراطورية التي عاد بها تتضمن التنازلات الأخيرة التي منحت لأمة تجارية غريبة قبل الحملة الصليبية الرابعة . وبعد مضي سنتين كانت القسطنطينية في أيدي الصليبيين وعلى مدى نصف قرن كان الأمراء اللاتينيين هم الذين يسيطرون على البسفور .

بقي لنا ، قبل أن ندخل في القرن الرابع عشر ، ان نستعرض المدن الاقليمية اليونانية التي كان التجار الايطاليون يزورونها أو يقيمون بها قبل الحملة الصليبية الرابعة ، ثم نعود أدراجنا الى القسطنطينية ، وندرس نطاق الأحياء التجارية بها ووضعها ، ونذكر القليل الذي نعرفه عن الادارة والنظام الداخلي بهذه المستوطنات .

لقد أشرت من قبل الى أن المزايا التي منحها الأباطرة الروم للتجار الايطاليين ترخص لهم بممارسة التجارة في جميع أنحاء رومانيا حتى حدود الامبراطورية ، الا أنه حين تذكر أسماء مدن على سبيل المثال ، فإن هذه المدن تكون دائما ، في أقدم الوثائق مدنا بحرية أو قرية جدا من السواحل ، ولا تظهر أسماء مدن داخلية الا في الوثائق الأكثر حداثة . ثم ان هذا كان هو المسار الطبيعي الذي تتبعه التجارة : فهي تبدأ بتثبيت أقدامها في الموانئ البحرية ، ومن هناك تنطلق متوغلة في داخل البلاد . وفي البداية كانت وسائل النقل المستخدمة دائما هي السفن فقط في أواخر العصر الذي ندرسه الآن ، ورد في مرسوم لألكسبوس الثالث لأول مرة ذكر دواب النقل والعربات (١) . وأدت الرحلات التجارية داخل البلاد الى اقامة منشآت ثابتة ، ولم تكن المراكز الكبرى هي الوحيدة التي أقيمت فيها مثل هذه المنشآت ، فحمة مدن صغيرة نالت هذه الخطوة . وفي الامكان تقدير المدى الذي بلغته أعمال البنادقة التجارية - على سبيل المثال - في إقليم الامبراطورية ، من فقرة واردة في المعاهدة المبرمة في عام ١١٨٧ بين الجمهورية والامبراطور اسحق . نرى في هذه الفقرة أن للامبراطور أن يدعو الى حمل السلاح دفاعا عن الاقليم ضد الأعداء الخارجين ، ليس فقط البنادقة المقيمين في القسطنطينية ، ولكن أيضا من يقيم منهم بين القسطنطينية وأبيدوس ، وفي أبيدوس نفسها ، وبين القسطنطينية وفيلادلفيا ، وفي فيلادلفيا نفسها ، وأخيرا بين العاصمة واندريونوبل (حاليا ادرنة - المترجم) ، وفي اندريونوبل نفسها .

وسنبحث الآن ، بدءا من الشرق الى الغرب عن المدن التي أنشئت بها

Taf. et Thom. I, 257.

(١)

Ibid. I, 199.

(٢)

جاليات تجارية فينيسية وجنوية وبيزية . ففي فيلادلفيا ، المدينة الكبيرة المكتظة بالسكان على الحدود مع الأتراك (١) عند سفح جبل نمولس Imolus (حاليا بوزدا - المترجم) بالقرب من سارديس Sardes القديمة ، كان يوجد بنادقة كما قلنا من قبل . وإلى الشمال ، في بيجي Pega (٢) وجد فردريك بارباروسا في عام ١١٩٠ ، والبنادقة ، والفلامنك في عام ١٢٠٤ جاليات لاتينية ، وهم في الغالب تجار ايطاليون . وفي فجر الامبراطورية اللاتينية ازداد عدد السكان الغربيين بتلك المدينة حتى طالبت الادارة بتعيين اسقف كاثوليكي روماني (٣) . وعلى الهلسيونتس ، كانت أبيدوس ، موقع المراقبة الذي كثيرا ما احتلته أساطيل الغرب ، تضم جاليات فينيسية (أنظر فيما قبل) (٤) .

وبالانتقال الى أوروبا ، نجد في زمن مبكر للغاية بنادقة مقيمين على الشاطئ الشمالي لبحر مرمرة ، في رودستوس (رودستو) Rodosto وهي ميناء شديد الأهمية لتجارة الحبوب ، وفي خارج المدينة حي افرنجي به (مستودع) fondaco (٥) ، وبالقرب كنيسة مكرسة للعدراء ، ومستشفى ، وحديقة ، الخ ، وكانت الكنيسة في الأصل تابعة لدير سانت ماريا داندريويل ، الذي تنازل عنه رئيس رهبان يدعى هوج Hugues في عام ١١٥٧ الى دير سان جورجيو ما جيوري دي فينيسبا : S. Giorgio Maggiore de Venise . وقبل هذا التاريخ كان في رودستو دير للقديس جورج تابع لدير سان جورجيو ماجيوري . ولكل صفقة تعقد في هذه المدينة ، سواء بخصوص مادة صلبة أو سائلة يتجاوز وزنها خمسين رطلا يتعين على كل تاجر فينيسي أن يستخدم موازين الدير ومكاييله مقابل دفع رسم معين ، وكان الروم أيضا يستخدمون هذه الموازين والمكاييل ، ولكن فقط بالنسبة الى الصفقات التي يعقدونها مع البنادقة (٦) . وفي تراقيا كانت اندرينوبل (حاليا أدرنه) وفيليبوبولي Philippopoli مركزين تجاريين هامين ، وقد ذكرنا قبلا أنه كان يوجد بنادقة بالمدينة الأولى في عهد الامبراطور أسحق . ولكن

(١) Nicét, p. 521; Georg. Acrop. p. 111, 112; R. Muntaner, trad. Lanz, II, 115.

(٢) Pegoe ، واسمها الحال بالتركية Bigha واسعة على مرتفع يشرف جنوبا على السهل الذي يخترقه نهر جرانيك Granique قبل أن يصب في بحر مرمرة .

(٣) Ansbert, De expeditione Frid., éd. Tauschinski et Pangeral, p. 56;

Villehardouin, l. c.; Nicét, p. 795; Innoc. 111, Epist., XII, 144, éd. Baluze, 11, 355 et s.

(٤) Procop., De aedif. IV, 9; Mich Attaliota, p. 202.

(٥) Taf, et Thom. I, 138.

(٦) Les chartes des années 1145, 1147, dans Taf, et Thom. I, 103, et s., 107 et s., 137 et ss.

إذا سلمنا ، كما رأينا منذ هنبهة أن دير سانت ماريا بهذه المدينة كان منشأة فينيسية ، يكون من الثابت أن استيطان البنادقة بها يرجع الى تاريخ سابق وكانت مدينة فيليوبولى يسكنها تجار ارمن (١) ويخلق بها خارج أبوابها حتى لاتيني أنيق (٢)

وفى مقدونيا كان لتسالونيك فى كل زمان علاقات تجارية واسعة النطاق، وتقع هذه المدينة على طريق اجناسيا Via Egnatia ، الطريق الكبير الذى يمتد من دوراتزو Durazzo الى القسطنطينية ، فكان يمر بها كل يوم أطواف من المسافرين، فضلا على أنها كانت تتيح للسفن ميناء فسيحا وأميناً (٣)، لذلك كانت البضائع ترد اليها من كل الجهات ؛ وكانت تنافس القسطنطينية (٤) من حيث الترف والرفاهية . ولم تكن حركة التجارة فى أية فترة من فترات السنة أكثر نشاطا منها فى فترة سبوق أكتوبر التى توافق عيد القديس ديمتريوس شفيع المدينة . وفى ذلك الحين نشأ خارج أسوار المدينة ، مثلما يحدث فى المعجزات مدينة ثانية مكونة من صفوف من الأكواخ ممتدة حتى مدى البصر . وكان تجار القسطنطينية يجلبون اليها على ظهور الخيل والبغال منتجات شواطئ البحر الأحمر (وغالبا الجلود والفراء والأسماك المملحة) ؛ وكان تجار فينقيا ومصر وايطاليا وأسبانيا يصلون اليها مباشرة بطريق البحر ؛ وكانت الأقمشة صنع نساجى بيوتيا Brôtie الماهرين تنافس الطنافس البديعة المزركشة (أغطية المذبح) من « أعمدة هرقل » (وكان هذا الاسم يطلق دون شك على القسم الجنوبي من أسبانيا الذى يسيطر عليه العرب) . ويتكون الحشد الذى يتزاحم فى مضمار السوق من يونانيين وبلغاريين وايطاليين وأسبانيين وبرتغاليين وفرنسيين (٥) ، ويجسد الكثير من تجار العرب من مصطلحتهم أن يستقروا بصفة دائمة فى تسالونيك . وبمرور الزمن تكون على هذا النحو حتى لاتيني كامل فى داخل المدينة ، ملاصق للأسوار . ويتحدث اوستاث عن هذا

Nicét, p. 527, 534.

(١)

(٢) كان نيبذ بيليبو بولى يصدر الى الغرب

Odo de Diogilo, éd, Chifflet, p. 27 et s.

— Willehalm, 448, 7, cité par Schultz, Hoefisches Leben, I, 301.

Ellissen, Michael Akominatos, p. 70; Joann, Comeniat. De excidio (٣)

Thessal., éd. Bonn, p. 492; Tafel, De Thessalonica ejusque agro, p. 209 et s.

Ellissen, op. cit., Eustathe, Opu., éd. Tafel, p. 304 et s.; Tafel, (٤)

Komnenen und Normannen, p. 192 et s., 197.

Dialogue de Timarion, Chap. 5 et 6 (éd. Hase, Notes et extr. IX, (٥)

2, p. 171-174 : éd. Ellissen, dans les Analecten der mittel- und neu-griechischen Literatur, vol. IV, sect. 1, p. 46 et ss., 98 et ss.); cf. Tafel, De Thessalon. p. 227-230.

الحى فى مناسبة استيلاء النورمان على تسالونيك (٢٤ أغسطس ١١٨٥) (١) : فمن أعلى برج متاخم لهذا الحى ، أرسل بعض الخونة اشارات كان لها فائدة كبيرة للمحاصرين ؛ وكان الايطاليون يشكلون فى هذه المدينة الأغلبية ، على الأرجح ؛ ونعرف بنوع خاص أن البيزيين كان لهم ثمة مستوطنة . فالواقع نطالع فى التعليمات المحررة فى بيزا عام ١١٩٧ الى اوجتشيونى بونو ، وييتيرو مودانو أن عليهم أن يطلبوا من الأمبراطور أن يعيد اليهم (أو ربما يعطيهم اعترافا جديدا بالملكية) المنازل والسوق التى كان من عادة البيزيين منذ زمن بعيد النزول فيها ، والتصريح باقامة فيكونت بها ، بشرط أن لا يستتبع ذلك أى تكليف أو ضريبة (٢) . وقد حظى هذا الطلب بالموافقة ؛ الأمر الذى ينبئنا به مذكرة صغيرة أرقفها فيكونت القسطنطينية بحساباته لعام ١١٩٩ (٣) .

فإذا نزلنا من تسالونيك واتجهنا صوب الجنوب ، قابلنا فى تساليه Tessalie ، فى خليج فولوس Volo مدينة أليرو (أرميرو) Almyro, Armiro . ويتحدث بنيامين دى توديل ، والادريسي ، وهما معاصران للأمبراطور مانويل عن هذه المدينة ، على أنها موقع تجارى كبير الأهمية . وتكمل معلوماتهما ، بعضها بعضا : فالادريسي يذكر أن اليونانيين يحضرون اليها بضائعهم ، كما يشير بنيامين الى الأمم الغربية التى تأتى ثمة لاجراء مبادلات تجارية معهم ، ويذكر بخاصة البيزيين ، والجنوبيين ؛ والبنادقة ، وغيرهم أيضا (٤) . واشتد أن الغربيين كانوا يصلون عادة الى الميرو عن طريق البحر . ومع ذلك يشير الادريسي الى طريق يبدأ من أفلونا Av. ona ويعبر مباشرة شبه الجزيرة من الغرب الى الشرق حتى ينتهى الى الميرو (٥) . والراجح أن هذا الطريق كان يستخدمه التجار الايطاليون ، وأن الجغرافى العربى الذى كان مقيما بصقلية قد سمع من أفواه بعض هؤلاء المسافرين المعلومات التى يذكرها عن هذا الطريق ، وعن الكثير غيره . وفى حوزتنا وثائق تتيح لنا أن تتبع المنشآت التجارية التى أقامها الايطاليون فى أليرو منذ منتصف القرن الثانى عشر : هذه الوثائق هى صكوك رهن عقارى ، وشراء ، وهبة صادرة من رعايا بنادقة اشتروا ثمة أراض وبنوها ، منهم شخص يدعى ستيفانو كابيللو

(١) Annal. Ceccan., dans Pertz, SS. XIX, 287; Eustathe, opux, éd.

— هذا التاريخ هو الصحيح ، تبعا لهذه المراجع . Tafel, p. 293.

— اما نيكتاس ، ص ٣٩٢ فإنه يذكر تاريخ ٢٥ أغسطس ، ولكن هذا خطأ .

(٢) Opux., éd. Tafel, p. 260; Tafel, Komnenen und Normanen, p. 146.

(٣) Doc. sulle relaz. tox, p. 72

(٤) Ibid. p. 78.

(٥) Edrisi, II, 296; Benj. de Tudél., ed. Asher, p. 49.

Stefano Capello ، بدأ يرهن أملاكه لصالح كنيسة القديس مرقص التابعة للبندقة بالقسطنطينية ، وانتهى بأن باعها لها ؛ وشخص آخر يدعى ناتالي بيتاني Natale Betani وهب أملاكه لكنيسة سان جورج الفينيسية بمدينة الميرو (١) هؤلاء الأشخاص كانوا بالتأكيد أعضاء فى جالية كبيرة ، آية ذلك وجود العديد من الكنائس الفينيسية بالمدينة (٢) ، وبالأخص ذلك العدد الكبير من البندقة الذين هربوا من الميرو فرارا من اضطهاد مانويل (٣) . والى جانب المستوطنة الفينيسية ، كان هناك مستوطنة بيزية ترجع الى العصر نفسه تقريبا . وفى أثناء الحرب التى شنها وليم الأول ملك صقلية على الامبراطور مانويل ، استولى أسطول صقلى على مدينة الميرو . وفى خلال الهرج والمرج نهبت كنيسة القديس جاك التابعة للبيزيين ، وبرجها ؛ والتهمتها النيران (٤) (١١٥٨) على الرغم من مرسوم صادر من انستاسيوس الرابع Anastase IV قبل ذلك ببضع سنوات (١١٥٣) صرح فيه هذا البابا أن يشمل بحمايته هذه الكنيسة مع كل أملاكها ، وفرعها كنيسة القديس نيقولاس Nicolas (٥) ، واحتفظت مدينة بيزا بحق التمتع بالأموال التى تملكها فى الميرو طوال هذه الفترة وما بعدها ؛ ذلك أنه بناء على طلب سفرائها صدق الامبراطور الكسيوس الثالث على هذا الحق (٦) . ويبدو أن المستوطنتين اقتنيتا بوطنهما الاصلى ، كما أدى تنافسهما الى منازعات صريحة بينهما ، يدل على ذلك المعاهدة المنعقدة فى عام ١١٨٠ بين بيزا والبندقية : فقد التزم الطرفان المتعاقدان بالأى يحصنا الأحياء التى يملكانها فى الميرو ، وألا يحاولا اذلال أحدهما الآخر بأن يزيد أى منهما من ارتفاع كنيسته أو أبراجه بحيث تفوق ارتفاع كنيسة أو أبراج الآخر ، وأن يجعللا ذرى بيوتهما على مستوى واحد وأخيرا أن يلجئا الى القضاء لردع ما يقدم عليه أفراد مستوطنة منهما من انتهاكات لحقوق أفراد المستوطنة الأخرى (٧) . وكان فى الميرو أيضا مستوطنة جنوية ، وهذه حقيقة لا بد لنا من التسليم بها لأن بنيامين دى توديل قد ثبت له هناك وجود تجار من هذه الأمة ؛ كما نجد فى تحقیقات السفير جريما لدى أن الجنويين اشتركوا فى الدفاع عن المدينة ضد البندقة على ١١٧١ - ٧٢ (٨) .

-
- (١) les Chartes des années 1150, 1151 et 1156, dans Taf. et Thom. I, 125-133, 136 et s.
 (٢) Doc. sulle relaz. tox. p. 22.
 (٣) Hist. duc. Venet. p. 79.
 (٤) Annal. Pis. Marang., dans Pertz, SS. XIX, 243 et s.
 (٥) Doc. sulle relaz. tox. p. ٤.
 (٦) Ibid. p. 71, 78.
 (٧) Ibid. p. 20, 22.
 (٨) Sauli, II au bas de la page 185

ولسنا نجد في غضون الفترة التي ندرسها سوى القليل جدا من الدلائل على رحلات قام بها تجار ايطاليون في وسط اليونان والمورة . ومع ذلك كان يصنع في طيبة حرائر مشهورة كان البنادقة يأتون للحصول عليها ، وكان الجنويون أيضا يزورونها للغرض نفسه (١) . نذكر أيضا كورنتوس Corinth و يشيد نيكيتاس بئرائها ، ويقول ان الايطاليين يأتون ثمة ويلقون مراسيهم في أحد موانئها ، بينما يرسو الأسويون في الميناء الآخر (على الجانب الآخر من البرزخ) وان المبادلات التجارية تجري في المدينة (٢) .

ولابد أن نذكر في المرتبة الأولى من جزر اليونان جزيرة بوبويا Eubée ، وكانت عاصمتها نيجربونت تجذب اليها جموعا كبيرة من التجار (٣) ؛ ثم جزيرة أندروس بمصنع حرائرها ، وكانت مزدهرة منذ مستهل القرن الثاني عشر (٤) ؛ وخبوس Chio ومزارعها التي تنتج المستكة (شجر يستخرج منه صمغ يمسح) ، وأخيرا ليمنوس Lemnos حيث حصل رئيس كنيسة القديس مرقس (سان مارك) الفينيسية في القسطنطينية في عام ١١٣٦ من رئيس الاساقفة هبة تتمثل في مصل بشرط أن يقيم مكانها أو بجوارها كنيسة أكبر حجما تحت حماية القديس جورج (٥) : هذه المعلومة تثبت وجود حركة تجارية مستديمة بين البندقية والجزيرة . ولا حاجة بنا الى القول بأن المحطتين الكبيرتين لطريق الشرق الأدنى : جزيرة كريت ، وجزيرة رودس تستقبلان كثيرا في موانئهما سفنا من كل دول الغرب البحرية (٦) .

غير أنه مهما كان الرخاء الذي تتمتع به كل هذه المحاط القائمة على طول سواحل الامبراطورية اليونانية وجزرها ، فانه لا يعد شيئا بازاء ما تتمتع به العاصمة ، القسطنطينية ، بموقعها الممتاز ، فقد كانت مهابة لأن تغدو مركزا من المراكز التجارية الرئيسية في العالم ؛ لذلك كان لها جانبية خاصة للايطاليين : فكان هدفهم الدائم أن يمتلكوا بها أحياء تكون بقدر المستطاع واقعة لا في أرباض المدينة أو ضواحيها ، ولكن في المدينة ذاتها . ولقد رأينا من قبل بصورة عامة أنهم أصابوا غايتهم . وآن الأوان لنقول بنوع خاص ان هذه

(١) يتبين هذا من تعليمات كتبت لسفير جنوى ، لم يعرف اسمه ، بعث الى بلاط القسطنطينية

بعد عام ١١٧٠ .

— Desimoni, dans le Giorn. ligust. 1874, p. 156.

Nicét, p. 100.

(٢)

Benj. de Tudél, éd. Asher, p. 47.

(٣)

Soewulfi (1102-1103) itinerarium, dans le Recueil de voy. et de

(٤)

mém., publ. par la Soc. de Géogr. VI, 834; Archiv. fuer oesterreich. Geschichtsquellen, XIV, p. 80.

Taf. et Thom. I, 98 et ss.

(٥)

(٦) نحد مثلا لذلك في خصوص كريت في

— Les Mon. hist. patr. Chartae, II, 1226.

الأحياء كانت أحياء تجارية • ونجد في « المراسيم الذهبية » للأباطرة الروم البيزنطيين ، ومواثيق التملك المرافقة لها وصفا مضبوطا للرقعة الممنوحة لكل أمة ، والرسم الرقيق لمحيطها ، وتعين المباني العامة القائمة في دائرتها أو على حدودها • ونتج عن الحرائق ، والنورات الشعبية ، والغزوات ، وبخاصة الأخيرة منها ؛ غزوة الترك ؛ نتج عنها تغيرات كبيرة في المدينة ، حتى أصبح من المستحيل تقريبا ، باستثناء حالات نادرة ، حتى بالنسبة إلى أكثر الأشخاص معرفة بالأماكن تحديد مواقع المباني المذكورة في هذه الوثائق ، وليس في هذا ما يبعث على الدهش • ومع ذلك تسنى حديثا لطبيب يوناني مقيم بالقسطنطينية ، وهو السيد الكسندر باسباتي Alexandre Paspatis أن يحرز تقدما كبيرا في دراسة الأحياء التجارية (١) • غير أنه من الضروري أن يقدم بعض المعلومات الأولية قبل أن نقف أثره في الأحياء التي كان يشغلها التجار الأجانب • ففي القسطنطينية البيزنطية ، وبالأخص في ألسامها الأكثر ازدحاما بالسكان ، كان بها عدد كبير من الشوارع التي تكتنفها « بواكي » يحتمى فيها المارة من المطر ، وقيظ الشمس • كان هذا النظام يتيح للتجار مزايا خاصة ، فتيسر لهم إقامة حوانيتهم ؛ ومن ثم كانت الامتيازات الممنوحة من الأباطرة إلى الأمم التجارية تتضمن عادة شارعا أو اثنين من هذا النوع ، بحيث أن مساكن التجار كانت إما متاخمة لهذه الشوارع ، أو متجمعة حولها ، ومن ثم فإن الحي بأكمله ، حتى ولو شمل مجموعة كبيرة من البيوت كان يطلق عليه اسم هذا النوع من الشوارع ذات البواكي (باللاتينية embolum) (٢) •

وكثيرا ما نجد في سكوك التملك ذكرا لبعض أجزاء سور المدينة أو بعض الأبواب ، وفي هذا إشارة إلى موقع الأحياء الممنوحة للايطاليين • وكان الأغلبية العظمى من المنازل في داخل المدينة ، ولكن البعض منها كان خارجها ، على الشريط الواسع بنوع ما ، الذي يفصل المدينة عن البحر ؛ وتنتهي الأحياء كلها دون استثناء إلى « القرن الذهبي » ، أي مرفأ القسطنطينية • ولا يبدو أن هذه الأحياء قد توغلت كثيرا في داخل المدينة •

ومن العناصر الرئيسية لهذه المنشآت الأسكلة ، وكان هناك اسكلات كثيرة

(١) كان تحت ناظري ، وقت اتمام هذا الكتاب ، الدراسات الأربع الكاملة التي جمعها هذا

المؤلف •

Ducange, Constantinopolis christiana, lib. I, p. 109 et ss.

(٢)

— جمع دوكانج عددا كبيرا من الاستشهادات التي ذكر فيها هذه الشوارع ذات « البواكي »

في القسطنطينية • انظر أيضا :

— Mich. Aital, p. 211, 275 et s.; Codin, De orig. Cpol, p. 22 ;
cf. Stephanus s.h.v.; Reisha, Comment de Constant. Porphyre, De
Cerim, II, 130; Goar, Comment. de Cedren, p. 783; Unger, Griech.
Kunst, dans Ersch et Gruber, sect. 1, vol. LXXXIV, p. 332.

مخصصة لكل أمة ، وهى من توابع الحى ، وتكفل الاتصال بين الحى وبين السفن التى تلقى مراسيها فى أقرب نقطة .

ونحاول الآن أن نحدد موقع كل من هذه الأحياء ، بادئين بحى البنادقة ، فهو أقدم الأحياء كلها . كان هذا الحى فى قلب الحياة التجارية ، فى مكان يسمى بيراما Perama (١) : ويرجع اسم هذا الجزء من المدينة الى أنه كان موضع الرسو لضاحية غلطة Galata (بيرا Pera) الواقعة على الضفة المقابلة للخليج (٢) . وكان باب بيراما (٣) واسمه الحال Balik-Bazar-Kapoussi (اى باب سوق السمك - بالتركية - المترجم) من النقط القائمة على حدود حى البنادقة ، وفى الناحية المقابلة يمتد الحى الى المكان المسمى Hebraïca أو Judeca (٤) ، ولم تكن هذه الكلمة تعنى فى هذه الحالة « حى اليهود » ؛ وينبغى الا ننسى أن اليهود كانوا قد طردوا من المدينة فى عهد ثيودوسيوس الثانى Theodose II (٤٠٨ - ٤٥٠) (٥) ، وأنهم كانوا طوال الفترة التى ندرسها يقطنون القسم من ضاحية غلطة المجاور للبسفور ، وهذا القسم ، مثل سائر الأراضى الواقعة على ضفتى البسفور معروف عامة باسم « المضيق » (٦) ، وعلى ذلك فليس من النادر أن نجد فى المصادر التاريخية هذه الكلمة ؛ ويقصد بها حى اليهود . وفى عام ١٠٧٧ أى قبل أن يمنح الامبراطور الكسيوس الأول البنادقة اقليم « ab Hebraica ad viglam » ببضع سنين شب حريق هائل أحال منازل اليهود الى رماد (٧) . وحتى عهد مانويل كان رئيس (stratège) حى اليهود هو القاضى الوحيد الذى يمكنهم أن يلجأوا اليه (٨) . وخين زار بتيامين دى توديل القسطنطينية وجد اخوانه فى الدين فى « بيزا » ، ولم يكن هؤلاء يذهبون الى القسطنطينية الا من أجل شئونهم . فى « بيزا » ، ولم يكن هؤلاء يذهبون الى القسطنطينية الا من أجل شئونهم . التجارية ، فيصلون اليها فى مراكب (٩) ، وكان لهم أيضا جابنتهم فى بيرما ،

Taf. et Thom. I, 50, 52; Paspatis, VI, 163.

(١)

Paspatis, 1. c.; cf. Nicét. p. 384.

(٢)

«Porta Peramioe» ; Taf. et Thom. I, 56.

(٣)

Ibid. I, 50, 52, 56.

(٤)

Codinus, De aedif. Cpol. p. 83.

(٥)

(٦) نجد من ذلك أمثلة كثيرة فى :

Tafel, Symbolae criticae ad geogr. hzt. spect., Pars posterior (Abh. der 3e Cl. der Muenchen. Akad., vol. 5, sect. 3) p. 96-98.

Cf. Krug, Chronologie der Byzant. p. 190 et ss.; Wilken, Ueber die Verhaelt-nisse der Russen zum byzant. Reiché dans les Abhandl. der Berlin. Akad., 1928, p. 85 et s., 102.

Mich Attal, p. 252.

(٧)

Zachariæ, Jus graeco-romanum, III, 504.

(٨)

Benj. de Tudéj., éd. Asher, I., 55 et s.

(٩)

كما يقول ينكتاس (١) • نضيف أخيرا ، حتى ننتهي من موضوع حي اليهود ، أنه في عام ١٢٠٣ وجد الصليبيون الميناء مسدودا بسلسلة ، فأتجهوا الى ستينون (l'Estanor) Stenon حيث استقروا (٢) •

من الثابت أنه لايجوز ترجمة كلمة Hebraica التي توجد في الميثاق الذي منحه الكسيوس الى البنادقة ، ولا كلمة Judeca التي تشير الى الموقع نفسه ، والتي نقرأها في وثيقة فينيسية أخرى متأخرة عن الأولى بثماني سنوات فقط ، بعبارة « حي اليهود » • ولايزودنا النص اليوناني الأصلي بالتفسير الصحيح للكلمة ، فلا يبقى لنا سوى أن نطلب هذا التفسير من كاتبة جديرة بالثقة ، على علم تام بتصرفات المكسيوس وبنواحي القسطنطينية ، تلك هي آن كومينوس : اذ تقول ان الأرض التي منحها الأمبراطور البنادقة تمتد من رصيف اليهود القديم حتى مركز الحراسة الذي سوف نعود الى الحديث عنه بعد قليل • والآن ، في أي موضوع اعتاد اليهود ، أو بالأحرى كانوا مضطرين أن ينزلوا به من مراكبهم عند قدومهم من « غلطة » ؟ هذه المعلومة غير مذكورة للأسف في أي مرجع ؛ ومع ذلك ففي وثيقتين من القرن الثالث عشر اشارة الى Porta ebraica (باب اليهود) باعتباره جزء من حي البنادقة (٣) • فضلا عن ذلك ، يتبين من أحدث الوثيقتين أن باب اليهود هذا يؤدي الى قصر « الدانجاريوس » Drungarios أو كما يقال حاليا « الاميرالية » (مركز القيادة البحرية) (٤) • ومن الراجح كثيرا أن هذا الباب هو الذي كان يحمل في نهاية ذلك القرن اسم Porta Drungarii (٥) • ومع ذلك فاننا لم نتقدم كثيرا بهذه المعلومات • ولتر اذن ما اذا كان بوسعنا أن نقرب من هدفنا عن طريق آخر • فبعد مرور قرن ونصف من الزمان ، يظهر مرة أخرى اسم porta judoea الذي يطلق على أول باب يصادفه المرء حين يبدأ من الموضع الذي يقع حاليا عند طرف « السراي » (قصر السلطان) فيسير مجازيا سور المدينة من ناحية الميناء متجها صوب الغرب • وهذا أيضا هو الاسم المثبت على خريطة القسطنطينية التي وسنها « بوندلمونتي » Buondelmonti (١٤٢٢) (٦) • وفي العهد التركي • سمع لوتكلافيوس Leunclavius (٧) أيضا عامة الشعب يطلقون على أول باب بعد « السراي » اسم hebroea ؛ وهذا هو نفس الباب الذي كان يطلق

Nicét, p. 382. (١)

Villehardouin, éd. de Wailly, p. 88. (٢)

Taf. et Thom, II, 5, 271. (٣)

« Porta qua exitur ad Drungarium, quae dicitur Ebrayki ». (٤)

Taf. et Thom, III, 139; Miklosich et Muller, 111, 88. (٥)

Cpol. christ de Ducange. (٦) توجد هذه الخريطة في مقدمة :

Pandect, hist. turc. 1596, p. 206. (٧)

عليه في أواخر العهد البيزنطي الاسم القديم *Porta Neorue* (١) محرفا بعض الشيء فاذا سلمنا بأن هذا الباب اليهودي في أواخر العصر البيزنطي وفي العصر التركي هو نفس « باب اليهود » *Porta hebraica* في العصر اللاتيني ، و *scala hebraica* (مرسى اليهود) الذي ذكرته آن كومنينوس ، فانا نستنتج أن الحي الفينيسي كان يمتد من *Porta Permatiss* وهو حاليا (*Balik-Bazar-Kapoussi* و *porta piscarie* الذي ذكره بوندلونتي) حتى باب *Porta Neorue* القديم ، أي الباب المسمى حاليا *Baghtche-Kapoussi* (بالتركية : باب الحديقة • غير أن هذا الاستنتاج يبدو لأول وهلة غير مقبول ، لأن هذا الباب المسمى *porta Veorue* كان موجودا كما سنرى في منطقة البيزينيين ، وأن الرقعة الموجودة ناحية الغرب ، أي من جانب باب سوق السمك كان يشغلها الأماطيون • ويبدو أن الباب الذي أطلق عليه البيزنطيون الآخرون والأثراك اسم « باب اليهود » لم يكن له أية علاقة بالباب الذي أسماه البيزنطيون القدامى واللاتينيون الاسم نفسه • ولابد أن الباب الذي كان معروفا حتى عام ١٢٢٩ باسم باب اليهود ، ثم من هذا التاريخ باسم *porta Drungarue* (٢) كان واقعا إلى الغرب من *la porta Permatiss* ، وكان موجودا على الأرجح في موقع الباب المسمى حاليا *Zindan-Kapoussi* (باب السجن ، وفيما مضى باب سوق الأعشاب) • هذا أيضا هو رأى باسباني *Paspati* ، فهو يجعل حي البنادقة في المنطقة المحصورة بين باب سوق السمك وباب السجن ، ويسلم بتماثل هذا الأخير مع باب « الأمبرالية » *Porta Orungaru*

نجد أيضا بين أسماء الصروح الواقعة على حدود حي البنادقة ، نصب *La Bigla* (مركز الحراسة) ، والمزار المتاخم *Sacrum* (٣) ، وليس لدينا أي دليل يسمح بتحديد الموقع • وقد أراد البعض (٤) أن يبحث عن مكان هذين الصرحين في موقع « باب السجن » ، غير أنه يستحيل التوقف عند هذا البحث ، لأن الأمر يتعلق بجدول ماء أو قناة آتية من « مركز الحراسة »؛ وعلى ذلك يتعين التسليم بأنه « أي مركز الحراسة » كان موجودا داخل المدينة •

نستنتج من كل ذلك أن البنادقة كان لهم حيهم قبالة الباب المسمى حاليا « باب سوق السمك » ، والذي كان يستخدم في كل الأزمان كطريق للمواصلات

(١) Gyllius, De bosporo Thracio, dans Muller Geographie groeci minores, II, p. 22; Leunclav. I, c.

Taf. et Thom., II, 11 60; la Scala Drongario Scala hebraica (٢)

Taf. et Thom. I, 50, 52, 56, 111 et s. (٣)

Paspati, VI, 162, not. 4, 164, not 4. (٤)

بين القسطنطينية وبين ضاحية غلطة (١) ؛ والراجع أنه كان يمتد من هناك حتى « باب السجن » ، وأن الأرصفة الثلاثة المخصصة لهم كانت موجودة أيضا في هذا القطاع (٢) . بقي أن نعرف أبعاد الحى فى داخله .

ولنتقل الى البيزيين : ان ما كان لباب porta permatis عند البنادقة كان لباب porta Neorii (باب دار الصناعة ، أو الترسانة Arsenal) بالنسبة الى البيزيين . هذى هى النقطة الثانية التى يمكننا أن نبدأ منها لكى نحدد على وجه التقريب موقع حيهم . هذا الباب يقابل الباب الذى يحمل حاليا اسم Baghteché-Kapoussi ، أى باب الحديد (٣) ؛ وتبعا للوثيقة الصادرة من الامبراطور انجليوس عام ١١٩٢ ، وهى الوحيدة التى تعطينا بعض التفاصيل عن حى البيزيين ، كانت أرصفتهم (٤) موجودة ؛ معظمها أو كلها غربى هذا الباب (٥) . وعلى هذا كان حيهم يمتد من « باب الحديد » الى « باب سوق السمك » حيث يبدأ حى البنادقة ؛ غير أنه لم يصل الى هذا الحد ، اذ كان هناك بين الحيين مستودع صغير ورصيف تابعان للأمافيين ، وأسكلة أخرى خاصة بدير القديس انطوان اليونانى (٦) .

بقى علينا أن نتحدث عن ممتلكات الجنويين فى القسطنطينية (٧) . وتبعا للعرض التاريخى الذى قدمناه عن الأحداث الخاصة بهم نعرف أنهم غيروا مرارا حيهم . وقد استهل ديمتريوس واكريمبوليتس المفاوضات فى هذا الشأن فى عام ١١٥٥ بتكليف عن الامبراطور اسحق ، والراجع أن أميكو دى مورتا الموفد من قبل جمهورية جنوا بعد هذا بسنتين كان هو الذى استلم الأرض المعينة . ولم يكده المستوطنون الجنويون يستقرون فى حيهم حتى وقعت بهم من جانب البيزيين الغارة الرهيبة التى نعرفها من قبل . وحين مرت العاصفة طالبوا بتعويضات عما وقع بهم من أضرار ، ونجد فى الوثائق المكتوبة فى هذه المناسبة ، لأول

(١) Gyllius, I. c. Leunclavius, 1. c. ; Paspati, VI, 163, 165 et s.; Ham-
mer Constantinopel und der Bosporus, I, 102.

(٢) Taf. et Thom, I, 52; ibid. I, 57, 112, 183; II, 11 60.

(٣) Paspati, VI, 156; 153.

(٤) لم يكن للبيزيين حتى عام ١١٩٢ سوى رصيف واحد ، ولم يذكر كل من الكسيوس ومانويل فى براءتهما سوى رصيف واحد (doc. sulle relaz. tox. p. 45 et s., 53 et s.) وفى عام ١١٦٢ لم يكن لدى السفيرين يوتانشو وجريفى الا رصيف واحد (ibid, p. 10)

(٥) Ibid. p. 48 et s., 57 et s.

(٦) أنظر شرح براءة اسحق فى : Paspati, VI, 155 et s., VI, 153 et s.

(٧) بخلاف كتاب باميانى فى هذه المسألة ، بحسن البدء ببراءة :

Le Memoria sui quartieri dei Genovesi a Constantinopoli nel secolo XII
dans le Giorn. ligust. 1874, p. 137-180, par C. Desimoni.

مرة اسم أول حى شغلوه . كان اسم هذا الحى Embolum de Sancta Cruce (١) ، وموقعه غير معروف بالمرّة ، ثم انهم هجروا هذا الحى بعد غارة البيزيين . ومن ناحية أخرى ، كان الامبراطور مانويل مستاء كل الاستياء لأن يرى تنافس الأمم التجارية ينقلب الى معارك تنشب حتى فى شوارع عاصمته ، وكان نفوذ اللاتينيين القوى فى القسطنطينية يثير قلقه ، ومن تم منحهم فى اكتوبر ١١٦٩ بدلا من حيمهم الأصلى حيا آخر خارج المدينة ، فى منطقة تسمى اوركو Orcu (٢) . وعلى الرغم من عبارات النص الواضحة كل الوضوح ultra Constantinopolim أى خارج القسطنطينية) ، فإن السيد باسباتى يصر على أن هذه المنطقة موجودة داخل المدينة ، ولا يكتفى بهذا ، بل يبيح لنفسه أيضا أن يغير فى لفظ النص حتى يتسنى له أن يحدد الموقع الذى يبحث عنه : ففى رأيه أنه يجب أن نقرأ oreia بدلا من Orcu ، وهذا اسم أطلقه البيزنطيون فى عهدهم الأخير على الـ porta Neorii (٣) (بوابة الحديقة) . ومع ذلك فحسبنا أن نفحص الوثائق المذكورة قليلا لكى نهدم هذه الفروض . فأوركو Orcu كانت ولم تزل منطقة واقعة خارج القسطنطينية (٤) ، يفصلها البحر عن المدينة (٥) ، ونجدها على الأرجح فى بيرأ Pera ومن المشكوك فيه أن يكون الجنوبيون قد قبلوا الحى الذى منحوه ، لأنهم لم يرتاحوا اليه بالمرّة : وكان المرسوم الذى منحهم هذا الحى قد صدر فى شهر اكتوبر ١١٦٩ ، وفى السنة التالية صدر مرسوم آخران فى شهرى أبريل ومايو ، نعلم منهما أن الامبراطور استجاب أخيرا لرغباتهم ، فعين لهم حيا آخر داخل أسوار المدينة intra-muros ، استقروا فيه نهائيا ، وكان اسم هذا الحى الجديد تبعا للمنطقة القائم بها embolum de Coparia (٦) هذا الاسم Coparia أو Coparion كوباريا ، أو كوباريون (٧) مقتبس من كلمة يونانية ، معناها : مجداف . والواقع كان يوجد فى هذا الحى من قديم الزمان ورش المجاديف ، واستمر الجنوبيون يمارسون هذه الصناعة (٨) . ولا تزودنا

Sauli, II, 184; Desimoni, I, c. p. 159.

(١)

— يبدو لى أنه من غير المحتمل أن يكون هذا الحى ، وحى كوباريا Coparia قسمين من حى واحد كما يقول باسباتى ، ولم يشغل الجنوبيون أبدا هذين الحيين فى وقت واحد .

Sauli, II, 192, Lib jur. I, 254.

(٢)

Paspati, VI, 147; p. 138 et s.

(٣)

(٤) الى جانب كلمة ultra (Sauli, II, 192) التى حولها باسباتى الى inter

— Lib. jur. I, 254; Desimoni, p. 180.

توجد عبارة

Desimoni, p. 180.

(٥)

Sauli, II, 185; Desimoni, p. 178.

(٦)

Desini, I, c.; Mikl. et Mull. Acta graeca, III, p. vi.

(٧)

Mikl. et Mull. I, c. p. 51, 52; Lib. jur. I, 497 et s.; Sauli, II, 196:

(٨)

والمصادر اليونانية بأية بيانات عن موقع هذا الحى (١) ، كما أنها لا تعرفنا أين توجد بوابة تسمى *porta veteris rectoris* أو أيضا *porta bonu* (٢) التى ورد ذكرها فى الوثائق الرسمية المذكورة آنفا . أما الجهات الأخرى المذكورة أسماؤها فى هذه الوثائق فإنها لا تفيدنا باعتبارها نقطا للاستدلال ، أما لأنها غير معروفة ، واما لأنه لا يمكن تحديد مواقعها (٣) . ومع ذلك ففى الامكان أن نعين بوجة عام موقع الحى الجنوى فنحن نعرف أن ارسفتهم لم يكن يفصلها عن أرسفة البيزيين سوى رصيفين لليونانيين (٤) ، تم أن حيهم كان متاخما لحى البيزيين ، ونحن نعلم نقطة الاتصال بين الحيين ، تلك هى دير أبولوجوتيتون *Apologotheton* المذكور فى وثائق الأمتين الرسمية . وموقع هذا الحى المبين بصورة غامضة (٥) فى وثيقة الجنويين بين بصورة أكثر وضوحا فى وثيقة البيزيين اذ كان مجاورا لكل من بوابة ينورى *Porta Neorii* شرقى هذه البداية ، وعلى الحد الأقصى من الحى البيزى من ناحية الشرق (٦) . يدل هذا على أن الحى الجنوى كان ممتدا من مجاورات بوابة ينورى (بوابة الحديدية) شرقا حتى حوالى *Iali-Kiosk* (كشك يالى) (٧) كذلك يتعين البحث عن أرسفة الجنويين على طول هذا الجزء من الشاطيء . ولم يكن لهم فى البدايه سوى رصيف واحد ، ولكن اسحق منحهم رصيفا ثانيا ، كما منحهم ألكسيوس الثالث رصيفا ثالثا (٨) . وأخيرا فان الحى لم يكن ممتدا بالطول فحسب ، ولكنه كان منوعلا فى الداخل ، من ناحية كنيسة القديسة صوفيا ، وفى الأجزاء العليا من المدينة (٩) .

ونحن اذا تمثلنا فى مخيلتنا مجموعة الأحياء التجارية فى القسطنطينية حسب الخلاصة التى قدمناها آنفا ، فاننا حقيقون بأن نسلم بصحة الوصف الذى قدمه « اوستات » اذ يقول ان اللاتينيون يعيشون على حدة ، على طول شاطيء « قرن بيزنطة » فى الجزء الذى ينظر شرقا أى الجزء المكشوف شرقى

- (١) فى *Novelle 159* لجسنينان ، تنويه بمنطقة « كوبرايا » ، ولكن هذه المنطقة واقعة خارج المدينة .
- (٢) *Mikl. et Muller, 1. c. p. 53; Lib. jur. I, 499; Desimoni, p. 179* (cf. p. 145); *Desimoni, p. 145 et s.*
- (٣) *Desimoni, p. 171-176.*
- (٤) *Mikl. et Muller, 1. c. p. viii; Mon hist. patr. Chartae, II, 1225.*
- (٥) *Desimoni p. 178 ; Mikl. et Muller, 1. c. p. vi et ss, 29, 31, 51, 53.*
- (٦) *Lib. jur 1, 499.*
- (٧) *Mikl. et Muller, III, 19, 21.*
- (٨) *Desimoni, p. 179; Mikl. et Muller, 1. c. p. vi, ix e ts., 28, 31, 50, 53 et s.*
- (٩) «Versus S. Sophiam»; *Mon. hist patr. Chartae, II, 1225; Sauli 11, 12f.*
- (٩) *Paspatis, VI, 157, 162; 156, 163.*

الخليج ، والذي احتفظ الى يومنا هذا باسم « القرن الذهبي » (١) . وعلى هذا احتل اللاتينيون أكثر النقاط ملائمة للتجارة والملاحة ، الشيء الذي ملأ نفوس اليونانيين سخطا اذ وجدوا أنهم دفعوا أكثر فأكثر الى داخل المدينة . ومع ذلك لم تكن أحياء اللاتينيين متلاصقة بحيث لا تترك بينها مسافات بقي اليونانيون مسيطرين عليها . كان هنا وهناك بين أمسطلات الايطاليين ، أمسكلات أخرى لليونانيين ، كما كان هناك على محيط الأراضي الممنوحة للايطاليين عدد كبير من البيوت المحصورة بين هذه الأراضي والتابعة لكنائس أو أديرة يونانية . وكان هناك أيضا عدد من اليونانيين يقطنون كمسأجرين داخل الأحياء الإيطالية . ومع ذلك فالثابت أن كل القسم الممتد على طول الشاطئ من « بوابة السجن » الى طرف « السراي » تابعا على وجه التقريب للغربيين ، وكان غالبية السكان من الغربيين وكانت كل أمة تؤجر المنازل والحوانيت والورش وأسكلات السفن (٢) ، والأراضي التي يشملها امتيازها ، الا أن المستأجرين كانوا جميعا على وجه التقريب تجارا أو حرفيين من الأمة نفسها (٣) .

ولعل من المفيد جدا دراسة تنظيم وإدارة المستوطنات التجارية الغربية في الامبراطورية اليونانية ، ولسوء الحظ لا نملك الا القليل النادر من المعلومات بشأن بدايات تنظيم هذه المستعمرات وإدارتها ، ولا تتعرض تحقيقات السفراء والمعاهدات التي في حوزتنا نصوصها لهذه التفاصيل الا في القليل النادر . ومن جهة أخرى لم تدون اللوائح الادارية الخاصة بالمستعمرات الا فيما بعد . ونهاية القول أنه لم يصل الى أيدينا سوى عدد محدود جدا من الوثائق الصادرة من المستوطنات نفسها . وأول سؤال يعن لنا هو أن نعرف ما اذا كان هناك في كل عصر ، على رأس هذه المستوطنات رؤساء مفوضون من قبل الوطن الأم ، ولهم سلطة الحكم والادارة باسمه . والمعروف كثرة ايفاد السفراء Legats الى بلاط القسطنطينية ، وكانت المفاوضات المكلف هؤلاء باجرائها تستغرق زمنا طويلا ، وتقتضيهم أن يمكثوا في العاصمة كثيرا ، والمطلوب معرفة ما اذا كان هؤلاء السفراء مكلفين بضمان تنفيذ الاجراءات التي يقررها الوطن الأم بشأن المستوطنات ، وتسوية المسائل القانونية التي يمكن أن تكون محتجزة في الفترة بين وفد وآخر ، أو أنها انبثقت أثناء وجودهم هناك . وفي هذه الحالة لم يكن الوطن الأصلي ممثلا في المستوطنة الا بصورة غير نظامية ، ولم يكن يمارس بها سلطة حقيقية . والمسألة تستحق أن تدرس ، فالثابت أن السفراء كان عليهم ، الى جانب وظائفهم الدبلوماسية أن يؤديوا مهامها ادارية

Opux. éd. Tafel, p. 275 ; Tafel, Komnenen und Normannen, p. 97 (١)
et s.

Lib. jur. I, 449; Mikl. et Muller, I, c. p. x.

Taf. et Thom. II, 8-11; Doc. sulle relaz. tox, p. 74 et ss.

وقضائية في الأعباء التي يسغلها مواطنوهم . وهاكم مثالا لذلك : كان قناصل بيزا قد قرروا تحويل كل أموال الكنيسة الموجودة في القسطنطينية وكل الإيرادات الآتية من تأجير الحي البيزي الى كاتدرائية بيزا : ففي عام ١١٦١ قام سفيرا بيزا في بلاط مانويل ، كوكو جريفي ، وراينيري بوتاتشي بتنفيذ هذا الاجراء ، ومعاقبة كل اعتداء على حقوق الكاتدرائية ، ووضعوا فوق ذلك لوائح تتعلق باستعمال الأرصفة والموازين والمكايل العامة التي تملكها المستوطنة (١) . وثمة مثال آخر : اذ أصدر بعض السفراء البنادقة في البلاط نفسه أثناء اقامتهم بالقسطنطينية حكما في قضية معلقة بين رئيس كنيسة سان جورج في رودستو Rodosto وبين التجار البنادقة في المدينة نفسها (٢) . ومن هذين المثالين السابقين ، يحق لنا بازاءهما أن نتساءل عما اذا لم يكن هناك ممثل دائم للوطن الأصلي ، مزود بسلطات كافية لوضع مثل هذه اللوائح الادارية ، أو الفصل في مثل هذه الخلافات . ونمة واقعتان يبدو أنهما تنبئان أنه لم يكن في المستوطنة الفينيسية موظف خاص قائم على رأس الادارة : فمن جهة هناك وثيقة رسمية لمانويل ، قيل فيها ان كبار المستوطنة الفينيسية أتوا اليه باسم المستوطنة طالبين منه توسيع حي المستوطنة (٣) ، وهناك من جهة أخرى تعليمات أصدرها عام ١١٩٨ الدوق داندولو الى سفرائه يوصيهم اختيار مجلسهم (من العمال وأصحاب العمل) من بين أفراد المستوطنة في القسطنطينية (٤) ويعتقد السيد هوف Hopf (٥) أنه اكتشف رئيسين للمستوطنة الفينيسية في القسطنطينية ، فيذكر أولا شخصا يدعى باراسترو Giov. Barastro بتخذ لقب *procurator in Constantinopoli super redditibus* (مدير مالي ...) وذلك في فسيمة موقعة منه بصفته صراف البلدة (للجالية الفينيسية) في عام ١١٩٤ (٦) ، وثانيا ماجستريو *Magister Leo* بصفة « مدير مالي » *procurator Constantinopolitanus* . أرسل اليه البابا سيلستان الثالث Célestin III في عام ١١٩٧ الأمر بسداد عشور لأسقف كاستيللو Castellو فينيسيا (٧) . الا أن هذا الأمر نفسه يثبت أن الموضوع لا يتعلق بموظف فينيسي ، وانما بوكيل للبابا . من الثابت أننا لا نجد حتى عام ١٢٠٤ أي اسم لأحد الرعايا البنادقة يحمل لقباً أو يتولى وظيفة من طبيعة أي منهما أن يضفى عليه صفة « رئيس المستوطنة » . ولكن لدينا دلائل

Doc. sulle relax. tox. p. 10.

(١)

Taf. et Thom. I, 107.

(٢)

Taf et Thom. I 110.

(٣)

Archives des missions scientifiques, Série II, T. IV, p. 426 et s. not.

(٤)

Gesch. Griechenlands im Mittelater, dans Ersch et Gruber, LXXXV, p. 169.

(٥)

Taf. et Thom. I. 215 et s.

(٦)

Ibid. p. 226.

(٧)

تثبت أن هذه الوظائف كانت موجودة . من ذلك أن في التعليمات التي دونتها في عام ١١٩٧ حكومة بيزا لأوجوتشيوني بونو ، وبيتيرو مودانو ، أمرا بأن يعملوا على مصالح البنادقة في حالة ما اذا عرض عليهما اقتراح بذلك ، اما بواسطة سفراء الدوق (في القسطنطينية) أو قناصل البنادقة أو نوابهم ، أو قادة أسطولهم (١) . ولا يمكن أن تنطبق ألقاب القنصل أو الفيكونت التي نجدها في هذه الوثيقة الا على وظائف خاصة بالمستوطنة ، باعتبار الجملة التي استخدمت فيها هذه الألقاب ، ذلك لأننا بالتالي مباشرة ظهور رئيس الجالية البيزية بلقبه ، لقب الفيكونت . وقد تצלلنا فقرة في وثيقة رسمية لألكسيوس الثالث لعام ١١٩٩ بشأن القضايا بين اليونانيين والبنادقة (٢) . فالامبراطور يوافق على أنه في الحالات التي يقدم فيها يوناني شكوى ضد فينيسي لأضرار أصابته في مسائل نقدية ، أو لاهانات ، أو ضرب ، وجرح فله أن يلجأ الى المحكمة القينيسية : والاشخاص المذكورون ثمة على أنهم يشكلون المحكمة هم : سفير legatus الدوج في القسطنطينية ، ومروؤوسوه من القضاة (٣) . ولما كانت كلمة legati (جمل legatus - المترجم) هي نفسها المستخدمة للدلالة على الأشخاص المكلفين بالتفاوض مع الامبراطور باسم البندقية ، فقد يتراءى لنا أن هؤلاء هم نفس الاشخاص الذين يمارسون القضاء باسم الجمهورية . ولما كانت فترات طويلة تنقضي بين رحيل سفارة ووصول سفارة أخرى ، فان فترات تأخير وانقطاع طويلة تحدث في أعمال القضاء ، ولا تتناسب مع كثرة الدعاوى التي تستثيرها المصالح المالية . ينبغي إذن التسليم بأن محرر الوثيقة أو من قام بترجمتها قد ارتكب خطأ حين استخدم كلمة legatus لتدل أحيانا على العضو الدبلوماسي ، وأحيانا على المفوض الدائم من قبل الدوق ، أي الممثل الشرعي للوطن الأم وحكومته في المستوطنة ، ولقبه الرسمي هو عادة « قنصل » vicecomes . ومن الواضح أن هذا القاضي المفوض يعين بصفة موظف لفترة طويلة ، ويستصحب قضاة آخرين ، مروؤوسيه ، ويقسم معهم اليمين بالتزام النزاهة التامة ، وذلك في جلسة رسمية أمام الجالية مجتمعة وبحضور مندوب يوناني . ولا يمكن أن ينطبق كل هذا على عضو دبلوماسي مهمته ذات طبيعة غير نظامية من حيث زمانها ومن حيث مدتها . لنا إذن أن نؤكد أنه كان على رأس الجالية القينيسية في القسطنطينية رئيس معين من قبل الدوج ، لا تنتهي وظيفته الا يوم أن يحل محله فيها خليفة آت من البندقية .

Doc. sulle relaz. tox. p. 72.

(١)

Taf. et Thom. I, 273 et s.

(٢)

Taf. et Thom. I, 273 et ss.

(٣)

— اثبت السيد توماس في بحث صغير هام أنه في القضايا المرفوعة أمام المحكمة القينيسية ، تنص الاجراءات الميزنطية .

ونصل الى الننيجة نفسها الى مستوطنات بيزا ، ولكن بكيفية أكثر بساطة .
 كان تنظيم هذه المستوطنات في الأصل مختلفا . لقد أتيت لنا قبلا الفرصة
 للقول ، حسب رواية مارانجون Marangone أنه في عام ١١٣٧ حمل سفراء
 من قبل يوحنا كومنينوس هدايا باسمه الى بيزا . ويضيف بعض المؤرخين
 الأحداث عهدا ، كما رأينا أيضا أن السفراء اليونانيين كان في صحبتهم عند عودتهم
 اوجوني دودي ، البيزي Ugone Duodi الموفد الى القسطنطينية من جهة لشكر
 الامبراطور ، ومن جهة أخرى لتولى ادارة المستوطنة البيزية بهذه المدينة . ويبدو
 أن اللقب الذي يطلقه المؤلفون على « دودي » هذا أكثر حداثة بالنسبة الى ذلك
 العصر ، فيقولون انه عين قنصلا مقيما بالقسطنطينية (١) . ولدينا ميثاق بإقامة
 منشأة ، حرر في حضوره في القسطنطينية ، أثبت فيه صفته ، لا بأنه «قنصل»
 ولكن باعتباره Legatus (٢) . هذا الميثاق يتبث أن « دودي » كان بالفعل وزيرا
 مفوضا لوطنه في القسطنطينية . هناك اذن أسباب تؤيد ما يقوله المؤلفون الذين
 ذكرناهم آنفا : وكذلك ما يروونه من اخبار مستقاة بعامة من مصادر موثوق
 بها . وعلى ذلك فنحن هنا بازاء حالة خاصة ، حالة شخص كلف بمهمة لدى
 الامبراطور ، وعين مقدما ليؤدي لعدة سنوات (٣) وظيفة رئيس المستوطنة ،
 وذلك بعد انجاز مهمته التي كلف بها . وفي موافق لعصر لاحق ، نجد منصب
 السفير ، ومنصب رئيس المستوطنة مسندين الى شخصين مختلفين : فالمنصب
 الأول يوصف بأنه legati, missatici, nuntue والثاني بأنه Vicecomites (٤) .
 وكان في الامكان تكليف السفراء بتنفيذ بعض الاجراءات التنظيمية في المستوطنة .
 الا أن الممثل الشرعي الدائم للوطن الأم في المستوطنة ، كان ، كمبدأ عام على
 الأقل ، ومنذ عام ١١٦٠ هـ الفيكونت الذي يعين سنة بعد سنة . من ذلك
 أنه أوفدت سفارة الى القسطنطينية في عام ١١٦٩ ، ولم يكن أحد من الاشخاص
 الثلاثة الذين يشكلون السفارة معيناً في منصب رئيس المستوطنة ، ولكن كان
 في صحبة هؤلاء موظف معين لهذا المنصب ، هو الفيكونت مارسسيوس Marcus
 وكان مارسسيوس هذا هو أول جماعة من أربعة الى خمسة فيكونتات عرفنا
 أسماءهم (٥) . ولسنا نجد ، الا في مرة واحدة الى جانب الفيكونت اسم

- (١) يزعم مؤرخان : السيد ترونشي Tronci (ص ٣٧) ، والسيد رونشوني Rencioni (ص ١٥٢) أن بيزا حصلت منذ عام ١٠٠ على الاذن بارسال قناصل الى القسطنطينية ، وقد أوضحت
 فيما قبل أن التاريخ الصحيح ينفي نفيا قاطعا مثل هذه الزاعم .
 (٢) Doc. sulle relaz. tox. p. 4.
 (٣) يقول Ranciani ص ٢٥٦ ان اقامة « دودي » في القسطنطينية امتدت الى ما بعد
 ارتقاء مانويل العرش (١١٤٣) .
 (٤) Doc. sulle relaz. tox. p. 8, 10, 62; Monum. spect. hist. Slav. merid., I. 10.
 (٥) Marcus, 1169. Mon. Slav. merid. I. I. ; Doc. sulle relaz. tox. p. 81, Gerardus Marzucci, 1195, ibid. p. 67, 72 : Gerardus Arcossi ?
 1199, ibid. p. 75-78; Sigerius Cinami, 1199-1200 : ibid. p. 74 et s., 82.

comes Pisanorum (رينيريوس Raynerius (١) . غير أن هذه الصفة تبدو أنها اللقب الشخصي لرينيريوس هذا ، وليست لقباً لمنصب فى مستوطنة .
والراجع أن هذه الشخصية هى نفسها التى نصادف اسمها فى ميناخ آخر Raynerius comes de Segari (٢) . القاعدة العامة هى اذن أننا لانجد سوى فيكونتات كرؤساء للمستوطنة . وكانت مهام وظائفهم الرسمية تنظم اما بتعليمات خاصة ، يؤدون اليمين لمراعانها ، أو (٣) بقوانين سارية فى الوطن الأم ، واما بمعاهدات . وفى الظروف العصيبة بنوع خاص كانوا يطلبون موافقة كل أفراد المستوطنة (٤) . وثمة وثائق ادارية ، ونصوص أحكام قضائية قد تكون ذات فائدة كبيرة لنا لأنها تعطينا فكرة عن أهمية دور هؤلاء فى هذين المجالين . غير أنه لم يصلنا شئ من ذلك ، فلا نكاد نملك الا بضعة سجلات للايرادات والمصروفات تثبت أن من وظائفهم وظيفة مدير خزانة البلدية ، وهم بهذه الصفة يحصلون ايجارات المنازل والأراضى ، والموانى ، وحوادث الصيارف الخاصة بالمستوطنة بوجه عام ، ونصيب الجماعة من الأموال التى يتركها المستوطنون الذين يموتون دون أن يتركوا وصية ، ويسددون أيضاً نفقات المستوطنة ، ويقدمون حساباتهم فى اجتماع رسمى فى كنيسة القديس نيكولاس بحضور السفراء حين يكونون موجودين فى القسطنطينية (٥) . وكان يتبعهم موظفون آخرون ، منهم مراقبو الأسواق embolarue ، ومراقبو الاسكالات scalarue وقضاة Judices يساعدون الفيكونت فى وظائفه القضائية (٦) .

ورغم ندرة المعلومات التى وصلتنا بشأن ادارة المستوطنات البيزية والفينيسية ، فانا نملك على الأقل بعضها منها ، فى حين أن المصادر الجنوبية ، على الأقل ما نشر منها الى الآن لا تزودنا بأى ايضاح عن تنظيم المستوطنة الجنوبية فى القسطنطينية ، ولا عن الادارة الكنسية . وفى هذا الموضوع كما فى الموضوع السابق ، يتعين علينا أن نقنع بما نعرفه عن المستوطنات الفينيسية والبيزية . قفى كل المرات التى حصل فيها المستوطنون البندقية فى القسطنطينية على كسب جديد ، كان نصيب كنائس البندقية منه موفوراً بقدر كبير . فمن جهة كان الإباطرة اليونانيون أنفسهم هم الذين يخصصون لكنيسة سان مارك بالبندقية (٧)

En 1195; Doc. p. 67.

(١)

Doc. p. 94.

(٢)

Doc. p. 74.

(٣)

Doc. p. 77. مثال ذلك : عندما يقتضى الأمر تجهيز سفينة بناء على طلب الإمبراطور .

Doc. sulle relaz. tox. p. 74-78; cf. 72.

(٥)

Ibid. p. 8, 18, 74 et s.

(٦)

Taf. et Thom. I, 52, 97, 117, 183.

(٧)

نصيبا معينا في الايرادات ، وذلك في عقود الامتياز . ومن جهة أخرى كان
الأدواج هم الذين يتبرعون بجزء من المبنى أو الأراضي المتنازل عنها لصالح
وطنهم للعديد من الأديرة ، كدير القديس جورجيو ماجيور S. Giorgio Maggiore
والقديس نيكولو S. Niccolo الخ . وفي القسطنطينية نفسها ، كان البنادقة
يملكون بالفعل ، قبل وثيقة الكسيوس الكبرى (١٠٨٢) كنيسة القديس
اكندينوس St. Akindynos اليونانية التي كان لها امتياز الاحتفاظ بالموازين
والمكايل المستعملة في كل الصفقات التجارية التي يعقدها البنادقة بدخل
المدينة (١) . وكانوا يملكون أيضا كنائس أخرى شيدوها هم في الغالب ؛
كنيسة سان مارك وديرها ، وهي تابعة لكنيسة القديس جورجيو ماجيور في
البندقية ، وكنيسة القديسة مريم المسماة de embulo تميزا لها عن كنيسة
أخرى بنفس الاسم ، وكنيسة القديس نيكولاس ، ومجموعها لا يقل عن أربع
كنائس (٢) . وثمة مرسومات من البابا أدريان الرابع ، والكسندر الثالث (٣)
يرخصان لبطريك جرادو Grado (البندقية) بأن يقيم أسقفا في القسطنطينية
وفي مدن الامبراطور اليونانية ، اذ اقتضت ذلك أهمية المستوطنة ، أو كان
للبنادقة بها عدة كنائس : وليس هناك وثيقة معروفة تثبت أن هذا الترخيص
قد نفذ .

وكان البيزيون يملكون في القسطنطينية كنيستين ، كنيسة القديس
نيكولاس ، وكنيسة القديس بطرس ، وكانت الأولى ضمن المنحة الأولى التي
أجرها الكسيوس ، أما الثانية فقد أقاموها هم أنفسهم في حيهم (٤) : ويتبع
هاتين الكنيستين مستشفى وجبانة ، وتملكان ثروة كبيرة تشمل منازل وايرادات
من الموازين والمكايل وأسكالات السفن ، الخ (٥) . وكان للكنيستين رئيس
واحد (٦) ، ولكنهما تابعتان لكاتدرائية بيزا ، فلم يكن هذا الرئيس بالاجمال
سوى مدير (bailius) يتولى الادارة باسم رئيس كاتدرائية بيزا . وتتكون
ايرادات الكنيستين من الايجارات ، وحصيلة بعض الرسوم ، وايرادات المؤسسات

Ibid. I, 68; ; ibid, 127, 129, 132, 227, 281. (١)

Taf. et Thom. I, 98 et ss., 125-133, 280 et s. (٢)

Armingaud, I.c.p. 427 et ss. (٣)

Doc. sulle relaz. tosc. p. 50, 55; les chartes, à partir de 1160 (Doc. p. 8, 10, 12 etc.) (٤)

Doc. p. 10, 18 et s., 70, 75, 93. (٥)

Doc. p. 18, 81 et s.) Petrus (٦) في عام ١١٨٠ شغل هذا المكان شخص يدعى بطروس

(Doc. p. 79, 81 et s.) Benenatus وخلفه في عام ١١٩٧ من يدعى بيناتوس

بقى شاغلا وظيفه فترة طويلة بعد استيلاء الفرنجة على القسطنطينية

ibid. p. 84 et ss., 88, 93 et s.)

الحيرية . وحين يتسلم الرئيس مهام وظيفته ، بقسم أن يؤدي هذه الإيرادات الى صندوق كاتدرائية بيزا بعد خصم المبالغ اللازمة لصيانة الكنيستين وأداء الشعائر ، وكان محظورا عليه أن يبيع أو يرهن أو يستخدم لغرض ذى نفع عام الأشياء الثمينة التى تملكها الكنيستان دون ترخيص من رئيس الكاتدرائية (١) . وبخلاف هاتين الكنيستين المكرستين للشعائر الكاتوليكية الرومانية ، كانت المعاهدات تكفل للبيزيين مكانة فى كنيسة القديسة صوفيا اليونانية : وكان الغرض من هذا النص غالبا أن يضمن للفيكونت البيزى مكانا فى الاحتفالات الدينية الكبرى ، كما كان للمستوطنين أيضا عدد من الأماكن محجوزة لهم فى مضممار السابق للأعياد المدنية (٢) .

لقد عرضنا من جميع وجهات النظر حالة العلاقات بين مدن البندقية وبيزا وجنوا وبين الامبراطورية اليونانية قبل الحملة الصليبية الرابعة ، ولم يبق علينا فى ختام هذا الفصل إلا أن نعطى فى بضعة سطور لمحة من الوثائق النادرة التى تسجل علاقات البلاد الغربية الأخرى بهذه الامبراطورية وسبق أن رأينا فى نص للإمبراطور الكسيوس كومنينوس أن المستوطنين الأمالفيين الذين يملكون حوانيت فى القسطنطينية كانوا تابعين لكنيسة سان مارك بالبندقية . وعندما سقطت أمالفي فى أيدي الملوك النورمان ، سحب منهم الإباطرة اليونانيون كل امتيازاتهم : ومن ناحية أخرى سدد البيزيون فى أغسطس ١١٣٥ ضربة قاضية لهذه المدينة ولأساطولها . ولما كان البيزيون حلفاء للإمبراطور الألماني لوثير Lottaire فى حربة ضد الملك النورماندى روجر ، واضطلعوا فى الحرب بدور فعال ، وانتهزوا الفرصة للانقضاض على السفن التجارية التابعة لحصصهم القديم ، ونهبها واشعال النيران فيها ، وكانت هذه الكارثة نقطة البداية لانتهاء أمالفي . ومع ذلك تشبثت أمالفي بمسقطها بالقسطنطينية . وفى عام ١١٩٢ بمناسبة طلبت قدم لتوسيع الجى البيزى ، أمر الامبراطور اسحق بعمل وصف لهذا الجى ، ونرى فى هذا الوصف أن حتى الأمالفيين ورسيفهم كانوا متآخمين لجى البيزيين ورسيفهم (٣) . وبجانب هذه المنشأة القديمة العهد ، التى تمتد وجودها بلا ضوضاء زمنا طويلا ، يتبين لنا منشأة جديدة . وإذا كانت أمالفي قد فقدت عطف الإباطرة ، فإن « انكونا » على العكس من ذلك قد غمرها مانويل بآيات فضله وإخسانه ، جزاء لها على استغدادها لأن تجعل من نفسها أداة لمؤامرات الامبراطور ودسائسه . والراجح أنه الى هذا التاريخ يرجع وجود مستوطنة

Doc. p. 10, 18 et s., 70, 93.

Doc. p. 53.

Doc. sulle relaz. tox. p. 56 et s.

Paspatis, p. 156, 154. انظر :

(١)

(٢)

(٣)

أنكونية في القسطنطينية . وفي عام ١١٩٩ وقع رئيس الكنيسة الأنكونية في القسطنطينية بروتوكولا في مسألة تخص رئيس الكنيسة البيزية . هذه المعلومة تثبت أن الانكونيين كان لهم كنيستهم في القسطنطينية (١) ، ومن ثم يجوز لنا أن نستنتج وجود مستوطنة لهم . ومن الجائز أن نعتبر من الشعوب الإيطالية أهالي راجوزة (الآن دبروفنك بيوغوسلافيا - المترجم) ، ذلك لأن العنصر السللاقي (الصقالبة) الذي صار له فيما بعد أهمية كبيرة بين هؤلاء (أى أهالي راجوزة) كان في ذلك العصر محسوسا بالكاد . وثمة حوليات تذكر أن مانويل منحهم حق البورجوازية في القسطنطينية (٢) . حقا ، ان هذه الحوليات ترجع الى عصر أكثر حداثة ، ولا تستند الى أية وثيقة حقيقية ، ومع ذلك فليس من المستحيل أن يكون فيها أساس من الحقيقة ، فالمعروف أن مانويل كان في نزاعة مع البندقية يعتبر راجوزة من حلفائه .

وفيما يختص بسائر الأمم المثلة في الامبراطورية اليونانية ، فان رعاياها كانوا منتشرين في كل ناحية . وفي عام ١١٤٢ طلب كونراد الثالث (من أسرة هوهنشتاوفن) ، من الامبراطور يوحنا كومنينوس التنازل لصالح الألمان المقيمين في القسطنطينية عن رقعة من الأرض كافية لبناء كنيسة : واستجاب لهذا الطلب اما يوحنا كومنينوس ، واما خليفت مانويل . وفي خطاب لاحق أعلن كونراد لمانويل سفر امبريكو Embrico السقف فيرتزبورج موفدا سفيرا الى القسطنطينية (١١٤٥) ، وينبئه بأن مبعوثه هذا مكلف ببعض المسائل المتعلقة بموقع الكنيسة (٣) . وزعم البعض أن هذه الكنيسة شيدت خصيصا للجنود الألمان ، فقد كان الكثير منهم في القسطنطينية ، وكان العاهل الألماني قد أرسل عمدا منهم لخدمة يوحنا كومنينوس . الا أنه لا يمكن التسليم بهذا الحدث العارض كباعت على انشاء الكنيسة ، على الأقل ، وبالدات لأن كونراد يقيم في خطابه تفرقة تامة بين هؤلاء الجنود وبين الألمان الذين يتعين انشاء كنيسة لهم . يجب اذن أن نفترض أن هؤلاء تجار ، وان أردنا برهانا على ذلك ، فانا نجده في الوثيقة اللورخة يوثية ١١٨٩ ، وفيها يقترف الامبراطور اسحق عملا غير

(١) 'Doc sulle relaz.' tox, p. 82.

(١)

— كانوا يقومون برحلات عمل في القسطنطينية وفي الامبراطورية اليونانية ، انظر : Jac. Bon, compagnie, dans sa relation du siège d'Ancône

(جاك بونكومباني في روايته لحصار أنكونا عام ١١٧٤) :

en 1174 Murat, SS. VI, 930.

Luccari, Copioso ristretto-degli annali di Rausa, Venice, 1605. (٢)

p. 22, 27.

— يقول هذا المصدر (ص ٢٧) ان الكسيس ابن مانويل ،

(أو بالأحرى أوصيائه) صدق على امتيازات الراجوزيين .

Otto Frising, dans Pertz, SS. XX, 364, 365 ; cf. Jaffé, Konrad III. (٣)

p. 101, 103; Giesebrecht, Gesch. der deutschen Kaiserzeit, IV, 465, 468, 497.

شرعى بصورة واضحة ، اذ ينزع من الفرنسيين والألمان حين واسكالات لرسو السفن ، وكان الفرنسيون يتمتعون بها بموجب قرار امبراطورى (١) ، ويعطى هذه الاشياء للبنادقة . ولتبرير هذا التصرف ، ادعى أسحق أن عقد امتياز هؤلاء المستوطنين لم يحدد الايجار الواجب أن يدفعوه ، وأن تقدير قيمته متروك للظروف ، وأن الامتياز لم يمنح لمجموع الفرنسيين والألمان ، ولكن لبعض أفراد غير معروفين ، لا صلة تربطهم بآمتهم . أما بالنسبة الى الألمان (٢) ، فانا نتساءل: من أين جاء هؤلاء التجار ، الذين لا صلة تربطهم ببلدهم بحيث لا يوجد خلفهم أية سلطة قادرة على توفير الاحترام والحماية لهم ؟ هل جاءوا من مدن الدانوب ، أو من فيينا أو راتسبون ؟ وهل أتوا عن طريق البر أو البحر ؟ أو كانوا ينتسبون الى بلاد تطل على بحر الشمال ، أو من بریم Brème أو كولن Coelln وجاءوا الى القسطنطينية على متن سفنهم ؟ يبدو أن امتياز الارصفة الممنوحة لهم بأشخاصهم يدل على أن سفنهم كانت ملكا لهم ، أو لعلمهم كانوا يجوبون البحار فى سفن تنتمى الى جنسيات أخرى ، ولم يختاروا القسطنطينية الا كنقطة للتلاقى ؟ أما بخصوص المستوطنين الفرنسيين الذين جردهم أسحق أيضا من ممتلكاتهم، فانا نستطيع أن نوكد ، ولدنيا البرهان على ذلك ، أنهم ينتمون الى المدن التجارية الكائنة بجنوب فرنسا ، مثل « الفرنسيين » الذين كانوا فى تسالونيك يترددون على سوق القديس ديمتريوس ، مع الاسبان والبرتغاليين .

الامبراطورية اللاتينية

كان العالم اليونانى يعيش فى مواجهة الصليبيين الغربيين فى حالة مستمرة من الفزع ، يستشعر وقوع كارثة تكون القسطنطينية ضحيتها الأولى . وكان اليونانيون فى أكثر من مرة يتسببون بأخطائهم فى نفجير الكارثة . ففى عام ١١٤٧ أثناء مرور الجيش الذى يقوده لويس السابع ، كان سلوك اليونانيين مثيرا ، والهباج شديدا فى صفوف الصليبيين ، حتى لقد عانى الملك مصاعب جمة فى الدفاع عن نفسه حيال مطالبهم الملحة التى كانت تنزع على أقل تقدير الى حمله على التحالف مع الملك النورماندى روجر للاستيلاء على القسطنطينية (٣) وفى ظروف مماثلة ، كان فردريك بارباروس يفكر بعض الوقت فى مشروع الاستيلاء قسرا على حاجة الامبراطورية ، فأقام معسكره الشتوى فى اندرينويل .

Taf. et Thom. I, 208 et s.

(١)

Guntherus, Hist. Cpol.

(٢) نجد أيضا اشارة الى هؤلاء الألمان فى :

اذ يذكر أنه حين استولى الصليبيون على القسطنطينية لثانى مرة (١٢ أبريل ١٢٠٤) ، قتل عدد كبير من اليونانيين .

Kagler, Studien zur Geschichte des Zweiten Krcuzzugs, p. 141, 142 (٣)

ولما كان في حاجة الى أسطول حتى ينيسر له فرص النجاح ، فانه كلف ابنه هنري بخطاب حرره في ١٦ من نوفمبر ١١٨٩ أن يجرى مفاوضات مع مدن إيطاليا البحرية ، وبالذات جنوا ، وانكونا ، والبندقية ، وبيزا . وكان على الأمير أن يقترح على هذه المدن تجهيز الأسطول وارساله الى القسطنطينية في شهر مارس من السنة التالية ، بحيث يمكن مهاجمتها برا وبحرا في آن واحد . ووافقت بيزا على أن تسهم في هذا المشروع ، وأوفدت سفيرا الى بارياروس ، وعندما لحق به السفير كان الامبراطور قد تخلى عن مشروعاته بخصوص القسطنطينية وتأهب لعبور الدردنيل (مارس ١١٩٠) (١) .

وأخيرا هبت العاصفة التي كانت تتهدد « ملكة المدن » ، وذلك بمناسبة الحملة الصليبية الرابعة . وقد نظم هذه الحملة فرسان فرنسيون وفلمنك ، وتعززت فيما بعد باسهام البنادقة ، وكان هدفها الأصلي مصر ، وغايتها ضمان سلامة مسيحيي سوريا (٢) . وفجأة غير رؤساء الحملة وجهتهم . وأصدروا الأمر بالابحار الى القسطنطينية ، وأعلنوا على رؤوس الأشهاد قصدهم باعادة الامبراطور إسحق الى عرشه الذي خلع منه منذ قليل ، ورد حقوقه وحقوق ابنه الأمير الكيسوس . فماذا حدث اذن ؟ تمكن الأمير من الهرب من القسطنطينية (١٢٠١) بمساعدة ذوى نفوذ في المستعمرة البيزية (٣) الكونت رينبيوس دي سيجالاي (٤) والبيراندس فارسيلياتس (٥) ، ولذا البلاط الألماني حيث استقبلته بالترحاب اخته ايرين Irene وزوجها فيليب دي سواب Philippe de Souabe اهتم هؤلاء اهتماما شديدا بمشروعه الخاص باسرداد العرش . وهنا طرأت لهم فكرة الاستعانة بالفرسان الفرنسيين والفلمنكيين الذين كانوا وقتئذ يعدون عدتهم للرحيل لشن الحملة الصليبية ، وتكليفهم القيام بعملية حربية مضللة لصالح أسرة انجيلوس : وكان الرئيس الذي انتخبه الفرسان في أحسن حالة نفسية تدفعه للاستماع الى تلميحات فيليب : كان هو المركز بونيفاس دي مونفيريا Boniface de Montferrat وكانت مصاهرات أسرته ، ومثال اخوته ، وما أصابه من اهانات يريد أن ينأز لها ، بدت أنها قد تجمعت لتدفعه الى القسطنطينية (٧) : وعهد اليه فيليب دي سواب الأمير الكيسوس الصغير

(١) Ansbertus, De exped. Friderici, p. 32, 55; et Riezler : Forschungen zur deutschen Geschichte, X, 48.

(٢) Villehardouin, éd. de Wailly (1872), p. 19; Rob. de Clary, dans Hopf, Chroniques gréco-romanes, p. 5.

(٣) Doc. p. 94; Nicétas, p. 711. كانت السفينة التي استقلت الأمير سفينة بيزية : Ughelli, Ital. sacr. I, 539.

Doc. sulle relaz. tosc. p. 67.

(٤)

Doc. p. 9, 12, 13 ; ibid 19.

(٥)

Winkelmann : Jahrbuecher der deutschen Gesch. 1197-1208, Revue

(٦)

des questions historiques, XVII, p. 321 et ss., XVII, p. 5. et ss. Robert de Clary (I.c. p. 24,31).

(٧)

بنوع خاص (١) . وكان لابد أخيرا من مشاوره الفرسان مجتمعين : وأقام بونيناس نفسه المحرك الرئيسى المتحمس للمشروع ، وقدم السفراء الألمان المزيد من الوعود الخلافة ، وتقدم ألكسيوس متوسلا فأثار المشاعر . ومع ذلك لم يكن ثمة شيء يقنع الفرسان بالموافقة على قلب كل الخطط التى اشتركوا فى وضعها ، بهذه الصورة غير المتوقعة ، وذلك من أجل مغامرة لا يهتم بها الغالبية منهم . وبدأ أن المشروع قد أهمل ، ولكن الدوج دونالدو تناوله من جديد ، وتولى تحقيقه وكان هو الذى جهز الأسطول . ولما كان الفرسان مفلسين ، صار الدوج ، بسبب ما قدمه من مال هو القائد الفعلى للحملة بعد أن كان مجرد حليفا لها ، ولم يهتم برغبات فيليب دى سواب ، ولم يشغل باله فكرة الانتصار على البابا بتحويل الحملة الصليبية عن هدفها الرئيسى ، فى حين كان لهذه الفكرة فى مجالس الملك أهمية لا تقل عن سائر الحوافز . كان اعتبار واحد هو الذى يوجه تصرفات الدوج : ذلك هو الدفاع عن مصالح البندقية التجارية ، وكان يعرض هذه المصالح للخطر ارسال أسطول حربي مجهز بمعرفة الجمهورية للاغارة على مصر ، وهى بلد لكل تجار البندقية مطلق الحرية فى دخولها بسفنهم والخروج منها ، ومباشرة أعمال تجارية مثمرة معها . أما فى القسطنطينية ، فعلى العكس من ذلك كان المختصب يذيق البنادقة ألوان الذل والهوان ، ويفضل عليهم البيزيين ، لذلك كان من صالحه اسقاط المختصب ، وارتقاء أسرة ملكية أخرى العرش . واذ أصبحت هذه الأسرة مدينة بالفضل للبندقية ، كان اقرارها بالجميل يحتم عليها أن تفعل كل ما يطلبه منها . وهكذا حان الوقت لتنفيذ التهديد الذى وجهه فى عام ١١٩٨ سفراء البندقية الى الامبراطور الكسيوس ، ولمساندة المطالب بالعرش مساندة فعالة . ولا ننسى اعتبارا شخصيا كان له بالتأكيد نصيب فى التأثير على الدوج : ذلك هو حب الظهور على رأس أسطول قوى أمام مدينة القسطنطينية حيث كان قبلا ضحية لخبث الشعب اليونانى وهمجيته . ومنذ اليوم الذى عرفت فيه مشروعات الصليبيين ، أصبح وضع البنادقة المقيمين فى القسطنطينية سيئا للغاية ، كما كان متوقعا ، كذلك لم يكن وضع سائر اللاتينيين بأحسن حالا . وكان سيكارد Sicard أسقف كريمونة موجودا فى القسطنطينية فى عام ١٢٠٤ ، ومن ثم كان على علم تام بأحداث عامى ١٢٠٢ ، ١٢٠٣ ، اذ يروى أنه عندما علم الناس أن الصليبيين بدءوا المعارك بنهب سواحل الامبراطورية على طول البحر الأدريانى ، قامت ثورة، فاقترح اليونانيون والحرس القارانجى الحى الفينيسى وارتكبوا فيه كل ألوان العنف والقسوة ، وألقوا بالكثير من البنادقة فى السجون ، وقتل الكثير منهم (٢) . واستبد الهياج بالدهاء فهدموا المنازل التى يسكنها الغربيون على ضفاف القرن الذهبى . ويسجل نيكتاس بأسف أن الأمالفيين الذين كانوا وقتئذ نصف

Villehardouin, p. 64.

(١)

Murat. SS. VII, 619.

(٢)

يونانيين ، وكذا البيزيين قد أصابهم ما أصاب سائر اللاتينيين (١) .

وقد ارتكب الدهماء خطأ جسيما حين أوقعوا ضربانهم الهاتجة بالغربيين كافة دون نفرقة : ذلك لأن الجنوبيين والبيزيين كانوا أولا قد رفضوا التعاون مع الحملة الصليبية (٢) . ولم يكن تمسه مواطن واحد من مواطني هاتين الجمهوريتين في صفوف الجيش ، بل على العكس ، أسهم المستوطنون البيزيون اسهاما فعّالا في الدفاع عن القسطنطينية ، وكانوا يشكّلون قسما من حرس برج غلطة (٣) ، وذات يوم دحروا نفرا من العدو افتحموا المدينة من ثغرة فتحوها في السور بالقرب من الرصيف الامبراطوري (٤) ولم يكن سلوكهم هذا يمليه فقط الرغبة في مساندة الامبراطور اعترافا بأفضاله عليهم ، وانما كانوا يحمون بيوتهم ، ويدافعون عنها ضد خصوم أثبتت لهم تجارب السنين الأخيرة ، على أقل تقدير موافهم غير الطيبة . ومع ذلك لم يستطيعوا الحيلولة دون سقوط المدينة في أيدي الصليبيين . وفر المغتصب ، وابتهج الأمير الكسيوس حين رأى أباه اسحق الشيوخ الكفيف يسترد عرشه ، وبقي هو الى جوار الامبراطور بصفته شريكا له في الحكم . ولسنا نعرف كيف عامل الصليبيون في هذه الأحوال (١٧ يولية ١٢٠٣) الغربيين المقيمين في العاصمة . وانقضت بضعة أسابيع ، وأسعد الامبراطور اسحق بعدها أن يجرى تقاربا بين البنادقة وبين البيزيين : فذهب هؤلاء لزيارة البنادقة في معسكرهم في بيرا (حى بالقسطنطينية) ، واستقبلوا ثمة بالترحاب (٥) ونسيت الخلافات القديمة ، وصارت مقاليد الحكم في أيدي الامبراطورين اللذين يحاييان اللاتينيين . يبدو اذن أن كل شيء لابد أن ييسر للتجار الايطاليين استعادة نشاطهم التجاري . لسوء الحظ بقي نفور الشعب اليوناني من الغربيين شديدا كما كان فيما مضى ، وزادته حدة أعمال العنف والقسوة التي اقترفها الصليبيون ، وكان في هذا ما يكفي لمحو كل نتائج الحملة تقريبا . ولسوء الحظ قامت عصابة من النهايين الفرنجة بأشغال حريق انتشر بدرجة مخيفة . وزادت هذه الكارثة من هياج الشعب اليوناني حتى لم يعد الغربيون يشعرون بالأمان في المدينة ، ولم ينج الكثير منهم من هذه البلية ، اد نزل الخراب بهم ، وفقدوا ديارهم (٦) . في هذا الوقت العصيب قر عزمهم على تأمين

Nicét, p. 730. (١)

Villehardouin, p. 21; Clary, p. 5. (٢)

Epist. Hugonis comitis S. Pauli, dans Taf. et Thom., I, 307. (٣)

Nicét, p. 721. (٤)

Nicét, p. 730; Wilken, Gesch. d. Kreuzz, V, 241, (٥)

Nicéas, p. 731 et ss.; Villehardouin, p. 119. (٦)

يتبين من وصف نيكيتاس للأحياء التي أصابها الحريق ، أن الحريق أصاب أيضا الأحياء التجارية ، وامتد يسارا الى بيراما .

— Cf. Paspati, dans le Bulletin du Syllogos de Constantinople,

VII 94 et ss, p. 190. الحريق الذي سلم من الحريق

سلامتهم بالهجرة الجماعية : فعبر خمسة عشر ألف منهم الميناء ، مع نسايتهم وأطفالهم ، ولجأوا الى معسكر الصليبيين فى بيرا (١) . كان ذلك فى شهر أغسطس عام ١٢٠٣ . وبعد رمن قليل هب اليونانيون علانية ، وأشعلوا ثورة مضادة بقيادة الكسيوس دوكاس مورتزوفيلوس Alexis Ducas Muréuphyle (يناير ١٢٠٤) الذى نشر مرسوما بطرد كل اللاتينيين المقيمين بالقسطنطينية بقصد منعهم من التآمر مع الصليبيين المعسكرين تحت أسوار المدينة . ولكن رغم ما يؤكده كاتب لاحق ، هو جورجىوس اكروبوليس Georgius Acropolitès فانى أشك فى أن هذا الامبراطور أصاب بمرسومه « الألف » : اذ لم يبق ثمة الكثير من هؤلاء اللاتينيين (٢) . ومع ذلك فان اللاتينيين لم يهجروا القسطنطينية هجرا مطلقا ، فقد بقى بها دائما بعض البنادقة ، حتى فى أشد الأوقات خطورة . ويحكى المؤرخ نيكتاس أنه فى اليوم الذى استولى فيه الصليبيون على القسطنطينية لثانى مرة نجا بحياته بفضل حماية بعض البنادقة من أصدقائه (٣) . هذا لا يمنع من أن الذين اضطروا الى الخروج من المدينة كانوا متعطشين للانتقام ، وفى أثناء الهجوم وضعوا فى خدمة المقاتلين سواعدهم ونصائحهم ، وفيما بعد أبدوا منتهى العنف والقسوة فى مذبحة المهزومين (٤) .

أصبح الصليبيون لثانى مرة سادة القسطنطينية (١٣ من أبريل ١٢٠٤) ، الا أن هذه العملية الحربية الجديدة كان لها نتائج مختلفة كل الاختلاف عن العملية الأولى . فأول كل شئ عدل (الصليبيون) عن القيام بمحاولة جديدة لاقامة أمير يونانى على العرش : فتولدت امبراطورية لاتينية فى الأقاليم اليونانية ، وملأت الأرض حولها مجموعة من الامارات والبارونيات على رأسها سادة يتكلمون الايطالية أو الفرنسية . وكان الغزاة منقسمين الى جزأين متباينين كل التباين ، وكل جزء يسعى الى مصلحة خاصة به ، وبقي كذلك وقت التقسيم : فهناك من جهة البنادقة ، ومن جهة أخرى الصليبيون peregrini و ثمة معاهدات ، وضعت مبادؤها مقدما ، تولت تنظيم الامبراطورية اليونانية مستقبلا . وتم الاتفاق على أن يحكم الامبراطورية كلها امبراطور واحد ، ويجرى اختيار هذا الامبراطور اثنا عشر ناخبا ، ستة عن الصليبيين ، وستة عن البنادقة ، ويعترف الجميع به رئيسا ، ويوضع ريع الامبراطورية تحت سلطته المباشرة ، ويقسم الباقي الى جزئين متساويين

Villehardouin, p. 119.

(١)

— يحدد أبو الفرج (السورى) عدد التجار الفريجة المقيمين بالقسطنطينية فى هذه اللونة بثلاثين ألفا ، ولكننا نفضل بيان قبلها دون فى هذا الخصوص اذ كان شاهد عيان . ويتولى اوستات أنه فى حوالى عام ١١٨٠ كان هناك من هؤلاء قرابة ستمائة ألفا وأكثر .

Georg. Acrop., p. 8,9 : Gunther (Hist cpolit, dans Riant..)

(٢)

Nicét., p. 777; Gunther, I, c.

(٣)

Georg. Acro p. 9; Gunther, Hist. Cpolit I, c.

(٤)

تحددهما لجنة خاصة^١ ، ويسلم كل جزء الى واحد من المتقاسمين ، يستلمه كاقطاعية من قبل الامبراطور في مقابل التزامات محددة . وعند تحرير هذا المشروع الأولى لم يفت البنادقة أن يحتفظوا لأنفسهم في الامبراطورية اللاتينية الجديدة بكل الحقوق والعادات والأموال التي كانوا يتمتعون بها في الامبراطورية البيزنطية (١) .

وبعد الاستيلاء على المدينة ، جرى انتخاب الامبراطور (٩ مايو) ، والمعروف أن الاختيار وقع على بودوان (بلدوين) كونت الفلاندر ، ولم يجر تقسيم الأقاليم التي كان يحكمها قبلا الاباطرة البيزنطيون الا بعد انقضاء عدة شهور ، وذلك في مستهل شهر أكتوبر (٢ ، ٣) وفي حوزتنا وثيقة التقسيم . وقد دون السيد تافل M. Tafel النص الأصلي بعد أن أجرى تصححاً لأصابه من تلف ، وأتاح له معرفته العميقة بالجغرافيا ايضاح قدر كبير من الغموض (٤) ونلقى الامبراطور في التقسيم أقليم آسيا ، والجزر الواقعة شمالى بحر ايجه وشرقيها ، وشریط من اقليم تراقيا على طول البحر الأسود ، ونال الصليبيون (الحقيقيون) القسم الأكبر في براقيا ، من نهر هبرس (ماريتسه ، أو ماريتكا Maritza) حتى بحر هرمره ، والقسم الجنوبي من مقدونيا ، وتساليه ، والقسم الشرقى من الهيلاد (هيلاس : الاسم القديم لبلاد الاغريق - المترجم) وأخيراً فان نصيب البنادقة ، وهو الذى يهمننا فى هذا المجال ، كان يشمل :

١ - ابيروس l'Epire ، داکارنانيا l'Acarnanie وايتوليا l'Etolie مع مدن دورانرو Durazzo ، وأرنه Arta ، وغيرها ، ٢ - الجزر الأيونية ، وذكر منها بنوع خاص كورفو ، وكيفالونيا Cephalonie ، وسانت مور Sainte-Maure وزانتى Zante ، ٣ - البيلوبونيز ، والمشار اليها فى المعاهدة بمدن : بتراس Patras وكالفريتا Calovryta وأوستروفا Ostrova ومودون Modon ولاكيدومونيا Lacédemonia ٤ - جزر جنوبى وغربى الأرجنيل (بحر ايجه قديماً - المترجم) ، ومنها ناكسس Naxos ،

(١) Taf. et Thom, I, 446, 450; II, 229.

(٢) هذا هو التاريخ الذى ذكره فيلهاردون (ص ١٨١) ، انط أيضاً :

Robert de Clary, p. 80 :

Nicetas, p. 787; Tafel, Symboloe criticoe, pars. 2, p. 31. (٣)

يذكر نيكثاس أن التقسيم شمل أيضاً مصر وليبيا ، وفارس ، وأشور ، وهذه مبالغة غير معقولة ، وليس هناك شيء من هذا القبيل فى نص معاهدة التقسيم . ومع ذلك يرى راموريو Ramusio فى المعاهدة مدينة من مدن كيليكيا Cilicie « طرسوس » Tarse ومدينة مصر ، « بيلوز » .

(٤) Tafel, Symboloe critica geographian byzantinam spectantes, pars 2 dans les Abh. der 3. der Munch. Akad. V, 3e sér, p. 1-136, et Venet. Urkund, Buch, I, 452-501.

، اندروس Andros ، وجزيرة يوبيه المشار إليها بمدنتي أوريوس Oréos وكاريسستوس Karystos ، ٥ - مجموعة من المدن ، متراسة على طول الشاطئ الأوروبي لمضيق الدردنيل وبحر مرمرة ، أهمها جاليبولي Gallipoli ، وروستو Rodosto وهيراقلية Heraclea ، ٦ - وأخيرا بضع مدن دخل تراقيا أكبرها اندرينوبل . نضيف أيضا جزيرة كريت التي حصل عليها البنادقة بمفاوضة أجريت مع المركز دو مونفيرا . وانا لنعترف بأن البنادقة أثبتوا في اختيارهم هذا بتمتعهم بروح عملية في كل ما يؤدونه من أعمال ، اذ كان معظم هذه الجهات أقاليم خصبة ، تصل إليها السفن بسهولة ، فهي مناسبة للاستغلال التجارى ، وكلها تقريبا موجود على الطريق البحرى الكبير الذى يصل البندقية بالقسطنطينية .

وبعد أن تم التقسيم ، كان لابد من استلام الأملاك : وعندئذ اصطدم البنادقة ، والامبراطور ، وسائر الصليبيين بصعوبات كثيرة ، اذ سرعان ما تبين للدوق بيتيرو زيانى زيانى ، خليفة داندولو أنه لى يحتفظ بالمكاسب الجديدة ، فلا مناص من الاتفاق لسنوات عديدة على الكثير من فرق الجنود المرتزقة المتناثرة على مواقع مختلفة ، ولا تتناسب المبالغ الضخمة التى يتطلبها الاتفاق على هذه الفرق مع القيمة الحقيقية لهذه الممتلكات بالنسبة الى دولة بحرية كالبنندقية . وعلى ذلك قنع الدوق بالاحتفاظ بداقية دوراتزو الصغيرة (١) التى تأسست عام ١٢٠٥ ، وتنازل عن الحقوق المكتسبة للجمهورية طبقا لمعاهدة التقسيم فى باقى أقاليم ايروس ، وأكارانانيا ، وايتوليا . واستغل الطاغية اليونانى ميخائيل الأول فترة خلو العرش فوضع يده على هذه الأقاليم . وكان لابد من حرب ، ربما طويلة ليستعيد الدوق هذه الممتلكات ، لذلك سره أن يجرى تسوية : فوافق ميخائيل على أن ينسلم الأقاليم المذكورة بصفة اقطاعية من حكومة البندقية ، ووعد البنادقة ومواطنيهم الجدد فى دوراتزو أن يسمح لهم بممارسة التجارة بمطلق الحرية فى ولاياته (١٢١٠) (٢) . ولم يمتنع هذا من تدمير دوقية دوراتزو بعد انقضاء بضع سنوات فقط من انشائها (١٢١٥) ، دمرها الطاغية تيودور أخو ميخائيل وخليفته (٣) ، ومن ثم لم تتمتع الجمهورية بهذا الجزء من فتوحاتها ثم كان للجمهورية فيما بعد قنصل فى دوراتزو ، ولكنه كان قنصلا تجاريا فحسب ، مثل زميله قنصل أرتة ، عاصمة الطاغية (٤) .

Dandolo, p. 332.

(١)

Taf. et Thom, II, 120 et ss.

(٢)

Georg. Acropol. p. 28.

(٣)

Hopf, Griecheniand, dans Ersch et Gruber, LXXXV, 299, 331.

(٤)

وفي المورة ، وجد البنادقة المكان وقد احتله الغير ، فقد استولى عليها الفارس جوفروي دى فيلهاردوين Geoffroi de Villehardouin ، نيم دوشاميليت Guillaume de Champlite وأقاما بها دوفية أخايا - achaie . ومع ذلك ففي عام ١٢٠٦ استغل البنادقة حملة مرسله الى جزيرة كريت ، فاحتلوا بالقوة موقعا في الجنوب الغربى من شبه الجزيرة ، مسينا القديمة ، وبالذات في الجزء الذى كان جوفروي دى فيلهاردوين قد أنشأ به اماره ، ولكنه لم يحسن حراسة نغرى مودون وكورون ، وكانتا من أوكار القراصنة (١) . ولم يجد البنادقة عناء كبيرا فى فرض سيطرتهم عليهما وعلى مجاورتهما : فبعد أن استقر بهما المقام هناك ، تفاوضوا مع جورفروي ، واتخذوا كحد شمالى لهذا الاقليم خطا يمتد من النهر الصغير الذى يصب فى خليج نفارينو Navarin (٢) الى ميناء سينات Sinate (٣) (ازييه القديمة) . وعلى العكس ، تخلى البنادقة عن سيطرتهم بصورة مباشرة على بقية أجزاء البيلويينز ووافقوا - كضمان كان كافى لحقوقهم على البلد - على وعد جورفروي بالاعتراف بدوق البندقية سيدا على اماره أخايا ، بالاضافة الى الالتزام بأن يصبح هو نفسه من مواطنى البندقية ، وأن يكفل المساعدة والحماية لمواطنيه الجدد فى كل أنحاء الاقليم ، ويمنحهم أينما شاءوا كنيسة وسوقا صغيرة fondiculum ومحكمة خاصة (٤) : وهذى نسخة مطابقة تقريبا للالتزام الذى اتخذته ميخائيل طاغية ابيروس . وكانت هذه السيادة على المورة وقتية بالضرورة ، ولهم يخف ذلك على البندقية ، بيد أنها تمسكت بهذه الملكية تمسكا ضعيفا . وبعد قرن من الزمان (١٣٢١) عرض عليها بعض الأتباع الاقطاعيين القائمين على اماره « أخايا » السيادة الفعلية على الامارة ، لكنها لم تستسلم لهذا العرض المغرى بالتوسع ، وأجابت برفض قاطع (٥) . لقد كان لتجارها حق ممارسة التجارة فى كل البلاد ، وكانت علاقاتها الودية مع أمراء أخايا تكفل أن تكون الموانئ مفتوحة لها على الدوام ، وكان هذا هو كل ما ترغبه . ثم أن منتجات البلد كانت قليلة ، تشتمل الزبيب ، وعنب كورنتوس (٦) ، والتين ، والزيت ، والعسل ، والشمع (٧) ، والسنديان ، وحب القرمز ، والحريز ، والسكر ،

-
- (١) Sanuto, dans Murat, ss. XXII, 536, les Annal. Jan. p. 125.
 (٢) Dandolo, p. 335; Sanut, 1. c.
 (٣) Buchon, Mém. géogr., placé en préambule du Livre de la conquête, p. xlii, et Lelewel, Géographie du moyen-âge, Atlas.
 (٤) Hopf, Griechenland, op. cit., p. 239.
 (٥) Juillet 1209, Taf. et Thom, II, 96-100.
 (٦) Hopf, op. cit. p. 406; Coll. des doc. inéd., nouv. mélang, hist: III, 54-57 (= Commem reg. I, 231, nos 277, 278).
 (٧) Pegol p. 107; Uzz. p. 89 et ss.

والمادتان الأخيرتان موجودتان بكميات قليلة ، ومن صنف غير جيد (١) .
 وحتى في الركن الصغير من المورة حيث احتفظت البندقية بسيادتها المباشرة ،
 لم تكن للسلع التجارية أهمية تذكر : ومع ذلك كان ينتج بها نبيذ وزيت ،
 وكان للقرمز بمجاورات « كورون » شهرة كبيرة (٢) (القرمز : صبغ لونه
 أحمر قان . . المعجم الوسيط) . ولم يكن البنادقة يقيمون وزنا للمكينهم
 الطرف الجنوبي من المورة الا من أجل موقعه . وفي سجل من سجلات مجلس
 شيوخ البندقية (٣) نجد مورون ، وكورون مذكورين بعبارة نمطية واحدة
 oculi capitales communis . والواقع أن الغالبية العظمى من السفن
 التجارية القادمة من الغرب صوب القسم الشرقي من البحر المتوسط ، أو
 الأرخبيل ، أو البحر الأسود ، أو بحر آزرف كان تمر على مرأى من هذين
 الميناءين . وعلى ذلك كان للجمهورية هناك نقطتان ممتازتان للمراقبة يمكنها
 أن تراقب منهما كل تحركات أصدقاؤها وأعدائها في مياه الشرق الأدنى ،
 وكانتا فضلا عن ذلك محطتين مناسبتين ، ومأويين ممتازين ومكفولين لسفنهما
 الذاهبة والعائدة في رحلاتها الى الشرق . لذلك لم تدخر وسعا في تحويلهما
 الى محطتين بحريتين في الدرجة الأولى من الأهمية ، وتحصينهما ، وتسليحهما .
 كانت طبيعة هاتين المستعمرتين عسكرية قبل كل شيء ، ويتولى ادارتهما
 قادة القلاع ، وكان هناك دائما اثنان على الأقل من هؤلاء القادة ، وثلاثة في
 بعض الفترات الطويلة ، وقيمون بالتناوب في مودون وكورون (٤) .

وإذا كان البنادقة قد نخلوا عن بسط فتوحاتهم على القارة اليونانية ،
 فإن الأمر كان على خلاف ذلك بالنسبة الى الجزر : ثم انهم ضمنوا في معاهدة
 التقسيم ضم قسم من هذه الجزر اليهم ، فلم يروا من الضروري تملك هذه
 الجزر كلها بصورة مباشرة ، ولكنهم حرصوا على أن تكون السلطة في الجزر
 التي لا يوجد بها دوق أو بايل baie مفوض من الجمهورية ، في أيدي
 مواطنين يمكن الاعتماد على اخلاصهم في الدفاع عن مصالح الوطن الأم في كل
 المناسبات : لذلك فرضوا عليهم صراحة ألا يتنازلوا لأفراد من غير البنادقة عن
 الجزر أو أجزاء من الجزر المسلحة .

وفي عام ١٢٠٣ وجد الجيش الصليبي في كورفو عناصر معارضة

(١) سوف نتاح لي فرصة الحديث عن هذه المنتجات الثلاثة .

Bened. Petrob., éd. Stubbs, II, 199; Buondelmonti, Liber insularum (٢)
 archipelagi, p. 63; Viaggi di lion, Frescobaldi, p. 16; Roehricht et
 Meisner, Deutsche Pilgerreisen, p. 135, 251.

Acte du 30 Mars 1375, cité par Hoff, op. cit., LXXXVI, 10. (٣)

Thomas ; Abh. der Munchen Akad. Cl. 1, vol. XIII, sect. 1, p. 20-22 ; (٤)
 Hopf, Griechenland, op. cit., LXXXV, 307 et s., 341 et s., 396, 440;
 LXXXVI, 10, 24.

لمشروعاته . وفى عام ١٢٠٥ انتهزت البندقية فرصة مرور أسطول صغير يحمل الى القسطنطينية أول بطريك فينيسى لتطالب بحقوقها الجديدة فى الجزيرة ، ولكن لم نزل الصعوبات نفسها قائمة . وثمة قرصان جنوى يدعى ليونى فترانو Leone Vetrano كان يجوب تلك المياه . مسيطرا عليها ، فشجع الكورفيين على المقاومة ، فلم يكن هناك مناص من ارسال أسطول كبير فى عام ١٢٠٦ لاسقاط القلعة الرئيسية فى الجزيرة ، ومن ثم انهزم فترانو ، وأسر ، وأعدم (١) . وفى عام ١٢٠٧ منح الدوق هذه القلعة هى والجزيرة كلها ، وبضع جزر مجاورة لها ، باعتبارها اقطاعية وراثية ، منحها لعشرة من النبلاء بشرط أن يتكفلوا بالانفاق على عدد معين من الجنود المرتزقة ، ويقدموا فروض الولاء للدوق ، ويلتبطوا من رعاياهم أن يؤدوا يمين الاخلاص لهم . وتعهد السادة الجدد بطبيعة الحال أن يقفوا الى جانب الجمهورية فى كل المسائل السياسية ، كما تعهدوا برعاية مصالحها التجارية . والحفاوة بسفنها الحربية . وضمان حرية التنقل للتجار البنادقة ، ومعاونة بضائعهم الصادرة والواردة من كل الرسوم (٢) . ولم يدم هذا النظام زمنا طويلا ، اذ يبدو أن كورفو سقطت مع دورانزو (٣) فى وقت واحد فى أيدي طاغية ألبروس الذى لم نستطع البندقية أن توقف تقدمه المظفر ، وبقيت أكثر من أربعين عاما خاضعة لسلطانته أو سلطان خلفائه . كان هؤلاء الطغاة فى الوقت نفسه سادة سانت مور جارتها ، وكان على البندقية ، كما سنرى أن تصطبّر وقتا طويلا قبل أن يتسنى لها أن تعتبر ضمن ممتلكاتها هذه المحطة الهامة فى البحر الأيوني .

وبالإضافة الى كورفو وسانت مور (لو كاد Leucade) أعطت معاهدة التقسيم لعام ١٢٠٤ البندقية جزيرتى كيفالونيا ؛ وزانتى : وفاتنا أن نذكر أن هاتين الجزيرتين لم تعودا منذ بضع سنين تنتميان الى الامبراطورية اليونانية ، فقد انتزعهما منها فى عام ١١٨٥ نورمان جنو ايطاليا وكوتنا من ذلك الحين كونتية منفصلة ، وكان أول من نولى أمورها أشراف تابعون لنتاج صقلية ، وبعدهم بارونات من امارة أخايا (٤) . وفى عصر الحملة الصليبية الرابعة ، كان السيد الحاكم هو ماتيو Matteo الذى عاش حتى عام ١٢٣٨ ، ويصفه المؤرخ الفينيسى داندولو بأنه nobilis gallicus (أى نبيل ذو شأن - وربما كان السبب فى ذلك أنه ينحدر من جنس نورماندى) ، ويزعم أنه أقسم فى عام ١٢٠٩ يمين الولاء للبندقيين ، بمقتضاه اعترفت هذه بسيادته على الجزيرتين .

Dandolo, p. 334.

(١)

Taf, et Thom, II, 54-59.

(٢)

(٣) وعلى إابة حال نحدث ال : Liber Plegiorum, p. 148. عن كورفو عام ١٢٣٨

على أنها جزيرة تحت سيادة اليونانيين .

Hopf, op. cit., LXXXV, p. 181 et s., 257, 314 et s., 331 etc., p. 421. (٤)

note 53; Buchon, Recherches historiques sur la principauté française de Morée I, (1845), p. lxxxii et s. ; f1, p. 478-461.

ولننتقل من البحر الأيوني الى الأرخبيل ، فنجد ثمة من نصيب البندقية جزر الكيكلاد . وكان المطلوب احتلال هذه الجزر ، وهو أمر لم يكن خلوا من المصاعب ، اذ لم يكن بد من قتال السكان الذين كان يساندتهم بعض القرصان . وتقدم بعض الأشراف الرومان ، وكانوا يشعرون بشيء من الشجاعة يؤهلهم للاقدام على هذه العملية ، ومعهم ما يكفي من المال لتحمل نفقاتها : وتنازلت لهم الحكومة عن حقوقها ، دون أن تخسر شيئا . وفي عام ١٢٠٧ اجتمع في القسطنطينية عدد كبير من القراصنة البنادقة ، وقاموا بحملة بقيادة ماركو سانودو Marco Sanudo ونجحت الحملة نجاحا كبيرا . وتلقى سانودو ، مكافأة له على انصاره جزيرة ناكسس naxos أكبر الجزر كلها ، ملكا خالصا له ، ومعها عدة جزر ، كبيرة وصغيرة ، تحيط بها ، ومنح فضلا على ذلك حقوق السيد الاقطاعي على سائر الجزر التي تم غزوها في نفس الحملة ، وكما جعله امبراطور القسطنطينيه « دوق نكسس » (١) . أما سائر الكيكلاد فقد تقاسمها زملاؤه القدامى الذين أصبحوا أتباعه من ذلك الحين : منهم مارينو داندولو الذي نال جزيرة اندروس Andros (٢) ، ونال الاخوان جريميا واندريريا غيزي Geremia et Andrea Ghisi تينوس Tenos وميكونوس Mykonos ثم جزءا من سريفوس Sérifos وخيوس Keos ، اقتسمها مع دومينكو ميشيل Domenico Michiel وبيترو جوستباني Pietro Giustiniani (٣) . وفيما بعد منح يوحنا فانانزيس Jean Vatzatzès امبراطور نيقية اليوناني جريميا غيزي القسم الشرقي من أمورجوس Amourgos وفي القسم الجنوبي من الأرخبيل ، كان لليوناردو فوسكولو Leonardo Foscolo جزيرة نامنيو (أناذيه) الصغيرة ولجاكوبو باروتزي Jacopo Barozzi جزيرة سانتورن Santorin (٤) غير أن سانودو ورفاقه لم يقنعوا بجزر الكيكلاد ، بل تقدموا في المناطق المجاورة من ذلك أن جيوفاني Giivanni Quirini استولى على ستامباليا (استروباليا) Stampalia (Astropaloea) (٥) ، وهي إحدى جزر سيوراديس Sparades في حين مضى ماركو فينييه ، وجاكوبو فيارو الى الجنوب الغربي ، فاحتل أحدهما Cérigo والثاني Cérigotto وجعلا منهما مركيزيتين (٦) . ولم يتورع هؤلاء المغامرون في أن يعندوا على أملاك امبراطور القسطنطينية ، فقد كان يملك في شمال الأرخبيل وشرقية عددا كبيرا من الجزر ، بعضها كبير : غير أنه لما كان

Hopf, Griechenland, op. cit., p. 222 et s., 308. (١)

Hopf, Geschichte von Andros, p. 36 et ss. (٢)

Hopf, article Ghisi, dans Ersch et Gruber, LXVI, 336, article Giustiniani, ibid, LXVIII, 303. (٣)

Hopf, Veneto-byz, Analecten, op. cit., 499 et ss., 378 et ss. (٤)

Hopf, ibid, p. 461 et s. (٥)

Hopf, Griechenland, dans Ersch et Gruber, LXXXV, 223. cf. Archiv. Venet, XVII, 263; XVIII, 61. (٦)

فرسانه الفلمسبيكون والفرنسيون يفضلون الاقطاعات الواقعة على الأرض اليابسة فانه لم يكن يسوؤه أن يتولى احتلال هذه الجزر بنادقه اعتادوا حياة البحار . وهكذا استقر فيلوكالو نافيجاجوزو Filocalo Navigajoso في جزيرة ليمنوس الكبيرة (١) وأضاف الاخوان غيزي الذين سبق ذكرهم الى الجزر التي يملكونها من قبل في الكيكلاء ، جزر سكيروس ، وسكوبلوس ، وسكيابوس ، وخيليدرومي ، من جزر سيوراديس الشمالية شرقى جزيرة يوبيا (٢) وكان أهم أمير من أمراء الجزر هؤلاء البنادقة دون ناكسس (٣) ، وغرندق ليمنوس اللذان لا يعترفان بسيادة الوطن الام ، ولكنهما يتبعان الامبراطور ، حتى ان غالبية السادة الأقل مرتبة ، الذين أخذوا اقطاعاتهم من دون تاكسس كانوا بمثابة « مولى المولى » بالنسبة الى الامبراطور . وكان من حق البندقية أن تقتضى ولاء أولئك الذين يملكون جزرا تخضع لسيطرتها ، الا أن حكومتها كانت من الحصافة بحيث تجنبت اثاره نزاع في هذا الخصوص ، فاعتمدت على سياستها الخاصة ، وعلى قوة الظروف لضم الاميرين الى صفوف أتباع البندقية الاقطاعيين . وكانت الأمور كلها وقتئذ مواتية لها ، فالغالبية من الجزر اليونانية في أيدي مواطنين من البندقية : وهى النقطة الأساسية . والواقع أنه أيها أقام البنادقة اماره كان مقرهم يحاط بمستوطنات ايطالية ، وحيثما كان فى الماضى أوكار القراصنة الذين يبعثون الرعب فى تجارة البندقية ، نجد الآن موانئ صديقة ، وملاجئ آمنة وحصينة يستطيع ربابنة السفن والتجار البنادقة أن يطلبوا فيها الملاذ والحماية . وهم على ثقة من احتفاء القوم بهم . وإذا كان سادة هذه الجزر يتساهلون أحيانا فى وجود بعض القراصنة عندهم ، فان هؤلاء لم يعودوا يشكلون خطرا على السفن القينيسية . ثم ان صغار البارونات هؤلاء ، والمستوطنات التى أتت فى أعقابهم لم تقض على الموهبة التجارية التى تتمتع بها أمتهم ، ومن ثم لم تلبث أن نمت وتطورت حركة تجارية كبيرة ، أولا من جزيرة الى أخرى ، ثم بين الجزر والأراضى اليونانية وأخيرا بين الجزر والبندقية ، والواقع أن بعض هذه الجزر لم يكن أكثر من صخور عارية ، وفقيرة جدا بحيث لا يمكن أن تغذى سكانها . وهناك على العكس من ذلك جزر تسهم بتصويبها فى التجارة ، من حبوب ، وفواكه مجففة ، وزيت ، وعسل ، وشمع ، وقطن ، وصوف ؛ وحرير (٤) . وفى العصور الوسطى كان غسل الجزر اليونانية ، وجبن سانتورن يصدر الى مصر (٥) ، وكبريت نزيروس Misyros سلعة تجارية

Hopf, Veneto-byzant. Analecten, p. 496.

(١)

Hopf, art. Ghisi, op. cit.

(٢)

Hopf .. philos hist. Cl., 1856, XXI, 242 et ss.

(٣)

Liber insul. archipelagi, éd Sinner, p. 85; Hopf, Veneto-byzant.

(٤)

Analecten, p. 394; Caumont p. 86.

Piloti, p. 376.

(٥)

واشبهت تكسس بالصنفرة (١) ، وثبت أن محاجر باروس Paros كانت ولم تزل تستغل ، وأن هذه الجزيرة تصدر رخامها ، ليس فقط الى خيوس ولكن أيضا الى البندقية (٢) . ويتبين لنا أن امتلاك البنادقة هذه الجزر كان يكفل لهم نموا كبيرا في الحركة التجارية . وفي الجنوب ، كانت جزيرة كريت لحسن الحظ آخر مجموعة الممتلكات الفينيسية في المياه اليونانية . ولا ترجع نشأة حقوق البندقية في هذه الجزيرة الى معاهدة عام ١٢٠٤ ، فهي لم تذكر بها ، لأنها في تلك الآونة كانت تابعة بالفعل للبندقية . وفي غضون الحملة الصليبية الرابعة أهداها الكسيوس انجيلوس - هذا الأمير الذي أقامه الصليبيون أولا على العرش ثم ما لبثوا أن أطاحوا به - أهداها الى المريكز مونفيرا . ويبدو أنه وقت انتخاب الامبراطور اللاتيني الذي يحل محل الكسيوس ، قر العزم على أن تكون كريت والأقاليم الآسيوية للأمباطورية اليونانية من نصيب من يخفق من المرشحين الاثنين (لعرش الامباطورية) ، وكان هو المريكز مونفيرا . لذلك كان له حق مزدوج في الجزيرة . وقد سجلت هذه الواقعة في أخبار جوفروا دي فيلهاردوين ، وهي المصدر الوحيد الذي نجد فيه قصة انتخاب الامبراطور . غير أن المخطوطات التي في حوزتنا تعرض قراءات مختلفة عن الفقرة المقصودة : فمنها ما ورد به isle de Crète (جزيرة كريت) ، أما السيد وايلي M. Wailly فإنه يفضل نصا isle de Grèce (جزيرة اليونان) (٣) متمشيا مع رأى بوشون Buchon ، فهذا الاسم كان يطلق كثيرا في هذا العصر على شبه جزيرة المورة (٤) وعلى أية حال ، لم يذكر بونيفاس Boniface سوى منحة الكسيوس في وثيقة ١٢ أغسطس ١٢٠٤ التي تنازل فيها عن جزيرة كريت للدوق داندولو في مقابل أقاليم ذات قيمة مساوية لها واقعة في القسم الغربي من القارة اليونانية (٥) . وكان لهذا التنازل باعشان : أولا كان الكسيوس حريصا على استمالة الدوق لأن علاقاته مع الامبراطور كانت متوترة للغاية ، وقد يحتاج اليه في يوم من الأيام ، وثانيا كانت حملاته البرية قد كلفته مالا كثيرا ، وكان يطلب له أن يتخلص من النفقات التي تتطلبها فوق ذلك حملة بحرية . فالواقع أنه لا بد من غزو كريت لاحتلالها . وفي الوقت الذي كان يجري تسليحها كانت وام.

Buondelm, p. 78 et s. 96; Ross, Reisen auf den griechischen Inseln, (١)
I, 41; II, 78.

Cyriacus Anconitanus, dans Targioni-Tozzetti, 'Relazioni d'alcuni viaggi fatti in Toscana, V (Firenze 1773), p. 424; Buondelm; l.c. p. 94; Fel. Fabri, Evagatorium, III, 264, 299.

Geoffroy de Villehardouin, éd. de Wailly, p. 152, 156. (٣)

Henri de Valenciennes (٤) نظر على سبيل المثال

Taf. et Thom. I, 512 et ss.; Monum hist. patr. Chartae, I, 1112 (٥)
et ss.

نزل تحت سلطة اليونانيين (١) . وأخطأت الجمهورية بتردها منذ البداية ، واكتفت مؤقتا بأن تعطي الأسطول الذي كان عليه أن يرافق البطريرك موروسيني Morosini الى القسطنطينية الأمر بأن تترك في طريقها حامية صغيرة في حصن سبينالونجا Spinalonga (شرقي كانديا Candia) . واعتقد كونت مالطة ، انريكو إسكانوري Enrico Pascatore التابع لعرش صقلية ، والذي كان شديد الحماس لسيادة وطنه جنوا ، من الوجهين البحرية والتجارية (٢) . اعتقد أن اللحظة المناسبة قد حانت لايقاف تقدم البنادقة في اليونان . لذلك بدأ في عام ١٢٠٥ بأرسال ثلاث سفن حربية الى الميسماه اليونانية لايقاع كل اذى مستطاع بأعداء جنوا ، فأسرت بالفعل سفينين بندقيتين (٣) . وفي عام ١٢٠٦ قام بنفسه على رأس حملة كبيرة متجهة الى كريت ، وبسط سلطانه على الجزيرة بأسرها (٤) . واذ امتلأ زهوا بنجاحه ، فانه أضاف الى لقبه comes maltot كونت dominus cretoe (٥) (سيدكريت) وتأهب لغزو الجزر والسواحل المجاورة . وتبعا لبعض الأخبار التاريخية اللاحقة ، نجد أن التجار الجنوبيين المقيمين بالجزيرة شكلوا من أنفسهم هيئة اجتماعية تحت رئاسة أربعة قناصل (٦) . ومن عجائب الصدف أننا نجد أسماء هؤلاء القناصل هي بالذات أسماء قناصل الاسكندرية المذكورة في « الحوليات الجنوبية » لعام ١٢٠٤ (٧) : هذه المعلومة كافية لأن تجعل الخبر كله مشكوكا في صحته . وفي السنة التي استقر فيها الكونت انريكو في كريت ، أرسلت البندقية الى هناك أسطولا كبيرا استرد قسما كبيرا من الجزيرة . ودافع ازيكو عن الأرض خطوة خطوة . وأخيرا في عام ١٢٠٧ أمست العاصمة وباقي اجزاء الجزيرة في أيدي البنادقة . وفي عام ١٢٠٨ استطاع انريكو أن يعاود النضال بفضل التعزيزات التي أرسلها اليه وطنه ، وواتاه الحظ في البداية ، فأسر الاميرال الفينيسي رانييري Ranieri ، غير أن وصول أسطول ثان على التقهقر (٨) . وفي عام ١٢١٠ طلب من جديد مساعدة جمهورية جنوا : فحاولت الحكومة أولا أن تتدخل بالطرق الدبلوماسية

Hist. duc. Venet., l.c. p. 95.

(١)

Annal. Jan. p. 121; Hist. duc. Venet., ibid; Papon, Histoire de Provence, II, Preuves, no 51; Annal. Jan. ad. an. 1243, p. 209; Canale, Nuova istoria di Genova, II, 440.

Annal. Jan. p. 124.

(٣)

Hist. duc. Venet., l.c.; Annal Jan. p. 125; Dand. p. 335.

(٤)

Lib. jur. I, 540, 553.

(٥) تحده بهذا اللف في عام ١٢٠٨ ، ١٢١٠ .

Pagano, .. Delle imprese e del dominio dei Genovesi nella Grecia, (٦) p. 12.

Annal Jan. p. 122.

(٧)

Dandolo, p. 335; Hist duc. Venet., l.c.; Da Canale, dans l'Archiv. stor. ital. VIII, 347.

(٨)

ولكن البندقية رفضت حتى مجرد الكلام عن اجراء تسوية مع انريكو ، فأرسلت اليه الحكومة أسطولا (١) ، وفتح بعض المواطنين باب التبرع لتغطية نفقات الحملة (٢) . وجابا على ذلك وعد بسكاتوري المشتركين فى الاكتتاب بالسداد العاجل ، وأعطى بعضهم كضمان لذلك ايرادات جزيرته « جوتزو » Gozzo ، ومن ناحية أخرى تعهد لوطنه بموجب معاهدة بتاريخ ٢٥ يولية ١٢١٠ أن يمنح الجنوبيين فى كل مدن الجزيرة التى سوف يغزوها (٣) ، حيا وكنيسة ، وسوقا ، وحماما ، وفرنا ، بالإضافة الى محكمة خاصة فى أربع مدن ، وتعهد أخيرا بالتصريح بحرية التجارة . أما بخصوص مبلغ ١٨٠٠ جنيه جنوى ، وهو مجموع ما قدمته الجمهورية من مال ، فانه تعهد برده على أقساط ، بالإضافة الى دفع جزية سنوية قدرها ألف « هيببر » ، وأن يوصى للجمهورية بملكية الجزيرة فى حالة وفاته دون أن يترك ورثة شرعيين من المذكور (٤) . وليس ثمة مصدر فينيسى أو جنوى ينبئنا عن تصرفات كونت مالطة أثناء هذه الحملة ، ولكن الشئ المؤكد هو أن البندقية ظلت مالكة للجزيرة ، وأنه فى المعاهدة التى وقعتها الجمهوريتان عام ١٢١٢ تخلت جمهورية جنوا ضمنا عن ملكية الجزيرة . وأقسم الكونت ايزيكو نفسه اليمين على مراعاة تنفيذ المعاهدة ، والا تتحول قوات وطنه ضده اذا ما شن حربا من جديد ضد البندقية (٥) . وفرض الشرط نفسه على زميله « اليمانو داكوسنا » كونت (سيراكيوز) . وعلى الرغم من العهد الذى أعطاه هذا الأخير ، فانه سلح فى عام ١٢١٧ أسطولا من القراصنة للقيام بحملة الى كريت ، وكلفه هذا العدوان سنة قضاها فى الأسر فى البندقية ، فضلا عن أنه استدان مبلغا كبيرا لسداد التعويضات التى طلبت منه (٦) .

ولم يكن الأعداء الخارجيون هم وحدهم مصدر ازعاج حكومة البندقية فى كريت : فقد كانت الجزيرة أهلة بسكان مستقلين ومحبين للقتال . فبتأثير التحريضات الخفية والوعود بالنجدة من جانب يوحنا فاتانزيس امبراطور نيقية ، اشتعلت ثورات كثيرة اتخذت أحيانا أبعادا مزعجة ، فكان لا مفر من اتخاذ اجراءات قمع شديدة . ولما كانت حكومة الجمهورية (الفينيسية) راغبة فى اقامة علاقات وثيقة بين جزيرة كريت وبين البندقية فانها أجرت فى كل أنحاء الجزيرة تقسيمات للأراضى وزعتها على بعض المواطنين البنادقة ، فأعطت الأشراف قطعا كبيرة ، والعامه قطعا صغيرة مع حق نقلها

Annal. Jan. p. 127; Dand l.c.

(١)

Annal. Jan. p. 129.

(٢)

Lib. jur I, 554; Pagano, l.c. p. 15.

(٣)

Lib. jur I, 553 et s.

(٤)

Canal (Nouva istoria di Genova, II, 17); Annal. Jan. p. 132.

(٥)

Annal. Jan. p. 138; Hist. duc. Venet., l.c.; Lib jur, I, 613, 819.

(٦)

الى ورتتهم من أقربائهم المباشرين ، أو التصرف فيها بالبيع بشرط أن يكون المشتري من البنادقة . وكانت الملكيات الكبيرة اقطاعيات للفرسان ، والصغيرة اقطاعيات للجنود المشاة ، وكان ملاكها ملزمين بأداء الخدمة العسكرية اذا طلب منهم ذلك دوق كانديا ، أما في وقت السلم فانهم أحرار في ممارسة التجارة . وبعد ذلك توسعت الجمهورية في نظام الاقطاع هذا (١) . ولم تحتفظ لنفسها الا بشريط ضيق من الاقليم على طول السواحل ، وبالعاصمة حيث أقامت دوقا (حاكما) يعين عادة لسنتين ، ويحكم المدينة بمساعدة اثنين من المستشارين ومجلسين . واحتفظت المستعمرة زمنا طويلا بالطابع العسكري الذي كان لها في البداية ، وذلك على أثر نشوب العديد من الثورات التي قام بها الأهالي اليونانيون ؛ وأجبرت هذه الثورات المستعمرين أن يتدربوا على القتال ، ومن مساوئها أنها كثيرا ما عرقلت تجارتهم . غير أنه لما كانت الجريرة واقعة على الطريق التجارى العالمى الرئيسى ، كان من السهل عليهم أن يحصلوا على جميع أنواع السلع ، ويبيعوا منتجات حقولهم ، وكرومهم ، وخلايا النحل الخ . وكانت كريت تنتج الدقيق (٢) ، والعسل ، والشمع ، والجبن (٣) ، وكذلك . وبالإضافة الى هذه الأغذية العادية ، نبذ مالقوازيا Malvoisie (٤) المشهور ، والسكر ، والقطن ، والقرمز ، واللادن (٥) . وكان المئات من السفن تأتي من كل صوب وحذب نشحن أنبذة الجزيرة ، وكانت الشخصيات الكبيرة فى مصر تتعاطى خفية هذا الشراب اللذيذ (٦) . الا أنه لم تكن هناك أمة تستطيع الحصول على هذه المنتجات بشروط مغرية مثلما يستطيع البنادقة ، ذلك لأنه كان من المنصوص عليه صراحة - وهذا شئ بديهي - أنه لا يجوز للمستعمرين أن يفرضوا ضرائب على السلع المبعة للبنادقة (٧) .

ولم يكن ما جعل امتلاك هذه الجزيرة عظيم الفائدة للبندقية خصوصيا الفائقة فحسب ، ولكن كان ذلك بنوع خاص بسبب موقعها الملائم كل الملائمة عند ملتقى طرق أقسام العالم الثلاثة . فعلى طريق الغرب الكبير الى

Taf. et Thom. II, 129 et ss., 234 et ss., 314, 470 et ss. (١)

Fel. Fabri, III, 280; Cammem. regesti, I, 50, no 233. (٢)

Piloti, p. 376, Aboulf., trad. Reinaud, II, 276; Taf. et Thom. III, 254. (٣)

Fabri, l.c., Uzz, p. 106; Piloti, l.c.; Casola, p. 42; Commem. regesti, I, 238, no 312, Roehricht et Meisner, Deutsche Pilgerreisen p. 341 : cf. p. 325; Sanudo, Diar. II, 478, 628. (٤)

(٥) انظر البراهين فى الفصل المخصص للسلع التجارية .

Piloti, p. 376, 404; Hopf, Griechenland, op. cit., LXXXVI, 462. (٦)

Pashley, (Travels in Crete, II, 51 et ss.)

Taf. et Thom. II, 132, 244 et s. (٧)

مصر وسوريا ، كانت كريت هي المحطة التجارية الرئيسية ، وكثيرا ما كانت السفن التجارية الفرنسية والاسبانية تعبر البحر على خط مستقيم ، تاركة الجزيرة الى يسارها ، وكان هذا هو أقصر خط بالنسبة اليها . ولكن الأمر كان جد مختلف بالنسبة الى الايطاليين . وكان على الجنوبيين والبيزيين متلا أن يجتازوا حتما مضيق سينا للإبحار الى مصر أو سوريا ، ومن هناك كان من الميسر عليهم أن يتوقفوا عند جزيرة كريت الواقعة بالضبط عند منتصف الطريق (١) . أما بالنسبة الى القادمين من البحر الادرياتي ، كالبنادقة ، فانهم يمرون أولا أمام مودون وكورون حيث لا يفوتهم أن يلقوا مراسيهم . ويبدو أنه عند خروج السفن التي تنقل الحجاج الى سوريا من هذين الثغرين ، فانها تتخذ في يسر الطريق المباشر الذي يمر بجزر الكيكلاد ورودرس ، وتترك عندئذ جزيرة كريت الى يمينها (٢) . وحين تكون وجهتها مصر ، فانها تتخذ أحيانا طريقا مباشرا في أعالي البحار من مودون تاركة كريت الى يسارها (٣) ، ولكن ذلك كان يحدث لما ، اذ كانت ترسو غالبا عند كانديا (٤) . كانت هذه هي القاعدة العامة بالنسبة الى السفن التجارية . وعندما تقلع قاصدة مصر فانها تسير بحذاء سواحل الجزيرة حتى طرفها الشرقي: وهناك تقابل السفن القادمة من الشمال ، من القسطنطينية أو البحر الأسود قاصدة مصر (٥) ، ولما كانت السفن الأخيرة لا يفوتها أن تتصل بالجزيرة ، وهي ماضية طريقها ، فان الطريقين يختلطان في اتجاههما صوب الجنوب (٦) نرى من ذلك مدى اهتمام البنادقة بضمان امتلاكهم جزيرة كريت : اذ كانت نقطة دعم قوى لتجارهم مع سوريا ومصر . وفي حركان ربانة سفنهم يقنعون بالمرور على امرأة من الجزيرة دون أن يرسوا عندها ، فانهم يستطيعون أن يتعدوا عنها وهم مطمئنون آمنون . ومن الوجهة السياسية البحتة كان احتلال الجمهورية لكريت يكفل لها التفوق على كل جزر الأجنيل الصغيرة : وفي امكاننا أن نمضي الى أبعد من ذلك فنؤكد أن هذا الاحتلال كان شرطا جوهريا لبقاء السيادة الأوروبية التي استقرت في اليونان في أعقاب الحملة الصليبية الرابعة (٧) .

واذ لم يقنع البنادقة بضمان تفوقهم في المياه اليونانية عن طريق احتلال

Gesta Ricardi, éd. Stubbs, II, 198.

(١)

Nic. d'Este, p. 113; Fabri, I, 166; Gumpfenberg dans le Reyssbuch des heil. Landes, p. 237.

(٢)

Frescobaldi, p. 19 ; Sigoli p. 157 ; Gucci, p. 273.

(٣)

Casola, p. 42; Georg. Gemnicensis (Baumgarten), p. 470, 623.

(٤)

(٥) سوف نرى كيف أن دوق كريت قبض على بعض العبيد المرسلين من القسطنطينية الى مصر ، عند مرورهم بالجزيرة ، مما أثار خلافا بين هذا الأمير وبين سلطان مصر .

Sanudo, Secr. fid. cruc. p. 69.

(٦)

Taf. et Thom. III, 57.

(٧)

جزيرة كريت ، فانهم عزموا أيضا على انشاء نقطة ارتكاز غربى الأرخيل بالقرب من القارة . كانت جزيرة يوبيا Eubée ، حسب معاهدة التقسيم من نصيب البنادقة (وقد أشير إليها فى النص بنقطى : أوريوس Oréos فى الشمال ، وكارستوس uarystos فى الجنوب) ، ولكنهم وجدوا هناك عند وصولهم ، كما وجدوا فى مواضع أخرى أن المكان قد استولى عليه بعض الدخلاء . وفى الوقت الذى كان فيه جيش المركيز دو مونفير فدا اجتاحت شمال اليونان ووسطها ، تقدم فارس فلمنكى من رفاقه اسمه جاك دافسن Jacques d'Avesnes ناحية جزيرة يوبيا ، وكان دخولها ميسورا لوجود قنطرة تربطها بالقارة ، فانتهاز الفرصة وأقام حامية فى نجر بونت (حاليا يوبيا) ، وعاد بالتالى فلحق بالجيش وتبعه حتى البيلوبونيز . وهكذا كانت جزيرة يوبيا ضمن فتوحات المركيز دو مو نغيرا الذى قسمها الى ثلاث اقطاعات كبيرة ، ومن ثم أشير الى سادتها فى الوثائق الخاصة بهذه الجزيرة ، وفى عهد السيادة الأوربية عليها بصفتهم Terzicri و tierciers (١) (أى الثلاثيون)

وعلى هذا يبدو أن البندقية وجدت ثمة من يقوم مقامها . ولكن حدث فى عام ١٢٠٩ أن أكبر هؤلاء الثلاثى ، رافانو دالى كارتشيري Ravano delle Carceri من فيرونا اعترف رسميا بحقوق الجمهورية : وكان هذا الاعتراف بالنسبة اليه وسيلة للتخلص من سيادة الامبراطور اللاتينى ، بعد أن ثار ضده بالاتفاق مع المركيز بونيفاس . وعلى ذلك أعلن نفسه تابعا للجمهورية ، واستخدم نفوذه لحمل سائر السادة الفرنجة و « الأرخونت » (الولاة) اليونانيين فى الجزيرة على الاقتداء به . وكان الدليل الملموس على هذه التبعية ضريبة اقطاعية مقدارها ٢١٠٠ هيربر ، وهدية مكونة من أقمشة حريرية . وتم الاتفاق فضلا على ذلك على أن يكون للبندقية كنائس ومنشآت ، وأن تقام الدعاوى المتعلقة بمصالح البنادقة أمام قضاة من جنسيتهم ، وأن يمارس التجار البنادقة تجارتهم بمطلق الحرية فى الجزيرة ، ودون أن يدفعوا ضرائب (٢) . وبعد موت رافانو جدد الولاء أرملته وابنته ، وابنا أخيه (أو أخته ؟) مارينو ، وريزارد ، ومواطناه البرتو وجولييلمو ، واقتسموا مثنى مثنى الاقطاعات الثلاث التى تشكل اقليم الجزيرة (٣) . وفى البداية كانت أملاك الجمهورية المباشرة هناك قليلة ، تشمل بضعة مباني منعزلة ، ومجموعات منازل فى نجر بونت ، أهمها مسكن رافانو دالى كارتشيري الذى صار دارا عامة تستخدمها المستعمرة الفينيسية (٤) ، وبضع كنائس فى المدينة نفسها

Hopf, Griechenland, op. cit., LXXXV, 211, 225 et s.

(١)

Taf. et Thom. II, 89-96.

(٢)

Ibid, II, 175-184.

(٣)

Ibid, 11, 177, 181 et s ; III, 5, 10, 14 ; Sathas, Doc. inéd. 11, 113.

(٤)

منها كنيسة سان مارك ، وهي في الوقت ذاته كاتدرائية (١) ، وأخيرا fondaco وميدان يستخدم سوقا للنبيذ (٢) . ولا نعرف ما اذا كانت البندقية قد استخدمت حقها في امتلاك كنائس وأسواق في سائر مدن الجزيرة ، ولكن كان لها « بايل » (حاكم) مقيم في وسط الحي Campus الذي يقطنه البنادقة في العاصمة ، وكان هذا الموظف يتولى ادارة المستعمرة بمساعدة اثنين من المستشارين ، ويمثل الدوق بصفته السيد عاهل الجزيرة كلها ، ويتمتع بهذه المثابة بسلطات واسعة . وحين تنتقل ملكية قسم من الاقليم الى حاكم « ثلاثي » جديد ، بالوراثة أو الزواج ، فان هذا الحاكم لا يستطيع ممارسة حقوق السيادة الا بعد أن يقلده « البابل » منصبه ، وبعد أن يقدم اليه ولاء اقليمه . ومع ذلك كان الحكام « الثلاثة » منذ البداية تابعين لعاهلين اقطاعيين في وقت واحد ، عاهل جمهورية البندقية من جهة ، وأمير المورة من جهة أخرى . وحين تزوج وليم دى فيلها ردوين من وريثه رافانو دالى كارتشيري ، أمد هذا الزواج بذريعة جديدة للتدخل في شئون الجزيرة ، وكان ذلك من سوء طالع البندقية . كان أهم ما يشغل الحكام البنادقة هو القضاء على نفوذ جييرانهم الأقوياء في الجزيرة . وانتهى هذا النضال المستمر الى نشوب معارك علنية . واستمرت الحرب عامين (١٢٥٦ - ١٢٥٨) وتقلببت أحداثها ، وانتهت بهزيمة الحلفاء الذين كانوا مع البندقية في الأراضي اليونانية . ولم يزل في مقدور الجمهورية أن تتفاوض ، الا أنها فقدت من ذلك الحين كل أمل في النجاح . وانتهى الأمر بالصلح في عام ١٢٦٢ ، ولكن كان من شروط المعاهدة هدم قصر نجر بونت ، وكان هذا الحصن يتحكم في القنطرة القديمة القائمة بين الجزيرة وبين القارة ، ومن ثم يحمي كلا من المدينة والجزيرة من أى هجوم يأتى من هذه الناحية ، واحتفظت الجمهورية في الجزيرة بحقوقها المكتسبة بمقتضى المعاهدات السابقة ، ولكن كان عليها أن تقر بسيادة أمراء المورة . على الحكام الثلاثة ، وكان هذا عقبة دائمة في سبيل ممارسة حقوقها (٣) . وكان لابد للجمهورية من أن تؤجل الى المستقبل أملها في أن تصير السيدة الوحيدة على الجزيرة ، ولم يكن الوقت الحاضر مناسبا للخلافات الداخلية . وأخيرا أطاح اليونانيون بالامبراطورية اللاتينية ، وأقاموا ميخائيل باليولوجوس على العرش . وكان لابد أن يتماسك الفرنجة بقوة ويقاوموا العدو المشترك ، وفي هذه الأثناء كان التجار البنادقة يمارسون التجارة في جزيرة يوبيا بكامل حريتهم مثلما يمارسونها في بلدهم الأصلي دون أن يدفعوا ضرائب ، ويتمتعون أيضا بامتياز استعمال الموازين والمكاييل الخاصة بهم في عمليات البيع (٤) .

Taf. et Thom. II, 91, 94, 117 et s., 181 et s., 480 et s.; 111, 15, 370-372. (١)

Ibid, II, 91, 94, 177, 181. (٢)

Taf. et Thom. III, 46-55. (٣)

Ibid II, 177, 182; 111, 15, 48, 54. (٤)

وكانت الرسوم التي يدفعها التجار الأجانب للجمارك تدخل في خزائن الجمهورية ، وكان الخراج الذي يؤديه الحكام الثلاثة سنويا تنفيذا للمعاهدة الأولى (١) قد ألغى في عام ١٢٥٦ ، واستبدل به إيرادات الجمارك من البضائع الأجنبية (٢) . وكانت الجزيرة شديدة الخصوبة ، تصدر القمح (٣) ، والنبيد ، والزيت (٤) والشمع ، والعسل (٥) ، والحرير (٦) . ويبدو أن الحرير كان يصنع في الجزيرة نفسها ، إذ يتبين من معاهدتي عامي ١٢٠٩ ، ١٢١٦ أن الحكام الثلاثة كان عليهم أن يرسلوا سنويا الى الدوق قطعة من « البروكار » المذهب ، كما نستنتج أيضا من هاتين الوثيقتين أن الحرير الخام والحرير المصنع يشكلان جزءا من الثروة التي يتمتع بها هؤلاء الحكام بضمنان الجمهورية .

تكلمنا قبلا عن مدينة هالمروس Halmyros (الميرو ، ارميرو) (٧) الواقعة شمالي جزيرة يوبيا في خليج فولوس Volo ، وكانت بموقعها هذا سوقا لتصريف قمح تساليه (٨) . ولم تكن في معاهدة التقسيم من نصيب البندقية ، لا هي ولا جارتها وسميتها (الميري) (٩) . وعندما استولى المركز دو مونفيرا على تساليه كانت ضمن الاقطاعية التي منحها لنبييل لومباردي يدعى جوليلمو دي لارسا Guglielmo de Larsa و « دي لارسا » هذه تحريف لاسم لاريس (لاريسا) - Larisse (Larissa) - مقر هذه الشخصية (١٠) . ونحن نعرف أن البنادقة كان لهم مستعمرة في الميرو قبل الحرب الصليبية الرابعة بزمان بعيد ، ومكنوا هناك طوال عهد سيادة الفرنجة في سلام مستمتعين بأمالاكنهم وكنيستهم (١١) . واثما لهذا العرض ، يتعين الآن أن نعتبر الأرخييل في خط مستقيم ، ونمر بكيرسوينز تراقية Chersonnèse de Thrace (الآن شبه جزيرة جاليبولي) : هنا جرى التقسيم طبقا لنصوص المعاهدة . ونجد أحسن برهان على ذلك في اتفاقية (١٢) عقدت عام ١٢٠٦ بين مندوبى الامبراطور هنرى

-
- | | |
|--|------|
| Ibid. 11, 90, 93, 176, 181. | (١) |
| Ibid, III, 14, 47, 53. | (٢) |
| Pegol, p. 145. | (٣) |
| Taf. et. Thom. II, 177, 181, 183; 111, 15. | (٤) |
| Pegol, 1.c., Piloti, p. 375. | (٥) |
| Pegol. 1. c. | (٦) |
| Tafel, De Thessalonica, p. 495 et s.; Taf. et Thom. I, 266, 488. | (٧) |
| Sanut. Secr. fidel. cruc. p. 68. | (٨) |
| Taf. et Thom. I, 487. | (٩) |
| Hopf. Griechenland, op. cit., LXXXV, p 210. | (١٠) |
| Taf. et Thom. II, 15; 111, 28; Docum. sulle relaz. tox, p. 89: | (١١) |
| Muratori, Antiq. ned. oevi, III, 233 et s. | (١٢) |

من جهة ومحافظ (بودستات) البندقية من جهة أخرى فى مناسبة وضع الحدود للأقاليم . وكان بين البنادقة الذين يحتلون جاليبولى ، ومونتينيانى Muntinianoe وسيجوبوتاموس Sigopotamos ، وبين « الفرنجة » سادة سستوس Sisto ، وبلاجيا Plagia ، وبوتاميا Potamia (١) منازعات متكررة ، بخصوص تحديد الأراضي فى النواحي الرئيسية . وفى المعاهدة الكبرى كانت المناطق الثلاث الأولى من نصيب البنادقة (٢) ، ويلاجيا (٣) وبوتاميا من نصيب الصليبيين « أما سستوس فانها وحدها هى التى لم تذكر فى المعاهدة ، بل ذكر بدلا منها جارنها ماديتوس madytos (٤) . وكانت جاليبولى وحدها هى أهم المدن كلها للبندقية ، اذ كانت فى حاجة اليها لتكفل تفوقها فى الدردنيل ، ومع ذلك منحتها كإقطاعية لاثنين من النبلاء ، ماركو داندولو ، وجياكومو فيارو ، فعاد داندولو الى البندقية ، ومضى فيارو الى جزيره تشيريجوتو حيث أنشأ بارونية . عندئذ ألحقت جاليبولى بالأقاليم التى يحكمها مباشرة « بودستات » الجمهورية فى القسطنطينية (٥) . وكان من الأهمية العظمى لدى ربانبة السفن الفينيسية أن يكون فى حوزة وطنهم موقع حصين فى هذه القناة الضيقة التى لابد لهم من عبورها للوصول الى القسطنطينية . ولكن للتوقف فى الطريق ، أو البحث عن فرصة مناسبة لعقد صفقات تجارية (٦) ، فانهم يفضلون كثيرا ثغور بانيوم Panium ورودستو ، وهيراقليا فى بحر مروة ، فهذه الموانئ ، وبخاصة رودستو (٧) كانت بمثابة أسواق لقمح سهول تراقيا الغنية . ثم ان البندقية كانت قد رفعت علمها فى قلب هذا الاقليم . وفى سجلات هذا العصر نجد أركاديوبل Arcadiople وهى برجولا Berguloe (٨) القديمة ، مدينة Tchatal-Borgas أو Leulé-Borgas الحالية على الطريق من بيزنطة الى اندرنيول ، مذكورة على أنها مدينة فينيسية (٩) . وحتى أندرينوبل نفسها

Muntaner, trad, II, 160.

(١)

Taf. et Thom. I, 468.

(٢)

(٣) لازال الجزء الأكبر من سكان هذه الناحية من أصل يونانى حتى اليوم يسمونها بلاجيارى ،

أما الترك فيسمونها بولاير .

Taf. et Thom. I, 483.

(٤)

Dandolo, p. 334

(٥)

Hopf, Griechenland, op. cit. LXXXV, p. 222 et s.; Liber plegiorum, p. 52.

(٦)

Villehardouin, p. 136, 146.

(٧)

Brochart, Avis directif, dans la Collect, des chron. belges, Namur, V. 306.

(٨)

Commentaire d'Hiéroclis par Wesseling, éd. Bonn, p. 402 et ss. ;

(٩)

Willehardouin, p. 125, 145.

كان يحتلها في البداية حامية فلمنكية ، فاضطرت الحامية الى الجلاء بمقتضى معاهدة التقسيم ، وحلت محلها حامية فينسية (١) . ولم يدم هذا الحال زمنا طويلا ، فبعد بضعة شهور ، ثار الأهالي وطردها البنادقة ، الا أنهم وافقوا بعد ذلك على قبول سيادة البندقية بشرط أن يكون الحاكم يونانيا صديقا للاتينيين ، اسمه نرودور براناس Théodore Branas . وبعد أن استقر المقام بهذا الحاكم اعترف بدوق البندقية سبدا اقطاعيا له (١٢٠٦) (٢) . ورغم كل شيء ، كانت سيادة البندقية على اندرينوبل دائما سيادة وقتية غير ثابتة .

أما في القسطنطينية ، فعلى العكس من ذلك كان لاقامة البنادقة طوال عصر الامبراطورية اللاتينية صفة الثبات والرسوخ ، واتسع حيهم القديم الذي كان لهم في عهد اليونانيين (٣) ، وذلك بضم العديد من المحطات : ذلك لان العاصمة كانت موزعة بينهم وبين سائر أصحاب الحقوق فيها بنفس النسبة التي كانت لسائر أجزاء الامبراطورية : الربع للامبراطور (٤) ، وثلاثة الأثمان لهم . ولم تكن أملاكهم الجديدة بعيدة عن القديمة ، ذلك لأن ثمة مجرى مائيا (قناة أو جدولا ؟) يروى العاصمة كان يمر « من الحي الفينيسي القديم الى الجديد » (٥) . ويبدو أنه ينبغي البحث عن هذه الممتلكات الجديدة بخاصة داخل القرن الذهبي (٦) حتى البلاكوين (٧) Blaquernes ولكن بقي للامبراطور القصر الذي يحمل هذا الاسم . (٨) وضم الحي الفينيسي في محيطه الجديد حوض المرفأ (arsana) الذي تهدم الآن ، وكان وقتئذ مجاورا لباب القصر Balat-kapoussi (٩) بالإضافة الى مجموعة من الاسكالات تستطيع السفن أن ترسو عندها بسهولة ، وتباشر عمليات الشحن والتفريغ (١٠) . ولاحقاً كميات البضائع الهائلة التي تجلبها السفن، شيد « البودستات » جاك تيبولو Jacques Tiepolo في عام ١٢٢٠ مستودعا هائلا (١١) . وترتب على امتلاك مساحة أكبر من الأراضي امتلاك عدد أكبر

Ibid, p. 108 et s., 110 et s., 124.

(١)

Ibid, p. 147; Nicét. p. 830; Taf. et Thom. II, 17-19.

(٢)

Taf et Thom. II, 289, 298

(٣)

Villeh. p. 136.

(٤)

Taf, et Thom. II, 284, 292.

(٥)

Paspatis, VII, 10 et s., 197 et s.

(٦)

Taf, et Thom. II, 48.

(٧)

Taf, et Thom. I, 447, 450.

(٨)

Ibid, II, 284, 293 ; Cf. Hammer, Constantinopolis und der Bosphorus, 1, 21, 126-603.

(٩)

Ibid, II, 4 et s., 11, 60.

(١٠)

Flamin. Cornelli. Eccl. venet. III, 99.

(١١)

من الكنائس والأديرة . وقبل الغزو كان البنادقة يملكون كنيسة
سان مارك ، وسانت ماري المسماة *de embulo* (أى الخاصة بالحي) تسمى
لها عن الكنيستين الآخرين (١) : كنيسة سان نيكولاس (٢) ، وكنيسة
سان اكند *St Akindynos* (٣) . وكانت الأحياء الملحقة تضم دير بانتيوبيتس
Pantépoptès (٤) ، وكنيسة بانتوكراتور *Pantocrator* (٥) التي أصبحت فيما
بعد مسجد تلي زيريك *Zeirek* (٦) ، ودير ماريا بيرليتيه *Maria Périblepté*
(حاليا صولو - موناستر *Soulo-Monastir* (٧) . ولفصل أملاك البنادقة
عن أملاك جيرانهم فصلا تاما ، وربما أيضا لحمايتها من غارة مفاجئة ، با
أول بودستات ، مارينو جينو *Marino Geno* ببناء حائط جديد (٨) . الا أن
وسائل الدفاع كانت على ما يبدو مركزة في قلعة حقيقية *castrum* (٩) .

كانت القسطنطينية بطبيعة الحال مركزا لممتلكات البندقية الاستعمارية
ولكن تركز فيها في الوقت نفسه مجموعة كبيرة من المصالح ذات الأهمية
الحيوية للجمهورية ، حتى لقد طرأ لها في وقت ما أن تنقل مقر الدوق إليها (١٠)
وعلى أية حال بقيت هذه الفكرة في نطاق المشروع ، وربما لم تناقش بالمرة
بصورة جدية . واستمر خلفاء انريكو واندولو الذي توفي في القسطنطينية
يحكمون من مدينة البندقية الجمهورية ، وممتلكاتها في اليونان مستغلين
نفوذهم على حلفائهم الأباطرة اللاتينيين . ومع ذلك ، فاعتبارا من تلك اللحظة
وعلى مدى قرن ونصف (١١) أضافوا الى ألقابهم لقب : *dominator quartoe*
partis et dimidioe totius imperue Rimanoe وهو لقب ليس فيه كثير من
المبالغة لأنه بالاجمال يعبر عن الواقع الذي سجلته معاهدة التقسيم . ولا ننسى

Taf. et Thom. I, 167 et s., 280; II, 422; Lib. jur. I, 1352; Commem. (١)
Reg. 92, no. 530.

Taf. et Thom. I, 280; El Cornel., l.c. II, 259. (٢)

Taf. et Thom. I, 67, 127, 381; II, 5, 10, 449 et s.; Ughelli, Ital. sacr. (٣)
V, 1133; Archiv. Venet. XX, 314 et s.

Flamin. Cornel. l.c. VIII, 134 et ss.; Dandolo, p. 342 et s.; Taf. (٤)
et Thom. II, 423.; Hammer, op. cit., I, 381, Dethier, Der Bosphor und
Constantinopel (1867), p. 39; Paspatis, 313 et s.

Taf. et Thom. II, 46, 348. (٥)

Hammer, op. cit., I, 378 et s., 471; Dethier, op. cit., Paspatis, 290. (٦)
309 et ss.

Riant, Exuviae sacrae Cpol. p. XCV, 135, 137; Paspatis, 379. (٧)

Taf. et Thom. II, (٨)

Lib. jur. I, 1352. (٩)

(١٠) لم يذكر هذه الواقعة سوى مؤرخ واحد في عصر أكثر حداثة ، هو دانييل باربارو : أنظر

Daniele Barbaro : Hopf, Griechenland, op. cit., LXXXV, 251.

Jusqu'à Giov. Delfino (1356-1361). (١١)

أن سيادة البندقية كانت تمتد على كل من ممتلكاتها المباشرة ، ومجموعة من الدويلات التي قبل أمراؤها سيادة البندقية عليها . وفي القسطنطينية كان يمثل الدوق نائب «بودستات» هو في ذات الوقت رئيس المستوطنة الفينيسية بالعاصمة ، وحاكم كل ممتلكات البندقية في رومانيا Romanie (١) . وقد انتخب هؤلاء «اليودستات» وهو مارينو جينو بعد وفاة واندولو بوساطة مجلس من بنادقة القسطنطينية واختير من بين أعضاء هذا المجلس لأنه كان من الضروري الاسراع في أن يحل محله رئيس نشيط وحازم . ولكن البندقية احتجت على هذا التعدي على حقوقها ، ولما كان هؤلاء المستوطنون مخلصين لوطنهم قبل كل شيء ، فإنهم امتنعوا فيما بعد عن انتخاب رئيسهم ، وأقسموا أن يقبلوا من يعينه الدوق (٢) . وعلى هذا كان كل البودستات بعد مارينو جينو موفدين من البندقية ، ولسنا نعرف على وجه اليقين أسماءهم أو مدة توليهم وظيفتهم أو عدد المستشارين الملقين بهم ، ذلك لأننا نجد قوائم باسمين تارة ، أو ثلاثة أو بخمسة أسماء تارة أخرى : وكان المجلس يتكون غالبا من ستة أعضاء ، كما في البندقية . ويساعد البودستات في الشئون القضائية خمسة قضاة judices وربما ستة ، وفي الشئون المالية وكيلان للخزانة camerarue (٣) . وكان لوظائف البودستات هذه في أعين الكافة أهمية كبرى ، وفي لقبه بالذات برهان على ذلك ، وكان هذا اللقب يضاف على حامله اعتبارا آخر ، خلاف الاعتبار الذي يتمتع به القنصل أو «البابل» (حاكم المستوطنة) . وينبغي فضلا عن ذلك ، ولزيد من الدقة القول بأن البودستات البندقي كان مثيلا في التدرج الوظيفي بالامبراطورية اللاتينية بال despote (ومعناه الأمير في المفهوم البيزنطي) : كان يعامل الأباطرة وبارونات مجلس الوصاية باعتباره ممثلا لدولة حليفة ، متمسكة بحقوقها ، ولا يجوز التفاوض عن نصائحها وطلباتها ،

Taf. et Thom. I, 567 et ss., II, 18, 206, 216, 221, 227, 254, 347;; (١)
111, 23. Taf. et Thom I, 569 et ss.; II, 15.

— ومع ذلك ، فمنذ أكتوبر ١٢٠٥ لم يحتفظ البورستات الأول في نطاق سيادته بدوقية دورانزو ، وجزيره كورفو بسبب بعدهما . أما جزيرة كريت فإنها لم تكن تابعة له منذ البداية لأن معاهدة التقسيم لم تتضمنها . وعلى العكس ، كان يتصرف في أموال في المير في خليج فولوس .

Taf. et Thom. I, 566 et ss. ; Dandolo, p. 334.

(٢)

Taf. et Thom. I, 559 et s., 568, 579 et s.; II, 6 et s., 19, 230; Liber pelgiorum, p. 34.

(٣)

— نجد أيضا ، منذ عام ١٢٠٥ في مستوطنة القسطنطينية وظيفة انشئت مد بضعة عشرات السن في البندقية (انظر s. 137 et 11, Romanin) وظيفة ال vagadore del commune المكلف بتمثيل البلدية في المسائل المتنازع عليها بينها وبين الأفراد : (Taf. et Thom. I, 560) وكانت المرافعات المدنية في المنازعات بين البنادقة والفريجة ينظمها قانون خاص وضع بالاتفاق بين الامبراطور هنري والبورستات م . حين في عام ١٢٠٧ (المرجع السابق ، الجزء الثاني ٤٩٢ -

٥٢) ، ويقوم على مبادئ القانون الروماني في العصر الأخير ، كما أوضحه السيد توماس في :
M. Thomas dans le Bulletin der Muenchen, Akad Gel. Anz., 1854.
XXXIX, no. 4, p. 26-28.

بالنظر الى الحاجة الى أموالها وأساطيلها . وفى مناسبة ارتقاء كل امبراطور العرش ، لا يفوته أن يطلب منه اقرار الحقوق والملكات المكفولة للبنادقة بموجب معاهدات . وبخصوص الادارة الكنسية والأكليزيكية كان له علاقات مع الكرادلة والبطاركة ، ويناقش حضوريا أصعب المسائل وأكثرها تعقيدا . وكان عليه ان يهتم بنمو التجارة ، ومن أجل ذلك عليه أن يتفاوض دوما مع الأمراء المجاورين . وكان أخيرا ، بالنسبة الى البنادقة المقيمين بالقسطنطينية أو الذين يمرون بها ، وكذلك البنادقة فى مدن الأقاليم أو الجزر يمثل أعلى السلطات السياسية والقضائية .

وفى حماية شخصية لها هذه الأهمية كان لا بد لمستوطنات البندقية أن تزدهر فى كل الأقاليم اليونانية كما ازدهرت فى القسطنطينية . وإذا كان الامبراطور لم يزل يؤدى الدول الأول من الوجهة السياسية ، فان البندقية أصبحت مع ذلك بلا جدال القوة التجارية الأولى فى بلاد اليونان . ولم يكن الامبراطور أو باروناته يتدخلون فى شئون التجارة ، أو ينافسون البنادقة . أما الدولتان الوحيدتان اللتان استطاعتا حتى ذلك الحين مواصلة التنافس بقدر كبير أو قليل من النجاح بفضل الامتيازات التى حصلتا عليها من أسرتى كومنينوس وانجيلوس ، وهما جنوا وبيزا فانهما تراجعتا بتواضع أمام الحليفة القوية لسادة الامبراطورية لسادة الامبراطورية الحاليين ، والاكتفاء بالمركز الثانى أو الثالث . ولم يكن من شأن حرب تنشب لهذا الغرض الا أن تقصيهما تماما عن السوق اليونانية والواقع أن المعاهدة الأساسية التى انعقدت بين البنادقة وبين سائر الصليبيين وجددها على التوالى كل الأباطرة اللاتينيين كانت تشتمل على مادة خاصة تحظر دخول الامبراطورية والاقامة بها على كل من ينتمى لأمة تحارب البندقية (١) .

ويبدو فى الأوقات الأولى التى أعقبت نشأة الامبراطورية اللاتينية أن حربا نشبت بين البندقية وبين جمهوريتى جنوا وبيزا ، وعلى الأقل يتهم كتاب « تاريخ دوقية البندقية Historia ducum Veneticorum » البيزين بأنهم أرادوا أن يرفعوا رؤوسهم أكثر مما ينبغى . ويطمعوا فى الاستيلاء على الامبراطورية البحرية عن طريق الرعب الذى يثيره قراصنتهم ، واضفاء حالة من المجذ على الدوق بيترو زيانى لأنه كسر نخوتهم (٢) . والكتاب لا يحدد تاريخا ، ولكن ، كما نعلم من حكايات هذا الدوق مع البيزين فى السنوات الأخيرة من حكمه ، ينبغى أن نسلم بأن هذه الوقائع ترجع الى السنة الأولى (١٢٠٥ - ١٢٠٦) ، وليس هناك أية اشارة الى ذلك فى أى موضع آخر . ولما لم يكن البيزيون فى حالة تسمح لهم بمواصلة النضال ضد كل من البنادقة والجنوين ، أعدائهم الوراثيين

Taf. et Thom. I, 448, 573; II, 229.

l.c. p. 95.

(١)

(٢)

فانهم عقدوا العزم على مصالحة البنادقة ، ولم يلب هذا الصلح أن نحول الى اتحاد وثيق . وكان بودستات بيزا ، جيراردو كورفيكا Gerardo Cortevecchia هو الذى بدأ المفاوضات الأولى عام ١٢٠٦ ، وفى هذه الآونة كانت البندقية مضطرة الى جمع كل ما لديها من قوات لانقاذ كريت المهدة بالوقوع فى أيدي الجنوبيين ، وكان البيزيون يحاربونهم منذ عدة سنوات فى صقلية وسردينيا . وقبل الدوق بيتر زيانى اليد التى امتدت اليه ، وفى ٢ من يولية عقد مع سفراء بيزا معاهدة تحالف التزم فيها كل من الدولتين بتجهيز أربعين سفينة حربية ، واتفق على أن ينضم الاسطولان أحدهما الى الآخر قبالة مسينا ، ويهاجمان الجنوبيين أينما التقيا بهم ، ونم التصديق على المعاهدة فى بيزا فى الخامس من أغسطس (١) . ولسنا نعرف مصير هذه المعاهدة ، فالتاريخ لم يقل شيئا عنها (٢) . وفى معاهدة ثانية وقعت عام ١٢١٤ تعهد البنادقة بالامتناع عن كل عمل من أعمال النهب والسلب البحرية ضد البيزيين (٣) ، وأعلنوا استعدادهم لتجهيز سفن تتعاون مع سفن بيزا لقمع أعمال القرصنة (٤) . ونجنبنا لكل فرصة للنزاع بين الأمتين ، تم الاتفاق على أن يمتنع مواطنو كل من الأمتين عن دخول أى بلد يملكه عدو أى منهما ، وفى الحالة التى يستولى فيها مواطن بندقى بطريقة غير مشروعة على أرض يملكها بيزى ، أو بالعكس ، فعلى المقتصب أن يرد الأرض الى مالكاها الشرعى ، ونص بنوع خاص على رد المال ، ووافقت جمهورية البندقية على ذلك مقدما فى حالة استيلاء بندقى على حقول أو كروم أو حدائق أو طواحين تتعلق أما بمستعمرة الميرو **Almyro** البيزية أو بكنيسة سان جاك البيزية فى المدينة نفسها . وكان الباعث على هذا النص هو أن الأحياء الفينيسية والبيزية فى الميرو كانت متلاصقة ، وأن المشاجرات بين الجاليتين كثيرة الحدوث على ما يبدو . والواقع أن البنادقة ، فى المعاهدة التى نجرى تحليلها يفرضون كشرط للتفاهم السلمى أن يكف البيزيون فى الميرو عن بناء أى معقل أو تحصين كنيستهم أو برجهم ، بالإضافة الى أن تكون الكنيسة وبرجها فى كل من المستعمرتين على ارتفاع واحد ، وأيضا تكون سقوف المنازل كلها مسطحة .

هذه المعاهدة تثبت بلا ريب أن مستعمرة الميرو البيزية كانت موجودة بعد

(١) من بين الوقائع المسبوبة الى عام ١٢٠٦ تذكر ال **Annai Jan.** واقعة بعز تماما التواريخ التى أوردناها : ذلك أن السفن الحربية الجنوبية ذهب الى ميناء بيزا واشعلت النيران فى سفينة بيزية تحت انظار سفير فينيسى جاء خصيصا ليرى هذا العمل ، وكان موجودا فى بيزا بحجة استعجال التصديق على المعاهدة ، وبأبع بيزيد من الاهتمام أعمال السليح .

(٢) رغم أن هذه المعاهدة كالت بشابة حبر على ورق ، فان لدراستها أهمية كبيرة : **Cicogna, Inscr. Venez. IV, 539.; le Giorn. ligur, 1874, p. 69 et ss.**

Loc. sulle relaz. tosc coll' Oriente, p. 88-90.

Ann. Jan. p. 136

(٣)

(٤)

نشأة الأمبراطورية اللاتينية . وهناك وثائق لا تقل عنها أصالة تزودنا ببرهان مماثل بالنسبة الى سائر منشآت البيزية في رومانيا . فمستعمرة القسطنطينية على سبيل المثال استمرت قائمة تحت حكم فيكونت . ولكن عندما سقطت المدينة عام ١٢٠٤ ، سبب لها النهب والسلب والحرائق خسائر لم تستطع تعويضها زمنا طويلا ، وحل بها الضيق والعوز لدرجة أنه من عام ١٢٠٤ الى ١٢٢٣ اضطر رئيس الاكليروس بنيناتوس **Benenatus** أن يتحمل جزءا من نفقات الشعائر الدينية . ومع ذلك كان له الحق في إيرادات الموازين والمكايل ، بالإضافة الى إيرادات المنشآت الخاصة . غير أن الإيرادات لم تصل طوال هذه الفترة الى مبلغ خمسة عشر دينارا بيزنطيا في أية مرة (١) ، ولما كانت كنيسة سان بيير وسان نيكولاس من أملاك الجالية البيزية ، فانهما أصيبتا بأضرار بالغة نتيجة اشتعال النار فيهما ، وأصبحتا غير صالحين لأداء الشعائر الدينية فيهما ، ومن ثم منحت الجالية كنيسة ثالثة مجاورة لحيها ، كنيسة سان سوفير « القديس المخلص » **St. Sauveur** (٢) . وحصلت الجالية مع الكنيسة على ملحقات لها تشمل أراضي ، كروم ، وأديرة متفرقة في أنحاء مختلفة ، حتى في آسيا الصغرى (٣) . وقد نال البيزيون هذه المنحة بناء على اقتراح ثلاثة من كبار قادة جيش الصليبيين ، وأقواهم نفوذا ، وهم أساقفة سواسون **Soissons** وتروى **Troyes** ، وبيت لحم **Bethléem** .

الا أن تحالفهم بعد ذلك مع البنادقة ، وإخلاصهم للبيت الأمبراطوري أكسبهم أيضا عطف سادة الأمبراطورية . وامتدح الأمبراطور هنري الأول وزوجته ماري الأميرة البلغارية التي قدمها الفيكوتتان البيزيان راينيرى فيديرتشى ، وجاك سكارلاتى ، اللذان أثبتا عرفانها بهذا الجميل ، واستطاعا أن يجددا للبيزيين ضمان ممتلكاتهم داخل الأمبراطورية ، واشترط الأمبراطور لذلك أن يقسما بين يديه يمين الاخلاص مثلما فعلا قبلا مع اسلافه (٤) .

ويختلف عن ذلك وضع الجنوبيين كل الاختلاف في البداية بالنسبة الى الدويلات التي نشأت في أعقاب الحملة الصليبية الرابعة . فما أن انتهت هذه الحملة حتى راح الكثير من « القرصان » الجنوبيين يجوبون البحر الأدرياتي وبحر ايجه ، ويعرقلون الاتصالات بين البندقية وبين فتوحاتها الجديدة ، ويحثون اليونانيين على مقاومة سادتهم الجدد . والمؤكد أنهم لم يفعلوا ذلك

Doc. sulle relaz. tosc. p. 94.

(١)

Ducange, Cpol. christ., lib. IV, p. 82, éd. Paris; Miklosich et

(٢)

Muller, Acta graeca, III, vi et ss., 19, 1, 29, 31 50, 53; Docum. sulle relaz., tosc. p. 47 s., 56 et s., cf. Paspatis, op. cit., p. 157.

Doc. sulle relaz. tosc. p. 84-46.

(٣)

Docum. sulle relaz. tosc. p. 86, 87; les Archiv de l'or. lat. II, 2,

(٤)

p. 253 et s.

من تلقائهم (١) فالمساعدات التي قدمتها جنوا لأكبر هؤلاء القراصنة ، الكونت هنري المالطي Henri de Malte لم تكن سرا لأحد . واذا تورطت جنوا الى هذا المدى في عدائها للبندقية ، فانها مع ذلك لم تكن تطمح بالمرّة في الاحتفاظ بمستعمراتها في اليونان وبخاصة في عاصمة الأمبراطورية ، وحيثما كان نفوذ البندقية سائدا . لذلك ففي نص الهدنة المنعقدة عام ١٢١٢ بين القوتين لمدة سنتين ، لم يكن ثمة اشارة الى التصريح بدخول التجار والمستعمرين الجنوبيين في رومانيا (٢) . ومع ذلك تم الصلح أخيرا في عام ١٢١٨ (٣) ، وفي المعاهدة التي أبرمت لهذا الغرض ، تعهدت جمهورية البندقية بمنح الجنوبيين في الأمبراطورية الرومانية كل الضمانات التي منحها ايها قبالا الأمبراطور الكسبيوس الثالث ، وتم الاتفاق على أن تكون لهم الحرية في ممارسة التجارة في كل أنحاء الامبراطورية ، وأن يحتفظوا بكل الحقوق والممتلكات التي كانت لهم فيما مضى على أن يخضعوا لنفس الرسوم والضرائب التي كانوا خاضعين لها . ووافقت البندقية على أن تعيد لورثة بلدوتيو جويريكو Balduino Guerico الاقطاعات الواقعة خارج القسطنطينية والتي أعلن الأمبراطور مانويل تجريدته منها ، على أن تكون من أملاك الجمهورية ، أو تعطيتهم ما يعادلها على أن يلتزم الورثة قبل الجمهورية بنفس الواجبات التي التزموا بها لمانويل . وتوجد المواد نفسها مدرجة في مصادرتي ١٢٢٨ (٤) ، ١٢٥١ (٥) مما يثبت أنها كانت سارية المفعول طوال عهد الأمبراطورية اللاتينية . وليس هناك وثائق أخرى خلاف هذه المعاهدات يظهر فيها بمثل هذا الوضوح التأثير القوي الذي كانت تمارسه البندقية في الأمبراطورية . ولم يكن في وسع الأمبراطور نفسه أن يعبر عن ذلك بلغة أخرى . ويبدو من سماع أقوال الأمبراطور أن البندقية كان في أيديها مفاتيح الأمبراطورية كلها ، ولم يكن ثمة حاجة لمرسوم أمبراطوري لمنح الجنوبيين من دخول أراضي الأمبراطورية ، والواقع أنه لم يكن هناك مرسوم من هذا القبيل ، وكان في تصريح البندقية في هذا الشأن ما يكفي .

والمؤكد أنه بعد صلح الجنوبيين مع خصومهم ، استعادوا تجارتهم مع القسطنطينية ، وتشير معاهدة الصلح لعام ١٢٥١ صراحة الى المستعمرين

-
- (١) Mart. da Canale, p. 353; Dand. p. 335, 341; Innoc. III, epist. éd. Baluze, II, 56 (cf. Riant, Exuviae sacrae Cpol. I, p. clv.); Annal. Jan, p. 123.
(٢) Canal, Nuova istoria di Genova, II, 17.
(٣) Lib. jur. I, 609 et s.; Cf. Annal. jan, p. 139.
(٤) Tafel et Thom, II, 197-205; Lib-jur; I, 815-820; Cf. Liber plegiorum, p. 151.
(٥) Lib. jur. I, 1090 et ss., 1099 et ss.; Pagano, I.c. p. 246-248; Taf. et Thom, II, 547.

الجنوئين ورؤسائهم (١) . ثم يبدو أنهم اتجهوا بالأحرى الى أجزاء الأمبراطورية الفرنجية الجديدة الأقل خضوعا بصورة مباشرة للبندقية ولعملها الأمبراطور . وثمة أمير ينتمى الى بلد مجاور لجنوا ، هو بونيفاس مركز دو مونفير ، أنشأ لنفسه مملكة فى تساليا ، وكانت وشائج التبعية التى تربطه بالأمبراطورية اسمية على وجه التقريب . على أنه لم يكده يستولى على سالونيك عاصمة الاقليم حتى أبحرت سفن جنوية قاصدة هذه المدينة (٢) ، ولم يكن ذلك بالتأكيد من قبيل الصدف . والى الجنوب قليلا أسس بعض الأشراف البورجنديين من بيت لاروش فى بيوتيا القديمة وفى أتيكا امارة أخرى ، كانت هى أيضا مستقلة عن القسطنطينية . وفى ٢٤ من ديسمبر ١٣٤٠ وقع الأمير الثانى فى هذه الأسرة وهو جى دولاروش Guy de Roche امتيازا لصالح الجنوئين (٣) ، وفى هذه الفترة كان قانعا بلقب « سيد أثينا » : dominus Athenarum ، ولكنه فيما بعد (وعلى الراجح ابتداء من عام ١٢٦٠) اتخذ لقب دوق ، وكان هذا الامتياز يكفل للجنوئين الاعفاءات التى كانوا يتمتعون بها فى عكا ، وفى سائر الجهات التى كانوا فيها الأمة الأكثر رعاية ، أى الاعفاء من الضرائب ، واقليم خاص بهم ، ومحكمة استعمارية ، كما وعد بمنحهم فى كل من مدينتى أثينا وطيبة أرضا حسنة الموقع ليقيموا بها حيههم ويشيدوا دارا للبلدية ، ولا يخضع الجنووين الذين يستقر بهم المقام فى هاتين المدينتين الا لقضاء قنصلهم ، فيما عدا ما يرتكبونه من جرائم السرقة والقتل وهتك العرض ، فهى من اختصاص محاكم البلد ، وتفصل هذه المحاكم أيضا فى استئناف الدعاوى التى يقيمها أفراد من غير الجنوئين ضد أفراد جنوئين ، ولم يكن الحكم الصادر من القناصلة قد أنصفهم . ومهما كانت أهمية هذه الوثيقة ، فمن الخطأ اعتبارها أول اجراء يرخص بانشاء مستعمرة جنوية بأثينا ، فالواقع أن هذه المستعمرة كانت موجودة من قبل : ذلك أننا نطالع فى نهاية هذه الوثيقة اسم القنصل الجنوى الذى كان يتولى منصبه فى اقطاعية أثينا Riccio di S. Donato وتعرفنا الوثيقة أيضا أن الجنوئين لم يكونوا يبارسون التجارة فحسب ، ولكنهم كانوا يشتغلون أيضا بصنع الأقمشة الحريرية : فالواقع أنه قد نص بالوثيقة أن الأقمشة الحريرية المصنوعة بأيديهم أو لحسابهم فى داخل البلد تستثنى من الاعفاء الجمركى وتخضع للضرائب المفروضة على كل المشتغلين بنفس النوع من الصناعة ، وسوف نعود فى ملحقات هذا الكتاب الى الكلام عن صناعة الحرير فى طيبة ، وازدهار هذه الصناعة فى ذاك العصر .

ولنعد الى مركز الأمبراطورية اللاتينية . سبق أن رأينا أن القوى الرئيسية

Lib. jur. I, 1093.

(١)

Voy. Canale, Nuova storia di Genova, II, 625, 628.

(٢)

Lib. jur. I, 992 et s.

(٣)

المنافسة للبندقية قد اعتزمت الواحدة بعد الأخرى أن تهادنها لصالح مستعمراتها في القسطنطينية . وهناك أمم تجارية غربية لم يسمح لها ضعف بحريتها أن تبشر منافسة جديده ، كان لها نفس المزايا دون حاجة الى أن تتعامل معها بصورة رسمية . منال ذلك أن « أمالفي » - التي فقدت آنثذ ما كان لها من عظمة ، كانت ولم تزال ضمن الأمم التجارية في القسطنطينية . ولم يزل دير سانتا ماريا دى لاتينا Santa Maria de Latina القديم موجودا . وفى عام ١٢٥٦ أعلن البابا الكسندر الرابع حمايته على ممتلكاتها وما تتمتع به من اعفاءات مثلما فعل قبله الكثير من سفراء أسلافه (١) . وزعم البعض أن الأمالفيين لم يزالوا يملكون في القسطنطينية كنيسة مكرسة للقديس أندريه St. André شفيع مدينة أمالفي ، مثلها مثل كاتدرائية أمالفي ، غير أن هذا الزعم لا يستند الا على ما أكده أوغيللى Oghelli وهو تأكيد لا أساس له ، وثبت عدم صحته (٢) . والواقع أن رفات القديس أندريه كان محفوظا في القسطنطينية ، وقد تسلمه الكاردينال بيير دى كابو Pierre de Capoue المواطن الأمالفي المبعوث الى القسطنطينية سفيرا للبابا ، وذلك بعد استيلاء الصليبيين على المدينة بوقت قليل ، ونقل الرفات في عام ١٢٠٨ الى كاتدرائية وطنه الأصل . ترى بأية سلسلة من الاستنتاجات توصل أوغيللى الى الزعم بأن المكان الذى أودع فيه هذا الرفات في البداية بالقسطنطينية لا يمكن أن يكون الا كنيسة مكرسة للقديس أندريه ، وتابعة للأمالفيين ؟ أنه الأمر من الصعب فهمه . وليس هناك شيء شبيه بهذا ، لا فى قصة نقل الرفات التى نصص لها بضع صفحات فيما بعد (٣) ، ولا فى أى تاريخ آخر (٤) . حقا ، كان في القسطنطينية عدة كنائس مكرسة للقديس أندريه (٥) ، ولكن لم يكن أى منها قد آوت رفات القديس الذى تحمل اسمه . والى أن جاء اليوم الذى حمل فيه الكاردينال سفير البابا الرفات الى الغرب ، كان الرفات محفوظا في كنيسة القديسين الحواريين Saints A potres (٦) . ترى هل يوجد على الأقل وثيقة تشهد بأن احدى كنائس القسطنطينية المكرسة للقديس أندريه قد منحت للجالية الأمالفية ؟ كلا .

لننتقل اذن الى موضوع آخر ، ونكتفى بأن نعرف أن هذه الجالية قد احتفظت بديرها القديم ، دير سانتا ماريا دى لاتينا ، وحسبنا هذا لاثبات

-
- | | |
|---|-----|
| Ughelli, Italia sacra, 2e éd VII, 222 et s. | (١) |
| Ibid, p. 187, | (٢) |
| Ibid, p. 206 et ss. | (٣) |
| Chron Amalph, dans Murat, Aliq. I, 215 et s. | (٤) |
| Ducange, Constantinopolis christiana, lib. IV, p. 76. | (٥) |
| Ibid p. 71 et ss.; Hammer, Constantinopolis und des Booporus, I, 388. | (٦) |

وجود حي أمالفي في القسطنطينية في العصر الذي ندرسه . ثم أن الممتلكات والاعفاء الخاصة بتلك الجالية كانت عرضة للانتهاكات المتكررة ، ولم تكن الجالية قادرة على الدفاع عن نفسها دون أن تعتمد على حماية قوية . لذلك وجه رئيس أساقفة أمالفي في عام ١٢٥٧ التماسا الى البابا الكسندر الرابع ، وحصل على مرسوم يخول لرئيس دير سنت أنج « السستري » بالقسطنطينية استخدام سلطاته الكهنوتية لصالح الجالية الأمالفية (١) . وفي تصورنا ، على أقل تقدير أن هذه الجالية الضعيفة التي عانت من اضطهاد جيرانها الأقوياء ، لاقت مشقة كبيرة في استمرار وجودها الذي يبدو أنه لم يكن مقدرا له أن يتجاوز وجود الأمبراطورية اللاتينية .

وفي منشور بابوي لعام ١٢٠٨ (٢) بشأن العشور الواجبة الأداء لبطريرك القسطنطينية ، يذكر البابا انوسنت الثالث Innocent III من بين الأجانب المقيمين بالمدينة ، غير البيزيين والأمالفيين ، لمبارديين ، ودانمركيين ، وأنجليز . وليس من المحتمل أن يكون هؤلاء الغربيون موجودين هناك لممارسة التجارة ، وعلى أية حال فإن هذا الافتراض لا يبدو على جانب من الصحة إلا بالنسبة الى اللمبارديين ، أما الآخرون فلا بد أنهم كانوا يؤدون مهمات عسكرية : فالمعروف أن الأباطرة البيزنطيين كانوا يجندون عساكرهم المرتزقة بنوع خاص من شمال أوروبا (٣) . وقد ورد ذكر الجنود المرتزقة من الانجليز والدانمركيين بصفة خاصة عدة مرات ضمن المدافعين عن القسطنطينية ضد الصليبيين عام ١٢٠٤ (٤) . والمرجح أنهم بعد سقوط المدينة بقوا بها ، وانتقلوا من خدمة الأباطرة اليونانيين الى خدمة الأباطرة اللاتينيين .

وتذكر الجوليات الجنوبية أيضا عنصرا آخر من سكان القسطنطينية : أولئك هم « الاتكونيون » (نسبة الى انكونا) (٥) ، والبروفانسيون وكان هؤلاء بالذات تجارا . وقد ثبت لنا من قبل وجود جالية انكونية في القسطنطينية قبل الحملة الصليبية الأولى ، إلا أن البروفانسيين جاءوا فيما بعد (٦) ، وكان لهم حي مشترك مع الاسبانيين ، وليس في ذلك

Ughelli, 1. c. p. 223. (١)

Epist. éd. Baluze, II, 147. (٢)

Ducange, Villehardouin, p. 296-299. (٣)

«Englois et Danois» : Villehardouin, éd. de Wailly, p. 96, 106., Taf. (٤)
et Thom., I, 307.

Annal, Jan, p. 136. (٥)

(٦) من الثابت أن تجارا من سان جيل ومونبيليه كانوا يسافرون الى القسطنطينية ، ويتبن هذا من المعاهدات المبرمة بين سان جيل وجنوا في عام ١٢٣٢ ، وبين جنوا ومونبيليه في عامي ١٢٣٠ ، ١٢٥٢ ، انظر : Lib. jur. I, 761, 903, 1148.

ما يشير الدهشة لأنه كان يوجد في ذلك الحين بين سواحل فرنسا الجنوبية وسواحل أسبانيا الشرقية (كتالونيا) كل أنواع الروابط السياسية والقومية . لم يكن بين تلك الأمم التجارية متفاوتة من حيث عدد أفرادها ، ونفوذها ، وأقدمية استقرارها في القسطنطينية من لا تعترف بتفوق جمهورية البندقية . فأولا ، كفلت هذه الجمهورية لنفسها مزية كبيرة على مزاحمها ، تتمثل في الاعفاء المطلق (من الرسوم والضرائب) المنصوص عليه في الميثاق الأساسي لصالح تجارها ، ليس فقط في البلاد التي تحكمها حكما مباشرا ، أو يحكمها مواطنوها أو اتباعها ، ولكن أيضا في الامبراطورية اللاتينية بأسرها (١) ، هذا في حين أن النظام الجديد لم يكن يكفل للجنوبيين والبيزنيين الا الامتيازات وتخفيضات التعريفات التي كانوا قد حصلوا عليها فيما مضى من الأباطرة اليونانيين . فاذا كان الأمر كذلك بالنسبة الى هاتين الأمتين ، تبين لنا أن الأمم الأخرى الأقل أهمية لم تكن لتستطيع حتى التفكير في طلب الاعفاء التام من الرسوم الجمركية . على أن هذا لم يكن كل شيء ، فقد وجدت البندقية فوق ذلك وسيلة أخرى لتأكيد تفوقها على سائر الأمم التجارية . ذلك أنه اتفاما للإجراءات المتخذة إبان تقسيم الامبراطورية ، اتفق الامبراطور روبرت Robert مع جمهورية البندقية في عام ١٢٢٣ على اقتسام إيرادات الضرائب والرسوم التي تدفعها للدولة الأحياء التجارية بنسبة ٨/٥ للامبراطور ، ٨/٣ للجمهورية (٢) . ولم يصلنا نص هذه المعاهدة ، ولسبب ما ، جعل فيها تحفظ فيما يختص بحق البروفانسيين والاسبان ، وأجل البت فيه الى زمن لاحق . الا أن قرارا بتاريخ ٢٠ من فبراير ١٢٢٤ جعل هذا الحق في نفس الفئة التي ضمت سائر الأحياء (٣) . وتبعاً لهذا الاتفاق أصبح المستوطنون الغربيون في القسطنطينية يؤدون الضرائب للبندقية ، ومن ثم كان وضعهم يتضمن بعض التبعية .

وكان لا بد للوضع المتفوق الذي اكتسبته الجمهورية (الفينيسية) في البسفور أن يكفل لها مزيدا من السيطرة في علاقاتها مع القوى المجاورة ، وكانت حريصة على ألا تفرط في هذه المزية ، واعتماد كل تاجر بندقى أن يجعل من القسطنطينية التي أضحت بتوع ما وطنا ثانيا له مركزا لعمليات تجارية واسعة ، ونقطة انطلاق لرحلات بعيدة في مناطق البحر الأسود وما بعدها ، أو في آسيا الصغرى . وهكذا أخذ « البودستات » البنادقة يتوسعون بالتدريج بفضل سياستهم التجارية ، وروح المغامرة لدى التجار ، وامتدت علاقات البندقية أكثر فأكثر ، وبخاصة صوب الشمال والشرق . ولنتبعهم أولا صوب

Taf. et Thom. I, 573; II, 229, 383, 292.

(١)

Ibid. II, 253, 283, 292.

(٢)

Ibid. II, 255.

(٣)

الشمال . ففي شهر يونية عام ١٢٤٧ كان الميشر يوحنا دو بلان دو كاربن Jean du Plan de Carpin عائدا من بلاد التتار ، فأقام في كييف ، وتعرف ثمة بالكثير من التجار الايطاليين الآنين من القسطنطينية ، ومن هؤلاء ثلاثة من البنادقة في الغالب ، واثنين من الجنويين (١) . وهكذا كان الايطاليون هم الذين وتفقوا في تلك الآونة من جديد العلاقات التي كانت قائمة بين الروس واليونانيين .

وهناك فضلا عن ذلك حقيقة غريبة ، ذلك أن معاهدة التفسييم لم تتضمن أية مدينة يونانية من مدن الضفة الشمالية لاقليم بنطس ، لاصغداية Sougdaia ولاخرسون Cherson . وقد ورد اسم صاغوداي Sagoudai وهو موقع نسبته المعاهدة الى البندقية (٢) (*) على القائمة بين مدينتي خرسونيز Chersonnèse بتراقيا ، وهكساميليوم Hexamilium (٣) ، وجاليبولي . وان اعتبار ذلك الاسم « صاغوداي » هو اسم المدينة صغداية ، وهي مدينة بالقرم ، كما قال السيد برون nM. Phil Brunn (٤) لهو من قبيل الزعم ، دون مبرر بأن صانعي هذه الوثيقة قد أخطأوا خطأ غير معقول باطلاق اسم مدينة على مدينة أخرى (٥) . ومن الراجح أنه في وقت انعقاد المعاهدة كانت هذه الأقاليم فيما وراء البحار قد انفصلت عن الامبراطورية ، ويفسر هذا السبب في أنها لم تذكر في مناسبة التقسيم ، وكيف أنها ألحقت بامبراطورية طربزون Trébizonde ، يؤيد ذلك وثائق لاحقة بوقت غير بعيد (٦) ، دون أن يوجه اليها الفرنجة اهتماما أكثر مما وجهته للغزوات التتارية التي كانت هذه الاقاليم مسرحا لها مرارا . والواضح أن الفرنجة لم يكونوا ليهملوا استغلال الحقول التي يخولها لهم كونهم غزاة هذه الامبراطورية في الأقاليم التي كانت فيما مضى تابعة لها لو أنهم استشعروا في ذاك العصر

(١) Jean du Plan de Carpin, publ. par d'Ovezac, dans le Recueil de Voyages et de mémoires, IV, 772; Brunn (Not. sur les colonies en Gazarie, p. 5).

(*) (بنطس اقليم شرق آسيا الصغرى على شاطئ البحر الأسود - المراجع)

(٢) Taf, et Thom, I, 467.

(٣) Ramon Muntaner, trad. Lanz, II, 122.

(٤) Brunn : Notices historiques et topographiques concernant les colonies italiennes en Gazarie (Mém. de l'Acad. des sciences de S. Pétersbourg, 7e série X, no 9 S. Pétersb. et Leipzig, 1866) p. 8.

(٥) نشرت ردا على رأي السيد برون في : Le Bulletin de l'Acad. de St. Pétersb, XIII, 1869, p. 269 et s. (Mélanges russes tirés du Bulletin etc. IV, p. 582-584).

(٦) Fallmerayer, Original fragmente zur Geschichte des Kaiserthums Trapezunt, Abh. der hist. Cl. der Muenchen, Akad. III, 3e sect. p. 18 et s., 72 et s, 87, 92 103, 144 et s.

ما سوف تكتسبه مناطق البحر الأسود وبحر آزف في المستقبل من أهمية تجارية عظيمة . وكان هناك في عصر الإمبراطورية اللاتينية تجار يستخدمون الطريق الذي رسمه اليونانيون للسفر من القسطنطينية الى محطة ماتريكسا Matrega (Matrice) القديمة في شبه جزيرة تامان ، ويصلون من ثمة الى مصب نهر الدن في زوارق ، ولكنهم لم يكونوا يذهبون الى هناك بحثا عن شيء خلاف السمك المجفف ، ولم يكونوا يفكرون في منتجات آسيا الوسطى والصين (١) . ولم تكن التوابل التي تصل في ذلك العصر من قلب الشرق الى سواحل روسيا الجنوبية الحالية تنحدر في مجرى الفولجا والدن ، بل كانت على العكس من ذلك تصعد صوب الشمال عن طريق آسيا الصغرى .

والواقع أنه كان يوجد في ذلك العصر حركة مبادلات تجارية كبيرة بين السكان المسلمين في آسيا الصغرى وسوريا ، وبلاد ما بين النهرين من جهة وبين سكان جنوب روسيا (الكبتشاك Kiptchaks) من جهة أخرى . وكان تجار روسيا والموصل يتقابلون عادة في سيواس Sivas في أعداد كبيرة تكفي لتشكيل قوافل ، ويمضون من ثمة صوب البحر الأسود عبر اقليم السلاطين السلاجقة أو طربزون ، ويعبرون البحر ليصلوا الى جنوب روسيا (٢) ، وكان التجار الترك ، أى الذى ينتمون الى سلطنة السلاجقة يركبون السفن فى سينوس Sinope وهى من صنع سلطنة قونية Iconium (حاليا قونية) ، وذلك منذ عام ١٢١٤ (٣) (*) ، ثم ينزلون برا على شواطئ القرم عند صولديا Soldaia (سوداك Soudak) ، وكانت بضائعهم تتكون - حسبما يذكر « وليم دو روبروك » من أقمشة حريرية وقطنية وتوابل (٤) . وثمة مثال ، بين أمثلة أخرى يوضح الأهمية التى كان السلاطين السلاجقة يولونها لهذه التجارة . ذلك أن علاء الدين قيقباد Alaeddin-Kaikobad وجه فى عام ١٢٢٧ حملة ضد سوداك لينتقم من سوء المعاملة التى عانى منها أحد رعاياه ، ويقتضى ترضية نالها على أكمل وجه مستطاع (٥) . ومن جهة أخرى كان سكان القرم وروسيا يعبرون كثيرا البحر حاملين لآسيا الصغرى قراهم الجميل (٦) .

Guill, de Roubrouck, p. 215.

(١)

Ibn-Alathis, dans Defrémery, Fragmente de géographie et d'hist (٢)
arabes et persans inédits relatifs aux anciens peuples du Caucase et
de la Russie méridionale, Journ. asiat, 4e série, XIV, p. 461 et s.
M, Th, Houtsama, Ueber eine tuerkische Chronik zur Geschichte (٣)
der Seldschunken Kleinasiens (tiré du 2 vol. des travaux de la 6e section
du congrès int. des Orientalistes à Leyde) p. 10 et s.

(*) (مناء سينوس تركى على البحر الأسود - المترجم)

Guill, de, Rubruck, p. 215; Ibn-Alathir (I. c. p. 459).

(٤)

Houtsama, op. cit., p. 12 et s.

(٥)

Buill, de Rubrouck, l.c. : Ibn-Alathir, l.c. p. 461 et s.

(٦)

وتشكل هذه المادة أيضا مع الرقيق من الجنسين شحنة سفن المسلمين العائدة (١) .
وكان استعمال الفراء الناعم قد انتشر في تقاليد العالم الاسلامي لدرجة أنه اذا
وقعت بعض الأحداث الحربية في القرم أو في آسيا الصغرى فأوقفت تصدير الفراء ،
كان ذلك بمثابة كارثة في كل مكان (٢) .

ويبدو أنه كان لابد من انقضاء زمن طويل قبل أن تبلغ حركة التجارة
بين اللاتينيين في القسطنطينية وبين اليونانيين في القرم مثل هذا النشاط .
ونتيجة طبيعية للأحداث السياسية تحول اليونانيون عن القسطنطينية واتجهوا
صوب طربزون ، ومن ثم كان نزوع تجارتهم الى ترك الوجهة الجنوبية الغربية
والتحول الى الجنوب الشرقي . ويبدو أن الغربيين أنفسهم لم يوجهوا اهتمامهم
ناحية القرم الا منذ اليوم الذي أقام فيه التتار في جنوب روسيا خانية كيتشاك .
ولأسباب سوف نوضحها فيما بعد ، نشأت علاقات نشيطة ومثمرة بين الأمراء
المسيحيين وبين الخانات التتار . واعتقد الرهبان والتجار الغربيون أنهم
اكتشفوا في بلاد التتار - البعض من أجل رسالتهم الدينية ، والبعض الآخر
من أجل تجارتهم - ساحة تبشر خيراتها وحصادها بما يزيد كثيرا على أعظم ما
كانوا يأملون .

ولكى يمكن دخول هذه المناطق المجهولة ، كان أفضل موقع لهذا الغرض
هو بالذات في القرم ذلك هو « صولدايا » . كانت تلك المدينة واقعة على
الساحل الجنوبي للقرم بين كافا Caffa ، والوستا Alousta عند منفذ واد خصيب
مغطى بالكروم أشاد الرحالة ابن بطوطة بمينائه ووصفه بأنه من أفضل الموانئ
في العالم وأجملها (٣) . وكان اليونانيون ينطقون اسم هذه المدينة
« صفداية » (٤) Sougdaia ، أما الغربيون فكانوا يسمونها طوال العصور
الوسطى « صودايا » (٥) Sodaia أو « صولداشيا » Soldachia (٦) أو بعامية
« صولدايا » (٧) وكتبها الارديسي « شولتاديا » Scho Itadia أو « صولتاديا »
Soltadia (٨) ، ويسمى الجغرافيون الشرقيون (٩) والأهالي في عصرنا

(١) Ibn-Alathir, l.c. p. 457.

(٢) Ibn-Alathir, l. c. p. 460-462.

(٣) I, 28; II, 415.

(٤) Micklosich et Muller, Acta et dipl. groeca medii oevi, I, II, passim; voy. la Table du T. II.

(٥) Carte catal. p. 83; Thomas, Periplus des Pontus Euxinus, p. 19 et s.

(٦) L'édition de Marco Polo publiée par pasini, p. 430 et s.

(٧) Guill de Rubrouck, p. 215 et s., 219; M. Polo, éd. Pauthier, I, 6 :

Annal. Jan, p. 285; Atlante Luxoro, p. 125 etc.

(٨) Trad. Jaubert, III, 39E.

(٩) Aboulf. Géogr. trad. Renaud II, 319; Annal muslim. IV, 301;

Ibn-Alathir, l.c. p. 457; Chehabeddin, dans les Not. et extr. XII, 361; Ibn Bâtouta, Voyages, éd. Defrémery et Sanguinetti, I, 414 et s.

الحاضر « سوداك » (سوداغ Soudagh ، وكان معظم السكان من أصل يوناني ويعتقدون المسيحية . غير أن نمو التجارة مع البلاد التي تشرف على البحر الاسود والمناطق الواقعة شلهالي القرم جلب اليها الكثير من الافراد من جنسيات وديانات مختلفة (١) . وقد استولى التتار على صولدايا لأول مرة في عام ١٢٢٣ في غضون حملة مظفرة عبر برزخ القوقاز وسهل كتيشاك ، وكان أكبر عمل حربي في تلك الحملة هو النصر الذي أحرزه التتار على الروس بالقرب من كلكا Kalka (٢) : وقد انتزعت المدينة بعد قليل من سيطرتهم ، ولكنهم استعادوها في عام ١٢٣٩ (٣) ، ومع ذلك احتفظت بإدارتها الوطنية وأسقفها اليوناني ، وقنع الخانات التتار باقتضاء جزية (٤) . كانت صولدايا يسكنها قوم جلم من اليونانيين ، وغالبيتهم مسيحيون (على الأقل في تلك الحقبة) ولكنهم في الوقت نفسه خاضعون للتتار ، وكانت محطة دسطة محطه ممتازة للتجارة والرهبان قبل أن تصير في داخل بلاد التتار ، ونزل بها الراهب «وليم دو روبروك» في عام ١٢٥٣ وأقام ضيفا على ملحقات الكنيسة الكاثدرائية ، ومن هناك بدأ رحلته الى أقاصى آسيا . والراجح أن هناك أيضا نزل في عام ١٢٦٠ (٥) التاجران البندقيان نيكولو Niccolo ، ومافيو بولو Maffio Polo (مايتو Mathieu ليببعا جواهر في بلاط السلطان برکه Berké خان القيشاق ، ووصلا مباشرة من القسطنطينية حيث أمضى أخوهما الأكبر وشريكهما ماركو Marco شطرا من حياته ، وكان هو أيضا قد مد عملياته حتى صولدايا ، ان لم يكن في تلك الآونة ، فعلى الأقل فيما بعد ، وكان له بها بيت تجارى . (لعله فرع) . وعندما تقدمت به السن قر عزمه على أن يعتزل في البندقية ، وطنه ، وكان يسكن ببيته ابنه نيكولاس Nicolas وابنته ماروكا Marocca . وفي وصيته التي حررها في ٥ من أغسطس ١٢٨٠ ترك لهما حق الانتفاع بالدار طوال حياتهما ، في حين أوصى بملكية الرقبة لفرنسيسكان المدينة (٦) . وليس من المحتمل أن يكون ماركو بولو هذا استثناء بين البنادقة ، ولابد أن آخرين غيره اشتروا أملاكاً في صولدايا ، وسوف نرى أنه كان هناك فيما بعد.

Ibn-Saïd, dans Aboulf. trad. Renaud.

(١)

Ibn-Alathir, I.c. p. 457; Aboulf. Annal musul. IV, 301; Erdmann, Temudschin, p. 434; L'Archimandrite Antoninos (les Mémoires-en russe de la société d'histoire et d'Antiquités d'Adessa, V, 1863, p. 595 et ss.)

Notes du Synaxorion, op. cit., p. 597, no. 10.

(٢)

Guill. de Rubrouck, p. 217.

(٣)

Neumann, dans la trad. de M. Polo par Buerk, p. 606 l'éd. de M. polo par Pasini, p. 271, celle de Pauthier, I, 5, 7, 17; celle de Yule, I, 2, 5, 8; M. Hammer, Geschichte der goldenen Horde, p. 168, not. 3.

Cicagna, Incr. venez. 111, 489 et s.; puis dans le supplément de

(٤)

Viaggi di M. Po'o éd. Pasini p. 430 et s.

جالية بندقية مزدهرة ، يرجع أصلها غالبا الى العصر الذي كانت البندقية قوية السلطان في القسطنطينية . ويلاحظ مارن marin (١) بحق أنه لا يمكن النسلهم بأن نيكولو ، ومافيو بولو قد خاطرا بحمل أشياء ثمينة في بلد مجهول ، ودون أن يكون قد سبقهما اليه بعض مواطنيهما . وليست آسسيا الصغرى الا على بعد خطوتين من القسطنطينية ولا بد أن البنادقة قد فكروا في أن يفتحوا بها أسواقا ، ولم يفتحهم ذلك : فأولا كان الجزء الذي غزاه الصليبيون عام ١٢٠٤ مع باقى أجزاء الامبراطورية ، ولم يزل بالطبع مفتوحا للتجار البنادقة طالما بقى بها الفرسان الفرنسيون والفلمنكيون . وحصل بعض الأفراد من أهل البندقية على أملاك بها ، واستقر ثلاثة من البنادقة ، هم جورجيو (؟) كويرينو ، وجاكوبو كويرينو ، وجيوفاني سوكوجولو على الشاطئ الآسيوى . عند لامبساكوس Lampsaque (لاباساكو Lapasaco ، كما لو كانوا تابعين للامارة الصغيرة التي أسسها اثنان من البنادقة في جاليبولى على الشاطئ الأوروبي من الدردنيل ، ونسبوا الى أنفسهم حقوقا من حقوق الريادة : ونجد اثباتا لذلك في قائمة للضرائب التي يدفعها لهم السكان (٢) ، وتظهر في القائمة أسماء الأرضة والسوق ، الشيء الذي لعله يثبت أنه كان يمارس نمرة نوع من التجارة . الا أن حدود الاقليم التابع للامبراطورية البيزنطية القديمة كانت أضيق من أن تنمو التجارة فيها . ولم يتوان البنادقة في تخطى هذه الحدود . ولتمهيد الطريق لهم عقد « بودستان » القسطنطينية معاهدات مع رؤساء الدول المجاورة ، من سلاجقة ويونانيين . وفي هذه الفترة ، كان القسم الأكبر من آسيا الصغرى يشكل « امبراطورية سلاطين قونية » ، ويتحدث عنها ماركو بولو باسم تركمانيا Turqueménie . ورغم تغير الأسماء ، فانه من الميسور التعرف على تماثل الاسماء التي ذكرها مع أسماء المدن الحقيقية : مثال ذلك قونية Iconium canie ، وسيواس Savast (Sivas) ، وقيصرية Caserie (Kaisariëh) . ووسط سكان أغلبهم من الترك الذين يمارسون بنوع خاص تربية الماشية والخيول ، وجد الرحالة ذائع الصيت حشودا كبيرة ممن بقوا على قيد الحياة من الأجناس اليونانية والأرمنية الذين ازدهرت عندهم التجارة والصناعة ، فهم الذين كانوا يصنعون أجمل الطنافس ، وتميزت منسوجاتهم الحريرية بثراء ألوانها وتنوعها (٣) . وكان الشب من الحاصلات الطبيعية المطلوبة أكثر من غيرها . وفي عام ١٢٥٥ ، حين زار وليم دو روبروك السلطنة عند عودته من

IV, 122.

(١)

(٢) حرر هذه القائمة في عام ١٢١٩ ، انظر :

Tafel et Thom, II, 208 et ss.; cf. Hopf, Veneto-Byzantinische Analecten, p. 461.

M. Polo, éd. Pauthier, I, 35-37.

(٣)

رحلته في وسط آسيا ، وجد في العاصمة عددا من الغربيين ، من بينهم تاجران شريكان ، أحدهما جنوى يدعى نيكولاس دي سانتو سيرو ، من عكا ، وبندقى اسمه بونيفاس دي مولندينو (١) وكانا يحتكران تجارة الشب المستخرج في البلد ، ويرفعان ثمنه كثيرا حتى ان ما كان يساوى قبلا ١٥ دينارا بيزنطيا ، بيع وقتئذ بسعر خمسين دينارا (٢) . هذا أول مثال لغربيين اجتذبهم منتجات البلد الى سلطنة قونية . ولعل التجارة كانت تجرى في ذاك الأوان عبر الطريق الكبير الذى يجتاز آسيا الصغرى بانحراف من الجنوب الشرقى الى الشمال الشرقى ، ويصل برا بين سوريا والقسطنطينية ، ويبدأ من أنطاكية ، ويعبر ممر بيلان Beilan ويلف حول خليج الاسكندرونة ، ويصل الى آسيا الصغرى على حدود كيليكيا Cilicie . ولما كان هذا القطر وقتئذ في أيدي ملوك مسيحيين ، كان التجار الغربيون يطوفون به في جميع الاتجاهات ، وكثيرا ما كانوا يدخلونه عن طريق سوريا ويخرجون منه عبر ممر « جوليك بوغاز » Goulek-Boghaz على طريق ايكونيوم (٣) . وبالطبع لا يثبت هذا أنهم كانوا يرحلون عادة ودون انقطاع من سوريا الى ايكونيوم ، ومن ايكونيوم الى القسطنطينية . والثابت أنهم اذا كانوا يفضلون الطريق البرى على البحرى في الذهاب من سوريا الى القسطنطينية ، فذلك لأنهم لم يصادفوا أية عراقيل من ناحية السلاطين السلاجقة الذين كان من المحتمل أن يقفوا منهم موقفا متشددا بسبب اختلاف الديانة . ومارست البندقية بوساطة «بودستانتها» فى القسطنطينية تأثيرا طيبا على هؤلاء الأمراء : وبفضل هذه العلاقات الطيبة حصلت على امتيازات وقعتها ثلاثة منهم : غيات الدين كيخسرو الأول (المتوفى عام ١٢١١) ، وابناه وخليفته عز الدين كايكاوس (١٢١١ - ١٢٢٠) ، وعلاء الدين كيقباد (١٢٢٠ - ١٢٧٧) . ولسنا نعرف لسوء الحظ سوى الوثيقة الأخيرة الصادرة عام ١٢٢٠ (٤) والتي ورد بها الكثير من الاحالات الى الوثيقتين السابقتين ، وقد منح علاء الدين فيها التجار البنادقة ، مثلما فعل سلفاه الاعفاء من رسوم الدخول على الأحجار الثمينة ، أما بالنسبة الى السلع الأخرى فقد احتفظ برسم خفيف عليها مقداره ٢٪ . وبهذه المناسبة تبادلت الدولتان الضمانات بشأن سلامة أرواح المسافرين وأموالهم ، حتى فى حالة غرق السفن . وإذا قام نزاع فى اقليم السلطان بين بناقة ولاتينيين آخرين ، كان من حق البنادقة أن يشكلوا فى كل قضية محكمة من قضاة يختارونهم من

Savuto, Secr. fid. cruc p. 235 et s.

(١)

Guill de Rubrouck, p. 392.

(٢)

(٣) أنظر المعاهدة التجارية البرمة عام ١٢٨٨ بين جنوا وأرمينيا -

Taf. et Thom, 11, 221 et ss.; cf. I, 438 et s.; Dandolo p. 341.

(٤)

- ينبغى أيضا التنويه بأن ال Liber plegiorum ص ١٦٠ تذكر أحد البنادقة ويدعى -

فيليبو جوليانو الذى بعث بمهمة لدى سلطان ايكونيوم فى عام ١٢٢٨ .

بينهم : ومع ذلك يحتفظ السلطان لمحاكمه الخاصة بالفصل فى كل قضايا السرقة والقتل . هذه المعلومة تثبت أن السلطنة كانت مفتوحة لكل اللاتينيين ، ثم ان البيزيين ذكروا بالاسم فى الوثيقة نفسها . وكان الكثير من هؤلاء الأجانب يأتون الى البلد عن طريق أرمينيا الصغرى ، وآخرون عن طريق جزيرة قبرص . فالبروفانسيون مثلا ، كانوا يمارسون تجارة عابرة (ترانزيت) بين قونية وقبرص ، ويجلبون الى الجزيرة ، ضمن أشياء أخرى ، الشعير والصوف والجلود والحريير الخام والمشغول (١) ، وتوضح خرائط العصور الوسطى بنوع خاص على شاطئ آسيا الصغرى ، فى مواجهة قبرص ، جنوب غربى مصب نهر سلف Selph ميناء مكونا من جزيرة أطلق عليها اسم Portus Prorensaliu أو la Proensal (٢) . وربما كان هذا الموقع يتردد عليه البروفانسيون ، وربما كان اسمه مأخوذا من فرسان القديس يوحنا الذين يتكلمون اللغة البروفانسية، وكان لهم ثمة محطة (٣)، كما هي الحال بالنسبة الى جزيرة مجاورة يدل اسمها «كافاليري» (Cavalière portus Cavalierus Sadut) لأول وهلة على أنها ملك لفرسان غربيين . بيد أن السلاطين كانوا يملكون على الشاطئ الجنوبي موانئ أهم من هذه ، منها كانديلورى Candelore (ويسمىها الشرقيون عالية Alaia ، وساتاليا Satalia

وكان ميناء ساتاليا مفتوحا لكل الأمم التجارية المرتبطة بمعاهدات مع الامبراطورية البيزنطية ، الى أن غزا الصليبيون الامبراطورية (٤) . ورغم أن المدينة كانت واقعة تحت ضغط جيرانها الأتراك منذ عهد الأباطرة كومنينوس ، وكثيرا ما هددوها حتى تضطر الى أن تدفع لهم الجزية ، فانها بقيت يونانية حتى وقعت الكارثة ، وكانت دائما مفتوحة للغربيين من ناحية البحر (٥) . وفى زمن الغزو ، انتهز شخص يدعى الدوبراندين Aldobrandin من أصل ايطالى ، ولكنه اصطبغ بعض الشيء بالطابع اليونانى ، انتهز فرصة الفوضى التى عمت المدينة ففرض سيادته عليها (٦) ، وكان هذا فى صالح المدينة اذ كان له تأثير حسن على علاقاتها بالغرب . واذا حاصر السلطان غياث الدين كينخسرو

(١) أنظر البراءة المؤرخة بشهر مارس ١٢٣٦ والنسبة منها هنرى الأول ملك قبرص لصالح سكان مرسيليا ومونبيليه وسائر البروفانسيين ، فى Mery et Guindon, I, 419 et s. —
(٢) Cf. Sanuta, p. 89 ; la Carte Catalane ; l'Atlante Luxoro, p. 114 ; les cartes de Munich, dans Thomas, Periplus von Armenien, dans les Abh. der Muenchen, Akad Cl. I, vol. X, sect. 1, p. 283 et s.
(٣) ما زالت هذه الجزيرة تحمل الى اليوم اسم بروفنسال Provençal
(٤) Beaufort, Caramania, p. 214 et ss. et Riffel, Kleinasien, II, 412 et s.
(٥) Taf. et Thom, I, 118, 272; Manum, hist patr, Chartoe, II, 351.
(٦) Guillel, de Tyr, XVI, 26 ; Cinnam, p. 179 ; Nicet, p. 50, p. 340.
Nicet, p. 842 et s. ; Innoc. III, Epist., dans Bréquigny, Dipl. 11, 997.

المدينة ، نولى الدويراندين الدفاع عنها ببسالة بمعاونة فرقة عسكرية من قبرص ، ولكن السلطان شدد الحصار على المدينة حتى استسلمت في ٥ من مارس ١٢٠٧ (١) ، وأصبحت من ذلك الحين جزءا من سلطنة ايكونيوم . وكان البنادقة قد وثقوا مع السلطان المظفر علاقات تجارية واصلوا ربطها مع خلفائه . وعلى ذلك فلا شك أن سفنهم كانت تستطيع ، قبل هذا الحادث وبعده أن ترسو دون عائق في ساتاليا . ومن الأسباب التي كانت تأتي بهذه السفن الى هناك نقل البضائع بين مصر وساتاليا (٢) : وسوف نتحدث عن ذلك فيما بعد . وقد رأينا من قبل أنه كان الى جانب هؤلاء غربيون آخرون يتمتعون بحرية مطلقة في التنقل في البلاد التي يحكمها السلاجقة ، وعلى ذلك يمكن الجزم بأنه حتى ما بعد عام ١٢٠٧ كان ميناء ساتاليا تزوره سفن أخرى غير سفن البندقية . ومن المشكوك فيه ، على العكس من ذلك أن تكون مدن البحر الأسود التي أصبحت تركية في عهد سيادة الإمبراطورية اللاتينية قد تلقت في موانئها سفنا أوروبية .

وفي القسم الأمامي من آسيا الصغرى ، استطاع جزء من الإمبراطورية اليونانية أن يحافظ على استقلاله ، واستمر قائما باسم إمبراطورية نيقية Nicée . وبعد أن ناضل سادة هذه الإمبراطورية الصغيرة نضالا بطوليا دفاعا عن أرضهم ضد هجمات اللاتينيين ، عادوا يشنون الهجوم بقصد استرداد ما كانوا قد فقدوه إبان الحملة الصليبية الرابعة . واتصلت الحرب سنين طويلة ، تخللتها فترات من التوقف . وانتهز « بودستات » القسطنطينية جاكوبو تيبولو Jacopo Tiepolo ، الذي أبرم عام ١٢٢٠ معاهدة مع السلاجقة ، انتهز فترة من فترات الهدوء هذه فحصل من الإمبراطور تيودور لاسكاريس Théodore Lascaris على امتيازات لصالح مواطنيه (١٢١٩) (٣) . أما بالنسبة الى المعاهدة ، أسوة بالمعاهدات المبرمة مع السلاجقة ، فإن الوثيقة التي في حوزتنا ليست هي الأقدم ، لأنها تشير الى معاهدة انتهى أجلها منذ زمن قصير . وفي معاهدة ١٢١٩ هذه منح لاسكاريس تجار البندقية حق دخول إمبراطوريته ومعهم كل ما يطيب لهم حملة من سلع ، وكذا معافاتهم من تفتيش الجمارك ومن كل الضرائب والمكوس ، في حين بقي رعاياه ملزمين بأن يدفعوا للقسطنطينية ، وفي باقي أنحاء الإمبراطورية اللاتينية الضرائب المعتادة ، فضلا عن أنه تكفل كالمعتاد برعاية أموال البنادقة الغارقين أو المتسوفين في البلد . وأخيرا جرى الاتفاق على أن يكون للعمليات التي تضرب لحسابه ، ال

Ibn-Alathir, publié par M. de Mas-Latrie, Hist. de Chypre II, 13. (١)

et s.; Nicéas, p. 843 et s.; Nicéphore Gregoras (1, 17).

Taf. et Thom. III, 430.

(٢)

Taf. et Thom. II, 205 et ss., cf. Dandolo, p. 341.

(٣)

و manuclates hyperpres (١) ، و stamena (٢) نمط مختلف عن عملات
بنادقة القسطنطينية ، والعكس بالعكس . ولم تكن السوق التي فتحتها هذه
الاتفاقية ، أو بالأحرى كفلتها لتجارة البندقية قليلة الأهمية . وتتيح أجور
النقل المنخفضة لمنتجات الغرب أن تنافس منتجات الشرق التي تضطر لاجتياز
اقليم سلاطين قونية . وكان اليونانيون المقيمون في البلد يستعملون للمبسم
نوعين من الأقمشة ، بعضها مصنوع في إيطاليا ، والبعض الآخر منسوج في
فارس أو بلاد ما بين النهرين بحري صيني . ومع ذلك توقفت هذه العادة فجأة
في اليوم الذي حظر فيه الامبراطور يوحنا فانتازيس (١٢٢٢ - ١٢٥٥) على
رعاياه شراء هاتين السلعتين ، وأمر باستخدام المنتجات الوطنية وحدها ،
والا تعرضوا للعقاب ، وذلك بدعوى منع تصدير عملة البلد (٣) ، وربما أيضا
للقضاء على مصالح اللاتينيين ، موضع كراهيته . ومن المحتمل أن يكون هذا
القانون الخاص بتحديد النفقات الكمالية ، شأنه شأن سائر القوانين المماثلة
قد أهمل تطبيقه ، ذلك لأنه من العسير التوفيق بين مراعاة تطبيقه وبين وجود
نجار من مواطني Lucques في نطاق الأمبراطورية ، وهي مدينة مشهورة
بنوع خاص بجودة هذه المنسوجات . ولا بد من القول بأننا لا نعرف سوى
اسمين من مواطني هذه المدينة ، هما لانفرا نشينوس Lanfranchinus
وايلديبرانيوس Ildebrandinus ، وليس من الثابت أن هذين
التاجرين قد استوردا منسوجات حريرية وقطيفة : بل انهما على العكس من
ذلك أتيا ومعهما مبلغ كبير من المال لأداء بعض المشتريات ، وذات يوم ،
ولسبب ما ، اعتقلتتهما السلطات المحلية في ادرايتيوم Adramyttium
 واحتفظ بهما الامبراطور ميخائيل باليولوجوس اسيرين ، وتوسط لهما البابا
الكسندر الرابع (٤) ، فأخلي سبيلهما ، ولكننا نقرأ في عريضة ثانية وجهها الى
الامبراطور لصالحهما البابا أوربان الرابع (٥) . أن المال الذي وجد عند
لانفرا نشينوس قد صودر ولم يستطع صاحبه أن يسترده ، هذه الأحداث جرت
قبل أن يستولى ميخائيل باليولوجوس على القسطنطينية . ومنذ أن كان تجار

(١) هدى عمله تحمل اسم الامبراطور مانويل ، تجدهما مذكورة في :

Taf, et Thom. II, 18 dans les Documenti sulle relaz, tox, coll'Orient.

p. 77, 78, et dans Arnold, Lubeck, dans Pertz, SS, XXI, 174.

وكان هناك عملات مماثلة ، انظر .

— Anne Comm, I, 175; Guill de Tyr, XI, II, X111, 15; Raoul de Caen,
p. 709 et l'éd, Paris.

(٢) عملة نحاسية صغيرة ، انظر :

Taf, et Thom, I, 108; Paspatis, dans la Revue du Syllogos de Constantinople,
VII, 121.

Niceph. Gregor. I, 43, éd, Boun,

(٣)

Iib, jur, I, 1345.

(٤)

(٥)

البندقية ولو كاس يترددون على أمبراطورية نيقية ، فانا لا نعجب من أن نجد فيها أيضا جنوبيين . وفي البداية لم تكن العلاقات بين الأمبراطورية وجنوا فد اتخذت في الواقع سمة الود والألفة التي اتخذتها فيما بعد حين انحدت القوتان ضد الأمبراطورية اللاتينية . وفي عام ١٢٣٦ كان الجنويون يقاتلون الى جانب البنادقة والبيزيين دفاعا عن القسطنطينية التي حاصرها كل من اليونانيين والبلغار (١) الأمر الذي لم يمنع استمرار المفاوضات بين القوتين منذ عام ١٢٣١ ، تلك التي انتهت بالاتفاق بينهما . وفي هذا التاريخ توجه سفيران جنويان لمقابلة أكبر أميرين يونانيين ، يوحنا فاناتزيس ، ومائويل ، طاغية أيروس ، بحجة الاعداد لعقد معاهدة صلح (٢) . ولسنا نعرف القصد الحقيقي من هذا العمل ونتيجته . وفي عام ١٢٣٩ ، حضر من نيقية الى جنوا شخصية أخرى بصفة سفير يتمتع بسلطات مطلقة ، الا أن المفاوضات لم تصل أيضا الى نتيجة هذه المرة (٣) . ومن المحتمل ان مسألة سقوط الأمبراطورية اللاتينية كانت وقتئذ محل بحث ، ولكن من المرجح أيضا أن جنوا بسعيها للتقرب من امبراطورية نيقية كانت تعمل للحصول على مزايا لنجاتها ، وأنها حصلت بالفعل عليها .

ومن بين كل الجزر التي بقيت في قبضة اليونانيين ، كانت رودس بالتأكيد هي التي استنارت أكبر قدر من الرغبة لدى الغربيين لأنها تشكل محطة في الدرجة الأولى من الأهمية من حيث الاتصالات التجارية بسوريا ، وأرمينيا الصغرى . وجزيرة قبرص ، ومصر . وثمة حاكم قديم تابع للأمبراطورية يدعى لاؤون جابالاس Léon Gabalas اقتطع امارة بالجزيرة . ولكنه أهمل الحصول من أباطرة نيقية على الاعتراف بها . ولما ضيق عليه يوحنا فاناتزيس الخناق ، ويئس هو من أن يحمي بقواته وحدها استقلاله، فانه تحالف مع جمهورية البندقية التي كان يتهدها الامبراطور في تلك الآونة بانتزاع جزيرة كريت منها : وكان في اعتقاده أن قواتهما المجتمعمة تستطيع مقاومة العدو المشترك . هذه المعاهدة ، معاهدة التحالف الهجومي والدفاعي التي انعقدت في رودس في شهر أبريل عام ١٢٣٤ التحالف الهجومي والدفاعي التي انعقدت في رودس في شهر أبريل عام ١٢٣٤ بين مارسيليوس جورجيو Marsilius Georgius سفير البندقية ، ولاؤون جابالاس (٤) صديق عليها في شهر أغسطس من العام نفسه الدوق جاكوبو

Hopf, art. Griechenland, dans Ersch et Gruber, LXXXV, 253. (١)

Annal, Jan, p. 177. (٢)

Ibid, p. 190. (٣)

— اذا كان موضوع هذه المفاوضات القضاء على الأمبراطورية اللاتينية ، فانها تكون مخالفة صريحة للتحالف القوي المرم قبل ذلك بقايل بن جنوا والبندقية ، انظر في ذلك : Taf, et Thom, II, 341 et ss.; Annal Jan, p. 189; Lio., jur. I, 980 et ss, 984 et s.

(٤) لمزيد من التفاصيل بشأن الآخرين لاؤون ويوحنا جابالاس انظر مقال السيد شلومبرجو

في : M. Schlumberger dans la Revue archéologique, XXXI (1876) p. 233 et ss.

Jacopo Tiepolo ظهر «أمير جزيرة رودس وجزر الكيكلاد» في المعاهدة بصفته الطرف الأضعف ، وطالب المعونة تابعا للدوق ، والتزم بأن يؤدي سنويا لكنيسة القديس مرقس (سان مارك) ضريبة تتمثل في قطعة من الحرير مطرزة بالذهب ؛ كما تعهد باعفاء البنادقة وسكان جزيرة كريت في ولاياته من الرسوم الجمركية والضرائب - المستوطنين منهم والأهالي ؛ في حين استمرت البندقية تقتضى من تجار رودس في مستعمراتها اليونانية الرسوم الجمركية المفروضة في عهد السيادة اليونانية ، ولم تعفهم من الضرائب الا في جزيرة كريت . وأخيرا رخص جابالاس للبنادقة بأن يقيموا بها منشأة تضم كنيسة و fondaco ودارا للبلدية ، وأن يستعملوا موازينهم ومكاييلهم في أعمالهم التجارية . ولا شك أن البنادقة استغلوا هذا الترخيص في انشاء مستعمرة لهم بها ، اذ كان الوضع ملائما لهم . غير أنه لم يثبت استمرار هذه المستعمرة زمنا طويلا : ذلك لأن يوحنا جابالاس ، خليفة لاؤون ، قدم ولاءه لامبراطور نيقية ، وتابعه في حملاته ضد اللاتينيين مما يدل على أنه وقع في نزاع مع البندقية . وذت مرات ، كان متغيبا عن جزيرته ، اذ مضى الى آسيا الصغرى ليقا تل اللاتينيين الى جانب الامبراطور ، فكادت الجزيرة تقع غنيمة للجنويين . ففي ذات ليلة ، انقض فريقتان من الانصار على العاصمة (١٢٤٨) واستقروا بها فترة طويلة بمساعدة مائة من فرسان المورة . عندئذ اضطر يوحنا فاتاتزيس أن يرسل جيشا لاجبار هؤلاء الدخلاء على الجلاء عن المدينة (١٢٥٠) (٢) . وبقيت رودس بعض الوقت في أيدي اليونانيين ولم يترتب على سيادة البندقية عليها ، أو احتلال جنوا لها أى أثر يذكر .

وبوجه عام فان الفترة التي وصلنا اليها تمثل أوج احتلال الغربيين الأقاليم القديمة التابعة للامبراطورية البيزنطية ، ولم يكن هؤلاء قبل هذه الفترة أو بعدها أكثر عددا أو أشد قوة . كانت هناك « فرنسا جديدة » في القصور والقلاع بالقسطنطينية وطيبة وأثينا وشبه جزيرة المورة ، « ايطاليا الجديدة » في مقار الأمراء بمملكة سالونيك ، وجزيرة يوبيا ، والقلاع التي شيدها أشرف البندقية في جزر اليونان ، وفي الأحياء التجارية بالقسطنطينية ، ونجربونت ، والميرو ، الخ . الا أن هؤلاء الفرسان والتجار لم يكونوا سوى جماعات منعزلة وسط حشود كثيفة من السكان اليونانيين ، وبخاصة في الأرياف . وزادت صلابة اليونانيين يوما بعد يوم بقيادة زعماء من المقاتلين الأشداء ، وجعلوا يتبادلون المعونة من آسيا الصغرى الى ابيروس ؛ وبمساعدة البلغار راحوا يسحقون جيوش الفرسان والمرتقة الصغيرة التي استطاع اللاتينيون أن يواجهوهم بها (٣) . ولفترة طويلة ، لم

Taf, et Thom, II, 319-322.

(١)

Georg, Acrop. p. 92-95.

(٢)

(٣) سقطت مملكة تسالونيك الافرنحية عام ١٢٢٢ تحت وقع ضربات تيودور دوق ابيروس ، من اسرة انجيلوس . ومع ذلك فان الهدنة التي وقعها نارجو دو نوسى نابل امرا طورية القسطنطينية اللاتينية في شهر سبتمبر عام ١٢٢٨ مع هذا الأمير اتاحت لتجارة البلدان أن تسترد صلاتها شىء من الأمان ، في طرق كانت حتى ذلك الحين معرضة لغارات القراصنة : أنظر :

— Lib., pleg. oppend., p. 184 et s.

تعد القسطنطينية تشكل - كما كان ينبغي لها أن تكون - حاضرة الامبراطورية اللاتينية . فقد ظلت أرضا محصورة داخل الاقليم اليوناني . حتى سقطت بدورها ، وكانت عودة اليونانيين الى عاصمتهم القديمة ضربة قاضية على الامبراطورية اللاتينية .

كان لهذا الحدث دوى هائل ، وبقي لنا أن نبحث عن نتائجه ، وأن نتحدث قبل ذلك عن سوق تنتمي بموقعها الجغرافي الى شبه جزيرة هيموس Hoemus التي لم يسمح سكانها - وغالبيتهم العظمى في الأصل من الايطاليين - الا في وقت متأخر - لم يسمحوا بأن تختلط بهم عناصر سلافية أخذت تحتل شيئا فشيئا القسم الأكبر من شبه الجزيرة : تلك هي راجوزة Raguse . كانت هذه المدينة في الفترة التي استعرضناها منذ هنيهة تشغل في ظل البندقية مركزا تجاريا من الدرجة الثانية . وكان من نتيجة القوة الكبيرة التي بلغت البندقية في عهد الامبراطورية اللاتينية أن حملت راجوزة على أن تعترف اعترافا تاما بتفوقها . كان لراجوزة منذ زمن مبكر بحرية مزدهرة ، وكادت تصبح منافسا خطيرا للبندقية التي تملك السيادة عليها . وتوصلت راجوزة ، تارة بوضع نفسها تحت حماية الامبراطور اليوناني ، وتارة أخرى بالتحالف مع الأمراء النورمان بجنوب ايطاليا وصقلية ، توصلت الى التخلص من هذه التبعية . وفي عام ١١٧١ اضطر الدوق أن يلجأ الى القوة لكي يحمل راجوزة على أن تقبل ، بصفة كونت نبيل من البندقية يدعى رانيري زانيه Ranieri Zane (١) ، ويبدو مع ذلك أنه لم يشغل هذا المنصب زمنا طويلا ، وفي القرن الثالث تغيرت التيارات الفكرية ، وأصبحت راجوزة هي التي انحنت بذاتها أمام الجمهورية القوية ، والتمست منها أن تعطيها كونتا (١٢٠٥) . وفي عام ١٢٣٠ اضطر الكونت أن يترك منصبه أمام دفعة جديدة من التيارات المعادية للبندقية، الا أن رد الفعل هذا لم يدم طويلا . وبعد سنتين استدعته المدينة نفسها (٢) واعتبارا من هذه اللحظة كان الرأي مجمعا على أن مصلحة راجوزا تكمن في أن تبقى تابعة للبندقية ؛ وتأكد هذا الاعتقاد ثلاث مرات في الأعوام ١٢٣٢ ، ١٢٣٦ ، ١٢٥٢ بوثائق تنبت هذه التبعية (٣) . وفي وثائق هامة من هذا القبيل لم يمكن اغفال المسائل التجارية ؛ وحتى في هذا الخصوص لم يكن في استطاعة سكان راجوزة أن يدعوا مساواتهم ببورجوازي البندقية ، ووافقوا

Dandolo, p. 294.

(١)

Appendini Notizie sulle antichità, storia e letteratura dei Ragusei (٢)
(Ragusei 1802-1803) I, 275-279.

Taf, et Thom, II, 307 et ss., 328 et ss., 464 et ss.; Engel, Gesch. (٣)
des Freistaats Ragusa, p. 289 et ss.; l'Archiv. stor. ital., App. IX, 382
et ss. Cf. Dandolo, p. 347, 360.

على دفع ضريبة للبندقية عن استيراد البضائع الأجنبية . وتعرفنا هذه الوثائق بالبلاد التي كانت راجوزة تستورد منتجاتها : تلك هي رومانيا (أى الامبراطورية اللاتينية وتوابعها) ، ومصر ، وتونس ، وبلاد البرابرة ، وصقلية ؛ ويوليا . يتبين لنا من هذا أنه كانت لراجوزة علاقات واسعة ، ونمنع في الامبراطورية اليونانية باعفاءات ترجع غالبا الى عهد الكومنينوس ، وبالأخص مانويل ، ذلك لأن جهود هذا الامبراطور كانت تستهدف تشجيع موانئ دالماسيا لمكافحة البندقية . وصدق على هذه الاعفاءات أول أباطرة اللاتينيين ، بلدوين ، وهنرى ، ويسدو أنها قد حصلت أيضا على امتيازات من أباطرة نيقية ، وطربزون ، وقيصر بلغاريا « كالويان » Johannitius (Kalojan) (١١٩٧ - ١٢٠٧) ولكن لم يصلنا شيء عن هذه الامتيازات (١) . وفيما يختص بمصر ، كان تجار راجوزة يترددون على سوق الاسكندرية العالمية : ولدينا في هذا الخصوص شهادة بنيامين دوتوديل ، وإن كان من الأصح أن نقرأ بدلا من كلمة « راكوفيا » Rakuphia الواردة فيما حكاه عن رحلته كلمة « راجوزة » Fagusa (٢)

ولما كان تجار راجوزة يقومون عادة وبسهولة برحلات طويلة من هذا القبيل ، فالمعتقد أنهم كانوا يزورون أيضا وبكثرة السواحل الشرقية ليطاليا ، إذ لم يكن عليهم من أجل القيام بذلك سوى عبور البحر الأدرياتي (٣) ، وكذا أيروس ، والبلاد السلافية (بلاد الصقالبة) الجنوبية كانوا يتصلون بهم عن طريق البحر مباشرة . والواقع أنه يمكن إقامة البراهين على وجود تجارة لهم مع أيروس قبل الحملة الصليبية الرابعة في العهد الذي كان فيه يوحنا انجيلوس يتولى مهام الحاكم باسم الامبراطور اليوناني ، واستمراره في عهده الطغاة المستقلين ميخائيل الأول (المتوفى في ١٢١٤) ، ومانويل (المتوفى في ١٢٤١) ، وميخائيل الثاني (المتوفى في ١٢٧١) وقد شجع كل هؤلاء الأمراء تجارة راجوزة بأن منحوها كافة الامتيازات التي نعرفها عدا واحدا هو أقدمها (٤) . ثم أنه ليس ثمة ما يحملنا على التفكير في هذا الأمر أكثر من ذلك لأنه لا يتعلق بتجارة الشرق الأدنى Levant بمعناه الصحيح . إنما أردنا أن نوضح أن راجوزة ، وقد عادت الى ولائها للبندقية ، فانها اكتسبت مزيدا من القوة بانضمام بحريتها التجارية اليها : ذلك لأنه اذا لم تكن هذه البحرية تماثل بحرية الجمهورية

(١) Taf. et Thom. Griech. Orig. - Urk. zur Gesch. des Freistaats Ragusa, dans les Sitzungsberichte der Wiener Akad. phil. hist. Cl. VI, 511.

Mon. slav. merid. I, 33. (٢)

Engel, Gesch. des Freistaats Ragusa, p. 83, 106 et s., 112. (٣)

Taf. et Thom. Griech. Orig. - Urk. von Ragusa, op. cit., p. 524-529; (٤)

Miklosich et Muller, Acta graeca III, 58 et s., 66 et s., 87 et s;

Hopf., Griechenland, op. cit., LXXXV, 211, 254, 258; Taf. et Thom. op. cit., p. 508-518.

الكبرى من حيث عددها فانها مع ذلك كانت قوية بدرجة تسمح لها بالمخاطرة في مشروعات بعيدة المدى ، كالمشروعات التي تقوم بها بحرية الجمهورية . وختاما نقول كلمة عن موانئ دالماسيا : زارا Zara ، وتروا Trau ، وسبالاترو Spalatro التي يسكنها بحارة نشطون متمرسون بنوع خاص على التجارة مع سوريا وقبرص (١) . كانت هذه المدن في الحقيقة في وضع من التبعية للبندقية ، أقوى من بعية راجوزة لها ، ويمكن اعتبار بحريتها بوجه عام جزءا لا يتجزأ من بحرية البندقية ، في حين احتفظت راجوزة بقدر كاف من الاستقلال يتيح لها أن تعقد معاهدات تجارية لحسابها الخاص ، ومع ذلك لم تكن في الواقع سوى نصف جمهورية ، وطالما كان على رأسها كونت بندقى فانه يمكن القول بأن بحريتها ، رغم كبرها لم تكن سوى جزء من قوة البندقية البحرية الضخمة . وهذا برهان آخر يدعم ما سبق أن ذكرناه عن التفوق الهائل الذي اكتسبته البندقية خلال الفترة التي درسناها .

الدول الصليبية في سوريا في غضون القرن الثاني من وجودها

يعتبر ظهور صلاح الدين بداية لعهد جديد في تاريخ الدول الصليبية . وقد جعلت موقعة حطين (٤ من يولية ١١٨٧) هذه الدول في موقف ميئوس منه على وجه التقريب . وبغض النظر عن فقد بيت المقدس كنتيجة مباشرة لهذه الموقعة ، وكان هذا الفقد نكبة على العالم المسيحي كله ، فان هذه الهزيمة كانت نذيرا بسلسلة من الكوارث التي حلت بالمستعمرات التجارية . وبعد انقضاء بضعة أيام (في ٩ من يولية) فتحت عكا أبوابها للمتصر دون قتال ، وكانت حتى ذلك الحين ، كما يقول بهاء الدين ، وابن الأثير مركزا من أكبر المراكز التجارية في آسيا (٢) . وملتقى التجار الفرنجة واليونانيين وغيرهم من القادمين من قريب ومن بعيد (٣) . واذا فر الأهالي من المدينة تاركين لهم كل شيء في مكانه ، فقد استولى المنتصرون على غنيمة هائلة ، أهم ما فيها الذهب ، واللآلئ ، والمنسوجات الحريرية من النوع المسمى « سجاتون » Siglatoun ، وأقمشة البندقية benedikiy ، والسكر ، والأسلحة ، الخ (٤) . وقبل انقضاء السنة كان صلاح الدين سيذا على يافا ، وصيدا ، وجبلية ، وبيروت ، وقصرية ؛

(١) Guill de Tyr, II, 17; Monum. slav. merid III, 396 et s. : IV, 52, 75.

(٢) Boha-eddin, Vie de Saladin, dans le Rec. des hist. des crois hist. orient III, 98.

Ibn-Alathir, Ibid.

(٣)

Ibn-Alathir, Ibid.

(٤).

وعسقلان ، واستولى أيضا على طرطوس ، وجبل ، ولاوديكي ، ولم نذكر هنا سوى الأماكن ذات الأهمية الكبيرة للتجارة . وصور وحدها هي التي استطاعت أن تقاومه ، ولاذ بأسوارها عدد كبير من الفرسان الذين نجوا بأرواحهم من هزيمة حطين ، وكذا حشد ممن هربوا من المدن السورية التي أعاد صلاح الدين فتحها (١) . ومع ذلك فكان من الراجح سقوطها لو لم يأت إليها المركيزدو مونفيرا الذى تولى مهمة ادارة شئون الدفاع . ومع ذلك لم ينتظر البيزيون والجنويون وصوله لينظموا أعمال الدفاع الأولى (٢) . ومن تلك الآونة واصلوا القتال الى جواره ببسالة يحفزهم تشجيع الأمراء الكنسيين والعلمانيين بالمدينة المقدسة . ويساندتهم كذلك عدد كبير من مواطنيهم الذين هرعوا الى نجدتهم من جميع الانحاء (٣) . ولم يخش البيزيون أن ينظموا قبل الحصار وبعده حملات بحرية ، ويهاجموا عكا نفسها ، ويعودوا كل مرة ومعهم كميات وافرة من الغنائم والأغذية (٤) . ونميز من بين هؤلاء بنوع خاص فرقة « الحمير » *societas Vermiliorum* (٥) ، وسميت هكذا بسبب لون شاراتها ، ومن ثم نالت مكافأة على ما قدمته من خدمات أموالا وحقوقا فى صور (٦) . ونذكر أيضا الى جانب هؤلاء المدافعين تجارا من سان جيل ، ومونبيليه ، ومرسيليا ، وبرشلونة مقيمين بالمدينة (٧) . وأثار سقوط القدس وما سبقه وأعقبه من أحداث انفعالا شديدا فى الغرب كله . وكان الجنويون من أوائل من أذاعوا الخبر المشؤوم (٨) ، ونشروا نداء بارونات الأرض المقدسة بالدعوة الى حملة صليبية جديدة ، وأرسلوا مرارا سفراء الى فرنسا وانجلترا : (روفو ديلا فولتا فى عام ١١٨٨ ، واتريكو ديوييتسالف ، وانسالدو بوخيرو فى عام ١١٨٩) لحث فيليب أوجست ، ورينشارد قلب الأسد على الجهاد (٩) . ولسوء الحظ كان هؤلاء الأمراء يتحاربون ، وكانوا أيضا فى حرب مع البيزيين ، وكان لابد من أن يوجه

-
- Epistola Januensium ad Urbanum Papam, dans les Gesta R. (١)
Henrici II, éd. Stubbs, II, 12.
Lib. jur. I, 347, 357, 400, 405; Doc. sulle relaz. tox. p. 26, 28, 30, (٢)
33, 34, 36, 39.
Lib. jur. I, 346 et s. Voyez Belgrano, Arch. stor. ital., série III, T. (٣)
VII, part. 2, p. 160.
Cont. de Guill. de Tyr, p. 77 (Rec. des hist. des crois I); Caff. Annal (٤)
Jan. p. 54.
Sicard. Cremon., dans Murat. SS. VII, 604 et s., Robert de Clary (٥)
dans Hopf. Chron. greco-romanes, p. 28 et s.
Bonaini, Stat. Pis II, 573 et s. (٦)
Doc. sulle relaz. tox. p. 33, 34 et s. (٧)
Voy. le diplôme du marquis Conrad, dans Méry et Guindon, I, (٨)
190-192.
Voy. la lettre des Genoïs dans les Gesta Henrici II, (٩)

تعنيف رسمي من قبل البابا جريجورى الثامن ، والبابا كليست الثالث الى هؤلاء
الخصوم الدلاء لهم على التفارب . وما أن تم الصلح بينهم (١) حتى أبحر
أسطول بيزى تحت قيادة كبير الاساقفة أو بالدو Ubaio (١١٨٨) : وكانت
خطته أن يمضى الشتاء فى سينا حتى يتحسن الجو فى العام التالى فيجبر الى
فلسطين (٢) . وأبحر الأسطول الجنوى فى عام ١١٨٩ تحت قيادة القنصل
جويدو سبنيولا Guido Spinola ، وتبعه فى عام ١١٩٠ (٣) أسطول آخر
يعززه . وطلب الدوق أوريو ماستروبيترو Aurio Mastropietro من كل رعايا
البندقية ، السادة منهم والخدم أن يكونوا مستعدين للاشتراك فى عيد القيامة
لعام ١١٨٩ (٤) ؛ وأرسل بالفعل أسطولا قويا لحق فى الطريق بأسطول بيزا (٥) .
وعلى ذلك فان جيوش الدول التجارية الثلاث الأولى سبقت بكثير جيوش فيليب
أوجست وريتشارد التى لم تصل الى الأرض المقدسة الا فى أشهر أبريل ومايو
ويونية ١١٩١ ، وضم الأميران جيوشهما تحت أسوار عكا الى الجيش الصغير
التابع للملك « جوى » Guy الذى كان قد بدأ يضرب الحصار على المدينة (٦) .
وطال هذا الحصار المشهود قرابة سنتين (من أواخر أغسطس ١١٨٩ حتى ١٢
يولية ١١٩١) . ويشيد المؤرخون الذين سجلوا قصة هذا الحصار بالآلات
الحربية القوية التى يملكها الجنوبيون والبيزيون ، وبالغارة التى قام بها
البيزيون بجرأة تزيد عما ناله من نجاح على برج « الذباب » الذى يحوى مدخل
الميناء ، وأخيرا بدورهم فى الغارة الأخيرة التى أجبرت الحامية على التسلم (٧) .
وكان الجيش القائم بالحصار يضم فى صفوفه محاربين من جميع أمم أوروبا ،
تميز من بينهم بنوع خاص بورجوازيو مرسيليا (٨) . واذ تم الاستيلاء على
المدينة ، عاد الذين كانوا يملكون بيوتا أو عقارات أخرى قبل غزو صلاح الدين ،
واستطاعوا أن يقدموا أدلة جديدة تثبت حقوقهم ، فاستردوا بذلك ما كانوا
يملكونه (٩) . وعاد التجار والصيارفة البيزيون وغيرهم فشغلوا حوانيتهم فى

-
- Dal Borgo, Dipl. Pis. p. 114 et ss. (١)
Breviarium hist. Pis. dans Murat, VI, 191. (٢)
Annal. Jan. p. 104, 105. (٣)
Taf. et Thom. I, 204. Toeche, Heinrich VI, p. 107. (٤)
Dandolo, dans Murat, SS. XII, 312 et s. (٥)
Breviar. hist. Pis. l.c.; Sicard, Cremon, dans Murat, SS. VII, 606; (٦)
Itinerar. R. Ricardí I, éd. Stubbs, p. 62, 74; Gesta Ricardí
I éd. Stubbs, p. 95 et s.
Itiner. Ric. p. 84, 109 et s. 228; Gesta Ric. p. 173, 178; Contin. (٧)
de Guill. de Tyr, p. 157; Annal. Jan. p. 104; Lib. jur. I, 357, 411.
Diplôme du roi Guy, de l'année 1190, dans Méry et Guindon, I, 194 (٨)
et s. et dans Papon, Hist. de Provence, II, Preuves, p. XXV et ss.
Contin. de Guill. de Tyr. p. 175 et s. (٩)

ميدان السوق (١) . ونشطت كل الأمم التجارية لاستعادة أملاكها القديمة في المدينة . وكان الجنويون قد اتخذوا حيظتهم من قبل حتى لا يضيع منهم شيء ؛ وتعهد فيليب أوجست بموجب معاهدة عقدها معهم في ١٦ من فبراير ١١٩٠ أن يرد اليهم الاملاك التي فقدوها على أثر فتوحات صلاح الدين ، ويمنحهم فوق ذلك في كل المدن التي يستولى عليها خلال الحروب الصليبية مستعمرة ومحكمة خاصة ، مع كل الملحقات المعتادة ، وكانت هذه الشروط قد فرضها الجنويون على سفير الملك « هوج دو بورجونى » الذى كلفه سيده أن يتفاوض لتأجير أسطول لنقل الجيش الفرنسى الى سوريا ، فقبل السفير هذه الشروط ، وأقرها الملك في أثناء وجوده في جنوا في شهر أغسطس ١١٩٠ (٢) . واذا لم يرض الجنويون عن هذه الوعود ، فانهم حصلوا لأنفسهم على ضمان مزدوج ، وحصلوا من الملك جى دو لوزينيان ، على وثيقتين رسميتين تحملان ذات المضمون (٣) . وحصلت بيزا على ضمانات مماثلة من الماركيز كونراد دو مونفيريا . حقا ان هذه الضمانات ترجع الى فترة لم يكن أحد يفكر فيها في حصار الموقع ، الا أن جى دو لوزينيان ، وريتشارد قلب الأسد صدقا عليها فيما بعد (٤) ، وكانت الاعمال البطولية التي قام بها البيزيون قد أكسبتهم الحق في أن يعترف بهم هؤلاء الأمراء ، ولا شك أنهم أوفوا بعهودهم (٥) . كذلك ألحق الأمالفيون وحدثهم بالجيش القائم بالحصار ، ومكافأة لهم على خدماتهم الجليلة أعفاهم الملك جى من رسوم الدخول والخروج ، وكذا رسوم البيع والشراء على بضائعهم في عكا ، ورخص لهم بأن يقيموا بها فيكونتات أو قناصل ، وأهدى لهم فضلا على ذلك دارا ليقيم بها هؤلاء الموظفون (٦) . وأخيرا ، وفي أثناء الحصار ، حصل البنادقة من جديد من الماركيز كونراد ، وبصفة عامة ، على الحقوق والأمالك التي كانت لهم قبلا في مملكة القدس ، وسجل مؤرخهم داندولو أنهم استردوا بالفعل ، بعد الاستيلاء على المدينة ، حيازة بيوتهم ، وكنيسة القديس مرقس (سان مارك) (٧) . وثمة أمر غريب : ذلك أنه لم تذكر كلمة واحدة ، لا في وثيقة كونراد ، ولا في الوقائع المدونة عن الأعمال البطولية التي أداها هؤلاء أمام الموقع ، ولم يكن ثمة شيء يختص بهم ، اللهم الا في هذا الاقرار البحت بأملاكهم القديمة ، في حين حصل الجنويون والبيزيون خلال بضخ السنين هذه على مجموعة من الامنيات التي تضيف أملاكا

Gesta Ricardi., II, 181. (١)

Lib. jur. I, 355 et s., 368 et s.; Annal. jan. p. 104; Annal. Jan. 1. c.; Gesta Ricardi II, 113; Heinrich VI, p. 107 not. 11. (٢)

Lib. jur. I, 359 et s., 380 et s. (٣)

Doc. sulle relaz. tosc. p. 30 et s., 38 et s., 58 et s. (٤)

Roncioni, Istorie Pisane, dans l'Archiv. stor. ital. VI, 1, p. 419 et s. (٥)

Charte du 10 Avril 1190, dans Camera, Memorie di Amalfi, I, 201; (٦)

Ficker, Acta imperue selecta II, 609 et ss.

Taf. et Thom. I, 712; Dandolo, p. 314 (٧)

كبيرة على الأملاك التي ضمنوها لأنفسهم من قبل ، وكفلت لهم مجموعة من الحقوق والاعفاءات . والجدير بالملاحظة بوجه عام أن البنادقة في سوريا قد هبطوا زما طويلا الى المرتبة الثانية ، وأن هذا الوضع تفاقم بصفة خاصة منذ أن تلاشت قواتهم بتأسيس ودعم الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ، وبقي لهم قدر من الطاقة يتيح لهم بالكاد الاحتفاظ بأقدم أملاكهم ، وعلى هذا الوجه تركوا المجال مفتوحا للبيزيين والجنويين . كذلك كانت هذه الفترة أزهى عصور البيزيين (١) .

وقد ينير الدهشة هذا السخاء الذي تجلى فيما منحه الأمراء لهاتين الأمتين من امتيازات ، لو لم تكن نعرف أن الاعتراف بخدماتهما لم يكن عاملا ذا أهمية في هذا الشأن (٢) ، إذ كان العرش معرضا للخطر ، وكان يهمهم أن يكتسبوا أنصارا . كانت الهزيمة في معركة حطين ، والأسر ، والوضع الخارجي قد أفقد جى دو لوزينيان كل ما كان له من هيبة ونفوذ ، أما كونراد دو مونفير الذي لم يزل يزهو بالنصر الذي اكتسبه إبان دفاعه عن صور ، آخر معقل المملكة ، فانه فرض نفسه جهارا مطالبا بالعرش ، ومنافسا خطيرا . ولا مجال هنا لسرد وقائع الصراع بالتفصيل ، ولكن هناك نقطة واحدة تهمننا ، تلك هي الدور الذي لعبه الجنويون والبيزيون في هذه الظروف . فقد انحاز الجنويون الى المريكز دو مونفير . وسانده فيليب أوجست . أما البيزيون ، فعلى العكس من ذلك جهروا بتأييدهم جى دو لوزينيان (٣) ، وكان لهم علاقات مودة بنوع خاص مع ريتشارد قلب الأسد (٤) ، ويبدو أن هذا الأمير قد حثهم جهارا على اتخاذ هذا السلوك (٥) . وكان لا بد أن يؤدي هذا الموقف الى انفجار : ففي شهر فبراير (٦) من عام ١١٩٢ شنت الأمتان احدهما على الأخرى حربا صريحة . فقد تناهى الى اسماع البيزيين في عكا نبأ مؤامرة دبرها الجنويون لتسليم الموقع لكونراد دو مونفير ، فبادروا الى حمل السلاح ، وأغاروا على الجنويين وحلفائهم الفرنسيين ودحروهم . وعندما وصل المريكز متوقعا أن يستولى على المدينة على حين غرة ، وجدها متأهبة للدفاع عن نفسها . وبعد انقضاء ثلاثة أيام في غارات فاشلة ، اضطر الى التحول عنها والهجوم مع الفرنسيين على صور . ووصل ريتشارد قلب الأسد الذي

(١) Cont. de Guill. de Tyr. p. 202, D.

(٢) قدم الجنويون والبيزيون لبعض الفرسان الانجليز والفرنسيين في الجيش المحاصر مبالغ من النقود بمثابة سلف كانت لهم حزيلة الفائدة ، أنظر :

Delisle, Catalogue des actes de Philippe Auguste, p. 82 : Bibl. de l'école des chartes, Série I, V, 35 et s.

(٣) Roehricht, Forschungen zur deutschen Gesch. XVI, 487; Itinerar

Ricard, p. 321; Tractatus de terra sancta, éd. Thomas, p. 35.

Gesta Ricardi II, 170; Itiner. Ric. p. 212 et s.

(٤) Contin. de Guill de Tyr, p. 152-154.

(٥) Roger de Hoveden, éd. Stubbs III, 180.

(٦) التاريخ الذى ذكره روجر دو هوفدن غير صحيح :

استنجد به البيزيون ، وصل بعد انسحاب كونراد . وفى ٢١ من فبراير ، دبر تصالحا بين البيزيين والجنوبيين (١) . وفى هذه الأثناء توفى كونراد (فى ٢٨ من ابريل ١١٩٢) ، وبقي البيزيون أنصارا مخلصين لـ جى دو لوزينيان ، ودعوه الى الاتحاد معهم لاستعادة صور (٢) ، ولكنهم لم يعملوا حسابا لبارونات سوريا الذين قدموا العرش لهنرى كونت دو شـا Henri, comte de Champagne بموافقة عمه ريتشسارد قلب الأسد . وقنع جى لوزينيان بالسيادة على قبرص . وبعد كل ما حدث ، لم يكن فى وسع السيد الجديد الا أن يغذى فى صدره مشاعر الحقد والريبة حيال البيزيين ، وخاصة أن هؤلاء استمروا على علاقة بالملك المخلوع عن عرشه (٣) ، واستمهلهم حتى شهر مايو عام ١١٩٣ ليعقد معهم اتفاقية بتسوية (٤) ، ووافق على أن يضمن لهم امتيازاتهم وأملاكهم فى صور ، وعكا ، ويوبيه Yoppé ، ويعفيهم من الرسوم الجمركية عند مدخل ميناء عكا ومخرجه ، ولكنه رفض أن يضمن لهم سائر ما كان لهم من امتيازات ، ووعدهم بها حين يتاح له استرداد بيت المقدس : أى الى أجل غير مسمى ! واشترط عليهم فوق ذلك الا يقيم فى صور خلال السنة القادمة كلها أكثر من ثلاثين بيزيا فى وقت واحد لا بتصريح خاص منه ، وأن يقسم القناصل والرعايا البيزيون عندما يطأون أرض المملكة أن يدافعوا عن حياته وكرامته واقليله ضد أعدائه كلهم . وعلى أية حال ، فهم لم يراعوا هذا الشرط الأخير ، فقد جهزوا حملة بحرية على مرأى من سواحل سوريا ، وراح بحارتهم ينهبون المسافرين الذين يريدون دخول المملكة أو الخروج منها . وأنذر الكونت البيزيين فى عكا أن يضعوا حدا لهذه الحال ، فلم يذعنوا ، فاستشاط غضبا وأمر بطردهم من عكا ومن المملكة كلها (٥) .

ومع ذلك فانه عقد الصلح معهم من جديد فى عام ١١٩٤ ، وأذن بترميم البرج الذى كانوا يمتلكونه فى عكا ، ومن المحتمل أن هذا البرج قد أصيب بأضرار فى العديد من الثورات التى نشبت هناك . وفضلا على ذلك أقر بملكيتهم للفرن والحمام اللذين كانا لهم فى كل الأزمان (٦) . وفى عام ١١٩٧ تعهد بأن يمنحهم حمايته فى كل جهات المملكة التى يريدون الإقامة بها أو ممارسة التجارة فيها ، ولكنه أيد قرار الطرد الصادر ضد طاقم السفينتين (اكويلا ، وامبرياليس) المتهمين بقتل بعض الحجاج (٧) .

Ifiner, Ric, p. 321 et s. ; Roger de Hoveden, 1.c.

(١)

Contin, de Guill de Tyr, p. 194.

(٢)

Op cit., p. 199 202.

(٣)

Doc, sulle relaz, tox p. 60.

(٤)

Contin, de Guill, de Tyr, p. 202.

(٥)

Ibid, p. 203; Doc, sulle relaz, tox, p. 65 et s.

(٦)

Doc, sulle relaz, tox p. 78.

(٧)

وتعطى الأحداث التي لحصنها آنفا فكرة عن وجود « مسنوطات تجارية » ،
 فى غضون هذه الفترة البانية من تاريخ الامارات الصليبية . فحتى ذلك الحين
 قنعت هذه المسنوطات بأن نزهة دون جلبه أو ضوضاء ، حتى ان المؤرخ فلما
 يجد هنا أو هناك احداثا تنعلق بها ، واستدعى هذه المسنوطات قوة فى الدولة ،
 وقوى نفوذها فى كل التغيرات السياسية مهما كانت خطيرة . وفى الكثير من
 الأحيان لم تكن هذه المسنوطات تختص ، من أجل ضمان نفوذها أن تشترك
 بأسلحتها فى المعركة . وكان النظام الاقطاعى شرا على المملكة ، وأضيف الى هذه
 العلة ضروب المنافسة المتوصلة التي كان العرش هدفا لها ، ونمة ملوك وأباطرة
 أجانب كانوا يدعون أن لهم حقوقا فى العرش ، ويطالبون بها على حساب حقوق
 اللوزينيين فى قبرص ، ولكنهم جميعا لم يظهروا فى سوريا الا فى القليل
 النادر ، واكتفوا بإرسال نواب عنهم ، ومعهم جيوش صغيرة . وبالتدريج ،
 وفى غضون هذه الفوضى ، استولى بارونات المملكة على جزء كبير من مخصصات
 المملكة ، والى جانبهم لعب الأساقفة ، وطوائف الفرسان ، والجمعيات الأخوية
 (التي سوف نتكلم عنها) والمسنوطات التجارية دورا يزداد أهمية يوما بعد
 يوم . غير أن سكان سوريا كانوا تقريبا ممزقين من جراء الخلافات الداخلية ،
 وقلما وجدت المسنوطات كلها منضمة الى جانب واحد (١) ، وهذى من النقاط
 التي اختلف فيها هذا العصر مع العصر الذي قبله . ففى ماضى ، ورغم كل
 المنافسات فى مجال التجارة ، كانت المسنوطات تعيش جنبا الى جنب فى سلام
 دون أن تنشأ بينها نزاعات ذات أهمية . وابتداء من الفترة الثانية ، جرت
 صراعات مسلحة لا نهاية لها : فأحيانا كانت الحروب التي تشنها أوطانها الأصلية
 تمتد فروعها حتى تصل اليها وأحيانا كانت المعارك تشتعل فى المسنوطات
 نفسها بسبب منازعات من أجل الحدود أو الممتلكات ، وكثيرا ما كانت هذه
 الصراعات تتسبب فى توقف حركة التجارة ، ومع ذلك لا يبدو أن هذه الحركة
 عانت كثيرا وبصورة محسوسة من هذه الصراعات . وكانت طبقة التجار بين
 سائر الطبقات الممثلة فى مملكة القدس هي التي تزيل بأسرع ما يمكن آثار
 الكوارث التي أوقعها صلاح الدين . وكانت المدن البحرية بالاجمال هي مراكز
 التجارة الرئيسية ، وقد أعاد المسيحيون الاستيلاء عليها الواحدة بعد الأخرى
 فى زمن وجيز ، وامتلات أسواقهم من جديد ، ونشطت حركة المبادلات كما
 كانت من قبل . وبقي داخل البلاد فى أيدي المسلمين ، ولم تعد الامارات الصليبية
 تشغل سوى شريط ضيق من الأرض على طول الساحل ، وكان فى ذلك ضرر
 بالغ بالتجارة ، لأن قوافل البضائع الراحلة من المدن المسيحية كانت فيما مضى
 تغادر الاقليم المسيحي الصديق على مسافة بضعة أميال من الساحل ، وفى زمن

Le contin. de Guill de Tyr. p. 474 et s.

(١) انظر على سبيل المثال :

السلم كان المسلمون يتركونها تمر دون عائق ، أما في زمن الحرب ، فإن حركة التجارة مع الداخل كانت تتعرض لكل أنواع المخاطر .

وفي الفترة التي نتحدث عنها ، تركزت التجارة أكثر من ذي قبل في مدينة عكا . وقد أصبحت هذه المدينة منذ سقوط بيت المقدس المركز السياسي للمملكة ، وفيها مقر الملك أو من يمثله ، وتنعقد فيها جلسات محكمة العدل العليا ، واليهما لجأ الكثير من كبار شخصيات الكنيسة الذين طردهم العدو من كراسيهم الأسقفية ، والفرسان الذين طردوا من قلاعهم . وكان لابد لهذه الظروف أن تجتذب المزيد من تجار الغرب وتثير بينهم روح المنافسة . وبدأ الأهالي « انكونا » الذين لم يكونوا حتى تلك الآونة يزورون سوريا الا تسلاا خلف البيزيين أو الجنويين أو البنادقة ، بدا لهم أن الفرصة صارت مواتية لكي يعتمدوا على أنفسهم في ترحالهم . وقدم لهم البابا انوسنت الرابع يد المساعدة فأوصى بهم بطريك القدس ، وأسقف عكا ، ومنحهم الاعفاء من الرسوم الجمركية في عكا وسوريا بوجه عام ، في التصدير والاستيراد (١) . بقي أن نعرف ما اذا كان بارونات الأرض المقدسة قد قبلوا هذا القرار وكفوا عن طلب الرسوم عن البضائع التي يحملها الانكونيون : ونحن نشك في ذلك . وبعد زمن قليل ، أتمامت الجالية الانكونية مستوطنا مستقلا في عكا . وفي ١٠ من أغسطس ١٢٥٧ عقد المندوبون المفوضون من انكونا معاهدة مع يوحنا ديبلان Jean d'Ibelain ، سيد أرسور Arsour ، والقائد العام لمملكة القدس : وفي هذه الوثيقة منحت مدينة انكونا قطعة أرض داخل عكا نقيم بها كنيسة لخدمة مواطنيها ، وقصرا لأعضاء التنصلي ، وبيوتا للسكنى وحوانيت ، وصرح لجالية التجار الجديدة أن يكون لها ادارتها ومحكمتها ، غير أنه كان عليها أن تسهم في الدفاع عن الموقع في زمن الحرب (٢) . ومع حركة التدفق الجديدة للتجار الذين توافدوا على عكا ، كان لتسكانيا نصيب كبير ، ووصل الفلورنسيون ثمة مع أوائل من وصلوا من البيزيين (٣) . وأسس تجار مدينة « لوكا » Lucques هناك توكيلات تجارية (٤) ، وحصلت مدينة سينييا Sienne في عام ١٢٦٨ على وعد من كونرادن دي سواب Conrandin de Souabe بالاعفاء من الرسوم عند الدخول في مدينة عكا والخروج منها وتخفيض رسوم الميناء بمقدار ١/٥ (٥) ، ولم يسمح الحظ العائر لهذا الأمير التعس بالوفاء بوعده . وفي حين كان عدد البلاد

(١) Berger, Registres d'Innocent IV, I, 214 (trois chartes du 28 juillet, 1245).

(٢) Pooli, Cod. dipl. dell'ord gerosolim, I, 157-161.

(٣) Contin, de Guill. de Tyr, p. 218.

(٤) Comme preuve, voy. une charte citée par Bini, I Lucchesi in Venezia, I, 113 et s.

(٥) Doc, sulle relaz. tox, p. 100 et s.

الايطالية المثلة في عكا في تجارة البضائع يزداد يوما بعد يوم ، قامت شركات البنوك الايطالية التي كان لها فروع مصرفية في أوروبا بانشاء فروع لها في عكا ، ذلك لأن هذا الموقع يتيح أكثر الظروف ملائمة لتجارة واسعة في الضفة . والمعروف أنه بفضل العلاقات التي كانت لبعض البيوت المصرفية التابعة لسيينا وبخاصة لبياتشيزا Pisanza استطاعت أن تزود القديس لويس بالموارد اللازمة للانفاق على جيوشه أثناء الحروب الصليبية وبعدها (١) . وإلى جانب التجار الايطاليين نجد أيضا في عكا آثار مستوطنة من التجار الانجليز : والغالب أنهم وصلوا هناك في أعقاب الحملة الصليبية التي قادها ريتشارد قلب الأسد . وكان « حى الانجليز » يقع على التل المسمى « جبل موزارت » Mont Musart (٢) . ومع ذلك كان أهم المستوطنات ، بعد المستوطنات الايطالية ، مستوطنة البروفانسيين ، وكان لهم أيضا حيهم (٣) وكنيسة مكرسة لمريم العذراء (٤) . إلا أن نمة مدينتين كانتا تزودان المستوطنة بغالبية أعضائها هما مرسيليا ومونبيليه ، وكان تجارهما يتمتعون بالاعفاء من رسوم الدخول والخروج ، وكان لمن استقر بهم المقام هناك بصفة نهائية موظفون استعماريون من موطنهم الأصلي وأدت المنافسة بين كل هؤلاء التجار ، من ايطاليين وفرنسيين وانجليز الى اعطاء دفعة جديدة لتجارة عكا اذ اضطررت الى توسيع علاقاتها أكثر فأكثر . ونحن نعلم من قبل أن البنادقة وغيرهم كانوا يذهبون من هناك الى دمشق . ويرحل منها أيضا وكلاء متجولون قاصدين دمياط وآنيا Ania بآسيا الصغرى ، والقسطنطينية (٥) . وعندما زار المبشر وليم دو روبروك سلطنة ايكونيوم وثمة مبشر آخر ، هو يوحنا دو بلان دو كاربان Jean du Plan de Carpin (حاليا قونية ، بتركيا) وجد تجارة الشب حكرًا لجنوى من عكا ، ولبندي . التقى في مدينة كيبف بتاجر من عكا (٦) . ثم ان الشرق لم يكن الهدف الوحيد لتجارة عكا ، فهناك أكثر من تاجر عاد الى الغرب وزار هناك المواقع التجارية

-
- Belgrano, Doc. inéd. riguard le due crociate di S. Luigi IX; G. (١)
Servois, Emprunts de Saint-Louis en Palestine et en Afrique, dans la Bibliothèque de l'école des chartes, Série IV, T. IV, p. 113 et ss.; A. G. Tonnai, Documents relatives aux Pisançois d'Orient, dans les Archiv. de l'Or. lat. II, 2, p. 208-212.
- Charte de 1240, dans les Archives de l'Or. lat. II, 2, p. 156; Charte (٢)
de 1255 dans Paoli, Cod. dipl. I, 261; les Archiv. de l'Or lat. I, p. 426; les Itinéraires à Jérusalem et descriptions de la terre sainte, éd. Michelant et Reynaud
- Rue des Provençaux "Paoli I., 265 ; Mas-Latrie, Hist. (٣)
de Chy. ne, II, 67; « Rues Provinciales » ibid. 111, 636 : " Vicus Provincialis » Taf. et Thom. II, 32.
- Taf. et Thom. II, 32; Paoli, I, 264. (٤)
- Doc. sulle relaz. tosc. p. 103, 104. (٥)
- Recueil de voyages et de mémoires, publ. par la Société, de géo- (٦)
graphie, IV, 392, 772.

الرئيسية . من ذلك أنه في أواخر القرن الثالث عشر كان يوجد تجار من هؤلاء في أسواق شامباني الكبيرة (١) ، وفي جنوب إيطاليا (٢) وغيرها .

كانت صور من الناحية التجارية تحتل المرتبة الثانية ، وكانت الأحياء الإيطالية بها ، تلك التي بقيت من غارات الأعداء تتمتع برخاء متصل ، وتكون بها باسم البروفانسيين مستوطنة جديدة مؤلفة من بورجوازي مرسيليا ، ومونبيلييه ، وسان جيل ، وبرشلونة (٣) ، وقد غمرها كونراد دو مونفير بالأموال والحقوق والاعفاءات ، فلم يكن ثمة شيء كثير يثير حسدها من أخوتها الأقدم عهدا منها (٤) . وأقر فيليب دو نفور سيد صور من ١٢٤٣ الى ١٢٦٩ الاعفاءات الخاصة بأهالي مرسيليا بالمدينة (٥) .

وفي خريف عام ١١٩٧ استعاد المسيحيون سيادتهم على مدينة بيروت التي كان لمينائها بعض الأهمية في عهد مملكة القدس القديمة (٦) ، غير أنه اعتبارا من هذه الآونة ، وبتأثير أمراء أسرة ايبيلان Ibelin ، وبراعتهم في الادارة ، أرسيت بها دعائم رخاء استمر مزدهرا عدة قرون بعد ازدهار صور وعكا . وأول هؤلاء السادة معروف ، لأنه كثيرا ما ذكر في « قوانين بيت المقدس » باسم « سيد باروت الكبير » vieux sire de Baruth ومن ١٢٢١ الى ١٢٢٣ منح الجنوين (٧) والبنادقة (٨) والمارسييليين (٩) بسخاء حقوقا وأملاكا في مدينته ، واتسمت علاقته بالجنوين بطابع صداقة ومودة في شتاء عام ١٢٢٢ - ١٢٢٣ ، وكان هؤلاء قد احترقت املاكهم في عكا بفعل البيزيين ، واشتد غيظهم لعدم قدرتهم على الحصول على التعويضات التي طالبوا بها فهجروا المدينة ورحلوا الى بيروت التي أصبحت من ثمة المرفأ التجاري الوحيد (١٠) . وسوف نرى فيما بعد الظروف التي توثقت فيها العلاقات بين الجنوين وسادة بيروت .

عندما يغادر المراء بيروت متجها نحو الشمال ، يصل أولا الى حدود مملكة بيت المقدس عند مصب نهر الكلب Nahr-el-Kelb . وعلى مسافة بضعة أميال

(١) Contin, de Guill, de Tyr, p. 195, not. 21.

(٢) Charte de l'an. 1266, dans Del Giudice, Cod. dipl. di Carlo d'Angio

I, 235.

(٣) M. Germain, Hist. du commerce de Montpellier I, 180; cf. Vic et

Vaissette, Hist. de Languedoc, éd. Du mège, III, 231, IV, 214.

(٤) Charte du mois d'octobre 1187, dans Méry et Guindon I, 190.

(٥) Ruffi, Hist. de Marseille, I, 96.

(٦) Wilken, Gesch. der Kruzz, P, 35-39.

(٧) Lib. jur. I, 665 et s. 687 et s.

(٨) Taf. et Thom. II, 230 et ss., 232 et ss.

(٩) Méry et Guindon I, 287 et s.

(١٠) Annal Jan. p. 150.

من هذا النهر يصادف مدينة « جبيل Gibelet أول مدينة باقليم طرابلس ، وكانت أسرة امبرياتشى Embriaci قد استولت عليها عام ١١٩٣ ، ووجد الجنويون في أفراد هذه الأسرة مواطنين لهم وحماة ، وكانت الميناء مفتوحة لهم بالاعفاء الكامل من كل الرسوم ، ومن ثم كانوا يؤثرون التردد عليها (١) . ولم يكن البنادقة يتمتعون بالامتيازات نفسها ، فحتى عام ١٢١٧ كانوا يدفعون ٤٪ من قيمة السلع ، ولكن اعتبارا من هذا التاريخ حصلوا على خفض نصف هذه النسبة (٢) ، غير أن المجهود الذى كانوا يبذلونه للوصول الى هناك يدل على أنهم كانوا حريصين على الا يتركوا هذا المكان .

وبالمضى على طول الساحل بين جبيل ونفين Nefin على بعد أربعة فراسخ ونصف فرسخ من طرابلس (٣) نصادف مدينة التبرون الصغيرة التى استخلصت من أيدي المسلمين ، وعادت الى سيدها القديم بعد فترة قصيرة أمضتها بلا حاكم ، وكان اسمه بليبانوس Plebanus (٤) ، وينتمى الى أسرة غنية موطنها الأصلي بيزا ، ثم استقر بها المقام فى طرابلس ، وكان يدين بسيادته لكفاءة أحد أعمامه : اذ لما كانت سلالة المذكور فى بارونات الباترون قد انتهت فى شخص جويوم (وليم) دوريل ، فان ابنته ووريثته سيسيل لم يكن بوسعها أن تتزوج الا باذن كونت طرابلس الذى كان له الحق فى التصرف فى زواجها بصفته السيد الاقطاعي ، وكان قد وعد بزواجها لفارس يدعى جيرار ريدفورت ، ولكن مبلغ ١٠٠٠٠ دينار بيزنطى دسه سرا فى يده البيزى الثرى حمله على تفصيل الشير على الفارس ، وهكذا تزوج بليبانوس الوريثة وأصبح سيد مدينة الباترون (٥) . حدث هذا قبل غزو صلاح الدين بعدة سنين ، وكلف انتصار صلاح الدين بليبانوس اقطاعيته وحرثته (٦) ، ولكنه استعادهما بعد بضع سنين . وفى عام ١٢٠٢ منح تجار وطنه الأصلي الاعفاء من الرسوم الجمركية عند الدخول والخروج (٧) . وكان من شأن وثوق البيزيين من الترحيب بهم فى مكان سيده من مواطنيهم أن أجتذبهم الى مدينة الباترون ، كما دفع الجنويين صوب جبيل . ولسوء الحظ لم يرزق بليبانوس بوريث ذكر ، فانتقل ارثه من بعده الى أيد

Diplôme de 1168, dans le Lib. jur. I, 230.

(١)

Taf, et Thom, II, 196 et s.

(٢)

Wilbrand ab Olenburg, dans Laurent, Peregrinatores, p. 168; Jacq. de Vitry, p. 1072 ; Sanut, p. 245; Edrisi, I, 356; Ghistele, p. 263; Asien XVII, 1, p. 584-588; voy. aussi p. 37.

(٣)

Paoli, Cod. dipl. 1, 70, 103, 218, 252, 283 ; Doc. sulle relaz. tox, p. 65, 79; (٤)

Lib. jur. I. 523; Tab ord. teuton, éd. Strehlke, p. 18, 35; Hopf, dans la Revue critique et littéraire 1e déc. 1871, p. 236.

Annal. Jan, p. 52; Contin, de Guill de Tyr, p. 51, Lignages d'Ou-

(٥)

tremer, éd. Beugnot, p. 468.

Cont. de Guill. de Tyr, p. 66 D.

(٦)

Doc. sulle relaz, Tosc, p. 83 et s.

(٧)

أجنبية ، وكان خلفاؤه ينتمون الى أسرة أمراء أنطاكية (١) . ولسنا نعلم ما اذا كانوا يحابون البيزيين مثل أسلافهم .

ومن جبيل والباترون ، وهما من البارونيات الصغيرة ، ننتقل الى مقر سبدهما الاقطاعي ، كونت طرابلس . وقد آن الأوان لدراسة موقف هؤلاء الأمراء من الأمم التجارية في غضون الفترة الثانية من تاريخ الدول الصليبية . فالنسبة الى البنادقة ، لا يوجد سوى وثيقة واحدة في صالحهم ترجع الى تلك الفترة ، مؤرخة الأول من يونية ١٢٩٧ ، وعليها توقيع الكونت بوهمند السابع (٢) ، وتشهد فقط بأنهم يملكون في عاصمة الكونتية مستودعا وحماما وفرنا . وكان من حق الجنوبيين منذ البداية أن يتسلموا ثلث المدينة ، وذلك بموجب المعاهدات ، ولكنهم لم ينالوا حقهم هذا بسوء نية الكونت بترام Betram . وبوجه عام وجدوا الكونتات الأوائل غير مستعدين للاهتمام برغباتهم . ويبدو أن وفاة ريموند الثالث قد فتحت عهدا أكثر ملاءمة لمصالحهم : فقد انتقلت الكونتية الى أيدي أمراء أنطاكية ، وكان بوهمند الرابع قد تزوج لأول مرة بلاسنتيا Placentia ابنة هوج امبرياكو Hugues Embriaco سيد جبيل ، فهي من ثمة جنوية ، وأثمر هذا الزواج بوهمند الخامس . والواقع أنه في عام ١٢٠٣ حصل السفيران الجنوبيان لامبرتو فوناري ، وبلمستو ليركاري من بوهمند الرابع على وثيقة تضمن لمواطنيهما الحرية المطلقة في مزاولة التجارة ، والاعفاء التام من الرسوم الجمركية ، ومحكمة قنصلية خاصة (٣) . وفي عام ١٢٠٥ وقع حادث كان من شأنه أن يحسن موقف الأمير : ذلك أن كونت مالطة الذي تحدثنا عنه قبلا كان قد بعث الى مياه رومانيا (الأرخبيل) أسطولا صغيرا قوامه ثلاث سفن بقيادة الفيكونت الامانوس (أرمانوس) ، والبرتس جالينا ، للهجوم على أعداء جنوا ، فواصلت سفينتان منها الى سوريا ، ونزل بحارتهما وعددهم ٣٠٠ رجل في طرابلس ، ووضعوا أنفسهم تحت تصرف بوهمند الرابع ، وساعدوه في إخضاع تابع متمرّد يدعى رينوار Renoart (٤) ، سيد نفين ،

(١) Ducange, Familles d'Outremer, éd. Rey, p. 258 (Doc inédit sur l'hist. de la France).

(٢) Rey, Recherches hist. et géogr. sur la domination des Latins en Orient, Paris 1877, p. 42-45.

(٣) Canale, Nuova istoria di Genova, II, 304 et s.; Olivieri, Carte e cronache, p. 59.

Annal Jan, p. 124 et s.; le Contin de Guill. de Tyr, p. 315; Sanuto, v. 205.

- يقول المؤلفان الأخيران أن جريمة رينوار كانت في خطبته ابنة سيد جبل - عكار دون الحصول على إذن بذلك من سيده كونت طرابلس ، ولهذا السبب لقي جبل عكار مصير نفن .
(٤) Ducange, Familles d'Autremer, p. 414

وهي مدينة تقع على مسافة بضعة فراسخ جنوبى طرابلس (١)، وفكوا الحصار عن مدينة جبيل التي كان يطوقها المسلمون وقتئذ (٢) . وأضاف كونت مالطة على هذه الخدمات اعانة مناسبة تبلغ ألفى دينار فضى بيزنطى وأعطى بوهمند لصالح كونت مالطة ومواطنيه الجنوبيين اقرارا منه بهذا الجميل وثيقة مماثلة لتلك التي حصلوا عليها منذ سنتين (٣) .

ولم يكن للبيزيين علاقات طيبة مع كونتات طرابلس . وكان أصل الخلاف نزاع قام بينهم وبين أسقف طرابلس : فقد كان لهذا الأسقف حق فى ثلث ايرادات الممارك ، وكان البيزيون قد حصلوا فى عام ١١٨٧ على اعفاء كامل من الرسوم ، ولكن الأسقف أنكر صحة الاعفاء فيما يختص بالثلث الذى يستحقه ، ورفض البيزيون من جانبهم أن يدفعوا ، واحتكموا الى بوهمند الرابع الذى وافق مؤقتا ، فى انتظار قرار المحاكم ، الا يضع أموال البيزيين تحت الحراسة ضمانا لمطالب الأسقف ، ولكنه أضاف أنه اذا قدم له الأسقف حججا كافية ، فانه سوف يحكم له بما طلب ، وهذا ما يبدو أنه حدث بالفعل . ومن هنا نشأ نزاع خطير . وأخيرا فى عام ١١٩٩ قرر البيزيون أن يدفعوا للكونت بمشابة تعويض عن الاضرار التى أوقعوها خمسة آلاف دينارا بزنطيا ، ويدفعوا ثلاثة آلاف لرعاياه ، كما تعهدوا بأن يدفعوا بالتدريج علاوة قدرها أربعة آلاف دينارا كضريبة تفرض على البضائع . أما الكونت فقد أعاد اليهم بيوتهم ومحكماتهم واعفاءاتهم ، ولكنه أعلن أنه اذا ارتكب البيزيون المقيمون خارج طرابلس أعمالا عداوية ضده ، فانه يحتفظ لنفسه ، ازاء البيزيين المقيمين فى طرابلس بالحق ، لا فى اعتقالهم ومصادرة أموالهم ، ولكن فى طردهم من البلد فى مهلة قدرها ثلاثة شهور . ولا يبدو أن الأمور وصلت الى هذا الحد ، وواصلت المستوطنة حياتها العادية ، بل ان الكونت بوهمند الخامس منحها فى عام ١٢٣٣ وثيقة تؤيد الامتيازات اللذين منحهما جده ريموند الثالث (٤) .

وإزداد عدد المستوطنات المستقرة فى طرابلس بإنشاء مستوطنة من تجار مونيبيليه ، وأقردهم لهم الكونت بوهمند الخامس حيا فى المدينة ودارا لقنصلهم . وكان مرخصا لهذا القنصل بالفصل فى المنازعات بين مستوطني مونيبيليه ، أو بينهم وبين مستوطني جنوا وبيزا . ولم يمنح بوهمند المستوطنين الاعفاء الكامل من الرسوم على المبيعات والمشتريات والمرور ، ولكنه خفضها لصالحهم الى ثلث

-
- (١) Sanuto, Secr. fidelium-crucis p. 85, 245 ; Brevdenbach (Reyssbuch des heil. Landes p. 65, 6) et Burchard (éd. Laurent, I.c. p. 28).
 Les annal. Jan. I 1.c. (٢)
 Lib. jur. I, 522 et s. (٣)
 Les trois diplômes des Doc. sulle relaz. tosc. p. 65, 79, 99. (٤)

القيمة المعتادة . ومع ذلك كانت كل هذه الامتيازات مشروطة ، فلكي يسنم الانتفاع بها ، كان على مونبيلييه أن ترسل الى طرابلس كل سنة سفينة يسيرها طاقم من أربعين بحارا على الأقل ، وتحمل سحنة بضائع لا تقل عن ٨٠٠ طن (١) . وفي عام ١٢٥١ حصل بورجوازي قوى النفوذ في مونبيلييه ، يدعى بتروس دي تيركو (٢) على امتيازات جديدة لمواطنيه ، مما يحملنا على الافتراض بأن التجارة كانت نشيطة جدا بين المدينتين في أواسط القرن الثالث عشر ، وربما حتى استيلاء المسلمين على طرابلس .

وقاست امارة انطاكية من حملات صلاح الدين أكثر مما قاست كونتية طرابلس ، ولم يعد الأمراء يملكون خارج عاصمتهم أكثر من بضعة قصور حصينة . وحتى بعد وفاة صلاح الدين لم يكن في مقدورهم أن يعوضوا خسائرهم لأن جيرانهم سلاطين حلب المحاربين الأشداء أبناء صلاح الدين وخلفائه لم يتركوا لهم وقتا للراحة . من ذلك أن ميناء جيبيل ولاوديكي (اللاذقية) وكل الاقليم المتوسط الذي فتحه صلاح الدين في عام ١١٨٨ (٣) بقيت في أيدي المسلمين ، باستثناء فترات قصيرة ، وكان الطريق الوحيد الذي تستطيع به الرقعة الوحيدة الباقية من امارة انطاكية أن تتصل بالبحر هو طريق السويدية (ميناء سان سيميون) . ولما كانت الامارة الصغيرة كائنة بين أرمنيا المسيحية وسوريا المسلمة فانها كانت تعاني من ضغط جيرانها . ومع ذلك احتفظ الجنويون والبيزيون زمنا طويلا بمستوطناتهم في انطاكية ، ومعهم فيكونتاتهم (٤) .

وثمة وثيقة تثبت أن الجنويين كانوا يملكون في عام ١٢٦٤ كنيسة القديس يوحنا St. Jean والحي المجاور لها ، وكانت الكنيسة والحي قد منحهما لهم بوهمند الأول بعد الفتح مباشرة (٥) ومنح آخر الأمراء النورمانديين مستوطني الأمتين امتيازات تتعلق باختصاص محاكمهم وتسوية ضرائبهم (٦) . وعلى العكس من ذلك لم يعد هناك أثر للبنادقة : ومن الراجح أنهم توقفوا عن مزاوله تجارتهم مع انطاكية ، كذلك لا يبدو لنا أن الأمم التجارية التي بدأت وقتئذ تزور سوريا فكرت في أن تنشئ بها مستوطنات . حقا ان ييتروس دي تيركو من مونبيلييه ، الذي صادفنا اسمه قبلا قد ذهب الى بلاط أمير انطاكية في عام

Germain, Hist de la commune de Montpellier II, 513 et s. (١)

Germain, du commerce de Montpellier I, 214 et ss. (٢)

Itinerar, R. Ricardi p. 26; Weil, Gesch. d. Chalif. III, 407 et s. (٣)

Lib. jur I, 577; Doc. sulle relaz. tosc. p. 90. (٤)

Canal II, 307. (٥)

Le Lib. jur I, 364, 432, 577; les Doc. sulle relaz. tox. p. 80, 90 et s. 99 et s. (٦)

١٢٥٠ (١) يأمر سيد موطنه اصيلي جايم الأول ayme ملك أراجون ليتفاوض معه في شئون تجارية ، ولكن الموصوع كان يتعلق بالحصول على سروط أكثر ملاءمة في كونتية طرابلس التي كان يحكمها وقتئذ بهموند الخامس ، لا في إمارة انطاكية . وقد رأينا أن هذه المأمورية قد حظيت بكل النجاح المنشود (٢) .

ذكرنا الى الآن المدن التي احتفظت الحركة التجارية فيها بنشاطها بنوع ما خلال الفترة الثانية من وجود الدول الصليبية ، كما بينا مختلف الأهم الغربية التي كانت تشغل السوق في كل منها . ومع ذلك بقي علينا أن نتحدث عن الاسبان والفرنسيين في الجنوب ، ذلك لأن بضع الكلمات التي ذكرناها هنا وهناك لا تكفي لتغطية فكرة عن أهمية الدور الذي لعبه هذان الشعبان في سوريا .

أما الاسبان فأنهم لم يساهموا في الحروب الصليبية الا بنصيب قليل نسبيا (٣) ، ولم يكن لهم حاجة للخروج من بلدهم لمحاربة المسلمين . وكانت المدينة التي قدر لها أن تفوق ذات يوم سائر المدن في شبه الجزيرة بنشاطها التجاري وقوتها البحرية ، برشلونة ، كانت ملزمة بأن تظهر ما حولها من أماكن قبل أن تطالب بنصيبها من المزايا التي جعلت الأمم النجارية تسعى للحصول عليها في سوريا . فالواقع أن المغاربة ، وهم عمال مهرة ، وبحارة أكفاء ، وقد اتخذوا مقاما لهم في طرطوس ، وفالنسيا ، والميرية ، (الميرية) (٤) ، وجزر البليار كانوا منافسين خطرين لمدينة برشلونة ، وأضحت جزر البليار أوكارا للقراصنة الذين كانت جيرتهم ثقيلة الوطأة ، ليس على سكان برشلونة فحسب، ولكن وبوجه عام على كل المسيحيين في الجزء الغربي من البحر المتوسط . وفي عامي ١١٤٧ ، ١١٤٨ نظم الاسبان والجنوبيون نوعا من الحروب الصليبية ، وانجحت قواتهم المشتركة أولا صوب الميرية واستولت عليها ، ثم الى طرطوس التي لقيت المصير ذاته . وكان هذا كسبا ارتاحت له برشلونة ، ولكنه شيء قليل بالنسبة الى النتائج التي حصل عليها فيما بعد جايم الأول في سلسلة من الحملات المظفرة : فقد استعاد هذا الأمير من المسلمين جزر ماجورقا (١٢٢٩) ، ومينورقا (١٢٣١) ، وعلى القارة مملكة فالنسيا (١٢٣٥) . ومن هذه الآونة وجدت برشلونة نفسها محاطة بحزام عريض من البلاد الصديقة ، وتيسر لأسطولها أن ينطلق صوب الشرق دون خوف من أن يعترض طريقه قرصان البليار . وكان العهد الطويل لحكم هذا الأمير العظيم (١٢١٣ - ١٢٧٦) من جميع الوجوه مقدمة لفترة من

Germain, Hist. du commerce de Montpellier I, 220 et s. (١).

Ibid, I, 214 et ss. (٢).

Memorias de la R. Academia de la historia T.V., Madrid 1817 : (٣)

Mem. da R. Academia de Lisboa 1854.

Colmeiro, Historia de la economia politica in Espana I, 388. (٤)

الرخاء والمجد للمدينة برشلونة . وتصرف هذا الأمير بحكمة ، فسلم ادارة المصالح الكبرى فى المدينة للطبقة البورجوارية النى تشكل طائفة التجار ذوى النفوذ الأكبر . وفى عهده ، وفى كل مرة كان على السلطة الملكية أن تتدخل فى المسائل التى تنصل بالصناعة أو الملاحة أو التجارة ، وهى تفعل ذلك لا للإعاقة أو الوصاية ، ولكن بمثابة حماية وتشجيع . من ذلك أنه فى عام ١٢٢٧ حظر جايم أن تشحن السفن الأجنبية بضائع الى سوريا أو مصر (الاسكندرية) طالما وجدت فى الميناء سفن وطنية (١) . وكان يطيب له أن يرى التجار الأجانب يجرون مشتريات فى برشلونة ، ويصدرون منها منتجاتها ، ولكنه لم يصرح لهم بأن يبيعوا بالتجزئة البضائع التى استوردوها من الخارج (٢) . ولم يكن يطيق أن يرى فى برشلونة منشآت يقيمها أجانب : ففي عام ١٢٦٥ بالغ فى هذا الشعور فأمر بطرد التجار اللومبارديين ، والفلورنسيين والسيينيليين (من سبينيا) ، واللوكيين (من لوكا) ، وحظر عليهم الإقامة مستقبلا فى المدينة لمزاولة التجارة بها (٣) . كان يريد أن تبقى تجارة برشلونة كلها فى أيدي التجار الوصنيين ، وأن يأخذ مئنته من الصناعة الوطنية ، ولا يستخدم سوى وسائل المواصلات الوطنية . ثم ان برشلونة كانت تملك كل ما يلزم لتحقيق هذا الغرض : ففيها طبقة من التجار الأذكياء ، والصناع المهرة ، والبجارة البواسل . وقد يكون من المبالغة الادعاء بأن هذه المدينة لم تبدأ فى نبوأ مكان لها بين المراكز التجارية الا ابان حكم جايم الأول ، فقد جرى هذا منذ زمن بعيد ، ووجد بها بنيامين دى توديل من قبل عددا كبيرا من التجار من كل أنحاء العالم المعروف ، من اليونان وفلسطين والبلاد المجاورة لهما ، والاسكندرية ، وصقلية ، وجنوا (٤) ، ولم تتوقف هذه الحركة فى عهد جايم ، وكان الميناء يأوى على الدوام سفنا قادمة من سوريا ومصر (٥) . ولكن الشيء الذى لم يشاهد حتى القرن الثالث عشر هو الحركة العكسية ، أى انطلاق تجار برشلونة يجوبون العالم دون مساعدة أجنبية . حقا لقد رأيناهم من قبل ينشئون مستوطنة فى صور فى أواخر القرن الثانى عشر ، بالاستئثار مع بعض البروفانسبيين ، غير أن دلائل تجارتهم مع سوريا لم تبدأ فى التواتر الا فى عهد جايم . عندئذ تردد ذكر السفن التى تحمل تلك الجنسية مبحرة الى سوريا أو عائدة منها (٦) والأفضل من ذلك أن التعريفات الجمركية المقررة فى ذلك العصر

'Campany, Memorias sobre la marina, comercio y artes de Barcelona II(1779) 11 ets. (١)

Ibid. p. 34. Ordonnance de l'année 1268, (٢)

Ibid. p. 31. (٣)

Benj. de Tudèl, éd. Asher, p. 31 et s. (٤)

'Capmany, I. c. p. 11. (٥)

Ibid. I.c. p. 11, 16, 33, 34. (٦)

بالذات للمبادلات التجارية بين برشلونة وبعض البلاد المجاورة (١) ، وكذا تعريفات الرسوم المفروضة على المبيعات والمستروات الجارية في برشلونة ذاتها (٢) ، هذه التعريفات ننهض أدله بينة على نشاط العلاقات التي كانت قائمة بين هذه السوق وبين الدول الصليبية . فعن طريق سوريا كانت برشلونة تحصل غالبا وبكثير من السهولة على توابل وسط آسيا . ونجد في تعداد المواد المقرر لها هذه التعريفات أسماء التوابل والعطور ، وخشب الصبابة المستورد من آسيا ، ونخلص من ذلك الى أن هذه المنتجات كانت تستورد عادة الى أسبانيا في سفن برشلونة .

وفي جنوب فرنسا ، مدينة كبيرة أخرى ، هي مونبيلييه ، كانت مثل برشلونة خاضعة لحكم أسرة « اراجون » Aragon ، وتناجر مثلها مع الشرق . ولما انتهت سلالة سادة مونبيلييه القديمة خلفهم ملوك أراجون بالوراثة المباشرة (١٢٠٤) . غير أن الطبقة البورجوازية في المدينة لم تفقد شيئا من حرياتها البلدية ، فكانت في الواقع تحكم نفسها بنفسها ، إذ كان يحكمها قناصلـةـة منتخبون . ولها دستور ديموقراطي حقيقي . وكان الملوك يقيمون دوما بعيدها عن المدينة ، فتركوا لها من ثمة حرية شبه تامة ، ولم يمنعهم ذلك من الاهتمام برخائها المادي . وكان جايم يفخر بنمو هذه المدينة نموا غير عادي ، إذ أصبحت في عهده من أهم مدن العالم (٣) ، وكان محقا في فخره لأنه أسهم بنفسه في هذا النمو ، كما كان هو الذي شجع اتساع تجارة المدينة في الشرق الأدنى ، وبأمره ذهب بتروس دي يتريكو الى سوريا ، وحصل لصالح مواطنيه في عكا . وفي طرابلس على حقوق واعفاءات جديدة (٤) . وقبل ذلك بعامين بعثت بلدية مونبيلييه باسمها الى طرابلس سفيرين مكلفين برعاية مصالحها التجارية (٥) . وكانت تقيم قناصل في عكا (٦) ، وصور (٧) ، وطرابلس (٨) ، ومع أنها كانت من أواخر القادمين الى سوريا ، فإنها لم تكن تخشى أن يقارن بينها وبين سائر الأمم التجارية .

ولم تكن مرسيليا تتمتع باستقلال تام ، شأنها في ذلك شأن مونبيلييه .

-
- (١) Ibid. p. 3-11.
 (٢) Capmany, dans les notes du 2e volume, p. 72 et ss.
 (٣) Diplôme du 8 févr. 1273, cité par Germain, Hist. du commerce de Montpellier I, 12 et s., not.
 (٤) Les-diplômes des années 1251 et 1253, ibid I, 214 et ss., 220 et s.
 (٥) Germain, Hist de la commune de Montpellier II, 513 et s.
 (٦) Germain, Hist du commerce de Montpellier I, 243.
 (٧) Méry et Guindon I, 190 et s.
 (٨) Germain, Hist. de commune de Montpellier II, 513.

غير أن سيادة كونتان بروفانس عليها لم تمنعها من أن تدير بنفسها شئونها الداخلية بوساطة موظفين منبجيين ، وان بعد معاهدات مع دول اجنبية . واستمر هذا الوضع حتى عهد شارل دابجو Charles d'Anjou الذى ألغى انتخاب موظفى البلدية ، ولكن حتى فى عهد أمراء هذه الأسرة ، احتفظت مرسيليا ببعض الامتيازات ، من بينها عقد المعاهدات . وفى أيدينا مراسيم بشأن الاستيراد والتصوير ، والضرائب والجمارك ، حررت فى عام ١٢٢٨ ، فى عصر كان بمرسيليا « بودستات » (محافظون) منتخبون . ونظهر لنا فى هذه المراسيم مدينة تجارية فى أوج ازدهارها ، نقيم علاقات مع الموانئ المسيحية بصقلية وسوريا وأرمينيا من جهة ، ومع الموانئ الإسلامية فى الاسكندرية ، ودول شمال أفريقيا (١) ، وتتضمن فضلا عن ذلك تعريفه جمركية ذات أهمية قصوى ، أدرج بها أسماء منتجات أوروبا وشمال أفريقيا مختلطة بتوابل الهند (٢) . وهناك أيضا وثيقة قيمة أخرى أحدث عهدا بقليل (١٢٥٥ ؟) وهى سجل لقوانين ولوائح مرسيليا باسم « الكتاب الأحمر » . وفى هذا السجل أحكام خاصة ، ليس فقط بالمواطنين المقيمين داخل أسوار المدينة ، ولكن أيضا بالتجار الذين يجوبون البحر المتوسط . والذين لهم منشآت فى سبتة ، ، أو بجاية ، أو الاسكندرية ، أو سوريا . ولا بد أن هؤلاء التجار كان لهم أثناء عبورهم البحر ، وعند اقامتهم فى محطات ما وراء البحار رؤساء يختارون من بينهم يمثلون بلدية مرسيليا ، ويسألون أمامها . ومن بين القناصل الاستعماريين ، كان قنصل عكا يستحق تنويعها خاصا (٣) . ولم تكن مرسيليا تملك أحياء تجارية كبيرة فى مدن الشرق الأدنى ، ولكن كان لها فى مختلف الأنحاء منشآت نظمها كتاب القوانين livre des statuts (٤) . ومن العتب أن نبحث فى هذا الكتاب عن تفاصيل بشأن أملاك مرسيليا فى الشرق الأدنى . ولسوء الحظ ، فان مراسيم الأمراء السوريين التى استقينا منها كل المعلومات التى ذكرناها هنا شحيحة جدا فى هذا الخصوص . لذلك فليس فى وسعنا أن نعرف الظروف المتعاقبة التى أدت الى الحد من الاعفاءات والأملاك الممنوحة للمرسيليين فى عكا ، وقبرص . وجهات أخرى فى غضون الفترة التى ندرسها . بيد أنه من الثابت أنه حين سلمت مرسيليا مقاليد أمورها الى شارل دابجو فى عام ١٢٥٧ ، حررت وثيقة بعنوان « أحكام السلام » Chapitres de paix وعد فيها هذا الأمير بمساعدتهم

Méry et Guindon, Hist. de la municipalité de Marseille I, 329, 333, (١)
355, et s.

Ibid, 341-349 ; le supplément à la préface du Cartulaire de l'abbaya (٢)
de S. Victor de Masseille T. I, p. lxxiii et ss. (Coll. des doc. inéd.);

Rawdon Brown, Colendar of stale papers Venetian I, p. 1.

Méry et Guindon IV, 121. (٣)

Ibid. II, 205-212. (٤)

بكل ما له من سلطة على استرداد ما كانوا قد فقدوه (١) . وبالفعل حين ارتقى عرش بيت المقدس ، استخدم حقوقه كملك لتأكيد إعفاءات المرسيليين في عكا وفي أماكن أخرى (٦ من سبتمبر ١٢٨٤) (٢) . وتبعاً لهذا يمكن التسليم بأنه من الثابت أن المرسيليين زاروا سوريا واحتفظوا ثمة بامتيازاتهم وأملآهم الى أن سقطت السيادة نهائياً هناك .

ولم تكن مدن جنوب فرنسا التي بقي لنا أن نتحدث عنها في مثل أهمية مرسيليا ومونبيليه . وقد أرسلت سان جيل سفناً تجارية الى سوريا (٣) . وأقامت كما رأينا قنصلية في صور . بتكاليف مشتركة مع مدن أخرى من بروفانس ، ومع ذلك فإن هذه المدينة لم تصبح أبداً مكاناً تجارياً . وكان لناربونة Narbonne (*) من قبل معاملات تجارية مع عكا في القرن الثالث عشر (٤) ، إلا أن أوج ازدهار هذه المدينة ، حين بلغ نشاطها التجاري مع الشرق الأدنى أقصاه يقترب كثيراً من العصر الحديث . ونلاحظ الشيء نفسه بالنسبة الى « ايچ مورت » Aigues-Mortes أول ميناء استولى عليه ملوك فرنسا في البحر المتوسط . والمعروف أن القديس لويس حرص على أن يحشد أساطيله في ميناء يتبعه ، بحيث يتيسر له أن يطلقها وقتما يشاء . ومن ايچ مورت أبحر مع حملته الصليبية في عامي ١٢٤٨ ، ١٢٧٠ ، ولكن كان عليه أولاً أن يشتري هذا الميناء من كبير قساوسة بسالموري Psalmodi . وبدأ بتوسيع الميناء وتحسينه حتى يكون صالحاً لتحقيق غرضه ، ولكنه بعد ذلك وضع مشروعا لتمويل هذا الموقع الصغير المجهول الى مدينة آهلة بالسكان ، ولينشئ بها سوقاً كبيرة لها صلات فيما وراء البحار : وأراد أن يكون لمدينة ايچ مورت حيها وقنصليتها في عكا ، وأن تتمتع ثمة بالإعفاء من الرسوم الجمركية أسوة بالجمهوريات الإيطالية (٥) . ولسنا نعلم ما اذا كانت رغبته هذه قد تحققت ، وعلى أية حال فإن ايچ مورت لم تكن أبداً مركزاً تجارياً هاماً . ومع ذلك فإن ميناءها أصبح بعد ذلك ملتقى عدد كبير من السفن التجارية ، الأمر الذي أكسب مكتبها الجمركي أهمية كبيرة . ولكن هذه النتيجة ترجع الى ارادة ملوك فرنسا أكثر مما ترجع الى موقع المدينة

Ibid, IV, 322.

(١)

Ruffi, Hist de Marseille, I, 150 et s.; Regeste communiqué par Minieri Ricco, dans l'Arch. stor. ital, IVe série, T. VII, 1881, p. 304; Del Giudice, Cod. dipl. di Carlo d'Anjio, I, 296.

(٢)

Lib. jur. I, 903.

Port, Essai sur l'histoire du commerce maritime de Narbonne (Paris 1854), p. 124.

(٤)

(*) ناربونة كما أسماها العرب مدينة بجنوب فرنسا - المراجع

(٥) ايچ مورت - ميناء بجنوب فرنسا - المترجم

Memard, Hist de Nismes, I, Preuves, p. 78, 118.

المناسب (١) ، لقد استعرضنا كل مدن الغرب المسيحي المثلثة في أسواق الشرق الأدنى في غضون الفترة الثانية من وجود الدول الصليبية . وبفضل الكمية الكبيرة من الوثائق الخاصة بهذا العصر ، والتي حفظت الى وقتنا هذا ، أصبح من الميسور لنا الآن أن نقدم عرضا تفصيليا لتكوين وتنظيم المستوطنات القديمة والجديدة التي أقامها الغربيون في سوريا ، وكذا الحقوق والامتيازات التي كانت للمستوطنين ، وعلينا فضلا عن ذلك أن ننوه بأكثر من تغير حدث في حياة هذه المستوطنات .

فإذا ما بدأنا بإدارة المستوطنات ، لرأينا أن دور الجاليات التجارية ، وبخاصة الإيطالية في الحياة العامة والسياسية بنوع خاص قد اتخذ أهمية جديدة . كانت هذه المستوطنات تعيش منعزلة حتى ذلك الحين ، تعمل كل منها لحسابها الخاص ، تحت إدارة فيكونتاتها . ثم بدا للجمهوريات التي تتبعها هذه الجاليات أنه قد آن الأوان لإقامة روابط بينها عن طريق نظام مركزي . فبالنسبة الى البندقية ، تميز الانتقال بإقامة موظف كان يسمى أحيانا *bajulus Syrioe* وأحيانا *bajulus Venetorum in Syria* وأحيانا *bajulus Venetorum in Occon, in Tyro et in tota Syria* (٢) . وعندما نجده مذكورا بلقب *Baile d'Acre* أو *Baile à Acre* (٣) فمعنى ذلك أن مقامه الرسمي في عكا ، مقر الملك ، ومركز الحياة السياسية لسوريا كلها (٤) ، ولو أن مستوطنة البندقية في صور كانت أهم من نظيرتها في عكا (٥) . وكان أول هؤلاء « البايالات *Bailes* البنادقة لسوريا كلها » الذين نملك بشأنهم معلومات كافية لكي نحدد على وجه التقريب ، معتمدين في ذلك على وثائق تحت أيدينا - الزمن المحدد لأداء مهام وظيفته ، كان هذا البايال يدعى بانتاليوني باربو *Pantaleone Barbo* ، وقد استلم وظيفته في الفترة التي كان فيها الكونت هنري دو شامباني يحكم مملكة القدس (١١٩٢ - ١١٩٨) (٦) . وأشهر هذه المجموعة هو مارسيليو جورجيو *Marsilio Giorgio (Zargi)* ، فبعد أن شغل العديد من المهام الدبلوماسية (٧) ، بعث الى عكا في عام ١٢٤٠ . وفي أثناء إقامته التي

(١) Du mège, Mém. sur Aigues-Mortes, dans les Mém. de la Soc. archéol. du Midi de la France, T. II; Em. di Pietro, Hist. d'Aigues-Mortes, Paris 1849; Martins, dans la Revue des deux mondes du 15 fev. 1874.

(٢) Taf. et Thom. II, 203, 261; Lib. jur. I, 612, 818; Taf. et Thom. II, 354, 196; II, 360 et s.; 111, 151.

(٣) Taf. et Thom. III, 32.

(٤) Taf. et Thom. II, 174 (Charte de 1214); Ibid. II, 390 et s.

(٥) Taf. et Thom. II, 386.

(٦) Taf. et Thom. II, 379, 387, 389; l'Archiv. Venet. XXII (1881), p. 325 et ss.

(٧) Taf. et Thom. II, 319 et ss. (a Rhodes); Archiv. stor. ital. 111e série X111 (1871), p. 228 (à Ravenne).

امتدت حتى عام ١٢٤٤ أو ربما بعد ذلك عمل على استعادة الأموال والحقوق التي كان يمتلكها فيما مضى مواطنوه في عكا وصور ، والتي انتزعها منهم بالقوة بعض الملوك ، أو بعض الأتباع الذين لا ضمير لهم ، أو جردوا منها بسبب إهمال بعض الموظفين . ولنا أن نتساءل ما إذا كان إلى جانب هذا « البابل » المقيم في عكا ، لم يزل هناك مرؤوس له ، *al Vicecomes in Accon* ، ويبدو أن هذا محتمل ، إذ نرى من يدعى اندريا فيتاليس *Andrea Vitalis* يشغل في عكا ، في عام ١٢١٤ وظيفة البابل ، وكان موجودا هناك منذ بضع سنين حاملا لقب *vicecomes* (١) (فيكونت) ، أو هل ينبغي أن نسلم بأن الموظف نفسه كان يحمل في وقت واحد لقب بابل الذي أصبح فيما بعد لقباً معتادا ، ولقب فيكونت الأقدم منه ؟

وعلى أية حال فإن مستوطنة صور كان لها مدير محلي يعينه بابل عكا ، ومرؤوس (٢) ، وكان يحمل أيضا لقب بابل (٣) ، وله مساعد بلقب فيكونت . وكان المستوطنون البنادقة في صور ، وكل الأفراد المقيمين في حيهم ، وكذا القادمون الجدد يقسمون يمين الولاء ، ليس فقط لبابل أمتهم « رئيس مستوطنات سوريا كلها » ، وإنما أيضا لكل بابل أو فيكونت مكلف من قبله أو من قبل مفوض آخر عن الدوق بإدارة حيهم (٤) . وكان قنصل بيروت ، وقنصل (وفيما بعد بابل) طرابلس ، (٥) وفيكونت (٩) أنطاكية يخضعون بالتأكيد لأوامر البابل العام .

وأدركت جنوا أيضا ضرورة تركيز إدارة مستوطناتها في سوريا ، ولكن بدلا من أن تعهد بالسلطة إلى شخص واحد ، وزعتها بين اثنين من الموظفين باسم (قناصل) *consules* (٦) *consules et viacomites Januensium in Syria* (٧) ،

-
- 1207., dans Ströckle, tab. ordin. Teuton, p. 34 ; 1212, Lünig, Cod. (١)
dipl. Ital. I, 2459 et s.
Taf. et Thom II, 361. (٢)
Ibid, 360 et s., 364 ; Thomas, Die ältesten Verordnungen, op. cit., (٣)
p. 107 et s., 127 et s.; Chart de 1206, dans Taf. et Thom. II, 12,
Taf et Thom, II, 361. (٤)
Lib. bleg. p. 56 ; Thomas (Die ältesten Verordnungen, op. cit. (٥)
p. 107,
à l'année 1279) ; le diplôme de Bohemond VI, de l'année 1277 (Rey. 1.c.)
Lib. jur. I, 366, 400 et s., 405, 665, 688, 1286 : Canale, Nuova (٦)
istoria della repubblica di Genova II, 310 s.; Strehlke, Tab. ord. teuton
p. 37 . Lünig, Cod dipl. Ital. I, 1259 et s.
Lib. jur. I, 899, 941; Arch. de l'Or. lat. II, 2, p. 214 et s., 217 et s., (٧)
222; Canale, II, 295, 300, 311; Belgrano, dans l'Arch. stor. ital. Série
11, VI11, 2e part., p. 160.

(قناصل وفيكونتات) ، ونجدهما هكذا مثنى مثنى فى مجموعة من الوثائق ابتداء من عام ١١٩٢ . واذا كنا نجد أن وثيقة ما لا تحمل الا اسم واحد من هذين الموظفين العاملين بصفة رسمية ، كما نجد مثالا لذلك فى عام ١١٩٠ بشان من يدعى مورينس Maurinus فى عام ١١٩٢ ، وجويل ريسسيوس Guill Ricuis فى عام ١٢٣٢ ، و (دى اورتو) Gugl. de Orto فى عام ١٢٣٣ ، و (بيليترو دى مارى) Pietro de Mari (١) ، فما تلك الا حالات فردية ينبغى الاحتراز من الاستنتاج منها أن جنوا لم يكن يمتلكها فى هذه السنين الا قنصل عام واحد . والواقع أننا نجد فى مناسبات أخرى اسم دى اورتو مقترنا باسم زميله فيراريسوس ، واسم بيترو دى مارى مقترنا باسم من يدعى بيكاميليو (٢) ولا بد أن الأمر كذلك بالنسبة الى مورينوس ، وريسسيوس .

كان هؤلاء ، ممثلو جمهورية جنوا فى سوريا يقيمون فى عكا (٣) ، شأنهم شأن ممثلى البندقية . وكان هناك أيضا موظفون خصوصيون على رأس مستوطنات عكا وصور وبيروت ، يحملون هم أيضا لقب consules أو vicecomites ، وأحيانا اللقبين معا ، ولا يمنع هذا عادة من وجود لقب واحد فقط (٤) .

وأخيرا ، فان بيزا أيضا نظمت ادارة مركزية لمستوطناتها فى سوريا لذات البواعث التى حملت البندقية وجنوا على تنظيم مثل هذه الادارة ، وفى الفترة ذاتها . وكان مقر هذه الادارة فى عكا ، ولكنها مدت سلطتها الى طرابلس وأنطاكية (٥) . وثمة وثيقة بتاريخ ١١٩١ ترينا هذه المناصب وقد عهد بها الى اثنين من القناصل (٦) ، ولكن عددهم ارتفع فى السنة التالية الى ثلاثة ، وبقي ثابتا على هذا الرقم حتى أواسط القرن التالى (٧) . وفى أثناء هذه الفترة الطويلة ، نجد بطبيعة الحال ، حالات يعمل فيها أحد هؤلاء الأشخاص على انفراد ، أو يشغل وظيفة قضائية دون مساعدة أى من زملائه (٨) . ومنذ عام ١٢٤٨ لا نجد سوى قنصلا واحدا Consul Communis Pisanorum Accon et totius Syrioe (٩) .

(١) Lib. jur. I, 366, 400 et s. ; Maslatrie, Hist de Chypre, I, 282 ; Archives des missions scientifiques II, 363.

(٢) Lib. jur. I, 899, 941 et s.; Giorn. ligust, 1877, p. 22.

(٣) Lib. jur. I, 1286.

(٤) Lib. jur. I, 347, A. 1250; Archiv. de l'Ar. lat. II, 2, p. 224; Canale 11, 311; Canal 1. ; Luenig. 1, c.; Archiv. de l'Or. lat. I, 526 et s.

(٥) Doc. sulle relaz. tox. p. 65, 80.

(٦) Ibid, p. 39.

(٧) Strehlke, 1.c. p. 25 ; Doc. p. 80 ; Lünig, 1, c.

(٨) Contin. de Guill de Tyr, p. 443 (à l'an. 1256); Breviar, hist. pis.,

dans Murat SS. VI, 192 (à l'an 1258) ; Taf. et Thom. III, 151 (à l'an 1277) ; Doc. sulle relaz. tox p. 105 (à l'an 1286).

Bonaini, Stat pis. I, 51, 334 et s.

ولم يكن ذلك من باب الصدفة ، ولكنه نتيجة لاجراء اتخذته حكومة بيزا ، ويتبين لنا ذلك عند قراءتنا بعض فقرات اللوائح التنظيمية لبلدية بيزا بخصوص مستوطنات ما وراء البحار . وفي « قرار بلدية بيزا » Breve Psani communis لعام ١٢٨٦ ، وكذا من قبل في قرار عام ١٢٧٢ ، نجد نصا يتعلق بقنصل عكا بعبارات واضحة تستبعد احتمال وجود عدة موظفين معا في وقت واحد (١) . وبالإضافة الى هؤلاء القناصل الذين تشمل سلطتهم سوريا كلها ، كانت بيزا تقيم أيضا في كل من مدينتي طرابلس وأنطاكية فيكونتا (٢) يحمل أحيانا لقب قنصل (٣) .

ومع البروفانسيين ، نجد تشكيلة أخرى . ففي عام ١١٨٧ تنازل كونراد دي مونفيرا لمواطني سان جيل ومونبيلييه ، ومرسيليا ، وبرشلونة المقيمين في صور عن المبنى المسمى « القصر الأخضر » وفرن ، وكوخ . ومن المرجح أن عدد التجار الذين ينتمون بأصلهم الى كل واحدة من هذه المدن لم يكن بكاف ليسمح لهم بتشكيل مستوطنة خاصة بهم وحدهم ، لذلك كان يضمهم « جالية بروفانسية مختلطة » يدير شئونها ستة أو سبعة قناصل (٤) ، ومحكمة مشتركة يرأسها فيكونت واحد (٥) . وها هو أيضا مثل آخر للكيفية التي كانت مدن بروفانس تتألف من أجل الدفاع عن مصالحها التجارية : ففي عام ١٢٣٦ ، توجه « جيرار اوليفيه » قنصل مرسيليا في عكا الى بلاط هنري الأول ملك قبرص بصحبة شخص يدعى ريمون دو كونس . يمثل مونبيلييه بصفة سفير على ما يبدو ، لا بصفته موظفا استعماريًا ، وعقد مع الملك معاهدة تجارية باسم مدينتي مرسيليا ومونبيلييه وجاليات بروفانسية أخرى (٦) . ومع ذلك فإن اجتماع البروفانسيين تحت إدارة فنصل مشترك لم يكن أمرا نابئا بقدر ما هو ثابت في مدينة صور . وقد رأينا أنهم كانوا في عكا يقطنون في شارع واحد ويترددون على كنيسة واحدة ، الا أن المستوطنين من مرسيليا (٧) ، ومن مونبيلييه (٨) ، كان لهم ثمة قناصلهم . وقد حصل المرسيليون في بيروت ومستوطنو مونبيلييه في طرابلس بموجب معاهدات خاصة على حقهم في أن يكون لهم قناصلهم (٩) .

Bonaini, Stat. pis. I, 51, 334 et s. (١)

Doc. sulle relaz. tox. p. 65, 91, (٢)

Ib. p. 90. (٣)

(٤) لا ندرى كيف كانت المدن الأربع توزع فيما بينها هذه الأماكن القنصلية الستة أو السبعة .

Méry et Guindon, 1, 190 et s. (٥)

Ibid. 1, 419 et s. (٦) سوف نتكلم فيما بعد فيما يختص بقبرص .

Méry et Guindon 1, 194 et s., 419; Bibl. de l'école des chartres 2e série, 111, p. 210. (٧)

Bibl. de l'école des chartes, 1, c. (٨)

Méry et Guindon I, 287 et s.; Germain, Hist. de la commune de Montpellier 11, 513 et s. (٩)

وقد أتيح لنا من قبل أن نلمس عرضا مسألة القناصل هذه ، وقلنا انه كان من غير المقبول عند ملوك الامارات الصليبية أن يكون عندهم قناصل تكفل لهم بعض المعاهدات حرية التصرف باعتبارهم قناصل قادمين من بلاد بعيدة ، ومن ثم لا يهتمون في أداء وظائفهم الا بتعليماتهم الخاصة ، وتصديق أعضاء مجالسهم . وانا لنزداد شعورا في غضون الفترة التي ندرسها باهتمام أمراء سوريا بانتزاع الأشخاص والمسائل القانونية من القضاء القنصلي ، واحالتها الى المحاكم الاقليمية وكانت المعاهدات المبرمة في الأصل تقوم عقبة كؤود في سبيل تحديد سلطة القضاء القنصلي على هذا النحو ، سواء بصفة رسمية أو ضمنية ، وكانت تنص على أن يحال الى القناصل كل الأفراد المقيمين في دائرة القرية ، مهما كانت جنسيتهم (١) ، وبالنسبة الى كل الجرائم على اختلاف أنواعها ودرجة خطورتها . ولوضع حد لهذا الوضع ، لم يكن أمام الأمراء من سبيل سوى استخدام القوة . فقيما يختص ببعض الأشخاص ، بدأ بعض ملوك الفترة الأخيرة بأن يعلنوا بان يخضع السوريون واليهود المقيمون في الثلث البدقي في صور لمحاكمهم الخاصة ، وكان هذا الحكم غير قانوني بشكل صارخ ، ولم يكن ثمة بد من الغائه . أما يوحنا دو مونفور أمير صور فانه كان أكثر فطنة ، اذ تعامل حسب الأصول مع البندقية ، وتوصل بهذه الطريقة في عام ١٢٧٧ الى أن ينتزع من القضاء القنصلي الاتباع والبورجوازيين من رعاياه المقيمين في هذا الثلث (٢) . وبالنسبة الى الجرائم ، وضع حدا لاختصاص المحكمة القنصلية في صور لفترة ما . فقد انتزع مرسوم لأحد ملوك القدس لا نعرف اسمه من اختصاص هذه المحكمة حالات السرقة والقتل . وفي فترة لاحقة لم يعد هناك أثر لهذا القيد ، ورأينا « البابل » مرسيليو جورجيو يتولى دون نزاع محاكمة اللصوص والقتلة . ولم يتردد يوحنا دو مونفور البتة في أن يمنح البنادقة القضاء المدني والجنائي دون أي قيد (٣) . غير أن الجالية البندقية في صور كانت محمية في كل الأحوال بالشروط الملائمة لها بنوع خاص والواردة في معاهدة عام ١١٢٥ . وفي الفترات اللاحقة ، وبخاصة تلك التي نحن بصدددها ، في المعاهدات المبرمة بين بعض أمراء سوريا وبعض أمم الغرب التجارية ، كان الأوائل يحتفظون دائما لأنفسهم بالحق في أن يحيلوا الى محاكمهم المسوطنين المتهمين بجريمة قتل ، استنادا الى قوانين مملكة القدس التي تتضمن نصا صريحا يحيل الى محاكم الملك كل المستوطنين المتهمين بجريمة قتل (٤) . وكان الماركيز كونراد دو مونفور يصرح لمواطني جنوا المقيمين في صور بأن تتولى محاكمهم الخاصة الفصل في المسائل

Taf. et Thom. J. 88.

(١)

Ibid. 11, 358 et s.

(٢)

Ibid. 111, 152; Doc. sulle relaz. tox. p. 14; Lib. jur. I, 433.

(٣)

Taf. et Thom. 11, 358; 111, 152.

(٤)

المتعلقة بالواقع كلما كان أحدهم متهما بالقتل أو السرقة أو الاختلاس ، وهذه حالة استثنائية (١) . غير أن فيليب دو مونفور الذى جاء بعده دفع بروح المصالحة الى أقصى حد بأن ترك للمحكمة الجنوية حق اصدار الحكم حتى بالنسبة الى أخطر الجرائم ، ولم يحتفظ لنفسه الا بحق التنفيذ (٢) .

وثمة ساحة خصبة للنزاع بين السلطات الاقليمية والسلطات القنصلية ، تلك هى ساحة الشرطة . ففي البداية كان المسلم به أن الجالية وحدها هى المكلفة بالاشراف على التجارة وضمان الأمن العام فى داخل حيفا ، ومع ذلك فمن عهد يوحنا دو برين Jean de Brienne ، أى منذ عام ١٢١٠ ، أجاز رئيس الشرطة الملكية فى صور لنفسه أن يتدخل فى مراقبة الأسواق ، حتى فى حى البنادقة ؛ واشتكى البايل مرسيلىو من هذا التعدي على حقوق أمته ، وطرد الدخيل ، واستبدل به رجال شرطة خصوصيين من الجالية (٣) .

وأخيرا ، فان الاعفاء من القضاء الاقليمى جلب ضمنا للمستوطنين ذات الحق بالنسبة الى المحاكم الخاصة المقامة فى موانئ مملكة القدس للفصل فى المنازعات المتعلقة بالجمارك ، وكانت هذه المحاكم تسمى « محاكم السلسلة » Cour de la chaîne ، ويرجع هذا الاسم الى العادة المنتشرة خاصة فى الشرق

Diplôme de 1190, Lib. jur. I, 358. (١)

Diplôme de 1264, Archiv. de l'Or lat. II, 2, p. 225 et ss. (٢)

— هذه الوثيقة حافلة بالمعلومات . ففي فقرة أخرى نرى أن الفصل بين القسم من المدينة الخاص بالمركز دو مونفور وبين الحى الجنوى لم يكن فصلا تاما بحيث لا يستطيع جنود الشرطة فى قسم أن يمروا فى القسم الآخر ، ولكن اذا قبض جنود البارون على متهم ، وصرح بأنه ينتمى الى الجنسية الجنوية ، كان عليهم أن يسلموه الى الملكة القنصلية ، والعكس بالعكس .
(٣) Taf. et Thom. II, 359 et s.

— كان موظف الملك هذا يسمى بالمحتسب ، ويدل هذا الاسم بذاته على أن هذا النظام كله كان موروثا من النظام العربى . فالمحتسب عند العرب شخص تصادفه فى كل حين . وما علينا لى نقنع بذلك الا أن ننتفض نقرات الكتاب الشرفيين ، وأوصاف الرحلات فى الشرق الأدنى ، الى جمعها كاترمير Caatremère فى كتابه عن تاريخ سلاطين الممالك للمقريزى ، الجزء الأول ص ١١٤ ، وكذلك :

les commentaires de Behrnauer dans les Journ. asiat. 4e série, XVI, p. 118 et ss., 347 et ss.; XV11 5 et ss.; ainsi que ceux de Freund dans L'ausland, 1879, p. 461 et ss.

— كان للملك بيت المقدس محتسبون ، وفيما بعد ادخل ملوك قبرص هذا النظام فى حيزتهم وبقوا هذا النظام حتى عصر السادة الفنسية . انظر :

— l'Abrégé originaire de Chypre, dans le Suppl. des Assises de Jérusalem II, 237 et s., 243 et s., Lusignano, Corograffia di Cipro p. 80 ; de Mas-Latrie, Hist de Chypre 111, 206 et s., 853; Romanin VI, 281.

يخلق مدخل كل ميناء بسلسلة ممتدة بين برجين (١) . فحين تدخل بضائع في البلد عن طريق أحد هذه الموانئ ، كان يقال انها وردت « عن طريق السلسلة » ، وكانت الدخول الجمركية المقررة في تلك الموانئ تسمى introitus catena (٢) (دخول السلسلة) وعلى ذلك فان عبارة Cour de la chaîne محكمة السلسلة كانت تطلق على محكمة تتولى الفصل في القضايا المتعلقة بالميناء ، أى بجمرك الميناء (٣) . وكان رعايا الأمم صاحبة الامتيازات معافين من قضاء هذه المحاكم ، اما بمقتضى عرف ، واما تنفيذا لنص صريح في المعاهدات ؛ وكانت هذه هي حال الجنوبيين في عكا ، وترجع الوثيقة التي تعنيهم الى عام ١١٩٥ (٤) . ورغم هذه الحقوق المكنسية ، فان الكونت توماس دى اسيرا Thomas de Acerra المبعوث من قبل فردريك الثاني ليمثله في سوريا عام ١٢٢٧ أحال البيزيين الى محكمة ميناء عكا . ورأى قناصل بيزا في هذا التصرف اعتداء على حقوق المستوطنين ، وحصلوا من الامبراطور في عام ١١٢٩ على الغاء هذا الاجراء (٥) وفي المسائل الجمركية ، كان البيزيون على حق لأن يظهرها حساسية وريبة لأنهم كانوا يتمتعون في عكا وصور ويوبية بامتياز خاص مؤداه أن يقيموا بجمرك الميناء ، وبالسوق العامة ، وأبواب المدينة موظفين يختارونهم ، يكلفون برقابة سلوك موظفي الخزانة الاقليمية مع مواطنيهم ، ووضع حد للمطالب غير المشروعة (٦) .

هذا الموضوع ينقلنا من مجال القضاء والادارة الى مجال المالية . وهنا أيضا نجد فروقا كبيرة بين مختلف العصور . فبمقتضى المعاهدات الأولى المبرمة مع الملوك ، كان البنادقة والجنويون يتمتعون في مملكة بيت المقدس بالاعفاء التام من الرسوم الجمركية عند الدخول والخروج ، ومن رسوم الانتاج على المبيعات والمشتراوات (٧) . وقد منحوا هذا الامتياز اعترافا بخدماتهم في الحروب ضد المسلمين . وفيما بعد حصل المرسيليون على هذه الامتيازات للأسباب

- Theophanes, Chronogr. p. 567 ; Istachri, p. 68 ; Cheuseddin, les (١)
 Nouv. annal des voyages, 1864, II, 293; Ibn-Batouta, I, 131, 183; Benj. de Tudél., I, 63; Guill de Tyr, XX, 16; Contin. Guill. de Tyr, p. 108, 266, 326 et s; Sanuto, p. 171; Chron. Ursperg. dans Pertz, SS, XXIII, 300
 Taf et Thom. II, 231; Lib. jur. I, 358, 401, 665; Taf et Thom. I, 141; (٢)
 Doc. sulle relaz. tox. p. 33; Archiv. ed l'Or. lat. II, p. 145, 166 et s. Beugnot, Assises de Jérusalem, II, Introduction, p. xxiii. (٣)
 Lib. jur. I, 411. (٤)
 Doc sulle relaz. tox. p. 96. (٥)
 Doc sull relaz. tox. p. 27, 29, 30, 37, 38 ; Assises de Jerus II, p. xxiv, 171, 173 et s., 178 485; Taf, et Thom. I, 86, 141; II, 231, 397; Lib jur. I, 358, 401, 665; Doc sulle relaz. tox. p. 33. Méry et Guindon I, 288; Histoire de la commune de Montpellier II, 514; Paoli, Cod. dipl. I, 103, 122, 130; Archiv. de l'Ar. lot. II, 2, p. 144, 146, 147, 167; Strehlke, Tab. ord. teuton p. 6-8, 13 et s., 17, 52-55, 75.
 Lib. jur. I, 16; Taf. et Thom. I, 86. (٧)

ذاتها (١) . ومع ذلك ، وبمرور الزمن ، نناسى بعض الملوك التزاماتهم الأدبية قبل هذه الدول البحرية ، فلم يروا في هذه الامتيازات سوى شيء واحد ، ذلك هو الاعفاء الممنوح بنوع خاص للأمم الأكثر ثراء ، وما يترتب على ذلك من نقص في الخزانة . ومن ثم عكفوا على الحد من هذا الاعفاء ، وهاجموه من جهتين في وقت واحد . فمجموعة قوانين بيت المقدس Assises de Jérusalem وضعت كمبدأ أن البضائع المصدرة برا من المملكة الى بلاد اسلامية يجب أن يدفع عنها رسم ، وحدد هذا الرسم بالنسبة الى البيزنطيين بمقدار « كاروبل » Carouble واحد ، أى $\frac{1}{4}$ من لدينار البيزنطي (٢) . ولما كان البنادقة يتمتعون بإعفاء مطلق ، فلم يكن من الجائز تطبيق هذه المادة عليهم . ومع ذلك فرض عملاء الملك ضريبة على البضائع التي يصدرها التجار البنادقة من عكا الى دمشق أو الى مدن اسلامية أخرى (٣) ، وطبقوا الاجراء ذاته على الجنوبيين . وطبقا لمرسوم بتاريخ ١١٩٢ فرضت عليهم ضريبة عند انزالهم من البحر بضائع واردة من بلاد اسلامية أو مرسى ببلاد اسلامية ، وبيعهم هذه البضائع في صور (٤) . ومن جهة أخرى كان عملاء الملك في القرن الثالث عشر يقتضون رسم مرور على البضائع القادمة في سفن بندقية الى موانئ المملكة ، اذا لم يجد أصحابها من يشتريها وأرادوا إعادة تصديرها الى مكان آخر (٥) كان هذا أيضا تطبيقا غير مشروع ، اضارا بالبنادقة، لنص قانوني خاص بالسوريين والمسلمين (٦) . وشيئا فشيئا ازدادت القيود على مبدأ الحصانة العام ، ووصلت الأمور في عام ١٢٤٤ الى درجة اضطر معها المفوض القضائي le bailli مرسيليو جورجيو الى الشكوى بمرارة : ولا نعلم في الواقع الى أي مدى سمعت شكواه .

قلنا من قبل ان البيزنطيين لقوا منذ البداية معاملة أقل حظوة من المعاملة التي لقيها من سبق لنا ذكرهم ، فلم يتمتعوا بالاعفاء من الرسوم الجمركية ، اللهم الا في مدينة صور التي فضلوا الإقامة بها . وفقط ، بعد انقضاء زمن طويل ، عند استعادة عكا ، واحتلال البلاد التي أعيد فتحها على قواعد جديدة ، حصل البيزيون على وعد بمعاملة أفضل في عكا ويافا (٧) . وليس لدينا ما يحملنا على الظن بأن هذا الوعد لم ينفذ .

Méry et Guindon I, 182, 183 et s., 194 et s.

(١)

Assises, éd. Beugnot II, 174; ibid, 173.

(٢)

Taf. et Thom, II, 398.

(٣)

Lib. jur. I, 405 et s.

(٤)

Taf. et Thom, op. cit.

(٥)

Assises de jérus, II, 174.

(٦)

Doc. sulle relaz. tox, p. 6, et s., 28 et ss.

(٧)

— في عام ١١٥٧ لم يرد الكونت أموري ، كونت عسقلان ، وسيد يافا الى البيزنطيين الا نصف الضرائب التي يدفعونها من قبل .

واقطفى كونتات طرابلس أثر ملوك بيت المقدس ففتحوا الايطاليين الذين كانوا يظهرون كثيرا في البلد ، أى الجنويين والبيزيين والبنادقة (١) الاعفاء من الرسوم الجمركية عند المخول والخروج . وقد رأينا بالنسبة الى أهالي مونييليه أن الرسوم على المبيعات والمشتريات وكذا رسوم التراخيص قد خفضت الى ثلث التعريفة المعتادة (٢) .

وفي امارة أنطاكية ، كان الجنويون وحدهم هم الذين يتمتعون منذ البداية بالاعفاء الكامل من الضرائب المفروضة على التجارة (٣) : وكان البنادقة والبيزيون يدفعون بعض هذه الضرائب التي كانت مرتفعة القيمة ، ومع ذلك فمن كثرة مساومتهم مع الأمراء ، انتهوا الى الحصول أولا على خفض هذه الضرائب ، وأخيرا الى الغائها (٤) . الا أن هذا الاعفاء فقد كل قيمته عند الجنويين والبيزيين عندما فرض الأمير روبن Roupen في عام ١٢١٦ ضريبة ثقيلة على البضائع التي تستوردها هاتان الامتان الى ميناء سان سيمون ، وهو الميناء الذي يصل العاصمة بالبحر (٥) . وأسهم هذا التشدد من جانب أمراء أنطاكية دون شك في أن تقل زيارات التجار الغربيين لشمال الامارات الصليبية حتى صارت نادرة .

قلنا ما فيه الكفاية عن الوضع الداخلي للمستوطنات التجارية ، ولنعد الآن الى تاريخها . ففى غضون هذه الفترة النانية ، وثق الامبراطور فردريك الثانى وسليطان مصر بعض الزمن علاقات قائمة على تقدير متبادل بينهما . وكانت هذه الفترة نسبيا أصح فترة للتجارة ، على الأقل لأن الطرفين كفا عن القتال ، واهتم الامبراطور بنوع خاص بتحسين أحواله . ولسوء الحظ ، فإن المنازعات المسلحة مع ملك مصر القوى - باستثناء هذه الهدنة القصيرة - كانت كثيرة ، وسببت أضرارا كبيرة لسكان سوريا . ومن وقت لآخر ، كان يشار الى وصول جماعة من الصليبيين ، كثيرة أو قليلة العدد الى الأرض المقدسة ، وكان القادمون الجدد يتطلعون الى اكتساب المجد بأدائهم أعمالا باهرة ، وأدى ذلك فى كل مرة الى انقطاع حالة السلم الضرورية مع ذلك لاستمرار بقاء الامارات الصليبية . ولم يكن للجيووش الصليبية القوة والوقت الكافيان لدعم قواعد سيادة المسيحيين فى سوريا ، بل كان كل يوم يمر يزيد من ضعف هذه السيادة ، وتضييق

Lib. jur. I, 18; Doc. sulle relaz. tox p. 25 : Rey, Recherches, I.c. (١)
p. 42.

Germain, Hist. de la commune de Montpellier II, 513. (٢)

Ughelli, It. Sac. IV, 846 et s., 847 et s.; Lib. jur. I, 30 et s., 249 et s. 364. (٣)

Taf. e t Thom. I, 133 et ss., 148, 176; Doc. sulle relaz. tox. p. 6, 15 et s., 80, 90 et s. (٤)

Lib. jur. I, 577; Doc. sulle relaz. tox. p. 90 et s. (٥)

نطاقها ؛ ولم يخف على أحد أنه لابد عاجلا أو آجلا من ترك هذه السيادة للمسلمين . وعجل المسيحيون أنفسهم بوقوع الكارثة بما وقع بينهم من فتن وخلافات كانت طوائف التجار الذين يطمحون في ممارسة نفوذ سياسى ، تسهم فيها بنشاط كبير .

والمعروف أن النزاع بين الجولفيين والجبليين الذى قسم ألمانيا وإيطاليا الى معسكرين متعادين امتد حتى وصل الشرق ، واشتركت فيه الجاليات التجارية هناك بدافع من أوطانها الأصلية . وحين وصل فردريك الثانى الى سوريا فى ربيع عام ١٢٢٨ . لم يكن مجرد قائد جيش صليبي ، ولكنه كان فى الوقت ذاته يطالب بالاعتراف بحقوقه فى تاج القدس ، لذلك استقبل هناك بمشاعر متنوعة : بعداء سافر من البعض ، وبرود متحفظ من البعض الآخر ، وود وإخلاص من الأقلية . وأيده البيزيون ، انصار جنسه القدامى ، رغم اعتداء نائبه توماس دى أسيرا Thomas de Acerra على حقوقهم . ومكافأة لهم على إخلاصهم . وعدهم بتوقيع العقاب على عملائه الذين اجترأوا على الاعتداء على حقوقهم المكتسبة ، وأعطاهم فوق ذلك من كل الضرائب فى عكا والقدس (١) . وفى هذه الفترة كان الجنوبيون أيضا جبليون ، وكان البنادقة وحدهم هم المترددون (٢) . وعند رحيل فردريك الثانى (مايو ١٢٢٩) ترك المارشال ريكاردو فيلانجييري Riccardo Filangieri فى منصب الحاكم : ولما كان هذا الأخير قد اعتاد فى حكمه أن يسلك سلوك القائد ، فانه لم يعمل أى حساب للقانون العرفى بالملكة (وأسفر استبداده عن تدمير الكثيرين ، والتف الغالبية من البارونات والبورجوازيين حول يوحنا ديبلان Jean d'Ibelin ، سيد بيروت ، خصم الحاكم . وقام « بايل » البنادقة وقناصل الجنوبيين والبيزيين بالاتحاد مع بعض الشخصيات بمحاولة للتوفيق (٣) ، ولكن المحاولة فشلت ، وانتهى النزاع الخاص بين ديبلان وبين فيلانجييري الى حرب عامة (٤) .

وإذا لم تكن على يقين من الاتجاه الذى اتخذه الجنوبيون ، فان هذا الشك لم يدوم طويلا : ففي شهر فبراير عام ١٢٣١ أرسل فريدريك الثانى الى نائبه أمرا بأن يقتضى من الجنوبيين عند نزولهم برا فى عكا رسم الميناء ؛ وكان فى هذا اعتداء مباشر على حقوقهم ، ومن ثم رفضوا الامتنال للأمر ، ولما كان تعدادهم

(١) Doc. sulle relaz. tox. p. 96-98, et Huillard — Bréholles, Hist. dipl. Frid, II, III, 131-135.

(٢) Chron. Ursperg, dans Pertz., SS. XXIII, 383; Winkelmann, Friedrich II, I, 389.

(٣) Cont. de Guill. de Tyr, p. 394.

(٤) فى خصوص تاريخ هذه الحرب ، نكتفى بالإحالة الى :

— l'Introduction de M. Huillard-Bréolles, Hist. dipl. Frid, II, à M. de Mas-Latrie, Hist de Chypre I, 254 et ss. et à Winkelmann, Friedrich II, I, 491 et ss.

وقوتهم يجعلهم مرهوبى الجانب ، فان الحاكم لم يجرؤ على تنفيذ الأمر (١) ،
الا أن هذا كان كافيا لأن يظهر للجنويين ما ينتظرهم فى اليوم الذى يتربع فيه
الهوهنشتاوفن على العرش . وفى الفترة ذاتها (١٢٣٢) قام على رأس الحكومة
فى جنوا محافظ معروف بأرائه الجويلفية (٢) ، وتلقى الجنويون فى سوريا
الأمر بالوقوف جهارا ضد الحاكم ، ومن ثم أرسلوا فرقا عسكرية وسفنا الى
يوحنا دييلا (٣) . وفى ٢٤ من أكتوبر ١٢٣٣ عقدوا مع الحزب المعادى
للإمبراطورية معاهدة صدق عليها فى نيقوسيا فى الثانى من ديسمبر من ذات
العام (٤) . وفى هذه المعاهدة التزم البارونات لخمس سنوات ألا يعقدوا أى
تحالف مع البيزيين دون موافقة الجنويين ، وصدقوا على الامتيازات التى منحها
للآخرين يوحنا دييلا رئيسهم فى مدينة بيروت ، وكفلوا لهم امتيازات مماثلة
فى حيفا ، ونعلم أن هذا الميناء الواقع عند سفح جبل الكرمل له بعض الأهمية
التجارية بسبب مجاورته لمدينة طبرية (٥) ؛ وكان رئيس هذه المدينة الصغيرة ،
روهارت الثانى (٦) Rohart II أحد المتعاقدين . وبعد ثلاثة أشهر (١٢ من
يناير ١٢٣٤) منح ثمة للجنويين امتيازات باسمه (٧) . وهكذا جنى هؤلاء ثمار
انضمامهم الى الحزب المنتصر ، فى حين اقتسم البيزيون الحظ السئ الذى لقيه
أنصار الإمبراطور . وكان البنادقة آخر من خرجوا من موقف الترقب . وإذا
كانت جمهورية البندقية لا تميل الى الإمبراطور ، فإنها كانت تنفر من السير مع
جنوا خصمها تحت أعلام واحدة . غير أن البابا جريجوار التاسع نجح فى حمل
الأطراف على قبول وساطته ، وتحت تأثير نفوذه عقدت المدينتان فى عام ١٢٣٨
معاهدة تحالف هجومى ودفاعى موجه بنوع خاص ضد الإمبراطور (٨) . وابتداء
من هذه اللحظة اتخذت البندقية موقفا صريحا ضده . وكان مقر نائب الإمبراطور
فى سوريا فى مدينة صور . وردا على اعلان الحرب هذا ، عامل البنادقة معاملة
الأعداء ، وصادر أموالهم وإيراداتهم فى داخل المدينة وخارجها . وفى عام ١٢٤٣
تقرب « بايل » البنادقة مرسيليو جورجيو الى البارونات وأوضح لهم الخطر من

Annal. Jan. p. 176 et s. ,

(١)

Ibid. p. 178 et s.; Voy. Boehmer, Regesta Friderici II p. 154 et s.

(٢)

De Mas-Latrie, l.c. p. 277, 282, 293, 298; Huillard-Bréholles, Hist. dipl. Frid. II, 1, 2, p. 904.

(٣)

De Mas-Latrie, l.c. II, 56-58.

(٤)

M. de Mas-Latrie (Archives des missions scientif. II, 363), Olivier

(٥)

(Charte et cronache p. 59 et s.),

Canale (Nuova hist. di Genova II, 291); M. Grassi, le Giorn. lig. 1877, p. 22.

Ducange, Familles d'outremer, p. 267 et s.

(٦)

Lib jur. I, 941 et s.

(٧)

Taf. et Thom. II, 341; Annal. jan. p. 189; Winkelmann, Friedrich

(٨)

II II, lère part. p. 119 et s

تحقيق المشروعات التي وضعها فيلانجييري في عكا ، وهي المقر العام للحزب المناهض للامبراطورية (١) . وبناء على الحاحه ، تقرر أولا اتخاذ كل الاجراءات اللازمة للمحافظة على عكا ، ثم انتزاع صور من أيدي فيلانجييري . واذ سلك البارونات هذا المسلك ، فانهم اتخذوا خطوة أخرى باعتبارهم بحقوق اليكس Alix ملكة قبرص في الوصاية على عرش مملكة القدس ، فأقسموا يمين الخلاص لها ولزوجها الناني راؤول دوسواسون Raoul de Soissons . وكان أول عمل قامت به الوصية اعداد حملة لاستعادة صور . وتنفيذا للوعود الصريحة بضمان حقوق البنادقة وأملاكهم في المملكة بعامه ، وفي صور بخاصة . وضع مرسيليو جورجيو تحت تصرف الوصية سفينة حربية ، واشترك بنفسه في الحملة ومعه فرقة مكونة من ثلاثين رجلا . وتم سريعا الاستيلاء على المدينة بفضل بواطئ السكان البنادقة ، واستسلمت القلعة بعد ثمانية وعشرين يوما . وكان هذا آخر نقطة ارتكاز لسلطة آل هوهنشتاوفن في سوريا . وقد أسهم البنادقة بقوة في نجاح الحملة . ولكن بعد أن بذل البارونات الوعود بسخاء ، لم يفوا بعهودهم . وثار الاحتجاج عليهم ، ولم يسترد حلفاؤهم حقوقهم التي طالبوا بها (٢) .

ورغم هذه الأحوال السيئة ، بقي البيزيون أوفياء للحزب الذي انضموا اليه . ولم يحضر قنصلهم المجلس الذي أعلنت فيه اليكس وصية على العرش (٣) . أكثر من ذلك أنه رغم أن نفوذ آل هوهنشتاوفن كان يؤول الى زوال ، فان البيزيين لم تزل عندهم الجرأة لأن يرفعوا علم آل هوهنشتاوفن على سفنهم وهي داخلة ميناء عكا ، بل ويحملوا هذا العلم في طلائع مواكبهم وهي تسير في شوارع المدينة .

كان لطول النزاع الذي عرضناه آنفا رد فعل على القوة التي كان المسيحيون في سوريا في حاجة اليها لمقاومة العدو في الخارج . حقيقة ان

(١) كان عملاء فردريك الثاني التجاريون يمارسون التجارة بحرية في عكا . ففي عام ١٢٣٩ باع واحد منهم فيها أغذية وتبيلدا ، واشترى بثمن البيع أقمشة صوفية ، وأقمشة قطنية خفيفة ، وأوشحة ، وشمل . وكان البعض يشترى في عكا سمكا لحساب الامراطور . انظر : — (Huillard - Bréholles I.c. V, I, p. 587, V, 2, p. 720 et s., 804).

ويبدو بوجه عام أنه كان يوجد في ذاك العصر حركة تجارية بسيطة بين صقلية وسوريا . يجد مثلا أصواف سورية المذكورة ضمن المواد المستوردة في صقلية . انظر : — Ricc. de S. Germano, ad. an 1232, dans Pertz, SS. XIX, 369.

Taf. et Thom. II, 351 et ss.; les Assises de jérus, éd. Beugnot II, (٢) 399 et s.; Cont. de Guill. de Tyr, p. 422, 426 et s.

(٣) لا يجد سوى اسماء السلطات الاستعمارية الجنوبية والفينسية . Taf. et Thom. II, 355.

الجاليات التجارية لم يكن لها هذه المرة الا أقل نصيب من المسئولية ، ومهما كانت أهمية عملهم ابان الصراع ، فانهم لم يكونوا هم الذين استناروه ، ولم يؤدوا فيه الدور الرئيسي . ولكن دورهم حل بعد قليل . ذلك أن تنافس الأمم التجارية ، والمنازعات التي أثارته مسائل الحدود بين أحيائها أسفرت في الكثير من الأحيان عن معارك دامية . ففي غضون النصف الأول من القرن الثالث عشر ، اقتتل الجنويون والبيزيون مرارا في شوارع عكا . وفي عام ١٢٠٣ تمكن القاصد الرسولي الكاردينال بيير دي ماسيللو Pierre de S. Marcello بمشقة من ازالة الخلافات القائمة بينهم (١) . وفي عام ١١١٢ أمكن أيضا عن طريق التحكيم انهاء نزاع نشأ من مسألة خاصة بالملكية (٢) . ولكن في عام ١٢٢٢ تفجرت من جديد العداوة الكامنة ، بعنف أشد من ذي قبل (٣) ، وانهزم البيزيون أول الأمر أمام خصومهم ، واضطروا الى التقهقر ، ولكنهم أشعلوا حريقا اتهم قسما كبيرا من المدينة ، وعددا من المباني الأثرية . من بينها برج مرتفع وجبل يملكه الجنويون الذين أخطأوا في تصرفهم ، فانصرفوا عن القتال وهرعوا لانتقاذ أملاكهم . واستغل البيزيون هذا الخطأ . يساندتهم الملك ، وعاودوا الهجوم ، وسحقوا بدورهم خصومهم . وفي أعقاب هذه الأحداث أرسلت حكومة جنوا أسطولا الى سوريا ، ولكنها لم تستطع الحصول على التعويضات التي طالبت بها عن الخسائر والأضرار التي سببها الحريق (٤) . وغضب الجنويون من ذلك ، وامتنعوا لعدة سنوات عن زيارة ميناء عكا ، وظهر أثر ذلك في هذا الموقع وفي سائر أنحاء المملكة . وبسأل الأمبراطور فريديريك الثاني مساعيه لدى الجنوبيين لحملهم على العودة الى ممارسة تجارتهم في هذه الناحية . ولم يستجب الجنوبيون أول الأمر ، بل قدموا شكواهم من ضروب الظلم التي ارتكبت في حقهم ، ومع ذلك امتثلوا أخيرا ، وضمن لهم الأمبراطور ترحيبا طيبا بهم في عكا (٥) . وفي عام ١٢٤٩ عادت المنازعات الى سيرتها الأولى من جديد بين الأمتين ، ونشب بينهما القتال واحدا وعشرين يوما بكل أنواع الآلات الحربية ، وانهزم الجنوبيون ، وقُتل في المعارك أحد قناصلتهم . وأخيرا توسط بين المتحاربين يوحنا ديبلان ، سيد أرسور Arsour ، ونائب ملك قبرص ، وانتهت وساطته بعقد هدنة لمدة ثلاث

(١) Innoc. III, epist., éd. Bréquigny, et du Theil, Diplom. ad res Francicas spectantia, 2e part. T.I, p. 408 (cf. gesta Innoc. ibid. p. 96, not. 2).

(٢) Luenig. Cod. dipl. Ital. I, 2459 et s.

(٣) عن « بابل » البنددية حكما ، ولكن السردن ، رفضوا الامتنال لحكمة . أنظر — Canale, Nuova storia di Genova, II, 297.

(٤) Annal Jan. page. 150; Rancioni, Istorie pisane, dans l'Archiv. stor. ital, VI, I, p. 491 ; Troner, Annali pisan, p. 184.

(٥) رساله الى سكان عكا ، من كتابنا في ٢٨ من مارس ١٢٢٤ . أنظر في : — Winkelmann, Acta imp. ined. soec. XIII, p. 241).

سنوات (١) . ولم يكن هذا التنافس هو الوحيد الذي خضب شوارع عكا
بالدماء : ففي أواسط القرن الثالث عشر ، جرت مشاحنات بين تجار مونيبييه
وبين المستوطنين المرسيليين أدت الى اثاره الشقاق بين المدينتين (٢) .

أما من حيث عدد المتقاتلين ، وضراوة الصراع ومدته وخطورة النتائج ،
لم تكن الاشتباكات التي ذكرناها آنفا شيئا الى جانب الحرب الاستعمارية
الكبرى التي نشبت عام ١٢٥٥ واستمرت ضارية عدة سنين في جميع أنحاء
سوريا . كانت البندقية وجنوا تعيشان زمنا طويلا في سلام ، وفي عام ١٢٥١
جددت الجمهوريتان لثمانى سنوات معاهدة صداقة موضوعها حل كل ما بينهما
من خلافات بالطرق السلمية (٣) . وفي سوريا كان الوثام يسود مستوطناتهما
طالما اشتركتا في اضعاف نفوذ آل هوهنشتاوفن . وعندما تحقق هذا الغرض ،
استيقظت الغيرة التي كانت كامنة في النفوس . ففي الوقت الذي كان فيه
سيمون مالوتشيللو Simone Malocello يتولى مهام قنصل جنوا في
عكا (٤) ، قتل جنوى بيد أحد البنادقة ، فثارت ثائرة مواطني القنصل ، وهرعوا
الى الأسلحة ، واجتاحوا حي البنادقة ، واعتدوا على سكانه . وتقول « الحوليات
الجنوية » أنه من ذاك الحين أشتهد الحق في نفوس البنادقة ضد الجنويين ،
وكان يكفي أصغر الأشياء لاثارة مشاعرهم المتحفزة على الدوام (٥) . وكان لابد
لمثل هذا الوضع أن يؤدي الى نشوب الحرب ، غير أن المصادر تذكر أسبابا
أخرى لهذه الحرب .

كانت الأراضي التي تحتلها الأمان في عكا مفصولة عن بعضها بعضا بتل
يسمى « مونجوا » Montjoie (٦) ، يعلوه مباني دير مكرس للقديس
ساباس Sabas (٧) ، وادعى كل من البنادقة والجنويين أن لهم على هذا

-
- (١) Contin de Guill. de Tyr, 1, 437; Sanut, Secr. fidel. cruc. p. 218; Epist. Odonis, dans d'Achery, Spicileg. III, 627, Guill. de Mangis, dans le
Recueil des hist. de France, XX, 368.
(٢) Vic et Vaissette, Hist. de Languedoc, éd. du mèg, VI, 514 et ss.; voy. Germain, Hist. du commerce de Montpellier I, 222.
(٣) Annal, Jan. p. 138, Lib. jur. I, 1090 et ss.; 1099 et s. Giov. di Bolgaro
(٤) كان مالوتشيللو قنصلا مرتين ، الأولى في عام ١٢٤٩ مع
ومرة ثانية في عام ١٢٥٠ مع Ogerio Ricci . انظر :
— Arch. de l'Or. lat. II, 2, p. 215, 222.
لذلك فان تاريخ حادث القتل هذا غير مؤكد تماما .
(٥) Annal, Jan. p. 238.
(٦) انظر خريطة عكا في كتاب Sanuto ، وقد اشير الى موقع هذا التل بكلمة Auonzoja
— Mar da Canale, Cronaca Veneta (Arch. stor. it VIII), p. 454, 729.
not. 177; Dondolo, p. 367.
(٧) Le contin. de Guill de Tyr, p. 443, 634, et Da Canale p. 454.

الدير حقوقا ثابتة في وثائق رسمية (١) . وأخيرا استولى الجنويون ذات يوم (١٢٥٦) بقوة السلاح على الدير موضوع النزاع ، واستقر بهم المقام فيه ، وأغاروا على حى البنادقة (٢) . وفي ظروف مماثلة ، تكرر النزاع : فثمة خلاف تار بخصوص سفينة ، استغله الجنويون في الاستيلاء على كل سفن البنادقة الراسية في الميناء (٣) ، وبمساندة البيزيين ، مساندة قوية ، ضغطوا على خصومهم ضغطا شديدا حتى كادوا يلغون بهم خارج المدينة (٤) . ولم يكتف الجنويون بذلك ، بل اقنعوا فيليب دي مونفير سيدة صور ، بدسائسهم ، أن يطرد منافسيهم من الثلث الذي كانوا يملكونه في المدينة (٥) . وبلغ سخط البنادقة ذروته ، وحاولت حكومة جنوا أن تعقد صلحا ، ولكن البنادقة لم يستمعوا إليها (٦) ، وكان السلاح هو الوسيلة الوحيدة الكفيلة بالفصل نهائيا في النزاع . ولم يكن من شأن الاستعدادات للقتال أن تنسى البنادقة الوسائل الكفيلة بأن تضمن لهم النجاح . ففي عام ١٢٥٧ تقريبوا الى البيزيين ، واقنعوهم بالتخلي عن تحالفهم مع جنوا ، وعقدوا معهم معاهدة تحالف هجومي ودفاعي (٧) ، واستطاع بايل البندقية ماركو جستينياني Marco Giustiniani وهو مفاوض قدير ، أن يكسب في عكا نفسها حلفاء أقوياء ، منهم يوحنا ديبلان نائب ملك قبرص الذي كان فيما مضى يؤيد الجنويين ، وشخصيات أخرى ذات نفوذ . وانقسمت المدينة حزبين متميزين : فكان مع البنادقة بطريرك القدس ، وفرسان الهيكل ، وفرسان التيوتون ، والجالية البروفانسية (٨) . وكان مع الجنويين فرسان القديس يوحنا ، وتجار انكونا وكتالونيا (٩) ، ثم ان البلد كله كان يؤيد أيا من الطرفين .

(١) Sanut, p. 220; Dandolo, p. 365; Lib. jur. I, 1097 et s., 1098 et s.,

année 1251.; Contin de Guill, de Tyr p. 634;

(٢) Contin, de Guill, de Tyr, p. 448; Sanuto, I.c.; Dandolo, I.c.

(٣) Annal (J. and, I.C. : Dandolo, p. 365:

(٤) Contin de Guill, de Tyr, p. 443; Sanut, I.c.; Dandolo, I.c.; Annal, Jan, p. 239.

(٥) Dandolo, I.c.; Taf et Thom, II, 354 et ss.; Assis de Jérus, II, 400;

Contin, de Guill de Tyr, p. 423; Mas-Latrie, I.c. p. 338.

(٦) Annal Jan, p. 238; Mart, da Canale, p. 454; Dandolo, I.c.

(٧) Dal Borgo, Dipl. pis, p. 72 75; Dand, p. 365, 373.

— تجددت هذه المعاهدة فيما بعد . انظر

— Murat, Antich, tal, IV, diss. 49, col. 403 et ss.

(٨) معاهدة الصداقة التي عقدها الباييل ماركو جستينياني والاميرال البندقي لورنزو بيبوللو

مع قنصل مرسيليا في عكا ، صدق عليها في أكتوبر ١٢٥٩ دوق البندقية بشرط تصديق مدينة

مرسيليا . وكان مندوب من قبل شارل دانجو شاعدا على تحرير المعاهدة بصفته ممثلا لسيد

مرسيليا ، وخبز الشخص نفسه التصديق على المعاهدة . انظر :

— Coll. des doc, inéd., Mélanges historiques, III (1880) p. 11-14.

(٩) Cont. de Guill de Tyr, p. 445, 633; Da Canale, p. 460; Dandolo,

p. 366 et s.; Chron. Pis. dans Murat, VI, 192; Lib. jur. I, 1272; Annal.

Jan. p. 239, not. a, 240.

وكان الجنويون على علم بمناورات خصومهم ، ولم يكونوا يجهلون أن البنادقة يضمّنون لأنفسهم الامدادات بفضل تحالفاتهم ، فى حين أنهم (أى الجنويين) يجدون مشقة كبيرة فى استمالة بعض الحلفاء ، الذين هم أصلا حلفاء ضعاف ، لا جدوى منهم (١) . ومع ذلك عقدوا العزم على المضى فى الكفاح الى النهاية ، وبدأوا بمعاقبة البيزين لتخاذلهم ، فدمروا برجهم القديم (يقول البعض برجين) . وبعد هذا أعدوا عدتهم لمقاومة أسطول البنادقة الحربى المنتظر وصوله (٢) . ولكن خاب سعيهم ! ذلك لأن الأميرال لورنزوتيبولو Lorenzo Tiepolo أطلق سفنه بأقصى سرعة على سلسلة الميناء فحطمتها ، ودخل الميناء حيث تنتظره السفن الجنوية ، فاستولى عليها ، وأشعل النيران فيها ، ثم أنزل جنوده برا ، واستولى عنوة على الميناء المحصن الذى أقامه الجنويون أمام كنيسة القديس ساباس ، وأشعل فيه النار . وفى اليوم التالى واصل هجومه على الحى معززا ببنادقة عكا الذين أحضرهم البابل ماركو جستنيانى ، واستولى على شوارع مستوف كان الجنويون قد انتزعوه من البنادقة فى بداية الحرب (٣) . ولما سيطر على الحى الجنوى ، مد غزوه الى مون موزار Mont Musard (٤) ، أى على قسم كبير من المدينة . ويرجع أنه وجد فى صفوف أعدائه الكثير من سكان المدينة ، وأراد أن يعاقبهم . وحين وصل الى هناك توقف ومنح العدو هدنة لبضعة أيام . واستغل الأسطول الجنوى فترة الراحة هذه فجمع فى صور تحت امرة باسكوييتو ماللوني Pasquetto mallone وفى نهاية الهدنة ، طارد تيبولو الأسطول ، وهاجمه على رأى من صور ، واستولى على سفينة القائد ، وثلاث سفن حربية ، وأصبح الأميرال الجنوى أسيره . وفى هذه الأثناء أغار البنادقة فى عكا على برج محصن يدافع عنه الجنويون ، واستولوا عليه (٥) .

وللتعويض عن هذه الهزائم ، عزم الجنويون على النضال ، وأطلقوا أسطولا قويا تحت امرة روسو ديلا توركا Rosso della Turca ، وأرسلت البندقية من ناحيتها تعزيزات كثيرة الى أسطولها . وأفضت بنا رواية هذه الاحداث الى عام ١٢٥٨ ، وكانت الحرب محتدمة منذ ثلاث سنوات ، وتهدد باتساع نطاقها

Annal. Jan. p. 240.

(١)

Ibid. p. 239; Dandolo, p. 365 et s.; Da Canale, p. 454, 456.

(٢)

Da Canale, l.c.; Dand. Annal Jan. p. 238.

(٣)

Da Canale, p. 456; Dandolo, p. 366.

(٤)

— كانت مون موزار ضاحية من ضواحي المدينة : انظر خريطة عكا فى مؤلف سانوتو ،

les Chartes dans Pooli, Cod. dipl. I, 254, et dans Strehlke; Tab.

ord. teuton. p. 73, 83, 117; Contin. de Guill de Tyr, p. 438.

ed de la Vie de S. Loris ... dans les Rec. des hist. de France, XX, 68, 103.

Da Canale, p. 456-460; Dand p. 366.

(٥)

أكثر فأكثر . وقاست مدينة عكا أهوالا كبيرة . فالواقع ، أنه بالإضافة الى البيوت التي احترقت خارج الأحياء التجارية ، ركب المحاربون من خمسين الى ستين آلة حربية دمروا بها القسم الأكبر من الأبراج ، وعددا كبيرا من المنازل ، وبابل من القذائف الحجرية الضخمة . وقد قدر أنهم أهلكوا ما لا يقل عن ٢٠٠٠٠ نفس في المدينة (١) . وبدأ الرأي العام يشعر بالقلق ، وشاع الخوف من أن يغدو استمرار هذا الحال خطرا على وجود الجاليات المسيحية كلها في سوريا . وبهذا الشعور اتجه بعض الشخصيات الكبيرة في البلد ، من رجال الدين ، والعلمانيين الى البابا الكسندر الرابع ، والتمسوا منه أن يفرض وساطته لعقد الصلح (٢) . واستدعى الكسندر مندوبين عن الأمم المتحاربة الثلاث للاجتماع في فيتربر Viterbe في ٣ من يولية ١٢٥٨ ، وحررت ثمة وثيقة يبدو أنها مقدمة لحل مناسب . وتعهد كل من الأمم المتعاقدة ، عن طريق مندوبها أن تسلم الى مندوب مفوض من البابا - الى أن يتيسر لهذا الأخير أن يجد الوسيلة الكفيلة بإزالة كل العقبات - الأبراج والقلاع التي تملكها في عكا ، دون استثناء ، وأن تنتظر قرار البابا ، وتقبله بامتثال مطلق (٣) (*) .

وبعد توقيع الاتفاقية مباشرة ، بعث البابا الى بيزا رئيس أساقفة سينا حاملا رسالة بابوية يناشد فيها السلطات أن توقف للتو الأعمال الحربية ضد الجنوئين ، وأن تبلغ قناصلها وقادة أساطيلها ، وكل البيزين المقيمين بسوريا ، عن طريق بعثتها القادمة في شهر أغسطس على أكثر تقدير ، وقف الأعمال الحربية ، ووصول قاصد رسول عن قريب ، مكلف باعداد الشروط النهائية للصلح . وفي سبيل الاسراع في تنفيذ هذه الأمور ، رجا البابا حكومة بيزا في هذه المناسبة أن ترسل دون ابطاء تعليماتها الى عملائها في سوريا بشأن المفاوضات التي سوف تبدأ هناك . واستلمت جنوا والبندقية رسائل مماثلة (٤) .

وطبقا لتعليمات البابا ، أرسل مبعوثان بندقيان على سفن جنوية ، ومبعوثان جنويان على سفن بندقية ، بمهمة اعلان الصلح . ولكن منذ بدء قيام الرحلة ، في « زارا » تلقت السفن البندقية نبأ بأن الأحداث تتلاحق سريعا في الشرق ، وأن كل شيء قد انتهى (٥) . وحاكم ما حدث : ففي حين كانت المفاوضات جارية في أوروبا ، انتهز بندقية عكا فرصة وصول جزء من امداداتهم فاستولوا على

Annal. Jan. p. 239; Da Canale, p. 462; Dandolo p. 366. (١)

Annal. Jan. p. 230; Cont. de Guill. de Tyr, p. 635 (٢)

Annal. Jan p. 238. (٣)

(*) كتب Viterbe مدينة باداليا ، بلاتيوم - الترجمة

Lib. jur. I, 1271 et ss. ; Annal Jan. 1.c.; Da Canale, p. 476; Dandolo, (٤)
p. 367

Raynald, Annal eccles. XXII, 30 et s.; Dal Borgo, Dipl. pis, p. 184 (٥)
et ss. ; voy. Posse, Analecta vaticana, p. 13.

ما كان بافيا في أيدي الجنويين خارج حيزهم ، واحتلوا مون موزان ، وكان أسطولهم الكبير في حالة جيدة ، ويستطيع أن ينتظر بهدوء وصول أسطول روسو ديلا بوركا الذي أبحر من صور في ٢٣ من يونيو ١٢٥٨ ، وانجه الى عكا ، كما اتخذ فيليب دي مونتفوري الوجهة ذاتها عن طريق البر ومعه حاشية كبيرة من الفرسان (١) . وفي ٢٤ من يونيو (٢) خرج الأسطول البندقي ، وعدده ٣٨ أو ٣٩ سفينة حربية تحت إمرة لورنزوتشيبيولو ، واندريا زينو ، من ميناء عكا للملاقاة الجنويين . وكان البيزيون تحت قيادة الكونت جويوم (وليم) دو كابراريا Guillaume de Capraria (٣) ، وسار البروفانسيون تحت راية البندقية : وعلى هذا النحو كان الجنويون يواجهون قوات تفوقهم كثيرا . وبعد معركة ضارية ، فروا هاربين في غير انتظام ، تاركين في أيدي عدوهم أكثر من نصف سفنهم (٤) ، وفقدوا أكثر من ١٧٠٠ رجل ما بين قتييل وأسير (٥) . وكانت نكبتهم أشد لو لم تهب ريح ملائمة سهلت هروبهم .

وبينما كان الأسطول يقاتل بحرا ، صد بايل البندقية في عكا هجوما شنه الجنويون . وعندما شهد هؤلاء من فوق برجهم هزيمة أسطولهم ، أدركوا أن موقفهم غدا ميئوس منه ، خاصة وإن حليفهم فيليب دو مونتفوري قد توقف ، وعاد في طريق صور (٦) . وعلى ذلك عزم الجنويون على التخلي تماما عن مستوطنهم في عكا (٧) وتحويله الى صور ومعه قنصلهم . ومع رحيلهم تركوا حيزهم والبرج المحصن الذي شيدوه على تل مونتجوا ، تركوا كل ذلك للبنادقة والبيزيون الذين دكوا البرج وهدموا المنازل (٨) ، ثم اقتسموا الموقع فيما بينهم على

-
- (١) Annal Jan. p. 239; Da Canale p. 464-468, 472; Sanut. 1.c. p. 221.
 (٢) Chronique des Pisans, Murat 1.c.p. p. 221; les Annales génoises; Dandolo p. 361; Wilken (Kreuzz. VII, 397, not. 37); Dandolo, p. 251; Da Canale, p. 527, 742; Flamin. Cornel. Eccl Venet. X, 69 et s.; XI, 399. Chron. Pis. dans Murat 1.c.
 (٣)
 (٤) كان الأسطول الجنوي يضم (بما فيه المدد القادم من صور) من ٤٤ الى ٤٨ سفينة حربية ، استولى العدو على ٢٤ - ٢٦ منها ، أنظر :
 — Da Canale. p. 468, 470; Dand p. 366 et s. Sanut, p. 22; Annal. Jan. p. 240; Jac. de Voragine, dans Murat, IX, 149; Contin. de Guill. de Tyr, p. 557.
 Contin. de Guill. de Tyr, op. cit : Sanuto, op. cit. ; Mart. da Canale, (٥)
 — مارت . دا كانالي هو الذي يعطي أدق الأرقام .
 Da Canale, 470, 472.
 (٦)
 Annal. Jan. p. 240; Dandolo, p. 367; Le contin. de Guill. de Tyr, (٧)
 p. 443.
 Contin. de Guill. de Tyr, p. 443 ; Annal Jan. p. 240 ; Cieogna, Inx. (٨)
 venez. I, 371-390, 251.

مايبدو (١) . ولما كان البنادقة والبيزيون منتصرين ، فانهم لم يشاءوا مع ذلك أن يحرموا خصومهم حرمانا تاما من مزاولة التجارة في ميناء عكا ، على ألا ترفع أية سفينة جنوية علمها حين تدخل الميناء : ومن ثم يبدو أن الجنويين لم يكن في وسعهم أن يزوروا الميناء كثيرا .

ولم يترك انتصار البنادقة الحاسم للبابا أية فرصة للتدخل مؤقتا (٢) . حقا ، لقد أوقف البنادقة ارسال التعزيزات الى الشرق ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك اكراما لخاطر البابا ، وانما لأنهم لم يعودوا في حاجة اليها . ومع ذلك فانهم بناء على طلب البابا ، أطلقوا سراح الجنويين الذين أسروا في موقعة عكا (٣) ، ولم يكونوا على استعداد للتفاوض أو تقديم أية تنازلات . ورغم كل شيء لم يعدل البابا عن ارسال مبعوث الى سوريا : ففي عام ١٢٥٩ تقدم توماس انبي دي لنتينو Thomas Agni de Lentino ، وهو راهب دومينيكاني ، يحمل لقب أسقف بيت لحم ، تقدم الى عكا بصفته هذه (٤) ، ولكنه صادف متاعب جمّة كان لا بد له من التغلب عليها لكي يحقق مهمته السلمية . وأخيرا في شهر يناير عام ١٢٦١ نجح في استقدام الخصوم أمام مجلس مكون من الأعيان الكنسيين والعلمانيين في المملكة ، وكان أول المتحدثين مندوبو قنصلية جنوا في صور ، فناشدوا رسول البابا أن يسلم اليهم ، طبقا لتعليمات البابا الحصون والأبراج التي كانت لهم في اقليم سوريا ، واحتلها البنادقة والبيزيون . واستجاب الرسول البابوي لهذا الطلب ، وأرسل للحال الى يوحنا واندولو ، بايل البندقية ، ويوحنا درايريوس Yean Drapperius قنصل البيزيين دعوة للحضور أمامه وأمام الأعيان في ١٣ من يناير ، وفي ذات الوقت أنذرهم شفاها وكتابيا بأن يسلموا اليه في هذا التاريخ الأماكن المذكورة . واستجاب الموظفان لهذا الاستدعاء ، ولكن لم يوافق أي منهما على المطالب ، وراحا يسوفان منتحلين أوهى الأعداء (٥) . وبالإجمال ، فانا لا نعلم ما اذا أمكن عقد الصلح ، ونحن نشك في ذلك بالنظر الى سوء نوايا المنتصرين . وعلى أية حال لم يطل أمد الهدنة ، ذلك أن الجنويين لم يستسلموا لمصيرهم في سوريا ، ومن ثم تحالفوا مع ميشيل باليولوجس Michel Paléologue لاسقاط الأمبراطورية اللاتينية ، وكان هذا ضربة قاضية على سيادة البنادقة في القسطنطينية ،

Vov. Plus loin le traité de 1288.

(١)

Dandolo, I, c.

(٢)

Dandolo, I, c. ; Da Canale, p. 474, 476.

(٣)

Contin, de Guill de Tyr, p. 444 et s.; Taf, et Thom. III, 38; Paoli, (٤)

Cod. dipl. I, 173 et ss.; Charles de Notre de Norte-Dame de Josaphat; I, c. p. 106 et ss.; Ducange, Familles d'Autremer, p. 371, 788; Mas-Latrie, Hist. de Chypre, I, 447.

Sauli, Colonia dei Genovesi in Galata, II, 190-204; Taf. et Thom. (٥) III, 39-44.

وازدادت الاحقاد شدة بين الخصمين . ولم تعد سفن البنادقة والجنويين تتلاقى فى عرض البحر دون أن تتقاتل ، ولم تعد الأساطيل التجارية تجرؤ على الخروج من جنوا أو بيزا دون حراسة قوية ، والا وقعت فريسة لسفن العدو الحربية . وكان البنادقة يغيرون على الموانئ التى يرتادها الجنويون ويحاصرونها ويشعلون فيها الحرائق ، والعكس بالعكس .

ومنذ أن اضطر الجنويون الى الخروج من عكا ، جعلوا مركز قيادتهم فى صور ، وكان فيليب دو مونفور قد أبدى لهم الكثير من دلائل الصداقة ، وزاد من تقريبيهم الى شخصه ، وضمهم الى مدينته بمعاهدة تحالف هجومى ودفاعى ، وبمقتضى هذه الاتفاقية أصبحت صور ليس فقط مقرا لقناصلهم العموميين فى سوريا ، ولكن أيضا المرفأ الوحيد الذى يتزود بالبضائع عن طريق أساطيلهم التجارية فى سوريا . وقد سبق أن ذكرنا أن الأمير قد منحهم فى هذا الظرف توسعا كبيرا فى اختصاصات محاكمهم ، ولم يكن ذلك التوسع الا جزءا من المزايا التى منحها اياهم على سبيل المعاملة بالمثل : فهو لم يكتف بالتصديق على حقهم فى ثلث ايرادات الميناء ، وهو الحق الذى كانوا يتمتعون به منذ سنين عديدة ، ولكنه منحهم أيضا جزءا من الضرائب المفروضة على البضائع التى تمر بصور مرورا عابرا لتصدر الى الغرب ، وأعفى ربانة السفن والتجار الجنويين مستقبلا من كل ضريبة تستحق عند الوصول أو الرحيل ، وكل رسم انتاج على المبيعات والمشتروات ، ولم يكن عليهم أن يدفعوا سوى رسم قدره كاروبل ونصف عن كل دينار بيزنطى من قيمة البضائع التى يدخلونها فى حوانيتهم بصور ، أو يعيدون تصديرها عن طريق البر (١) . وفى هذه الظروف كانت صور المركز الرئيسى لتجارة الجنويين ، ومقر أمير متحد معهم بروابط وثيقة من الصداقة ، كانت هدفا ملائما لغارات أساطيل البندقية . وفى عام ١٢٦٤ استولى اندريه باروتشيوي André Barocio الأميرال البندقى على سفينة جنوية محملة قطن ، على مرأى من صور ، وأراد الجنويون أن يخلصوا السفينة من قبضة البنادقة ، الا أن فيليب مونفور أثناهم عن ذلك ، ووعدهم بتعويض يساوى ضعف ما فقدوه ، يأخذه من أملاك البندقية التى وضعها تحت الحراسة كما عرفنا . وردا على ذلك ، شرع باروتشيوي فى حصار المدينة بمعونة قوات أرسلها بنادقة عكا ، الا أن السكان ، يساندهم أشراف عكا ، دافعوا دفاعا شديدا لدرجة أن قرر العدو أنه من الأسلم له رفع الحصار (٢) . واستمر

(١) رأينا فيما سبق أن الدينار (البيزنطى - besant) ينقسم الى ٢٤ كاروبل (Caroubles)

ولزيد من التفاصيل عن النظام النقدي عند الدول الصليبية انظر البحث الذى أجراه :
— M. de Mas-Latrie : Notice sur les monnaies et les sceaux des rois de Chypre : Bibliott. de l'école des Chartes : Série I, V, p. 124.

Is Archiv de l'Or. lat. II, 2, p. 225-230.

العداء بين صور والبندقية طوال حياة فيليب دو مونفور (١) . وقسما كبيرا من حياة يوحنا ابنه وخليفته (٢) . وواصل يرحنا هذا سياسة أبيه الخاصة باغتصاب أملاك البنادقة وحقوقهم ، وتمادى فى ذلك الى درجة أنارت حقن البنادقة ، الى أن حدث ذات يوم فى عام ١٢٧٣ حين كان فى عكا ، أن احتج البابل البندقي بينرو زينو Pietro Zeno على وجوده فى المدينة ، وقام بعدة مساع حتى تمكن من إبعاده (٣) . وأخيرا تم الصلح فى عام ١٢٧٧ ، وأعاد سيد صور الى البنادقة نصيبهم من ثلث المدينة ، وبعمامة كل الأموال التى كانت تمتلكها الجالية والأفراد ملكية شرعية ، ووعد بترميم كنيسة سان مارك وبرج أجراسها على نفقته الخاصة ، وكذا رواق البنادقة ، وإعادة تشييد المباني التى تهدمت . كما نعهد بأن يدفع على أقساط سنوية اجمالى الايرادات التى استلمها هو وأبوه منذ مصادرتها . وبالمناسبة نفسها ، أعطى محاكم البنادقة القنصلية الاختصاص فى القضاء المدنى والجنايى دون قيد ، وصدق على الاعفاء من الضرائب على الأموال والبضائع . وضمانا لدوام السلام ، تم الاتفاق على ايداع كفالات كبيرة ، وتعيين قضاة عرفيين (محكمين) للفصل فى الخلافات التى قد تنشأ (٤) .

وفى حين كان البنادقة يعاملون مدينة صور على أنها عدوة لهم ، كانت عكا فى رأى الجنويين المركز العام لقيادة عدوهم . واذا سلمنا بالمعنى الذى يتجلى فى بعض عبارات المؤرخ العربى ابن الفرات (٥) ، فان فيليب دى مونفور والجنويين قد تبادوا فى ابداء مشاعر الكراهية لثلك المدينة حتى انهم اتفقوا مع السلطان بيبرس على أن يشتركوا فى الاغارة عليها . ولكن حين وقف بيبرس تحت أسوار المدينة ، انتظر حضور حلفائه دون جدوى ، ومن ثم اضطر للعودة دون أن يفعل شيئا . وفى أعماق هذه القصة شئ من الحقيقة ، يشهد بذلك مصاد، أخرى (٦) . وفى عام ١٢٦٣ عسكر بيبرس زمنا طويلا تحت أسوار المدينة ، وشنت عساكره معركة دامية ضد السكان ؛ الا أن الحملة التى شنّها السلطان وقتئذ كانت غايتها حصون مدينة صفد (٧) ، وليس عكا ؛ ومن ثم فانه مر فقط أمام عكا . ولما ابتعد عنها ، واصل طريقه الى صفد ، ولم يكن بذلك متقهرا .

Annal. Jan. p. 251, 260; Paoli I, 191, 168 et ss.

(١)

— مات مقتولا فى عام ١٢٦٩ .

(٢) حكم من ١٢٧٠ الى ١٢٨٣ . السنة التى توفي فيها :

— Sanut. p. 229; Mas-Latrie I.c. p. 472.

Contin. de Guill. de Tyr, p. 464; Sanut. p. 225.

(٣)

Taf. et Thom. III, 150 et ss.; Dandolo, p. 381-393; Contin. de Guill. de Tyr, p. 478.

(٤)

Bibliothèque des croisades, par Michaud-Reinaud IV, 489, 499.

(٥)

Contin. de Guill. de Tyr, p. 446 et s; Makrisl, Hist. des sultans

(٦)

mamlouks, trad. par Quatremère I, 2, p. 27 et s.

Voy. la note de Weil, Gesch. d. Chalif. IV, 47.

(٧)

وتبعاً لذلك لا يكون من الصواب أن نسلم دون تمحيص بفكرة وجود اتفاق بينه وبين الجنوبيين وسيد صور . ولهذا التحفظ ما يبرره . لأن المؤلف الوحيد الذي أشار الى هذه الواقعة أثبتها في عصر بعيد عنها توفي عام ١٤٠٥) ، ثم اننا لا نملك النص الأصلي للتاريخ الذي كتبه . كذلك يقول السيد رينو M. Renaud ان الفقرة التي تقوم عليها تلك القصة كلها تتألف من عبارات شديدة الغموض (١) (*) .

ثم انه لا أهمية لكل ذلك ؛ فالأبواب مع الأسف الشديد أن الجنوبيين مضوا بأنفسهم يغيرون على عكا في وقت كان فيه السلطان يترقب فرصة ملائمة للاستيلاء على المدينة . فالواقع أنه حدث في عام ١٢٦٧ أن ظهر الأدميرال الجنوى كشيتر جريمالدى Lucchetto Grimaldi أمام المدينة ، واستولى على برج موسى Mouches (برج الذباب) القائم على البحر ، وسد مدخل الميناء ، وأجبر السفن التي كانت تريد الدخول أن تتجه الى صور ، ولم يترك سفينة تخرج من الميناء دون أن يطاردها ويقبض عليها ويحرقها . وبعد وقت ما ، انصرف هو نفسه الى صور ، وترك قسماً من أسطوله تحت إمرة باسكوييتو مالوفى Pasquetto Mallone الذي واصل الحصار الى أن اضطر الى الانسحاب أمام أسطول بنديقى يقوده ياكويو داندولو ، ومارينو موروسيني ، ومضى ليلحق برئيسه في صور (٢) .

وانتهى هذا الصراع الشرس بين البندقية وجنوا ، والذي كان شرا وبيلا على مدينتي صور وعكا في عام ١٢٧٠ بعقد هدنة طويلة الأمد (عقدت أولاً لخمس سنوات ، ثم موت سنتين) (٣) . وكان البابا كليمنت الرابع قد بدأ مساعي الصلح ، وحققها الملك القديس لريس (٤) . وفى غضون هذه الهدنة ، ان لم يكن قبلها (٥) استرد الجنوبيون على الأقل ملكيتهم لحيهم القديم في عكا ، والذي احتله البنادقة . ومع ذلك فمن ١٢٧٢ الى ١٢٧٥ اتهموا بايل البندقية القائم بهذه المدينة بأنه لم يراع تماماً شروط الصلح ، وأنه ما زال يحتفظ ببعض المنازل التي كان لهم حق ملكيتها (٦) . ولكن البيزيين كانوا هم أيضاً ولم يزالوا يشغلون قسماً من الاقليم الجنوى ، وكان هذا حساباً خاصاً بينهم (وبين

- (*) (يفصّل بهذا المؤلف الوحيد ابن الفرات - المترجم)
 Wilken, Gesch. der kreuzz, VII, 463 et ss. ; M. de Mas-Latrie, (Hist. (١)
 toire de Chypre, I, 396, 441 ; M. Röhrich, dans les Archiv, de l'Or.
 lat, II, p. 375.
 Da Canale, p. 453-553 ; Dandolo, p. 374 ; Annal, Jan. p. 260 et s. ;
 Cotin, de Guill. de Tyr, p. 455 et s.; Sanuto, p. 223; Mas-Latrie (Hist.
 de Chypre, I, 396, 418).
 Da Canale, p. 628, 630; Dandolo, p. 380, 389. (٣)
 Wilken, op. cit. VII, 511. (٤)
 Mas-Latrie (l.c. p. 422). (٥)
 Da Canale, Nuova storia di Genova, II, 300; 111, 179. (٦)

الجنوبيين) ، ولم تلبث الفرصة أن سنحت لتسوية هذا الحساب . وفى عام ١٢٨٢ نشبت حرب جديدة بين جنوا وبيزا بشأن كورسيكا ، وتكبدت بيزا فى موقعة ميلوريا البحرية المشهورة (٦ من أغسطس ١٢٨٤) هزيمة ساحقة جعلتها قاب قوسين أو أدنى من الهلاك ، ودمرت الى الأبد قوتها . وامتدت آثار هذه الحرب الى عكا ، واستمرت ثمة بضعة سنين بعد المعركة الفاصلة .

وفى عام ١٢٨٧ ، أغار الأميرال الجنوى رولاندو اسكيري Rolando Ascheri على اقليم البيزيين فى عكا . الا أن هذه الاثارة لم يترتب عليها سوى حدوث بعض المناوشات (١) . وفى عام ١٢٨٨ اضطر البيزيون أخيرا ، وقد نفذت مواردهم أن يقبلوا عقد صلح مهين ، وتضمنت معاهدة الصلح بنودا هامة بخصوص مدينة عكا . كان البيزيون فيما مضى قد اشتركوا فى هدم برج الجنوبيين ، ومن ثم اشترط صراحة فى المعاهدة أنه يجب عليهم ، تكفيرا عن هذه الاساءة أن يهدموا بأيديهم البرج العالى الفاخر الذى شيده فى حيهم لينافسوا به الجنوبيين ، والذى كان مصدرا للنزاع بين الأمتين : وكان عليهم أن يمتنعوا بناتا عن بناء أى برج عادى أو حصين فى حيهم ، أو شراء أى برج من أى شخص أو جالية . وكانوا قد احتلوا فى عام ١٢٥٨ قسما من الحى الجنوى ، ذلك القسم الذى كان به البرج الذى هدموه ، وكانوا قد أقاموا به العديد من المباني ، من بينها سور ، فكان عليهم أن يتعهدوا بهدم هذه المباني فى مهلة قدرها سنة ونصف ، وأن يردوا القسم الذى كانوا قد احتلوه فى حى الجنوبيين الى ملاكه الأصليين بالحالة التى كان عليها قبلا فى عام ١٢٥٨ ، والا يقيموا أى بناء فى اقليم جنوى (٢) .

يمكن القول بأن الحرب التى بدأت بخصوص دير سان ساباس لم تنته الا بعقد هذا الصلح . نعم . انتهت هذه الحرب ؛ الا أن العدو كان يدق على الأبواب ، وفات الاوان لجنى ثمار هذا الصلح . وكانت قيصرية ، وأرسوف (١٢٦٥) ، ويوبيه ، وأنطاكية ، وجبيل (١٢٦٨) قد وقعت فى أيدي بيبرس سلطان مصر . أما لاوديكيا التى اسنردها المسيحيون منذ قليل ، فقد أمست مهددة من جديد . وهناك قضى السلطان قلاوون خليفة بيبرس على سيادة المسيحيين باستيلائه على قلعة البحر : ولم يكن هذا الفتح سوى تحقيق لمشروع قديم يستهدف ارضاء تجار الاسكندرية الذين كانوا ينظرون بعين الحسد الى ازدهار تجارة هذه المدينة (٣) . وهى نقطة هامة فى تاريخ التجارة ؛ ولما كانت هذه المعلومة ثابتة فى مصدر عربى ، فانها تستحق أن نتوقف عندها

Annal. Jan. p. 317.

(١)

Lib jur. II, 13E-138; voy. aussi 116 et s.

(٢)

Michaud-Reiaud, Biblioth. des crois. IV, 560 et s.

(٣)

قليلًا : ذلك أنها في الواقع تثبت أن لاوديكيّا كانت على علاقات واسعة بالشرق ، عن طريق حلب ، وبلاد حوض الفرات ، وأن التجار الغربيين كانوا دائمًا يأتون إليها طلبًا للتوابل وغيرها من السلع . وحتى تثار إلى هذا الحد غير الاسكندرية كان لابد من أن تكون تلك المدينة (لاوديكيّا) مركزًا هامًا لتجارة الجملة ؛ وهذه نقطة سوف نعود إليها في خصوص التجارة التي كانت تمارسها البندقية مع حلب ، وهي تجارة كان معظمها يمر بمدينة لاوديكيّا .

وكان من شأن استيلاء المسلمين على هذه المدينة أن قضى على آخر أثر لامارة انطاكية القديمة . وما لبثت كونتية طرابلس أن لقيت المصير ذاته . وكان الكونت بوهموند الثامن قد توفي في شهر أكتوبر ١٢٨٧ ولم يترك ولدا ، وطالب بتركته كل من أمه سيبيل Sybille ابنة أحد ملوك أرمينيا ، وأخته لوتشيا Lucie (١) المنزوجة من فارس فرنسي يدعى نارجو دو توسي Nargaud de Toucy : واعترف أهالي طرابلس بلوتشيا وريثة شرعية ، غير أنها كانت وقتئذ في الغرب ، وقبل حضورها ، انقضى وقت كاف انقلبت فيه الأمور في غير صالحها . ذلك أن بارتولوميو امبرياكو (٢) Bartolommeo Embriaco سيد جبيلة القائم بأعمال الحكومة بالنيابة ، كان قد دبر تحويل الكونتية لمصلحته ، فبدأ بالتضالج مع أهالي طرابلس ، وشعر بضرورة عقد محادثات مع الخارج ، فسعى إلى الحصول على مساندة قلاوون (٣) سلطان مصر من جهة ، وجمهورية جنوا (٤) من جهة أخرى ، وبذل لهما أجمل الوعود . فبالنسبة إلى جنوا ، تعهد بين ما تعهده لها بأن يرد لها ثلث مدينة طرابلس ، الثلث الذي كان لها الحق فيه منذ بداية الغزو . وبالفعل بعث الجنويون إلى طرابلس في عام ١٢٨٨ الأميرال بنديتو زاكاريا مزودا بسلطات واسعة ، ومعه سفينتان حربيتان ، وضم إليه في الطريق ثلاث سفن أخرى . وكانت الأميرة لوتشيا وقتئذ تحت أسوار طرابلس على رأس قوات كبيرة ، وكانت قد آتت معها من الغرب بخمس سفن حربية ، ضمت لها أربعة أخرى منذ وصولها إلى سوريا ، منها واحدة فينيسية وواحدة جنوية . وكانت المدينة توشك على الاستسلام ، إلا أن وصول زاكاريا زود أنصار سيد جبيلة بعزم جديد ، فاضطرت لوتشيا أن تتقهقر . ولم تتضمن المعاهدة المبرمة بين الأميرال وبين بارتولوميو كل الوعود التي قدمها الأخير ، ولكنه مع ذلك ضمن

Lignages d'outremer, p. 447 ; Minieri Riccio, I grandi uffixi del regno di Sicilia p. 29. (١)

Sanut, p. 229 ; Michaud-Reinaud, Biblioth. des crois. IV, 561 et s. (٢)
Not. et extr. XI, 47; Weil, Gesch der Chalif. IV, 161; les Annal. Jan. p. 322.

Aboul Mahasin, dans Weil, op. cit., IV, 161 et s. (٣)

Annal. Jan. p. 322. (٤)

لجنوا توسعا فى سلطتها وأملاكها ، وكان أول نتائجها أن بعثت حكومة جنوا للتو الى طرابلس موظفا يحمل لقب بودستات (١) . وما لبث زاكاريا أن اعترف بأن بارتولوميو لم يكن فى عزمه أن يوفى بتعهداته ، وهذا ما أكده بنفسه ، وحملنه خيبة الأمل على أن يتقرب من لوتشيا (١٢٨٩) ويجرى معها تسوية نهجى تفصيلها (٢) .

ولم تأت أية واحدة من هاتين المعاهدتين لجمهورية جنوا بالمكاسب التى كانت تنتظرها . ولم يمض على توقيعهما سوى وقت قصير حتى أقبل فلاوون ، وحاصر طرابلس ، ونسى الأيرال الجنوى كل المآسى التى كابدها فى هذه الناحية ، وهرع الى نجدة الموضع ومعه البيزيون والبنادقة ، ولكنه لم يستطع أن يمنع سقوطه فى أيدي المصريين (٢٧ أبريل ١٢٨٩) (٣) ، واكتفى بانقاذ السكان ومساعدتهم فى الانتقال الى جزيرة قبرص . وكان أهالى طرابلس على وشك أن يتلقوا مددا آخر من جهة لم يكونوا يتوقعونها دون شك ، تلك هى مستوطنة حيفا الجنوبية التى جهزت ثلاث سفن حربية حين بلغها نبأ الخطر الذى يتهدد طرابلس ، وأرسلتها تحت امره قنصلها باولينو دوريا Paolino Doria لنجدة مواطنيه ، ولكنه لسوء الحظ وصل متأخرا . وانا لنعلم من قبل تعلق هذه المستوطنات بوطنها الأصلي . وهذا مثال طيب لتعلقها بعضها ببعض (٤)

وأخيرا ، فى ١٨ من مايو ١٢٩١ ، سقطت عكا الحصن الرئيسى للدول الصليبية ، وكانت مهمة الدفاع عنها موكولة أساسا لهيئات الفرسان الدينية ولكن كان ينقصهم شيثان : الاتحاد فيما بينهم ، وسلطة كافية لفرض الطاعة على الغير . وتسجل الوقائع فى هذا الخصوص عدم التناسق بين البنادقة والبيزيين (٥) . على أن سكان الأحياء التجارية تحملوا بحماسة قوية كل أعباء الدفاع والخدمات الليلية (٦) . وقد أثنى البعض على شجاعة البيزيين وكفاءة آلاتهم الحربية (٧) . ولم يقل المؤلفون الذين تركوا لنا قصة هذه الكارثة كلمة واحدة عن الجنوبيين ، والسبب على ما يبدو بوضوح أنهم منذ أن هاجروا الى صور لم يعودوا أبدا الى عكا فى جموع كبيرة . وعندما اقتحم العدو المدينة كان

Ibid, p. 326.

(١)

Annales génoises, texte donné par Pertz, p. 322,323 et s.

(٢)

(٣) بعد بضعة أيام لقيت نين وبترون نلس المصير الذى لقيه العاصم . انظر :

— Wilkeu, Gesch. der Kreuzz., VII, 706; Weil, Gesch. der Chalif., IV, 163. Annal. Jank. p. 324.

(٤)

Relation d'Assenius dans Murat., SS. XIII, 1183.

(٥)

Le Magister Thadeus, de Naples, dans son : Historia de desolatione

(٦)

et conculcatione civitatis Acconensis éd. Riant), Genevoo 1874, p. 27.

Amadi, dans Mas-Latrie, Hist de Chypre, I, 489.

(٧)

المستوطنون الذين ينتمون الى الأمم التجارية أول من فروا ، وهرعوا الى السفن لينقذوا أرواحهم وأموالهم(١) . ولما لم تكن المدينة محاصرة من ناحية البحر ، فان الذين أعوزتهم الارادة أو القدرة على الاشتراك فى الدفاع ، وجدوا أمامهم متسعا من الوقت للفرار حاملين أمعتهم الى قبرص أولا ، ومنها الى الغرب . لذلك لم يجد العدو فى المدينة غنيمة ثمينة(٢) . على أن التجارة الغربية حين فقدت عكا ، فقدت بها سوفا فسيحة ، مزودة على الدوام بوفرة من السلع المطلوبة النادرة ، وذلك لأمد طويل ، لأن العدو دمر المدينة تدميرا . ومنذ هذه اللحظة كف المسيحيون فى المدن التى مازالت حرة فى مملكة بيت المقدس وكونتية طرابلس عن ابداء مقاومة لا جدوى منها ، ومن ثم جلوا عن صور ، صيدا ، وبيروت ، وطرطوس ، وجبيل دون أية مقاومة .

وانتهى كل شيء بالنسبة الى الدول الصليبية ، وأمسى الدمار الذى كان يتهدها زمنا طويلا حقيقة واقعة . ولا مجال هنا للاستفاضة فى ذكر أسباب هذا الانهيار ، ولكننا نشير من بين هذه الأسباب الى النصيب من المسؤولية الذى يقع دون شك على كاهل أفراد الجاليات التجارية ، وبخاصة الايطاليين . وقد أوضح ذلك جاك دو فيتري ، اذ كان على علم تام بشئون الأرض المقدسة فى القرن الثالث عشر : فهو يسلم بمزايا الايطاليين ، وبصيرتهم ، ويقظتهم ، ورعايتهم مصالح الدولة ، وصلابتهم فى الدفاع عن حقوقهم ومؤسساتهم ، وقناعتهم التى جعلتهم أكثر من سائر الأمم قادرين على مسيرة الحياة فى الشرق ، وهو يقدر الخدمات التى أسدوها للمسيحية فى سوريا ، بفضل تفوق بحريتهم العسكرية ، ونشاط بحريتهم التجارية التى تكفلت بالنصيب الأكبر من عمليات نقل الحجاج والمؤن والبضائع ، ولكنه يستنكر أيضا تنافسهم الحاد فى مضمار التجارة ، وحبهم للكسب بدرجة الجشع ، الأمر الذى تسبب فى منازعات لا آخر لها ، وحروب أهلية يبتهج لها العدو وحده(٣) . وكثيرا ما بعث أهالى سوريا بشكاواهم الى الغرب ، ووصفوا منازعات الجاليات التجارية الايطالية بأنها شر لا بد أن يؤدى الى خراب المؤسسات المسيحية كلها ، وطالبوا باجبارهم على أن يعيشوا قبل كل شيء فى سلام ، حتى ولو تطلب ذلك حرمانهم من امتيازاتهم(٤) . وقد حمل بعض الحجاج شكاوى من هذا النوع الى فريزيه Frise . وبعد انقضاء زمن طويل على سقوط عكا ، وقف لودلف دى سوديم

Thadeus Neopolitaus, l.c.

(١)

Wilken, VII, 748, 756, 774 not. 129.

(٢)

Jacq. de Vitry, dans Bongars, Gesta dei per Francos I, p. 1085 et s., 1089; le Tractatus de terra sancta, éd. Thomas, p. 15, 31.

(٣)

La Biblioth. de l'école des chartes, 4e série, T. IV, p. 288 et s., 290

(٤)

et ss. : le Mémoire d'Amaury de la Roche, dans Mas-Latrie, Hist. de Chypre, II, 72.

Ludolphe de Sutheim فوق أطلال المدينة ، فلحن تفرق البيزيين ، والجنويين ، واللوبارديين ، تفرقا أدى الى ضياعهم (١) (*) . ومع ذلك ينبغي لنا ألا ننسى أنه اذا كانت الجاليات الايطالية مسئولة عن وقوع الكارثة ، فان جانباً أكبر من المسئولية يقع على كاهل أولئك الذين كانت مهمتهم الخاصة هي الدفاع عن الأرض المقدسة ضد المسلمين ، وقصروا في أداء هذه المهمة ، ومنهم هيئات الفرسان ، بما كان يشيع فيهم من حسد وغيرة ، وكذا البارونات بعصيانهم .

ولم يتأخر العقاب ، وكان قاسياً ، ليس فقط على الأمراء والبارونات الذين جردوا من أراضيهم ، وعلى هيئات الفرسان الذين وقعت قصورهم الحصينة في أيدي العدو ، ولكن أيضاً على الأمم التجارية التي شاركت أحيائها الغنية التي تهدمت في مصير المدن التي نشأت فيها . ومع ذلك لم يقل المستقبل كلمته الأخيرة بشأن الجاليات التجارية في سوريا . فقد أقام الايطاليون في عهد الدول الصليبية علاقات مع دمشق وحلب ، على سبيل المثال ، علاقات لم تنقطع أبداً ، ولم تلبث بيروت أن احتلت مكانة هامة بين الأسواق المشتركة في تجارة الشرق والغرب ، وأصبحت من الموانئ التي يكثر تردد الأساطيل التجارية الايطالية عليها .

فهرس

صفحة

٣	تقديم
٧	مقدمة المؤلف
	الحقبة الأولى : البدايات منذ الفتوحات الكبرى حتى
١١	الحروب الصليبية
١٣	الفصل الأول : عصر جو ستيان وخلفائه
٤١	الفصل الثاني : ظهور محمد (صلعم) وبداية الحروب الصليبية
	الحقبة الثانية : انشاء مستوطنات تجارية على سواحل الليفانت
١٤٣	(شرقى البحر المتوسط)

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٧١٧ / ١٩٨٥

ISBN × - ٠٦٨١ - ٠١ - ٩٧٧ -

عمل موسوعى موثق ومؤصل فى تاريخ الحضارة خلال
حقبة من تاريخنا ، وهى الحقبة التى تخللتها الحروب الصليبية
فى الشرق الأدنى ، ما بين القرنين التاسع والرابع عشر
الميلادى .

ويضم الكتاب بحثا موثقة عن العلاقات الرسمية وغير
الرسمية بين دول البحر المتوسط – على شاطئيه الإسلامى
والمسيحى – شملت التاريخ والجغرافية والاقتصاد والتجارة
والسياسة والثقافة والاجتماع .

ويُعد هذا الكتاب أثرا من آثار المعرفة والتحقيق المنهجى
الحديث للتراث الثقافى ، بجانب قيمته التاريخية والحضارية .